

رَفَع

عبد الرحمن الفيضاني
أسكنه الله الفردوس

فَتْحُ الْوَدُودِ

شَرْحُ الْمُقْصُورِ وَالْمُدْوَدِ

تأليف

الشيخ سيدي الخوارزمي السنيطي

المتوفى عام ١٢٢٩هـ

بمقر نشره مطبع أمان بطن عليه

مأمون محمد أحمد



الناشر

الحاج محمد طن ابيجي

سكوتوت ٠٦٠٢٣٦١٦٤

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥١٦ شارع ورسيد - السلفر

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فتح الودود

شرح المقصور والممدود

تأليف

الشيخ سيدي المختار الكنتي الشنقيطي

المتوفى عام ١٢٢٦ هجرية

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

مأمون محمد أحمد

الناشر

الحاج محمد طنن إغني

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

جميع الحقوق محفوظة

لِلنَّاشِرِ

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

رقم الإيداع

شكرو وتقدير

ولا يسعني هنا إلا أن أقدم شكري وامتناني لأولئك الذين ساعدوني في إخراج هذا الكتاب تصحيحاً ومقابلة وكتابة، وأخص منهم الأساتذة الكرام:

١ - الشيخ بية بن فاليلي (جد أهل).

٢ - الشيخ التلميذ بن محمود.

٣ - الشيخ المهدي بن أبّادى.

٤ - الشيخ عبد الله بن بونة.

فإليهم جميعاً أهدى تحياتي سائلاً المولى لهم دوام الصحة والعافية إنه سميع مجيب.

كما أنى وبنفس المناسبة أقدم كذلك أخلص الشكر للأخوين الأديبين:

١ - السيد محمد محمود بن ودّادى.

٢ - السيد سيد عمر بن سيدنا.

لما بذلاه لى من مساعدة وعون وتقديمهما لى النسختين الخطيتين اللتين كانتا أصلاً للكتاب، راجياً لهما من الله التوفيق والسداد مع الصحة والرفاهية إنه ولى ذلك والقادر عليه.

مأمون محمد أحمد

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين:

وبعد:

فإن مما لا خلاف فيه بين عامة المسلمين أن اللغة العربية ذات ارتباط وثيق مع كتاب الله الكريم وسنة رسول الهدى صلوات الله عليه . إذ لا يمكن فهمهما بصورة جيدة إلا بفهم هذه اللغة وأسرارها وأساليبها، فهي والحالة هذه خير معين على فهم ديننا الحنيف:

لذا فإنني أقدم لك أيها القارئ الكريم كتاب «فتح الودود شرح المقصور والممدود» لمؤلفه الشيخ سيدى المختار الكنتى، لأضعه بين يديك، مساهمة متواضعة فى نشر جانب من تراثنا العربى الأصيل.

وقد بذلت كل جهد ممكن ليخرج سليماً من الأخطاء، إلا أنى لم أوفق كما كنت أرجو وأتمنى، وذلك لأسباب أهمها:

أولاً: اختلاف النسختين اللتين اعتمدت عليهما وكثرة الأخطاء والتبويض والحذف فيهما وإبهام بعض الكلمات.

ثانياً: صعوبة تخريج الأحاديث، لأن المؤلف رحمه الله عندما يورد حديثاً، فقد يورده بالمعنى، وربما بدأ بآخر الحديث أو ألف بين عدة أحاديث وساقها على أنها حديث واحد، وهذا النوع يزيد التخريج صعوبة ويضيف إلى العناء غناءً، هذا مع أن كثيراً من الأحاديث المستدل بها لا توجد إلا فى كتب نادرة كالكبير للطبرانى، وجامع السيوطى الكبير، إلى غير ذلك من الأمور التى تعوق عملية التخريج.

ثالثاً: فى مجال الأعلام، نجد المؤلف رحمه الله يغير بين الاسم والنسبة

والكنية، فعلى سبيل المثال يقول: قال محمد، وفي موضع آخر يقول: قال أبو علي، وفي موضع ثالث يقول: قال الضبى، مع أن الشخص واحد، وهذا على ما يبدو تجنباً للتكرار، إلا أنه يصعب عملية الترجمة.

ومع هذا فالكتاب بالإضافة إلى كونه شرح منظومة محمد بن عبد الله بن مالك، وحل رموزها بأسلوب رصين، ففيه الكثير من المتعة والفائدة، فهو ملء بالدعوة إلى التمسك بالقيم الرفيعة والمثل العليا، إلى جانب الأدب الشيق وشوارد اللغة والقصص المسلية وأخبار الأمم والملوك وأجاويد العرب ونوادرهم، إلى غير ذلك من العبر والحكم والرفائق:

ومع ما تقدم، فالكتاب لا يخلو من ملاحظات، وأهمها عندى:

١ - إيراد بعض الأحاديث الموضوعية أو الضعيفة دون أية إشارة أو تنويه.

وهذا الخطأ الخطير تفشى مع الأسف فى المجتمع الإسلامى من شرقه إلى غربه ولفترات طويلة، ولا تزال آثاره السيئة باقية إلى يومنا هذا.

٢ - الإكثار من الإسرائيليات.

٣ - إيراد بعض القصص الخيالية.

وقد يكون للمؤلف بعض العذر فى هذا إذا علمت أنه عاش وسط صحراء مترامية الأطراف، بعيدة كل البعد عن المراكز الحضارية، ويرغب أهلها فى هذا النوع من الأساليب، ولكل عصر خصائصه. فهو على كل حال مشكور ومأجور إن شاء الله.

منهج التحقيق

أولاً: لقد عولنا في نشر هذا الكتاب على نسختين خطيتين، ثم رجعنا إلى المصادر الأصلية للكتاب حسب الاستطاعة وما وجدنا من خطأ أصلحناه، ومن نقص كملناه.

ثانياً: خرجت أغلب الأحاديث الموجودة في الكتاب معتمداً في ذلك على أقوال كبار علماء الفن ومثبتا قبل الحكم على الحديث أقوال العلماء في كل حديث عند اختلافهم، ونأخذ من ذلك ما ظهر أنه الأصوب والأحوط.

وذلك لأن قضية التصحيح والتضعيف من أصعب الأمور وأكثرها خطورة، لانتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة على السنة أفراد الأمة الإسلامية ناسبين ذلك إليه ﷺ، دونما علم بصحة نسبة الحديث إليه ﷺ على الرغم مما في هذا التصرف من خطورة الدخول في الوعيد الوارد في الحديث المتواتر «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده في النار» وفي رواية «من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار» أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

لهذا الوعيد فقد اعتنيت بالتخريج أكثر من غيره، ولما بلغني أن بعض المحدثين قال لا يجوز إسناد حديث لرسول الله ﷺ، إلا إذا نص على صحة هذا الحديث حافظ من الحفاظ المعروفين، فمن قال: قال رسول الله ﷺ وهو لا يعلم صحة ذلك عن طريق أحد الحفاظ يوشك أن يصدق عليه الحديث المتقدم.

ثالثاً: وضعت أرقام جميع الآيات القرآنية وأثبت كل آية بين قوسين.

رابعاً: وضعت ترجمة لأكثر الأعلام.

خامساً: شرحت كل كلمة أرى أنها تحتاج إلى توضيح.

سادساً: صوبت جميع الكلمات أو الجمل التي يظهر خطأها، ونوهت عن ذلك في الهامش.

سابعاً: نوهت كذلك في الهامش عن كل اختلاف بين النسختين، وأثبت

أقربهما إلى الصواب .

ثامناً: علقت على كل قصة بما يتلاءم معها .

تاسعاً: أصلحت كل بيت شعر ظهر أنه مختل الوزن .

عاشراً: فصلت ورقمت آيات المنظومة وأضفت في الهامش ما سقط على المؤلف من الآيات .

ومع هذا فإنى معترف بالتقصير . ورحم الله الحريري حيث قال :

وإن تجد عيباً فسد الخلالاً
فجّل من لا عيب فيه وعلا

وصف النسخ المنقول منها الكتاب

لقد توفرت لنا عند الشروع في التحقيق نسختان خطيتان :

الأولى: نسخة حديثة نسبياً مملوكة للسيد/ سيدي عمر بن سيدنا، حفيد المؤلف، ويسكن الغرب الموريتاني وتقع في مجلد واحد، عدد أوراقه ٤٦٠ ورقة من الحجم الكبير، تحتوي كل صفحة في المتوسط على ٢١ سطراً ومكتوبة بالخط المغربي القريب من النسخ، وفي آخر ورقة منها كتبت عبارة «وكان الفراغ منه في شهر ربيع الأول عام ١٩٦٠م»، ومع أن خطها جيد وحديث، فإن الأخطاء منتشرة فيها بكثرة، مما حمل على الاعتقاد بأنها إما منقولة من أصل رديء، أو أنها لم تقابل على أصلها .

الثانية: نسخة قديمة ربما كانت مكتوبة في القرن الماضي ومملوكة للسيد/ محمد محمود بن ودادي ويسكن وسط موريتانيا وهي نسخة لوالده الورع، الشيخ محمد ابن ودادي، رحمه الله، وتقع في مجلد واحد، كذلك عدد أوراقه ٤٣٠ ورقة تحتوي كل صفحة في المتوسط على ٢٤ سطراً وخطها مغربي بين الرقعة والنسخ، وجيدة للغاية ومصححة إلا أنها لقدمها ووصول الماء إلى بعض أجزائها ووجود كثير من الأوراق المهترئة فيها، قلّت قيمتها وفشت فيها الأخطاء بسبب ذلك .

ترجمة المؤلف

هو الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي، ولد في عام ١١٤٢ هـ، في مكان يدعى (كثيب أوغال) من الأطراف الشرقية لبلاد شنقيط، جنوب الصحراء الكبرى وفي القسم المعروف (بأزواد) ويتبع إدارياً جمهورية مالي وهي منطقة صحراوية قاحلة لا يوجد فيها الآن عمران بسبب الجفاف السائد في غرب أفريقيا، إلا أنها كانت في عهد المؤلف مليئة بالحياة والنشاط الإنساني.

• نسبه:

ينتسب الشيخ سيدي المختار إلى قبيلة كنتة إحدى القبائل العربية المنتشرة في غرب أفريقيا: موريتانيا ومالي والنيجر وجنوب المغرب والجزائر وحتى السنغال. ويرجع نسبها إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح أفريقيا. والجد الذي سميت به القبيلة، هو الشيخ سيدي محمد الكنتي، وقبره في شمال غرب موريتانيا في محل يسمى (فصك)، وسبب التسمية أن والد هذا الشيخ ويدعى الشيخ سيدي علي بن يحيى تزوج بنت زعيم عشيرة أبدوكل المتفرعة من قبيلة لتونة الكبرى، ويدعى محمد بن العالم بن كنتة، فأنجبت له الشيخ سيدي محمد هذا، ولقب بالكنتي نسبة لجدته من أمه، كما هو الشائع عند كثير من القبائل الصحراوية. فأصبح لا يعرف إلا بالكنتي، وترك هذا الاسم لأولاده من بعده حتى صار علماً على القبيلة.

ولم ينجب الشيخ سيدي محمد الكنتي إلا ولداً واحداً هو الشيخ سيدي أحمد البكاي، وقبره مشهور في مدينة ولاته التاريخية شرق موريتانيا. وهذا أنجب ثلاثة أولاد هم أجداد عامة كنتة الغربيين والشرقيين.

• نشأته:

ولد الشيخ سيدي المختار، في بيئة صحراوية، ونشأ على الطريقة التقليدية للبدو، في وسط ثقافي رفيع المستوى، فقد كانت أسرته وأجداده على جانب كبير

من العلم والصلاح والتقوى، وكانت مخايل النبوغ بادية عليه منذ نعومة أظفاره، يعرف ذلك منه كل المحيطين به ويتوقعون له مستقبلاً زاهراً.

• طلبه للعلم:

درس الشيخ رحمه الله - وهو صغير - القرآن الكريم على أخيه الأكبر وعلى جده لأمه، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره، تآقت نفسه إلى المزيد من المعرفة، فترك أهله وذهب إلى حى قريب منهم وبدأ يتعلم الفقه، ثم انتقل إلى حى آخر، واستمر في تعليم الفقه صابراً على مضايقة الطلاب له لتفوقه عليهم، حتى استوعب مختصر خليل، فاشتاق إلى المزيد من التعليم وانتقل إلى حاضرة المنطقة - مدينة تينبكتو - فوجدها خالية آنذاك من العلم، وأخذ في التجوال حتى وجد ضالته في المربى الكبير وعالم زمانه الشيخ سيدى على بن النجيب، وعنه أخذ جميع مروياته في التفسير والحديث والفقه والأصول والنحو، والبلاغة، فعنه أخذ على سبيل المثال:

١ - فى التفسير:

- ١ - تفسير الجلالين .
- ٢ - معالم التنزيل - للبعوى .
- ٣ - لباب التأويل - للخازن .
- ٤ - المحرر الوجيز - لابن عطية .
- ٥ - تفسير النسفى .
- ٦ - تفسير البيضاوى .

٢ - فى الحديث:

- ١ - الصحاح الستة .
- ٢ - جامع الأصول - لابن الأثير .
- ٣ - الجامع الكبير للسيوطى .
- ٤ - الشفاء للقاضى عياض .

٥ - كشف الغمة للشعراني .

٦ - الترغيب والترهيب للمنذرى .

٣ - فى الفقه المالكى :

١ - رسالة ابن أبى زيد .

٢ - مختصر ابن عرفة .

٣ - جامع الأمهات لابن الحاجب .

٤ - فى النحو :

١ - المقدمة لابن أجروم .

٢ - الخلاصة لابن مالك .

٣ - الفريدة للسيوطى .

٤ - الكافية لابن مالك .

٥ - فى البلاغة :

عقود الجمان للسيوطى .

كما أخذ على الشيخ أند عبد الله الولاى .

٦ - فى الأصول :

١ - ورقات إمام الحرمين .

٢ - جامع الأصول لابن السبكى .

٣ - الكافية لابن الحاجب .

٤ - تنقيح الأصول .

٥ - القواعد للمبجور .

وبالإضافة إلى هذه المرويات، فقد أخذ على الشيخ / سيدى على بن النجيب، الطريقة القادرية وأصول التربية، وهو الذى لعب الدور الرئيسى فى تكوين شخصيته العلمية والروحية فيما بعد.

• حياته:

عاش الشيخ سيدى المختار فى بيئة صحراوية، فى أزواد المنطقة الواقعة شرق موريتانيا، وشمال نهر النيجر، وجنوب الجزائر، وغرب جمهورية النيجر، وهى الآن تابعة لجمهورية مالى، وكانت فى ذلك الوقت من الأطراف الشرقية لبلاد شنقيط، التى تعرف اليوم بموريتانيا.

والسكان الأصليون لهذه المنطقة، هم قبائل من الطوارق المثلثين، وقدمت عليهم هجرات عربية عديدة كانت آخرها فى القرن الثامن الهجرى، والحرب بين هذه القبائل لا تكاد تنتهى إلا لتبدأ، فلا سلطة ولا سلطان إلا للقوة.

فإلى الشرق من منطقة الشيخ توجد قبائل الطوارق المحاربة، مثل قبائل الأييروايلمدن، وإلى الشرق من ذلك توجد إمارة مستقرة هى إمارة بورنو، وإلى الشمال توجد قبائل الهوجار، وهم من المحاربين الأشداء، وإلى الجنوب وعلى امتداد نهر النيجر، يستقر أجناس من الزنوج لهم نظم وحكومات مستقرة نسبياً قبل الغزو الذى قام به سلطان المغرب الأقصى مولاي أحمد الذهبى مع نهاية القرن العاشر الهجرى والذى أدى إلى تفكك الحكومات السوداء الإسلامية التى كانت مستقرة. وأضاف بالتالى إلى المنطقة فوضى جديدة.

وفى الغرب أكثرية من القبائل العربية والإمارات الصغيرة على امتداد الأراضى الموريتانية وحتى المحيط الأطلسى:

والقانون السائد فى هذه المجتمعات خلال فترات متعددة هو قانون القوة، لذلك فالحروب مستمرة، ومن لم يحارب، اعتدى عليه وأصبح تابعاً لمن هو أقوى منه.

وكان السكان ينقسمون إلى طبقات اجتماعية متميزة هى:

أولاً: الطبقة الأولى (العرب):

وهم العرب المحاربون، ويدخل فى هذه الطبقة كل من حمل السلاح وامتهن الحرب سواء أكان من أصل عربى أم لم يكن.

ثانياً: الطبقة الثانية:

وأهلها هم الذين يمتنون العلم، وقد يكون أفرادها محاربين ولكن بدرجة أقل

من الطبقة الأولى، وتسمى (الزوايا). ويدخل فى هذه الطبقة كذلك كل من جعل العلم مهنة له بصرف النظر عن أصله.

ثالثاً: الطبقة الثالثة (اللحمة):

وأهلها هم رعاة الماشية، ويدخل فيها كل من امتن تربية الماشية أو ألبأته الظروف إلى الدخول تحت ظل زعيم لسبب من الأسباب كالجناية، سواء كان أصله عربياً أم لم يكن.

رابعاً: الطبقة الرابعة (الحراطين):

وهم الزوج المستعربون الذين يعتنون بالزراعة .

وإلى جانب هذا التقسيم الطبقي القاسى الذى لا يعرف الفرد فيه من النظام إلا القوة ولا من الحكومة إلا القبيلة. وإلى جانب الحروب المتواصلة بسبب وبدون سبب، كانت هذه الصحراء من القرن العاشر وحتى اليوم مركزاً هائلاً لتدارس العلوم من منطق وبيان ولغة ونحو وتفسير وحديث وفقه، كل ذلك وغيره يدرس فى هذه الصحراء، ومن تحت خيامها تخرج العلماء الأفاضل فى كل المجالات، حقاً إنها صحراء عجيبة ولعلها الصحراء الوحيدة فى العالم التى يوجد فيها هذا الترف العلمى إلى جانب الفوضى.

وفى ظل هذا التناقض ولد وعاش شيخنا موجهاً ومعلمًا ومرشدًا، داعياً إلى الله وإلى تطبيق الشريعة السمحاء باللين وبالبدل وبالوعظ والإرشاد، وأحياناً بالقوة. فتراه متنقلاً فى شرق المنطقة بين قبائل الطوارق يصلح بين هذه القبيلة وتلك، ويعلم هذا الزعيم ويرشد ذلك. كما تراه وبنفس الأسلوب والقوة يجب أرجاء بلاد شنقيط غرباً يلم شمل القبائل المتحاربة ويهيئ سبل الصلح بين الإمارات المتعادية، كما تراه فى الجنوب يفك حصار المدن ويعزل الزعماء القبليين المتمردين باذلاً ماله وجاهه فى سبيل إصلاح حال المسلمين وحقن دماهم، هدفه أن يرى الإسلام قوياً موحدًا، فدانت إليه المنطقة كلها، على الرغم من اتساعها وتنافر سكانها، ودانت له رغبة لا رهبة، ومحبة لا طمعاً؛ تأتيه الوفود من الجميع، يستوى فى ذلك العدو والصديق والعربى والطارقى والزنجى، يزودهم

بماله وعلمه ونصائحه، يعلم الجاهل ويرشد الضال ويطعم المحتاج ويؤمن الخائف، كما تأتيه الرسائل والهدايا من الأمراء الذين يضعون أنفسهم تحت تصرفه، كما هو الحال مع أمير بورنو في الشرق، وأمراء الفلان في الجنوب، والأمراء الزنوج، وأمراء طوارق الأييروايلمدن، كذلك أمراء العرب في شنقيط كالبراكنة والترارزة وأولاد داود وأولاد الناصر، وأولاد دليم وأمراء أيدوعيش، وغير هؤلاء وأولئك.

كما راسله مولاي سيدي محمد بن مولاي عبد الله بن مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى. ولم يزل ذلك دأبه حتى لقي ربه مجاهداً صابراً محتسباً.

• مؤلفاته:

لقد ألف أكثر من ٣٠٠ كتاب، عرف منها قرابة الثمانين، والموجود منها الآن أقل من الأربعين، منها على سبيل المثال:

- ١ - تفسير البسملة.
- ٢ - تفسير الفاتحة.
- ٣ - بلوغ الوسع على الآيات التسع.
- ٤ - نضار الذهب.
- ٥ - نزهة الراوى وبغية الحاوى.
- ٦ - هداية الطلاب.
- ٧ - فتح الوهاب.
- ٨ - الشموس الأحمديّة.
- ٩ - الجرعة الصافية.
- ١٠ - بديعة المنوال.
- ١١ - فتح الودود. (المفاتيح له الآن).
- ١٢ - كشف اللبس.

١٣ - نصيحة المنصف .

١٤ - الأجوبة المهمة .

١٥ - زوال الإلباس في طرد الشيطان الخناس .

١٦ - البرد الموشى .

١٧ - ألفية في العربية .

١٨ - جذوة الأنوار .

وغير هذا من الكتب والرسائل، إلا أن هذه الكتب لم يطبع منها شيء حسب علمي .

• تلامذته:

أخذ عنه خلائق لا يحصون، وأشهر من نقل عنه العلم وعن ابنه الشيخ سيدي محمد في الغرب الموريتاني .

١ - الشيخ سيدي الكبير بن المختار بن الهيبة .

٢ - الشيخ سيدي عبد الله العلوي .

٣ - الشيخ المصطفى بن العربي .

٤ - الشيخ القاضي بن الحاج الفغة .

٥ - الشيخ المصطفى بن الحاج الفغة .

٦ - الشيخ سيدي محمد بن عويسى .

٧ - الشيخ بن أمّنى (المجلسى الزينى) .

٨ - الشيخ بابا الحى بن محمد بن الشيخ (الأبدوكلى) .

٩ - الشيخ المختار السباعى الدميسى .

١٠ - الشيخ أباب بن الطالب .

وغير هؤلاء كثير وكثير .

• وفاته:

توفى رحمه الله يوم الأربعاء الخامس من شهر جمادى الأولى عام ١٢٢٦ هجرية، عن عمر يناهز ٨٤ عاماً، قضاها في التعلم والتعليم والتأليف والتربية. ودفن في مكان يدعى (بو الأنوار) شمال مالى حالياً وشرق موريتانيا، رحمه الله رحمة واسعة، إنه سميع مجيب.

المدينة المنورة في ٢٠/٨/١٤٠٥ هـ

مأمون محمد أحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلف]

وصلَّى اللهُ وسلَّم على سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وسلم تسليماً:
الحمد لله ذي الكرم والجلود، الذي لا شريك له في الوجود، إذ أتخفني بفيضه
المجدود^(١)، حتى تيسر ما قصدته من شرح «تحفة الودود». حسبما طلب مني ذلك
أخ في الله ودود.

والصلاة والسلام على النبي المحمود، المخصَّص بقصر جميع الممدود من أهل
الكفر والجحود.

فجاء بحمد الله وعونه على المنية والمقصود، بل زاد بهاءً وبهجةً على كل شارح
جىء به على المقصور والممدود، إذ جاريت مصنِّفه أبا عبد الله محمد بن مالك،
وطاولته في جميع المسالك. حتى غطى بحرى نهره، واجتاح ثمرى زهره، إلا أن
دهرى لا يوازي دهره، إذ له رتبة السابق، كما أن لى مزية اللاحق.

فأبرزت مخدِّرات عرائسه، والتقطت من قاموس بحره يواقيت نفائسه، وهذبت
ما فيه من دسائسه^(٢) وأجهزت على كل ما أثنخه من فرائسه، فأربيت على كل
شارح يزعم أنه من مكائسه^(٣) إذ جاريته على متون الأعوجيات، حين جاوزه على
البراذن والسكينات^(٤) فلما تحاكت بنا الرُكبان، وظنَّ الجاهل القرب والتداني،
خضتُ به بحر الحقائق والمعاني. فكع^(٥) جواده عن خوض ما رمته، ولم يحم

(١) الواسع العظيم.

(٢) الدسائس جمع دسيسة: دفن الشيء تحت الشيء لإخفائه والمراد هنا الإشارات الخفية الموجودة
بكثرة في المنظومة

(٣) المكائس: مصدر، وهو تمكين النفس من استنباط ما هو أنفع.

(٤) السكينات جمع سكين كجهينة: الأتان الخفيفة السريعة، وسكين كزبير: الحمار السريع الخفيف.
والبرذون دابة الحمل الثقيلة.

(٥) كع: ضعف وجبن.

حول ما حُمَّتْهُ، فحَبَّرَتْ كتابه بآى التنزيل تحبيراً، وطرَّزته بغرائب اللغات تنويراً، فجئت فيه بالمواعظ الهائلة، والغرر^(١) السائلة، والمذاهب المائلة عن الطريق الباطلة، وبحكايات الأمجاد، وروايات الأجواد، ونفائس الأعراب، وغرائب الإعراب، ونُبذ من الآداب والأدباء، وقصص الأنبياء والأولياء، وكيفية بدء الخلق والانتهاء، والزجر عن الظلم والاعتداء، وما يَجْرانُ إليه من البلاء والجلاء^(٢)، ونُكَّت من الترغيب والترهيب، مما يُذيب أو يكاد ذهن اللبيب، ومن غرائب المسائل الفقهية، وبصوص^(٣) نصوص الدلائل العقلية، مما يفوق ويروق، ويوجب على من سمعه أن لا يقابله بالعقوق، ومن الحِكم الطيبة والنفحات الغيبية ما يشوق كل مشوق، وإليه النفوس الزكية تتوق.

ورَتَّبُ طواله وبيَّنت لوامعه، تَرْتِيبُ المنازل الفلكية بالأحاديث النبوية، فَجَرَّيْتُ فيه بَيْنَ الإسهاب والإطناب، وصنَّته عن التطويل المُملِّ، والتقصير المُخِلِّ، والهذيان المُزِلِّ، فصار أذكى من الزبد، وأحلى من الشهد، إذ لا تنقضى نفيسة من نفائسه. إلا أسفرت لك عن وجه عروس من عرائسه. ثم ختمته بشذى مسك سيرته الشريفة والتفجُّع بوفاته المنيفة، وذكر آله وأصحابه، والصلاة عليه وعلى آله.

فجئيتُ فيه من كل ثمرة فقهية أحلاها، ومن كل نفحة صوفية أذكاها، ومن كل حقيقة ربانية أعلاها، ومن كل نبوة أجلاها، ومن كل حكمة قرآنية أشهاها، ومن كل حكاية إسرائيلية أبهاها^(٤).

واختصرته مع ذلك غاية الاختصار، واقتصرت على كثير مما يحصل به الانتفاع كل الاقتصار، ليكون على القدر الكافي، وليشرب منه متناوله المشرب الصافى، حتى يكون لدى العُلَّة^(٥) والعلة كالترياق الشافى، وليكون ساتراً لعورات الجهل

(١) الغرر: جمع غرة: سيد القوم - بياض فى جهة الفرس - أول كل شىء. وهو هنا كناية عن

الحسن الموجود فى الآى والحديث والحكم والروايات.

(٢) الجُلَّى بالضم، جمع جلل، مؤنث الأجل: الأمر الشديد والخطب العظيم.

(٣) البصيص: البريق واللمعان.

(٤) هذا إذا كان فى الإسرائيليات شىء بهى حقاً.

(٥) الغلة: العطش الشديد، تجمع على غلل وهى بضم الغين.

كالثوب الضَّافِي .

ولقد أجاد صاحب المنظومة وأفاد، وسهّل السبيل للسالكين بل زاد، فَلَيْسُ لَكَ القادر إن شاء أو أراد، إذ أتى بها على أسلوب لم يُسبق إلى مثاله ولم يَنسج أحد بعده على منواله، فأتقن العبارة، ودقق الإشارة، حتى صارت أخفى من ديبب النمل على الصفا، بل هي أدق من الإبر، وأرق من الشعر، إذ أكثرها أمثال وحقائق وأحوال - وحقيقة الأمثال الإتيان باللفظ الوجيه على وجه التعجيز - إذ المراد به غير ما يدل عليه صريح لفظه، ولذلك نفى الله علمها عن غير العالمين بها فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] حتى قيل: إن فهمها وتحقيقها على ما وضعت له من نوع الإلهام، بل من نوع الكشف والإعلام.

ومن الدليل على وسع باعه، أن جاء بمنظومته هذه، فألف فيها بين ما ينبغي تأليفه من نوعي المقصور والمدود، فحشاها بأنواع العلوم من القرآن والحديث وعلم التَّصَوُّف والوعظ وأنواع الأدب والفقه واللغة على أوجز عبارة وأدق إشارة، فلا يُنكرُ شذاه إلا مزكوم، ولا يستمرُّ^(١) طعمه إلا محموم، أو معاند غشوم، ولا يحجب عن ضوء شموسه إلا أرمَد أو مطموس البصيرة أكمد^(٢). لكن لما تصعب مسلكه، وعزَّ مطلبه ومدركه، قلت شروحه، إذ توعر عليهم وضوحه، قال الشاعر:

* إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ^(٣) *

فلو أنى تتبعت إشاراته على ما فتح الله به على، لأتيت عليه بدفاتر تقصر دون تناول التزر منها همم أهل العصر لقصور الهمم اليوم عن التتبع لما طال،

(١) يستمر: أى لا يكون مرآ إلا عند المحموم.

(٢) الأكمد: مريض القلب.

(٣) الشاعر هو أحمد بن الحسين الجعفي المعروف بالمتنبى ولد سنة ٣٠٣ بالكوفة ومات عام ٣٥٤ هجرى، وشطر البيت هو:

* وحيد من الخلان فى كل بلدة *

وهو من قصيدة يمدح بها سيف الدولة مطلعها:

عواذل ذات الخلال منى حواسد وإن ضجيج الخود منى لماجد

فانكشمت لذلك على قدر ذلك ليقع الإمتاع بما هو هنا دون ما هنالك .

قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائفي نسباً^(١):

وهم حتى من مذحج انفصلوا عنهم تفرق أيادي سبأ حين أصابهم سيل العرم،
فجاوروا مضر، وحالفوا أسدًا وغطفان، فسموا من يومئذ بالأحلاف، وفي ذلك
يقول الشاعر يمدح الحارث بن عوف وحرمة لما ضمنا الضمانات وتحملا الحملات
في صلح حرب داحس والغبراء:

هما ألفتيا الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعلُ

(الأندلسي إقليماً الجياني وطنًا) وله الرحلة المشهورة في طلب العلم وتحصيل
فنون الأدب، وكان مشهوراً بالزهد، معروفاً بالمروءة والرشد، حج مرات، وجاور
وطاف الشام والموصل وديار بكر والسواد، فلما تجهذ^(٢) قطن جيان حتى توفي بها
رحمه الله وهو من رجال القرن الخامس وقيل الرابع^(٣) له القدم الراسخ في فنون
العربية والأدب وجميع العلوم. لكن أشهر تواليفه ما كان في العربية لاعتنائه
بفنونها؛ لأنه أدرك زمن تغلب العجمة ودخول الأعاجم في الإسلام، ولا سبيل
إلى معرفة حقائق الكتاب والسنة إلا بمعرفة الأساليب العربية والتوغل في فنونها
وإتقان قوانينها.

يروى أن الزندقة لم تكثر حتى أسلمت الأعاجم، واستعجمت العرب، وسبب
ذلك الجهل بلسان العرب، إذ من أعظم معجزاته ﷺ القرآن الكريم، ولذلك
تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله، في حسن تأليفه، وغرابة فصاحته، وغازاة معناه،
وجميل براعته، وجودة بلاغته، وحلاوته وبهجة طلاوته، فجاء الله به على
الأسلوب الذي يأخذ بمجامع القلوب، لا تمجج الأسماع، ولا تملأه الطباع، فلما لم
يكن في وسعهم الإتيان بمثله جملةً، تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله، إذ

(١) في النسختين هنا بياض.

(٢) تجهذ: صار جهنماً، وهو الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء، واجمع جهابذة.

(٣) محمد بن عبد الله بن مالك ولد في جيان قرية من قرى الأندلس عام ٦٠٠ وتوفي في دمشق
سنة ٦٧٢ هجرية وهو قطعاً من رجال القرن السابع، لا الخامس ولا الرابع، ولم يمت بجيان
والله أعلم.

الإتيان بالبعض أسهل في العادة من الإتيان بالكل^(١)، فسجّل عليهم العجز قبل وقوع العجز، ليكون ذلك أبلغ في الحجة، وأظهر في المعجزة، فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فلم يفعلوا كما أخبر عنهم سبحانه، وكانوا أحرص شيء على إبطاله وتكذيبه بما هو من مقدورهم، إذ هم فرسان البلاغة وأرباب الفصاحة. يتعاطون فنونها، ويحققون شئونها، فمنهم الخطيب المصقع، والشاعر المبدع وذو البيان الساحر، فهو فيه كالبحر الزاخر.

فلما علموا أنه ليس من جنس ما تعاطوه من فصيح المقال، تيقنوا أنه من تنزيل الملك الحق ذي الجلال، فأسلم أكثرهم بمجرد سماعه إياه، وأقر المكابر الكافر أنه ليس من جنس كلام البشر، فمنعه من الإيمان النافع الخذلان، والشقاوة السابقة له والحرمان، كأبي طالب، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة.

روى محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً مُطاعاً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش: ألا أقوم إلى محمد فأكلّمه وأعرض عليه أموراً فلعله يقبل منا بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا، قالوا: بلى يا أبا الوليد، وكان النبي ﷺ جالساً وحده، فقام عتبة حتى جلس إلى النبي ﷺ، فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من التوسط في العشيرة، والمكان في النسب، فإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم. وعبت به آهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، فلعلك تقبل منا بعضها، فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، وإن كان هذا رهياً^(٢) تراه لا تستطيع رده، طلبنا لك الطب، وبدلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه أو نعذر، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟

(١) تعريف الكل والبعض، غير معروف في اللغة العربية وينكره قدماء اللغويين.

(٢) الرهئ: جنى يريه كهانة أو طباً، أو يلقي على لسانه شعراً، وأصل الرهئ كغنى بالفتح، وقد يكسر: مس الجن يقال: به رهى من الجن أى مس.

قال: نعم. قال: فاسمع مني، قال: أفعل، قال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حَمَّ
 ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
 بِشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ إلى ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٥] ومضى رسول الله ﷺ فيها
 يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلف ظهره معتمداً عليها
 يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: أسمعته يا
 أبا الوليد؟ قال: قد سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم
 لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس
 إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعتُ
 مثله قطُّ، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، كما تزعمون، يا معشر
 قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه،
 فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن
 يظهر على العرب فعزّه عزكم، ومُلِكُه مَلِككم، وكنتم أسعد الناس به، فقالوا له:
 لقد سحرك يا أبا الوليد بلسانه، فقال هذا رأى فاصنعوا ما بدا لكم^(١).

ويروى أن أعرابياً سمع رجلاً يقول: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فخرَّ
 ساجداً، ف قيل له: لم سجدت؟ قال: سجدتُ لفصاحة هذا القول.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينما هو جالس، إذ قام على رأسه
 بطريق^(٢) من بطارقة الروم يُحسن العربية، فإذا هو يشهد بشهادة الحق، فسأله عمر
 عن سبب إسلامه، فقال: سمعت رجلاً من المسلمين يقرأ آية من القرآن، فإذا هي
 قد جمعت ما جاء به موسى في توراته، وما جاء به عيسى في إنجيله، قال: وما
 هي؟ قال قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]
 فأسلم وحسن إسلامه، وكان بعد ذلك له باع في العلم واجتهاد في العبادة، ذا نية
 وبصيرة وتحقيق.

(١) هذه القصة رواها أبو بكر الأبارى عن محمد بن كعب القرظي وهي موجودة في جميع التفاسير
 بالفاظ متقاربة.

(٢) البطريق، القائد من قواد الروم، وجمعه بطارقة.

• قال رحمه الله (١):

باب ما يفتح أوله فيقصر ويمد باختلاف المعنى

فالمقصور عبارة عما حبس آخره عن ظهور حركات الإعراب فيه من غير بناء فيتسبب عن ذلك ختمه بألف لفظاً قبلها فتحة لازمة، وإنما قلت لفظاً لأنه ليس بألف حقيقية، وإنما هو صفة لما يشاكل الفتحة عند الإشباع، وهو الألف، كما تشاكل النون التَّنوين لقصد التمكين، ولذلك يرسم تارة بألف، وتارة بياء، مراعاة لأصله، وهو فعله أو تثنيته أو جمعه أو مفرد مؤنثه، فإن ظهرت الواو في هذه المواضع، رسم ألف المقصور ألفاً، وإن ثنى أو جمع بواو أو ياء معاً، حمل على الأغلب منهما، فإن لم يكن له شيء من ذلك اختبر بالإمالة والتفخيم، فالمال يرسم بالياء، وغيره بالألف، ويرسم من ذوات الياء بالألف ما أضيف، كهذا الله، ويرسم بالألف باجتماع ياءين ما كان كالحياء والزكا، ويرسم ألف ما كان كهوى ياء لظهور الياء في فعله، وهو هويت بكسر الواو، ولأن ذلك يدل على أن الألف في الرسم ياء.

وهذا التفصيل إنما يعتبر في المقصور الثلاثي، وهو الغالب، وأما الزائد على الثلاث منه، فيرسم بالياء وإن انقلبت ألفه عن واو، لأن أقوى دليل على أن أصله

(١) بدأ الشيخ رحمه الله هنا في أول باب من المنظومة وترك مقدمتها واستكمالاً للفائدة أثبتتها وهي:

بدأنا بحمد الله فهو سناء	وللنطق منه بهجة وبهاء
وأهديت مختار السلام مصلياً	على المصطفى الموصى إليه شفاء
وبالآل والأصحاب ثبتت مثلياً	بخير الثنا إذ هم به جدراء
وبعد فإن القصر والمد من يحط	بلفظيهما تستنبه النبهاء
وقد يسر الله انتهاج سبيله	بنظم يرى تفضيله البصراء
له تحفة الودود تسمية فقد	تأتى بهذا للمراد جلاء
حوى كل بيت منه لفظين وجها	بوجهين في الحكيم فهو ضياء
دعا فأجابته المعاني مطيعة	وقد كان منها منعة وإباء
وها أنا بالنسوى واف وإنما	علامة صدق العازمين وفاء
ويا رب عورتاً فالعنان مؤيد	وما لامرئ إن لم تعنه كفاء

من الواو هو ظهورها في الفعل الثلاثي، وذلك مفقود فيما زاد على ثلاثة أحرف من الأفعال، نحو أغزيت، واستغزيت، وغازيت، لأن الياء في هذه الأفعال أصلها واو، بدليل الغزو، وعلة انقلاب الواو ياءً في هذه الأفعال وقوع الواو في مضارعها إثر كسرة، وهو عند العرب مستقبح، ووقوع الواو إثر كسرة كوقوع الضمة بعد الكسرة، إذ الواو متولدة من الضمة، والخروج من كسرة إلى ضمة ثقيل، وكذلك الخروج من الكسرة إلى ما يتولد من ضمة وهو الواو، فترك من أجل فتحة، وهو الموجب لقلب الواو ياءً.

فإن قلت: إنما وجد ذلك في المضارع فقط، فلم حمل عليه الأمر والماضي؟

قلت: لقربه من المصدر الذي هو أصل الجميع، ولمضارعة الاسم واعتباره في البنية، وكثرة دورانه على المعتربات من قواعد الأصول، فتقول: غزا يغزو غزواً، فاتفق المضارع مع المصدر في رد اللفظ إلى أصله وبقي الماضي ملازماً لما دعا إليه التخفيف ونفي الاستتقال ولو خالف أصل البنية، فإذا وصلته بضمير رفع بارز متحرك، قلت: غزوت، وكسوت، وقسوت، وصبوت، ودنوت، وغدوت، وحبوت، بخلاف نوى وثوى وعتى^(١)، فإنك تقول في ذلك ومثله ثويت، ونويت، وعتيت، وبغيت، وعسيت، فإذا جمعت في الأول، قلبت الواو ألفاً، كما في مواضعها، فتقول: غزاة في جمع غازٍ، وغدوات في جمع غداة، فلم يعتبر الماضي في حالتيه، بل اعتبر الجمع والمضارع، وكذلك كساء وصباة، ولذلك حمل الماضي والأمر عليه، فيرسم آخر المقصور المبني منها بالياء من أجل التلظظ بها في فعله، وما ليس له فعل يحمل على ما له فعل في الرسم، كالهناء، فإنه يحمل على ما له فعل كالحبا، إذ هو مشتق من الحباء أو الحبو، وهو الإخفاء والسكوت. قال الأعرابي للنبي ﷺ: خبات لك خبيئاً قال له النبي ﷺ: إني لست بكاهن، فقال له الأعرابي: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: أرأيت إن دعوتُ تلك الشجرة فأقبلت تسعى، أتعرف أنى رسول الله؟ قال: نعم، قال له

(١) عتا: استكبر وجاوز الحد فهو عاتٍ، ويجمع على عتاة وهو واوى ويائى، والمصدر عتواً وعتياً، واوى، ولا يكتب إلا بالألف، ولعل الشيخ يقصد عنى بالنون التي تكتب بالياء لا عتا بالتاء، والله أعلم.

أذهب إليها، وقل لها: إن رسول الله يأمركِ أن تُقبلي إليه، فأقبلت . . . الحديث .
أو هو من خبا يخبو: إذا خمد فنام، لأن الإنسان إذا نام فقد خبا، أى خمد،
كما أن النار إذا خمد لهبها يقال لها: خبت .

وما تمحضت فيه الياء من نوع المعتل يقال له: منقوص، قيل: لنقص حرف الياء
المعوض منها التنوين فى غير النصب، وقيل لقصره عن رتبة صاحبيه كقاضٍ،
ورامٍ، وداعٍ، وناعٍ، وغواشٍ، وباعٍ، وطاغٍ، ويقال لها حروف اللين، أى
الضعف، لأنها ليست بحروف عمدة كما قال المبرد، ويقال لها حروف العلة،
وهى ضد الصحة، لكونها بالتقدير تمنع أو آخر الكلم من ظهور علامات الإعراب
ظهوراً يرى ويسمع، فما كان منها على الألف سمي تعذراً، وهو ما لا يوجد
البتة، وما كان على واو أو ياء سمي استثقلاً، لصحة وجوده والنطق به، لكن مع
الثقل لكون ذلك لغة لبعض العرب، وهى لغة رديئة، فإذا كانت العلامة خفيفة،
ساغ ظهورها على الواو والياء لخفة الفتحة، وخفة حرفى اللين، إذ اجتماع
الخفيفين يودى إلى إسقاط الكلِّ، بخلاف الألف لشبهه بحروف الإمالة وتمازرتبه
فى اللين، لكونه يمد تارةً، ويقصر أخرى .

فإن قلت: لمَ لمَ يكن خفيفاً كالواو والياء، وهما ينشآن عن حركتين ثقيلتين،
وهو ينشأ عن حركة خفيفة؟

فالجواب: أنه صار وصفاً لحرف هو عمدة الحروف التى يعتمد عليها، إذ
الحروف كلها تألفت عنه، ولذلك سمي ألفاً، فاكتسب بذلك عدم الخفة، إذ
للصفة ما لموصوفها من الحكم . قال الشاعر:

أربع بها تأله قلبى واست	نارت بها هموم سرى
ألف قد تألف الكون منه	ثم لام إلى الحقيقة تسرى
ثم لام مخصوصة بالمعانى	ثم هاء بها حياتى وسكرى

وقيل: إنما ظهرت الفتحة على الواو والياء دون الضمة والكسرة، لمجانسة
الفتحة والواو والياء، لأنهما حرفان هوائيان، كما أن الفتحة حركة هوائية، إذ إنما
سميت الفتحة فتحة، لانفتاح الشفتين عند التفوه بهما، وسميت الضمة ضمة

لانضمام الشفتين عند النطق بها، وسُميت الكسرة كسرة لانكسار الحلقوم عند استخراجها، فمناً كلتا الحركتين من الشفتين، فتذهب الضمة صاعدة، ولذلك سُميت حركة إعرابها رفعاً، وتذهب الكسرة منخفضة نحو الحلقوم، ولذلك سُميت حركة إعرابها خفضة، فالضم والفتح والكسر والسكون أصول، والرفع والنصب والخفض والجزم فروع، إذ هي أوصاف لأحوال الكلم حال الانتقال من الأصول إلى طوارئ انتقالات الإعراب بالعوامل الداخلة عليه لفظية كانت أو معنوية، فإذا بقي الكلم على أصله من غير موجب انتقال، فلا رفع ولا نصب ولا خفض ولا جزم.

والحاصل أن التوغل والإسعان في هذه المباحث، يخرج بنا عن قصد الاختصار، فمن أراد شفاء الغليل، فليُنظر في شارح التسهيل شفاء العليل، يرى من ذلك العجب العجائب.

وأما المد، فهو ختم للكلمة بهمزة قبلها ألف لازمة، في حال كون ذلك على أسلوب يختلف فيه المعنى المدلول عليه بالمقصور والمدود المتفقين في المادة وترتيب الحروف، فأخرج بقوله: ما يفتح، ما يكسر وما يضم، وأدخل بقوله: ما يمد، اشتراك المقصور والمدود في فتح الأول، فالذي لا يشارك فيه المقصور المدود، هو أن يكون المقصور مفتوحاً، والمدود مكسوراً، أو العكس، أو يكون المقصور مضموماً، أو مكسوراً، أو العكس، أو مع فتح المقصور، وأخرج بقوله: باختلاف المعنى، ما اتفقا في معناه. وذلك أن المقصور والمدود المتفقين في اللفظ قسماً، قسم مختلف في المعنى، وقسم متفق فيه، وبدأ الناظم بالكلام على المختلف المعنى، لكثرة أنواعه، وتنوع جزئياته بالنسبة إلى المتفق في المعنى، وكل من القسمين قد يتفق في الحركة، وقد يختلف فيها، فالمتفق في الحركة ثلاثة، والمدود أنواع، في كل منها أنواع، وهي فتح المقصور، وفتح المدود، وعكسه، وفتح المقصور، وضم المدود، وعكسه، وضم المقصور، وفتح المدود، وعكسه، فمجموع الأنواع تسعة، فكلها استوفاهما المختلف المعنى، وجاء المتفق المعنى منها بنوعين، فتح المقصور مع ضم المدود، وضم المقصور مع ضم المدود، وضم المقصور مع كسر المدود، فصار مجموع ذلك ستة عشر باباً.

• ثم قال رحمه الله:

١١ - أَطَعْتَ الْهَوَىٰ فَالْقَلْبُ مِنْكَ هَوَاءٌ قَسَا كَصَفَىٰ مُذْ بَانَ عَنْهُ صَفَاءٌ

قوله: أطعت الهوى، فيه نوع من البديع، يقال له التجريد، وهو أن يجرد الإنسان من نفسه شخصاً يخاطبه، والطواعية: الانقياد والإذعان معنى.

فإن قيل: الهوى معنى، والمعنى لا يتأتى منه الخطاب حتى يستحق الطواعية والانقياد...

فالجواب: أن الأكوان كلها مرتبة على أربعة أنواع، الحس، والمعنى، والعرض، والجوهر.

ثم الحس على أربعة أقسام، كثيف كجسم الإنسان، وجرم الأرض وأنواع الناميات، وخفيف كالهواء، ومخلخل كالماء والنار، وشفاف كالسما والزرجاج.

والأجسام منفعة^(١) للمعاني ولذلك صار الجسم تابعاً للقلب، أى للمعنى الحاصل، لا للمضغة الصنوبرية^(٢).

قال رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»^(٣).

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ومعناه: أن العمى المضر ليس هو عمى الأبصار المتعلقة بالمحسوسات، وإنما هو عمى البصائر المتعلقة بالمعاني والمعنويات، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق الأكوان كلها دفعةً، ثم رتبها على حكمته فى الأزل، فأول شيء خلقه الذرة، فجعلت تسبح ألف ألف عام حيث لا أرض ولا سماء ولا لوح ولا قلم ولا عرش ولا كرسى، فلما أراد ظهور الأكوان نظر إليها بعين الجلال فتصدعت فانبجست^(٤)

(١) يريد أن الجسم يتأثر بالأشياء المعنوية، كما هو مشاهد فى السرور والحزن والأمراض وغير ذلك.

(٢) الصنوبرى: ما كان بهيئة ثمر الصنوبر مستديراً طويلاً أو مخروطياً.

(٣) هذا جزء من حديث رواه الشيخان وغيرهما وأوله: «الحلال بين والحرام بين». وهو عن النعمان

ابن بشير ولم يرو صحيحاً إلا عنه، ذكر ذلك الحافظ فى الفتح (ج١ ص١٢٦).

(٤) انبجست: انفجرت. وقيل: الانبجاس: أول الانفجار.

منها العناصر الخمسة، وهى الماء، والرياح، والنور، والظلمة، والنار، فنظر إلى الماء، فلما نظر إليه ذاب وجعل يرتعش، ثم جرى فصار بحاراً وأنهاراً، وخلق العرش فنصبه على متن الماء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] ثم خلق اللوح والقلم والنون^(١) دفعةً، فجعل القلم يمد من النون، واللوح يمد من القلم، وكل يمد من علم الله الأزلى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وكان اللوح من ياقوته حمراء، والقلم من الذهب النفيس، والمحبرة من النور الخالص، فلما شرع القلم فى الكتابة قال: أى رب، وما أكتب قال: اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة.

قيل: إن أول ما كتب اسم محمد ﷺ وأمه، فقال: أمة مذنبه، فلما كتب أمة مذنبه، قال الله له: مه يا قلم تأدب، فانشق هيبة لخطاب الله تعالى، فقال: أمة مرحومة، ورب غفور، فكتب مقادير كل شىء فى يوم واحد، وذلك قوله ﷺ: جف القلم بما هو كائن^(٢).

فإن قلت: فما وجه الموافقة بين الأثر والآية؟ وهى قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

فالجواب أن القلم جف من الابتداءات، وبقي سوق المقادير إلى المواقيت، وهى التى سمع رسول الله ﷺ صرير الأقلام بها ليلة أسرى به، وهو قوله «حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صرير الأقلام»^(٣) وهو استنساخ الملائكة من الأم.

ثم لما أكمل العالم كله خلق آدم، لأن العالم مخلوق من أجل آدم، فلما تم

(١) النون: الدواة - المحبرة.

(٢) هذه القصة لم أجد لها سنداً، أما جف القلم بما هو كائن، فهو حديث حسن، روى بهذا اللفظ، وورد جزءاً من حديث طويل عن ابن عباس بلفظ: كنت رديف النبي ﷺ فقال يا غلام... إلخ. رواه أبو القاسم بن بشران وكذا القضاعى عن أبى هريرة، ورواه الطبرانى عن ابن عباس وهو حديث حسن وللقضاعى عن ابن مسعود بلفظ: جف القلم بالشقى والسعيد، ورواه الديلمى بلفظ جرى بدل جف. اهـ، والله أعلم.

(٣) أسمع صرير الأقلام، جزء من حديث الإسراء الذى رواه الشيخان وغيرهما وهو عند البخارى بلفظ صريف بدل صرير. اهـ.

خلقه قال: يا آدم أتدرى لم خلقتك؟ فألهمه أن قال: خلقتني لأعبدك وأعرفك، فقال له: صدقت فإنى خلقتك من أجلى، وخلقت الخلق من أجلك: فلا يشغلنك ما خلق لك عما خلقت له، فأخذ عليه العهد وعلمه الأسماء كلها، وذلك مقدار أربعين يوماً من أيام الدنيا، ثم خلق الله تبارك وتعالى جسماً روحانياً نورانياً، فأمره أن يتوغل في جسد آدم، وأن يكون حاكماً على عالمه، فلما أدخله قال^(١): إذ جعلتني حاكماً على هذا الجسم المخالف لنوعى، فأعنى، فقال له: أعينك بملك من أكرم الملائكة يكون معك فى بيتى، وهو قلب آدم وقلوب بنيه، فخلق العقل وأرسله، وأمره بسكنى القلب وإعانة الروح على من ناوأه، ثم خلق النفس من عالم الشيطان، فركبها بين نار وظلمة، ثم أمرها بالتوغل فى جسد آدم، ووكلها على مصالحه الدنيوية وسياسة معاشه البهيمية، فقالت له: أى رب اجعل لى وزيراً من جنسى أستأنس به، وأستعين به على مطالبى، فقال لها: إنى قد خلقت لك الهوى، فبعثه وأمره بسكنى الجانب الأيسر، فقال له: أى رب إنى أستوحش وأضعف إن لم تجعل لى وزيراً من أهلى، فقال الله تبارك وتعالى: إنى جعلت لك الشيطان وزيراً، ولكن لم أجعل لك سلطاناً على حزبى ومن أطاعنى، فجعلت النفس تشتهى، والشيطان يعد ويمنى، والهوى يقود ويكايد، ويدعو إلى نفسه. ثم الهوى على ثلاثة أقسام، هوى قرب، وهوى حجب، وهوى سلب.

فهوى القرب هو الذى يورث التهتك وعدم التمالك.

قالت رابعة العدوية^(٢):

أحبك حُبِّينِ حُبِّ الهوى	وحُبًّا لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حُب الهوى	فشغلى بذكرك عمن سواك
وأما الذى أنت أهل له	فرفعك للحجب حتى أراك
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

(١) كذا فى الأصل، ولعل العبارة، أى رب إذ جعلتني.

(٢) رابعة بنت إسماعيل العدوية أم الخير مولاة آل عتيك صاحبة مشهورة بصرية لها أخبار فى العبادة والنسك اختلف فى محل وسنة وفاتها، والأرجح أنها توفيت بالبصرة عام ١٨٥ هجرية، الأعلام (ص ٣١ ج ٣).

وهو حظُّ المقرَّبين، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] فإن قلت: ما الحكمة في التكرار؟

قلت: السابقون أولاً الذين سبقت لهم منا الحسنی، بأن رش عليهم الحق من نوره، قال الرسول ﷺ: خلق الله الخلق في ظلمة، فرش عليهم من نوره، فمن أصابه اهتدى، ومن لم يصبه ضل^(١) فسبقوا بذلك هوى الغواية والنفس الأمارة، فما تلوَّثوا بجرم، وما تریثوا بظلم، وما تدنَّسوا بهم. لم يقرءوا من سطور الدنيا حرفاً، وما منحوها طرفاً، وما اشتموا من شهواتها عرفاً، فجزوا أن لا يسمعون للنار حسیساً إذ لم يباشروا محرماً ولا حسیساً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِی أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١) لا یسمعون حسیسها وهم فی ما اشتتهت أنفسهم خالِدُونَ﴾ [الانبیاء: ١٠١، ١٠٢] وأما السبق الأخير، فهو السبق إلى الخیر بامثال كل الأوامر من غیر كسل ولا تثاقل، مقروناً بالبر والإخلاص، عاریاً عن الأغراض والریاء والسمعة^(٢) حتى یكون كأبی بكر^(٣) الصديق رضی الله عنه. روى أنه لم یسبق إلى مكرمة ولا إلى أمر خیر حتى أن النبی ﷺ حث أصحابه يوماً على الصدقة، وما كان ثمة، فقال عمر^(٤) رضی الله عنه: لئن سبقتُ أبا بكر اليوم فلا أبالی أن لا أسبقه بعدها، فذهب مبادراً أن یأتی بشرط ماله، فبلغ ذلك أبا بكر، فتجرد من جمیع ماله، فلما جاء عمر بشرط ماله، وجده عند رسول الله ﷺ وقد تجرد من ماله، فلم یترك إلا عباءة فتخلل فیها، فقال عمر: إنك لا تُسبق، إذ لم أسبقك اليوم، فهم أصحاب الرفیق الأعلى.

(١) لم أجد هذا الحديث.

(٢) السمعة اسم المرة من سمع، یقال فعل الشيء ریاءً وسمعة، أى لیراه الناس ویسمعوه.

(٣) أبو بكر هو عبد الله بن أبی قحافة كان اسمه فی الجاهلیة عبد الكعبة فسماه النبی ﷺ عبد الله، التمی القرشی، وقیل كان اسمه عتیق وهو أول من أسلم من الرجال وأفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ وخليفته من بعده وصاحبه فی الغار وله من المآثر الشيء الكثير توفي فی جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة وعمره ٦٣ سنة. اهـ. استیعاب مختصراً (ص ٣٢ ج ٢).

(٤) هو عمر بن الخطاب بن نفیل القرشی العدوی أمير المؤمنین ولد بعد الفیل بثلاث عشرة سنة وله من المآثر ما لا یحصی، كان إسلامه فتحاً، وسماه النبی ﷺ الفاروق، وبویع بالخلافة بوصیة من أبی بكر الصديق، وتوفي يوم الأربعاء لأربع بقین من شهر ذی الحجة سنة ٢٣ شهیداً ودفن مع صاحبه رضی الله عنه. استیعاب بتصرف (ص ٤٥٩ ج ٢).

وأما هوى الحجب، فهو الذى يحجب أصحابه عن أن يدركوا بصفاء زجاجة القلوب أنوار مشكاة الغيوب، فلا يلهمون علمًا، ولا يشاهدون علمًا، قال الرسول ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحًا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وجرت على لسانه»^(١) وقال: إن تسأل عنى أغبر أشعث رأى علمًا فهو يطلبه حتى يدركه.

لكن هؤلاء حجبتهم الران^(٢) قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] من ارتكاب مباح الشهوات حتى أنتج سنوح^(٣) الغفلات المفضى إلى ارتكاب صغائر المحظورات، فهؤلاء أصحاب المعاناة، فتارة يستيقظون من نوم الغفلة فيقدون^(٤) حجاب الشهوات، ويقبلون على النفس باللوم ويقطعون مادتها بالذكر والصوم، لرقه الحجاب، وقرب العهد بالمثاب، فيخنس الشيطان المعانى، ويظهر الملك الروحانى. لخبر: إن الله وكل بالقلب ملكًا وشيطانًا، فمسكن الملك بجانب القلب الأيمن، ومسكن الشيطان جانب القلب الأيسر، فإذا ذكر المؤمن الله خنس الشيطان، وظهر الملك، فلا يزال يأمر بالخير ما ذكر الله، وإذا غفل العبد وسوس الشيطان وسلطت الأعوان، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] فهذا مُتَّصِدٌ، فإن جاهد نصر، وإلا قهر، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) حديث «من أخلص لله... إلخ. ضعيف جدًا، أورده ابن الجوزى فى الموضوعات وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ (ص ١٤٥ ج ٣) وقال المناوى بعد أن ذكر كلام ابن الجوزى فيه وتعقبه المؤلف بأن الحافظ العراقى اقتصر فى تخريج الإحياء على تضعيفه وهو تعقيب لا يسمن ولا يغنى (ص ٤٤ ج ٦) كما أورده الألبانى فى موضوعاته تحت (رقم ٣٨ ج ١)، قلت جميع الروايات التى عثرت عليها بلفظ ظهرت بدل تفجرت وطرق الحديث إلى أبى أيوب وأبى موسى وابن عباس كلها ضعيفة فرواية أبى أيوب فيها يزيد الواسطى قال فيه ابن حبان كثير الخطأ فاحش الوهم. وأما رواية أبى موسى ففيها عبد الملك وهو مجهول، وقال ابن عدى: إنه منكر الحديث. وأما رواية ابن عباس ففيها سوار بن مصعب قال فيه أحمد ويحيى متروك ولذلك فأقل درجات الحديث الضعف الشديد والله أعلم.

(٢) الران: الغلبة، ران الشيء فلانًا وعليه وبه غلب عليه، تقول: ران هواه على قلبه: غلب عليه.

(٣) سنوح: عرض، ومراده ما يعرض للإنسان من الغفلات.

(٤) يقدون: يشقون.

والثالث هو الظالم لنفسه، لملازمة هوى السلب، لأنه يسلبه حلية التقوى، ويكسوه جلباب البلوى، إذ الهوى ضد التقوى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] للمقتصدین ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩].

والطغیان لغة: مجاوزة حد الصلاح إلى الفساد، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] وهي الصيحة المجاوزة لحد الإمكان حتى قطعت نياط قلوب أمم عظيمة في أجوافها، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١] أى على الخزان، أى بأن لم يزنوهُ، واصطلاحاً: الكبر، والإعجاب، وبَطَّرَ الحق، واحتقار الخلق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾﴾ [العلق: ٦، ٧] ويطلق ويراد به الظلم والكفر، قال الله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢] ويطلق ويراد به الغلو في الدين، قال الله تعالى لبنى إسرائيل: ﴿وَلَا تَطْفُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١] وإنما ذكر النفس في كفة المقتصدین، لأن زمامها بأيديهم، إذ لم يتوغلوا في مزايل العاجلة، ولم يمكنوا الهوى من أنفسهم كل التمكين، فهو ووزيره لم يزلوا منهم فى عناء!

وأما الطائفة الظالمة، فقد اتخذت الهوى معبوداً، والشيطان خلا مودوداً، والدنيا عذباً موروداً، يمرحون فى رياضها، ويكرعون فى حياضها، ويتيهون فى غياضها^(١) مكنوها من رقابهم، فصارت سبباً لتبايهم^(٢) لا يتقون شبهة ولا حراماً، ولا يخافون بغياً ولا آثاماً.

ويروى أن الشيطان إذا رأى قوماً يبيكون من الموعظة، اعتزلهم وهو يقول: يا ويلاه، فتقول له الدنيا مالك؟ فيقول: كيف لا أبكى وقد خاب كدى، وبطل كيدى وجدى، هؤلاء عبيدى كنت قد استحوذت عليهم، يبيكون من خشية الله، فتقول له مهلاً، ما هو إلا أن يتفرقوا من هذا المجلس، فأخذ رقاب الكل،

(١) الغياض جمع غيضة: مجتمع الشجر فى مغيض الماء.

(٢) التباي: الهلاك.

فأمكنك من نواصيهم، فإنني قد عرفت من حبي في قلوبهم ما لم تعرفه، فلا يفلحون أبداً، وذلك قوله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»^(١).

يروى أن يحيى بن زكريا رأى الشيطان يوماً فقال: ما تبتغي مني يا لعين، فقال: إنني لم آتكم عن رضى مني، ولكن الله اضطرني إلى الذهاب إليك، وأمرني أن أصدقك، فكان مما قال له: إن بنى آدم على ثلاث طوائف، أما اثنتان فقد استرحت منهما، طائفة معصومة مثلك، وطائفة قد كفتني مئونة أنفسها، يركبون من الغنى أكثر مما أمرهم به، وأما الثالثة فإنني منها في عناء ومشقة، فيوم أداك عليهم حتى أبلغ منهم الأمانى، ويوم يدلون على حتى لا أجد إليهم سبيلاً حتى يفسدوا على جميع ما تقدم، ولست أدري لمن تكون العاقبة، ولا أراهم إلا غالبي. قال الرسول ﷺ: «إنما بعثني الله داعياً إليه، مبشراً ونذيراً وناصحاً، وليس إلى من الهداية شيء، وجعل الشيطان يعد ويمنى، وليس إليه من الضلالة شيء، ومصداق ذلك في كتاب الله قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٤٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿[الأحزاب: ٤٥، ٤٦] وقال في حق إبليس: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

فمن أراد الله هدايته تجلّى عليه باسمه الهادى عند بعثة الرسول أو دعوة الولي أو أمر العالم، وربما وقعت الهداية من غير واسطة كما لقّس^(٢)، وبحيرا^(٣)،

(١) حب الدنيا... إلخ. ضعيف جداً، رواه البيهقي في الزهد له وأبو نعيم في الحلية، وأورده السيوطي ورمز له بالضعف والإرسال قال المناوي. قال البيهقي لا أصل له من حديث النبي ﷺ وقال العراقي هو من مراسيل الحسن وهي عندهم شبه الريح ومثل به في شرح الألفية للموضوع إلى أن قال وتعقبه ابن حجر بأن ابن المديني أتني على مراسيل الحسن. اهـ (ص ٣٦٩ ج ٣) كما أورده صاحب كشف الخفاء وقال رواه البيهقي في «الشعب» له بإسناد حسن إلى الحسن البصري، ورواه البيهقي أيضاً في كلام عيسى، وقال ابن العرّس الحديث ضعيف. اهـ (رقم ١٠٩٩ ج ١) كشف. قلت: أقل درجات الحديث الضعف الشديد. والله أعلم.

(٢) هو قس بن ساعدة بن جذامة الإيادي البليغ الخطيب عده بعضهم من الصحابة والصحيح أنه مات قبل البعثة وكان من المعمرين وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ على عصا، وأول من قال أما بعد (إصابة ص ٢٦٤ ج ٣) باختصار.

(٣) بحيرا الراهب: قيل إنه كان من يهود تيماء، وقيل كان نصرانياً من عبد القيس يدعى جرجيس =

وزيد بن نفييل^(١).

ومن أراد إضلاله تجلّى عليه باسمه المانع فلا ينجع فيه رسول ولا كتاب ولا دعوة داع، ولا يرشده برهان، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصص: ٥٦]، وقال: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

فالهوى بمنزلة الملك، والنفس زوجته، والشيطان وزيره، والشهوات حباته وأسلحته، وأعمال السوء جنده، والدنيا محل سره ومكره قال الشاعر:

إني بليت بأربع يرمونني بالنبل عن قوس لها توير
إبليس والدنيا ونفسي والهوى يا رب أنت على الخلاص قدير

قال عليه السلام: «لا يزال المؤمن في جهد جهيد حتى يلقى ربه» لأنه لا يزال بين منافق يؤذيه، وكافر يعاديه، وفاسق يحسده، وشيطان يعده، ونفس تشهيه، ودنيا تستهويه، وهوى يكابده، فإن جاهد الكل وصابره وتوكل على الله، كفاه شرهم، ووقاه ضرهم، اقرءوا إن شئتم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] المجاهدة تيسر المشاهدة فيضعف كيدهم^(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ولكن لا مطلقاً بل بالنسبة إلى كيد الله، لأنه لا يدعو إلى حق ولا حقيقة، وقد بين الله قوة كيده بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] وذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه موكل إلى ذلك، معان عليه إلا من عصم الله.

الثاني: أنه لا شغل له يشغاه عن غواية بني آدم. وقد ركب الله في هذا النوع

= وله قصة مع النبي عليه السلام حين خرج تاجراً إلى الشام، ولا يعلم أدرك البعثة أم لا. اهـ إصابة (ص ١٧٩ ج ١).

(١) زيد بن عمرو بن نفييل العدوي: والد سعيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، مات قبل البعثة بخمس سنين وكان على دين إبراهيم عليه السلام، إصابة (ص ٥٥٢ ج ١).

(٢) هكذا وردت هذه العبارة في الأصل، وهي غير واضحة.

الإنساني من الحظوظ والكلف ما لا يكاد يقوم بتدبيره من مرمة^(١) معاشه، وضروريات طبعه، من منكح وملبس وغير ذلك، فضلاً عن أن يقوم بمعاناة عدو غوى^(٢) مسلط عليه، ومع ذلك يراه ولا يراه.

الثالث: أنه لا يكابر ولا يأتي في صورة صديق ناصح، ولا يأمر النفس إلا بما يخف عليها ويوافق طبعها، ولذلك صار الباطل خفيفاً. وجدير بميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً، وجدير بميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارة: ٦ - ٩]، وقال ﷺ: «أكبر معبود عبد في الأرض الهوى»^(٣).

وقال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣] وأما قوله^(٤) في المعاني: إنها لا تخاطب لأنها جماد فهو مذهب كلامي لا طائل تحته، ومذهب القرآن والسنة والرسول والأولياء متفق على أن المعاني تؤمر وتنهى وتعقل حتى تدخل في ذلك الجمادات، إذ لا تخصيص للحيوانات عن غيرها، بل كل ذلك موكل إلى تخصيص الله، قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال النبي ﷺ: «يؤتى بالموت على صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة ويا أهل النار هل تعرفون هذا فيقولون: هذا الموت فيذبح»^(٥).

(١) أصل المرمة: تناول الدابة العيدان بفمها، أو الأكل عموماً، والمراد هنا ما يجمعه الإنسان لمعاشه.
(٢) الغوى الضال المنقاد للهوى.

(٣) حديث أكبر معبود عبد في الأرض الهوى موضوع أخرجه الخرائطي من طريق الحسن بن دينار عن خصيب وعنه أورده ابن الجوزي في موضوعاته بلفظ ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع وقال هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ والحسن والخطيب كذابان عند علماء النقل (١٣٩/٣) موضوعات.

(٤) الضمير في عبارة: أما قوله، لا أدري على من يرجع، لعل العبارة: أما قول من قال إن المعاني لا تخاطب. والله أعلم.

(٥) حديث «يؤتى بالموت» حديث صحيح رواه البخاري في كتاب التفسير (ص ٤٢٨ ج ٨)، وفي كتاب الرقاق (ص ٤١٥ ج ١١ فتح)، ومسلم في باب جهنم (ص ١٨٦ ج ١٧ نووي، =

وأنه ﷺ قال: «إن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة وكأنهما غماتان أو غيايتان^(١) يشفعان لقارئهما»^(٢).

فبان من هذا واتضح أن المعانى تتشكّل وتخطب رتعقل وتعرف الله وصالح عباده، كخطاب أم ملدم^(٣) النبي ﷺ وأمره إياها أن تذهب إلى الجحفة، ورؤية بعض الصحابة لها، وكانوا سياره، فسألهم رسول الله ﷺ: «هل رأيتم في مقدمكم هذا أحداً؟ قالوا: لا، إلا أنا رأينا امرأة سوداء ثائرة الرأس، فقال رسول الله ﷺ: «تلکم الحمى أمرتها أن تذهب إلى مهيعه» وهى الجحفة كما فى حديث: «اللهم انقل حمى المدينة واجعلها بالجحفة» ورؤية خالد بن^(٤) الوليد العزى تدعو بالويل فضرِبها فجدلها باثنتين^(٥). وفى هذا الباب مجال رخب، والحاصل أن قدرة الله صالحة لكل شىء فلا فرق بين ما تقدم وبين سماع العظم وإنطاق اللحم

= والترمذى فى تفسير سورة مريم (ص ٦٠١ ج ٨) تحفة، وأوله فى بعض روايات البخارى إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جىء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح... إلخ.

(١) الغمام: السحاب الملتف، والغياية إذا كانت قريباً من الرأس. اهـ.

(٢) حديث إن البقرة وآل عمران... إلخ. صحيح رواه مسلم فى باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (ص ١٩٧ ج ٢) كما رواه أحمد. وأوله اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيحاً لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران... إلخ.

(٣) أم ملدم: الحمى. وقصة دعائه ﷺ بنقل الحمى إلى مهيعه ثابتة فى الصحيح.

(٤) خالد بن الوليد بن المغيرة القرشى المخزومى سيف الله أبو سليمان شهد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية ثم أسلم سنة سبع بعد خيبر، شهد فتح مكة وما بعده فى بلاد العرب والشام والعراق، مات بحمص سنة ٢١ هـ وقيل بالمدينة (إصابة ص ٤١٥ ج ١).

(٥) قصة العزى التى أشار إليها الشيخ رحمه الله هى كما نقل: أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره.

كانت العزى شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقال: ائت بطن نخلة تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء إليه قال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: فاعضد الثانية، فأتاها فعضدها ثم أتى النبي ﷺ فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها فإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تعرف بأنيابها وخلفها دبة السلمى وكان سادنها فضرِبها ففلق رأسها فإذا هى حممة ثم عضد الشجرة وقتل دبة السادن ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال تلك العزى. اهـ (١٧ ص ١٠٠ قرطبى).

وإبصار الشحم.

والحاصل أن الهوى من حيث هو هوى، عبارة عن جماع الشر حتى يدخل في ذلك الكفر، وسمى الهوى بذلك، لأنه يهوى بصاحبه في النار أو المهالك التي تؤدي إلى العطب.

قوله: فالقلب، الفاء استئنافية، وسمى قلباً لكثرة تقلبه، مبتدأ، خبره هواء. قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰى مَرَّةً﴾ الآية [الأنعام: ١١٠] فلما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: «أنخشي سلب الإيمان بعدما خالطت بشاشته قلوبنا واطمأنت إليه أنفسنا؟ قال: نعم، إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها ظهراً لبطن» فلما سمعوا ذلك تغشوا إحراماتهم، وجعلوا يبكون، فأنزل الله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]^(١).

وقال ﷺ: «القلب ابن آدم أشد تقلباً من ريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن»^(٢) فالقلب بيت الله، إذا صار قلباً بأن انسدت ثقب الرياح الأربع ببلاط التفويض ولبن التسليم، وأسكف التقوى، ومنازل اليقين، فإذا لم تجد رياح الأهواء منفذاً إلى سويداء القلب، اشتعل مصباح البصيرة، لأن المصباح لا يضيء مع هبوب الرياح فيأخذ القيم المصباح بيده فيقتل أفاعى الشهوة، وعقارب الغفلة، وقطاع المعصية، وجواسيس الهوى، ثم تمده عساكر التقوى فيغض بها جنود الهوى، فيأخذه أسيراً، فيسجنه، ويتزوج الروح النفس بعد إسلامها واستسلامها فيهدبها بعد ما عذبها، وفي هذه الرياح وضدها والبصيرة نظمت فقلت:

(١) حديث إن قلوب العباد... إلخ. صحيح رواه مسلم في باب تصريف الله تعالى القلوب (ج ٨ ص ٥١) كما رواه أحمد والنسائي إلا أن رواية مسلم إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال ﷺ اللهم مقلب القلوب صرف قلوبنا على طاعتك. اهـ.

(٢) حديث لقلب ابن آدم أشد تقلباً... إلخ. هذا حديث حسن رواه الطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان قال العراقي في تخريج الإحياء إسناده حسن وللبراز نحوه بإسناد ضعيف إلا أن أوله مثل القلب كمثل ريشة: (ج ٣ ص ٤٥) قلت وروى أحمد نحوه بإسناد رمز له السيوطي بالصحة. وقال فيه الحاكم على شرط البخاري ورده الذهبي انتهى مناوى (ص ٢٨١ ج ٥).

أيها السالك نهج القوم لا
وتدبر قولَه تذرّوه إن
فبمَاءِ العلم تحيا وبه
وإذا حلّ الذوى ساحتَه
أو ييات عن رياح أربع
فبِشُحٍّ ثم حرصٍ ونزا
فبذا يخمد مصباح الهنا
فتعوذّ بالعزیز الحق من
واترك الخوف من الغير فما
وتدرّج بنيار الحق لا
ثم سلّم للمليك الحق لا

تَدَعُ الباب رهياً^(١) للرياح
كنت ذا سرّاً تصب عين الفلاح
يخرج النبات رويّاً بالبطاح
بسموم الغيظ تبدو بالصباح
شُرْعٌ تترى بحتف وارتياح
عِ وشكٌّ تنفري وتُبّاح
ويعود الليل بالويل البواح
كلُّ شرّاً تكف من كل التياح
ينفع الخوف فتيلاً بالصفاح
ترك الحزم وبالعزم النجاح
تخلع الربقة من ذاك الملاح

فإذا ظهر أصحاب اليمين على أصحاب الشمال، صار القلب كله يميناً فأمرت
سماه همته على أرض عزمته فأثبت حدائق ذات بهجة، فانهمرت سيول العلم،
فجرت في بساتين الفهم، فاستقلت الإشارة، وكلت العبارة، وشوهد حق اليقين
ببصائر التمكين، وانتفى الخلاف، وثبت العدل والإنصاف، وأمنت الغوائل،
وانضحت الدلائل، وأجريت على حقائقها الرسائل، واتسع البيت، وأثمر الزيت،
واتصلت الأنوار، وزكت الأسرار، وانعقدت بالأعمال الصالحة الثمار، وتبسمت
أزهار الأحوال وزالت الحجب بين العرش وطيبات المقال، فثبتت الولاية،
ورسخت وأينعت^(٢) أغصانها فشمخت وشحنت البيت المعمور بالزوار، وطافت به
العمار وجرت شمس المعرفة في بروج القطبانية وقمر الأنس في منازل القدس
ونجوم الاستدلال في مراكز أبدال الرجال، ودارت أفلاك الجلال بطباق طبقات ذى
الجلال، وخط قلم التعبير في لوح محفوظ التذكير، وسبّحت رعود الغيم،

(١) رهياً: ضعيفاً.

(٢) أينعت الثمرة، نضجت ولم أجد من وصف الغصن بالنضوج.

وسحت أصداف الحكم في بحار العلم، وغرّدت أطيّار الشوق على أشجار الذوق، وتظاهرت المعصرات، وتواطأت المسرّات، وهبّت رياح النشور مبشرات بالحبور، وطاب الهوى، وأينع الذوى، وتاب الاعتدال عن معالجة الدواء، وساح بحر العين على بحر الرّين، فعذب الأجاج، وذهب اللجاج، ونخمرت الأنوار الزجاج، وقل الفجاج، وصفوا الامتراج، وفقد الهرج، إذ عدم المرج، ولم يحاول الخرج، فقرت العين وزال البين فصار بحرًا مسجورًا، وبيتًا معمورًا، ورقًا منشورًا، وستيًا مرفوعًا، وحمى ممنوعًا، واسعًا لا موسوعًا، قال الله تعالى: لا تسعنى أرضى ولا سمائى، ولا عرشى ولا كرسى، ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن^(١) أى لا يعرفه حق معرفته إلا قلب المؤمن، وما ذاك إلا لما أودع الله فيه من لطائف المعارف والكشوفات والطرائف، وهذا التنصيص بالتخصيص بلغ غاية التشنيف^(٢) بالتشريف، حتى يفضلوا بذلك عالم الملائكة الكرام، وظهر ذلك ليلة الإسراء، لما جاوز جبريل سدرة المنتهى، أقام فقال رسول الله ﷺ: أيترك الخليل خليله فى مثل هذا الموضع؟ فقال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤] فلو تجاوزته قيد شبر لا احترقت، فسار رسول الله ﷺ فى خفارة سره حتى مزق جميع الحجب، وحتى بلغ إلى قاب قوسين أو أدنى، فتواطأ قلبه وقالبه، وبصره وبصيرته، وهمه وهمته، وليلة المكر^(٣).

أخى الله بين جبريل وميكائيل، ثم قال لهما: إني قد جعلتكما أخوين، وإن عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فهل فيكما من يؤثر أخاه بفضل عمره؟ فقالا: إن لم تكن عزيمة منك فلا.

فقال لهما: اذهبا إلى محمد وأعلماه أن قومه قد هموا أن يمكروا به ليثبتوه أو

(١) حديث لا تسعنى أرضى ولا سمائى... إلخ. قال فيه العراقي: لم أر له أصلا ولفظه فى الإحياء لم تسعنى أرض ولا سماءً ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوداع. اهـ (ص ١٤ ج ٣) إحياء، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٢٥٦ وقال فيه قال ابن تيمية: هو مذكور فى الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ والله أعلم.

(٢) التشنيف: تزيين الكلام. وأصله كل ما يعلق فى أذن الجارية من الحلوى.

(٣) ليلة المكر: هى الليلة التى هم المشركون فيها بقتل النبى ﷺ وأقام عليًا مكانه ولم يصبه سوء لحماية الله له.

يخرجه أو يقتلوه، فلا بيت على فراشه، وليأمر علياً فليبت على فراشه يبشر نفسه بنفسه، فإنه يرضى بذلك، فاحرساه ولا يصلوا إليه بمكرهه، فلما فعل عليٌ ذلك، جلس جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجله، وهما يقولان بخ بخ^(١) من مثلك يا ابن أبي طالب؟

وكذلك لما زُجَّ بإبراهيم في المنجنيق^(٢) ضجت ملائكة السبع فقالوا إلهنا ليس لك في الأرض إلا خليل واحد، وقد أجمع أهل الأرض على أن يرسوه في النار فيك، فقال لهم: إن استغاث بكم فأغيثوه، فاتاه ملك المياه فقال: إن شئت فجرت لك الأرض عيوناً، فأطفأت نارهم، فقال لا أستغيث بغير ربي، فرجع وهو يبكي، ثم أتاه ملك الظلام فقال له: إن شئت أطفأت لهيبها بالظلال، فقال له: لا، فرجع كذلك فاتاه جبريل حين زُجَّ به فقال له: ألك حاجة؟ فقال له أما إليك فلا. وأما إلى الله فبلى، فقال: سله، فقال علمه بحالي أغناني عن سؤاله، فلما رفع همته الشريفة عن الخلق أقبل عليه الحق فقال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الانباء: ٦٩] فبطلت النيران في ذلك اليوم، فلم ينتفع بها أحد، ولو لم يقل وسلاماً لمات إبراهيم من البرد. اهـ. فلا يزال القلب يتقلب حتى تثقله صنوج^(٣) اليقين، ومع ذلك فينبغي للمؤمن أن لا يزال خائفاً من تقلبه، لأن الرسول ﷺ كان كثيراً ما يقول «اللهم مثبت القلوب ثبت قلبي على الإيمان»^(٤) ويأمر أصحابه بذلك، إذ هو محل الكتز، والكتر لا يؤمن عليه، إذ لا بد له من خازن أمين، وبيت حصين، وقفل متين، فالكتر الإيمان، وخازنه القرآن، وأمينه الرسول، وحصنه القلب، وقفله اليقين، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وقال: ﴿حَبِّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ

(١) بخ بخ: اسم فعل معناه عظم الأمر، ويكون للإعجاب بالشيء والمدح ويكرر للمبالغة. اهـ.

(٢) المنجنيق: آلة حربية ترمى بها القذائف - يونانية - جـ مجانيق.

(٣) صنوج: ما يوضع في الميزان ليوزن به، معربة.

(٤) حديث اللهم مثبت القلوب... إلخ. حسن رواه الترمذي والحاكم وصححه بلفظ «يا مقلب

القلوب ثبت قلبي على دينك» وفيه زيادة: قالوا أو تخاف يا رسول الله قال وما يؤمنني والقلب

بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء.

كما أورده في الكشف تحت رقم ٣٢١٥. والله أعلم.

قَلْبِي ﴿ [البقرة: ٢٦٠] فالقلب من حيث هو قلب لا حركة ولا سكون للجوارح إلا به .

انتبه بعض المحبين من نوم الغفلة، ولمع له صباح الوصلة، فرأى قرطاساً قد أسودَّ وجهه، فقال: عهدي بك أبيض اللون كافورى^(١) الأديم، فلم سودَّت وجهك؟ قال: ما سودَّته باختياري، ولكن سودنى الحبر، فقال للحبر: لم سودَّت وجه القرطاس حتى عاد نهاره ليلاً؟ فقال: كنت ساكناً فى المحبرة التى هى وطنى، فجاء القلم بالقهر فاخطفنى، فقال للقلم: لم أخرجت الحبر من وطنه، وأزعجتة عن سكنه؟ فقال: اسمع قضيتى فى مظلوم، ولعله قدر وأنت تلوم، كنت قصبة نابتة على شاطئ النهر بين الغصن والزهر فى نعيم دائم وصلاح قائم، أعانق الرند^(٢) وأقبل الورد، فجاءت اليد بسكين صنعت للقطع والفصل، فأخرجتنى من محل الوصل، وأزالت قشرتى التى كانت لى برداً وقدتنى قدأ، وفصلتنى على قدر الشبر، وألزمتنى خدمة المحبرة والحبر، فلا أزال فى كد وانزعاج، وحث واستخراج، ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك^(٣) فاسأل اليد: فقالت اليد: لا أملك لنفسى ضرراً ولا نفعاً، ولا لغيرى جلباً ولا دفعاً، وهل رأيت جسماً يتحرك بنفسه، أو يتصرف دون أن يصرف؟ وإنما ركبتنى فوارس، وهى القدرة والقوة والاستطاعة، فقالت الاستطاعة: ليس بيدي تسخير، ولا أقدر على تقديم وتأخير، إنما أنا منتظرة لما يرد على من حضرة القلب، والإرادة على لسان العقل بواسطة العلم، فأنا لا أعدم ولا أوجد، ولا أقيم ولا أقعد، إنما أنا رق المغدور، ولا أحدث أمراً من الأمور، فاسأل الإرادة الأدمية ماذا صنعت؟ فقالت: على الخبير وقعت، أنا منقطع الحوالات، إلا أن عندى حوالة أخرى، ولا يمكننى إفشاؤها قال: ولم؟ قالت: لا تفهمها، قال: ولم؟ قالت: لأنك فى عالم الملك والشهادة، وأنا مبدأ عالم الملكوت والسعادة، إنما أنا البحر، إن أمكنك أن تطبق

(١) كافورى الأديم: نسبة إلى الكافور المادة البيضاء المعروفة التى تستخرج من شجرة الكافور. والكافور: طلع النخل. والأديم: الجلد، والمراد أنه أبيض.

(٢) الرند: شجرة صغيرة طيبة الرائحة صالحة للزينة وتعتبر رمزاً للنصر.

(٣) كناية عن الألم الشديد، لأن الملح يثير الجروح.

تلاطم أمواجي، وإلا فعليك بالساحل، لأن ذلك العالم لا يُسمع بهذا الصماخ،
ولا يبصر بهذه العين، وإنما تبصر ببصرك الصور وتعنى بقلبك العبر، أما سمعت
قوله تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وكانوا يسمعون الأصوات، لكنهم أحياء كالأموات، فاسأل القلب، فقال
القلب: إنما أنا كاللوح لم أنبسط بنفسي، ولكني بسطت، فاسأل العقل، فقال
العقل: إنما أنا سراج لم أشتعل بنفسي، ولكني أشعلت، فاسأل العلم، فقال
العلم: إنما أنا نقش ولم أنقش نفسي، ولكني نُقِشْتُ، فاسأل القلم، فقال: قد
سُئِلْتُ في أول الأمر، قال: وأي طريق سلكته في النظر؟ أطريق البصيرة، أم
طريق البصر؟ قال: طريق البصر، قال: هيهات، تركت الطريق، وخالفت
الركب والرفيق، وسلكت طريقًا لا توصل إلى مقصود، ولا تحمل على قرب
المعبود:

فانظر بقلبك إن العين كاذبة واسمع بقلبك إن السمع خَوَّانُ

فاسلك طريق العبرة، وأعدّ زاد الفكرة، تصل إلى الحضرة، فإن لم تقدر على
هذا الطريق، فبضاعتك مُزجاة^(١)، وعملك قليل، ومركبك ضعيف، والهلاك في
الطريق الذي تتوجّه فيه كثير، فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت عليه، فما
هذا بفعل من يصل إليه، فادرج فإن الكُلَّ ميسر لما خلق له، فإن الأذن التي في
الرأس، عند البهيمة والكافر، فافتح أذن قلبك، ويصّر بصيرتك لتدرك القلم الذي
لا كالأقلام، الذي ينقش على الدوام، أنواع العلوم والإرادات، وأسباب الشقاء
والسعادات، فلم يخطئ وكاتب لا يسأم، وحروف تعجم بآيات لا تتوهم، فقلمه
لا كالأقلام، ويده لا كالأيدي، ففتح عين بصيرته، فرأى القلم الإلهي، فسأله:
فقال: جوابي جواب القلم الأول، فقال: وكيف وأنت لا تشبهه؟ فقال: وأي فرق
بينى وبينه؟ في معنى التسخير هو ظاهر للعيان، وأنا لا أدرك إلا بالأذهان، مثل
بعين بصيرتك الملك، والسموات مطويات يمينه، وكذلك الأقلام في قبضته،
فسأل، فقال: سل القادر، فقال: لا يسأل عما يفعل وهم يسألون:

(١) مزجاة يدفعها كل من رآها لرداءتها: أى مغشوشة.

لأبد من جريان الحكم يا لكع^(١) والبحث عن سرِّه في الصدر لا يسع
حُكْمُ المَهِيمِنِ جَارٍ فِي بَرِيَّتِهِ وَكَلِّهِمْ لِنَفَازِ الحِكمِ قَدْ خَضَعُوا
فَإِذَا يُقَرَّبُهُ مِنْ غَيْرِ مَا عَمِلَ وَذَا يُبْعَدُهُ مِنْهُ فَيَنْقَطِعُ
وَلَيْسَ يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ يُقْبَدُهُ لِأَنَّهُ مَلِكٌ وَالْمَلِكُ مُتَّسِعٌ

فلما أكمل رتبة القلب، وبوأ له عالم القلب، وفكَّه من ريقه السلب، ورده إلى
حضرة القرب، اشترى له زوجته فحرَّرها من ريقه الطبع، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ
الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] فيا له من بيع ما أسرفه! ومن
خطاب ما أظرفه! وإذا كان المشتري جليلاً والدلال نبيلاً، والثمن جزيلاً، كانت
السَّلعة نفيسة، وهذه صفة نفس المؤمن، فالله مشتريها، ومحمدٌ دلالها، والجنة
ثمنها، والقلب الشريف مسكنها، وإنما اشترى النفس، ولم يشتر القلب، لأن
القلب سليم، والنفس معيبة، أو لأن النفس معيبة، والقلوب حبيبة، فاشترى
المعيب لمصلحته، لأنه قادر على إصلاح العيوب وذهاب أمراض النفوس. وقيل:
إنما اشترى نفس المؤمن ليؤيس منها إبليس، فإن ادعى فيها دعوة صارت دعواه
باطلة، لأن المشتري الأول أحق بها منه ومن سواه.

واعلم أن القلب مع اتساعه، ليست له إلا وجهة واحدة، كما قال الصادق
المصدوق.

فقلب العارف لا وجهة له إلا ربه، فوجهته أبداً إلى فوق، وقلب المؤمن الكامل
الإيمان، وجهته أبداً إلى اليمين، وقلب المنافق لا وجهة له، تقلبه الرياح أبداً
كالريشة، ووجهة قلب الفاسق إلى الشمال في غالب أحواله، ووجهة قلب الكافر
إلى تحت أبداً.

قوله: هواء، أى فارغٌ خالٍ من كل خير، لأن الهوى إذا تسلط على القلب لا
يبقى ولا يدرك، فيصير الروض هشيمًا، والخير رميمًا^(٢) والغنى عديمًا، والصحيح
سقيمًا، فأعصاره يهدم، وعواصفه تردم، وحريق نيرانه يعدم، فلما كانت تلك

(١) يا لكع: يا لئيم أو يا أحمق.

(٢) رميمًا: بالياء.

حالة أصحاب الهوى، قُبضوا عليها، وبعثوا بها، قال الله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] وفيه من البديع نوع واحد، وهو الجناس التام على رأى ابن الحاجب، خلافاً للسفوجي القائل بأن المقصور والممدود متغايران، فيكون على رأيه الجناس الناقص بوصف حرف.

وقال شيخنا المغيلي: المد والقصر لا يُعد نقصاً ولا مغايرة، إذ يجوز في صنعة الشعر قصر الممدود ومد المقصور، ولم أعر على كتاب وقع كله في الجناس إلا في هذا الكتاب، وفيه من المنطق الاشتراك، وهو اتفاق اللفظ، واختلاف المعنى، عكس الترادف، فالهوى خلو القلب من كل خير، والهواء الفراغ، والهواء ما بين السماء والأرض، والهواء الرياح، وهو من باب تسمية الشيء باسم ملازمه، لأن حقيقة الريح تحرك الهواء، فلما كانت كلما تحركت تحرك الهواء، سميت هواءً.

فإن قلت: ما الفرق بين الريح والهواء؟

قلت: الفرق بينهما أن الهواء جسم خفيف، فلا لون له، بخلاف قوس قزح^(١) فإن له لوناً يدرك به، ويقال له الفتق والفراغ، إذ لا يمنع التحيز، ومنزلته للطير منزلة الماء لدواب البحر، ألا تراها سابحة في الجو تصف تارة، وتقبض أخرى، وكما أنه لا حياة لدواب البحر إلا بجو الماء، كذلك لا حياة لحيوانات البر إلا بجذب الهواء، فتبرد الحرارة الغريزية بما يلبسها من برودة الهواء المجذوب بالتنفس، ثم يخرج قدر ذلك من الحرارة المنعكسة في الصدر، فيلقها في الفراغ، فتتكثف الحرارة في الهواء، فتأتيها الأرواح فتغرقها^(٢) ولذلك روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن الله أمسك الرياح يوماً واحداً لآنتن كل ما على وجه الأرض، ولما ت الحيوانات، وهي جند الله الأعظم»^(٣).

(١) قوس قزح: حادث جوى يظهر بشكل قوس في السحاب يتكون من الألوان الآتية بالترتيب: بنفسجي - نيلي - أزرق - أخضر - أصفر - برتقالي - أحمر - وسببه تحليل أشعة الشمس في كريات ماء السحاب.

(٢) هذا التحليل قبل أن يكتشف الأكسجين، وباقي مكونات الهواء بالتحديد. وما عبر عنه بالبرودة هو الأكسجين وما عبر عنه بالحرارة هو ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء والغازات الأخرى.

(٣) حديث «لو أن الله أمسك الرياح... إلخ. لم أجده مخرجا.

وأما الرياح، فعنصر من العناصر الخمسة. ولها حقيقة وتكيف، فتأتي بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء وغبراء، وجنوباً وشمالاً وصباً ودبوراً ونكباء^(١) وصرّاً وإعصاراً، وعاصفاً وقاصفاً، ومبشرات ونشراً ومرسلات، ولها فلك يخصها، وخازن يكفها ويزنها، وهو إسرافيل عليه السلام، وهو كروبي^(٢) وله أعوان لا يحصون، وهو ملك عظيم، قدماء تحت الأرض السابعة، وعُنُقُه تحت العرش، والأرضون إنما يبلغن حقوه، وله جناح بالمغرب، وجناح بالشرق، وقد التقم الصور.

وفي كتاب «العظمة» لأبي الشيخ بن حبان ما نصه: إن إسرافيل أتى النبي ﷺ فقال له: على أي شيء أنت؟ قال: على الريح والنفخ في الصور، قال: وميكائيل؟ قال: على خزائن المال، قال: وعزرائيل؟ قال: على قبض الأرواح، قال: وجبريل؟ قال: على الوحي والجنود، والريح مسلطة على الخفيفين الماء والهواء، ويقال لهما: الأطييان، لأنهما يطهران كل خبيث، وذلك أن الله تعالى لما خلق العناصر سلط الريح على الماء، فهيجت أمواجه، فاضطربت حتى علاها الزبد، وثار بينهما دخان، فتراكم الكل فانعقد الزبد، فصار الجميع رتقاً^(٣) فتجلى الله عليهما فقال لهما: ﴿اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فأمرهن ففتقن إلى أربعة عشر فتقاً، فخلق الأيام، ثم بدأ خلق الأرض في يومين، وقدر فيها أرزاقها، ومدّها في يومين، تلك أربعة، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقلب أعينها، ورفع سمكها في يومين، فصير الدنيا^(٤) زُجاجة، والثانية حديداً، والثالثة نحاساً، والرابعة^(٥) ورقاً، والخامسة ذهباً، والسادسة ياقوتة حمراء، والسابعة نوراً يتلأأ، وذلك في ستة أيام، ثم خلق الشمس والقمر، والأفلاك والنجوم والشهور فيما بين العصر والمغرب من يوم الجمعة، وخزن الريح تحت

(١) ليست الرياح عنصراً، وإنما هي مجموعة من الغازات، أما تلونها فبسبب ما يعلق بها من غبار وأتربة وخلاف ذلك.

(٢) الكروبيون: سادة الملائكة - وهم المقربون - مأخوذ من الكرب وهو القرب (٢٦٧/١٨) قرطبي.

(٣) رتقاً: ملتصماً، أو مسدوداً.

(٤) أي السماء الدنيا من زجاج.

(٥) ورقاً فضة.

البحر المسجور، فهي التي تحفف ماء البحار يوم القيامة بعد تفجيرها، وتثير النار وتنفخها وتزيد في زفيرها.

وفي كتاب «العظمة» أنها ليست في الأرض دابة إلا ومثلها يسكن الهواء، حتى السمك فترزق في الهواء، كما ترزق دواب البحر في الماء^(١).

وفي «الصواعق المحرقة» للسيوطي^(٢) ما نصه: أن المأمون^(٣) العباسي خرج يوماً يتصيد في خيل من خواصه، ومعه بيزان^(٤) وشواهين، فاستعلى بعضهم حتى غاب في الهواء، فجاء بسمكة قدر الشبر، فعجبوا، فقال المأمون: هلم نخبر علم النفس الرضية، فإن بنى على يدعون علوماً لا نعرفها، فغيبوا السمكة، وأقفلوا نحوه، فلما أتوه، قال له المأمون: إننا جئناك لنسألك عن أمر جهلناه، فقال له بديهة: إن الله أسكن الهواء أمماً، من جملتها حيتان على قدر الأشبار، خلقها الله ليمتحن الملوك بها ذرية الأنبياء، فأدهش المأمون ما سمع، فترجل عن فرسه، وقبله بين عينيه، وقال له: قد فرجتها يا قرة العين، وأظهرت فضل أهل بيتك، فما ينكره بعد هذا إلا حاسد معاند، فأمر له بمال جزيل ومراكب فره^(٥)، وديار، وأدناه وقربه، حتى صار لا يتغدى إلا معه، وحتى هم باستخلاف بنى علي، فصده عن عزمه بنو عمه من بنى العباس، إلا أنه أدناهم، ورفع منزلتهم، وأبطل ما كانت تسومهم به ملوك بنى العباس وبنى أمية من القتل والتشريد^(٦).

(١) لا سند لهذه القصة ولعلها من الإسرائيليات.

(٢) المعروف أن «الصواعق المحرقة» للشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٣ هـ واسمه الكامل «الصواعق المحرقة على أهل الرفض والزندقة» والذي للسيوطي، هو «الصواعق على النواعق» المتوفى سنة ٩١١ هـ. فليتنبه.

(٣) المأمون العباسي: هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي، سابع خلفاء بنى العباس وأحد أعظم الملوك، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨ فقامت دولة الحكمة في أيامه توفي عام ٢١٨ هجرية ٤/٢٨٧ / أعلام ز.

(٤) البيزان: جمع باز: طائر القنص المعروف. والبازدار: حامل الباز - فارسية.

(٥) فره: جمع فاره، وهو الشيط الخفيف!

(٦) هذه القصة التي نقل الشيخ رحمه الله من كتاب «الصواعق» يبدو عليها الوضع لاستحالة ما ورد فيها شرعاً وعقلاً من معرفة علم الغيب ووجود الأسماك في الهواء والله أعلم.

قوله «قسا كصفا» أى القلب، وذلك كناية عن عدم قبوله المواعظ والنصح، وعدم رحمته للصغير والبهيمة والضعيف، وعدم شفقتة على الكبير والفقير، وكفرانه العشير، وعدم تحنُّنه على المعاهد، قال الرسول ﷺ: «حسن العهد من الإيمان»^(١)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] ثم بين كونها أشد قسوة بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] فكذلك قلوب الخاصة، فقلوب الأنبياء والوارثين من الأولياء تتفجر منها أنهار العلم والحكمة، فالأنبياء بالوحي تارة، وتارة بالإلهامات، وتارة بالمكالمات، وتارة بالنفث فى الرِّوع، وتارة رؤيا منام، وتارة يؤخذون عن عالم الحس إلى عالم الغيب، إلى سبعين نوعاً، ومادتهم جبريل، وبساطهم ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الاعلى: ٦٠]، و﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ [القيامة: ١٧].

وأما الأولياء، فكذلك^(٢) إلا أنهم لا يأتون بشرع جديد، ولم يؤخذ عليهم العهد بالتبليغ، كما أخذ على الأنبياء، بل واجب عليهم الكتمان^(٣) إلا ما لا بد منه قال بعضهم:

من سارروه فأبدي السرَّ مُنْكَشَفًا لَمْ يَأْمَنُوهُ عَلَى الْأَسْرَارِ مَا عَاشَا

وأبعدوه ولم يحظ بقربهم وأبدلوه مكان الأُنْسِ إِيحَاشَا

ومادتهم إسرافيل، وبساطهم ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وأما التى تتشقق فيخرج منها الماء، فقلوب السالكين أهل المجاهدة، ولا مادة لهم، وبساطهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) حديث «حسن العهد من الإيمان» حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وهو من حديث طويل أوله: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ أخرجه الحاكم فى المستدرک (١٦/١) والدليمى عن عائشة وهو فى كشف الخفاء تحت رقم ١١٤٦ وقال رواه ابن عبد البر عن أبى عاصم. اهـ، والله أعلم.

(٢) إن الأولياء ليسوا كالأنبياء. ولعل العبارة غير هذا.

(٣) الشرع لا يجوز كتمان شيء منه على الإطلاق. وأحرى أن يكون واجباً وإن لم يكن المكتوم شرعاً فلا خير فيه.

وأما التي تهبط من خشية الله، فقلوب كانت في غرور الشرف، وزخرف الترف، فذكرت بوادر ربانية، فانحطت إلى رتبة التواضع، فانتفعت ثم ارتفعت، ولذلك مثال، وهو ماء الغيث، فإنه يلقي بنفسه من عنصر رفعته إلى الأرض الجزز^(١) فيتبدد، وتبتلعه الأرض، ويأخذ منه كل حيوان بغيته، فلا يمكث إلا أياماً قلائل حتى يرى وقد علا غصون الأشجار، وكساها خضرة، وصارت له مراكب وطية، وثياباً هنية نقيه، ثم يصير روضاً أنيقاً ذا حسن عتيق، ثم يعلو عن ذلك فيصير نوراً^(٢) وزهراً، ثم يعلو عن ذلك فيصير زرعاً وثمرًا، وفواكه غلباً^(٣)، فيأكله الأنبياء والأولياء والمؤمنون، فيصير لحمًا ودمًا، فيصير حيوانًا بعد ما كان من جنس الجمادات، ثم يدخلون به الجنة، فيكون خالدًا بعد ما كان فانيًا، وبعضه يمطر على البحار فتبتلعه الأصداف، فيكون جواهر نفسية^(٤) فيلتقطه الغواصون، فيذهبون به إلى الملوك والأشراف، فيتخذون منه تيجانًا يجعلونها على المفارق، وحبلىً تجعله العذارى على النحور والترائق؛ لأن من كان في الله تلفه، كان على الله خلفه، ومن كان في الله كسره، كان على الله جبره، ومن كان في الله بدايته، كانت إلى الله نهايته.

وعلامة قسوة القلب عدم الضراعة، لا سيما عند مخايل العذاب، قال الله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣].

يروى أن الله تعالى لا يعذب قومًا خشعًا بالرقعة، ولا خضعًا بالطاعة والدعاء، قال الرسول ﷺ: «لولا بهائم رتع وصبيان رضع، ومشايخ رقع، لصب عليكم العذاب صبًا»^(٥).

(١) الجزز القاحلة: الأرض التي لا تنبت.

(٢) النور - بفتح النون - : الزهور.

(٣) لعل العبارة وحدائق غلبًا، وهي الحدائق الملتفة الكثيرة.

(٤) يريد بالجواهر: اللؤلؤ، وهو ما يستخرج من الأصداف من الدر، إلا أنه ليس من المطر وإنما هو من عيب ينشأ داخل الصدفة فتفرز مادة، تكون حبات اللؤلؤ. وقد أنشئت أماكن لإنتاجه باليابان بواسطة وخز الصدف بالإبر.

(٥) حديث: لولا بهائم رتع... إلخ. حديث ضعيف، أورده السيوطي في جامعه ورمز له بالحسن، إلا أن شارحه المناوي قال: قال الذهبي في «المهذب» ضعيف، ومالك وأبوه مجهولان... وقال =

وقال «لا يردُّ القضاءُ إلا الدعاءُ، فإنهما يلتقيان في الجوّ، فلا يزالان يعتلجان ويتصعدان^(١) حتى تقوم الساعة»^(٢)، وقال ﷺ «ثلاثة من علامات الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب وذراية اللسان»^(٣)، وقال «إن الله نزع الرحمة من قلوب المنافقين».

ويروى أن عيينة بن حصن^(٤) دخل على النبي ﷺ فوجده يُقبَّل الحسن^(٥) فقال: أتقبَّل الصبيان يا محمد وإني ولدت أحد عشر ولداً فما قبَّلت واحداً منهم، فقال له الرسول ﷺ: «قد نزع الله من قلبك الرحمة».

فظهر عليه بعد وفاة الرسول ﷺ من الارتداد والخبث والنكث ما هو مشهور في كتب السير. ومن شؤم القساوة أنها تمنع الإجابة، ولا يزداد صاحبها بذكر الله إلا بُعداً منه، قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

يروى أن الصحابة أتوا النبي ﷺ عندما أنزل الله قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ

= الهيثمي بعدما عذاه للطبراني: فيه عبد الرحمن بن سعد ابن عمار، وهو ضعيف، وبه يعرف ما في رمز المصنف لحسنه من التأمل، إلا أن يكون اعتضد. اهـ (٥/٣٤٤).

قلت: والسيوطي أوردته بلفظ «لولا عباد الله، بدل بهائم. قال صاحب «كشف الخفاء» بعد أن أوردته بألفاظ كثيرة وفي «التحفة» لابن حجر وورد في خبر ضعيف (٢/٢٣٠) والله أعلم.

(١) يعتلجان: يتصارعان.

(٢) حديث «لا يرد القضاء إلا الدعاء» هذه الفقرة صحيحة، والحديث بتمامه... إلخ. ضعيف رواه أحمد والطبراني والبخاري بلفظ «لا ينفع حذر من قدر. والدعاء ينفع ما لم ينزل القضاء، وإن البلاء والدعاء يلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان إلى يوم القيامة».

كما أخرجه الهيثمي في كتابه (١٠/١٤٦) وقال رواية أحمد والطبراني فيها انقطاع. ورواية البخاري فيها إبراهيم بن خثيم وهو متروك. والله أعلم.

(٣) حديث ثلاثة من علامات الشقاء... إلخ. لم أجده مخرجاً بهذا اللفظ.

(٤) عيينة بن حصن الغزاري يقال كان اسمه حذيفة فسمى عيينة لأنه كان أصابته شجة، فحفظت عيناه، أسلم قبل الفتح ثم ارتد في عهد أبي بكر ثم عاد إلى الإسلام، وكان فيه جفاء سكان البادية، وسماه النبي ﷺ الأحمق المطاع. مات في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ٢٠ (٣/٥٦). اهـ.

(٥) الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله ﷺ وريحانته، أمير المؤمنين، ولد في شهر رمضان عام ٣، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فتيين من المسلمين» مات مسموماً سنة ٥٠ أو ٤٩ هجرية (١/٣٣٠) إصابة.

يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴿ [الأنعام: ١٢٥] . فقالوا لرسول الله ﷺ: هل لذلك من علامة؟ قال: «نعم التجافى عن دار الغرور، والرغبة فى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

والقسوة أمر محسوس، يمنع حلاوة الدين، ويصدُّ عن الإقبال، ويحرم التوفيق، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وذلك أنه لا يجد فى قلبه محلاً لقبول الحق، ولا قابليته أصلاً، ولو أراد ذلك واجتهد فيه، فيجد ذلك كالمستحيل، كما أن الصعود إلى السماء بغير سلم مستحيل، فضرب لذلك مثالين فى عدم إمكان التَّصَعُّدِ إلى السماء، ووجود الحرج، وهو ما يُحَاوَلُ^(١)، لكن مع مشقة فاذحة تمنع من لم يذق حلاوة الإيمان مكابدة العمل فى طلب تحصيل المرغوب، إذ من علامات الخذلان بذل المجهود مع وجود الحرمان، وعلامة التوفيق تيسير أعمال الخير بدون كبير مؤونة، وعلامة الرقة، جريان أنهار الدموع من عين معين الخشوع، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦] فجعل الإيمان ناقصاً ما لم تخشع القلوب لذكر الله، قال الرسول ﷺ: «إذا اقشعرت أبشاركم لذكر الله، فاسألوا الله من فضله، فإن الله لا يردُّ دعاءً برز من قلب خاشع» وفى رواية: «فإن الدعاء عند الرقة مستجاب».

قال الشاعر:

إذا قسا القلبُ لم تنفعهُ موعظةٌ كالأرضِ إن أسبختْ لم ينفعَ المطرُ

ثم ضرب الله مثلاً للقلوب بما أنزل من الوحي والإلهام بقوله: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا ﴾ [الرعد: ١٧] من الباطل رايياً على مياه الحق ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧] فالسماة سماة الغيوب، والماء ماء العلم، والأودية أودية القلوب، فقلوب الأنبياء أنهار، وقلوب الأولياء أودية، وقلوب المؤمنين شعاب، فكلُّ سال بقدره ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة: ٦٠] فاحتمل سبيلُ الصفا زبد الجفا حتى غمره فاختفى، فأرسل الله

(١) كذا فى الأصل «ما يحاول» بالبناء للمجهول.

رياح الاصطفاء فصيرت الزبد^(١) جفاءً، وعاد الغلو هباءً، فسكن العلم النافع، ومكث، وعزل الباطل ونكث، فالحق يدوم، والباطل يحوم، والصفة نوع من الحجارة معروف، وله بريق وصلابة، ولذلك سمي باسم الصفا، والصفة جبل بمكة معروف، وهو من شعائر الحج^(٢) وعليه أغاث الله هاجر أم إسماعيل بالسقي، بعد أن سعت سبعة أشواط بينها وبين المروة، وهو جبل أيضاً، وسمى بالمروة، لأن عامة حجراته مراوى، وهى حجارة زرعية^(٣) هينة الصدع، وهى أول من سعى، وقيل: إن آدم سعى مع جبريل بينهما لما بنى البيت المشرف، فوفى الله هاجر، ففعلت ذلك من غير علم ولا قصد، فصار بعد ذلك نُسكاً إلى يوم القيامة، وإنما عبر المصنف بالصفة، إشارة إلى أن القلب أصله الصفا، إلا أن كدرته أمور طارئة عليه من جهة الشهوة والهوى والطبع، قال الرسول ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه».. إلخ^(٤). فالقلب فى البدن بمثابة الحجر الأسود فى البيت، أنزل من الجنة، وله شعاع، فسودته ذنوب بنى آدم بكثرة لمسها إياه، وكذلك القلب لما خلقه وأسكنه الله العقل والروح؛ اتصل شعاعه بشعاع العرش، فدنسته النفس والشيطان والهوى بلمس أيديهم، وحجبوه بدخان مكائدهم وغبار عوائدهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] فمنصور مؤيد، ومقهور مقيد، وذلك قول الناظم «مذ بان عنه صفاء» ف «مذ» من أدوات الجر، منذ، «بان» بمعنى انفصل، تقول: أبنت الرأس، أى قطعته وفصلته عن بدنه، ويأتى بمعنى بعد.

قال الشاعر:

* بانت سعاد فأُسي حبُّها انفصما *

وتغرَّلَ بـ«بانت سعاد» فى سبعين قصيدة، ويقال: بان إذا ظهر، وأبان: إذا

(١) فى الأصل (ب): الزبدین - بالثنیة.

(٢) يقصد الطواف بين الصفا والمروة، وهو ركن من أركان الحج.

(٣) كذا فى الأصل. ولعل مراده أن حجارة المروة تصلح لإنبات الزرع لعدم تماسكها، والله أعلم.

(٤) حديث كل مولود يولد على الفطرة... إلخ. طرف من حديث صحيح رواه البخارى ومسلم

وغيرهما بروايات مختلفة.

أفصح، وأبان المرأة: إذا طَلَّقَهَا، قال الحجاج^(١) لهند: كُنْتُ فَبِنْتُ، فيقال: طلاق بائن، والبيئونة: المفازة. و «عنه» متعلق بـ «بان» والضمير عائد على القلب ونكر الصفا للشُّمُول والاستغراق، كقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢) والصفا إما يوصف به أربعة أشياء: القلب، قال الشاعر:

وقالوا قد صفتُ منَّا قلوب
نعم صدقوا ولكن من وداد

والزجاجة: قال الشاعر:

إن الزُّجاج وإن صفت جواهره
يشينه اثنان كَشَفُ السِّرِّ والخَبَرِ

والماء، قال الشاعر:

ولى خُلُقٍ كَسَلِسَالٍ مَعِينٍ
زالال من على الأحجار جار

يقال: صفا مشربه، وصفا مورده، كناية عن الماء، وعن الطمأنينة بعد التشريد، والتمكين بعد المصاولة والتنكيد، والحدقة إذا لم يكن بها ظفر ولا رواق ولا قذى.

وفى «الحكم العطائية»: ليس الصوفى من لبس الصوف، ولكن الصوفى من صفا قلبه من الكدر، وامتلاً من العبر، واستوى عنده الذهب والمدر^(٣) ونعت القلب بالصفاء أمر معنوي، وهو عبارة عن لينه ورَقَّتْه، قال الرسول ﷺ: «أهل اليمن ألين قلوباً وأرقُّ أفئدة، والغلظة والجفاء فى الفدَّادين»^(٤) أهل الوبر من

(١) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى داهية سفاك خطيب، ولد ونشأ بالطائف، ثم سافر إلى الشام والتحق بشرطة روح بن زباج نائب عبد الملك ثم قلده عبد الملك بن مروان أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى مكة المكرمة، وقتل ابن الزبير، ثم ولاء عبد الملك مكة والمدينة والطائف، وأضاف إليهما العراق له حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه مات بواسط عام ٩٥ هجرية.

(٢) حديث «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» حديث صحيح أخرجه البخارى فى باب العلم ومسلم فى باب النهى عن المسألة، وأخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه إلا أن فى رواية الشيخين زيادة «وإنما أنا قاسم ويعطى الله». اهـ.

(٣) المدر: التراب.

(٤) حديث أهل اليمن حديث صحيح، رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق، ومسلم فى كتاب الإيمان كما رواه غيرهما إلا أنى لم أجد اللفظ الذى أورده الشيخ. والذى يظهر لى أنه مؤلف من عدة روايات. اهـ.

ربيعة ومضر^(١).

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] ثم يوصف أيضاً بالطهارة، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ﴾ [المدثر: ٤] فهما تطهيران شرعى وحقيقى.

فالشرعى: طهارة الثوب والبدن للقيام بين يدي الله لأداء فرائضه.

والحقيقى هو تطهير ثياب القلب بماء الغيب.

قال الشاعر:

بالماء يَطْهَرُ ما بالثوب من دَرَنٍ^(٢) وليس يغسلُ قلبَ المذنبِ الماءُ

يروى أن التابعين قالوا لأصحاب رسول ﷺ: مالنا يا أصحاب محمد نراكم أقل منّا علوماً، وأكثر تقوى، قالوا: إنا بذرنا فى قلوبنا بذر الإيمان، ثم سقيناها بماء العلوم، فأنبت التقوى، وأما أنتم، فإن ماء العلوم سبق إلى قلوبكم قبل بذر الإيمان، فأنبت الأرض قبل البذر ففسد أكثره، فلذلك كنتم أقل منّا تقوى، قال الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

قال الشاعر:

قلوبنا أوعيةٌ فكُلِّمنا	طاب الوعاءُ طاب ما قد حصَّلهُ
قلب التقى وزنه بدرةٌ	وغيره فوزنه بخردلُه
فواحد بالذكر صار روضةً	وأخرُ باللهو صار مزبلُه
لو سقى الحنظلُ شهداً دائماً	لم يلد الحنظل إلا حنظلُه
ما منبتُ الورد كُنبتِ غيره	ولا شدى المسك كريح البصلُه

ودليله قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ

(١) والفدادون الذين تعلقوا أصواتهم عند سوق المواشى.

(٢) الدر: الوسخ.

إِلَّا خَسَارًا ﴿ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤] جعلنا الله ممن جعل له من نفسه واعظًا ولم يكله إلى علم ولا عمل، فهما سبب هلاك إبليس حتى جرّاه إلى الكبر والعجب ومخالفة أمر الرب، وفيه من أنواع البديع التلميح، وحقيقته الإشارة الخفية إلى مناسبة بين لفظين متغايرين في الظاهر متوافقين في الحقيقة، كاشتقاق الصفا من الصفو وفطرة القلب على الصفاء.

وأشار إلى ذلك بقوله:

* . . . مُذْ بَانَ عَنْهُ صَفَاءُ *

إِذْ لَا يَبِينُ عَنِ الشَّيْءِ إِلَّا مَا كَانَ مَلَاذِمًا لَهُ، وبالله التوفيق.

* * *

• قوله:

١٢ - وَرَمْتِ جَدِيَّ مَا إِنْ يَدُومُ جَدَاؤُهُ وَسَيَّانُ فَقْرٍ فِي الثَّرَى وَثَرَاءُ

قوله: ورمت، أى: طلبت، أو حاولت يقال: لا يرام، لا يحاول، قيل: سُبْحَانُ مَنْ لَا يَرَامُ وَلَا يَضَامُ، والروم والرثامة عطف الناقة على فصيل غيرها.
قال الشاعر:

وَلَيْسَ يَنْفَعُ مَا تَأْتِي الْعُلُوقُ بِهِ رَثْمَانُ أَنْفٍ إِذَا مَا ضُنَّ بِاللَّبَنِ^(١)
والجدى بالفتح والقصر: هو المطر، ويطلق ويراد به العطاء.

(١) البيت لأفتون التغلبي واسمه ظالم بن معشر وهو «كما في الخزانة».

أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به رثمان أنف إذا ما ضن باللين

وهو من الشواهد المعروفة.

قيل: إن الكسائي أنشده في مجلس الرشد بحضرة الأصمعي فرفع رثمان فرده الأصمعي وقال إنه بالنصب، فقال له الكسائي: اسكت ما أنت وهذا؟ يجوز الرفع والنصب والجر فسكت.

ووجهه: أن الرفع بدل من (ما) والنصب بتعطى، والحفض بدل من الهاء.

والعلوق: الناقة التي علق قلبها بولدها، فإذا مات حشوا جلده فتحك أنفها به دون أن تدر لبنًا .
والله أعلم.

قال الشاعر:

يُجْدِيكَ مَعْنٌ إِذَا مَا رُمْتَ نَائِلَهُ قَبْلَ السُّؤَالِ فَلَا تَلْوِي إِلَى أَحَدٍ
ويطلق ويراد به الرجاء.

وقال الشاعر:

وَصَلَّتْ الْجُدَى بِاللَّهِ فِي كُلِّ أَرْمَةٍ فَأَلْفَيْتُهُ يَعْطِي الْمَنَى وَيَزِيدُ
والجداء بالمد والفتح: العطاء.

قال الشاعر:

إِنَّ الْجَدَاءَ حَلِيفُ الْفَضْلِ لَوْ طَلَبْتُ يَدَاهُ شُحًّا لَمَا شَحَّتْ أُنَامِلُهُ
يَمْطُرُنَ بِالتَّبِيرِ إِنْ سَحَّ الْغَمَامُ بِمَا فَذَا بِمَاءٍ وَذَا بِالتَّبِيرِ نَائِلُهُ

ومعناه أنك قد اشتغلت بباطل حيث طلبت من سراب الدنيا شراباً، لأنها سراب في طي شراب فالمطمئن إليها مغرور، والمحب لها مبتور^(١)، وهي كما وصفها الرسول ﷺ فقال: «نعم المرضعة، وبئست الفاطمة، ما ملئ بيت بها فرحاً إلا وملئ حزناً، وما ملئ جبوراً إلا استحال غروراً».

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] إذ لو دامت لغيرك، لم تصل إليك، وكلما وصلت إليك من غيرك تصل إلى غيرك منك وأنت راغم، فإنك إن جمعتها فرقتك، وإن فرقتها جمعتك.

يروى أن أول ما يخاطب به الميت قول الملائكة له: أجمعت الدنيا، أم الدنيا جمعتك أفرقت الدنيا أم الدنيا فرقتك؟ أتركت الدنيا أم الدنيا تركتك؟ فتجيبهم الحفظة بحقيقة أمره.

يروى أن معاوية^(٢) لما احتضر، جمع أهله فقال لهم: ألتسم أهلي، وفيكم كان

(١) مبتور: هالك.

(٢) معاوية: هو معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي أمير المؤمنين ولد قبل البعثة بخمس سنين أسلم عام الفتح، وكان من الكتبة الحسبة الفصحاء حليماً وقوراً، صحب النبي ﷺ وكتب له، ولاء عمر الشام بعد أخيه يزيد، وأقره عثمان، ثم استمر ولم يبايع علياً، ثم حاربه واستقل =

حربى وسلمى؟ قالوا: بلى نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: إن الموت قد بلغت ركبتي، فهل أنتم مغنون عني من هولها شيئاً؟ فبكوا وقالوا: لو كان بالجهاد أو بالدفاع لبذلنا المجهود، ولكن لا حيلة لنا. فقال: المغرور من غرته الدنيا بعدى، ملكت مشارق الأرض ومغاربها، فلم تغن عني من مصرعى هذا شيئاً.

وإنما عابها المصنف بعيين، وكفى بهما، وهما عدم الدوام، بقوله: «ما إن يدوم جداؤه» الثانى: استواء الغنى والفقير فى القبر وفى طعم الموت أيضاً بقوله: «وسيان فقراً فى الثرى وثراء» - لأن خزفاً يبقى خيراً من ذهب يفنى، فكيف إذا كان الذهب يبقى، والخزف يفنى؟.

قال الشاعر:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب عابه الناس غير أنك فان

وكان عمر بن عبد العزيز^(١) كثيراً ما يتمثل بهذا البيت وهو قوله:

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة فكيف آسى على شىء إذا ذهباً؟

وقال على^(٢) كرم الله وجهه: العجب كلُّ العجب ممن يعلم ذهاب الدنيا كيف يفرح بزخرفها؟ ويعلم غوائلها كيف يطمئن إليها؟ ويرى قلة غنائها ثم يركن إليها، ويرى انقلابها بأربابها وسرعة خرابها ثم يغتر بها.

= بالشام، ثم تسمى بالخلافة بعد الحكمين ثم استقل لما صالح الحسن واجتمع عليه الناس فسمى ذلك العام عام الجماعة، مات فى رجب عام ٦٠ هجرية. والله أعلم.

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان القرشى الأموى الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما سمي خامس الخلفاء نشأ وتعلم بالمدينة، وولى إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك، وولى الخلافة بعده سنة ٩٩ هجرية وتوفى سنة ١٠١ بدير سمعان ومدة خلافته ستان.

(٢) على: هو على بن أبى طالب الهاشمى القرشى أمير المؤمنين، أول الناس إسلاماً فى قول كثير من أهل العلم، ولد قبل البعثة بعشر سنين، تربى فى حجر النبى ﷺ، وشهد معه المشاهد كلها، إلا غزوة تبوك، وزوجه ابنته فاطمة، ومناقبه كثيرة، حتى قال الإمام أحمد: لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلى بوبع بالخلافة بعد قتل عثمان بن عفان وكان هادياً مهدياً، قتل رضى الله عنه ليلة ١٧ رمضان عام ٤٠ هجرية والله أعلم.

وفى البيت نوعٌ من الاقتباس، وهو الإتيان بالبيت مضمناً معنى آية من كتاب الله أو حديثاً، إذ ضرب للدنيا مثلاً بالمطر بقوله - ورمت جدى - مطراً من الدنيا «ما» نافية و «إن» نافية أيضاً، أى: لا يدوم جداؤه، أى عطاؤه، لأن الدنيا تعطى فيما يرى الجاهل الرزق والأموال والآمال وشرخ الشباب، كما أن المطر يعطى فيما يرى الجاهل الخصب والنبات والزرع والغُدْرُ^(١)، وكل من النوعين لا بقاء له، ولا ثبات عليه، بل إنما جعل للتزود والاعتبار، فمن طلب منها غير هذا فقد أخطأ وخاب، قال الله تعالى: ﴿وَأَضْرَبُ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] من ذهابها والإتيان بمثلها، ثم فسر المثل بقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] لا فائدة فيهما إن لم يكونا زاداً وعودتاً على تحصيل الباقيات الصالحات ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦].

واختلف فى الباقيات الصالحات، فقيل: الأعمال الصالحة التى تبقى مع الإنسان فى حياته، وتحفظه عند مماته، وتقرُّ بها عينه بعد وفاته، ويتهجج بها عند بعثته وملاقاته، من جميع أعمال البر الصالحات من الآفات^(٢) الزاقيات الطيبات من الهفوات ومن التصنعات. وقيل: هى: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

والشرى بالفتح والقصر: الأرض النديّة، وهى هنا كناية عن القبر، وهى من باب تسمية الشىء باسم ملازمه، والشرى بالفتح والمد: كثرة المال. يقال: مال ثرى: إذا نَمى وكثر.

قال الشاعر:

لعمرك ما يُغنى الثراءُ عن الفتى

إذا حشَرَجَتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

قوله «سيان» لفظ مستعمل فى أشعار العرب وخطبها ونثرها، وكثيراً ما يستعمل

(١) الغدر: جمع غدِير، قطعة من الماء يتركها السيل.

(٢) كذا ورد فى الأصل وربما كانت هناك كلمة ناقصة أو جملة والله أعلم.

في أغياء^(١) المدح، قال الفرزدق^(٢):

لا ينقص العدمُ بسطاً من أكفهم
سَيَّانٌ في ذاك إن أثروا وإن عَدِمُوا

«سيان» تثنية سواء، وسوغ الابتداء بالنكرة حضرها بالمجرور، فهو في قوة الفقر، والثراء في حالة الدفن في الثرى سيان.

يروى أن ذا القرنين^(٣) مر على مدينة عظيمة من مدائن المغرب، فلما دنا منها لم تبق في المدينة مخدرة إلا برزت لتنظر إلى عساكره، وفقير جالس عند المقابر لم يعبا به، ولم يلتفت إليه ولا إلى عساكره، فلما اطمان أنه أهل المدينة بالتحف والهدايا، فقال لهم: ألمدينتكم ملك؟ فقالوا: كان بها ملوك فانقرضوا، وما ملكنا أحداً بعد، فقال: ألم يبق من نسلهم أحد؟ قالوا: لا إلا رجل مدله^(٤) قد لزم المقابر، يفتش عظام الموتى فذهب إليه ليعلم شأنه، فقال له ذو القرنين: بلغني أنك من نسل ملوك هذه المدينة، فهلهم إلى أحيى شرفك وشرف آبائك إن كانت لك همة، فقال: لى همة عالية إن وجدت إلى ذلك سبيلا، قال: وما بلغ من همتك؟ قال: إن أعطيتني أربعة أشياء أطعتك فيما طلبته منى، قال: وما هي؟ قال:

الأولى: أن تضمن لى على ربك أن لا أحاسب قال: ليس ذلك إلى .

والثانية: أن تضمن لى أنى أُخَلِّدُ فلا أموتُ، قال: ليس ذلك إلى، ولا أطيقه لنفسى .

قال الثالثة: أن تُعطينى مُلْكًا لا يبىد، قال: ليس ذلك إلى .

والرابعة: أن تضمن لى على الله أن لا أدخل النار. قال: ليس ذلك إلى، قال:

إن كنت لا تقدر على هذا فدعنى أطلبه ممن يقدر عليه، ثم قال له: مالك حين

(١) أغياء: الذى يظهر لى أنه جمع غاية منتهى المدح، والله أعلم.

(٢) الفرزدق: همام بن غالب بن صعصعة التيمى، شاعر من النبلاء من أهل البصرة عظيم الأثر فى اللغة، وهو صاحب الأخبار مع الأخطل وجريز، ومهاجته لهما معروفة، لقب بالفرزدق لجهامة وجهه، توفى فى بادية البصرة وقد قارب مائة عام.

(٣) ذو القرنين: الإسكندر الكبير المقدونى، ملك الدنيا، كما قص الله فى كتابه، ولقب بذى القرنين لعظم قدرته وسطوته لأن القرنين كناية عن السلطان. اهـ، والله أعلم.

(٤) مدله: ذاهب القلب.

مررتُ بجنودى عليك لم تلتفت إلىَّ ولا إلى جنودى، وقد برزت المخدّرات للنظر إلىَّ؟ قال: إنما ينظرون إلى سرابٍ بَقِيعةٍ يظهر ثم يضمحل، ولو علمت أنى أحصل فائدة بالنظر إليك وإلى جنودك لَفعلت، وكان أولى بك أن تشتغل بما يعينك من فكاك مهجتك من تسيير هذه العساكر التى لا تقع من تديرها على طائل، بل فك مهجتك أولى بك، فبكى ذو القرنين حتى أخضل لحيته، ثم قال له: ما تُريد من تفتيش عظام الموتى؟ قال: أعتبر بذلك، وأرى نفسى حقايرة شرف الدنيا، وقلة غناء عُنّاها، فإنه لا فرق بين جيفة الملك والعبد بعد ثلاث، ولا بين الشريف والمشروف، ولا الغنى والفقير، ولذلك زهدت فى غير الباقي، فرجع من عنده ذو القرنين وقد زهد فى الدنيا، ورغب عن المُلْك.

قال الشاعر:

وما هذه إلا حياة قليلةٌ تمرُّ وأيام تمرُّ سِرَاعُ

وما وصفها الواصفون بأشمل من قول الشاعر:

هى الدنيا تقول بملء فيها حذارِ حذارٍ من بطشى وفتكى
فلا يغررنكم منى ابتسام فقولى مضحك والفعل مُبكى

وقول الآخر:

ومن يصحب الدنيا طويلا تكشف له عن عدوِّ فى ثياب صديق

وقول الآخر:

هى الدار دار الأذى والقذى^(١) ودار الغُرور ودار الغَيْر^(٢)
فلو نلّتها بحذافيرها لَشَبْتَ ولم تقض منها الوَطْرُ
أيا من يأمل طول الحياة وطولُ الحياة عليه ضَرَرُ
إذا ما كبرت وبان المشيب فلا خير فى العيش بعد الكبر

وقال آخر:

(١) القذى: ما يسقط فى العين أو الشراب من الأشياء الصغيرة.

(٢) الغير: جمع أغيار، الانتقال من حال إلى حال.

فما قضى أحد منها لبانته^(١) ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

وهو مقتبس من قول النبي ﷺ «الدنيا هم لا ينقطع أبداً؛ وفقر لا يدرك غناه أبداً وشغل لا يفرغ منه أبداً» وقال ﷺ «منهومان لا يشبعان أبداً، طالب دنيا، وطالب علم، ولا سواء، طالب الدنيا لا يزداد من الله إلا بُعداً، وطالب العلم لا يزداد من الله إلا قرباً، وطالب العلم غرثان^(٢) إلى حلم^(٣)».

وقد تنال الدنيا بنية الآخرة، ولا تنال الآخرة بنية الدنيا.

فإن قلت: قد شاع وانتشر سبُّ الدنيا وعيبيها، حتى بلغوا في ذلك أن قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً^(٤)».

وقد ثبت ثناؤه عليها بقوله: «الدنيا نعم المطية للرجل الصالح، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر».

وقال: «لا تسبوا الدنيا، فإنها مطية الآخرة^(٥)».

ونهى عن إضاعة المال، وهو عينُ الدنيا وزيتها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] فصار في ذلك وجه تناقض عند من لم يتدبر ذلك، فالخروج هو ما بينه الترمذى بقوله: الدنيا كالآلة، فهي لما استعملت فيه، فإن استعملتها في طلب مرضاة الله والدار الآخرة، فهي مطية لصاحبها، عليها يبلغ خير القربات، وبها ينجو من دركات المحرمات والشبهات، قال ﷺ:

(١) لبانته: حاجته.

(٢) حديث منهومان لا يشبعان... إلخ. ضعيف رواه الطبراني بلفظ «منهومان: منهوم العلم ومنهوم المال» أما الزيادة التي أوردها الشيخ فلم أجدها، وهذا القدر الذي رواه الطبراني ضعيف قاله العراقي في تخريج الإحياء (٢٣٢/٣) والله أعلم.

(٣) غرثان: جائع - أى محتاج.

(٤) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها: رواه الترمذى وحسنه كما رواه الطبراني فى الأوسط رمز له السيوطى بالحسن قال المناوى نقلا عن الطبرانى إنه لم يروه عن ثوبان عن عبدة إلا أبو المطرف قال الهيثمى: ولم أر من ذكره (٥٥٠/٣) الفيض

(٥) حديث لا تسبوا الدنيا. أورده صاحب كشف الخفاء تحت رقم ٣٠٢٩ وعزاه للديلمى ولفظه: «لا تسبوا الدنيا فتعم مطية المؤمن» وسكت عليه. اهـ.

«من جمع مالا من حلّه، وصرفه في محلّه، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر»^(١).

ويرى أنه قال: «من جمع مالا من حلّه، وأدى فيه حق ربّه، تعطفًا على الفقراء، وتعطفًا عن المسألة، ونفقةً على العيال، يكرم الضيف، ويعطى في نوائب الحق، جاء يوم القيامة وكأنه نبي مرسل، أو ملك مقرب يترآه أهل المحشر غبطة بحاله، وأما من جمعه من غير حلّه مكائراً مفاخرًا متطاولاً متخوضاً في مال الله بغير حق، جاء يوم القيامة وعلى وجهه قتره^(٢) الغضب، ولقى الله وهو عليه غضبان، وأما من لم يبال من أى وجه جمعه، فإن الله لا يبالى فى أى وادٍ من أودية النار أوبقه^(٣)، فإن تصدق منها صار زاده إلى النار، وإن أمسكه، كان زيادة له فى الإثم».

فبان من هذا أن الدنيا لا تدم على الإطلاق، ولا تمدح على الإطلاق، بل تحمد وتدم بحسب ما استعملت فيه، فالناس فى الدنيا على ثلاث طوائف:

فقوم رأوا الدنيا، فقالوا: هذه جيفة قدرة، وطالبها لذاتها كلب، لكن لا بد منها إذ قد وضعت على جادة الطريق، ولا بلاغ لنا إلا بها، فحصلوا منها ما أوصل وتركوا ما شغل، فهم السابقون بالخيرات، قد جعلها الله فى أكفهم، وطهر منها قلوبهم.

وطائفة امتثلوا ظاهر الحديث من غير غوص إلى الحقيقة، فرفضوها رأساً فمن أيد باليقين نجا مخففاً ومن لم يؤيد به مات فى ترهات^(٤) الضلال، وربما أنبت^(٥) فلا هو فقير صابر، ولا هو غنى شاكراً فهؤلاء مقتصدون.

(١) حديث «من جمع مالا فى حله وصرفه فى محله» ضعيف أخرجه أبو نعيم فى الحلية وعنه الغزالي فى «الإحياء» بلفظ: «من طلب الدنيا حللاً مكائراً مفاخرًا لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفاً عن المسألة، وصيانة لنفسه، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».

قال العراقي: رواه أبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة بسند ضعيف (٣/٢١٧)، والله أعلم.

(٢) القتر: الغبرة.

(٣) أوبقه: ذلّه أو أهلكه.

(٤) الترهات: الأباطيل.

(٥) هذه الكلمة فى الأصل غير واضحة وأقرب شىء إليها ما أثبتناه ومعنى انبت: انقطع.

وظائفة استعملت ظَاهر قَوْلِهِ ﷺ: «الدنيا مطية الآخرة»^(١) فافتحموا لُججها من غير سفينة ولا دليل، فغرقوا في لُججها إذ حسبوها عمدوحة لذاتها ولواجب صفاتها، ولم يعلموا أن الممدوح من قلب أعيانها، وبدل أجبانها^(٢) وعلى هذا الخط نظم الشاعر فقال:

أيها العبد إن دنياك بحر طامح موجه فلا تأمنها وسبيل النجاة فيها مبين

وهو أخذ الكفاف والقوت منها. ثم حصرها الله تبارك وتعالى في آية واحدة فجمع فيها بين الوصف والإخبار والمثل والإنذار والتزهّد والاعتبار، فقال:

﴿اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كمثلٍ غيثٍ أعجب الكفار نباته﴾ إلى قوله: ﴿متاعُ الغرورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وبالله التوفيق.

• قوله:

١٣ - وَلَوْ فِي الْمَلَأَ رَمَتَ الْمَلَأَ حَلَلَتْ فِي رَجَاهُ إِذَا مَا صَحَّ مِنْكَ رَجَاءُ

قوله: «ولو في الملاء رمّت الملاء حللت في رجاءه إذا ما صحّ منك رجاء» قوله: «ولو في الملاء» بالفتح والقصر: الغنى، والملاء بالفتح والمد: الأشراف والأعيان من بنى آدم والملائكة. قال الله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ [النمل: ٣٢] والملاء بالقصر، مشتق من المال، وقيل: من الملاء، يقال: تملأ القوم: إذا كثرت أموالهم، ويقال: تمول: وفيه نوع من القلب الطبيعي معناه: لو أنك طلبت اتخاذ الملاء أى الأشراف أعواناً وأخلاء لوجدته زمن كونك ذا ملاء، أى غنى، إذ الأشراف والكبراء لا يعبئون بمن لا مال له.

(١) حديث «الدنيا مطية الآخرة» لم أجده بهذا اللفظ: إلا أن السخاوى أورده بلفظ: «الدنيا مزرعة الآخرة»، وقيل الغزالي. وعنه صاحب «الكشف» تحت رقم ١٣٢٠ وقال لم أقف عليه وهو فى «الفردوس» بلا سند: قلت قد رواه الحاكم وصححه بلفظ: نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته حتى يرضى ربه ويثبت الدار لمن صدته عن آخرته وقصرت به عن رضاء ربه، إذا قال العبد قبح الله الدنيا قالت الدنيا قبح الله أعصانا لربه. اهـ. لكن الذهبى رده وقال: بل منكر وعبد الجبار لا يعرف (٣١٣/٤) مستدرك.

(٢) هذه العبارة وردت هكذا ولعل معناها قلب أعيانها أى أعاليها، وأجبانها أسافلها، إذ الأجبان الأرض المستوية. والله أعلم.

قال الشاعر:

فأنت ما استغنيتَ عن صاحبك الدهر أخوهُ
وإذا احتجتَ إليه مرةً مجَّك فوه

وقال غيره:

الناسُ أعوانٌ من والتهُ دولتهُ
وهم عليه إذا خاتتهُ أعوانُ

وقال غيره:

إذا كنتَ ذا ثروةٍ في الورى
ويكفيك من نسب صورة
فأنتَ المقدمُ والمكرمُ
تنبئُ أنك من آدمُ

وقال غيره:

من جاد بالمال مال العالمون له
وشرفوه فصار الأنف والسناما^(١)

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر، والفقر، ومن عذاب القبر»^(٢).

وكان كثيرا ما يقول: «اللهم وسِّعْ عليَّ الدنيا، وزهِّدني فيها، ولا تقترها عليَّ وترغبني فيها».

ويقول: «اللهم إني أسألك الموت في الدولة، وأعوذ بك من الموت في العيلة».

ويقول: «الفقر الموت الأحمر، والأعمى ميت لم يقبر، ومن لم يترك ولدًا ذكراً لم يذكر».

وقال: «كاد الفقر أن يكون كفراً».

وقال على كرم الله وجهه: إذ افتقر الرجل، أورثه رقةً في دينه، ووهناً في مروءته، واحتقاراً في قلوب العامة، فجافاه القريب، وتباعد عنه الحبيب، ولذلك

(١) في الأصل السناما هكذا: ولعلها السنما ليستقيم الوزن.

(٢) حديث «اللهم إني أعوذ بك من الكفر»... إلخ. رواه النسائي في باب الاستعاذة (٢٦٢/٨) وهو بدون من كما رواه الحاكم بزيادة وقال صحيح الإسناد وسكت عليه العراقي في تخريج الإحياء (٣٢٥/١).

قال الشاعر:

أرى الفقر يزرى بالكرام أولى النهى فيا ربّ جنبه بيوت الأكارم
وقال عليه السلام: «أسعد الناس من جمع الله له غنى الدنيا ورحمة الآخرة، وأشقى
الناس من جمع الله عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة»^(١).

وفى ذلك يقول الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل
وقال عليه السلام: «أسعد الناس من أطال الله عمره، ورزقه الإجابة»^(٢).

وأما قول بعض شروحه: إن الملاهي الأرض الواسعة، فلم أطلع عليه فيما
طلعت من كتب اللغة، إلا أنى رأيتُ في شارح الهمزية عند قول البوصيري^(٣)
وكان الملاء، فقال: وجه الأرض، فإن كان له اشتقاق، فهو من الميل، وهو سير
الراكب حتى يميل من التعب، أو هو ما يملأ عين الناظر من البیداء حتى تحار
دونه، فمعنى البيت على رأيه: الحثُّ على العزلة طلباً للسلامة، ولم آخذ به، ولم
أدر ما هو، لكن معنى البيت: لو طلبت الوصلة بالملاء أى: الأشراف زمن الملاء
لحللت في أرجائهم وأكنافهم، ولشرفت بشرفهم، والرجاء مفرد الأرجاء، قال الله
تعالى: ﴿وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧] إن صح منك رجاء - وحقيقة الرجاء:
تعلق القلب بمطموع فيه مع العمل في تحصيله، قال صاحب «الحكم»: الرجاء: ما
قارنه عمل، وإلاً فأمنية.

(١) حديث أسعد الناس... إلخ. رواه الطبراني وأبو الشيخ بلفظ أشقى الأشقياء من اجتمع عليه
عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وأورد الجزء الأخير منه صاحب الكشف تحت رقم ٣٧٥ وسكت
عليه.

(٢) حديث أسعد الناس من أطال الله عمره... إلخ. حسن رواه أحمد والبيهقي بإسناد حسن وأوله
«لا تمنوا الموت فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإجابة.
وبهذا اللفظ أورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٨٨٥ وقال ضعيف لأن في سنده الحارث بن
أبي يزيد ولم يوثقه إلا ابن حبان، وقد اضطرب في اسمه والله أعلم.

(٣) البوصيري: هو محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي المصري، شاعر مليح المعاني، ينسب إلى
بوصير من أعمال بنى سويف بمصر، وأصله من المغرب، له ديوان شعر، وأشهر شعره البردة.

وفي معنى حصول الشرف بمجاورة الأشراف والتصدير^(١) بملازمة أرباب الصدور.

يقول الشاعر:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا
مضافاً لأرباب الصدور تصدراً
وإياك أن ترضى بصحبة ساقطٍ
فينحطَّ قدرٌ من علاك وتُحقرأ
والرجاء أساس الأعمال الصالحات وزمامها، قال الله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٧]، وقال: «أنا عند ظن عبدي بي، ومعه ما تحركت شفتاه
بذكرى»^(٢).

ومن ذلك حديث «الجلس الصالح وجليس السوء» المشهور والمخرج في
«الصحيحين» بأسانيد جمّة، وروايات مختلفة.

وقول الرسول ﷺ في «صحيح مسلم»: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»^(٣).
وقال: «عليكم بالسواد الأعظم»
وقال: «من شدَّ شدَّ إلى النار».
وقال: «الشیطان كالذئب، إنما يأخذ الشاة الفاذة».

وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ لَهُمْ﴾ [النساء: ١١٥].

(١) كذا في الأصل: والمراد التصدير.

(٢) حديث «أنا عند ظن عبدي بي»... إلخ. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهو أول حديث طويل رواه البخاري في باب التوحيد، ومسلم في باب الذكر، أما اللفظ الذي أورد الشيخ، فلم أجده، إلا أن البيهقي روى «أنا عند عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» وللحاكم «عبدي أنا عند ظنك بي، وأنا معك إذا ذكرتني».

(٣) حديث المجلس الصالح. طرف من حديث متفق عليه رواه البخاري في باب المسك كتاب الذبائح، ومسلم في كتاب البر والصلة باب استحباب مجالسة الصالحين، وأوله عند البخاري «مثل المجلس الصالح» وعند مسلم «إنما مثل المجلس الصالح»:

وأما حديث «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» فهو جزء من حديث طويل أوله إن الله ملائكة يطوفون... إلخ. وهذا الحديث متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الدعوات بلفظ «هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» ومسلم في كتاب الذكر والدعوات باللفظ الذي أوردته الشيخ رحمه الله (٦٨/٨) والله أعلم.

ويطلق الرجا بالقصر، ويراد به التأخير، قال الله تعالى: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١، والشعراء: ٣٦].

ويطلق ويراد به الانتظار، تقول للرجل: أرجنى حتى آتيك.

واختلف في العزلة والخلطة، أيهما أفضل؟ فذهبت طائفة إلى تفضيل العزلة، لقربها من السلامة، محتجين بقول رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف^(١) الجبال، ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن»^(٢). وقوله: «إذا رأيت شحا مطاعاً وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك».

وقوله: «يوشك أن يكون خير المسلمين رجل ضعيف الخاذ لا يعبا به، قلت بواكيه، وقل ثرائه، وقل حسابه، وله حظ من صلاة الليل»^(٣).

وفي رواية من غير إضافة «من اعتزل الناس في شعب من الشعاب اتقى شرهم وقد كفاهم شره، يعبد ربه حتى يأتيه اليقين»

وقيل: الخلطة أفضل، لكثرة الأجور المستفادة منها، من تعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وتحصيل العلم، والجلوس الصالح، وصحبة الأخيار، وزيارة الصالحين، وصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف، وإطعام الجائع، وسد خلة الفقير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحمل الأذى، إلى غير ذلك مما لا ينال في الخلوة. قال الرسول ﷺ: «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس من بيضاء وصفراء تنفقها في سبيل الله»^(٤).

(١) شعف الجبال: رؤوسها.

(٢) حديث: «يوشك أن يكون خير مال المسلم»... إلخ. حديث صحيح رواه البخاري في كتاب الإيمان باب من الدين الفرار من الفتن. كما رواه أبو داود والنسائي. والله أعلم.

(٣) حديث يوشك أن يكون خير المسلمين رجل... إلخ. ضعيف رواه الحاكم (١٢٣/٤)، وأبو يعلى وغيرهما بالفاظ كلها ضعيفة مع أن الحاكم قال صحيح عندهم ولم يخرجاه، وردّه الذهبي قائلاً لا بل إلى الضعف هو أقرب، والله أعلم.

(٤) حديث «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»: هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب المغازي، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، وأوله =

وقال عليه السلام: «خياركم عند الله وأقربكم منى منازل يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون»^(١).

وقال: «خيركم خيركم لأهله وجيرانه»^(٢).

وقال: «الخلق عيال الله وأحبكم إليه أنفعكم لعياله»^(٣).

وقال: «إن لله عبادةً خلقهم الله لحوائج عبادته، يفرعون إليهم في حوائجهم، ألى على نفسه أن لا يعذبهم بناره»^(٤).

وقال: «إن لله عبادةً اختصهم بنعمته، ووجه إليهم طلابها ويسر عليهم أسبابها ما بذلوها، فإذا منعوها نقلها إلى غيرهم»^(٥).

وفى رواية: «ما بذلوها، فإذا ملؤها نقلها إلى غيرهم» وهذا الفضل الجزيل لا يتأتى مع العزلة.

= «لأعطين هذه الراية غداً»... إلخ. أما الزيادة فقد رواها الطبراني، ورمز لها السيوطي بالحسن، إلى قوله «خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت» قال المناوي: قال الهيثمي: فيه يزيد بن أبي زياد مولى ابن عباس. اهـ (٢٦٠ / ٥) مناوي أما بقية الزيادة فلم أعثر عليها.

(١) حديث «خياركم عند الله»... إلخ. رواه الطبراني في مكارم الأخلاق بلفظ «إن أقربكم منى مجلساً أحاسنكم أخلاقاً»... إلخ. وسنده ضعيف كما قال العراقي في تخريج الإحياء (١٥٤ / ٢).

(٢) حديث «خيركم خيركم لأهله»، رواه الترمذي وابن ماجه بلفظ «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» وله بقية عند الترمذي، وقد صححه كما صححه السيوطي في الجامع (٤٩٤ / ٣) مناوي.

(٣) حديث «الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله». موضوع رواه أبو يعلى والبخاري والطبراني قال الهيثمي: فيه يوسف بن عطية الصفار وعمير القرشي وهما متروكان (١٩١ / ٧) مجمع. وقال المناوي قال ابن الجوزي: حديث لا يصح (٣ / ٥٠٦) قال في الميزان يوسف بن عطية الصفار مجمع على ضعفه ومن مناكيره: (الخلق كلهم عيال الله) (٤ / ٤٦٩) ميزان.

(٤) حديث «إن لله خلقاً» حديث ضعيف رواه الطبراني وقال فيه الهيثمي فيه شخص ضعفه الجمهور وأحمد بن طارق الراوي عنه لم أعرفه وبقيه رجاله رجال الصحيح (١٩٢ / ٨) مجمع، ورمز له السيوطي بالحسن في جامعه (٤٧٦ / ٢) مناوي.

(٥) حديث «إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم» رواه الطبراني وقال الهيثمي فيه محمد بن حسان السمتي فيه لين وشيخه أبو عثمان ضعفه الأزدي (١٩٢ / ٨) مجمع، ورمز له السيوطي بالحسن والله أعلم.

فالخاص أن الخلطة أفضل ما أمنت الفتنة، فإذا خيفت الفتنة، فالعزلة خير للإنسان في خاصة نفسه.

والخاص أن الخلطة أفضل للعالم الراسخ المحقق مطلقاً، لأنه يمنع الناس في حالة^(١) الفتنة من التوغّل في الهرج^(٢)، ويدعو إلى السداد، ويكفّ العباد عن الفساد.

وأما العاصر عن هذه المنزلة، فالعزلة أولى به مطلقاً، ما لم يخف أن يدخل عليه العُجب، فالخلطة حينئذ خير له، ولكل من الحالتين شروط لا تتم إلا بها، وكل من الربتين قد أشار إليها السيد محمد البوصيري في بردة المديح بقوله:

وأخش الدسائس من جوع ومن شبع

فرب مخصصة شر من التخم

أى، رب عزلة أورثت عزا وافتخاراً، خير منها خلطة أورثت ذلاً وانكساراً.

قال الرسول ﷺ: «إن الله ليمنع العبد من الأعمال مخافة عليه أن يقع فيما هو أشد منها، قالوا: وما هو يارسول الله؟ قال: العُجب العجب»^(٣).

قال القوم: خذ جزئين من كليتين واجعلهما كلية تنجو، وذلك أن تأخذ من الاغترار الرجاء، ومن القنوط الخوف، وتجعلهما جناحيك في طلب الخير، والفرار من الضمير، فإذا هدأ أحدهما بطل الآخر، لكن ينبغي ترجيح الرجاء عند الموت والأهوال والخوف في الأمن والصحة، والصواب من ذلك ما عليه عمر رضى الله عنه فإنه يقول: لو بلغنى أنه لا يدخل الجنة إلا رجل واحد لرجوت أن أكونه، ولو بلغنى أنه لا يدخل النار إلا رجل واحد لخشيت أن أكونه.

ويبلغ من خوفه أنه كان إذا مرّ بآية من حربه فيها وعيد، يخرّ مغشياً عليه، ويلزم الفراش حتى يعاد يحسبه الجاهل مريضاً، وما به إلا ألم الخوف.

(١) كذا في الأصل. والأولى حال الفتنة.

(٢) الهرج: القتل، وهو بسكون الراء.

(٣) حديث «إن الله ليمنع العبد من الأعمال»... إلخ. ضعيف رواه أحمد والحاكم وعنهما السيوطي في جامعه بلفظ قريب من لفظ الشيخ وبدون العجب العجب ورمز له بالضعف وأقره المناوى (٢/٢٦١) والله أعلم.

ويطلق الرجاء، ويراد به الخوف، وهو من باب تسمية الشيء باسم نقيضه قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبا: ٢٧] أى لا يخافون من ذلك، قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ قَاتِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

فالأول العدل، والثانى الجور، وكذلك العدل الأخذ بالحق، والعدل الميل عن السبيل، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].
قال الشاعر:

وَدَانَ بِالْحَقِّ لَمْ يَعْدِلْ وَلَمْ يَزِغْ وَلَمْ يِدَاهِنْ وَلَمْ يَنْكُثْ وَلَمْ يَزِغْ
وبالله التوفيق.

• قال رضى الله عنه:

١٤ - كَفَى بِالْفَنَاءِ قُوْتًا لِنَفْسٍ فَنَاءُهَا قَرِيبٌ وَيَكْفِيهَا صَرًّا وَصَرَاءً

كفى: فعل ماض بمعنى الانتهاء، كما تقول: كفى بالله وكيلًا، وكفى بالله شهيدًا، فالأول الانتهاء فى الضعة، والثانى الانتهاء فى الرفعة، «بالفناء» جار ومجرور متعلق بكفى، والباء زائدة بمعنى التأكيد «قوتًا» منصوب على التمييز.

فالفناء بالقصر: ما تساقط على الأرض من الطعام، قال الرسول ﷺ «أكل الفناء ولحق الإنا وترك الزنا يورث الغنى».

ويطلق ويراد به التآفه من الرثة^(١).

قال الشاعر:

تَرَكْتُ الْفَنَاءَ لِلْقَوْمِ يَنْتَهَبُونَهُ

وصممت أبغى الوتر والسلب عن قسرى

وما راقنى منذ عاقنى ربع منزل

أو أدرك تُأرى من تميم بنى مُرِّ

(١) الرثة: جمعه رث وراث: السقط من متاع البيت.

والفنا مؤخر خف البعير وهو عين عكس الكوع، والفناء بالمد ضد البقاء، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٦) وَيَقْبَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿[الرحمن: ٢٦]، فلما نزلت هذه الآية، طمع سُكَّانُ السموات والبحار في البقاء، فأنزل الله قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فيئس كل ذى نفس منقوسة^(١) من البقاء، وطمع فيه الجمادات، حتى أنزل الله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فيئست الكائنات كلها من البقاء، وأما القدم فلا مطمع لأحد فيه، إلا أن الفلاسفة والطبيعية^(٢) قَبَّحَهُمُ اللهُ يقولون بقدم العالم، مستدلين على ذلك بأنَّ علم البارى جل وعلا قديم، وإنما علمه تعلق كشفه بإيجاد المعلومات أزلاً، ومتعلق القديم قديم، وقد ضلُّوا إذ لا يتعلق القديم إلا بالحدث تعلقاً إيجابياً من غير مماسة ولا اتصال ولا مجانسة، إذ شتَّان ما بين العلم والمعلوم، فالعلم صفة ذاته، والمعلوم جميع مخلوقاته، كما لا مناسبة بين القبض والمقبوض فى الخارج.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] فتتفرع القضية إلى قابض وقبض ومقبوض عليه.

قوله: لنفس فناؤها قريب.

فإن قلت: لم أضاف المصنّف الفناء للنفس دون الجسم، والمعلوم المجمع عليه أن أرواح السعداء باقية ناعمة إلى يوم الدين، وأرواح أهل الشقاء معذّبة إلى يوم القيامة؟ فالفانى لا يعدّب وإنما يعدّب الباقي، قال محمد بن إسماعيل وهو البخارى:

يا رب أعضاء السجود عتقتها

بفضلك الوافى وأنت الواقى

والعتق يسرى بالفنا إذا الغنى

فامنن على الفانى بعثق الباقي

فالفانى الجسم، والباقي الروح.

(١) منقوسة: مولودة.

(٢) الطبيعية: هم الذين يقولون: إن الطبيعة هى التى أوجدت الكائنات، وهم الدهرية. قبحهم الله.

(٣) البخارى هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى أمير المؤمنين فى الحديث

ومؤلف صحيح البخارى أصح الكتب بعد كتاب الله ولد فى ١٣ / ١٠ / ١٩٤ وتوفى رحمه الله

فى اليوم الأول من شهر شوال عام ٢٥٦ هجرية.

وقال غيره:

ولو كنا إذا متنا تركنا
ولكننا إذا متنا بعثنا
لكان الموت راحة كلِّ حَيٍّ
ونسأل بعد ذَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ

وقال غيره:

بلغن أهلنا ولا نُخْفِ عَنْهُمْ
قد سئلنا عن كلِّ ما قد فعلنا
ما لقينا في البرزخ الخناقِ
فارحموا وحشتي وما قد ألقى

وهتف هاتف من قبر على رضى الله عنه لبعض زوّاره فقال له:

قد كنت ميتاً فصرت حياً
فابن لدار البقاء بيتاً
وعن قريب تصير ميتاً
واهدم لدار الفناء بيتاً

فيعتذر عن المصنف أنه إنما أراد بفناء النفس انقطاع نعيم الدنيا عنها، فصارت بذلك كأنها قد فنيت، وبأن طعم الموت إنما تذوقه النفس، لأنها حساسة، بخلاف الجسم، إذ إنما هو جماد كالخشبة، وإنما يتألم بواسطة النفس.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] الآية أو يريد بالنفس ذات الشيء. قال عيسى عليه السلام: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] لأن النفس المحسوسة يستحيل إطلاقها على الباري جل وعلا، والمراد بها في حقه تعالى العلم والإدراك.

أخرج البيهقي من طريق أبي أمامة: أن النفوس يُنكرون يوم القيامة كونهن بأشرن الذنوب، فيأمر الله الأعضاء فيشهدون بما عملوا، فإذا شهدوا قالت لهم النفس: سَحَقًا وَبُعْدًا، إنما كان جدى واجتهادى فى تخليصكم، فحيث شهدتم على أنفسكم، فهلم أحاكمكم إلى الله فإنما أنا ربح، فيتحاكمان إليه، فيقول الجسم: أى رب إنما أنا خشبة ملقاة لا أسمع ولا أبصر ولا أعقل ولا أسعى حتى أتتني النفس، فحملتني وجعلت تسعى بى إلى مآربها، حتى اكتسبت ما اكتسبت، واقترفت ما اقترفت، فلم تزل على تماديها فيما اشتتهته حتى أتتها رسولك، فذهب بها، فصرت جماداً كما كنت، فإن كنت معذباً فعذبها، فإنه لا ذنب لى، وإنما

جاءني الخذلان من قبلها، فتقول النفس: أي رب، إنما أنا ریح مارة، ونفحة طاهرة، حتى أمرتني بسياسة هذا البدن الجرمودي^(١) فباشرتُه وخالطتُه، فلوثتني بعيوبه، وذنسني بذنوبه، ركبت فيه الشهوات وحجبته بالغفلات، فجعلتُ أصيره إلى أوطاره، حتى أتاني رسولك، فذهب بي إلى عالمي، وتركته مرتهاً بعالمه، فإن كنتَ معذباً فعذبه، فإنه لا ذنب لي، إذ ليس لي بطن ولا فرج، ولا يد ولا رجل، فيقول الله لهما: إني أحكم بينكما، رأيكما إذا جاء رجلاان إلى شجرة مثمرة، أحدهما مقعد، والآخر أعمى، فالمقعد يبصر ولا قدرة له على النهوض، والآخر يقدر على السعي والنهوض، ولا يبصر الثمار، فقال المقعد المبصر للأعمى: إني أرى ثماراً ولو كانت لي قدرة على النهوض لتناولتها، فقال الأعمى: هلم فارتحلني^(٢) حتى أسعى بك إليها، فلنأكل منها ولتناولني حتى نقضى نهمتنا^(٣)، ففعلا، فإذا قدر عليهما ربُّ الشجرة، فأيهما يؤاخذ بالذنب؟ فيقولان له: يؤاخذهما معاً، فيقول لهما: فذلكما أتما، فيأمر بهما إلى النار إن شاء أو يعفو.

وفى ذلك أنزل الله قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخِمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

قوله: قريب لأنها هيئت له، لأن الغناء عرض، والعرض لا يُنسب إلى قرب ولا بُعد، وهو هيئة تنشأ عن مباشرة العدم بنفس الوجود، تضحل لكنها لا تزال تتكرر حتى تُرجع الوجود للعدم المحض على ما اصطليحت عليه طائفة المتكلمين،

(١) الجرمودى: الكثيف، الغليظ.

(٢) كذا فى الأصل ولعل الصواب فاحتملنى.

(٣) النهمة: الشهوة، أو الحاجة.

أو لأن كل ما هو آت قريب، فالجديدان لا يزالان يتراكضان، حتى يُبليا كُلَّ جديد، ويقربًا كل بعيد.

ويروى أن أمة من الأمم الماضية، كانت لهم أعمار طوال، وكانوا إذا تزوج الرجل لعبوا له مائة سنة، حتى اتفق أن رجلا منهم تزوج، فلعبوا له سبعين سنة، ثم منع مانع من أن يتموا له المائة، فغضب، فقال لهم نبيهم: إن أمة تأتي بين يدي الساعة، غالب أعمارهم إلى السبعين، فقالوا: لو كنا أولئك القوم لاكتفيننا بظل الشجر، ولما تكسبنا، فقال: إنهم لينون الحصون، ويجمعون، ويأملون أكثر مما تأملون، وكانوا إنما يتخذون بيوتًا صغارًا من القصب ثقيلًا لعمر الدنيا^(١).

قوله: ويكفيها: ينفعها عن التغالي في تناول الملذات من المطاعم والمشارب أدنى موجود تتحصل به البلغة، ويسد به الرمق، كالصربي وهو الماء المتغير من طول المكث، وقيل ما يبقى في الحوض من الحصاره والهشيم الممزوجين بالماء المتغير بما تلقيه الرياح من فتيت الأرواث. ومن مطعوم الدنيا.

الصراء بالمد: وهو عجم^(٢) الحنظل العامى، لأن العرب كانت تتقوت به فى المجاعة.

قال الشاعر:

أتيناك والعذراء يدمى لبانها^(٣) وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقى بكفيه الفتى لامتكانه من الجوع ضعفاً ما يمر ولا يحلو
ولا شئ مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامى أو العلهز الفسل^(٤)

(١) هذه القصة لا مستند لها من نقل صحيح وأغلب الظن أنها من وضع القصاصين، والله أعلم.

(٢) الحنظل: نبات يمتد على الأرض ثمرة، يشبه ثمر البطيخ لكنه أصغر منه وهو سام ويضرب المثل بمرارته، ويعرف بالشرى. وعجمه: حبه. العامى: القديم، الذى له سنة. والمراد أن العرب كانوا يأكلون حب الحنظل القديم فى المجاعة.

(٣) لبانها بالفتح صدرها وأصل اللبان الصدر أو وسطه أو هو ما بين الثديين ويكون للإنسان وغيره. وزعم بعضهم أنه لا يطلق إلا على ذوات الحوافر خاصة، والله أعلم.

(٤) العلهز: طعام كان العرب يستعملونه فى المجاعة وهو عبارة عن دم وشعر، مخلوطين ثم يشوى الخليط فى النار ويدق ويؤكل وغالب ما يكون من دم الحلم، ولا يستعمل إلا فى المجاعة =

وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل
 وذلك أن الحياة الفانية كما تتحصل بأعلى مطعوم ومشروب، تتحصل بأدنى
 مطعوم ومشروب، إذ المطلوب من ذلك قوام البنية، والتَّقْوَى على العبادة، وهو
 حاصل مما ذكر، وقد فاز بعدم الحساب والسؤال وعدم المطالبة بشكر النعمة التي
 قلَّ من يقوم بشكرها، مع كَفِّ النفس عن فضول شهواتها وزمَّها بزمم الشرع عن
 الهوى في مروج مألوفات الطبع، وتخلَّتها بأخلاق الرسل.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمَّا سَأَلْنَا يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّسِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

ويروى أن النبي ﷺ أقبل في بعض الأيام من المسجد إلى بيوت نسائه وقد
 أصابته مخمصة، فسألهن عما يسدُّ به الرمق، فلم يجد في بيوتهن كفاً من دقيق،
 ولا جرعة من سويق^(١) فخرج فلقيه صاحبه أبو بكر وعمر، فسألاه عن سبب
 خروجه من بيته بظهر الهجيرة، فقال: إنما أخرجني من بيتي الجوع، قالوا: ونحن
 والله ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع، فذهبوا إلى بيت أبي طلحة^(٢)، فلما رأهم
 رحب بهم ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لأى شيء جئت وصاحبك في
 هذه الساعة؟ فقال: ما أخرجني وصاحبى من بيوتنا إلا الجوع، فقال: طوبى لى،
 فإنى أمسيت اليوم خير أهل الأرض ضيقاً، ثم أخذ المدينة، وأقبل إلى دراجن في
 بيته، فقال له الرسول ﷺ: «إياك وذات الدر^(٣)» فأخذ منهن شاة فذبحها، ثم أقبل
 على أم سليم^(٤) فقال هل عندك من شيء يا أم سليم، قالت: نعم عندى صاع من
 دقيق فى رقعة، فقال هلمى برمتك^(٥)، فأتردى لرسول الله ﷺ وصاحبيه رضى الله

= الشديدة، والبيت حسب رواية اللسان بالفاء والسين «الفسل» وهو الردىء من كل شيء،
 وبالفاء والسين الفزع والجبن والضعف (١١/ ٥٢٠) و(٣٨١/ ٥) لسان.

- (١) السويق الناعم من دقيق الخنطة أو الشعير.
- (٢) أبو طلحة: اسمه زيد بن سهل بن الأسود الأنصارى النجارى الخزرجى شهد العقبة ويدرأ
 وحينئذ، توفى على أشهر الأقوال فى عام ٣٤ وصلى عليه عثمان بن عفان رضى الله عنهما.
- (٣) ذات الدر: الشاة التى فيها لبن.
- (٤) أم سليم: اسمها سهلة بنت ملحان بن زيد بن حرام الأنصارىة أم أنس بن مالك أسلمت مع
 السابقين إلى الإسلام وهى زوج أبى طلحة وكان رسول الله ﷺ يزورها وكانت تغزو معه وتعد
 من عقلاء النساء. اهـ.
- (٥) البرمة: وعاء ضيق الغم يطبخ فيه.

عنهما على هذه الشاة، فقالت: أفعل بأبي وأمي هو، ثم ذهب إلى حائط له فأتاهم بعدق^(١) عنب، وبماء بارد في شَنٍّ، فلما طعموا وشربوا انصرفوا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «والله لتسألنَّ عن هذا النعيم خرجنا من بيوتنا جياعاً، فما رجعنا حتى طعمنا أحب الطعام إلينا وأشهاه إلى أنفسنا، وشربنا ماءً بارداً، ثم انقلبنا بنعمة وعافية في أبداننا، فجعلوا ييكون، فأنزل الله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]^(٢) فيسأل الشاكرون سؤال تكريم وتشريف وتفخيم وتعريف، ويسأل المفرطون والمفرطون سؤال تبيكيت وتعنيف.

يروى أنه ما من نعمة من نعم الله يسأل عبده أداء شكرها، إلا استغرقت أعماله كلها، وبقيت عليه التبعات، وذلك معنى قوله ﷺ: «لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(٣).

فإن قلت: بين هذا الأثر الصحيح، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] مغايرة، فما وجه الجمع بينهما؟

قلت: الجمع بينهما أن لا تدخل الجنة إلا بفضلها، ثم يتوارثون بعد الدخول منازلها ودرجاتها بأعمالهم.

يروى أن الله يقول لأهل الجنة عندما يأتونها وقد فتحت أبوابها: ادخلوها برحمتي، واقتسموها بأعمالكم فبنت الجبرية^(٤) على متن هذا الأثر الشريف.

(١) العذق: كل غصن له شعب، والمراد به هنا القنؤ: وهو في النخل كالعنقود في العنب، ويطلق على النخلة وعلى عنقود العنب والذي في صحيح مسلم وغيره فجاءهم بعدق فيه بسر وتمر ورطب والله أعلم.

(٢) قصة ذهاب النبي ﷺ إلى رجل من الأنصار قصة صحيحة أوردها مسلم في كتاب الأشربة له كما رواها غيره، ورواية مسلم تغاير ما رواه الشيخ في بعض ألفاظه، وعلى كل حال فصاحب القصة ليس هو أبو طلحة كما ذكر الشيخ وإنما هو أبو الهيثم مالك بن التيهان وقد وردت قصة غير هذه مع أبي طلحة وكانت دعوة له ﷺ وجاء معه سبعون شخصاً وقصة أخرى مع جابر بن عبد الله في حفر الخندق والله أعلم.

(٣) حديث «لن يدخل أحداً عمله الجنة»... إلخ. حديث صحيح رواه البخاري في كتاب المرضى ومسلم في كتاب صفة القيامة ولفظ البخاري: «لن يدخل أحداً عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة» إلى آخر الحديث. والله أعلم.

(٤) الجبرية: فرقة إسلامية، تدعى أن العبد مجبر على أعماله السيئ منها والحسن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الذمر: ٣٠] مذهبا الفاسد، فأبطلت حكمة الأمر والنهي، وأنكرت حقيقة التكليف، ونفت عن الله أن يفعل في خلقه ما يشاء، حتى أفضى بهم ذلك إلى نسبة الظلم إلى الله في تعذيب العاصي، فتمذهبوا بمذهب اليهود، وما فهم الأغبياء معنى الآية، لأن الله أثبت لهم الإرادة الكسبية أولاً بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ ولو كانت لكم إرادة كسبية مجازية إلا أن يشاء الله إمضاء ما تعلقت به مشيئتكم المجازية الكسبية بجريان مشيئته الملكية الحقيقية، هذه حقيقة قاهرة، وتلك مجازية مقهورة ظاهرة.

والمذهب الثانى مذهب القدرية^(١)، وهم فرقة الإشرāk بنوا أساس أهوائهم الفاسدة على متن قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] فعموا عمّا هو لهم، ونسبوا لأنفسهم ما هو له، فزعموا أن الله يخلقهم، وهم يخلقون أعمالهم، وأنهم قادرون على الخير والشر، وأنه يجب على الله رحمة المطيع وتعذيب العاصي، فكذبهم الله بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فجمع أهل الحق والسنة بين المذهبين على وجه يطابق الحكمة، فتأدّبوا مع الحق بارتكاب الأسباب التي نصب الله صيانة للسر، وتبرءوا من الحول والقوة امتثالاً للأمر فركبوا سفينة التسليم فجرت بهم فى ممر التعليم حتى وقفوا. على ساحل التنعيم بتيسير رياح التكريم، فتودوا من حضرة السميع العليم: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فزادوا بعد صريح الإيمان يقيناً، ومكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم تمكيناً، فاطمأنوا بما فتح الله عليهم من فضله تطميناً، فما يخافون شكاً ولا تخميناً.

أجمع أهل السنة من هذه الأمة على أن ترك الأسباب مع الله سوء أدب، والاعتماد عليها شرك، والحنيفية^(٢) بينهما، وهو أن تفعل الأسباب من غير اعتماد عليها، فإن الرسول ﷺ كان يبني الحصون ويخندق ويظهر^(٣) بين درعين، ويبعث

(١) القدرية: فرقة تزعم أن الشر فعل العبد وحده، وهى بفتح القاف والداد.

(٢) كذا فى الأصل: ولعله يريد: واعتقاد أهل الملة الحنيفية بينهما.

(٣) ظاهر: طابق بينهما.

العيون^(١)، ويسير الأجناد، فإذا قهر أمة أو فتح مدينة، رد الأمر إلى أصله وتبراً من فعله فقال: تائبون آيون لربنا حامدون، صدق الله وعده. ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده^(٢).

ومن هذا القبيل قول الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] رمى إيصال - إذ رميت رمى القذف، ولكن الله رمى بكف، فكف الألف. إذ صار ريحاً عقيماً، فما من أحد من المشركين إلا وهو يعالج عينه ليزيل منهما الحصى، بل نشأت منها ریح باطنة هي أشد من الريح الظاهرة، وهو ما يجدونه من الرعب في قلوبهم، وما يسمعون به بأذانهم.

وقال رجل من هوازن كان في جيش المشركين: ما هو إلا أن رمانا محمد بذلك الكف فجعلنا نسمع في قلوبنا وقع الحصى الشديد على إناء النحاس الحديد، فرعبنا ولم نشك أنه العذاب، فلم تكن لنا همة إلا الفرار.

ومن جنس هذا قول تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] وفسر ذلك بقوله: ﴿فَاتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] فأثبت المجاز^(٣) ليرتب عليه الثواب والعقاب، وليظهر حكمة التكليف المبني عليها حكم الشرع المرتب على العقل السليم المنقسم إلى أمر ونهي، وتخيير، وتلك ثمرة الإيجاد.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) العيون: الجواسيس.

(٢) حديث تائبون آيون... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والنسائي، وأوله كان ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض إلى آخر الحديث.

وهو عند البخارى في كتاب الحج باب ما يقال إذا رجع من الحج.

(٣) الحق الذى لا ينبغي أن يشك فيه مسلم منصف هو أن القرآن لا مجاز فيه، لأن المجاز يجوز نفيه، والقرآن كله حق لا يجوز نفي حرف واحد منه هذا مع أن كثيراً من السلف والخلف قال بالمجاز فى القرآن فكل ما يسمى عندهم مجازاً فى القرآن فهو أسلوب من أساليب اللغة العربية لا مجاز لما تقدم والله أعلم.

فإذ قلت: قد اتفق المتكلمون على أن أفعال الله لا تغلّل بالبواعث، وهذا كتاب الله مملوء بالعلل.

فالجواب أن الله خلقهم، وقرن خلقهم بعبادته، فالتعليل مجازى لا حقيقى - وقيل: معنى العبادة فى كتاب الله: التوحيد، قال الرسول ﷺ: «كان الله كنزاً لا يعرف، فخلق خلقه ليعرفوه، فإذا عرفوه كان مستحيلاً أن لا يعبدوه»^(١).

فرتبهم على تجلّين، تجلّى الفضل، وتجلّى العدل، وكل قد عرفوه، فأهل الفضل تجلّى عليهم باسمه الهدى، فهدوا بنوره لنوره، وأهل العدل تجلّى عليهم باسمه المانع، فضلوا فلا يهتدون سبيلاً، فعمهم بالدعوة إليه، وخص من شاء بالتوفيق. فما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون باتباع الأهواء بعد وضوح البرهان، وهذا بحر لا يدرك قعره، لكن طمح بى عنان القلم حتى أتيت بجذوة من القدر المحتاج إليه، ليقع بذلك إمتاع السامع، وتمرين الطامع.

ولنرجع إلى المقصود من بيان هذه المنظومة التى لم تشرح قبلى بشرح يشفى الغليل، ولا يبرىء العليل، لكونها منظومة على فن التصوف، وحقائق التعرف، والتزهيد فى الدنيا، ونبد من البلاغة، والتميز بين الممدود والمقصود، والفرق بين المبانى والمعانى إلى غير ذلك من اللغة الغريبة، والأساليب العجيبة، وكثيراً ما طلب منى بعض الطلبة الذين استشفوا من روح نشرها ما أكدوا^(٢) به عن نزع قشرها لعسرها، إذ إنما هى رموز فى طيها كنوز وإشارات تلوح إلى عبارات.

يروى أن يحيى بن زكريا كان قوته قلوب الشجر، وإدامه مرق الجراد فإذا طعم شكر الله كثيراً، ثم يقول من أنعم منك يا يحيى؟ طعامك قلوب الشجر، وإدامك مرق الجراد.

(١) حديث كان الله كنزاً... إلخ. موضوع ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف أورده السخاوى تحت رقم ٨٣٨ وصاحب «الكشف» تحت رقم ٢٠١٦ بلفظ «كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً يعرفهم بى فعرفونى» وقالوا قال ابن تيمية ليس هذا من كلام النبى ﷺ وليس له سند وتبع ابن تيمية فى ذلك الزركشى والحافظ بن حجر والسيوطى. قلت: المشهور عند الناس: «كنت كنزاً مخفياً». والله أعلم.

(٢) أكدوا بلغوا الصخر: وهو كناية عن عجزهم عن توضيح المعانى.

ويروى أنه ما شبع في عمره إلا ليلة واحدة، فنام تلك الليلة عن ورده، فأثاه الشيطان بعد أمة^(١)، فسأله هل نلت مني شيئاً قطُّ؟ قال: ليلة واحدة، شبعت فيها فنمت عن وردك، قال: لا جرم^(٢) أنى لا أشبع بعدها أبداً، فقال إبليس: لا جرم أنى لا أنصح بعدك أحداً أبداً.

وأما عيسى عليه السلام، فكان يقول للحواريين: إنما الدنيا سبيل إلى الآخرة، فمن أقام على السبيل، انقطع عن المقصود، فاعبروها، ولا تعبروها، أما أنا فإن أمي ولدتني ولا مال لي، وأحب أن ألقاه على الحالة التي فطرني عليها، فقالوا له: كيف تعيش؟ قال: أما بيوتى، فالكهوف، وأما سراجى، فالقمر، وأما طعامى فبقل الصحراء، وأما أنيسى فربى، وأما صاحبى فعملى، وأما فراشى فالمدر^(٣)، وأما وسادى، فالحجر، وأما ثيابى، فالمسوح^(٤) وأما قائدى فرجائى، وأما سائقى، فخوفى من ربى.

وأما النبى ﷺ، فإنه كان على أكمل الحالين، فلم يتنعم تنعم سليمان ويوسف، ولم يتقشف تقشف عيسى ويحيى.

على الجميع سلام الله، إذ كانت شرعته أكمل الشرائع، إذ جمعت بين شدة شريعة موسى، ودماثة شريعة عيسى، فشريعة موسى فى تجلّى الجلال، فلا دية فيها، ولا عفو فيها، بل الواجب القصاص والانتصار ممن ظلم، وقتال من طلب القتال من غير مداراة ولا مدافعة بالتى هى أحسن، وقتل النفس فى التوبة، وقطع الثوب، والجلد فى إصابة النجاسة، ووجوب الوصال، وتحريم الغنائم، إلى غير ذلك من الإِصار^(٥).

وأما شريعة عيسى فإنها فى تجلّى الجمال، فالقتال فى شرعه حرام، وفى الإنجيل: من صَفَعَكَ عَلَى خَدِّكَ الأيمن فناوله خَدِّكَ الأيسر، ومن يشامك، فلا

(١) أمة: طائفة من الليل.

(٢) معنى لا جرم: حقا، وهنا معناها القسم أى والله إنى لا أشبع.

(٣) المدر: الطين الذى لا يخالطه رمل، ويطلق على وجه الأرض.

(٤) (المسوح): كساء من شعر يلبس على البدن تقشفاً.

(٥) الإِصار: جمع إصر، وهو العبء أو الذنب.

تشائه، ولا قصاص على القاتل، بل الذية أم العفو.

وكانت شريعتنا في تجلّي الكمال، فجمعت بين التمتع بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية [الأعراف: ٣٢]، والتقشّف بقوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ الآية [الأحقاف: ٢٠].

فعلى قدر ذلك كانت سيرته ﷺ، إذ كانت تُشترى له الحلة بعشرين جملاً، وكان يلبسها للقاء الوفود، وفي ذلك يقول أبو بكر: ما رأيت من ذى لمة سوداء فى حلة حمراء فى ليلة قمرء، أجمل من رسول الله ﷺ.

وكان يحب الحلوى والعسل، وكان يقول: حُبُّ إِلَى من دنياكم ثلاث النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني فى الصلاة^(١) فلم يكن حبه لهذه الأشياء شهياً ولا طبعاً، بل كان تطبعاً.

وأما التجمل للوفود، فليميل قلوبهم بجمال هيئته، وكمال صورته، فيكون ذلك جالباً لهم إلى سعادة الدارين، لأن الله جبل القلوب على حُبِّ الجمال، وهو الغاية القصوى فيه، فإذا أحبوه جذبهم حبه إلى حب ما هو عليه من جمال باطنه، كما ثبت أن الطبع يسرق من الطبع، بحيث لا يعلم السارق ولا المسروق منه، كما أسلم كثير من الأعراب لمجرد نظرهم إليه قائلين عند مشاهدته: والله إن هذا الوجه المشرق لخليق أن يكون وجه نبي، وبعضهم يقول: والله إنا لنرى وجهاً ما هو بوجه ساحر ولا كذاب، فإذا خلا بأصحابه وخاصته تقشّف ليربهم ما هو جبلته وطبعه ليقنتدوا به فى ذلك، بخلاف الوفود إذ لا تعلق لهم إلا بحسن الظاهر ليساير كُلا من الفريقين على قدر سيرته، ويعامله بحسب جبلته وسريته مكايسة ومسايسة، فيخاطبهم على قدر طبقاتهم، ويغذّيهم من معارفه على قدر نفقاتهم، ألا ترى أنه ليلة أسرى به، أخبر كل فريق بما هو من عالمه، فأخبر المشركين الذين هم أصحاب الحضيض بما يلائم طباعهم، وهو مسيره ومرجعه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى جزء من الليل، فاستعظموا سرعة سيره، ولم يستعظموا مسيره، لأنه

(١) حديث حُبِّ إِلَى من دنياكم، حديث حسن رواه النسائي والطبراني وغيرهما. قال ابن حجر فى التلخيص وقد اشتهر على الألسنة بزيادة: ثلاث. ولم أجدها فى شيء من طرقه المسندة (١١٦/٣) قلت وكان الشيخ أوردها تبعاً للغزالي فى الإحياء.

من مقدور البشر، فجعلوا يسألونه عن عيراتهم^(١)، وجعل يخبرهم بمكان كل عير من عيراتهم، ويخبر بأن عير بنى فلان نفرت من حفيف دابته، وأنه رأى منها جملاً عليه جولقان فتكسرا وأنها تقدم يوم الأربعاء، يقدمها جمل أورق، عليه غرارتان، ثم سأله عن صفة بيت المقدس، فحمله جبريل حتى وضعه بموضوع دار أبى عقيل، فجعل يصفه وهو ينظر إليه، فلما استثبتوا ذلك بموافقة، نعت له ما عندهم، لأنه لم تقدم له رؤية لبيت المقدس، وبموافقة العيرة فيما أخبر به عنهم تحقّقوا صدقه، فنسبوه إلى السحر، إذ لم يجدوا مدفعاً غير ذلك، ثم جعل يخبر عليه أصحابه بالمستوى^(٢) والكفاح والخطاب، ويخبر من هو دونهم بالرفرف^(٣) وسدرة المنتهى والجنة، ويخبر من هو دون ذلك بالمساوات والأفلاك. وملاقاته للأنبياء، وصلاته بهم، إلى غير ذلك، واختص بما اختص به مما لا تتحملة عقولهم، فلم يخبرهم به، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] فأبهمه تفخيماً لأمره، وهو ما استوثرت به الأولياء بعد الأنبياء^(٤).

قال ﷺ: «إن الله أنزل على ثلاثة علوم، أما أحدها وهو علم الشريعة، فإنه أخذ على العهد بتبليغه للخاص والعام، وأما الثانى فخيرنى فيه، وهو علم الحقيقة الذى لا يحمله حقيقة حملة إلا الخواص من أمتى، وأما الثالث فأخذ على العهد بكتمانه، فهو الذى يلهمه الأبدال من بعدى، لا تحيط به العبارة - اقرءوا إن شئتم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]»^(٥).

(١) عيراتهم: جمع عير: القافلة من الجمال، والأصل لقافلة الحمير.

(٢) يشير بالمستوى إلى ما فى الحديث الصحيح، حتى إذا بلغت مستوى أسمع فيه صرير الأقلام، أما الكفاح فهو التردد على رب العزة طلباً لتخفيف الصلاة.

(٣) الرفرف: البسط، الفراش الرقيق من الثياب.

(٤) ثبت عن على بن أبى طالب أنه أقسم وهو على المنبر أن النبى ﷺ لم يخصهم بشيء إلا ما فى القرآن، وما فى صحيفة أشار إليها وكان فيها، العقل وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر وفى بعض الروايات أسنان الإبل وحرم المدينة.

فليس هناك سر اختص به شخص دون شخص، ولا طائفة دون أخرى، وما أبهم لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق النبى ﷺ، إذ هو المبلغ عن الله والمأمور بالبيان والله أعلم.

(٥) حديث إن الله أنزل على ثلاثة علوم... إلخ. لم أجد من خرجه ومع ذلك أجزم بوضعه لمخالفته نصوص الشرع العامة ومنافاته لتمام التبليغ هذا بالإضافة إلى أن كبار الصحابة كعلى =

فانقسم ذلك إلى أقسام كثيرة على قدر درجاتهم وطبقاتهم، فمنهم المحدث، ومنهم الملمهم، ومنهم المشاهد، إلى ما لا يدخل تحت حصر. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] فلو خاطب أمته على قدره، لم تنتفع بما جاء به قال الله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾^(١) [التوبة: ١٢٨].

وفي ذلك يقول صاحب بردة المديح وقد أجاد:

لم يمتحنًا بما تعبى العقول به حرصًا علينا فلم نرتب ولم نهم

ومع ذلك كان يعيد الكلمة ثلاثًا لتفهم عنه، وما يسرد سرد غيره، بل لو شاء السامع لعد حروف قوله عددًا، فلما أطبقت^(٢) أمته على الإسلام، واختارته على غيره، واشرب فيها الإسلام، ورسخ الإيمان، واشتأقت أنفسها إلى الباقيات الصالحات، وكشفوا عن الدنيا جلاب غرورها، وحلة حبورها، تأقت أنفس فريق منهم إلى الجب^(٣) والاختصاء، وترك اللحم والطيب والنساء، والترهب على رءوس الجبال، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاستخبرهم عما بلغه عنهم، فأخبروه بصدقه، فقال: «أليس لكم في أسوة حسنة؟ قالوا: بلى»، قال: «والله إني لأعلمكم بالله، وأتقاكم له، وإنى لأنكح النساء، وأكل اللحم، وأشم الطيب، وأنه لا رهبانية في الإسلام»^(٤) فدعاهم إلى أكمل الحالات.

وإنما سياحة أمتي الصوم، والجهاد، وكذلك شرعه، فإنه كان من جنس سيرته، فجمع بين الشدة والدمائة في الأحكام في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وفي العفو مجانًا وأخذ الدية في قوله: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾

= وعائشة نفوا بشدة أن يكون النبي ﷺ كتم حرقًا واحدًا مما أنزل إليه ووصفت عائشة رضى الله عنها قائله بالكذب على الله، والله أعلم.

(١) ما عنتم: أى مشقتكم.

(٢) أطبقت: اجتمعت.

(٣) الجب: قطع ذكر الرجل.

(٤) حديث إني لأعلمكم بالله وأتقاكم له صحيح رواه الشيخان ولفظ البخارى فى كتاب النكاح أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء.

فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١٧٨﴾ [البقرة: ١٧٨] في الدنيا برفع الحرج ﴿وَرَحْمَةً﴾ في الآخرة بترك المؤاخذه بالذنب، ودية الخطأ وتخفيفها خاص بهذه الأمة.

وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧].

وقوله: ﴿وَإِن تَعَفُّوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ثم أمره بالعدل في حق العدو، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢].

وقال: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وقال: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ^(١) إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨].

ونسخ الوصال بقوله: ﴿وَكُلُّوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقتل النفس في التوبة بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [النساء: ٦٦] إلى غير ذلك مما لو تتبعته لجئت فيه بمجلدات، إذ العلوم كالوحش المهاج يثير بعضه بعضاً.

قوله: كفى، يأتي متعدياً، كقول الشاعر:

* كفى المرء نبلاً أن تعدَّ معاييه *

ولازماً، كقوله: كفى بالغنى قوتاً، إذ من نوع اللازم ما لا يتعدى إلا بحرف الجر، كمر، وقال ومنه ما لا يتعدى بدخول همزة التعديّة، قام، فتقول: أقامه.

والغنى أصله فاعل إذ اللفظة في قوة كفانا الغنى من جنس القوت، كما أن كفى بالله وكياً في قوة كفانا الله من جنس الوكلاء وكياً، وفناؤها مبتدأ، خبره قريب، وضمير المضاف عائد على النفس. وقصارى المصنف في هذا البيت الترهيد في المشروب والمأكول، وذلك لثلاثة أوجه:

(١) انبذ إليهم: اطرح عهدهم.

أحدها: أن النبي ﷺ كثيراً ما كان يقول: «حبُّ الطعام من شأن اللئام» كما أخرجهُ الإمام السيوطي في جامعهِ بأسانيد متصلة.

والنهم لا حظ له في مكارم الأخلاق. وفي الجمان ما نصه أن النبي ﷺ بينما هو يطوف، إذ وجد رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة يبكي، ويتحرَّق، ويسأل الله بحرمة بيته المكرَّم، فقال له رسول ﷺ: «يا مؤمن، سل الله بحرمتك، فإن المؤمن أعظم حرمة عند الله من البيت، فقال: إن لي ذنباً عظيماً، قال: وما ذنبك؟ فإن الله لا يتعاضمه ذنب، قال: إني رجل ذو مال وثروة من كل ما آتَى الله من إبل وغنم وبقر وعقار، وإذا جاءني سائل يسألني، فكأنما صب على وجهي الملة^(١)، فقال له النبي ﷺ: تنح عني، لا تحرقني بنارك، فلو أنك قمت بيت الركن والمقام، وصمت لله ألف عام، وتفجرت من دموعك الأنهار، حتى سقيت منها الأشجار، ومت وأنت لثيم لكبَّك الله على وجهك في النار. فقال: يا رسول الله، إن كان ذلك كذلك فإنني أشهدك أنني قد انخلعت مما أصبحت فيه، على أن ينجينني الله من النار، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، ولكن جاهد نفسك، أن يذهب الله عنك طبع اللؤم حتى يدخلك الجنة، فإن الله أقسم حين خلق جنة عدن^(٢) أن لا يدخلها مشرك ولا لثيم، فقال: يا رسول الله سل الله أن يُزيل عني ما أجد من طبع اللؤم، فدعا رسول الله ﷺ ربه، فزال عنه ذلك، فأخرج ثلث ماله، وأقبل على ماله يفعل فيه ما أمره به رسول الله ﷺ على بصيرة حتى أتاه اليقين»^(٣).

وهذه معجزة من معجزاته ﷺ، لأنه يقول: «إذا سمعت بجبل زال عن موضعه، فلا تكذب، وإذا سمعت بطبع زال عن صاحبه، فكذب» وفي رواية: «تزول الجبال، ولا تزول الطباع»^(٤).

(١) الملا والملة: الرماد الحار.

(٢) عدن: إقامة.

(٣) حديث: أن النبي ﷺ بينما هو يطوف إذ وجد رجلاً... إلخ. حديث باطل لا أصل له، قاله العراقي في تخريج الإحياء (٢٤٩/٣). مع أن رواية الغزالي تزيد تارة وتنقص أخرى عن رواية الشيخ، إلا أنهما متفتتان في معظم القصة.

(٤) حديث: «إذا سمعت بجبل زال» أخرجه الإمام أحمد بلفظ «إذا سمعتم بجبل زال» وهو ضعيف (٤٤٣/٦) وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم (١٣٥) وقال بعد مناقشة محسنه: إنه منكر.

وقال الشاعر:

وكل امرئ يبغى السماحة والندى ولكن طبع المرء للمرء جالبٌ
ومن شؤم اللئيم: أن المرتبة الرفيعة لا تزيده إلا خبثًا، كما أن الكنيف لا يزيده
وابل المطر إلا نتنا.

وقال أبو بكر الطرطوشي^(١) في سراجِه: إذا ساد اللئيم أنكر معارفه، وجفا
أقاربه، وأساء إلى أرباب المناصب، وكانت ولايته سبب الدمار.

وقال ﷺ: «إن الله يحب معالي الأمور وأشرفها، ويبغض سفاسفها»^(٢).

وقال: «الدنيا رواية، فليحسن أحدكم روايته».

وفى ذلك يقول الشاعر:

ما الدهر إلا خبرٌ فكن حديثًا حسنا وصاحبنه بالعبر تكن كريما ذا سنا
واخلع جلابيب الخنا تكرما عن الدنا ما ساد إلا من غدا مشمرا مع العنا
الثاني: أن البطنة تذهب الفطنة. أخرج أبو داود أن الحكمة تهوى من السماء
إلى الأرض، في كل يوم مائة مرة، ولا تدخل أربعة قلوب، قلب فيه حب الدنيا،
وقلب فيه حب الشرف، وقلب فيه خديعةٌ لمسلم، وقلب ممتلئ بطنه طعاماً^(٣).

وقالت عائشة^(٤) رضی الله عنها: أول بدعة ظهرت في الإسلام بعد رسول الله
ﷺ الشيع، ولقد كان يأتي علينا الهلال ثم الهلال ثم الهلال وما أوقدت في بيوت

(١) الطرطوشي: وهو محمد بن الوليد بن محمد القرشي الأندلسي أديب من فقهاء المالكية الحفاظ
من أهل طرطوشة بشرق الأندلس ولد سنة ٤٥١ هـ ومات سنة ٥٢٠ هجرية.

(٢) حديث «إن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها» رواه الحاكم وأبو نعيم وابن ماجه بلفظ
«إن الله كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق» إلخ.

وأورده بلفظ الشيخ، صاحب كشف الخفاء تحت رقم (٧٤٣) انتهى.

(٣) لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ.

(٤) عائشة بنت أبي بكر الصديق أم المؤمنين رضی الله عنها وأمها أم رومان بنت عامر ولدت بعد
البعثة بأربع سنين وتزوجها رسول الله ﷺ وهي بنت ست ودخل بها وهي بنت تسع سنين.
وقبض بين سحرها ونحرها ماتت سنة ثمان وخمسين ودفنت بالبقيع رضی الله عنها. إصابة
(٢٥٠/٤).

آل محمد نار، إن هو إلا التمر والماء، إلا أن لنا جيراناً من الأنصار ربما أتونا بمذق^(١) من لبن، ولقد فارق رسول الله ﷺ الدنيا وما شبع آل محمد من خبز الشعير^(٢) كيف وأصحاب الصفة يزيدون على خمسمائة رجل، وليس لهم أهل ولا مال، إنما خرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، لم يصحبهم إلا سيوفهم، فكان رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه يموتونهم، قد حسبوا أنفسهم لله، ليست لهم حرفة إلا الجهاد، ومدارسة كتاب الله، وما أنزل على رسوله، قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وهو أثر السجود في جباههم، وصفرة الوجوه، ونحول الأجسام، ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]: أى لا يسألون رأساً حتى يلحفوا إحفاقاً، لعلهم همهمهم، ورسوخ اليقين في قلوبهم.

منهم من لو أقسم على الله لأبره، قال رسول الله ﷺ: «أكثر الناس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة»^(٣).

الثالث: أن التّعفف عن المطعم والمشرب، من شيم المؤمنين، قال الرسول ﷺ: «همة المؤمن في الصوم والصلاة، وهمة المنافق في البطن والفرج».

ومن فوائد الجوع أنه يكسر شهوة الفرج، ويرقق القلب، ويعين على قيام الليل، قال رسول الله ﷺ: «الجوع نور، والشبع ظلمة، وما أفسد القلب شيء ما أفسده دوام الشبع».

ولذلك جعل الله الصوم من قواعد الإسلام، وقال ﷺ: «الجوع من أخلاق الأنبياء، والشبع من أخلاق المشركين».

(١) المذق: اللبن ممزوج بالماء.

(٢) حديث عائشة أول بدعة ظهرت في الإسلام... إلخ. حديث صحيح رواه أحمد وابن ماجه بالفاظ تختلف قليلا عن لفظ الشيخ وأوله عند ابن ماجه «إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما توفد فيه بنار، قال في الزوائد إسناده صحيح وقد روى مسلم طرقاً منه (١٣٨٨/٢) وابن ماجه، والله أعلم.

(٣) حديث «أكثر الناس شبعاً في الدنيا»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، إلا أن الطبراني وأبا نعيم رويًا: «إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة» إلى آخره. قال العراقي في تخريج الإحياء إسناده ضعيف (٨٠/٣) والله أعلم.

قال الله فى نعت آل فرعون: ﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْوْنَ ۚ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ ۚ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۚ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ ﴿﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٩] لقلّة ما يصعد إليها منهم من الأعمال، بل لا يصعد لهم عمل لكفرهم بالله، ولا تشهد لهم الأرض بعمل صالح، بخلاف المؤمنين، فإنه تبكى عليهم من الأرض مواضع سجودهم، ومن السماء أبواب أعمالهم، وأبواب أرزاقهم، قال الرسول ﷺ: «ما من مؤمن إلا وله بابان فى السماء، باب يصعد منه عمله، وباب ينزل عليه منه رزقه، فإذا مات بكى عليه باباه من السماء، ومواضع سجوده من الأرض أربعين صباحًا»^(١).

واختلف فى معنى بكائها، فقيل: هو البكاء، وذلك أن يخلق الله فيها إدراكًا وشوقًا، فيبكيان حقيقة كما حنّ الجذع حين فقد سماع الذكر والموعظة من رسول الله ﷺ، وهو أولى لخلوه من التكلف والتأويلات، لموافقته لظاهر القرآن. وقيل: بكاء السماء حمرة أطرافها.

ولما استسقى فرعون، وجاءت أنهار النيل معه. قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] إلى أن قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ [الزخرف: ٥٢] معناه لا يجد من المال والقوت ما يقع منه موقعًا، ولم يعلم أن ذلك فخر فى حق الرسل. قال الشاعر:

لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً
وقد شبت فيها بطون البهائم

وقد أجمع الأولياء أن صلاح الدين بصلاح اللقمة، وفساده بفسادها، مستدلين بقوله ﷺ: «من أكل الحلال، أطاع الله أحب أم كره، ومن أكل الحرام عصى الله أحب أم كره»^(٢). وقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

(١) حديث «ما من مؤمن إلا وله بابان»... إلخ. حديث ضعيف رواه الترمذى وأورده السيوطى فى جامعه ورمز له بالحسن إلا أن الترمذى قال فيه غريب لا يعرف إلا من طريق موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشى وهما ضعيفان وقد انتهى لفظ السيوطى عند قوله «فإذا مات بكيا عليه».

(٢) حديث «من أكل الحلال أطاع الله»... إلخ. لم أجده هكذا، إلا أن أبان نعيم فى «الحلية» روى =

يروى «أنه من أكل لقمة من الحرام، أفسد الله عليه أربعين صلاة، ومن لبس ثوباً فيه دائق من حرام، لم يقبل الله منه صلاة ما دام لابسها»^(١).

ولذلك قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، فإن كان لا يبد، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس».

وفى رواية «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا يبد، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس»^(٢).

قال ابن الخطيب^(٣) فى المواهب: لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة، وهذا من جوامع الكلام التى لم يسبق إليها ولم يأت أحد قبله ولا بعده بمثلها.

ومن فوائد الاقتصاد فى طلب الرزق، وجود الغنى، قال رسول الله ﷺ: «ما عال^(٤) من اقتصد»^(٥).

= «من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه»... إلخ. وعنه الغزالي فى الإحياء قال العراقى منكر (٢/٩٠).

(١) حديث «من لبس ثوباً فيه دائق من حرام»... إلخ. حديث ضعيف رواه أحمد وعنه الهيثمى وفيه زيادة ثم أدخل أصبعيه فى أذنيه ثم قال صمنا إن لم يكن النبى ﷺ سمعته يقوله: قال الهيثمى وهاشم لم أعرفه وبقية رجاله وثقوا وبقية مدلس (١٠/٢٩٢) مجمع، ولفظ أحمد «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم، وفيه درهم من حرام»... إلخ.

(٢) حديث «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»... إلخ. حديث حسن رواه الترمذى والنسائى وأورده الغزالي بلفظ «ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للتنفس». قال العراقى حسن (٤/٢) إحياء وهو حديث واحد.

(٣) ابن الخطيب: هو محمد بن عبد الله بن سعيد الشهير بلسان الدين وزير ومؤرخ أديب ولد ونشأ بفرغانة خرج من الأندلس وعاش فى فاس ثم سجن بها ويقال إنه قتل خنقاً فى السجن هناك ولد عام ٧١٣ ومات ٧٧٦ هـ له نحو من ستين مؤلفاً. ويقصد تقسيم المعده الوارد فى الحديث المتقدم.

(٤) عال: افتقر.

(٥) حديث ما عال من اقتصد. جزء من حديث موضوع أخرجه الطبرانى ولفظه: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد (١/٢٠٤) ورمز له السيوطى بالحسن إلا أن شارحه المناوى قال: قال الطبرانى لم يروه عن الحسن إلا عبد القدوس بن حبيب تفرد به ولده =

وقال الله في مدح المقتصدين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال: ﴿وَكُلُّوا وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وكفى بعدم حبه زاجراً عن الإسراف. وما في معناه، لأن الله يقول في مدح المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] فلا حياة ولا عيشة للعبد إلا بحب الله إياه، إذ لا حياة للإنسان البتة إلا بعمارة أوقاته بطاعات الله، ولا فائدة للطاعات بدون المحبة، إذ هي الروح. قال ابن (١) عطاء الله، برد الله ضريحه: الأعمال أشخاص قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها، ومنها استدعاء السلامة (٢).

يروى أن بعض مريدى الثورى (٣) قال له يوماً: هَلَّا أَخَذْتَ بُلْفَةً مِنَ الْحَلَالِ، فقال له الثورى: إن فى الخبز والماء بلغة، ثم قال لمريده: هلم فلنذهب إلى بيوت السجن، فلما أتياها إذا هما بقوم يصلبون، وبآخرين تضرب أعناقهم، وإذا هما بآخرين يعذبون بأنواع من العذاب، فقال الثورى لصاحبه: أيهما أحب إليك؟ ما أنا فيه، أو ما ترى؟ فقال: الموت فى عافية أحب إلى مما أرى، فضلاً عما أنت فيه من ضيق العيش، فقال له: أما إنهم لو رضوا بالخبز والماء القراح، لما أصابهم ما رأيت من العذاب الأليم، ثم أنشد فقال:

= قال ابن حجر فى التاريخ وعبد القدوس ضعيف جدا وقال فى الفتح أخرجه الطبرانى بسند واه جدا وقال الهيثمى رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير عن طريق عبد السلام بن عبد القدوس وكلاهما ضعيف جدا. اهـ (٤٤٣/٥) مناوى، كما أورده صاحب الكشف وقال بعد أن ساق له شواهد فهذه الشواهد تقتضى حسن الحديث (١٨٠/١) وأورده الألبانى فى الموضوعات تحت رقم (٦١١) وقال موضوع. اهـ. والذى يظهر لى أن الحديث موضوع لتفرد ولد عبد القدوس عنه به وعبد القدوس الجذ كذاب وولده متهم بالوضع كما ذكر ابن حبان والله أعلم.

(١) ابن عطاء الله: هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم السكندرى متصوف شاذلى عالم من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية له عدة مؤلفات فى التصوف توفى عام ٧٠٩ هجرية بالقاهرة (٢١٣/١) أعلام.

(٢) هكذا ورد فى الأصل: استدعاء.

(٣) الثورى: هو سفيان بن سعيد الثورى أمير المؤمنين فى الحديث سيد أهل زمانه فى العلم والتقوى ولد ونشأ بالكوفة ثم ذهب إلى المدينة ولما طلبه المهدي توارى فى البصرة وبها مات مستخفياً عام ١٦١ هجرية رحمه الله.

خُبِرْتُ وَمَاءٌ وَظِلٌّ ذَاكَ النَّعِيمِ الْأَجَلُ
كَفَرْتُ نِعْمَةَ رَبِّي إِنْ قُلْتُ إِنْ مِثْلُ

وفي التوراة: يا ابن آدم لا تأنس بغيري، فأنا لك ما طلبتني، وإن أنست بغيري مقتك وفاتك خيري، يا ابن آدم خلقتك لعبادتي، وضمنت رزقك، فلا تتعب، وفي أكثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن رضيت بما قسمت لك، أرحمت قلبك وبدنك، وكنيت عندي محموداً، وإن أنت لم ترض بما قسمته لك، لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها كما يركض الوحش في البر، ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك وأنت عندي مذموم، يا ابن آدم إنك محب فبحقي عليك، كن لي محباً، يا ابن آدم لا تطالبي برزق غد، فلا أطلبك بعمل غد.

ولا يستقيم شيء مما تقدم إلا بالقناعة إذ هي الكنز الذي لا ينفد، والعز الذي لا يحد كما في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] أن المراد بها القناعة.

يروى أن داود^(١) الطائي أصابته فاقة، فجاهه حماد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه، قال: هي من مال رجل لا أقدم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبلتها تعظيماً للميت، وإكراماً للحى، ولكنني أحب أن أعيش في عز القناعة.

كان عبد الله بن مرزوق نديم المهدي^(٢) فكسل يوماً، ففاته الصلاة، فجاهت جارية له بجمرة، فوضعتها على رجله فتنبه مذعوراً، فقالت له: كيف لا تصبر على جمرة من نار الدنيا وتترخص لنار الآخرة بترك الصلاة؟ فقام فصلى الصلاة وتصدق بجميع ما يملكه، فذهب وجعل يبيع البقل ليتقوت بخالص الحلال. لإفطاره وصلواته، فأثاه ابن عينة والفضل، فقالا له: ما عوّضك الله مما تركت له. قال: الرضى بما أنا فيه، وقد أتياه وهو متوسد حجراً، وليس بينه وبين

(١) داود الطائي: هو داود بن نصر الطائي من أئمة المتصوفين مولده بالكوفة اعتزل الناس للعبادة بها له أخبار مع أمراء عصره مات عام ١٦٥ هجرية.

(٢) المهدي: هو محمد بن عبد الله المنصور. ثالث خلفاء بني العباس في العراق لبث في الخلافة عشر سنين وكان محبياً للرعية جواداً حسن الخلق مات عام ١٦٩ صريعاً عن دابته.

الأرض حائل .

وإذا أراد الله بعبد خيراً، ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقّهه في الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف، وإذا أراد الله بعبد شراً، حبّب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله بديناه، ووكله إلى هواه، فخبط في الأمور خبط عشواء، وغاب عن الحقائق غيبة نشوى .

واعلم أن الناس في الخير أربعة لا خامس لهم، من يفعله ابتداءً، ومن يفعله اقتداءً ومن يتركه حرماناً، ومن يتركه استحساناً، فمن فعله ابتداءً، فهو كريم، ومن يفعله اقتداءً، فهو حليم، ومن تركه حرماناً، فهو شقي، ومن تركه استحساناً فهو دنيء .

ومن أعظم فوائد القناعة، والاكتفاء بالبلغة، أنها تقى وجه الكريم من قبول منه اللثيم . قال على كرم الله وجهه :

اللهم لا تجعل للثيم علىّ يداً . وفي ذلك يقول الشاعر: (المجتث)

الموتُ أسهلُ عندي	بين القنا والأسنة
والخيل تجرى سراعاً	مقطعات الأعنة
من أن يكون لئدلاً	على فضل ومنه

وقال غيره:

تسرّبتُ سربال القناعة والرّضى	صبيّاً وكانا في الكهولة ديدنى
وأعظم من قطع اليدين على الفتى	صنيعةٌ برّ نالها من يدى دنى

وقالت سفانة^(١) بنت حاتم لرسول الله ﷺ لما منّ عليها، فأخدمها، وكساها وحملها: لا جعل الله للثيم عليك يداً، ولا سلب من كريم قوم نعمة إلا جعلك سبياً لردّها إليه . قال الشاعر:

كسوتُ جميل الصبر وجهي فصانته بثوبه عن غشيان باب بخيل

(١) سفانة بنت حاتم الطائي: الجواد المشهور، أصابتها خيل رسول الله ﷺ فطلبت منه أن يمن عليها ففعل ولما ذهبت أسلمت وحسن إسلامها .

فما عشتُ لم آت البخيل ولم أقم
وإن قليلاً يستر الوجه أن يرى
وبالله التوفيق .

على بابه يوماً مقام ذليل^(١)
إلى الناس مبذولاً لغير قليل

* * *

• قال الناظم برد الله ضريحه:

١٥ - رَزِقْتَ الْحَيَا كُنْ لِلْحَيَاءِ مُلَازِمًا فَبَعْدَ الْجَلَا يُخْشَى عَلَيْكَ جَلَاءُ

قوله: رزقت، مبنى للمفعول، وهو للدعاء، والحيا بالقصر والفتح: الغيث، وسمى بذلك لأن به حياة الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٦٥]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الانباء: ٣٠]، وقال تعالى لما أهلك قوم نوح بالطوفان: «أنا الملك الأكبر، خلقت الخلق من الماء، ورزقتهم بالماء، وأهلكتهم بالماء».

فالماء واحد. والتخصيصات مختلفة ليعلم خلقه عدم تأثير العوائد، وأن تصريف ذلك كله بأمره، فيخلق ما يشاء.

وللحيا حالات مختلفة، فأول مطرة تُسمى الوسمى، والثانية الولي، والثالثة الأتي.

وله أسماء، منها الجون، وهو الأسود الكثيف الدقيق القطر، والوابل وهو الشديد القطر المنسكب بقوة، وربما جاء صحبته رعداً قاصف، والوكف وربما قيل له: الواكف، وهو الذي يأتي عوارض^(٢)، والودق، وهو الذي يصاحبه البرد، وبرقه يُغشى البصر، قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣] والجود وهو الذي يأتي من كل ناحية، ولا يكون معه ريح ولا صواعق، والغوادي، وهو الذي يأتي ضحى، ولا يكثر مجيئه إلا في سنة الخصب.

قال الشاعر:

(١) هذا البيت غير موجود في النسخة (أ)، وأثبتناه من النسخة (ب).

(٢) عوارض: السحب المعترضة في الأفق.

لا يبعُدنك ربيعة بن مُكرم وسقى الغواذى قَبْرَه بذنوب^(١)

والهطلاء وهى التى تروى الأرض من غير أذى، والسَّمَاء، وهى الكثيفة التى لا رعد فيها ولا برق، والديمة، وهى التى تقيم أسبوعاً من غير إقلاع، وربما أُنبِتت الأرض فى أثنائها، والسارية، وهى التى تأتى آخر الليل، والرش، ويكون بعد الويل وقبله، وربما جاء بدونه، والطَّشُّ، دون الرش، والرذاذ، دونهما، وأعظمه بركة ما كثر مزاجه، وأقله بركة ما قل مزاجه، وما لم يُمزج لا بركة فيه، وهو الذى يبس النبات، قال ﷺ: «إن الله يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيى الأرض الميتة بوابل المطر».

وسماها الله رحمة، لأنه الجزء الذى أرسل إلى الدنيا، من تجزئة مائة جزء، فأمسك عنده تسعاً وتسعين، وأرسل منها جزءاً واحداً إلى الدنيا، فيه يتراحمون، وبه يتواصلون، فإذا كان يوم القيامة ضم الواحد إلى التسع والتسعين، فأكملها مائة لعباده المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

أخرج البخارى بإسناده إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «من أصابته علة أعجز الأطباء شفاؤها، فليطلب من زوجته أن تعطيه شيئاً من صداقها عن طيب نفس، وليشتر به عسلاً، وليكتب به آية من كتاب الله، وليمحها بماء المطر» فيجمع بين الهناءة والمراءة بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَبْنُ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

والشِّفاء بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

والرحمة بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

والبركة بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩]، وليشربه أو ليدهن به، فإن الله تعالى يعافيه منها كائنه ما كانت.

وكان ﷺ يبرز لأول المطر حتى يبتل، فقليل له فى ذلك، فقال: «أحبه لأنه

(١) الذنوب: الدلو الكبيرة التى لها ذنب.

قريب عهد بالله».

وكان يدعو في الضيغ، ومن دعائه: «اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا سحق، ولا محق، ولا خسف، ولا قذف، اللهم صيباً نافعاً، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء». وإذا اشتد وقعه قال: «اللهم لا تُسحقنا بعذابك، ولا تهلكنا بغضبك، وعافنا بعد ذلك» وفي رواية «قَبْلَ ذَلِكَ». ويقول عند جلجلة الرعد «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته». وإذا لمع البرق قال: «الله أكرم من كل كريم» وإذا هبت الرياح قال «اللهم اجعلها علينا رياحا، ولا تجعلها ريحاً اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به.

وإذا رأى مخيلة^(١) في السماء، جعل يدخل ويخرج ويتغير حتى يعرف ذلك في وجهه، فقبل له في ذلك، فقال: وما يُدريكم لعله كما قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمَطَّرٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] (٢).

وكان يأمر أصحابه بالدعاء عند نزول المطر، ويخبرهم أن الدعاء حينئذ مستجاب انتهى. وذلك لأنها ساعة يفتح فيها الكريم خزائن رحمته، والكريم إذا جاد عم بنواله، قال الرسول ﷺ: «إن لله نفحات فتعرضوا لتفحاته، فإن ساعة منه تغني الجميع».

يروى أن قاطعاً وعابداً من بنى إسرائيل، عبد العابد سبعين سنة، وقطع القاطع سبعين سنة، فخرج عيسى يوماً فرآه العابد، فنزل إليه من صومعته، فرأهما القاطع فقال: عابد ونبي اجتماعاً، فلعل الله أن ينظر إليهما بعين رحمته فيصيبني نصيب منها، فأقبل حتى جلس إليهما، فلما رآه العابد اشمازت نفسه، فقال: يا عيسى

(١) المخيلة: السحابة التي يخال فيها المطر.

(٢) حديث «كان ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج»... إلخ. حديث صحيح

أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق كما رواه مسلم والترمذي والنسائي، ولفظ البخاري: كان ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سرى عنه، فعرفته عائشة ذلك فقال وما أدري لعله كما قال قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ الآية. اهـ.

والمراد بالقوم: عاد، قوم هود.

أتدرى من الجالس معنا؟ قال: نعم، هو قاطع بنى إسرائيل، قال: أقطابت نفسك أن يكون جليسنًا؟ قال: دعه، فلعل الله يصيبه بواسع فضله ورحمته، فبينما هما يتقاولان في أمره، إذ نزل جبريل فأمر عيسى أن يبشّر القاطع أنه جارهما في الجنة، ففرح عيسى، وأخبرهما، فقال العابد: لا حاجة لى بجنة هو فيها، فقال جبريل: إن الله قد أعطى القاطع عملك سبعين سنة، وخطّ عليك سيئاته، فعانده إن استطعت معانده^(١).

ومن أسمائه^(٢) أيضاً السماء، قال الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] واستدل من فسرهما بذلك بقول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيّناه وإن كانوا غضاباً

وفى الأثر: أصبح النبي ﷺ على إثر سماء، فقال: أصبح الناس اليوم مؤمناً وكافراً، أما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فهو مؤمن بالله كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب^(٣).

قال ابن حجر^(٤): اختلف فى هذا الكفر، فقال أهل الظاهر: هو الكفر بالله صريحاً لنسبة التأثير لغير الله، ولتكذيبه كتاب الله فى موضعين هما قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ [سبأ: ٢٤] بالمطر، ومن الأرض بالنبات ﴿قُلِ اللَّهُ﴾،

(١) ما أجد هذه القصة بالوضع، وعلى كل حال فهى من الإسرائيليات التى تسربت إلينا من مصادر لا نعلم عنها شيئاً.

(٢) الضمير عائد على المطر.

(٣) حديث أصبح الناس اليوم... إلخ. حديث متفق على صحته رواه البخارى فى صفة الصلاة ومسلم فى الإيمان ولفظ مسلم: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحدبية فى إثر سماء كانت فى الليل، فلما اتصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب.

(٤) ابن حجر: هو أحمد بن على بن محمد العسقلانى الكنانى من الأئمة الحفاظ المتقنين وله كثير من المؤلفات النافعة من أهمها «فتح البارى شرح البخارى» و«الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة» و«تقريب التهذيب» وغير ذلك ولد ونشأ بالقاهرة وبها توفى رحمه الله عام ٨٥٢ هجرية.

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].

وقال المحققون: إنما هو كفران الشكر لتشبهه بالمشركين في الاستسقاء بالأنواء، مستدلين بقوله ﷺ: «ثلاثة من أمر الجاهلية، لا تركها أمتي، الاستسقاء بالأنواء، والطعن في الأنساب، والنياحة»^(١). فنسبهم إليه، وسماهم أمته مع ذلك، ولو كان كافرين لما سماهم باسم أمته.

وذهبت طائفة إلى التفصيل، فمن نسب التأثير إلى الكوكب حقيقة، فهو كافر مجوسى من غير خلاف كسائر المشركين القائلين في حق آلهتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وتوحيد النصارى مع قولهم: عيسى ابن الله قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وأما من نسب التأثير إلى الله حقيقة وجعله مؤثراً تأثير الأسباب في مسباتها يقوى طمعه منه ويضعف في غير ذلك من الأمان وحقق عجز الكوكب وأنه حجر كسائر الأحجار لا ينفع ولا يضر، وأنه مسخر بأمر الله تعالى كما قال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخُورَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤] إلا أنه يقول: إن الله ربما أرسل المطر زمن طلوع الثريا، وزمن الشرة في بعض الأقاليم كالحجاز، لا يرى له تأثيراً لا يزيد طلوعه قوة في رجائه، ولا ينقص بعده، يرى ذلك كفيضان النيل وغيره، كعادة المد والجزر، فهو مؤمن من غير شك ولا ارتياب، ولعله المعنى بقوله ﷺ: «ثلاثة لا تركها أمتي...» إلخ^(٢).

وأما من لا التفات له إلى شيء من العادات، فهو مؤمن حقاً. قال الغزالي^(٣)

(١) حديث «ثلاثة من أمر الجاهلية...» إلخ. رواه الطبراني في «الكبير» من حديث عمرو بن عوف المزني، والطبراني في الكبير من حديث سلمان الفارسي رضى الله عنه. وهو حديث صحيح، يشهد له حديث مسلم الذى رواه أبو مالك الأشعري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن، الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث في ص (٩٠).

(٣) الغزالي: هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي العالم الصوفى الجليل له مؤلفات =

في «الإحياء» من كان رجاؤه يقوى بتراكم المزن وهبوب الجنوب وسماع الرعد، فليس بمؤمن، بل مشرك قائم مع العوائد، ضعيف اليقين، لأن من رأى المال ورأى الرزق منه، فهو كافر، ومن رأى المال ورأى أن الرزق منه ومن الله، فهو مشرك^(١) ومن رأى المال ورأى أن الرزق من الله لا منه، بل عاريةً بيده، ووديعة استخلفه الله عليها لينظر كيف يخلفه فيها، فهو مؤمنٌ حقًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ومن أسمائه أيضًا الغيث، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨]، ومما كان ﷺ يقول بعد صحو المطر: «أيما قوم مطروا فقد رحموا، مطرنا والحمد لله رب العالمين» ويظهر الاستبشار والفرح ثم يقول: «اللهم ما خولتنا به منه فاجعله لنا عونًا على طاعتك، الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات» وإذا خيف ضرره قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، والظراب^(٢)، ومنابت الشجر»^(٣).

فإن قلت: هل تكلم النبي ﷺ بشيء من العوائد؟

قلتُ: نعم منها حديثه المشهور: «إذا تيامنت بحرية، ثم تشاءمت فتلك عينٌ غدِقةٌ»^(٤).

= أهمها «إحياء علوم الدين» ولد في مدينة طوس بخراسان عام ٤٥٠ هـ وتوفي بها عام ٥٠٥ هـ هجرية، رحمه الله.

(١) هذا كلام غير مسلم ويحتاج إلى توضيح، لأن إطلاق الكفر على غير الكافر أمر خطير للغاية، والله أعلم.

(٢) الظراب: جمع ظرب الرابية الصغيرة.

(٣) حديث: اللهم حوالينا ولا علينا... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته أوله أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة... إلخ. رواه البخارى فى الاستسقاء فى باب الدعاء فى الاستسقاء، كما رواه غيره، والله أعلم.

(٤) حديث: إذا تيامنت بحرية ثم تشاءمت... إلخ. رواه مالك رحمه الله فى موطنه بلاغًا بلفظ «إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غدِقة (١٥٤/٢) قال ابن عبد البر لا أعرف هذا الحديث بوجه فى غير الموطأ إلا ما ذكره الشافعى فى الأم عن محمد بن إبراهيم بن أبى يحيى عن إسحاق عن عبد الله أن النبى ﷺ قال: إذا نشأت بحرية ثم استحالت شامية فهو أمطر لها قال وابن يحيى وإسحاق ضعيفان لا يحتج بهما (١٥٤/٢) زرقانى وعلى كل حال فهذا من =

وقوله: «ما هبت الجنود قط إلا وسال واد».

وقال: «هاجت الريح لموت منافق».

وقوله: «كُفُّوا صبيانكم عند فحمة العشاء، فإن للجن في تلك الساعة انتشاراً»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾^(٢) [النبا: ١٤] فالإيمان يخرج الله من بين قرث الشرك ودم الشك خالصاً من شيوب العادات، مخلصاً من تشويش المعادة، قال الله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْتٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] وفيه من الاشتراك، الحياء: النبات، والحياء: الفرج.

قوله: «كن» فعل أمر من كان الناقصة وللحياء بالمد متعلق بكن. «ملازماً» خبرها، واسمها مستتر وجوباً، والحياء بالمد ضد الفحش لقوله ﷺ: «لو كان الحياء رجالاً لكان رجل خير، ولو كان الفحش رجالاً لكان رجل سوء»^(٣) وقيل: هو ضد الوقاحة.

قال الشاعر:

= البلاغات الأربعة التي قال فيها ابن عبد البر إنها لا تعرف: قال إن جميع ما في الموطأ من قوله بلغنى مما لم يسنده وجدت مسنده من غير طريق مالك إلا أربعة لا تعرف هي:

١ - حديث إني لا أنسى.

٢ - حديث أن النبي ﷺ رأى أعمار الناس... إلخ.

٣ - قول معاذ: آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ. وقد وضعت رجلى في الغرز.

٤ - حديث إذ نشأت بحرية... إلخ. ١٣/٢ زرقاني. أما قول الشيخ رحمه الله الحديث المشهور، فالحديث ليس مشهوراً إلا بعدم السند، والله أعلم.

(١) حديث: «كفُّوا صبيانكم»... إلخ. رواه أبو داود والعسكرى وعنهما السيوطى تحت رقم ٦٢٦٧ ورمز له بالصحة ولفظ العسكرى: مواشيكم حتى تذهب فحمة عتمة العشاء، والله أعلم.

(٢) الثجاج: السيل شديد الانصباب.

(٣) حديث لو كان الحياء رجالاً... إلخ. حديث مؤلف من حديثين الأول: «لو كان الحياء رجالاً لكان صالحاً»، والثاني: «لو كان الفحش رجالاً لكان رجل سوء»، وكلاهما ضعيف.

الأول رواه الطبرانى والخطيب ورمز له السيوطى بالضعف وقال المناوى فيه ابن لهيعة وهو لين (٣٢٢/٥) أما الثانى فرواه الطيالسى وأورده صاحب كشف الحفاء تحت رقم ٢١١٢ وقال فيه:

وهو ضعيف. اهـ.

إذا رزق الفتى وجهًا وقوْحًا تصرف في الأمور كما يشاء

وهو مقتبس من قوله ﷺ «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١). ومنه قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] والكل بمعنى التهديد، والتهديد وعيد شديد في طي مسامحة وتمهيد. والحياء سلم النجاة، ومنيع الخيرات، وهو انكسار يلازم النفوس الشريفة، يصونها عن الميل إلى سفاسف الأمور، ويمنعها من طلب الحظ والأجور، قد خشعت تحت أنوار الجلال وتلذذت بنفحات الجمال، فهي بالله ولله في جميع الأحوال، يعزُّ عليها أن يراها فيما عنه نهاها، أو يفقدها من حيث ما أمرها، يزعها^(٢) اللؤم والعار لا مخافة النار.

يروى أن حاتمًا الأصم^(٣) كان متواصل الأحزان، فقيل له: أيسرك أن لو جاءتك من ربك براءة من النار؟ قال: ما باليتُ بالنار قط، وإنما يحزنني خوف الفضيحة على رءوس الأشهاد، أو يخجلني بأنه رآني حيث نهاني، وإذا لم يرني حيث نهاني، فإني لا أبالي أفي جنته أسكنني أم في ناره، إذ إنما أنا عبده.

ويبلغ الحياء من الرجل حتى إنه ليستحي من نفسه أن يراها في غير لائق، كما يستحي من غيره أن يراه على ذلك. وقال ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان»^(٤).

وقال: «لا مروءة لمن لا دين له، ولا مروءة لمن لا حياء له، ولا دين لمن لا

(١) حديث إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى... إلخ. صحيح رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه وأحمد، أما البخاري فهو عنده في كتاب الأدب باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت وقد ذكر المناوي على الجامع أن كلمة الأولى ليست في البخاري (٢/٥٤٠) وهو وهم منه رحمه الله. والله أعلم.

(٢) يزعها: يمنعها.

(٣) حاتم الأصم: هو حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم زاهد اشتهر بالورع له كلام منون في الزهد والحكم، من أهل بلخ جاء إلى بغداد واجتمع بالإمام أحمد، وشهد بعض معارك الفتوح وكان يقال له: لقمان هذه الأمة مات عام ٢٣٧ هجرية رحمه الله.

(٤) حديث «الحياء شعبة من الإيمان»... إلخ. هذا جزء من حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم، وأوله الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة. رواه البخاري في كتاب الإيمان ومسلم في الإيمان. كما رواه باقي الجماعة باختلاف في العدد. والله أعلم.

مروءة له».

قال الشاعر:

فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وقال رضي الله عنه: «الحياء حسن، وهو فى النساء أحسن، والفحش قبيح، وهو فى النساء أقبح».

وقال: «الحياء لا يأتى إلا بخير»^(١).

نعم ذلك فى الحياء من حيث هو حياء حقيقى، غير أن تحته نوعاً يغرّ به الجاهل يحسبه حياءً لشبهه به، وإنما هو الوهن، وهو الذى يمنع الإنسان من اقتناء ما لا بد له منه، مما يحسب الجاهل أن تركه من باب الحياء، كتركه الغسل من الجنابة فى الملاء حتى يفضى به ذلك إلى الصلاة بالجنابة، والأكل عليها وكذلك ترك ما لا يعلمه مما يستحى من الكشف عنه، كالمذى، والحيض، والاستمناء، وغير ذلك.

ومن ذلك تخرجه من أن يصلى فى آخر الوقت، والناس ينظرون إليه مخافة أن ينسبوه إلى التهاون بالصلاة، حيث منعه مانع من صلاتها فى أول الوقت، وكذلك تقصيره عن أخذ حقه حيث خاصم أو خوصم، لأن الله ذمّ النساء بعدم البيان فى الخصام فقال: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] فذمّ الرجال بذلك من باب أخرى، قال الله تعالى تعليماً لعباده: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وهو أن يعبر عن الزنا واللواط والوطء فى حالتى الحيض والإحرام، إلى غير ذلك.

وقال رضي الله عنه لما أراد أن يعبر عن أشياء تتعلق بالسوأيتين: «[إن الله لا يستحى من الحق] وإنما أنا أبوكم أعلمكم كما يعلم أحدكم ولده، وإن الشيطان ليأتى أحدكم فيلوى شعرة من دبره ليفسد عليه صلاته فمن وجد ذلك فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً»^(٢).

(١) حديث: الحياء لا يأتى إلا بخير. متفق على صحته رواه البخارى فى كتاب الأدب كما رواه مسلم.

(٢) حديث: «[إنما أنا أبوكم]». رواه أحمد بلفظ إن الشيطان ليأتى أحدكم وهو فى صلاته فيأخذ =

وقال ﷺ: «من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فَأَعْضَوْهُ بِهِنَّ أَبِيهٖ وَلَا تَكْنُوا»^(١). انتهى وهو أن تقولوا له كما قال بلفظ الأير.

وأما الأمور التي تُتَنَفَى الحياء، فذكر الفروج بالأسماء المستقبحة عند العرب من غير ضرورة، والتعبير عن الوطاء بما يستقبح سماعه، والإكثار من السب واللعن، والكشف عن مساوئ الجيران والرفقاء، وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر عندما تعين موجباته، وحرمان الجار والتهاون بأمر الضعيف، واحتقار المملوك وإضاعة الطعام، وعدم إكرام النعمة والتهاون بالكرام وصحبة اللثام، وعدم الاحتشام، والانهماك في الشهوات، وارتكاب ما يخل بالمرءات من عدم نقاء الثوب وخفارة المستجير والنزيل، وقطيعة ذوى القربات، والتساهل بالإيمان والندور والتبعات، وكشف الرأس والساقين، ورفع الصوت فى الجماعات، وكثرة الطيش والالتفات، إلى غير ذلك.

والحياء أعزك الله له درجات متفاوتة، منه أعلى، ومتوسط، وأدنى. فأعلاه: حياء الأنبياء والأولياء، ومتوسط وهو حياء خواص المؤمنين، ودون ذلك وهو حياء عامة المسلمين، وفى كل الحياء خير.

وأما ما يكون فى المشركين من مخايله، فإنما ذلك أخلاق سياسية جعلها الله سبباً لبقاء هذا العالم إلى أمة^(٢) هم بالغوها. قالت عائشة رضى الله عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، ونصح الناس، وأداء الأمانة، وصلوة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الجوار، ورعاية الذمم، وقرى الضيف، ورأسهن وأساسهن الحياء.

وعن على رضى الله عنه: من جعل الحياء ثوبه لم تر الناس عيبه.

وعن زيد^(٣) بن على عن آبائه: من لم يستح فهو كافر.

= بشعرة من دبره فيمدها فيرى أنه أحدث فلا يتصرف حتى يسمع صوتاً، قال ابن حجر فى

التلخيص فيه أحمد بن زيد بن جدعان (١/١٢٨).

(١) حديث: من تعزى عليكم. رواه أحمد والنسائى وابن حبان وأورده صاحب كشف الحفاء تحت

رقم ٢٤٣٧. بدون ذكر عليكم. والله أعلم.

(٢) أمة: مدة.

(٣) زيد: هو زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الإمام العلوى الهاشمى القرشى ويقال =

وعن أبي موسى^(١) الأشعري أنه قال: إنى لأدخل البيت المظلم لأغتسل، فأحني ظهري حياءً من ربي.

وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياء. كالجوهر المكنون في النوعاء.

قال أبو علي الخواص^(٢): إن الناس عملوا على أربع منازل: الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء. فأرفعهم منزلة من عمل على الحياء، لأنهم لما علموا أن الله مطلع في جميع الحالات، أجلوه أن يراهم على حالة تُسقطهم من عينه، فاجتنبوا لذلك كل نقص.

ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

قوله: فبعد الجلاء: بالقصر والفتح، وهو ذهاب شعر اليافوخ^(٣) يخشى أي يخاف عليك جلاء بالمد، وهو الذهاب عن الوطن ومسقط الرأس، ومراد المؤلف: الموت، لأن الجلاء مقدّم الرأس دليل السن، والسن جالب الشيب، والشيب نذير الموت.

يروى أن رجلاً من ولد عثمان^(٤) رضى الله عنه، وكان ذا نعمة وافرة، وأموال

= له الشهيد، عد من خطباء بني هاشم وفقهائهم اقتبس علم الاعتزال من واصل بن عطاء خرج على الأمويين وقتلهم حتى قتلوه ونصب رأسه في دمشق والمدينة ولد عام ٧٩ ومات سنة ١٢٢ هجرية.

(١) أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس بن زائدة الأشعري أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة على قول، استعمله عمر على البصرة واستعمله عثمان على الكوفة ثم كان أحد الحكمين بصفين ثم اعتزل الفريقين مات سنة ٤٢ هجرية رضى الله عنه.

(٢) الخواص: هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحاق صوفى كان أحد المشايخ في زمنه من أقران الجنيد، والخواص بائع الخوص مات عام ٢٩١ هجرية رحمه الله (٢٢/١) أعلام.

(٣) اليافوخ: مقدم الرأس.

(٤) عثمان: هو عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي الأموي أمير المؤمنين ولد بعد الفيل بست سنين. أسلم قديماً على يد أبي بكر رضى الله عنه يلقب بذى النورين لأنه تزوج رقية وأم كلثوم، وهو الذى جمع القرآن في مصحف واحد وكان من أشيلاء الصحابة وجيز جيش الحسرة واشترى بئر رومة إلى غير ذلك من المآثر، ولى الخلافة عام ٢٤ وقتل رضى الله عنه شهيداً في سنة ٣٥ هجرية.

جمعة، وعبيد، وحفدة^(١)، فبينما هو في بيته إذ أخذ المرأة فرأى شبية، فطاش لُبَّهُ، وعلم أنه رسول الموت، فانخلع من جميع ذلك، ولزم مسجد رسول الله ﷺ يَقْمُهُ^(٢)، ويقم القبر الشريف، لا يردُّ جواباً، ولا يقبل خطاباً، فظنوه بإصابة الجن، وكالما جاءه بنوه ليذهبوا به إلى بيته كرهاً، استعاذ بالقبر الشريف^(٣) فبتركوه حتى قدم بعض صلحاء الشام، فراه، فسأل عنه، فقيل له: ذاك رجل من ولد عثمان نظر في المرأة يوماً فجنَّ، قال: فجعلت أتوسمهُ، فلم أر بعقله خللاً، وإذا عليه سمة الصلاح، فجعلته همي، فلما صلى المغرب، خرج للبقيع، فاتبعته، وجعلت أحبو تارةً، وأحدودب أخرى، حتى تمكنت من النظر إليه، وسماع كلامه من حيث لا يراني، فإذا بظبية أو دابة تُشبهها، فمكته من ضرعها، فالتقمه حتى روى، فشكر الله شكراً كثيراً، ثم قام يصلي، فما سمعت مثل تلاوته وتخشعه، حتى كان الثلث الأخير من الليل، جعل يتملق^(٤)، ويدعو، وكنت أصلي بصلاته، وأؤمنُ لدعائه، وكان من جملة ما يقول: إلهي أسألك بحرمة رسولك محمد^(٥) إلا ما وفقتني للعمل بمقتضى ما جاءني به رسلك الذين أرسلت إليّ، فما زال ذلك دأبه ودأبي معه، إلى آخر الليلة الثالثة، فأمهلته حتى دخل المسجد ضحوة اليوم الثالث، أتته فجعلت أقبل يده، فأنتهرنى، فقلتُ سيدى أسألك بحق صحبتي إياك بالبقيع منذ ثلاث إلا متعتني بدعوة صالحة منك، فإني كنت أصلي بصلاتك، وأؤمن على دعائك، فقال: هل اطلمت على ذلك؟ قلتُ: نعم، فقال لست هناك، ولكن هلم فلتتوسل برسول الله ﷺ قلتُ: سيدى فما رسل الله التي أتتك؟ قال: نظرت في المرأة فرأيت شعرات بيضاً، فعلمت أنها رسل ربي إليّ، يندرونني بقرب الموت، فكان من أمرى ما رأيت، فلما فرغ قال: سل حاجتك وأنا أؤمن، ورسول الله ﷺ يشفع، فلما فرغت، مال إلى الحائط، فحرك شفتيه ثم سقط، فإذا هو قد مات، فدعوتُ أهل المدينة إلى حضور جنازته،

(١) حفدة: جمع حافد: الخدم.

(٢) يقمه: ينظفه.

(٣) الأولى أن يقال: استعاذ بالله عز وجل.

(٤) تملق: تودد وتذلل.

(٥) الأولى أن يسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

وأخبرتهم بشأته، فجعلوا يبكون، ويتأسفون على ما فاتهم من معرفة قدره.

والجلاء بالمد: مصدر جلوت القوم أو الرجل، أجلوه جلاءً، وأجليته: إذا نفيتَه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الآية [الحشر: ٣]، ولما ظهر أبو بكر على العرب المرتدين، جعلوا يضربون إليه أكباد الإبل، فلما اجتمعت عندهم أشرافهم، قال لهم: إني أخيركم بين خلتين، فاخترتا أيهما شئتم، فقالوا: أجل يا خليفة رسول الله ﷺ قال: إني أخيركم بين الحرب المجلية، والسلم المخزية، قالوا: أما الحرب المجلية، فقد عرفناها، فما السلم المخزية؟ قال: هي أن أوكل عليكم وكلاء، فتبعثون إلى جميع ما معكم من الحلقة والسلاح، والبيضاء والصفراء، وتشهدون أن قتلنا في الجنة، وأن قتلناكم في النار، وأنا على الحق، وأنكم على الباطل، وأنكم رجعتُم إلى الحق بعد خروجكم عنه، وأنكم تبنون المساجد، وتعلمون أبناءكم كتاب الله، حتى تظهر توبتكم لخليفة رسول الله ﷺ، فيرى في أموالكم وأنفسكم وأسلحتكم رأيه، فقبلوا.

فإن قلت: ما وجه المناسبة بين الموت والجلاء؟

قلتُ: وجه المناسبة أن كلاً منهما، يُخلى المواطن، ويعطل المعاطف، ويحرق الأبواب، ويفرق الأحاب، ويجلب للعمارة الخراب، فلذلك كنى بالجلاء عن الموت لاشتراكهما في الإدهاش، والاستيحاش، وسرعة الذل والتلاشى والانكماش بعد الأثاث والرياش^(١).

قال الشاعر:

يا فرقة الأحاب لأبد لي منك ويا دار دنيا إنني راحل عنك

ويا سكرات الموت ما له وللما ويا ظلمات القبر ما لي وللضحك

وقوله يخشى: مقحم، إذ المحل محل خوف، لا محل خشية، لأنه إنما تُستعمل الخشية فيما ترجى النجاة منه، بخلاف الموت.

فحقيقة الخشية: خوف تُصاحبه معرفة وسكون.

مثاله: قوم سمعوا بعدوً عظيم، فمنهم من تحصن وخذق على حصنه وأعد من

(١) الرياش: فاخر الثياب.

الذخائر ما لا يخاف معه طول حصار العدو، ومن العدد والعدد ما عسى أن يقاومه به مذنباً^(١)، وربما طمع في الظهور عليه، فهو ساكن مطمئن لثبوت جأشه وقوته، فهذا مثال الخشية.

الثانى: أمعن فى الهرب على وجه يرتجى به النجاة، ولم يترك وجهها من الوجوه يرجو به نجاة إلا ارتكبه، فهذا خائف.

الثالث: انخل قلبه من الفزع، لا يعلم حيلة، ولا يهتدى إلى سبيل من شدة الفزع، فلما رأى نفسه كذلك، ترك الحيل والاستعداد، والتجأ إلى الملك القاهر، فمنعه، فهذا راهب لله ذاهب، فالخشية للعلماء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، والخوف للملائكة وخواص المؤمنين، قال الله تعالى فى حق الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وفى حق المؤمنين: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ﴾ [إبراهيم: ١٤]، والرهبنة لعامة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً﴾ الآية [الحديد: ٢٧].

* * *

• قال رضى الله عنه:

١٦ - أَيَا بْنَ الْبَرِّ اسْتَحْضِرْ بَرَاءً مِنَ الدُّنْيَا

فَشَبَّهُهُ الْعَصَى الْمُلْقَى عَلَيْهِ عَفَاءٌ

قوله: «أيا»: حرف نداء للبعيد، وما فى معناه، كالأصم والنائم، ابن: منادى مضاف منصوب، ومعنى الابن معروف، واشتقاقه من البناء، لأن أباه تسبب فى بناء جسمانه. تقول إذا صبغت منه فعلاً تبنيته، فترده إلى أصل مصدره بناءً، فاستثقلت العرب الإتيان بالهمزة إثر ضم، فأبدلوا منها واواً فقالوا: بنوةً، والبر بالفتح: الأرض، لأن أبا البشر آدم عليه السلام خلق منها، فلما كان أصله منها، صار كأنه ابنها، قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

(١) كذا فى الأصل. ولعله يريد مدافعاً. والمذنب: المدافع.

أُخْوَيْ ﴿ط: ٥٥﴾، قال ﷺ: «أنتم من آدم، وآدم من تراب» فأنتى لكم الفخر والكبر والحيلاء، وأنتم من الحضيض الأسفل الذى لا يأنف أن يداس بالقدم والخف والحافر، ولا يمتنع من أن تلقى عليه الجيف والأقذار، ومع ذلك لا يخرج منه إلا المليح المشتهى.

قيل: المؤمن مثل التراب، يلقي عليه كل قبيح، ولا يخرج منه إلا المليح.

قيل: إن لكل إنسان تربة من القبضة التى خلقت منها آدم، فهى مودعة فى الأصلاب، ولا يدفن أحد إلا فى موضع تربته التى خلق منها^(١). فاستحالت التربة سلالة، ثم السلالة نطفة، ثم استحالت النطفة علقة، ثم استحالت العلقة مضغة، ثم استحالت المضغة عظماً، ثم خلق الله من ماء المرأة اللحم والدم والجلد، ثم كساه اللون، ونفخ فيه الروح ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

قوله: استحضر، أى فى نفسك، براء بالمد، مفعول لاستحضر، والبراء بالمد من التبرئة من الشئ، وهو دفعه والتخلى عنه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ﴾ [المتحنة: ٤] جمع برىء من الدنيا، وحقيقة الدنيا ما أظلت الخضراء وما أقلت الغبراء فشبّة العفى^(٢). وله اشتراكات منها الرمل الذى عفا من الساكن، ومنها الربع إذا خلا من أهله، ومنها الشئ التآفه.

والعفاء بالمد: الميتة - قيل: إذا كان عندى قوتٌ يومى، فعلى الدنيا العفاء، وقد يشترك العفى والعفاء، ويقال للرمل: العفاء بالمد، قالت أم رسول الله ﷺ:

عفاً جانب البطحاء من آل هاشم وجاور لحداً دارساً فى الغماغم

فشبه خبر لمبتدأ محذوف، العفى مضاف إليه، الملقى نعت للعفى، عليه، جار ومجرور خبر للعفاء، وهذا غاية فى عيب الدنيا وتحقيرها، إذ جعلها ميتة على تل، أو ميتة عليها ما تذرره الرياح من الرمل والهشيم، وهو مضمن قوله ﷺ:

(١) قوله: «إن لكل إنسان تربة... إلخ»، يظهر أنه مأخوذ من حديث: إن الميت يدفن فى التربة التى

خلق منها... إلخ. وهو حديث موضوع قال ابن حزم فى كتابه المحلى بعد أن ساق الخبر وهذا خبر موضوع لأن فى أحد طريقه محمد بن الحسن بن زباله، وهو ساقط والطريق الأخرى من رواية أبى خالد وهو مجهول عن يحيى البكاء وهو ضعيف. أمه (٤٥١/٧) محلى، والله أعلم.

(٢) كذا فى الأصل. والعبارة مبتورة.

«الدنيا جيفة، وطلبها كلب»^(١).

وحديث السخلة التي وقف عليها رسول الله ﷺ ميتة في ربيع قوم، فقال: «أترون هذه قد هانت على أربابها؟» قالوا: لو لم تهن عليهم لما تركوها فقال: «والله إن الدنيا لأهون على الله من هذه السخلة على أربابها»^(٢).

قال ﷺ: «إن من هوان الدنيا أن يحيى بن زكريا قتلته بغى من بغايا بني إسرائيل»^(٣).

يروى أن أبا بكر استدعى ماء ليشربه وهو خليفة فأتوه بعسل فلما رآه جعل يبكي فقالوا ما يبكيك؟ فقال: إني دخلت على رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا، فوجدته يدفع بيديه ويقول إليك عني ما أنا بصاحب لك فقلت له بأبي أنت وأمي يا رسول الله من ذا الذي تُخاطبه؟ قال: الدنيا تعرضت لي بزخرفها وزرجونها^(٤) فدعنتني إلى نفسها، فقلت لها ما سمعت، فقالت: لئن نجوت مني، فلن ينجو مني أقوام يأتون من بعدك، يمرحون في رياضي، ويكرعون في حياضي، قلوبهم بحبي عامرة، ومن حب مولاهم عامرة، فحفت أن أكون منهم، والله لا فارقت ما كان عليه صاحبي من خشونة العيش، والاكتفاء بالبلغة حتى ألحق به، فإني أخاف

(١) حديث الدنيا جيفة... إلخ. موضوع أخرجه صاحب الكشف تحت رقم ١٣١٣ بلفظ «الدنيا جيفة وطلبها كلاب». قال الصغاني موضوع وقال النجم: ليس بهذا اللفظ في المرفوع والله أعلم.

(٢) حديث «أترون هذه قد هانت على أربابها»... إلخ. صحيح الإسناد رواه الترمذي وقال حسن صحيح كما رواه ابن ماجه والحاكم قال العراقي في تخريج الإحياء رواه الحاكم وصححه وابن ماجه، ولمسلم نحوه (١٩٦/٣). قلت: ورد في أكثر روايات هذا الحديث «شاة» بدل «سخلة» كما أورد صاحب الإحياء في آخره ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء ورواه الحاكم وصححه، إلا أن الذهبي لم يوافقه وقال فيه زكرياء ضعنوه (٣٠٦/٤).

(٣) حديث إن من هوان الدنيا... إلخ. ضعيف جدا رواه البيهقي في شعب الإيمان، وأخرجه السيوطي في جامعه ورمز له بالحسن وفيه «امرأة» بدل «بغى».

قال المناوي تعقبا على السيوطي وقضية كلام المصنف أن البيهقي أخرجه وأقره والأمر بخلافه بل تعقبه بما نصه هذا إسناد ضعيف (٥٤٣/٣).

(٤) الزرجون: الخمر، والمراد ملذاتها، أو زيتها.

أَنْ أَخَالَفَ مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَيَخَالَفُ بِي إِلَى النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتَهُ يَقُولُ: أَصَابَتْكُمْ فِتْنَةُ الْبُضْرَاءِ، فَصَبِرْتُمْ عَلَيْهَا، وَسَتَصِيْبُكُمْ فِتْنَةُ السَّرَاءِ، فَلَا أَرَاكُمْ صَابِرِينَ عَلَيْهَا، أَوْ تُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتُ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ.

فَقَالَ حَدِيْفَةُ: أَيَاتِي الْخَيْرَ بِالشَّرِّ، قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا فِتْنَانَسُوا فِيهَا فَتَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١).

«وَاللَّهِ مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى قَوْمِ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ عَلَيْهِمْ بِهَا بَابَ فِتْنَةٍ، فَمَنْ صَبَرَ وَشَكَرَ نَجَا، وَمَنْ فَخَرَ وَبَطَرَ هَلَكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّهَا لِأَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَمَنْ صَحَبَهَا بِالْعِلْمِ وَالتَّقْوَى، مَلَكَهَا فَأَهْلَكَهَا، وَمَنْ مَلَكَهَا بِالْجَهْلِ وَالهَوَى مَلَكَتْهُ ثُمَّ أَهْلَكَتْهُ».

قَالَ رَسُولُ ﷺ فِي حَدِيثٍ قَدْسِي يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ: «يَا دُنْيَا مِنْ أَطَاعَنِي فَاخْدُمِيهِ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتَخْدَمِيهِ»^(٢). وَلَقَدْ شُوْهِدَ ذَلِكَ عَيَانًا.

يَرْوِي أَنْ سَبَبَ تَوْبَةَ شَاهِ الْكِرْمَانِيِّ، أَنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا فِي بَعْضِ مَتْنَزَهَاتِهِ وَمَعَهُ أَرْبَابَ دَوْلَتِهِ يَتَّصِدُ، فَتَفَرَّدَ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَأَصَابَهُ عَطَشٌ شَدِيدٌ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ فِي الْبِيْدَاءِ وَقَدْ تَأَهَّ، إِذْ هُوَ بُولِي مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ رَاكِبٌ عَلَى أَسَدٍ، فَلَمَّا رَأَاهُ هَابَهُ، فَقَالَ إِلَى يَا شَاهِ، فَأَتَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَفِيْقَ مِنْ غَشِيْتِكَ، وَتَنْتَبِهَ مِنْ غَفْلَتِكَ؟ فَقَالَ: سَلِّ اللَّهُ لِي، فَسَأَلَ اللَّهُ لَهُ، فَقَالَ: أَعْطَشَانِ وَجَائِعَ أَنْتَ يَا شَاهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَحَرَّكَ شَفِيْتِيهِ إِذَا امْرَأَةٌ قَدْ جَاءَتْ بِسُوقٍ^(٣) وَسُكَّرَ وَخُبِزٌ سَخْنٌ سَمِيْدٌ^(٤)، فَقَالَتْ: تَنَاوَلْ حَاجَتِكَ يَا شَاهِ، فَشَرِبْتُ سُوقِيًّا، وَاللَّهِ مَا ذُقْتُ مِثْلَهُ أَحْلَى

(١) حَدِيثٌ: قَالَ: الدُّنْيَا تَعْرَضَتْ لِي... إِلَى قَوْلِهِ: لَمْ يَفْلِتْ مِنِّي بَعْدَكَ أَحَدٌ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَالبِخَارِيُّ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ إِلَّا أَنَّ الذَّهَبِيَّ لَمْ يُوَافِقْهُ وَقَالَ فِيهِ عَبْدُ الصَّمَدِ تَرَكَهُ البِخَارِيُّ وَغَيْرُهُ. اِهـ (٣٠٩/٤) مُسْتَدْرَكٌ وَضَعَفَهُ العِرَاقِيُّ كَذَلِكَ فَعَلِيَ هَذَا فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ وَاللَّفْظُ الَّذِي أَوْرَدَ الشَّيْخُ لَمْ أَجِدْهُ وَبَاتِي الْقِصَّةُ مُؤَلَّفٌ مِنْ عَدَّةِ أَحَادِيثَ بِعَضْمِهَا صَحِيْحٌ، أَمَا قَوْلُهُ قَالَ حَدِيْفَةُ: أَيَاتِي الْخَيْرَ بِالشَّرِّ فَهُوَ مَقْحَمٌ فِي الْقِصَّةِ. وَهُوَ جِزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ آخَرَ صَحِيْحٌ رَوَاهُ البِخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) حَدِيثٌ: يَا دُنْيَا مِنْ أَطَاعَنِي... إلخ. رَوَاهُ الخَطِيبُ بِلَفْظٍ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الدُّنْيَا أَنْ ائْخُدْمِي مِنْ خَدْمَتِي وَأَتَعْبِي مِنْ خَدْمَتِكَ وَهُوَ بِهَذَا اللَّفْظِ مَوْضُوعٌ، أَوْرَدَهُ ابْنُ الجَوْزِيِّ فِي مَوْضُوعَاتِهِ (١٣٦/٣) وَالشُّوكَانِيُّ فِي فَوَائِدِهِ تَحْتَ رَقْمِ (٧١١ - ٦٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٣) السُّوَيْقُ: النَّاعِمُ مِنْ دَقِيقِ الخَنْطَةِ وَالشَّعِيرِ.

(٤) السَّمِيْدُ: القَمْحُ المَجْرُوشُ.

طعمًا، ولا أذكى رائحه، ولا أبرد، ثم تناولت من الخُبز بالسُّكَّر حتى اكتفيتُ ثم قلت^(١) معه في ظل دوحه^(٢) حتى إذا تفيأت الظلال، أتته بماء فتوضأ وصليتُ معه الظهر، قُلْتُ له: من هذه المرأة التي تخدمك؟ قال: أوما تعرفها؟ قُلْتُ: لا، قال: تلك الدنيا، أو ليس قد سمعت قول الله: (يا دنيا اخدمى من أطاعنى، واستخدمى من خدمك)^(٣) فدلنى على الطريق، وانصرف إلى البيداء.

يروى أن من قال: لعن الله الدنيا قالت: لعن الله أعصانا لربه^(٤) يقال: إلزم بابًا واحدًا لا لتفتح لك الأبواب، تفتح لك الأبواب، واخضع لملك واحد لا لتخضع لك الرقاب، تخضع لك الرقاب.

ويروى أن الدنيا دار عمل، ولا ثواب فيها، والآخرة دار ثواب، ولا عمل فيها. ويروى أن وليًا من الأحياء، رأى وليًا من الأموات، فجعل الحى يسأل الميت، وهو يخبره، ثم قال له الميت: طوبى لكم معاشر الأحياء تقدرون على الأعمال ولا نقدر، ولو علمتم من ثواب الأعمال ما علمنا، لزهدتُم فيما سواها من جميع الحطام والراحة والبطالة، فإننا معشر الأموات نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، وأما استقذارها، فليس كل أحد يشاهده، ولكن يُشاهد البصير زوالها، والزوال عنها.

قال الشاعر:

هي الدنيا تجهُّر ^(٥) بانطلاق	مشمرة على قدم وساق
كأن الموت والحدثان فيها	إلى عمر الفتى فرسا سباق
فمما الدنيا بباقيسة لحي	ولا حى على الدنيا بباقي

(١) من القيلولة.

(٢) الدوحه: الشجرة العظيمة المتسعة.

(٣) تقدم قريبًا تخرج حديث الدنيا. أما القصة فلا أراها إلا منسوجة على هذا الحديث الموضوع وهى لغرابتها لا تقل عنه وضعًا حسبما أرى، والله أعلم.

(٤) تقدم تخريج هذا الحديث.

(٥) تجهُّر: تعلن. وفى الأصل تجهز، ولم أجد لها معنى.

وقال غيره:

وعيشك فيها ألف عام وينقضى
 كعيشك فيها بعض يوم وليلة
 ومن شأن العاقل اللبيب، أن يوطن نفسه ما دام فيها على معالجة الشدائد،
 وتجرع ألم المصائب، لأن الله يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(١) [البلد: ٤] إذ قال
 لآدم لما أهبطه إلى الدنيا: لن تنال العيش فيها إلا كدًا، وهو صفيه، خلقه بيده،
 ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وحمله على أعناق المقرَّبين، فما طمع
 غيره بصفوها؟ والتمتع بها بعده، قال ابن عطاء الله: ما ترك من الجهل شيئًا من
 أراد أن يحدث في الوقت ما ليس فيه.

قال الشاعر:

طالب الراحة في دار العنا
 وخاب من يطلب ما ليس يكون

وقال غيره:

يمثّل ذو اللب في لبّه
 فإن نزلت بغتة لم يرع
 رأى الأمر يفضى إلى آخر
 وذو الجهل يأمن أيامه
 فإن دهمته صروفُ الليالي
 ولو قدم الحزم في نفسه
 شدائده قبل أن تنزلا
 لما كان في نفسه مثلاً
 فيصير آخره أولاً
 وينسى مصارع من قد خلا
 ببعض مصائبه أعولاً
 لعلمه الصبر عند البلا

فليسأل العبد ربه العافية، فإن ابتلى فليصبر، فإن الجزع زيادة في المصيبة، وأشد
 من ذلك شماتة الأعداء.

يروى أن جبريل عليه السلام سأل أيوب بعد ما عوفى، فقال: ما أشد ما لقيت
 في بلائك؟ قال: شماتة الأعداء.

قال علي رضي الله عنه لبعض أصحابه: إذا نزلت بك عزيمة، فحاول دفعها
 بالأسباب، فإن رأيتها تنجع، فلا تعجز، وإن رأيتها لا تنجع، فلا تجزع، واسكن
 لها حتى تنقضى مدتها، فإن الحركة قبل انتهاء مدتها زيادة في شدتها.

(١) كبد: مشقة ومكابدة.

وأما حقيقة خبثها واستقذارها، فلا يشاهده على حقيقته إلا الأنبياء والأولياء، قال ﷺ: «إن الله لم يجعل للدنيا مثلاً هو أقرب إليها من طعامكم الذي تأكلونه، أطيب ما يكون عندكم، ثم تقذفونه من بطونكم أخبث ما يكون، تتحامون أن تمسوه بأقدامكم بعد ما كنتم تأخذونه بأشرف جوارحكم، وتجعلونه في أشرف منافذكم، وهو أفواهكم، ثم تجذبه طبائعكم بشره حتى يمتزج بأوصالكم، فتمد منه الطبايع الأربع:

البلغم، والصفراء، والدم، والسوداء، فتنشأ عنها جميع العلل.

فينشأ عن غلبة البلغم: السل^(١)، والقولنج، والنقرس، والبرسام، والكسل، وكثرة النوم، والغفلة.

وعن الصفراء: ذات الجنب، والقوة، والقالج، وييس الطبيعة، والالتهاب، وكثرة الحكم.

وعن الحمراء: الكرز والتشنج، ووجع الكلى، والمثانة، والصداع، والشقيقة، والخرانق، والحمراء.

ومن السوداء: الجذام، والبرص، والصرع، والميد، وغشاوة البصر.

وهذه حقيقة خبثها ظاهراً وباطناً، ما ينشأ عن حبها من البخل، والجبن، لأن من أحب شيئاً اقتضى حبه إياه البخل به، أحب أم كره، والبخل يؤدي إلى منع الواجب، كحق الله، والضيف، والأقرباء، والغرباء، وصيانة العرض فضلاً عن بذله تقرباً، ومن أحب شيئاً واطمأن إليه، عزَّ عليه فراقه والنقلة عنه، فيستدعى ذلك الجبن، فيجمع ذلك علتين، هما أصل اللؤم، قال ﷺ: «أى داء أدوى من البخل» وكان كثيراً ما يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل»^(٢). والجبن يستدعى خوف الخلق، وهو يستدعى الرياء والسمعة، والمداهنة والتصنع، وذلك يستدعى عدم الإخلاص، ومن فاته الإخلاص فقد فاته خير الدنيا والآخرة.

(١) كان الشيخ رحمه الله كأهل عصره يعتقد وجود طبائع اليونان هذه، أما السل فهو داء يصيب الرئة غالباً، والعظام أحياناً، سببه ميكروب سيئ، ولا علاقة له بالطبايع التي لا وجود لها، كذلك وباقي الأمراض المذكورة كل واحد له سبب خاص غير الطبايع، والله أعلم.

(٢) حديث «أى داء أدوى من البخل»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان.

وكان ﷺ كثيراً ما يقول: «اللهم أعوذ بك من خوف الخلق، وهم الرزق، والرضى عن النفس» وإنما كان ﷺ يتعوذُ منهم، لأنهن أمهات الخبائث.

أخرج البيهقي من طريق أبي أمامة يرفعه إلى أبي ذر أنه قال: بينما هو جالس مع رسول الله ﷺ، إذ التفت إليه فقال: إن شئت أريتك الدنيا بحذافيرها، فقال أجل بأبي أنت وأمي، قال: فاتبعني إذا أريكها، فتبعته حتى إذا قام على مزبلة عليها عظام الناس والبهائم والفضلات والخرق، فقال: يا أبا ذر أرايت هذه الجماجم النخرة، فإنها هام رجال كانوا يأملون كما تأملون، ويحرصون على جمع المال كما تحرصون، فصاروا إلى ما ترى، وهذه عظام دوابهم التي كانوا يجوبون البلاد على متونها، وهذه الخرق البالية كانت أنواع ثيابهم التي يتجملون بها، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم التي كانوا فيها يتنافسون فقذفوها من بطونهم أخبر ما كانت، فهم عنها راغبون، وإنما هي أطعمتهم التي كانوا إليها يهشون^(١)، فمن كان باكياً على الدنيا فليكن على هذا^(٢) وأشد من هذا ما روى أنه لا يموت أحد إلا تمثّل له ماله عند النزع، فإن كان ممن سلط على هلكته في الحق، أتاه على أكمل صورة، فيقول له: أنا مالك الذي بذلت في الله، فأبشر فأنا عونك وشاهدك، فنعمة ما صنعت إذ صبرتي باقياً بعد ما كنت فانياً، فنعمة ما أسلفت في الأيام الخالية، وإن كان ممن أضاعه في غير حق، واختزنه لورثته، أتاه على أقبح صورة وأفظعها، فيقول له: من أنت؟ فإني لم أر أقبح منك صورة، فيقول أنا مالك الذي كنت تمنع حق الله في، وكنت تدخرني، ولا تنفقني في سبيل الله، فأبشر بشر وعر^(٣) أنا الشاهد عليك، كنت لك عوناً لو صيرتني عوناً، ولكنك ضيعتني، فلا ضيعتك كما ضيعتني، فبئس ما صنعت، فجعلت حظك مني خرقاً باليةً، وجيفا فانيةً، ومزابيل قدرة، ملأت منها الكنيف، ولقيك ربك صفر الكفين، مسلوب الحيلة، مدحوض الحجة، فالويل لك، فحينئذ تنقلص شفتاه، ويربذ

(١) يهشون: يرتاحون، ويخفون.

(٢) حديث أبي ذر بينما هو جالس مع النبي ﷺ إلى آخره، أورده في الإحياء عن أبي هريرة وفيه اختلاف ألفاظ عما أورده الشيخ وفي آخره فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا. اهـ. هذا الحديث قال فيه

العراقي: لا أصل له (٣/١٩٩).

(٣) عر: العر المكروه، وهو من باب المتابعة.

وجهه، ويعربد^(١) فتحتوشه^(٢) الناشطات^(٣).

ولما كانت الدنيا مركبة من الخبث، صار مآلها إليه، إذ كل شيء يرجع إلى أصله، فيرجع طعامها إلى الخبث، وحيوانها إلى النتن، وحرامها إلى العقاب، وحلالها إلى الحساب، بخلاف الآخرة، فإن مطعومها يخرج رشحاً وتجشؤاً أطيب من المسك، لا بلغم فيها يمتخط، ولا ثوب يبلى، ولا جسم يفنى، ولا حال يتغير، فكل يرجع إلى أصل بنيته.

يروى أن مالك^(٤) بن دينار رأى العباس بن المهلب بن أبي صفرة وقد لبس حلة من الوشي، وعلى رأسه تاج ملمع بالجواهر، وهو يمشى المطيطاء^(٥)، فقال: يا فتى إن مشيتك هذه يبغضها الله ورسوله، وإنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً. فقال له: أو ما تعرفني؟ قال: بلى والله أعرفك، أولئك نطفة مذرة^(٦)، وأخر كجيفة قدرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة. فذهب إلى أبيه وكان خليفة^(٧) على العراقيين، فأخبره بما قال له مالك بن دينار، وما جابهه به، فأرسل إليه المهلب فقال: ما حملك على ما قلت للعباس ابني؟ قال: حملني على ذلك نُصحه، وبغض المنكر، وعلمى أنه لا قُدرة لأحد إلا الله، فقال له المهلب: اذهب فأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، وأنا من ورائك، فلما كانت أول منزل ينزله الإنسان، وقد جبل الله القلوب على حب أول المنازل.

قال الشاعر:

(١) يعربد: يسوء خلقه.

(٢) تحتوشه: تحديق به.

(٣) الناشطات: الملائكة تسلم أرواح المؤمنين برفق، وهذا الوصف غير مناسب لحالة الشقى.

(٤) مالك بن دينار هو مالك بن دينار البصرى من رواة الحديث كان ورعاً يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجر، مات بالبصرة عام ١٣١ هجرية.

(٥) المطيطاء: التبخر، ومد اليدين فى المشى.

(٦) المذرة: الفاسدة الخبيثة، وأصله من البيضة الفاسدة.

(٧) أبوه هو المهلب بن أبي صفرة الأزدي العتكي أمير بطاش، جواد، ولاء ابن الزبير إمارة البصرة حارب الأزارقة وولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان وبها مات عام ٨٣ هجرية. ولم يكن فى يوم من الأيام خليفة كما ذكر الشيخ رحمه الله.

نَقَلَ فَوَادَكَ حَيْثُ شَتَّ مِنَ الْهُوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
 كَمْ مَنْزِلٌ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ
 وقد جعل الله لهم بذوى العقول دلائل يستدلون بها على خستها، منها أن ألد مطعوم فيها العسل، وهو قىء ذباب تستقذره النفوس، وأنفس ملبوس فيها الحرير وهو خرة^(١) دودة، وأشرف منكوح فيها النساء، وإنما غايته مبال في مبال، وأشرف مركوب فيها الخيل، أكبر فائدتها حمل الكرام إلى المصارع.

ويروى: لولا أن الله خلق الإنسان ملازمًا للحاجة مقهورًا بالموت، لادعى الربوبية، لما ركب الله فيه من الكمال، ولذلك رد على النصارى لما ادَّعوا الألوهية لعيسى بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] كناية عن الغائط، لأن من اضطرَّ إلى أكل الطعام لا بد له من الغائط ومن كان لا بد له من الغائط فلا ينبغي أن يكون إلهاً، وأما قول بعض شروحه: إن المراد بالعفى ولد الحمار في لغة طيبي، فلم أطلععه، وهو بخلاف الاشتقاق.

وقال أيضاً: العفاء بالمد: التآفه من المأكول، وقد يقال للعدرة اليابسة، فعلى هذا التأويل معناه أن المشتغل بالدنيا المتهاتر بحبها، همته كهمة الحمار، إذ ليست له بشيء همة سوى القضم والخضم^(٢).

قال الشاعر:

كالعير ليس له بشيء همة إلا اقتضام الزاد حول المزود
 لا جعل الله لهمنا تعلقاً إلا به، وأما العفاء بالمد، فقد يكون اسماً للرياح.
 قال ابن تيمية في الأغاني:

درج العفاء على منازل جيرتى فغدت مناخاً للدبي^(٣) والجدجد^(٤)
 واستعجمت من بعد قاطننا فلا طيرٌ يجيب بها خلاف الهدهد

(١) الخرة: ما يخرج من الحيوان من فضلات الأكل.

(٢) الخضم: القطع.

(٣) الدبي: صغير الجراد قبل أن يتمكن من الطيران.

(٤) الجدجد: دويبة على خلفه صغير الجراد.

• قَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ:

١٧ - وَيَعْدُ الْعَرَى سَكْنَى الْعِرَاءِ فَكُلُّ ذِي

نَسَى هَالِكٌ لَا يَغْرُرُنَّكَ نَسَاءُ

قوله: ويعد العرى بالقصر والفتح، وهو عبارة عن أفنية الدور المتخذة للسمر، تنقل على رغم أنفك إلى سكنى العراء بالمد والفتح، وهي الأرض التي لا نبات فيها، وهو مشتق من العرى، وهو ضد الاكتساء، قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّنَاهُ بِالْعِرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٥] وكنى بسكنى العراء عن القبر ووحشته وظلماته - إلا من عصم الله - بدينه - يروى أن القبر يتأدى كل يوم، فيقول: أنا بيت الوحشة، أنا بيت الغربة، أنا بيت الظلمة، أنا بيت الديدان، فما أعددت لي؟ فمن أراد النجاة من وحشة القبر، فعليه بتلاوة كتاب الله، لقوله ﷺ: «ما تقرب المتقربون إلى الله بمثل كتابه، فإنه المونس في الوحشة، والصاحب في الخلوة، والشفيع عند الحاجة، والدليل عند الحيرة، من طلب الهدى من غيره ضل، ومن طلب العز من سواه ذل». الحديث المشهور.

ومن أراد أن لا يكون غريباً في قبره، فلتأته النية وهو في طلب العلم، قال ﷺ: من مات وهو في طلب العلم، قبض الله له في قبره من يعلمه ويُرِيْلُ عنه الوحشة، حتى يبعثه الله يوم القيامة عالماً فقيهاً، ومن أراد النجاة من ظلمة القبر فليقل بعد كل صلاة مائة مرة: لا إله إلا الله، قال ﷺ: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، بعد كل صلاة مائة مرة، هي منجاة من الفقر، وضياء في القبر.

يروى أن المؤمن إذا وضع في قبره ماد به، فتأته كلمة الإخلاص، فثبته، وتلقنه حجته، ثم تقول للقبر: اثبت أي قبر، فإنه كان مؤمناً موقفاً، ثابت القدم على التوحيد، فثبت القبر، وذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧] فتدلهم^(١) عليه ظلمات القبر، فبينما هو كذلك إذا هو بنور قد سطع في جانب القبر، وبرائحة ذكية، فلم يكن إلا كلمح البصر، إذا هو برجل لم ير الراؤون مثله حسناً وجمالاً، ونوراً وبهجةً، فيقول: من أنت، فوالله

(١) تدلهم: تشد الظلمة.

إنك لميمون طلعة، إذ قد أذهب الله عنى بك ظلمات القبر؟ فيقول: أنا عمك الصالح، فأبشر بروح وريحان، ورب غير غضبان، وجنة رضوان، وإنك مختبر ومبتلى ليظهر الله عنى خيراً، وستكفى مؤنتهم إن شاء الله.

وإن أراد النجاة من هوام القبر، فعليه بكثرة الصدقة، قال الرسول ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء»^(١).

وقال: «صدقة الرجل مهاده في قبره، وعمامة تقيه وهج الشمس في المحشر، ونور له على الصراط».

قال الله تعالى: ﴿فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾^(٢) [الروم: ٤٤].

وشطر البيت هذا مقتبس من حديث أخرجه النسائي أن النبي ﷺ خطب يوماً، وكان من جملة ما قال: اعملوا لما بعد الموت، واحذروا حسرة الفوت، فإنكم عما قريب تُنقلون من بهجة القصور إلى ظلمة القبور، ومن التنعم بالألوان إلى أكل الديدان، ومن لبس فاخر الثياب إلى البلى والتراب^(٣).

قال الشاعر:

أنعم جسمي باللباس ولينه وليس لجسمي من لباس البلى بدُّ

قوله: سكنى العراء، مبتدأ مؤخر، العراء مضاف إليه، ما قبله بعد العرى جملة اسمية في محل الرفع لسدها مسد الخبر، التقدير: سكنى كائن بعد العرى، والفاء سببية في قوله «فكل ذى نسي» و«كل» مبتدأ خبره «هالك» «لا» ناهية «يغررناك» فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، ونون^(٤) التوكيد، والضمير مفعول، و«نساء» فاعل، فالنسى بالقصر: كثرة المال ونماؤه، معناه: أن كل ذى مال وثروة وعزٌّ فان أجل الله آت، فلا يخدعك عن التأهب والتزود، نساء بالمد أى تأخير نزول الموت، والنسى بالقصر: المال، وبالمد التأخير.

(١) حديث صنائع المعروف تقي مصارع السوء، أخرجه القضاعى بهذا اللفظ ولفظ الصدقة تمنع ميتة السوء والأخير أوردته السيوطى ورمز له بالصحة.

(٢) يمهدون: يعملون ويكسبون.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) لعل العبارة والنون للتوكيد.

يروى أن الرشيد لما احتضر ب «سر من رأى»^(١) اجتمعت إليه أجناده وقد أمرها أن تستلم، فلما نظر إلى كثرتها وما قد استلأمت^(٢) فيه من العدة^(٣) الفاضلة، والحليل المسومة، والثياب الفاخرة، استعبر ثم قال: الله أكبر، أختطفُ وحدي بين هذه الجنود المجندة في خرقتين، وقد كانت الدنيا طوع يدي، فمن أصبح بعدى بملكه مسروراً، فقد أصبح مغروراً، ثم تأوه وقال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهُ ۖ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ﴾ [الحافة: ٢٨، ٢٩] ثم قال لخدمته أتوني برماد ففرشه، وجعل يتقلب عليه ويقول: يا من لا يزال ملكه ارحم من قد زال ملكه، ثم عهد إلى ابنه الأمين^(٤) ومضى رحمه الله.

ويطلق النسي بالقصر، ويراد به عرق في الفخذ يمتد من الورك وينتهي إلى الخنصر. ودواء النسي ألية شاة عربية، وهو داء يصيب من يبس الطبيعة، وربما كان من تبيغ الدم، قال الرسول ﷺ: «احتجموا لئلا يتبيغ بكم الدم»^(٥) والتبيغ مجاوزة

(٤) سر من رأى: مدينة عراقية تسمى الآن سامراء بناها المعتصم بعد الرشيد، والرشيد لم يرها أبداً، ولم يمت بها والعبارة خطأ بلا شك. والرشيد هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي خامس خلفاء الدولة العباسية بويغ بالخلافة بعد أخيه الهادي سنة ١٧٠ هجرية وازدهرت الدولة في زمنه واتصل بملوك أوروبا وتبادل الهدايا مع شلمان ملك فرنسا. يلقب بجبار بنى العباس كان حازماً متواضعاً كريماً واجتمع في بلاطه العلماء والشعراء والكتاب والندماء، كان يتعرف على أحوال الرعية بالسير متنكراً ليلا توفي في قرية من قرى طوس عام ١٩٣ هجرية.

(٢) استلأمت: لبست الدروع.

(٣) العبارة غير واضحة، إذ وصف العدة بالفضل وهذا استعمال غير شائع إلا إذا أراد عظيمها وجمالها. والله اعلم.

(٤) الأمين: هو محمد بن هارون الرشيد سادس خلفاء بنى العباس بويغ بالخلافة بعد أبيه عام ١٩٣ هجرية حصلت بينه وبين أخيه المأمون حرب قتل في آخرها الأمين عام ١٩٨ هجرية.

(٥) حديث احتجموا... إلخ. رواه البزار وأبو نعيم والطبراني والديلمي وعنهم السيوطي في جامعه بلفظ (احتجموا لخمس عشرة أو لسبع عشرة أو لتسع عشرة أو إحدى وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم).

قال المناوي: قال الهيثمي: فيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة ولكنه مدلس وقال العراقي سنده حسن موقوفاً.

ورفعه الترمذي بدون لفظ التبيغ، وقال حسن غريب (١/ ١٨٠).

الحد، حتى يؤدي إلى الضرر، وربما أدى إلى التلف، وسمى النسي بذلك، لأنه ينسى بألمه كل ألم، وكان ﷺ يقول لأصحابه: «من خاف منكم النسي فليضع أصبعه عليه، ثم ليقل اللهم إني أعوذ بك من كل عرق نَعَارٍ^(١) وغير نَعَارٍ، اللهم لا تُسلطه عليَّ بألم، ولا تسلطني عليه بقطع، أعوذ بعزتك وجلالك من شر ما أجد وأحاذر - ثلاثاً». وقد يمد.

قال فروة^(٢) بن مسيك، لما وفد على رسول الله ﷺ:

لما رأيتُ ملوك كندة أعرضت كالرجل خان الرجل عرق نساءها
قدّمتُ راحلتى أوم محمداً أرجو فواضلها وحسن ثرائها

وكان من ملوك كندة سيداً شريفاً شاعراً مفوهماً. ولما قدم المدينة نزل على سعد^(٣) بن عباد، ثم أتى رسول الله ﷺ بالمسجد، فرحب به وقال: من أنزلك يا فروة؟ قال: سعد بن عباد، قال: اللهم بارك على سعد، وكان يحضر مجلس رسول الله ﷺ، كلما جلس يتعلم القرآن، والفرائض، وشرائع الإسلام. وكان بين مراد وهمدان قبيل الإسلام وقعة، أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا، حتى أئخنوهم في يوم يقال له: يوم الرزم، فقال له رسول الله ﷺ: يا فروة هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرزم؟ فقال من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الرزم ولا يسوءه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً»^(٤). وفي ذلك اليوم يقول فروة:

مررنا على لُفَاة وهن زور ينازعن الأعنّة ينتهينا
فإن نغلب فغلابون قدماً وإن نغلب فغير مغلبينا

(١) نعار: عاص أو متمرد.

(٢) فروة: هو فروة بن مسيك بن الحارث المرادي، استعمله النبي ﷺ على مراد لما وفد عليه، مات سنة تسع من الهجرة رضى الله عنه.

(٣) سعد: هو سعد بن عباد بن دليم الأنصارى سيد الخزرج شهد العقبة وكان أحد النقباء مشهوراً بالوجود له كثير من المناقب مات بالشام سنة ١٥ هجرية.

(٤) حديث أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً، أورد ابن حجر في الإصابة وسكت عليه (٢٠٠/٣).

وما إن طَبْنَا جِبِينَ وَلَكِنْ
كَذَاكَ الدَّهْرُ دَوْلَتُهُ سَجَالٌ
فَبَيْنَا مَا نُسْرَبُ بِهِ وَنَرْضَى
إِذَا نَزَلَتْ بِهِ كَرَّاتٌ دَهْرٌ
فَمَنْ يَغْبُطُ بَرِيْبَ الدَّهْرِ مِنْهُمْ
إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنْسِ
فَلَوْ خَلَدَ المَلُوكُ إِذَا خَلَدْنَا
فَأَفْنَى ذَلِكُمْ سُرُواتِ قَوْمِي

منايانا ودولةٌ آخرينا^(١)
تكرُّ صرُوفُهُ حينًا فحينًا
ولو لبست غَضارته سنيْنَا
فألفيتَ الألى غبطوا طحينًا^(٢)
يجد ريبَ الزمان له خئونًا
كلاكله أنَاخَ بِآخريْنَا
ولو بقى الكرام إِذَا بقينا
كما أفنى القرون الأولينا

والنساء مصدر نسيّ ينسأ نساء فهو ناسيٌّ ومنسيٌّ، واسم المفعول منه منسأ، قال الرسول ﷺ: «من أراد أن يمد الله له في رزقه، وينسأ في أثره فليصل رحمه»^(٣).

يروى أن ملك الموت أتى سليمان عليه السلام يزوره، فبينما هو عنده، إذ جاء فتى من بنى إسرائيل ليعقد له على فتاة من قومه، ففعل سليمان عليه السلام، فانقلب الفتى مسروراً، فتبسّم عزرائيل عليه السلام، فقال له سليمان: مم ضحكك؟ قال: من هذا الفتى الذي عقدت له آنفاً، فانقلب مسروراً ولم يعلم أنه لم يبق من عمره إلا ثلاثة أيام، فجعل سليمان ينتظر وفاته عند الثلاثة الأيام، فلم يمت، فرأى عزرائيل بعد ذلك، فقال له: أأست أخبرتنى أن الفتى يموت بعد ثلاثة أيام، وله سنة من يومئذ؟ قال له عزرائيل: أما إنى لم أكذب عليك، إنما

(١) هذه الأبيات الثلاثة الأولى نقلتها كما هي من الأصل وفيها أخطاء وصحتها: كما عند ابن هشام:

مررنا على لفاة وهنَّ حوصٌ
فإن نغلب فغلابون قدما
منايانا وطعمة آخرينا
ينازعن الأعنة يتحيننا
وإن نغلب فغير مغلينا

(٢) في الإصابة، إذ انقلبت به، بدل، إذا نزلت به.

(٣) حديث من أراد أن يمد الله له في عمره... إلخ. حديث متفق على صحته رواه البخارى

ومسلم وأبو داود ولفظه «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» ومعنى ينسأ له في أثره: يؤخر له في أجله. البخارى (٣٤٨/١٠)، مسلم (٢٥٥٧)، أبو داود

(١٦٩٣).

أخبرْتُكَ بما كان عندى فى النسخة التى كانت بيدي، فلما ذهب من عندك وصل رحمه، فصيرَ الله الثلاثة الأيام ثلاثين سنة، وذلك أن الله كتب عنده فى أم الكتاب أن الفتى أجله كذا إن لم يصل رحمه، فإن وصل رحمه فأجله كذا، فقضى الله أن وصل رحمه، فزاده تلك الثلاثين، فمحا ما بيدي، وأثبت مكانه ما كان عنده فى أم الكتاب.

قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْشِئُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وهما^(١) على كلا الوجهين فمعناهما المتبادر بديهية الزيادة والتأخير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] وذلك أن العرب كانت إذا انصرفت من الموسم فأرادت حربًا أو غزواً أتت النسبئة فأحلت لها شهراً من الأشهر الحرم، وجعلت محله شهراً من أشهر الحِل، ليكملوا بذلك الشهر الحلال الذى حرّموه بزعمهم عدة الأشهر الحرم الثلاث المتواليات، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ويحرمون أحد الصفرين. فقد زادوا أحد الصفرين، وأخروا حرمة المحرم إلى العام القابل، وأول من نسا على العرب بنو فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، فهم الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية، وكان القلمس أول من سن ذلك، فدانت له العرب، وهو حذيفة بن عدى بن فقيم بن عدى، وتوارثت ذلك بنوه من بعده حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة وهو القلمس، فإذا أرادوا الصدر قام فيهم، فقال: اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين، وأنسأت الآخر للعام المقبل.

وفى ذلك يقول عمرو بن قيس يفتخر:

لقد علمتُ معدُّ أن قومي	كرام الناس إن لها كراما
فأى الناس فأتونا بوتر	وأى الناس لم تؤلك ^(٢) لجاما؟
ألسنا الناسين على معدُّ	شهور الحِل نجعلها حراما

(١) الضمير عائد على النسبى بالقصر، والنساء بالمد.

(٢) تؤلك: من ولك اللجام إذا مضغه.

• قال رحمه الله:

١٨ - فَجَدُّ بِالْفَضَى وَاغْشَ الْفَضَاءَ وَلَا تَكُنْ

دَوَى فَاتَقَّاءَ الْمُوْبِقَاتِ دَوَاءً

قوله: جد، فعل أمر من جاد - بالفضى. قيل: هو العطاء الواسع. وقيل: طعام الدعوة الواسع الذى يعم الشريف والمشروف، والمجهول والمعروف، قال ﷺ: «بئس الطعام طعام الوليمة يأكله الأغنياء ويمنع منه الفقراء»^(١).

واغش الفضاء، وهى الأرض الواسعة، وسميت بذلك، لأن كل حيوان يفضى إليها بجنبه، وذلك تلميح لقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ [المسرات: ٢٥، ٢٦] وسميت الأرض بالفضاء، من باب تسمية الشئ باسم ملازمه، وهو الإفضاء المهناً^(٢) الذى هو بمعنى المباشرة، قال الله تعالى فى وصفها بذلك: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبا: ٦] لا تغرق كالماء، ولا تزلق كالهواء، ولا تمنع الوطأة كالحرار.

قوله: ولا تكن، جازم ومجزوم، دوى خبير كان، أى ذا جهل وحمق، وهو المهذار من غير فائدة، وهو مأخوذ من دوى النحل، فإنه يسمع له دوى ودندنة، ولا فائدة تحته، فاتقاء أى اجتناب الموبقات، أى المهلكات من الأعمال والاعتقادات دواء بالمد وحقيقة الدواء عقار يؤلف من منافع النباتات والمعادن يستعمل لدفع الداء، وإنما عنى المؤلف الاحتماء من ارتكاب الأخطا المضرة، لأنه الدواء الذى لا داء معه، ولا دواء يشاكله، قال ﷺ: «ليس التقى من بكى ومسح الدموع، ولكن التقى من اتقى ما نهى الله عنه».

والمصنف أشار فى بيته هذا إلى أربعة فصول كل منها مهم:

الأول: السخاء بقوله: فجد بالفضى.

الثانى: العزلة، بقوله: واغش الفضاء.

(١) حديث بئس الطعام طعام الوليمة... إلخ. رواه الدارقطنى ورمز له السيوطى بالحسن وسكت عليه المناوى (٢/٢١٣) وقال فى العرس، بدل الوليمة والمسكين بدل الفقراء.

(٢) المهناً: المهيأ المريح.

الثالث: التوقى من التهور وعدم الكيس، بقوله: ولا تكن دوى.

الرابع: الاحتماء من مباشرة ما يجلب الداء المؤدى إلى طلب معالجته بالأدوية.

أما السخاء، فناهيك من فضله قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرَهُ نَسْرَى ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥ - ٧] وذلك أَنَّ الإنسان إذا همَّ بالصدقة أتاه شيطان الصدقة فيحسن في عينه المبدول، فإن كَفَّ وإلا حذَّره الفقر، فإن كَفَّ فأدلك، وإلا أمره بالرياء والسمعة، ليفسد عليه عمله الذى غلبه أن يكفه عنه، فإن أخلص نيته لربه وأعجزه، أتاه من وجه آخر وهو أن يلقى فى نفسه أن الله لا يُخلف له ما تصدَّق به فى الدنيا، ولا يثيبه عليه فى العقبى، ويوسوس له بعيوب المتصدق عليه، وهل هو ممن يتقبل الله الصدقة عليه، فإن غلبه على هذه بأن أعطاه مخلصاً موقفاً باخلف منه فى الدنيا، والثواب فى الآخرة، فسنيسه لليسرى، وهو تيسير الطاعات عليه فى الدنيا المقتضى لتيسير الحساب فى الآخرة الدال على دخول الجنة، لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَاباً يَسيراً ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٨، ٩] بالرضوان ودخول الجنة، يقال: إن من علامة سعادة المرء تيسير أسباب الطاعات عليه، ولو لم يكن له بها كبير همة، وتعسير أسباب المعاصى عليه وإن جد فى تحصيلها، والعكس للعكس.

وقال ﷺ: «ما جبل ولى الله إلا على السخاء»^(١).

وقال: «إن بدلاء أمتى لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بصفاء

القلب، وبسخاء النفس، والنصيحة لجميع المسلمين»^(٢).

(١) حديث «ما جبل ولى الله إلا على السخاء»... إلخ. موضوع أخرجه ابن الجوزى فى موضوعاته بزيادة وحسن الخلق وقال: هذا حديث لا يصح، قال أبو زرعة والنسائى: يوسف راوية متروك الحديث، وقال أبو نعيم: ليس بشيء، وقال ابن حبان: لا يحل الاحتجاج به، وقال الدارقطنى: متروك يكذب، والحديث لا يثبت. اهـ (١٧٨/٢) ابن الجوزى، وأورده صاحب الإحياء بلفظ «ما جبل الله تعالى ولياً له إلا على حسن الخلق والسخاء» قال العراقى: رواه الدارقطنى بسند ضعيف جداً (٢٣٨/٣) إحياء.

كما أورده صاحب «الكشف» تحت رقم ٢٢٠٢ بزيادة وحسن الخلق وقال: رواه الديلمى بسند ضعيف ورواه الدارقطنى وأبو الشيخ.

(٢) حديث «إن بدلاء أمتى لم ينالوا ما نالوا»... إلخ. ضعيف جداً رواه الدارقطنى والخلال =

وقال ﷺ: «طلبت خمسة فوجدتها في خمسة، طلبت صفاء القلب فوجدته في صيام الصيف، وطلبت رضوان الله فوجدته في إكرام الضيف، وطلبت الغنى فوجدته في الفناعة، وطلبت العز فوجدته في الورع، وطلبت خير الدنيا والآخرة فوجدته في قيام الليل»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ﴾ [الحشر: ٩]، قال على كرم الله وجهه: ليس الشح في الإنسان بعجب، لأن الله جبل عليه نفس الإنسان، وإنما العجب فيه وجود السخاء، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّمُ تَمَلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الاسراء: ١٠٠].

يروى أن السخاء اسم شجرة في الجنة مكتوب عليها اسم كل سخي، فإذا وقع في يده وفر، ورأى محتاجاً إليه بذله، فإذا رأى الشحيح وقد أمسك وفره عليه وهو يتنفس ويتوسع فيه، قال في نفسه لئن وجدت ما لا لأمسكنه على نفسي كما فعل فلان الشحيح، فإذا وقع في يده شيء أسدلت عليه شجرته أغصانها، فيقذف الله في قلبه من اليقين والرحمة ما لا يقدر على الإمساك معه، وأما الشحيح فإنه إذا رأى الكريم وما منحه الله من الخلف وحسن الثناء، قال في نفسه: لئن استفدت فائدة غير ما قابلت به الحقوق لأنفق منه كما أنفق فلان الكريم، فوجد الخلف وإحراز الثناء، فإذا استفاد ما لا أسدلت عليه شجرة الشح المغروسة له في أصل جهنم أفنانها، فيقذف في قلبه من خوف الفاقة وقلة الشفقة ما لا يقدر معه على البذل، فلا يزالان كذلك حتى يموتا، فيأوى كل واحد منهما إلى شجرته، فهما صاحبا الدرعين الذين ضرب لهما رسول الله ﷺ مثلاً في الصحيحين^(٢).

= وعنهما الغزالي في الإحياء بلفظ «إن بدلاء أمنى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام، ولكن دخلوها بسلامة الأنفس، وسخاوة الصدور» قال العراقي فيه محمد بن عبد العزيز، أورد ابن عدى له مناكير، وفي «الميزان»: إنه ضعيف منكر الحديث (٣/ ٢٤٠) إحياء. كما أورده صاحب «الكشف» تحت رقم ٨٨٩ وحاول في موضع آخر تحسينه بكثرة طرقه إلا أنه اعترف أخيراً بضعفه، والله أعلم.

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ مخرجاً.

(٢) يشير بذلك إلى الحديث المتفق عليه ولفظه عند البخاري «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من تدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده =

فالشحيح هو صاحب الدرع المقلص، يريد أن يوسّعها فلا تتسع، بل تلتزق كل حلقة مكانها من جسده لشح نفسه وخبثها وسوء حظها عند الله وصاحبه، كلما أعطى عطية اتّسعت وسبغت حتى تعفى أثره.

فإن قيل: أي الناس أكرم؟ فالواجب عليك أن تقول رسول الله ﷺ، ولو كان المثل سائراً بحاتم^(١) الطائي وكعب^(٢) بن مامة الإيادي، إذ قد أثبت ذلك رسول الله ﷺ لنفسه بحضرة عدى^(٣) بن حاتم.

يروى أن عدياً لما وفد على رسول الله ﷺ فقال له بعد ما أسلم: ألسنا يا رسول الله خير الناس شاعرنا سيد الشعراء، وهو امرؤ القيس^(٤)، وفارسنا أفرس الفُرسان، وهو أبو ثور عمرو بن معدى كرب، وكريمنا أكرم الكرماء، وهو أبي حاتم بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: لا بل أشعر الشعراء خنساء بنت عمرو ابن الشريد السلمية، وأفرس الفُرسان على بن أبي طالب، وأكرم الكرماء محمد ابن عبد الله، فقال: صدقت^(٥).

واختلف في الكرم والجد والسخاء، فقيل: ألفاظ مترادفة، وقيل: بينها خصوص وعموم، وذلك أولى، لما فيه من زيادة العلم، فالكريم هو الذي جمع

= حتى تخفى بانه وتغفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع. البخارى كتاب الزكاة.

(١) حاتم: هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي فارس جواد جاهلي يضرب المثل بجوده مات سنة ٤٦ قبل الهجرة.

(٢) كعب: هو كعب بن مامة بن عمرو الإيادي يضرب به المثل في حسن الجوار والجد، وهو جاهلي لا يعرف تاريخ موته.

(٣) عدى: هو عدى بن حاتم الطائي، أسلم سنة تسع من الهجرة وكان نصرانياً قبل ذلك، شهد فتح العراق ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع علي، مات بعد سنة ستين وقد أسن رضى الله عنه.

(٤) امرؤ القيس: هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، أشهر شعراء العرب يمانى الأصل، ومولده بنجد، قيل: كان اسمه عدياً، وكان أبوه ملك أسد، اشتهر باللهو والمجون إلى أن قتل أباه بتو أسد، فقال قولته المشهورة، اليوم خمر وغداً أمر، ثم ذهب يطلب ثأر أبيه، ولم يزل كذلك إلى أن اتصل بقيصر الروم، فأعطاه العون، إلا أنه أرسل له حلة مسمومة أصابته بقروح ومات عام ٨٠ تقريباً قبل الهجرة، والله أعلم.

(٥) هذا الكلام المنسوب إلى رسول الله ﷺ لم أجده مرفوعاً.

أنواع الكرم حتى بلغ النهاية التي لا يتأتى المزيد عليها من كرم النفس المنبجس^(١) منها كرم الأخلاق والشيم، ولا يتم حتى يضاف إليه كرم الأصل، والإكرام بالتقوى فيكون كنبى الله يوسف بن نبى الله يعقوب بن نبى الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم. فيكون مركباً من مطبوع ومكسوب، فالمطبوع ما جبل عليه الإنسان فى أصل غريزته التى طبعه الله عليها، والمكسوب ما منحه الله له فى ظاهر الكسب كالتقى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].
فأكده بأمرين:

أحدهما: إتيانه به تعالى على أتم وزن من أوزان المبالغة وأتم وصف من أوصاف أفعال التفضيل.

الثانى: إضافته له ليقع الحصر والانتهاء.

وأما دليل افتقاره إلى كرم الأصل، فقوله ﷺ لما سئل: أى الناس أكرم؟ فقال «أكرم الناس يوسف نبى الله بن يعقوب نبى الله بن إسحاق نبى الله بن إبراهيم خليل الله» قالوا: لسنا نسألك عن هذا قال: «أعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا نعم، قال: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا»^(٢).

وقال أيضاً: «الناس معادن كمعادن الذهب».

وقال ﷺ: «أنا أكرم الناس حسباً، وأعرقها نسباً، ما تشعبت شعبتان إلا كنت فى خيرهما من لدن آدم حتى خرجت من بين أبوى، فأنا النبى العربى القرشى الهاشمى المكى الأبطحى الزمزمى»^(٣). فالكرم لا ينبع إلا من النفوس الشريفة

(١) المنبجس: المتفجر، وقيل الانبجاس أول الانفجار.

(٢) حديث «لما سئل أى الناس أكرم...» حديث صحيح متفق عليه رواه البخارى فى كتاب الأنبياء بلفظ قيل: يارسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فيوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا.

(٣) حديث: أنا أكرم الناس حسباً وأعرقها نسباً... إلخ. أورده الشوكانى فى فوائده، وإن كان اللفظ غاير لفظ الشيخ فى كثير من الألفاظ وقال: هو موضوع وضعه بعض القصاص. ولفظه: أين كنت وآدم فى الجنة؟ قال فى صلبه وأهبط إلى الأرض وأنا فى صلبه إلى أن يقول: لا تشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما (١/٣٢٠) فوائده والله أعلم.

الزكية إذ لا غاية تلحقه، ولا رتبة توازيه.

يروى أن الله إنما خاطب الإنسان بقوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] إلا ليلقنه حجته بأن يقول: غرني كرمك، فلا يقول ذلك إنسان إلا غفر له وعفا عنه بالغة ذنوبه ما بلغت ولا يبالي.

يروى أن أبا بكر رضى الله عنه قرأ هذه الآية، فاستعير، ثم قال: من لؤمنا وكرم الله أن خلقنا ورزقنا ودبر أمرنا، وكرّمنا. ثم عصيناه، فلما أنشرونا بقدرته وكان يوم غضبه وانتقامه خاطبنا خطابنا الكريم المشفق الرحيم ليلقننا حجتنا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [٦] الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

يروى أن الله تعالى يأمر منادياً يوم القيامة فينادى: ألا من كان معروفاً بالكرم فليعتزل عن أهل المحشر لأخلو بهم وأريهم كرمي لتخلقهم بخلقى وتسميتهم باسمى، فإنى أجلبهم أن أواخذ خلقى بذنوبهم وهم شاهدون، فيأمر بهم فيكسون من حلال الكرامة ويتوجون من تيجان القرب والسلامة ثم يؤتون بمطايا لها أجنحة من نور فلا تاوى^(١) حتى تدخلهم ظل عرشه فيحييهم ويقول لهم: أتم الذين كنتم تؤثرون على أنفسكم الفقراء وأرباب الفاقة والغرباء والأيتام، وكنتم تأنفون أن أراكم على لؤم أو نقص أو رذيلة، فيقولون: بفضلك وفقتنا وبكرمك شرفتنا، وبجودك عرفتنا، وبإرادتك صرفتنا فلك الحمد، فالكل منك وإليك تباركت وتعاليت فيقول أرضيتم عبادى إذا صيرتكم إلى كفى، والناس يعالجون شدائد المحشر، فيقولون نحن عنك راضون إلا أنك خلقتنا وجلبتنا على الغيرة والأثرة، ولنا أحياء وأقرباء وعشائر ومعارف، يشق علينا أن تؤثر أنفسنا عليهم فى دار الدنيا دار الفقر والفاقة، وكيف وقد رأينا من جودك وكرمك وواسع فضلك فى دار كرامتك وجوارك ما أريتنا فيقول: ليس لهم من الأعمال مثل ما لكم، ولا لهم عندى من المنزلة ما لكم، فيقولون: قد علمنا لكن فضلك يسعهم، وأنفسنا تطيب بأن تعطيهم ثواب أعمالنا فتدخلهم الجنة وتدخلنا النار، فيضحك الكريم ثم يقول

(١) تاوى: كذا فى الأصل ولعل المقصود: فلا تستقر. وفى النسخة (ب): فلا تاوى بهم، والمراد:

لملائكته: انظروا يا ملائكتي إلى كرم عبادي هؤلاء، إذ رضوا بدخول النار في مثل هذا الموقف وقد عاينوا من كرامتي إياهم ما عاينوا في جنب إيثارهم وكرمهم الذي قد جبلتُهم عليه في دار الدنيا، جبلتُهم على كرم النفس والأثرة في دار الدنيا، وبعثتُهم على ذلك، فهل منكم معشر الملائكة من يقدر على مثل هذا؟ فيقولون: لا، فقال ذلك لتعلموا أني أعلم في آدم وذريته من الكرم ما لا تعلمون، فأقروا بشرف بني آدم، فقال: أشهدكم وأشهد ملائكتي أني قد ألحقتُ بكم ذريتكم وشفعتكم في كل من شفعتم فيه من أحبابكم وعشائركم ومعارفكم، من غير أن أنقص من أعمالكم مثقال ذرة، أفتروني كرمكم اليوم وأنا أكرم الأكرمين.

يروى أنه بينما رسول الله ﷺ جالس بين أصحابه، إذ تبسم، فقيل له: مم ضحكك أضحك الله سنك؟ قال: رجل من أمتي حوسب، فاستوت حسناته وسيئاته، فبقى متحيراً دهشاً، فلما رأى الله ذلك من أمره، قال له: اذهب إلى أهل المحشر فانظر هل يُرْفِدُكَ أحد من أهل المحشر بحسنة فأدخلك الجنة مع رحمتي، فيطوف في أهل المحشر، فكلما جاء أحداً عجب منه وابتعد أن يعطى أحد حسنة من حسناته في مثل هذا اليوم، حتى إذا أتى رجلاً من أمتي وببده سجلٌ من الخطايا وليست له إلا حسنةٌ واحدة، فيقول له: هلم أعطيك حسنتي هذه ليدخلك الله بها الجنة فإنني لا أراها تغني عنى شيئاً في هذا السجل المملوء خطايا، فلئن فاتني دخول الجنة فلاكون سبباً لدخول مسلم الجنة، فيرجع إلى الله مسروراً بحسنته، فيسأله الله وهو أعلم، فيقول له: هل منحك أحد من أهل المحشر حسنة؟ فيقول: لا، إلا أن رجلاً لم أجد عنده إلا حسنة واحدة، وعنده سجل من السيئات، فلما علم أنها لا تغني عنه شيئاً منحنيها، فيقول الله: أتعرفه؟ فيقول: لا يارب، فيقول الله: أنا أعرفه، ذلك فلان، فيرسل إليه بعض ملائكته فيأتون به، فيقول له: ما حملك على أن أعطيتَه حسنتك في مثل هذا اليوم؟ فيقول: يارب رأيتُ ذنوبي كثيرة، فعلمت أنها أخلقت وجهي عندك، وما رأيتُ أن تلك الحسنة تُغني عنى شيئاً فحيثُ فاتني دخول الجنة، لأكون ممن تسبب لأخيه المسلم حتى أدخله الجنة، فيقول الله له: إنك لكريم، وإني آليتُ على نفسي أن لا أعذب كريماً، أفتريني كرمك في مثل هذا اليوم؟ اذهب فقد غفرت لك جميع ما

اقترفت، وجعلتُ مكان كل سيئة حسنة، وأضعفتُ لك في العطاء، وألحقت بك صاحبك الذي كنتَ سبباً في إدخاله الجنة، وشفعتُك في أهل بيتك، وأعطيتهم مثل ما أعطيتك؛ ولذلك ضحكتُ إذ رأيت الكرم ينفع في الآخرة كما ينفع في الدنيا. وأما الجود، فإنه في مقابلة الشح، فكل كريم جواد، وليس كل جواد كريماً، فبذلك يدخل الجود في الكرم، ولا يدخل الكرم في الجود، فصار الجود جزءاً من أجزاء الكرم، وقصاراه ما أخرج صاحبه عن وصف الشح من غير زيادة، إلا أن ذلك يقع منه وينبعث من غير تكلف، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال الرسول ﷺ: «من أكرم ضيفه، وأدى زكاته، وأعطى في النائبة، فقد وقى شح نفسه».

وأما السخاء فحقيقته: البذل عند الوجد مع تكلف وتعسف، يوجد تارة ويفقد أخرى.

كما قال الشاعر:

ليس العطاء من الفضول سماحةً حتى تجود وما لديك قليل

وأما العزلة، فإنها أصل من أصول التصرف، وسبب من أسباب التعرف، درج عليها المرسلون، وتنافس فيها الأولياء والصالحون؛ لأنها مضمرة الفكرة وسلم العبرة. قال ابن عطاء: ما نفع القلب شيءٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة.

وفي الحكم يقول الخطاف: البعد من الناس أنس.

وقال أبو طالب^(١) المكي:

يا من يريد منازل الأبدال	من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن فيها فلست من أهلها	إن لم تراحمهم على الأحوال
بيت الولاية قُسمت أركانها	ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين جوع واعتزال دائم	والصمت والسهر النزيه الغال

(١) أبو طالب المكي: هو محمد بن علي بن عطية الحارثي، واعظ مشهور، زاهد فقيه، من أهل الجبل بين بغداد وواسط، نشأ بمكة ورحل إلى البصرة، واتهم بالاعتزال ثم ارتحل إلى بغداد وهجره الناس لأقوال قالها، وبها توفي عام ٣٨٦ هجرية.

والعزلة ربما أورثت الخمول الذى لا سبيل إلى السلامة بدونه، ولا كمال للأعمال والعيش بغيره.

قال ابن عطاء:

ادفن وجودك فى أرض الخمول، فما نبتَ مما لم يدفن لا يتم نتاجه.
وفى التنوير:

عشْ خامل الذَّكر بين الناس وأرضَ به فذاك أسلم للدينِ وللدينِ
من عاشر النَّاس لم تسلم ديانته ولم يزل بين تحريك وتسكينِ
يروى أن الشعرانى^(١) لما فرَّ من القضاء والخلاطة، وهام على وجهه، طلبه خليل
له حتى إذا رآه امتنع من أن يمكنه من الاجتماع به، وكانت تطوى له الأرض،
فناشدهُ بالله والعشرة أن يمنحه جناح حكمته إذ فاته لذيذ وصله فالتفتَ إليه وقال
له:

يا لائمي فى قريهم جاهلاً عذرى منقوش على خاتمِ
ما فى اجتماع الناس خير ولا ذو الجهل بالأشياء كالعالمِ

فلم يتمكَّن من الخاتم حتى مات القاضى عبد الوهاب، فإذا هو قد نقش على
فص خاتمه قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾
[الأعراف: ١٠٢] فالباقي بعد الأكثرين أقل قليل.

يروى أن عمر دخل على رسول الله ﷺ فى بعض حجراته، فإذا هو مضطجع
على حصير مرمل^(٢) بشريط من العرم^(٣) وقد أثر فى جنبه، وإذا الحجره كأنها
قفص طائر من ضيقها وغمها، فلما رأى عمر ذلك بكى، فقال له رسول الله
ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» قال: إن كسرى وقيصر مع ما هما عليه من الكفر

(١) الشعرانى: هو عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى، نسبة إلى ابن الحنفية من علماء المتصوفين
له كثير من المؤلفات النافعة توفى بالقاهرة عام ٩٧٣ هجرية.

(٢) مرمل منسوج: تقول رملت الحصير وأرملته إذا نسجته. والمراد أن جنبه الشريف لم يكن بينه
وبين نسج السرير أى فراش.

(٣) العرم: سواد مختلط ببياض، والمراد - والله أعلم -: إن نسيج السرير من لونين.

يتنعمان بالحرير والديبايح، وأنت خيرته من خلقه لم تجد فراشاً يحول بينك وبين التراب^(١)، فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ قال: بلى، قال: ما لى وللدنيا، ما مثلى ومثلها إلا كمسافر اضطره حر الهجير إلى ظل شجرة فقال تحتها، فلما تفيأت الظلال سار عنها وتركها^(٢) يا عمر أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدرى وتشددى^(٣) وتمذرى على أوليائى حتى يحبوا لقائى وتزينى وتوسعى وتطيبى لأعدائى حتى يكرهوا لقائى، فإنى جعلتك سجنًا لأوليائى، وجنة لأعدائى يا عمر إذا زهد العبد فى الدنيا رزقه الله أربعة أشياء، علمًا من غير تعلم، وهدى من غير هاد، وعزًا من غير عشيرة، وغنى من غير مال، يا عمر أحبُّ عباد الله إلى الله الأتقياء الأتقياء، الشعث رءوسًا، الدنس ثيابًا، الذين لا ينكحون المتنعمات، ولا تفتح لهم الأبواب، إن يقولوا لم يسمع قولهم، وإن يقدموا لم يفرح بهم، وإن يمرضوا لم يعادوا، وإن يموتوا لم تشهد جنازتهم، فقال عمر: من لى برجل منهم قال له رسول الله ﷺ: «منهم أويس^(٤) القرنى، إنك ستلقاه فى آخر عمرك، فإذا لقيته فأقرئه منى السلام، قال: صفه لى يارسول الله، قال: إنه رجل أسمر طويل واسع الصدر، تجده يرمى إبل قومه بعرفات وهو يصلى، واضعًا ذقنه على صدره، ودموعه تجرى على خده، تحت إبطه الأيمن شامة بيضاء من بقية برص كان به، فدعا الله فأزاله إلا تلك الشامة، أحب أن تبقى ليذكر بها نعمة الله عليه، وإنه ليوقف يوم القيامة فيشفع فى مثل

(١) هذا اللفظ لم أجده فى الحديث.

(٢) حديث: دخل عمر على رسول الله ﷺ... إلخ. حديث صحيح، رواه أحمد والترمذى والحاكم بلفظ قريب من رواية الشيخ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى (٤/٣١٠) مستدرك. وليس فيه (سرير مرملة بشرط من العرم وإذا الحجره كأنها قفص طائر). وفى آخره زيادة: سار فى يوم صائف وأول الحديث فى الصحيحين بلفظ أطول وأشمل من رواية الشيخ.

(٣) أما حديث: أوحى ربك إلى الدنيا... إلخ. فهو موضوع أورده ابن الجوزى فى موضوعاته بلفظ «أوحى الله إلى الدنيا أن اخدمنى من خدمنى واتعبى من خدمك»، وقال: قال الخطيب: مدار رواية هذا الحديث على الحسين بن داود عن الفضيل بن عياض، وهو وضاع، ورجاله كلهم ثقات غيره (٣/١٣٦).

(٤) أويس القرنى: هو أويس بن عامر، ويقال: ابن عمرو القرنى التميمى العابد، نزل الكوفة بمانى مرادى، من أشهر التابعين قيل مات بالحيرة وقيل بصفين.

ربيعة ومضر، فإذا ذهبت إليه فاستصحب علياً وإسألناه أن يدعو لكما بالمغفرة»^(١).

فلما مضت من خلافته تسع سنين حج وحج معه على رضى الله عنهما، فما هو إلا أن جاء وسأل عن أهل اليمن، فدل عليهم، فلما أتاهم سألهم أيكم أويس القرني؟ فقالوا: مثلك يا أمير المؤمنين لا يسأل عن مثله؟ قال: ولم؟ قالوا: إنه رجل مسلوب العقل والمروءة يلبس الحصير ويلتقط من المزابل والطرفات مما تلقيه الناس من عفن أطعمتهم، وربما التقط النوى فاكتفى به، يتكلم وحده، ولا يألف أحداً، ولا يأوى إلى معمر، فصاح عمر حتى غشى عليه، فقال: ويلكم دلوني عليه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه يشفع في مثل ربيعة ومضر^(٢)، فقالوا: هلاً أمرت أحدنا يأتيك به فإنه أهون رجل عندنا. قال: بل آتية بنفسى في مكانه الذى هو به، فبذلك أمرنى رسول الله ﷺ فأرسل إلى على رضى الله عنه

(١) حديث أحب عباد الله إلى الله... إلخ. لم أجد له سنداً صحيحاً بهذا اللفظ نعم روى مسلم أحاديث فى أويس منها أنه يأتى مع أمداد اليمن، وأنه كان مصاباً بالبرص فبرئ منه إلا موضع درهم، وله والده بها بر لو أقسم على الله لأبره.. وقال لعمر: إن استطعت أن تستغفر لك فافعل، وأن عمر قابله واستغفر له... إلخ. هذا مع أن مالكاً رحمه الله كان ينكر أويساً، ويقول: لم يكن. ذكر ذلك الذهبى فى «ميزان الاعتدال» له: (٢٧٩/١).

قلت: ذكر ابن الجوزى فى موضوعاته خبراً عن أويس وقال: وضعوا خبراً طويلاً فى قصة أويس، وإنما يصح فى الحديث عن أويس كلمات يسيرة جرت له مع عمر - إلى أن قال - فأطال القصص وأعرضوا فى حديث أويس بما لا فائدة فى الإطالة بذكره (٤٤/٢) موضوعاته. وعلى كل حال فهذا الحديث ليس متصلًا بحديث عمر: دخلت على رسول الله ﷺ وليس الذى قبله متصلًا به ولا الذى قبل ذلك، وإنما الكلام مجموعة من الأحاديث بعضها صحيح، وبعضها حسن، وبعضها موضوع كما سبق والله أعلم.

(٢) حديث: إنه يشفع فى مثل ربيعة ومضر: منكر، أورده الذهبى فى «سير أعلام النبلاء» بلفظ: يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتى أكثر من مضر وتميم، قيل: من هو يا رسول الله قال: أويس القرني وقال: هذا حديث منكر انفرد به الأعيان وهو ثقة (٣٢/٤) سير قلت: علته ليست من الأعيان وهو محمد بن أبى عتاب البغدادي، ومع أنه ليس من أصحاب الحديث، إلا أن العلة من شيخه عبد الله بن صالح وهو ضعيف.

وأخرج الترمذى (٢٤٤٠) وابن ماجه (٤٣١٦) وأحمد (٤٦٩/٣) بسند قوى: يدخل الجنة بشفاعته رجل من أمتى أكثر من بنى تميم. ولم يعين هذا الرجل. والله أعلم.

فذهبا إليه فوجداه على الصفة التي وصف لهما رسول الله ﷺ فلما عليه فأوجز في صلاته ثم رد عليهما السلام فقال عمر: من أنت أيها الرجل؟ قال: راعى إبل وأجير قوم قال: إنما أسألك عن اسمك قال: أنا عبد الله قال: ما الاسم الذي سمتك به أمك؟ قال: وما أربك إلي ذلك؟ قال: أأنت أويساً القرني؟ فأسألك بالله إلا ما رفعت جناحك الأيمن فعلم أنهما يريدان أن يستثبنا نعتاً بلغهما عن رسول الله ﷺ، فرفع جناحه، فإذا الشامة، فقال عمر: هو والله، فقال لهما: من أنتما إذ أطلعكما الله على شأني، قال له: أنا عمر بن الخطاب، وهذا على بن أبي طالب، وإن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويأمرك أن تستغفر الله لنا، فقال لهما: إنني لا أخص باستغفاري نفسي ولا غيري، بل أستغفر لجميع المسلمين والمسلمات، فقال له عمر: هلم إلي الصحبة، فإنك إن صحبتني كنت في أحسن مما أنت فيه من البلغة، فقال: هيهات إن بين يدي ويديكما عقبة كثوداً لا يجاوزها إلا كل ضامر مهزول من الجوع والسهر، فلما سمع عمر قوله قال: الويل لعمر ليته كان حيضة، وليت أمه لم تلده، ثم أغمى عليه، فوضع جبهته على قبروس سرجه حتى أفاق، فقال له: يا أويس ما منعك أن تصاحب رسول الله ﷺ، وقد أدركت زمنه؟ فقال: إنني قد رأيته وصحبته، فقال: وكيف ذلك؟ فقال: رأيته بعيني قلبي، وصحبته باتباع سنته، وكل تابع صاحب، فهل نفعت أبا جهل رؤيته بعيني رأسه؟ إذ لم يره بعيني قلبه، ثم قال لهما: اذهبا من هذه الثنية، فإني ذاهب من هذه الأخرى فقالا: إنا نريد صحبتك على أن تزيدنا موعظة، قال: لا سبيل إلى ذلك، وإن من لم يجعل الله له واعظاً من نفسه، فلا واعظ له، فبكى عمر، ووادعه^(١)، فخرج من الثنية حتى إذا رد الإبل إلى أهلها انخزل^(٢)، وكان عمر رضى الله عنه قد جعله من همه، فتركه حتى إذا انفصل من العمران أدركه فقال: أنشدك الله ووصية رسول الله ﷺ إلا ما أخبرتنى بالمكان الذي تتوجه إليه، قال: أقصد الكوفة، فقال عمر: أخبرني بالمكان الذي تريد لعلني أبعث إلى عاملي عليها فيأتيك خفية بما تحتاج إليه من الكسوة والنفقة، وتتفرغ لعبادة ربك؟ فقال:

(١) كذا في الأصل: ووادعه.

(٢) انخزل: سار متاقلاً.

هيهات لغبراء في قفراء أعبد ربي بها وأخلو بها أحب إلى مما طلعت عليه الشمس من بيضاء وصفراء، فلا تتعب نفسك في شأني، فإن من ذاق طعم نفسه لم يفلح أبداً، فبكى عمر، ووادعه، ثم قال: رحمك الله ما أزهلك وأجهدك في ذات الله! فاشتهر أمره بمكة والمدينة واليمن، فاشتقت إليه القلوب وحنّت إليه الأرواح. فآلى فتى من الأنصار أن لا يسأم التطلاب أو يلاقيه، وقد بلغ الناس أنه توجه إلى الكوفة، فتوجه إليها حتى قدمها، وكان من أولياء الله، فسأل في جميع نواحي الكوفة فلم يقع له على خبر، فسأل الله أن يدلّه عليه إن كان يعلم من نيته أنه إنما خرج في طلبه حباً له، فنودي في سره أن اطلبه في البيداء، فذهب إلى البيداء، فإذا هو به قائم يصلي في مراغ أغبر، فلما دنا منه حياه بالسلام، قال له أويس: وعليك السلام يا فلان ابن فلان ورحمة الله تعالى وبركاته، قال: من أنبأك باسمي واسم أبي؟ ولم تتقدم لك بي معرفة ولا بأبي قال: هيهات يا زيد إنه لما قربت مني جالت روحك وروحي في ملكوت ربي، فتعارفا، أليس قد سمعت قول رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(١). فقال الأنصاري: عظمي يرحمك الله، فقال: مات آدم صفيُّ الله، ونوح رسول الله، وإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله، وعيسى روح الله، ومحمد رسول الله خيرته من خلقه، ومات أبو بكر صديق الله، ومات عمر الفاروق، فقال الأنصاري: إنه لم يمت، فقال: إنه مات البارحة، وأموت أنا وأنت غداً، فكان الأمر كذلك، فغزا هو، وغزا معه الفتى، فأما الفتى فمات في المعركة، وأما هو فرجع مع العسكر فمات رضي الله عنه بالبيداء، فدفنوه من غير أن يعلموا قبره، فلما فصلوا عنه ندموا على أن لا يكونوا علّموا عليه، فرجعوا فلم يجدوا لقبره، أثراً رضي الله عنه، طلب الخفية والخمول من الله، فأعطاه ذلك في الدنيا والبرزخ^(٢).

(١) حديث «الأرواح جنود مجنّدة»... إلخ. حديث صحيح رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء كما رواه مسلم وغيره.

(٢) الذي يظهر من سياق هذه القصة أنها مما أشار إليه ابن الجوزي في موضوعاته وأنها من وضع القصاصين وذلك لأسباب ثلاثة:

الأول: أنها لم ترد بهذا السياق بسند يعتمد عليه.

وقد قدمت من أمر العزلة في صدر الكتاب ما يكفى ويشفى^(١).

وأما الحمق، فهو ضد العقل، فكل خصلة في العقل، فإن في الحمق ضدها!

يروى: أن أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فأكحله من نوره، فأبصر جميع الأمور، ورتبها على حقائقها، فقال الله له: أنت أحب خلقتي إلي، بك آخذ، وبك أعطى، وعزتي وجلالي لأجعلنك في أحب خلقتي إلي^(٢).

قال عليه السلام: الناس يعملون، وإنما يثابون على قدر عقولهم^(٣). انتهى وهو مأخوذ

= الثاني: أن فيها عبارات لا نليق بمقام عمر ولمخالفتها ما هو ثابت في مسلم وغيره

الثالث: أن قصة شبيهة بها رواها أبو نعيم في الحلية له وعنه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» وقال فيها: ولم تصح، وفيها ما ينكر (٢٩/٤). وقال في قصة شبيهة بها: وهذا سياق منكر ولعله موضوع.

قلت: وهذه القصة التي أشار إليها الذهبي بالوضع لا تختلف كثيراً عن قصة الشيخ، والله أعلم.

(١) انظر ص ١.

(٢) حديث أول ما خلق الله العقل موضوع رواه ابن عدى، وفيه الفضل بن عيسى قال فيه يحيى

رجل سوء وحفص بن عمر قاضى حلب:

قال ابن حبان: لا يحل الاحتجاج به بالإجماع، ورواه الدارقطني من وجه آخر. وفيه سيف بن محمد وهو كذاب، ورواه العقيلي عن أبي أمامة مرفوعاً وفي إسناده مجهولان ذكر ذلك الشوكاني في كتاب الفوائد له (٤٧٨/١).

وقال الذهبي في «الميزان» بعد أن أورد الحديث قال أحمد بن زهير سألت يحيى بن معين عن الفضل بن عيسى فقال: كان قاصاً رجلاً سوء، قال فحديثه قال: لا تسأل عن القدرى الخبيث (٣٥٦/٣) ميزان وقال صاحب الكشف بعد أن أورد الحديث تحت رقم ٨٢٣ قال الصغاني:

موضوع باتفاق، والله أعلم.

(قلت: لم أجد عبارة فأكحله من نوره... إلى: على حقائقها).

(٣) حديث «الناس يعملون وإنما يثابون على قدر عقولهم» منكر رواه الديلمي بلفظ «الناس يعملون على قدر عقولهم». وعند أبي الشيخ «الناس يعملون الخير وإنما يجازون على قدر عقولهم». ورواه ابن عدى بزيادة، وأورده الشوكاني في موضوعاته تحت رقم ١٣٤٨ - ٤٩. وفيه أحمد بن بشير متروك.

قلت: الذى يظهر أن الحديث ضعيف جداً أو موضوع لأنه لا يروى إلا من طريق أحمد بن بشير الذى قال فيه يحيى متروك، وقال الدارقطني: ضعيف، وقال النسائي: ليس بذاك القوى، وقال

فيه عثمان الدارمي: متروك، مع أن البخارى، خرج له قاله الذهبي (٨٥/١) ميزان

من العقل؛ لأنه يعقل صاحبه عن ارتكاب ما لا يليق في العاجل والآجل.

قال رسول الله ﷺ: «كاد العقل أن يكون وحياً».

وهو مطبوع وسموع، فالمطبوع مثاله كضوء البصر، والمسموع كضوء الشمس، فلا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوعاً، كما لا ينفع ضوء الشمس ونور البصر ممنوع.

قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى»^(١).

روى عن كعب^(٢) الأحبار أنه رأى في التوراة أن الله لم يعط جميع خلقه من العقل بالنسبة إلى عقل النبي ﷺ إلا كحصاة من جميع رمال الأرض، ومن حقق سيرته رأى ذلك بديهياً، ولذلك بعثه الله إلى سائر خلقه، فإذا جاءه أهل البدو خاطبهم بخطاب أرسن^(٣) من الهضب وأقطع من العضب^(٤)، وإذا جاءه أهل الحاضرة خاطبهم بخطاب ألين من الزبد، وأذكى من الورد والند، وما أتاه وفد من وفود العجم، ولا من وفود العرب، إلا رجع عنه وهو راضٍ مفتح أنه لا يأمر بمرغوب عنه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، وأنه إذا أمر كان أول ممثلاً، وإذا نهى كان أول مجتنب، ولم ينقلوا عنه كبوة في قول ولا فعل، مع عداوتهم إياه، وفحصهم عن معاييه، حتى قال النضر بن الحارث للملأ من قریش وقد أفاضوا في

(١) حديث الكيس من دان نفسه... إلخ. أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه في الزهد وأخرجه الحاكم في كتاب الايمان - بدون (الأمانى) - قال الحاكم: صحيح الإسناد إلا أن الذهبي تعقبه قائلاً لا والله أبو بكر واه (٥٧/١) مستدرک وأورده السيوطى ورمز له بالصححة (٦٧/٥) مناوى قلت: ومن الغريب أن الذهبي رحمه الله تعقب تصحيح الحاكم كما تقدم إلا أن الحاكم أورده مرة أخرى بنفس السند واللفظ في كتاب «التوبة» وقال حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي هنا (٢٥١/٤) وكأنه نسي تضعيفه السابق وعلى كل حال فالترمذي حسن الحديث.

(٢) كعب الأحبار، وهو كعب بن ماته الحميري من أويعة العلم، ومن كبار علماء أهل الكتاب، أسلم في زمن أبي بكر، وقدم من اليمن في خلافة عمر، أخذ عن الصحابة وأخذوا عنه ج (٥٢/١) تذكرة.

(٣) كذا في الأصل أرسن، والمعنى أثبت.

(٤) العضب السيف القاطع.

أمر رسول الله ﷺ: يا معشر قريش إنه نزل بكم أمر عظيم، لم ينزل بحى من أحياء العرب، إن محمداً نشأ بين أظهركم أتمكم عقلاً، وأعظمكم مروءة، وأنقاكم ثوباً، وأصدقكم لساناً، وأكملكم أمانة حتى سميتوه الأمين، لم يجد أحد فيه مغمزاً من لدن طفولته حتى صار كهلاً، قال: أنا رسول الله إليكم، فلا والله ما هو بالمتهم بالكذب، فنقول: هذا من كذبه، ولا هو بالخفيف العقل فنقول: هذا طيش من عقله، ولا هو بالقليل المروءة، فنقول: هذا القول لخرص يطلبه فلا يبالي بعده ما أصاب عرضه، فانظروا في أمركم، فإنه والله لشيء يراد بكم، ولما بعث كتابه إلى كسرى ومزقه، بعث إلى عامله^(١) على اليمن «باهان» فقال له: إن فتى من قريش يزعم أن الله بعثه رسولا، فأرسل إليه رجلين جلدتين لينظرا أمره، وليستتياه، فإن تاب وإلا فابعث إليّ برأسه، فلما بلغه الكتاب بعث إليه رجلين عاقلين جلدتين، فقال: إن رأيتماه طاش لبه وارتعدت فرائضه وعبس، فاعلموا أنه متقول، وإن قرأ كتابكما ونظر إليكما في تؤدة وبشر وتبسم وهو غير مكترث فهو نبي، فافهما قوله، وأتاني به، فلما أتياه بالكتاب وبرسالة «باهان» تبسم فقال لهما: لو كان أمراً فعلته من تلقاء نفسي لرجعت، ولكن شيء أمرني الله به وبعثني للناس، فإن قبلوا فذلك حظهم في الدنيا والآخرة، وإن يردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينهم، وهو خير الحاكمين، ثم أمر بهما إلى دار الأضياف، فلما كان من الغد، بعث إليهما فقال: أخبرا «باهان» أن ربي قتل ربه البارحة، فقالا: أو نحمل ذلك عنك، قال: احملاه عنى، فلما أتيا «باهان» سألهما عن شأنه، فقالا: والله إن رأينا أحداً أهيب في قلوبنا منه، قال: معه الشرط وأدوات الملك؟ قالوا: لا، وإنه لأعقل الناس، وأجمل الناس، وأسيس الناس، وأعدل الناس، وإنه يقرئك السلام، ويقول لك: إن ربي قتل ربه في ليلة كذا سلط الله عليه ولده، فقال لهما: قد أتيتما بأمر فصل، فلننتظر كتاب ابنه، فإنه يأتي في يوم كذا، فاتاه كتاب ولده إزدشير بقتله أباه لما كان يتنهك من حرمان فارس، ويأمره أن لا يهيج محمداً وليته^(٢) عنه، فأسلم وأسلمت الأبناء بإسلامه، فقال: ملك

(١) الذي بعث إلى عامله على اليمن: هو كسرى.

(٢) وليته عنه: أى يتركه.

مقبل، وملك مدير، وما حادت مملكة نبوة إلا غلبتها النبوة. اهـ. ولذلك ألف بين أهواء متباينة، وآراء مختلفة، وأمم متنافرة، فتألفت القلوب المتعادية حتى تحابت، واتفقت الآراء المختلفة حتى تلابت^(١)، واختلطت الأمم المتنافرة حتى تشابهت، فلم يكن ذلك عن مال يفيضه عليهم، بل كان معدماً من المال، ربما أكل عند أهل الوفرة من أصحابه، بل لو أنفق على ذلك أموال العالمين لم يزدهم إلا تنافراً، قال الله تعالى ممتناً عليه: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ثم العقل عقلان: عقل الحجة، وهو الذى يوجب التكليف، وتترتب عليه الأحكام من غير فائدة، وهو الدنيوى.

قال الشاعر:

أُبْنَىٰ إِنْ مِنَ الرَّجَالِ بِهَيْمَةٍ فى صورة الرجل الفطين^(٢) المبصر
فَطَنٌ بِكُلِّ مَصِيبَةٍ فى مَالِهِ وإذا يصاب فى دينه لم يشعر

الثانى هو العقل التام النافع، وهو عقل الخواص، فمنه ما لا يزيد ولا ينقص، وهو الغريزى، ومنه ما يزيد وينقص، وهو المكتسب من السير وكثرة التجارب.

قال الشاعر:

إذا عُمِّرَ الْإِنْسَانُ فى غير آفة أفادت له الأيام فى كرهها عقلا

فالغريزى أفضل؛ لأنه موهبة الله التى لا يشوبها شىء، يستوى فيه الكبير والصغير، وكثيراً ما يكون الصغير أوفر حظاً ونصيياً فيه من الكبير، قال ﷺ: «لِلشَّبَابِ بَرَكَةٌ، فَاسْتَوْصُوا بِالشَّبَابِ خَيْرًا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا بَعَثَنِي بِالْهُدَىٰ وَدِينَ الْحَقِّ آمَنَ بِي الشَّبَابُ وَكَفَرَتِ الْمَشَايخُ».

قال الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلا عليه صعيب

ويدل على ذلك قضية يحيى بن زكرياء عليهما السلام، فيما أخبر الله به عنه

(١) تلابت: التحمت.

(٢) فى (ب) السميع.

في محكم كتابه، إذ قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مریم: ١٢] فمن أدركته عناية أزلية، أشرفت على باطنه أنوار ملكوته، فاستغنى بذلك عن كثرة التجارب، فأسفر عن وجه الصواب، وحصل له من ذكاء العقل ما لا يدخل تحت حصر.

وفي قضية سليمان أيضاً ما يدل على ذلك، وذلك^(١) أن صاحب غنم، وصاحب حرث، دخلا على داود عليه السلام، فقال صاحب الحرث: إن غنم هذا أكلت حرثي البارحة، فحكم داود عليه السلام لصاحب الحرث بالغنم، فلما خرجا من عنده مرا على سليمان، فقال لهما: إنى أرى لكما حكما هو أرفق بكما، فرجعا إلى داود فأخبراه بما قال لهما سليمان، فأرسل إليه، فلما مثل بين يديه قال له: ما الحكم الذى هو أرفق بهما من حكمى؟ قال: أن تجعل الغنم بيد صاحب الكرم، يعيش فى لبنها، ويأكل من نسلها من غير أن تملكه رقابها، وتجعل الكرم بيد صاحب الغنم حتى يصلح منه ما أفسدته غنمه، فإذا رجع الكرم إلى هيئته، أسلمه إلى ربه بعناقيه، وأسلم رب الكرم الغنم إلى ربها بوفرها، فقال داود: صدقت وأصبت، هذا أرفق بهما، ففى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴿ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩] وكان سليمان يومئذ ابن اثنتى عشرة سنة فلم تحصل لسليمان عليه السلام بكثرة تجربة وطول مدة، بل بعناية ربانية، وألطف إلهية.

يروى أن عقل الرجل يعرف بأربعة أشياء: بجوابه، وكتابه، وهديته، وعتابه، إذ العقل لا ينظر إليه، وإنما ينظر إلى تصرفاته على صفحات الجسم، وتراجم الرسم.

يروى أن رسول الله ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، تسعة وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الخلق»^(٢).

ومن أوضح دلالاته مداراة الناس، قال الرسول ﷺ: «بعثت مدارياً، فداروا»^(٣).

(١) كذا فى النسختين والأولى وهى خشية تكرار كلمة ذلك.

(٢) أغلب الأحاديث الواردة فى فضل العقل من كتاب وضعه الكذاب سليمان بن عيسى بن نجیح فى جزءين ولا يصح فيه شىء والله أعلم.

(٣) «بعثت مدارياً فداروا» موضوع رواه البيهقى بلفظ «بعثت بمدارة الناس» وأورده صاحب الكشف =

قال الشاعر:

من يدر داري ومن لم يدر سوف يرى عمما قريب نديماً للندامات
ما دمت حياً فدار الناس كلهم فإئمتما أنت في دار المسدارة
قال بعض الحكماء: العقل ملك، والحصل رعيته، فإذا ضعف العقل عن القيام
بها داخلها الخلل.

ويروى أن لكل شيء حداً وغاية، إلا العقل، فإنه لا حداً له ولا غاية، لكن
الناس يتفاوتون فيه على قدر حظوظهم، وسعادة جدهم، ومن أعظم نتائج الرأي
والمعرفة، وبهما عمارة الدارين، فالعقل نهار الملكوت، والهوى ليله. قال الرسول
ﷺ: أعمى العمى الضلال بعد الهدى، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ
وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجن: ٢٢٣].

قال الشاعر:

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى عقل عاصى الهوى يزداد تنويراً
وقال غيره:

وقد أشمت الأعداء جهلاً بنفسه وقد وجدت فيه مقالا عواذله
إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى ففسد ثكلته عند ذاك ثواكله^(١)

قال الله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣، الحديد: ٩].

من ظلمات ليل الجهل والهوى، إلى نهار الإيمان والعقل المؤديان إلى التقوى.
وأما الاحتماء من ربكات الموبقات، فلا سبيل إليه إلا بعصمة الله، وهي سابقة
الخير والعناية الأزلية.

= تحت رقم ٩١٨ كما رواه أبو سعيد الماليني، وأورده عنه الألباني في موضوعاته تحت رقم ٦٩٥
ورقم ٨١١ وأورده السيوطي في «جامعه» عن البيهقي في الشعب، بدون لفظ «فداروا»، ورمز له
بالضعف (٢٠٣/٣) مناوي.

قلت: ولعل واضعه هو عبد الله بن لؤلؤة أو شيخه كما جزم بذلك الألباني، والله أعلم.

(١) في نسخة (ب) تقديم: إذا ما رأيت المرء البيت على البيت الذي قبله.

يروى أن الله لما خلق آدم عليه السلام، سأله العصمة، فقال له: سبقتك بها الملائكة، فسأله الخفية، فقال له: سبقتك بها الجن، فسأله الحرفة، فقال له إني ألهمك وذريتك الحرف كلها، إلا نفخ الروح في الجسد، وما ينجيك من الموت، وبالجمله فالذنوب أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ المواد الفاسدة، والأخلاق الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره، وكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحات يحفظ قوته، واستفراغ التوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاق الرديئة، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنبه ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة.

والتقوى اسم مشارك لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها، فات من التقوى بقدره، فإذا تبين هذا فاعلم أن المعصية مضادة لهذه الأمور الثلاثة، وتستجلب المواد الرديئة، وتوجب التخليط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح، فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاق ومواد المرض، وهو لا يستفرغها، ولا يحتمى كيف تكون صحته وبقاؤه؟

ولقد أحسن القائل:

جسمك بالحمية حصته مخافةً من ألم طارى
وكان أولى بك أن تحتمى من المعاصي خشية النار

فمن حفظ^(١) القوة بامثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتنب النواهي، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً، وفي حديث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أدلكم على دوائكم ودوائكم؟ ألا وإن داءكم الذنوب، ودوائكم الاستغفار».

فقد ظهر لك أن طب القلوب ومعالجتها لا سبيل إلى معرفته إلا من جهة الرسول ﷺ، وكتاب الله محشو بذكر أمراض القلوب وأدويتها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ١٧].

(١) في (ب) النفس، وهو الصواب.

- وقوله: ﴿أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].
 وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراح: ١].
 وقوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].
 وقوله: ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].
 وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

فإذا عملت هذا، فاعلم أنه كما تتولد من الأعمال الصالحات آثار حسنة، كذلك تتولد من المعاصي علل رديئة كالهم، والغم، والحرص، وعدم الفهم عن الله، والغلظة، والرغبة، والجزع، والجن، والبخل، والطمع، والهلع، والولع، والأشر^(١)، والبطر، والعجب، ورؤية الفضل على الغير، والحقد، والحسد، والبغض، وهجران المسلم لغير حق شرعى، والركون إلى الظلمة، والنظر إليهم بعين الإجلال، والتواضع للغنى لأجل غناه، ومد البصر إلى ما أترّف فيه، واحتقار الفقير، والرغبة عن مجالسته، وضيق النفس لأجل مسألته، ونسبتك المال إلى نفسك، والاهتمام بالرزق، واتهام الله فى شأنه، والانهماك فى تحصيله، والحزن لأمر الله، والفرح لزيد دنيوى^(٢)، والتهاثر بحب الجاه فى غير جنب الله، والرغبة فى الرئاسة لغير إقامة الدين، والمهادنة، والتصنع للخلق، والخشية لغير الله، والكسل، والفشل، والرعونة، والمكر، والخديعة، إلى غير ذلك من الآفات التى لا تنتهى كثرة.

فللأمراض وآفاتها أدوية، منها ما يخص، ومنها ما يعم، وأعمها الفرار إلى الله تعالى، قال الرسول ﷺ: «كل شىء إذ خفته فررت منه، إلا الله إذا خفت منه، فررت إليه، إذ لا ملجأ ولا منجأ منه إلا إليه». قال الدينورى^(٣): الفرار إلى الله خمسة أقسام، فرار من الخلق إلى الله، وفرار من الدنيا إلى المولى، وفرار من الشيطان إلى الرحمن، وفرار من النفس والهوى إلى عالم السر والتجوى، وفراراً

(١) الأشر: البطر والمرح.

(٢) زيد: يريد زيادة فى الدنيا. وفى ب «لأمر» بدل «زيد».

(٣) الدينورى: اسم لحمسة أشخاص هم: ١ - أحمد بن داود، ٢ - أحمد بن جعفر، ٣ - أحمد بن مروان، ٤ - عبد الله بن عبد الرحمن، ٥ - نصر بن يعقوب، وكل واحد منهم له مؤلفات.

منه إليه، بحيث لا أحصى ثناء عليه.

يروى أن العبد إذا غير نعمة البصر بالنظر إلا ما لا يحل له، غير الله عليه مسقط موعظة العلم من قلبه، قال صلى الله عليه وسلم «من ضيق على نفسه في البصر، وسع الله عليه في البصيرة، ومن وسع على نفسه في البصر، ضيق الله عليه في البصيرة».

ومتى غير نعمة السمع باستماع ما لا يحل له، غير الله عليه مسقط الموعظة من آذان قلبه، لا يتنفع منها بشيء، وإذا غير منطق اللسان بما لا يباح له، أظهر الله عليه قبائح عمله، وجعل قلوب الناس تستخف به فتزل موعظته عن القلوب، كما يزل القطر عن الصفا، وإذا غير قلبه بحب الدنيا، سهل الله عليه مصائب الآخرة، وعظم في قلبه مصائب الدنيا، فصارت مخاوف الآخرة عنده أمناً، فتلك علامة موت القلب والعياذ بالله.

نم اعلم أن الله لم ينزل شفاء قط أعمر ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن، فهو للداء شفاء، ولصدأ القلوب جلاء، كما قال الله: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ولفظة «من» ليست للتبويض بل للجنس، والمعنى: ونزل من الجنس الذي هو القرآن شفاء للأمراض الروحانية، وذلك أن الأمراض الروحانية نوعان، الاعتقادات الباطلة، وأشدّها فساداً الاعتقادات في الألوهية، والنبوة، والمعاد، والقضاء، والقدر، والقرآن مشتمل على دلائل الرشد في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة.

ولما كان أدوى الأمراض الروحانية، هو الخطأ في هذه المطالب، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب، لا جرم^(١) كان القرآن شفاءً من هذا النوع من المرض الروحاني.

وأما الأخلاق المذمومة، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريفها، وما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة، والأعمال المرجوة، فكان أيضاً شفاء لهذا النوع من المرضى، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية معنوية كانت كالاعتقادات، أو لفظية، كالزنى، وشرب الخمر وأنواع المخالفات.

(١) لا جرم: حقاً، ولا بد.

وأما كونه شفاءً من الأمراض الجسمانية، فقد شاع، وذاع، وانتشر انتفاع الناس به لأمرضهم، كقضية السليم^(١) الذي رقاہ رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ بفاتحة الكتاب، فقام وكأنا نشط من عقال، فأعطاهما قطعاً من الغنم، فأتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه على وجه الاستفتاء فيما أخذوا على رقيتهما، فقال: لئن كان أحد أكل برقية باطل لقد أكلتما برقية حق، فاقتما واجعلا لى سهما وكان يقول: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله» وقد استرقى بالمعوذتين فى قضية سحر بنات لبيد له، فشفى من ساعته، وقال: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما» وقد اقتصر سحنون^(٢) رحمه الله على الفاتحة لجميع الأمراض، فما كتبها لمن لم يكن فى مرضه موت إلا شفى.

وفى هذا الباب مجال رحب لو تتبعته لأتيت فيه بدفاتر، والله المستعان والممد من فضله وفيضه، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره.

وأما الموبقات، فسبعة على المشهور، وهى: الإشراف بالله، وحقوق الوالدين، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، وشهادة الزور، والزنى بحليلة الجار.

وإنما قال المصنف: فاتقاء الموبقات دواء، لأن باجتناب الكبائر تغفر الصغائر، نَعَمْ الاجتناب لا تُغفر الصغائر به مجاناً، إذ لم يرد بذلك أثر، إلا إذا اجتنب الكبائر، وواظب على الصالحات من الأعمال، صارت تلك الأعمال مكفرات لخطاياها، قال رسول الله ﷺ: «رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «مثل الصلوات الخمس، كمثل نهر غمر»^(٤) عند باب أحدكم ينغمس

(١) السليم: الممدوغ. وقضية السليم ثابتة عنه ﷺ.

(٢) سحنون: هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى قاضٍ فقيه انتهت إليه رئاسة العلم فى المغرب كان زاهداً عفيفاً لا يخاف فى الحق لومة لائم، ولد بالقيروان ومات عام ٢٤٠هـ.

(٣) حديث رمضان إلى رمضان. حديث صحيح رواه مسلم فى باب الصلوات الخمس ولفظه «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر».

(٤) غمر: ماء كثير.

فيه كل يوم خمس مرات، أفتروه يُبقي من درنه شيئاً، قالوا: لا، قال كذلك الصلوات الخمس»^(١).

غَسَلَ اللهُ عَنَا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ دَرْنَ كُلِّ عَيْبٍ، إِنَّهُ الْوَاسِعُ الْمَفْضَالُ.

• قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

١٤ = كَانَ الْوَرَى وَالْمَوْتُ نَسِيًّا وَرَاءَهُمْ

ذَوَاتُ الْأَبَاءِ قَدْ حَازَهُنَّ أَبَاءُ

قوله: كَانَ الْوَرَى، كَانَ واسمها وهي حرف تشبيه ونسخ، وذوات الأبا خبرها، و«الموت نسي» جملة حالية لا محل لها من الإعراب، لكونها اعتراضية بين اسم كَانَ وخبرها، و«الأبا» مضاف إليه ما قبله، و«قد» حرف تحقيق، «حازهن» فعل ماضٍ، وضمير الإناث مفعوله به، والأبا فاعله، وتركيب معنى البيت:

كَانَ الْوَرَى بِالْقَصْرِ: اسم جنس مختص ببنى آدم، في غفلتهم عن الموت، وسرعة أخذه لهم، وجعلهم إياه وراء ظهورهم نسيًّا منسيًّا غفلة منهم، وذوولا، أغنام قد أصابها الأبا بالمد والفتح وهو داء يصيب المعز في رعوسها، كما يصيب الأولق^(٢) الإبل، وأكثر ما يكون من شمها أبوال الوعول، فقلما أصاب شاة فبرئت، ومع ذلك لا تزال متعلقة بالأبا وهي الأقصاب بعد ما أنشبت الموت بها مخالبه وأراها مثالبه، فكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ يَغْفُلُ عَنِ الْمَوْتِ مَعَ مَا رَكِبَ اللهُ فِيهِ مِنَ الْعَقْلِ وَالذِّكَاةِ وَالْفِطْنَةِ، وَقَدْ اجْتَثَتْ أَصْلَهُ وَاسْتَأْصَلَتْ أَحْبَاءَهُ، وَهُوَ يَنْظُرُ، وَمَعَ ذَلِكَ يَرُوعُ بِالْمُصِيبَةِ هَنِيئَةً ثُمَّ يَرْتَعُ فِي مَزَابِلِ الدُّنْيَا كَأَنَّهُ بِبَهِيمَةٍ، وَقَدْ جَعَلَ الْمَوْتَ ظَهْرِيًّا، وَتَرَكَهُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا.

(١) حديث: «مثل الصلوات الخمس، كمثل نهر غمر»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم وأحمد وباقي الأربعة باستثناء أبي داود، وله ألفاظ كثيرة. وهو عند مسلم بلفظ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل كان يبقى من درنه شيء» اهـ. وعلى هذا اللفظ اقتصر عبد الحق والحميدى في الجمع بين الصحيحين، والله أعلم.

(٢) الأولق: الجنون أو مس منه.

ولا مثال للإنسان والموت أصوب ولا أصيب من مثال ضربه رسول الله ﷺ إذ قال: كأن الناس غنم راتعة في مرج، وكأن الموت ذئب يرصد غرتها، فكلما غفلت أغار فافترس شاة فتتفر، فإذا توارى عنها، رتعت ونسيت الذئب حتى يأتي على آخرها^(١).

يروى أن الله لما أخذ من ظهر آدم ذرياته ليشهدهم على أنفسهم، فرأت الملائكة كثرتهم، قالوا: ربنا إن الأرض لا تسعهم، فقال: إني جاعل موتاً، قالوا: إذا لا ينتفعون بمعايشهم، ولا يعمرزون الدنيا^(٢).

يروى أن الناس إذا انصرفوا من دفن ميت لهم، وقد هموا أن لا يشتغلوا بعده بأمر من أمور الدنيا، أخذ عزرائيل كفاً من تراب، فحثا به في أدبارهم، وقال لهم: ارجعوا إلى دنياكم، وانسوا أمواتكم.

يروى أن النبي ﷺ وعظ أصحابه موعظة ذرفت منها العيون، ووجلّت منها القلوب حتى هموا أن لا يضاجعوا النساء على الفراش، - أو من همّ منهم - فلما انصرفوا عنه عالجوا النساء، وقبّلوا الصبيان، واشتغلوا بمعايشهم، فأتوه ﷺ فقالوا له: ما لنا يا رسول الله إذا جالسناك رقت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا، ورغبنا في الآخرة، وإذا انقلبنا إلى منازلنا عافسنا النساء، ولاعبنا الصبيان، وانشغلنا بمعايشنا، فقال ﷺ «لو بقيتم على الحالة التي تفارقونني عليها لصافحتكم الملائكة في السكك^(٣)» ولكنها رحمة من الله من بها عليكم لينتفع بعضكم ببعض، ولتعمروا هذه الدار التي أراد الله عمارتها، ولولا ذلك لما ربت والدّة ولدها. وأخرجه البيهقي، من طريق أبي أمامة.

يروى أن الله لما خلق الموت، خلقه على صورة فظيعة لم ير الراؤون مثلها، له ثلاثمائة جناح، كل جناح على هيئة من الفظاعة والقبح، ليس عليها صاحبه، ثم أمر ملائكته بالنظر إليه، فنظروا إلى ما أفزعهم، فخرّوا لله سجداً، ما من أحد

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ مخرجاً.

(٢) في النسخة (أ) هنا خرجه. علق الكاتب عليها بالهامش عبارة خرجه فإن عثرت عليها فأكملها، وقد عثرت عليها في النسخة (ب) وهي (قال إني جاعل غفلة).

(٣) السكك: الطرق.

منهم إلا وسال منه نهر من الدموع والعرق، وقد صار كل منهم كالحلس^(١) البالى، فقال لهم البارى جل وعلا: مالكم ياملأنكتى أصابكم ما أرى؟ قالوا: إنا منذ خلقنا ننظر إلى الأشياء التى أبدعت، فلم نر خلقاً أهول، ولا أوحش، ولا أهيب فى قلوبنا، ولا أفضع منظرًا من خلقك هذا، فقال: هل تدرون ما هو؟ قالوا: لا، قال: هو الموت الذى ما منه فوت، هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات، ومؤيم الزوجات، هو قاصم الجبابرة، وقاهر المردة، ومخلى القصور، ومعمم القبور.

قال الرسول ﷺ: «أكثروا من ذكر هادم اللذات، فإنكم إن كنتم فى ضيق وسعه عليكم، وإن كنتم فى واسع ضيقه عليكم»^(٢).

وقال: «اقطعوا عنكم طول الأمل، باستشعار حضور الأجل».

قال الشاعر:

وما المرء إلا ميت وابن ميت وذو نسب فى الهالكين عريق

وأحسن ما قيل فى اجتنائها أصول بنى آدم وهم يطمعون فى طول المدة قول بعض الحكماء عند القبض وأهله محدقون به يكون.

للكل اجتماع بعد نزهته فصلٌ	وما كان بين بعد جيئته وصل
وقد ذهب الأصل الذى أنا فرعه	فكيف بقاء الفرع إذ ذهب الأصل
فتحت جفونى بين أم ووالد	هما بلغنا سنّيهما وأنا طفل
أقام قليلا هكذا فترحلا	ما كان ^(٣) مما يشتهى ذاكم الرحل
وقد صار يدعونى بنى أباً له	كما كنت أدعو والدًا لى أباً قبل

(١) الحلس: ج أحلاس وحلوس: ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرحل.

(٢) حديث «أكثروا من ذكر هادم اللذات» حسن رواه الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه والحاكم، هذا مع أن الدارقطنى أعله بالإرسال وصححه الحاكم وابن حبان وابن السكن، وأورده السخاوى تحت رقم ١٤٨ وله ألفاظ كثيرة، ولفظ الترمذى وابن ماجه والحاكم «أكثروا من ذكر هادم اللذات» يعنى الموت:

أما زيادة الشيخ، فقد قال السخاوى: إنها من رواية العسكرى فى الأمثال له، والله أعلم.

(٣) فى النسخة (ب) ولم يك مما يشتهى.

وقال ﷺ: «عجبت لنتظر دين، والموت يطلبه».

يروى أنه لما بلغه ﷺ أن زيد^(١) بن حارثة أخذ رجل من عنده ديناً إلى شهر، قال: «إن زيدا لطويل أمله، ومن أخبره أنه يعيش إلى شهر»^(٢).

يروى أنه جلس ذات يوم بين أصحابه، فذكروا الموت وسكراته، والأجل ودهماته، فقال أحدهم: ما أمسيت فظننت أني أصبح، وأما أصبحت فحدثت نفسي أني أمسى.

وقال آخر: ما مضت على ساعة زمنية إلا حسبت أن منيتي فيها.

وقال آخر: ما لبست ثوباً إلا أعددتُه للورثة، وما حدثتني نفسي أن أُبلّيه.

وقال آخر: ما رفعت قدماً فظننت أني أعيده إلى قبل أن تختلسني المنية.

وقال آخر: ما حملت لقمة إلى فمي فظننت أني أسيغها قبل الموت، ورسول الله ﷺ ساكت. فقال: «ما تنفست نفساً إلا وظننت أني لا أعيدها» فانظروا إلى استعدادهم للموت، وقصر آمالهم، ولذلك زكت أعمالهم، وطابت أحوالهم، وطاب لهم الموت إذ طابوا لها.

وكان ﷺ كثيراً ما يأمر أصحابه بقول «اللهم طيبنا للموت وطيب الموت لنا، واجعل فيه راحتنا».

وكان ﷺ يقول: «الناس في الموت رجلان، مستريح ومستراح منه».

وقال ﷺ: «ما من نفس برة أو فاجرة إلا والموت خير لها»، إن كانت مؤمنة فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وإن كانت فاجرة، فإن الله

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي أسره بنو القين وهو يافع ثم باعوه في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعتمته خديجة، فوهبته للنبي ﷺ، وكان يدعى زيد بن محمد قبل نزول قوله تعالى: ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ [الأحزاب: ٥] وقد جاء أبوه وعمه يطلبانه من النبي ﷺ، فخيره، فاختار المقام معه، وهو حب رسول الله ﷺ وأمره سبع مرات، استشهد رضى الله عنه في غزوة مؤتة المشهورة.

(٢) حديث «إن زيدا لطويل أمله»، ضعيف رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وأبو نعيم، القصة أن أسامة - لا زيداً - اشترى من زيد بن ثابت ووليدة بمائة دينار إلى شهر، فقال رسول الله ﷺ: إن أسامة لطويل الأمل. وفيه زيادة قال العراقي في الإحياء إسناده ضعيف (٤/٤٣٧).

يقول: ﴿إِنَّمَا نُنْبِئُ لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ولما وقع الطاعون بالشام زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكانت عساكر المسلمين بالشام، وقوادهم أصحاب رسول الله ﷺ، فلما اشتد وكثر، قال عمرو^(١) بن العاص: إنه الرجز^(٢) الذى نزل على بنى إسرائيل، فبلغ قوله معاذ^(٣) ابن جبل، فجمع الناس، فلما اجتمعوا قام خطيباً فقال: ما بال رجال يتقولون على رسول الله ﷺ من غير علم، أما إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وليس بينى وبينه ترجمان: إن الطاعون أرسله الله عذاباً على من قبلنا، وإن الله جاعله لهذه الأمة رحمة وشهادة، اللهم اجعل لمعاذ وآل معاذ منه نصيباً، فطعن ولده من يومه، فمات من الغد، فأدخله فى قبره، ثم طعن، فلما أحس بالموت، جعل يقول: مرحبا بالموت، حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، ثم يقول: واطرباه، ثم واطرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وأصحابه، فمزج مزاراة الموت بحلاوة اللقاء.

وقال ﷺ: «الموت تحفة المؤمن»^(٤).

(١) عمرو بن العاص: هو عمرو بن العاص بن وائل السهمى القرشى أمير مصر، أسلم قبل الفتح سنة ثمان فى صفر على الأشهر وكان ﷺ يقربه ويدينه لمعرفته وشجاعته، ولاء غزاة ذات السلاسل، وأمه بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة، ثم استعمله على عمان، وكان من أمراء الأجناد فى الشام، مات رضى الله عنه سنة ٤٣ على الصحيح.

(٢) الرجز: الأوثان، وهو هنا: العذاب.

(٣) معاذ بن جبل: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام، شهد بدرًا وهو ابن إحدى وعشرين سنة وأمره النبى ﷺ على اليمن، توفى بالشام سنة ١٧ هجرية (٤٠٥/٣) إصابة.

(٤) حديث: «الموت تحفة كل مسلم». رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى والحاكم بلفظ (تحفة المؤمن الموت) وهو مرسل، قال العراقى فى تخريج الإحياء: مرسل إسناده حسن (٤/٤٣٤).

وروى أبو نعيم والبيهقى فى الشعب وعنهما السيوطى فى جامعه «الموت كفارة لكل مسلم» وصححه: قال المناوى وقال ابن العربى: إنه صحيح وقال العراقى: إنه بلغ درجة الحسن. وقال ابن حجر: والذى يصح فى ذلك خبر البخارى «الطاعون كفارة لكل مسلم» (٦/٢٧٩) فيض

قلت: وقد أورده ابن الجوزى فى موضوعاته، وقال بعد أن أورد طرقه: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ (٣/٢١٩) موضوعات كما أورده الشوكانى فى موضوعاته تحت رقم ٨٣٩ وقال لم يصب ابن الجوزى بذكره فى الموضوعات وقد تابعه الصغانتى فقال موضوع.

وقال: «الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا»^(١).

يروى أن بعض التابعين قال لأبي هريرة^(٢): مالى أرى الناس اليوم ينفرون من الموت، ويحبون البقاء فى الدنيا، وكان أصحاب محمد ﷺ يحبون الموت ويتمنون الشهادة، قال له: يا بن أخى إن الناس اليوم عمروا دورهم، وخربوا قبورهم، فهل رأيت من يحب الانتقال من دار قد عمرها إلى دار قد خربها؟ وأما أصحاب محمد ﷺ، فإنهم عمروا قبورهم، وخربوا دورهم، ولذلك أحبوا الموت، وتمنوا الشهادة ليقدموا على ما قدموا.

يروى أن بعض أصحاب علىّ وقف على قبره يوماً فدعا له وترحم عليه، ثم قال: أما إنك كنت تعظنا أيام حياتك، وتغذينا بالحكم، فهل من حكمة أو موعظة تتحفنا بها اليوم؟ فهتف هاتف من قبره:

كنتَ ميتاً فصرتَ حياً فعن قريبٍ تصيرُ ميتاً
فابن لدار البقاء بيتاً واهدم لدار الفناء بيتاً

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لما حج حجته التى لم يحج بعدها، رأى انتشار رعيته فى أقطار البلاد، واتساع دائرة الإسلام، وكثرة الواردين من الآفاق يحيونه بالإمارة، ويثنون عليه بحسن سيرة عماله، وما انتشر عنه من العدل وإتقان السياسة وأمانة أجناده فيما فتح الله عليهم من خزائن الملوك، فما نقموا على أحد غلولا ولا خيانة، مع كثرة عددهم، فعجب عمر من ذلك، فقال له بعض الواردين: لا تعجب يا أمير المؤمنين، فإنك لو خُنتَ لَخُنتَ، ولو جفت لحننا، فلما كنت أمة صرنا كلنا أمناء، ولما كنت عادلاً^(٣) عدلت عمالك

(١) حديث «الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا» (لا أصل له) أورده الغزالي (٤/ ٢٠) قال العراقى: لم أجده مرفوعاً وإنما يعزى لعلى بن أبى طالب، وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم (١٠٢) وقال لا أصل له.

(٢) أبو هريرة: هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى على اختلاف كبير فى اسمه، أسلم أيام فتح خيبر. من أكثر أصحاب رسول الله ﷺ رواية للحديث وأخذ عنه خلائق من التابعين، وكان من كبار أئمة الفتوى مع العبادة والتواضع، ولى إمارة المدينة فترة، توفى فى المدينة سنة ٥٨ هجرية رضى الله عنه (١/ ٣٢) تذكرة.

(٣) فى الأصل عدلاً، والأولى عندى عادلاً كما فى (ب).

ورعيتك، فإن الرعية إما تعمل بعمل أميرها فبكى عمر رضى الله عنه ورفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إنه قد كبرت سنى، ودق عظمى، ورق جلدى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير وان^(١) ولا مفترط، وأخنتنى بصاحبى فلم يكن بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى طعن رضى الله عنه.

وإذا أجمع الله على يوسف شمله، ويمكن له فى البلاد، تأقت نفسه إلى ما هو أشرف من ذلك، وهو لقاء ربه بالموت فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى أن قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101] فمات بعد ذلك بسبعة أيام، ولذلك ذم الله الحرص على الحياة، لأنه من علامات الإفلاس، قال الله تعالى ذاماً لليهود ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَاهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ﴾ [البقرة: 96] وقال لهم على وجه الامتحان: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 94] فى قولكم إنكم أولى الناس بالله، فحكم عليهم بنفى تمنيه أبداً بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والعصيان، وقتل الأنبياء.

قال ﷺ: «والذى نفس محمد بيده، لا يتمنى يهودى الموت من يومى هذا إلى يوم القيامة، إلا غص بريقه، فمات مكانه». ولذلك لم يبلغنا أن أحداً منهم تمنى الموت كذباً ولا استهزاء فضلاً عن أن يتمناه مجداً مع تقادم العصور، وحرصهم على تكذيب القرآن، لعلمهم بما يلحقهم من ذلك.

والحاصل أن تمنى السلف الموت، وطلبهم إياه، أمر لا يدخل تحت حصر.

فإن قلت: ما وجه قوله ﷺ: «لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به، ولكن ليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وأمتنى ما كان الموت خيراً لى»^(٢).

قلت: لا منافاة بين ذلك، فإن حديث رسول الله ﷺ فيمن نزلت به شدة، أو أصابته محنة فتمنى لأجلها الموت، فيكون فى ذلك عدم الرضا والسكون تحت

(١) وان: ضعيف.

(٢) حديث «لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به»... إلخ. حديث صحيح، رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى بالفاظ مختلفة، والبخارى أورده فى كتاب التمنى وكتاب المرض.

مجارى الأقدار، وأما من تمناه شوقاً إلى لقاء الله أو فراراً من الفتنة عن الدين، أو مخافة أن يقوم بأمر الله، فذلك المطلوب من تمنى الموت، وحب لقاء الله، قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»^(١).

يروى أن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ: إن النفس تنفر من الموت، وإنى سمعتك تقول: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قال: ليس كما تظنون، إن العبد إذا احتضر جاءته ملائكة الرحمة وحفظة أعماله، فبشروه بالرحمة والرضوان، فأحب لقاء الله، فأحب لقاء الله لقاءه، وذلك حين يصفر وجهه، ويعرق جبينه، وإذا كان من أهل الشر، جاءته ملائكة العذاب، وحفظة أعماله، فوبخوه، وأندروه بغضب الجبار والخزى والنار، فكره لقاء الله، فكره لقاءه، فذلك حين يريد وجهه^(٢) وتغلظ شفتاه، وربما أدلع لسانه^(٣).

وفى البيت من البديع الجناس والاقْتباس:

فالجَناس بين قوله الورى والوراء والأبأ والإبأء.

وأما الاقْتباس فإن البيت مقتبس من ثلاث آيات، ومن حديث واحد.

أما الآيات، فقوله تعالى حكاية عن مريم ابنة عمران: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] والنسى هو الذى إذا غاب لا يفتقد، وإذا حضر لا يعبا به.

والثانية قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] والظهري هو الذى لا يلتفت إليه لحقارته.

والثالثة مقتبس من معناها دون لفظها، وهى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

(١) حديث «من أحب لقاء الله... إلخ. حديث صحيح أخرجه أحمد فى كتاب الدعوات، والترمذى فى الزهد، والنسائى فى الجنائز، وأورده السيوطى فى جامعه تحت رقم (٨٣٠٩) ورمز له بالصحة.

(٢) أربد وجهه: تغير لونه ودخله ما يشبه الغيرة، أو تعبس.

(٣) دلغ لسانه: خرج من فمه، ويقال: دلغ وأدلغ واندلغ.

وأما الحديث فقد تقدم ذكره آنفاً^(١).

وللبيت وجه في إعرابه غير ما تقدم، وهو أن قوله: والموت منصوب على أنه مفعول معه، ونسى له وجهان، النصب على أنه مفعول جعل محذوفاً، وهو الأصبوب، والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

وأما «والموت» فقياساً على قول عبد الرحمن بن أمية بن أبي معيط معاوية^(٢) في شأن عليّ.

ألا بلغ معاوية بن صخر بأنيك من أخى ثقة مليم

كأنك والكتاب إلى عليّ كدابغة وقد حلم^(٣) الأديم

قطعت الدهر كالجمل المعنى ليهدر في دمشق ولا يريم^(٤)

فعلى هذا يكون معنى البيت: كأن الورى مع الموت ولزومه لهم، وفضاعة أمره، وجعلهم إياه نسياً وراء ظهورهم وهم عقلاء أذكياء الطبع، لأجل ما خامر بواطنهم من داء الغفلة والذهول الناشئين عن علة طول الأمل الناشئ عن أمانى النفس والهوى والشيطان ذوات الأباء التى لا عقول لهن طبعاً بأن يشتغلن بأكل الأبا لجهلهن له طبعاً ولا يبالين بمعالجة ما علق برءوسهن من داء الأباء المفضى بهن إلى الموت، فيفوتهن به مناولة الأباء وأكله فى أيام كثيرة لقلّة تمييزهن، فالإنسان أشد حسرة وأعظم رزية وأسوأ حالاً حيث باع آجله النفيس الذى يبقى معه بلذّة ساعة فانية، فلو اشتغل بعلاج باطنه الذى أصابه من داء الغفلة لما أنساه الاستعداد للموت قبل نزوله، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقصر الأمل، وحقارة الفانى، فيكون داخلًا فى الفريق المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤].

(١) فى ص.

(٢) معاوية: هو معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب القرشى الأموى أمير المؤمنين، أسلم بعد الحديبية أو يوم الفتح كان من الكتبة الحسبة الفصحاء حليماً وقوراً، صحب النبى ﷺ وكتب له وولاه عمر الشام، ثم حارب علياً واستقر بالشام، ثم أضاف إليه مصر ثم تسمى بالخلافة بعد الصلح مع الحسن رضى الله عنه وسمى ذلك عام الجماعة. مات فى رجب سنة ٦٠ من الهجرة.

(٣) حلم الأديم: أى فسد الجلد بسبب الديدان.

(٤) لا يريم: لا يزول أو لا يتحرك.

قال صَلَّى : «لو رأيت ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في تكثير عملك»^(١).

• ثم انتقل إلى نوع آخر من الأمثال فقال:

٢٠ - شهى خلال الأرض الخلاء لو أنه أتبح مسلوب نجاه نجاءً

«شهى» خبر مقدم «خلال الأرض» مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، وسوغ الابتداء به تخصيصه بالإضافة والنعت، «الخلاء» نعت للأرض، «ولو» هنا حرف وجود كلولا و «أن» مفتوحة الهمزة وجوباً لاتصالها ب «لو»، والضمير عائد على الأمر، والشأن وهو اسمها، و «أتبح» خبرها «مسلوب» جار ومجرور متعلق بأتبح «نجاه» مفعول اسم المفعول، هو النائب عن فاعل أتبح، والمعنى أن خلال الأرض الخلاء شهى إلى النفس، فالخلا بالقصر النبات الرطب النضر، وهو الزخرف، بخلاف الكلأ، فإنه يطلق على الرطب واليابس، والخلاء بالمد هي الأرض التي لا عمارة فيها تعذرها^(٢) ولا دمن تقدرها لو أتبح أى هبئ مسلوب أى مسلوخ نجاه بالقصر أى جلده، نجاء بالمد أى سلامة من العطب، لكن لا نجاة له أصلاً، كما لا نجاة ولا لذة لمن سلخ جلده، كيف وهو بين عديمين، عدم سابق، وعدم لاحق. قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] تغتروا بما زينا به الأرض، فإنما خلقناه عبثاً وخبراً لا متعة وغرة^(٣).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨] أى نصيره إلى العدم كما أخرجناه منه، فاعبروه ولا تعمروه، وتزودوا منه ولا تخسروه.

يروى أن الفضيل بن عياض كان ينهى أصحابه عن النظر إلى البساتين عندما

(١) فى (أ): تكثير علمك.

(٢) تعذرها: تلطخها بالعبثرة والأوساخ.

(٣) الغرة: الغفلة أو الخدعة. والمراد هنا ما يعتر به أى إن زينة الدنيا لم تخلق ليغتر بها الناس.

يتزهون ويقول لهم: إنه مما يثبت الشهوة في القلوب، ويشوش البصائر، ويفتن القلب، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى ﴿لِلنَّفْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

ومنه قول الشاعر في الجناس التام:

إذا ما نازعتك النفس يوماً فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحزن ليوم أنت فيه وعد رزق يومك رزق أمسك

يروى أن النبي ﷺ قال: «لا يصفو لأحد يوم من الدنيا إلا وهو مشوب بكدر» فبلغ ذلك اليزيد^(١) بن عبد الملك بن مروان، فقال: والله لأكذبن هذا الحديث، وكان ملك الدنيا يومئذ، فأمر بإحضار الشعراء، وآلات الطرب، وأنواع الأشربة، وأمر ببساط له فيه جميع الصنوع، فبسط، وبعث إلى زوجته فدخلت عليه فقال لها: إنى أريد أن أكذب حديثاً بلغنى عن رسول الله ﷺ أنه لا يصفو لأحد يوم من الدنيا ولو بلغ من الملك ما بلغ، وكانت عندها جارية يقال لها جلالة لم ير الرءون مثلها جمالاً ولا كمالاً ولا قدماً ولا اعتدالاً ولا أدباً ولا ظرفاً، فقالت زوجته: وما تفقد من شهواتك؟ قال لها: لم يبق لى لذة إلا الاجتماع بجلالة، إن طابت نفسك بذلك، فأرسلت إليها فأدخلتها عليه ووهبتها له، فبينما هى بين يديه وقد نثر على البساط أنواع البواقيت، إذ رمت بياقوتة إلى فيها فسبقتها إلى حلقها فاختلفت بها فماتت مكانها، فانكب عليها يبكى ويقبلها حتى أنتنت، فأخرجوها عنه كرهاً وهو يلتزمها ويصيح كما تصيح الجارية، وما عاش بعدها إلا ثلاثة أيام^(٢).

(١) اليزيد: هو اليزيد بن عبد الملك بن مروان من سلوك الدولة الأموية ولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ وكانت فى عهده غزوات وكانت له مروءة مع ميل إلى اللهوات بعد موت قينة له كان يحبها تدعى حبابة سنة ١٠٥ هجرية.

(٢) هذه القصة أوردها الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء بدون ذكر تكذيب الحديث، وإنما قال: إن يزيد بن عبد الملك أناب صاحب الشرطة ليصلى بالناس، واختلى بجارية له يحبها فرمى لها عنبة، فوفعت فى فيها فشرقت فماتت، وبقيت عنده حتى أروحت ولم يعيش بعدها كثيراً (١٥١/٥) سير أعلام النبلاء، وما أورد يبعد كثيراً عن التصديق وقصة الذهبى جائزة الوقوع جداً ولعلها الصحيحة والله أعلم.

ومن زهد في الدنيا من الملوك فخلع نفسه أبو غفال، فقيل له: تركت الملك واخترت الفقر عن الملك والغنى، فقال: هو نعيم لولا أنه ذميم، وسرور لولا أنه غرور، ومتاع لولا أنه ضياع، وشراب لولا أنه سراب، ومملك لولا أنه هلك، وإنه لأكلة لولا أنه يمنع أكالات، وإنه لشرف لولا أنه تلف، وإنه لأنس لولا أنه تعس، فانكب على العبادة حتى مات ساجداً بين الركن والمقام رحمة الله عليه.

يروى أن كسرى أنوشروان لما دوَّخ الممالك، صغرت الدنيا في عينيه، فجمع مرازبته وأساورته وقال لهم: يا قوم هل من دار غير هذه الدار، فإني قد سئمتها، قالوا: لم سئمت ملكك وقد طاب لك؟ قال: إني مثلتها أكلة^(١) كثيرة العشب، كلما اخضر منها جانب، جف جانب، وكلما تسهل منها جانب توعر جانب، ويقدر ما تحلو تمر ويقدر ما تدنو تبعد، ولو دامت للسابق لم تخلص إلى اللاحق، وبما فارتقت السابق تفارق اللاحق، فقالوا: هلم فلنعبد إلهك وهو النار، فتجرد ولزم بيوت النار حتى مات ولم يجد مرشداً - والعياذ بالله!

وفيه من البديع التلميح، وهو الإشارة الدقيقة التي لا يدركها إلا الأذكياء، وذلك أن المصنف أشار بالبيت إلى قوله ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحق بورك له فيها، ومن أخذها بشره وإسراف نفس كان كشارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد ظمأً»^(٢).

وفي رواية: «كان كالذي يأكل ولا يشبع» فالأثر والبيت يشتركان في تحسين الدنيا من حيث أُلحِذت بحق، وصرفت في حق من غير إسراف ولا إقتار، فلا يذمها ظاهر الشريعة لعيب ظاهر، كالقذرة^(٣) الظاهرة، ويعافها باطن الحقيقة لنقص باطن^(٤)، فتكون كخضراء الدمن، أنيفة المنظر، خبيثة المخبر، تغرى الناظر

(١) الأيك: الشجر الكثير الملتف الواحدة أكلة.

(٢) الدنيا حلوة خضرة... إلخ. حديث أصله صحيح إلا أن الرواية التي أوردها الشيخ لم أجدها، والحديث رواه مسلم بلفظ «الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فانظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» اهـ.

وله ألفاظ كثيرة عند غير مسلم والله أعلم.

(٣) في (أ): كالغدران، ولا معنى لها.

(٤) كذا في الأصلين ولعل الصواب: باطنى، أو باطنها.

العاشق، وتنفر المشتّم والذائق، بل هي روضة غناء، زكية الثرى، حسناء، غرستها أيدى التوفيق، وسقتها جداول التصديق، وحمتها حراس التحقيق، ولقمتها رياح البشور، وعقدت ثمارها وزروعها نفحات النشور، فجاءت وقد أنبتت كل حبة منها سبع سنابل، إذ لم تنبت على دمنة ولا مزابل، فأحرزت العاجل، وأدركت الأجل، يعجب الزراع قنواتها، ويغبط الكفار صنواتها^(١)، بقعتها زكية، ورائحتها ذكية، وعيشتها راضية، وأوقاتها هنية، جنة أزلقت لرجال اختصهم الله بنعمته، وصرفهم عن نعمته، خلقهم له، وخلق الخلق لهم، آلى على نفسه ألا يعذبهم بناره، فمن حاد عن هذا المهيع فقد عرض نفسه للضياح، فيكون كمن كشط جلده فهو هامة^(٢) اليوم أو غد، ومع ذلك يعانق الشهوات، ويألف الهفوات، أو كشارب ماء البحر يريد ذهب التلف بالتلف حتى يتوغل فكلما شب حرصه طلب الزيادة من المال، فبقدر ما زاد من الجمع ازداد من المنع، حتى يهلك وسط ما ملك، كدود القز.

قال الشاعر:

كـدود من القز ينسج دائماً ويهلك يوماً وسط ما هو جامع

فبان من هذا أن الدنيا تطيب وتخبث على قدر صاحبها، وتعدو على قدر همة راکبها، فهي حرباء الأسنان^(٣)، ربانية المكان، واسعة الأكناف، كثيرة الأرياف، ملتفة الحقائق، محروسة بعين الخالق، تمد من مدد الرزاق، فهي لأنبيائه وأصفيائه أخذوها بعين التمكين، فقاموا فيها قيام الخازن الأمين، لم يقرءوا فيها من مكنون مسطورهم حرقاً ولا أعاروها من الميل إليها طرفاً، فنظروا إلى باطنها حيث نظر الناس إلى ظاهرها، يأخذون منها ولا تأخذ منهم، فلما ارتضى فعلهم واستعدادهم خاطب جملتهم وأفرادهم خطاب الحبيب معشر الأحاب **﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾** [ص: ٣٩] فلذلك لم يجعل الله زكاة على الأنبياء في أموالهم بالغة ما بلغت، لأنهم خزان الله، ينفقون بأمره، ويمسكون بإذنه، وكذلك بعض

(١) الصنو: الشقيق، والمراد: مثيلاتها.

(٢) هذه العبارة غير واضحة في النسخة (أ)، وأثبتناها من النسخة (ب).

(٣) في النسخة (أ): حرباء الإنسان. وفي (ب): الأسنان.

المتصوفة لا يرون عليهم زكاة فى أموالهم، إذ لا يرون لأنفسهم مع الله كسباً، وكانوا رضى الله عنهم شركاء فى أموالهم، لا يحجز بعضهم على بعض شيئاً يحتاج إليه، ولا يستأذنه فى أخذ ماله حملاً على أنهم عبيد ملك واحد، فلا حجر لأحد منهم على ما جعله مستخلفاً فيه، لاستوائهم فى العبودية، وتبرئهم من الكسب الخاص، فمن المستحيل عندهم أن يقول أحدهم: لى، ومالى، أو عندى^(١).

يروى أن شيبان الراعى رضى الله عنه مر على الشافعى^(٢) وأحمد^(٣) بن حنبل فقال أحمد بن حنبل للشافعى: هلم فلنسأله عن الدين، وكان رضى الله عنه، أمياً، فقال الشافعى لا تسأله، فإن القوم يأخذون عن الله، فقال أحمد: لأسأله حتى أعلم مكانه، فقال: يا شيبان ما على من نسى أربع سجديات من أربع ركعات؟ فقال أفى مذهبنا، أم مذهبكم؟ فقال له أحمد: أهما مذهبان؟ قال: نعم، أما فى مذهبكم فقد بطلت صلاته، إلا الركعة التى هو فيها، وأما مذهبنا، فهذا قلب قد غفل عن ربه فيجب عليه الحد على قدر منزلته من الله.

فقال له: ما تقول فى الزكاة؟ قال: على مذهبنا، أم مذهبكم؟ قال: على مذهبكم، فقال: أما على مذهبنا، فالعبد وماله لسيده، فلا زكاة عليه، إذ لا مال

(١) أمر الله نبيه ﷺ بأخذ الزكاة من أموال المسلمين عامة بدون تمييز بشروط، فمن توفرت فيه هذه الشروط، فالزكاة واجبة عليه ولياً كان أم غيره، والله أعلم.

(٢) الشافعى: هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان المطلبى الشافعى القرشى، نسيب رسول الله ﷺ وناصر سته، ولد عام ١٥٠ بغزة، حفظ الموطأ وعرضه على مالك وأذن له مسلم بن خالد بالفتوى، وكان مع علمه بالشعر وأيام العرب والفقهاء والحديث أحذق قريش بالرمى، قال فيه أحمد بن حنبل ما أحد مس محبرة ولا قلماً. إلا وللشافعى فى عنقه منة، توفى رضى الله عنه بمصر فى شعبان عام ٢٠٤ هجرية (٣٦١/١) تذكرة.

(٣) أحمد بن حنبل: هو شيخ الإسلام وسيد المسلمين فى عصره الحافظ الحجة، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلى الشيبانى المروزى، ثم البغدادى، ولد عام ١٦٤ قال ابنه عبد الله: سمعت أبا زرعة يقول: كان أبوك يحفظ ألف حديث، ذكركه الأبواب. وقال إبراهيم الحربى رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين، قال على بن المدينى: إن الله أيد هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة، توفى رضوان الله عليه يوم الجمعة ١٢/٣/٢٤١ هجرية والله أعلم.

له أصلاً، فينفق بأمره، ويمسك بإذنه، وإنما جعلت الزكاة طهرة للأموال، ومال الله طيب طاهر من أصله، وأما أموالكم أنتم، فإنها لما كان لها أصل في الخبث، أوجب عليكم الزكاة، فتوعها على قدر المنفعة، فلما كان أشرف أموالكم الإبل، أوجب في كل خمس منها زكاة، ولما كان البقر ذونها في الشرف والمنفعة، لم يجعل الله فيه زكاة واجبة، حتى يبلغ الثلاثين، فيكون فيه عجل ذكر، ولما كانت الغنم دونها شرقاً ومنفعة، وهى تدانى البقر بألبانها وأصوافها، لم يجعل الله فيها زكاة واجبة حتى تبلغ الأربعين، فتكون فيها شاة واحدة إلى المائة وفي الذهب والورق^(١) ربع العشر لنفستهما والعشر فيما سقى^(٢) بمطر، ونصف العشر فيهما سقى النضح، ولا زكاة عليكم في البغال والحمير، إذ لا منفعة فيها إلا الاستعمال، ولا في الخيل والسلاح واللباس، لأنها عدة في نحور أعدائه من المشركين، لأنه لما علم قبح طوياتكم، وحبكم للمال، وقلة معرفتكم له، تفضل عليكم بأن أخذ منكم النزر التافه، وطهر به الكثير، ورباه لكم، وجعله ذخركم عنده، فأكلتموه، وأثابكم عليه، فجعل مواساتكم إخوانكم من الفقراء والمساكين فرضاً مضاعفاً عنده لثلاث تهلکوا عليه فقال: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧] من فضله ولولا قلة معرفتكم واحتشامكم، لما قال أحدكم: مالى، فيشارك الله في ملكه بعد ما قال له: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْهُ مَثَلًا لِّمَن كَانَ يَجْمَلُ أَمْوَالَهُ عَمَلِكُمْ بِالْجَمِيلِ، لِأَهْلِكُمْ، ثُمَّ إِنْ أَحَدَكُمْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَجْعَلُ قَلْبَهُ يَجُولُ فِي مَزَابِلِ الْفَانِي، وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ حَتَّى لَا يَأْتِيَ بِفَرِيضَةِ رَبِّهِ عَلَى وَجْهِهَا، وَيَجْعَلُ السُّجُودَ جَبْرًا لَمَّا ضَاعَ عَلَيْهِ، هِيَهَاتَ، وَكَيْفَ تَصْلِحُ أَعْمَالُ فَسَدَتْ أَصُولُهَا؟ فَصَاحَ أَحْمَدُ وَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ.

فقال له الشافعي: ألم أنهك عنه، وأخبرت أن القوم يأخذون عن الله.

فقال: لا جرم لا أسأل أحداً منهم بعدها إلا تعلماً.

(١) الورق: الفضة.

(٢) في النسخة (ب) فيما سقى ببيح أو مطر، والسيح الماء الجارى على وجه الأرض.

فالقوم فقهاء علماء نجباء بررة أختيار علمهم الله من لدنه، فهم يغترفون من بحاره، ويمدون من أنواره، فالدنيا الربانية وراثه أيوب وسليمان وعبد الرحمن بن عوف^(١) وعثمان بن عفان، والشيطانة وراثه نمروذ وساسان وقارون وهامان، فهى هموم وغموم وآلام، إذ يعالجون ما لا يكون وهو بقاؤها وهى مهياة للزوال، فيغالبون القدر، والقدر غالب، ويكابدون الدهر، والدهر سالب، فكلما اطمأنوا إلى لذة نغصها عليهم مشوش من عدو مناهد^(٢) وحاسد معاند، أو مرض مدنف، أو هرم مضعف، أو موت معنف، أو فراق حبيب موصل، أو مصيبة بمال طائل، مع غم الزوال، وخوف الذهاب والاضمحلال، فهم بين زمان مضى بما فيه ولا لذة لما مضى، وبين زمان هو آت لا يدرون ما الله قاض فيه، فليس لهم إلا الساعة التى هم فيها، وقد تنغصت عليهم بما تقدم من الشوائب، وقد ضيعوها بعدم التزود منها للدار الباقية ولا أحسن من قول الشاعر:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها^(٣)

قال الله تعالى لغيرهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] فلا لذة لهم أصلاً، كما لا لذة لمسلوب نجاه، لأن الله خلقهم لعبادته، ومنحهم الدنيا ليستعينوا بها على طلب مرضاته، واشترى منهم الشهوات العاجلة الفانية بالشهوات الآجلة الباقية، فلما خالفوا ذلك، وأخلدوا إلى الدنيا، واطمأنوا إلى الشهوات العاجلة، وتركوا طلب مرضاته بما خولهم به من دنياهم، صاروا وكأنهم فى طلب النجاة كمن سلخ جلده وهو يطلب النجاة ويحاول الشهوات، وسلخ جلده هو تركه مراد ربه وهو تقربه إليه بما خولّه به من نعمة وتقديم عبادته إياه على حظوظه، فسلبه لذة العاجل بما سلط عليه من الآفات المنغصة لعدم شكره،

(١) عبد الرحمن بن عوف بن الحارث الزهرى القرشى من أكابر الصحابة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام ومن الأجاويد الشجعان، كان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة، وسماه النبى ﷺ عبد الرحمن، وكان تاجراً، قيل: إنه تصدق فى يوم واحد بقافلة فيها تسعمائة راحلة تحمل الخنطة والدقيق، توفى رضى الله عنه بالمدينة عام ٣٢ هجرية.

(٢) ناهد: ناهضه فى الحرب.

(٣) البيت من بحر الخفيف.

ولم يجعل له حظاً في الآخرة جزاءً وفاقاً، إذ حقيقة الشكر استعمال الأشياء فيما خلقت له، فهو مسلوب الحياة، معدوم النجاة، لتضييعه ساعات عمره في غير طاعة الله، لانشغاله بالحقير عن الشريف الخطير، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

وفي البيت من البديع الاقتباس، فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] ومعنى ذلك أن القلوب الطيبة التي لم يسبق الشر إليها، تخرج علومها زكية سالمة من الزيغ والابتداع، ومن الخلو والاتساع، وأحوالها ذكية سالمة من السمعة والرياء، وأعمالها خالصة لرب الأرض والسماء، قال ابن عطاء الله: ما قل عمل برز من قلب زاهد، وما كثر عمل برز من قلب راغب، وذلك المراد بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] قليل النفع وإن كثر، قليل الري وإن غزر ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] بحر الري وبحر الغي:

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وفيه تلويح بحديث رسول الله ﷺ المشهور، وهو قوله ﷺ: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله، لا يختلى^(١) خلاها، ولا يعضد^(٢) شوكها، ولا ينفر صيدها، ولا يهاج ساكنها»^(٣).

والخلى بالقصر يائي اللام، تقول: خليت الخلاء: إذا قطعت من أصله، وهو من باب تسمية الشيء باسم ملازمه، وهو الاختلاء، وله اشتراكات، منها الغائط، والزمان الماضي، تقول: ما سمعت بهذا فيما خلا من الزمان، وفيه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١] والأيام الخالية، وفيه الفراغ، تقول: خلا لي وجه فلان

(١) يختلى: يقطع أو يجز، والجز في الثب كالحصد في الزرع والخلا الرطب من النبات.

(٢) لا يعضد: لا يقطع.

(٣) الحديث الذي أشار إليه الشيخ وهو أن الله حرم مكة... إلخ. حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم وغيرهما بالفاظ مختلفة، أما زيادة «ولا يهاج ساكنها» فلم أجد لها.

فهو خلى: إذا تمكنت منه من غير مشوش، قال الله تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩] ويطلق ويراد به الجماع احتشاماً من ذكره، وفيه خلوة الإهداء^(١) ويطلق ويراد به الجوع، يقال: أكلت على خلى، وهو خلو المعدة من الطعام، كما تقول: أكلت على خوى، ومنه خلا الحرفية إن جرت.

• ثم قال رحمه الله:

٢١ - وَمَصُّ الظَّمَا لَوْلَا الظَّمَاءُ غَدَى مُنَى

فَشَمَّرَ وَلَا يُوهِنُ بَدَاكَ بَدَاءُ

ومص الظما وهو اللعس، ومعناه سمرة تكون في شفتى المرأة مع دقة، وهي أحسن ما تكون إذا كانت مع بياض ناصع وصباحة في الجبين والخدين، قال النبي ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بي جارية لعساء، فأعجبنتي، فقلت لها: لمن أنت يا جارية؟ قالت: لعمر بن الخطاب، فجاوزتها لما أعلم من غيرتك، فقال عمر: أعليك أغار يا رسول الله»^(٢).

والمص ضد العب، قال الرسول ﷺ: «إذا شربتم الماء فمصوه مصاً، فإن العب يورث الكباد»^(٣) قال لسان الدولة ابن الخطيب: هذا الحديث من روائع الحكمة التي

(١) في النسخة (ب): خلوة الإهداء، ولعلها أصح والعبارة غير واضحة المعنى.

(٢) حديث «رأيت ليلة أسرى بي جارية لعساء...» إلخ. لم أره بهذه اللفظ وقد رأى رسول الله ﷺ الجنة، ورأى قصر عمر، ورأى جارية.

إحدى روايات البخارى: بينما أنا نائم إذ رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت لمن هذا القصر قالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرتك فوليت مدبراً، قال فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله (كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة).

(٣) حديث «إذا شربتم الماء...» إلخ. ضعيف رواه الديلمي في مسنده وعنه السيوطي تحت رقم ٧١٠ وقال فيه: «فاشربوه» بدل «فمصوه»، وزاد: ولا تشربوه عباً، وياقيه سواء بسواء، ورمز له بالضعف، قال المناوي، وفيه محمد بن خلف، وفيه لين، عن موسى المرزوي، قال الذهبي عن الدارقطني: متروك: لكن يتقوى برواية أخرى رواها أبو نعيم والبيهقي. وعنهما السيوطي ورمز لها بالضعف مع الإرسال أيضاً (٣٨٧/١) فيض، والله أعلم.

لم يسبق إليها رسول الله ﷺ، لأن الماء إذا هجم على المعدة دفعة ربما برد الحرارة الغريزية فأهاج داءً لا دواء له، وهو الاسترخاء والنقرس، وربما أحدث الكبد وهو انصداع الكبد لمصادمة الضدين، وهما برودة الماء وحرارة الكبد، فتحدث عند ذلك بغتة الموت، وإذا مصه سهل وقعه على المعدة، فأخذت بحظها منه من غير إفراط ولا تفريط، وأخذ كل عرق قسطه من الرى من غير زيادة مضرة ولا هضمية مخلة. وبرد من الحرارة الغريزية الملتهبة قدر ما يقع به الاعتدال.

قوله «مئى» خبر لاسم المصدر الذى هو مص الظما، والمئى: كل مستطاب تتمناه النفوس إذا فقدته، ولا تمله إذا وجدته، وإنما صدر بذكر النساء لأنهن رأس الشهوات وليقتدى بكتاب الله فى قوله: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية، قالت عائشة رضى الله عنها: من شقوتنا أن الله لما ذكر الشهوات جعلنا أولاً، ولما ذكر الثواب والدرجات جعلنا آخرًا، فقال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا﴾ [النساء: ٣٢] فهذا البيت مفرغ فى قالب المثال، لأنه من جنس البيت قبله، إلا أن الأول يزهى فى تناول شهواتها لكونها لا تصفو ولا تتم، ثم ثنى بالبيت الثانى فى أن شهواتها مع عدم تمامها طبعت النفوس على الميل إليها، فهى تصبو إليها وتألّفها، لولا ما يتال متناولها مما ينفر منها فى العقبى من الظماء بالمد، وهو ضد الرى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: ١١٩].

وقال الرسول ﷺ «أكثركم رياءً فى الدنيا، أكثركم عطشاً يوم القيامة» وقال «أكثركم شبعاً فى الدنيا، أكثركم جوعاً يوم القيامة»^(١).

وسئل رسول الله ﷺ أى الناس أسرع حساباً يوم القيامة؟ قال: «الذى إذا قال لأهله اسقونى لم يسألوه من أى شراب نسفيك، وإذا استطعمهم لم يسألوه من أى طعام نطعمك، وإذا استكساهم لم يقولوا أى ثيابك نبعت إليك».

قال الشاعر:

(١) حديث «أكثركم رياءً فى الدنيا أكثركم عطشاً»... إلخ. لم أجد هذا اللفظ إلا أن الطبرانى وأبا نعيم روايا: إن أصل الجوع فى الدنيا هم أصل الشبع فى الآخرة... إلخ. قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: إسناده ضعيف (٨١/٣).

حلوهَا مرٌّ ومرهًا حلو صديقُهَا يوم القيامة عدو

يروى أن الإنسان لا ينال من شهوات الدنيا وطيباتها شيئاً إلا كان ذلك نقصاً من حسناته وهضمًا من درجاته .

أخرج الشيخان من طريق أبي أمامة^(١) أن أبا ذر^(٢) رضى الله عنه قال: إنا معشر المهاجرين قد وقع أجرنا على الله، فمننا من أينعت له ثمرته، فهو يقضم منها، ومننا من لحق بالله ولم يأكل من أجره شيئاً. كان مصعب^(٣) بن عمير أفضلنا مات يوم أحد، فلم نجد ما نكفنه به إلا نمرة^(٤) كنا إذا غطينا بها رأسه بدت قدماه، وإذا غطينا بها قدميه بدا رأسه، فغطينا بها رأسه وسترنا قدميه بالإذخر^(٥).

روى أن عابداً من بنى إسرائيل، كان يقوم الليل، ويصوم النهار وكان يصنع الأطباق من الخوص، يبيعها بما يفطر به، ويقيم صلبه لقيام الليل، وكانت تحتها ابنة عم له صالحة، فبينما هو ذات يوم بعد العصر ويده أطباقه، يطوف في المدينة على عادته ليجد من يشتري منه، إذ رأته زوجة الملك، فهويته، لما رأت عليه من بهجة

(١) أبو أمامة: هو صدى بن عجلان بن الحارث الباهلي، أرسله النبي ﷺ إلى قومه باهلة، وكان مع على بصفين مات رضى الله عنه سنة ٨٦ هجرية .

(٢) أبو ذر: هو جندب بن جنادة بن سكن الغفاري، كان من السابقين إلى الإسلام، زاهداً صادق اللهجة اختلف مع سعاوية بالشام فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ولما قدمها اختلف مع الصحابة في شأن المال وإنفاقه، فطلب منه عثمان أن يتنحى إلى الريزة، وامثالاً لأمره خرج إليها، وبها مات وحيداً، إلا من زوجه وخادم، فوفاه ابن مسعود بعد موته بقليل وصلى عليه وكان ذلك عام ٣١ هجرية .

(٣) مصعب: هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف أحد السابقين إلى الإسلام، وكنم إسلامه خوفاً من أمه، ولما علم أهله أوثقوه فلم يزل محبوباً إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة ومنها هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأحداً ومعاه اللواء، فاستشهد بأحد، كان أنعم غلام في مكة وأجوده حلة، ولما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة، ولما صار إليه، فلم يجد ما يكفن به يوم أحد إلا ثوباً لا يستره (٤٠٢/٣) إصابة .

(٤) النمرة: شملة أو بردة فيها خطوط .

(٥) حديث إنا معشر المهاجرين . . . إلخ . متفق عليه كما قال الشيخ وأوله عند البخاري: عدنا حباباً فقال هاجرنا مع رسول الله ﷺ . . . إلخ . وهو في كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه .

العبادة، فقالت لبعض جواربيها: اذهبي إلى ذلك الرجل الخواص وقولي له: إن سيدتي تقول لك: هلم إليها لتشتري منك أطباقك، فذهب مع الجارية فوجدها تنظره بالبواب، فلما دخل أغلقت الباب من ورائه، فلما استقر دعتة إلى نفسها، فاستعظم وجعل يعظها في الزنا، فقالت له: إما أن توافقني، وإما أن أصبح عليك في المدينة فتفتضح، ويمثل الملك بك، فلما لم يجد بداً قال لها ناوليني ماء ودليني على موضع من البيت أتوضأ به، فإذا فعلت قضيت حاجتك، وليكن بأعلى البيت لئلا يرى الملك محل الوضوء، فيتهمك، فقالت ارق إلى أعلى الدار، وكانت عالية، فتوضأ بأعلى الدار، فلما أتم وضوءه قال يا أرحم الراحمين اجعل لى مما أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً وإلا فصبرنى على الموت، فإن الموت أحب إلى من معصيتك بعد ما عرفتك وعبدتُك زماناً طويلاً، وتركت الدنيا وزينتها ابتغاء مرضاتك، فضجت الملائكة لما رأوا من حاله، وسمعوا من مقاله، فقال لهم الله: بعينى جميع ما صنع، وإنه يلقي بنفسه الآن إلى الأرض فتلقه يا جبريل وافرش له جناحك حتى تضعه على الحضيض، فألقى بنفسه فمدَّ جبريل عليه السلام جناحه فحمله عليه حتى وضعه بالأرض، فذهب إلى بيته بغير قوت، وقد ترك الأطباق عند زوجة الملك ولم يأت بيته حتى مضت ساعة من الليل، فقالت له زوجته: ما خطبك إذ تأخرت عن الوقت الذى كنت ترجع فيه، وجئت بغير قوت ولا خوص، فقال لها: لقد وقعت فى أمر جليل، فقص عليها ما لقي من زوجة الملك وإلقائه بنفسه، ونجاته، فقالت له: هلم فادع الله لي يجعل رزقك فى بيتك ويغنيك عن التعرض للفتن، فقام يصلى ونامت زوجته، فسأل الله الغنى عما كان فيه، فأنزل الله عليه ياقوتة من ياقوت الجنة فأضاء منها البيت، فجعل يشكر الله ويحمده إذ هبت زوجته من نومها مذعورة باكية، فقال لها: ما بالك، قالت: إنى رأيت فيما يرى النائم أنى دخلت الجنة فإذا أنا بأسرة من ياقوت يكاد سنا نورها يذهب بالأبصار، وإذا هى مستوية إلا سريراً واحداً فيه ثلثة وقد اعوج، فقلت: ما لهذا السرير له ثلثة وفيه اعوجاج من بين هذه السرر، فقيل لى إنه سرير زوجك، وإنه استعجل بعض ثواب عمله فقدمناه له الليلة، فادع ربك فليرد الياقوتة إلى السرير، ولنصبر على ما كنا عليه حتى نرجع إلى دار القرار، فأخذ

يدعو وهى تعيينه حتى ارتفعت الياقوتة^(١).

وقال ﷺ: «المكثرون فى الدنيا هم المقلون يوم القيامة»^(٢).

وقال: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الناس إلى الجنة بقدر نصف يوم وهو خمسمائة عام»^(٣).

وقال: «إن أغنياء أمتى لن يدخلوا الجنة إلا حبوا» فهلم يابن عوف فأطلق إيسارك^(٤) ببعض مالك فتصدق بثلث ماله، ثم تصدق بغير أخته من خير تحمل ما لا كثيراً، فبشره رسول الله ﷺ أن الله قد أطلق أسره وأن المملأ الأعلى يسمونه تاجر الله وتاجر رسوله، ولما مات مكث أصحاب رسول الله ﷺ يحتفرون من رحاب بيوته الذهب والورق بالفئوس أياماً، وصولحت امرأة من زوجاته طلقها قبل موته، فاختلفوا فى توريثها بثمانين ألفاً، وكانت له مزارع وضيعات تثمر فى العام مرتين، وكانت إذا احتاجت إلى السقى يستسقى الله لها، فيأتى الله بمطر يخصها فى غير إبان المطر، ومات عن ألف مملوك، وعن ثلاثة آلاف من الموالى أعتقهم فى حياته رضى الله عنه وعن سبعين فرساً كان يحمل عليها فى سبيل الله. وأما الإبل والغنم والبقر والبغال والحمير والأثاث، فمما لا يدخل تحت حصر، ومع هذا كله لم تمل نفسه إلى رئاسة ولا خلافة، وكانوا ربما عرضوا عليه الخلافة فيجدون ذلك أبعد عنده من الثريا، وكان فى مطعمه وملبسه ومشربه كسائر الصحابة، لم يتميز

(١) هذه القصة من الإسرائيليات وهى جديرة بأن تكون مختلفة.

(٢) حديث «المكثرون فى الدنيا»... إلخ. جزء من حديث طويل متفق على صحته رواه البخارى فى كتاب الاستقراض والرفاق ولفظ هذا الجزء منه «إن المكثرين هم المقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وقليل ما هم»، وفى بعض رواياته «إن الأكثرين هم الأقلون»، كما أخرجه مسلم والترمذى والنسائى.

(٣) حديث: «إن فقراء أمتى يسبقون الناس»... إلخ. حديث صحيح أخرجه مسلم وابن ماجه، بلفظ أربعين خريفاً ولفظ خمسمائة سنة، أورده السيوطى فى جامعه ورمز له بالصحة. قال المناوى وأخرج العسكرى أن أبا حنيفة سئل عن حديث «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم» فقال المراد الأغنياء من غير هذه الأمة فذكر ذلك لعبد الواحد بن زيد فقال لا يسأل أبو حنيفة عن هذا إنما يسأل عن المدير والمكاتب (٤٦٢/٢) فيض.

(٤) الإيسار بالكسر الرباط: وهو مصدر.

عنهم بشيء، وكانوا كثيراً ما يعيرونه بكثرة أمواله، فيقول لهم: إن الله أعطانيها من غير مسألة له ولا ميل إليها، فقبلت من الله عطيته وأسأله أن يعينني على أداء حقه، وشكر نعمته فقالوا له: إن كنت صادقاً فابعث إلى خيبر عيراً تحمل تمرًا، فإن بيعت علمنا صدقك وإلا حكمنا عليك بأنك مكائر، فبعث عيراً تحمل تمرًا إلى خيبر، فلما قدمت عليها جعلوا يضحكون ويعجبون من عير تحمل التمر إلى خيبر، فأقاموا يوماً وقد عزموا على الانصراف، وكان العير قد وافى خيبر، وقد اشتد بها الوباء، فجاء رجل مصاب، فأخذ ثمرة فأكلها، فما هو إلا أن ازدردها برئ من علته، فقام وكأنما نشط من عقال، فأتى المدينة وجعل يصيح يا قوم هلم إلى العير، فإن تمرها شفاء مما بكم من البلاء، فإني قد أشفيت على الهلاك، فما هو إلا أن ابتلعت ثمرة من تمرهم^(١) برئت فقامت وكأنما نشطت من عقال، فأقبل الناس إليهم وانهقد البيع بينهم على أن كل ثمرة بدرهم فأنفذوا من يومهم، وارتحلوا من الغد، فلما رأى أهل المدينة العير تحمل الورق وقد أدجت وأقعست من ثقل ما تحمل، أقبلوا إلى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فقالوا له: إن عيرك قد رجعت بتمرها، فقال لهم أمهلوا فلعلها تحمل غير التمر، فوجدوها تحمل الورق، فتصدق بالعير وبما تحمل رضى الله عنه^(٢) فشمّر برياضة النفس حتى تكفها عن الميل إلى الشهوات فإنه أمر صعب، إذ ليس من طبعها، وإن شمّرت فرّضتها انقادت ولانت لك، ولا يوهن أى لا يضعف بذاك، أى سلاماك، وهى المفاصل الصغار والعظام التى تتركب عليها قوى البدن، قال الرسول ﷺ: «يصبح على كل سلامى من بنى آدم صدقة»^(٣).

بدء بالمد، وهو الرأى الفطير، قال الرسول ﷺ: «خمير الرأى خير من فطيره»

(١) فى نسخة ب من تمرها.

(٢) لم أجد لقصة العير هذه سنداً صحيحاً، ولا أظنه يوجد.

(٣) حديث: يصبح على كل سلامى من بنى آدم صدقة... إلخ. حديث صحيح، رواه الشيخان والطبرانى بالفاظ غير لفظ الشيخ، ولفظ مسلم: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة»... إلخ. كما أورده السيوطى فى جامعه بلفظ: «على كل سلامى من بنى آدم فى كل يوم صدقة»... إلخ. ورمز له بالصحة وفى رمزه ما يشير إلى أنه لم يخرج به إلا الطبرانى فى الأوسط وليس الأمر كذلك، والله أعلم.

وقال الله حاكيا قول قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] أى الذى لا حظ له فى سياسة الأمور ولا ممارسة الدهور، ولا له النظر فى العواقب ولا يستدل بالمشاهد على الغائب، لأن النفس لها أصل فى النكت والإبابة^(١) والخبث، فإذا فطمتها عن ثدى شهواتها، فلا تغفل، ولا تأمنها على مودتها، فإنها لا أمان لها بحال، ولا لها فى سبيل الحق من مثال، فبقدر ما تضيق عليها تنفسك، وبقدر ما توسع عليها تسوء أخلاقها وتركض بك، ولا غاية لها دون أن ترمىك فى مهامه الضلالة، وترجع إلى عالمها من الشياطين فتمكنهم من ناصيتك مسلوب القوة ذاهب الحول والحيلة، إلا أن يتداركك الله بلطفه، فإن جهادها هو الجهاد الأكبر، قال الرسول ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(٢) وذلك فى مرجعه من غزوة تبوك، فقالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله قال: «جهاد النفس» والله إنها لأخبث من سبعين شيطاناً. فاقهرها بقيد الهمة، وافطمها بكم العزلة، وزمها بزمام الحكمة، واضربها بسوط الكتاب والسنة، وقدها بحبل التوبيخ والحساب، وضمها بضمار الزجر والعتاب، وشد عليها رحل العزم ببطان الحزم، واركبها بحرفة الشريعة، وسيرها فى ميدان الحقيقة، وقل إذا استويت على ظهرها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿[الزخرف: ١٣، ١٤] واجعل العقل سائسها، والروح ممارسها، والتقوى حارسها، والذكر شرابها، والحلم ترابها، بعد افتراش القتاد، ومنح المهج، وقطع الأكباد، فحينئذ تطمئن فتنادى من بساط القرب بعد زوال الحجب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْهُبَةً﴾^(٤) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٦﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿[الفجر: ٢٧ - ٣٠] فذلك أول قدم تضعه فى العبودية المحضة، وأول شراب تذوقه من

(١) الإبابة: من الامتناع.

(٢) حديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد... إلخ. لا أصل له من كلام النبى ﷺ أخرجه الخطيب فى تاريخه بلفظ قدم ﷺ من غزاة فقال «قدمتم من خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا وما الجهاد الأكبر قال: مجاهدة العبد هواه. اهـ. وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٣٦٢ إلا أنه قال فيه: جهاد القلب. قال ابن حجر فى «تسديد القوس» هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عليه. اهـ. ثم قال: قال العراقى: رواه البيهقى بسند ضعيف عن جابر. اهـ (٥١١/١) كشف، والله أعلم.

خمرة الدنو والوصلة، فتعكس أحوالها، وتزكو أعمالها، فتصير داعية إلى الخير، حائدة عن الغير، لا تخطر الشهوة لها ببال، ولا يحوم الهوى حولها في حس ولا خيال، فيخف الدفاع، ويقل النزاع، وتفر عن الساحة القطاع، فيؤذن مؤذن التشريف على منار التعريف تبيكياً لإبليس ذى الكيد الضعيف: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥] فيقطع الأمن والسكون، ويحسن الرجاء والظنون، ويضمحل الشح والشجون، فيحدو بها حادى الشوق، ويقودها خريت^(١) الذوق إلى حضرة القدس وشراب الأنس وقررة العين بذهاب البين. وقد تم ما محل إذاعته، وتبغى إشاعته. طمح بنا إليه عنان القلم، ولو كان فى غاية الحسن والإمتاع فى المقام الأعظم^(٢).

قوله غداً، اسم من أسماء يوم القيامة لتسمية الله له بذلك فى قوله: ﴿وَلتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّهَتْ لِبَدِّ﴾ [الحشر: ١٨] والغد فى اللغة ضد أمس، وإنما سمي غداً لأنه غب^(٣) الدنيا، ولا ينقلب أمس.

قال الرسول ﷺ: «اليوم الرهان، وغداً السباق، والغاية الجنة، والهالك من دخل النار».

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفى البيت من البديع الاقتباس، إذ البيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ إلى: ﴿تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠] وإن كانت إنما نزلت فى المشركين، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه آثروا على أنفسهم وعملوا بمقتضاها رغبة فيما عند الله.

روى عن جابر^(٤) أنه اشترى من السوق لحماً، فهو يحمله بين يديه إذ رآه عمر

(١) الخريت: الدليل الماهر.

(٢) فى المقام الأعظم زيادة فى النسخة (ب).

(٣) غب بالغين والباء. كذا فى النسختين والمعنى: أنه بعد الدنيا

(٤) جابر: هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى السلمى، أحد المكثرين عن النبى ﷺ كان مع من شهد العقبة، وقد غزا مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة ولم يشهد بدراً ولا أحد

ابن الخطاب، فقال: ما هذا الذى تحمله يا جابر؟ قال: لحمًا اشتريته، اشتهيته فاشتريته، فقال: أو كلما اشتهيت يا جابر اشتريت، أما تخاف قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وأخرج البخارى فى «تاريخه» عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أنه أتى بطعام وكان صائمًا، فلما أتى به، بكى ولم يأكل منه شيئًا، فقيل له: ما منعك أن تظطر من هذا الطعام؟ فإنه طيب حسن الصنعة، فقال: أعلم ذلك، ولكن أخاف^(١) أن تكون قدمت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا، ثم قال: قتل حمزة وهو خير منى فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة، ثم بسط لنا فى الدنيا ما بسط، وقد خشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام.

وفيه من البديع أيضا التلويح فى قوله: ولا يوهن بذاك بداء، فإنه يحذر مما يتولد من طواعية البداء من الوهن والفضل المؤديين إلى التوانى والكسل المؤديين إلى العجز والفقير.

قال الشاعر: (طويل)

فإن التوانى أنكح العجز بنته وساق إليها حين زوجها مهرا
فراشا وطيبا ثم قال لها انكحى سيولد بعد اليوم بينكما فقرا

ومنزلة البداء من رأى كمنزلة الحماقة من العقل، فالبداء لسان الحماقة، كما أن رأى لسان العقل.

قال الرسول ﷺ: «إذا أراد الله هلاك قوم فأول ما يفسد عليهم آراءهم، وعلامة فساده النزاع».

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] فقيل المراد بالريح القوة، وقيل: رأى، وقيل: الرعب الذى أمد الله به هذه الأمة، والصواب أنه الجميع.

= مات رضى الله عنه سنة ٧٨ هجرية ويقال غير ذلك وقد أوصى أن لا يصلى عليه الحجاج

(١/٢١٤) إصابة.

(١) فى (ب) أخشى.

فأما الفشل، فمعروف، وهو الذى نُسر به قوله ﷺ فى قوله: «كأننى لهذه الأمة وقد احتوشها»^(١) عدوها يأكلها من كل جانب، كما يأكل القوم المائدة، فقيل أقليلون هم؟ قال: لا، بل كثيرون، قالوا: فما بالهم؟ قال: الفشل، قالوا: وما الفشل يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكرهية الموت وحقائقها على وجه يستخرج به عواقب الأمور، وكمائن الدهور وقرآته المشورة، ومادته الذكاء والتثبت، قال الشاعر فى مدح من له رأى وبصيرة (طويل)

بصير بأعقاب الأمور كأنه يخاطبه من كل أمر عواقبه

ولذلك قيل: الرأى السديد أحمى من البطل الشديد.

قال الشاعر: (كامل)

الرأى قبل تطاعن الفرسان هو أول وهى المحل الثانى^(٢)

فلربما صرع الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الفرسان

وقال غيره: (بسيط)

وللتدابير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان

وقال ﷺ: «ما استنبط الرأى الصحيح بمثل المشورة» ولذلك قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ليستجلب بذلك جدهم فيها، ويستخرج حدهم، وليؤلفهم ويبقى ودهم، ولأن فيهم البطل الشجاع، والسيد المطاع.

قيل: ما ازدحمت العقول على أمر إلا استنبطت منه الصواب. وليقتدى به من

(١) احتوشها: أحرق بها.

(٢) البيتان من قصيدة للمتنبى يمدح بهما سيف الدولة سنة ٣٤٥ هجرية، وصحة الأبيات كما فى الدواوين اليوم:

الرأى قبل شجاعة الشجعان	هو أول وهى المحل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة	بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه	بالرأى قبل تطاعن الأقران

بعده من الأمراء من أمته، إذ ليس لهم من التأييد ما له، لينتظم بذلك أمرهم، ويجتمع شملهم، وتتحد كلمتهم، وتعظم شوكتهم، وتشتد على المشركين وطأتهم، ولذلك شرعت الجماعة في كل يوم خمس مرات، ثم شرع جمع أعظم من ذلك في كل أسبوع لصلوة الجمعة، ليعرف بعضهم بعضاً، ولتخولهم الإمام بالموعظة، وليسمعوا الدعاء لغزاة المسلمين بالنصر، وليتأهبوا للجهاد ومعاداة الكافرين بالله، والدعاء لأئمة الإسلام القاتنين بمصالح الأمة، ثم في الأعياد على وجه الزيادة لله عز وجل، وإظهار قوة الإسلام لمن عسى أن يكون جمعه الوقت من جواسيس أعداء الدين، ومع هذا كله فليس كل أحد يشاور، وإنما يشاور أهل المشورات.

قال أبو الأسود الدؤلي^(١): (طويل)

فما كل نصح بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بليب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب

وقالت الحكماء: لا تشاور معلماً، ولا راعى غنم، ولا كثير القعود مع النساء، ولا صاحب حاجة، ولا خائفاً.

وقيل: إذا استخار ربه، وشاور صحبه، واجتهد رأيه، فقد قضى ما عليه، ويقضى الله في أمره ما يحب.

وقيل سبعة لا ينبغي لذي لب أن يشاورهم: جاهل، وعدو، وحسود، ومراء، وجبان، وبخيل، وذو هوى، فإن الجاهل يضل، والعدو يريد الهلاك، والحسود يتمنى زوال النعمة عنه، والمرائي واقف مع رضا الناس، والجبان رأيه الهرب، والبخيل حريص على الجمع والمنع، ولا رأى له في غير ذلك، وذو الهوى أسير هواه، فهو لا يقدر على مخالفته، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

(١) أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي، واضع علم النحو، كان معدوداً من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان، من التابعين، رسم له على بن أبي طالب شيئاً من أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود. سكن البصرة في خلافة عمر، وولى إمارتها أيام علي، شهد صفين مع علي، ولما تم الأمر لمعاوية قصده، وبالغ معاوية في إكرامه، مات بالبصرة عام ٦٩ هجرية. أعلام (٣٤٠) ج ٣.

• قال رحمه الله:

٢٢- وَهَلْ لِفَتَى مِنْ قَبْلُ دَامَ فَتَاؤُهُ فَيُلْهِيكَ صِيرَانُ النَّقَى وَنَقَاءُ

الفتى بالقصر السرى^(١): الذكى المقدم الأمرة^(٢)، والفتاء بالمد شرح الشباب وحادثة السن، والسلامة من الزمانة^(٣). فيلهيك أى يشغلك عن فكاك مهجتك بما ينجيها من العذاب غدا. صيران النقى بالقصر وهو اسم رمال ممرعة بين نجد وتهامة، وكانت أعراب مضر تتنافس الحلول برياضها ومن مياهه صداء الذى تضرب العرب الأمثال به لطيب مائه^(٤) وهى ركية^(٥) بأرض رواض^(٦) فيحاء معشبة تبارى أرض اليمامة طيباً وذكاء، وحسن منظر، وصحة هواء ينبت بها السعدان واليعضيد^(٧) والأقحوان والجرجار^(٨) وأنواع الحمض والبقول، وكانت تحتلها^(٩) قبائل من مضر وقضاعة، فتأتيها قبائل بنى الحسحاس وبنى عذراء فى زى الشام والحجاز وعبس وذبيان، وبنو الحارث فى زى نجد واليمن وأسد وغطفان، وبنو طيء فى زى السواد وقيم وضبة، والرباب فى زى البحرين والهند، كأنه موسم يجتمعون فيه يتناخرون ويتباهون، وكانت تقصدهم حيثئذ الشعراء من أقطار الأرض وأرباب الحاجات، فتعطى سادات العرب العطايا الجمّة حتى يغنون المعدم وإنه لتأتى العصبية^(١٠) ولا حاجة لهم إلا النظر إلى العرب وزيتها وحياد خيولها ونجبتها وحسن صورها وبراعة أشعارها وفصاحة خطبها، وتخرج نساؤهم متبرجات بزيتتهن،

(١) السرى: السيد

(٢) الأمرة: الذى يستأمر كل أحد فى أمره أى يشاوره وهو بتشديد الميم.

(٣) الزمن: المريض والهزم.

(٤) فى النسخة (ب) بعد مائه. قال الشاعر:

مسا كل ماء كصداء لوارده كلا ولا كل مرعى فهو سعدان

(٥) ركية زائدة فى النسخة (أ)، ومعناها: البئر.

(٦) رواض: مكسوة بالنبات.

(٧) اليعضيد: الصف من النخل جمع عضدان، واليعضيض بقلة زهرها أشد صفرة من النورس، أو

هى الشجر (٣ - ص ٢٩٥) لسان.

(٨) الجرجار: الفول، والجرجير بقلة صحراوية لها أزهار صغيرة بيضاء.

(٩) كذا فى النسختين، ولعل الصواب تحل بها بدل تحتلها مع أن تحتلها صحيحة.

(١٠) العصبية: الجماعة.

وفتيانهم يتفاخرون ويشدون الأشعار، وتعزف عليهم القيان، حتى هدم الله ذلك بالإسلام وبقي ذكره في التشيبب والغزل جرياً على عادة الشعراء إلى يومنا هذا.

والنقاء بالمد: النظافة والظرف والبهجة وحسن الرونق، ويطلق فيراد به نقاء الثوب من الأوساخ، ويطلق ويراد به سلامة العرض مما يندسه، ويطلق ويراد به العفة.

قال الشاعر:

فقمنا من عفاف ولم ندنس بفاحشة ولا رثة ثيابنا

وهذا البيت أيضاً من جنس البيتين قبله في التزهيد في الدنيا، فالبيت الأول في قوة النفي لتمام النعمة فيها لتتغيبها، والثاني في قوة أن فيها نعيماً جسيماً لولا أن أعيانه تنقلب مضاراً في العقبي، وهذا في قوة أنها لو تمت ولم تنقلب أعيان شهواتها مضاراً، فإنها لا تدوم، وكل ما لا يدوم فالاشتغال به عبث، ولذلك قال: وهل لفتى من قبلك دام دوام الفتوة فتطمع أنت في البقاء، إذ كل ما جاز على المثل يجوز على مماثله، وحيث لا بقاء فلا نعمة، فأنت بين أمرين موت في الشباب فلم تدرك من شهواتها شيئاً، أو بقاء إلى الهرم فتموت موتاً.

كما قال الشاعر:

ولو أنها نفس تموت جميعها ولكنها نفس تساقط أنفسنا

يروى أن رجلاً من ثقيف كان ذا نعمة وافرة، وقد أدرك السن، فسأله بعض التابعين عن النعمة، فقال: النعمة العافية، ومن لا عافية له لا نعمة عنده، قال: فزدني، قال: النعمة الصحة، ومن لا صحة له لا نعمة له، قال: زدني، قال: النعمة الغنى، ومن لا غنى له لا نعمة له، قال: زدني، قال: النعمة الشباب، ومن لا شباب له لا نعمة له، قال: زدني، قال: لا أزيدك، وأقول أنا: النعمة اليقين، ومن لا يقين له لا نعمة له، والنعمة القناعة، ومن لا قناعة له لا نعمة له، والنعمة الورع، ومن لا ورع له لا نعمة له، والنعمة التقوى، ومن لا تقوى له لا نعمة له، والنعمة العلم بعد حصوله ومن لا علم له لا نعمة له، والنعمة حسن الخاتمة، ومن لم تحسن خاتمته لا نعمة له، والنعمة دخول الجنة، ومن لم يدخل

الجنة لا نعمة له، والنعمة النظر إلى وجه الله، ومن لم ينظر إلى وجه الله فلا نعمة له.

قال الشاعر: (كامل)

تبًا لدار لا يدوم نعيمها ومشيدها عما قريب يخرب

وحكى صاحب «المستطرف» أن الفضل بن يزيد قال: نزلت علينا بنو تغلب، وكنت مشغوفًا بأخبار العرب أن أسمعها فأجمعها، فبينما أنا أدور بين أختيتها وفساطيطها، إذ أنا بامرأة واقفة بفناء خبائها، وهي آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسحم^(١) المنظوم وهي تخاطبه بلسان رطب وكلام عذب، تحن إليه الأسماع، وترتاح له القلوب والطباع، وهو يتسم في وجهها، قد غلب عليه الحياء والخجل، لا يرد جوابا، فاستحسنت ما رأيت، واستحليت ما سمعت، فسَلِمْتُ عليهما، فردا على السلام، فوقفت أنظر إليهما، فقالت: يا حضرى ما حاجتك؟ وهل استحسنت ما رأيت من هذا الغلام؟ فقلت نعم، فقالت يا حضرى، إن شئت سقت إليك من خبرى ما هو أحسن من منظرى، قلت: قد شئت، قالت: حملته والرزق عسير والعيش نكد حملا خفيفا، حتى إذا وضعتة وشاء الله أن أضعه - وضعتة خلقا سويا، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه، تفضل الله عز وجل، وأتى من الرزق ما كفى وأغنى، فلما أتم رضاعه نقلته من جوف المهد إلى فراش أبيه، قريبا وكأنه شبل، حتى إذا مضت له خمس سنين أرسلته إلى المؤدب، فحفظه القرآن، فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه، فلما أن بلغ الحلم، واشتد عظمه، وكمل خلقه، حملته على عتاق الخيل، فتفرس وتمرس، ولبس السلاح، إذ نزلنا منزلا من منازل نجد، فوعك وقد نزلنا منزلا خصبا رحبا ذا مرافق ونزه، فلم يقم بالحى من الرجال غيره، منهم من يصطاد، ومنهم من يرتاد، ومنهم من خرج لمجرد النظرة، وكنا آمنين فما هو إلا أن أدبر الليل، وأسفر النهار، إذ طلعت علينا طلائع العدو، فما هي إلا هنيهة حتى أخذوا الأموال دون أهلها، وهو يسألنى عن الصوت، وأنا أكتمه الخبر إشفاقا

(١) كالسحم المنظوم، كذا في النسختين والمعنى غير واضح.

عليه، وصيانة له، حتى إذا علت الأصوات، وخرجت المخدرات، رمى دثاره^(١)، وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمته، وأخذ رمحه، فحمل على جماعة القوم، فطعن أذناهم فقتله، ولحق بأفصاهم فقتله، فصد وحده الفرسان عن الحي، فجاءته الأمداد، فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعو الله له بالسلامة، فلما اشتدوا في أثره، عطف عليهم، ففرق شملهم، وبدد جمعهم، فقتل أكثرهم، ونادى أن خلوا عن المال، فوالله لا رجعتُ إلا به أو لأهلكن دونه، ثم انصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتية إلا هزمها، حتى لم يبق من القوم إلا من نجاه فرسه، فاستنقذ المال، وأتى به يسوقه، فكبر القوم عند رؤيته، وسمعتة يقول في وجوه القوم: (طويل)

تأملن هل تلقين في الناس مثله

إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب^(٢)

وضاقت عليه الأرض حتى كأنه

من الخوف مسلوب العزيمة والقلب

ألم أعط كلا حظه ونصيبه

من السمهرى اللدن والمرهف العضب

أنا ابن أبي هند بن قيس بن مالك

سليل المعالي والمكارم والحسب

أبى لى أن أعطى الظلامه مرهف

وطرف قوى الظهر والجوف والجنب

وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ

جبال الرواسى لانحططن إلى الترب

(١) الدثار: الثوب يشتمل به، أو هو مما يلي الجسد.

(٢) هذا البيت فيه خطأ من حيث الوزن في الشطر الأول منه.

وعرض نقي أتقى أن أحييه

وبيت شريف في ذرى تغلب الغلب

فإن لم أقاتل دونكن وأحتمى

لكن وأحميكن بالطنن والضرب

فمما قصد اللاتي ذهبن إلى أبي

يهينه بالفارس البطل النذب

ومثل هذا من مآثر العرب ومفاخرها يخرج عن قصد الاختصار، فرجعت إلى تحقيق معنى البيت، ويان ما اشتمل عليه من الاقتباس الذي هو أشرف فصول البديع، لأنه مقتبس من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿التين: ٤-٦﴾ الآية، فالجهلة يحسبون الفتوة حدائة السن، وهيهات لم يسمعوا لها خبراً، ولم يقفوا منها على أثر، بل هي إيثار الصاحب، وحسن الجوار، وصيانة الجار، وحسن العهد، والذب عن العشير، والكر خلف الفارين، والقيام عند منام القارين^(١)، والصيام إن تنعم المتنعمون، وإنظار المعسر، وجبر حال المنكسر، والغيرة على الإسلام بالذب عنه والاحترام، وإكرام الضيف، وصلة الرحم، ولم شعث الأرامل، والحنو على القريب بالرأفة والترحيب، والإحسان إلى المملوك، والشفقة على العيال، وتولى الأمور الشاقة التي يتحاماها الناس.

قال الشاعر: (طويل)

* إذا عظم المطلوب قل المساعد^(٢) *

فمن جمع هذه الخصال، فقد أتم الفتوة، ويقدر ما نقص منها ينقص من فتوته.

قال الشاعر: (بسيط)

(١) القار: المصاب بالبرد جمعه قارون.

(٢) هذا عجز بيت من قصيدة للمتنبى يمدح بها سيف الدولة، والشطر:

* وحيد من الخلان في كل بلدة *

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى
ومن الفتوة ما رثت به فاطمة بنت طريف الشيبانية أخاها الوليد بن طريف^(١)
فقلت: (طويل)

تبل هناك^(٢) رسم قبر كأنه
لقد حاز مجدداً عديماً^(٣) وسوددا
أيا شجر الخابور مالك مورقا
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى
ولا الذخر إلا كل جردام صلدم^(٤)
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم
ولم تستلم يوماً لورد كريمة
فقدناك فقدان الربيع وليتنا
وما زال حتى أزهق الموت نفسه
ألا يا لقومى للنوائب والبلى
ألا يا لقومى للحمام وللردى
وللبدر من بين الكواكب قد هوى
ولليث كل الليث إذ يحملونه
ألا قاتل الله الخثا^(٥) أضمرت

على جبل فوق الجبال منيف
وهمة مقدام ورأى حصيف
كأنك لم تجزع على ابن طريف
ولا المال إلا من قنأ وسيوف
وكل رقيق الشفرتين حليف
مقاما على الأعداء غير خفيف
من السرد فى خضراء ذات رفيف
فدينك من ساداتنا بألوف
شجى لعدو أو نجى لضعيف
وللأرض همت بعده برجوف
ودهر ملح بالكرام عنيف
وللشمس لما أزمعت بكسوف
إلى حضرة ملحودة وسقيف
فتى كان للمعروف غير عيوف

(١) الوليد: هو الوليد بن طريف بن الصلت التغلبى الشيبانى نائر من الأبطال، خرج بالجزيرة الفراتية سنة ١٧٧ هجرية فى خلافة هارون الرشيد، وأخذ أرمينية، وسار إلى أذربيجان وأرض السواد، فسير إليه الرشيد جيشا بقيادة يزيد بن مزيد فقتله سنة ١٧٩ هجرية.

(٢) فى النسختين العبارة غير واضحة والذى يظهر لنا (تبل هناك).

(٣) الكلمة غير واضحة فى النسختين وأقرب شىء لها: عديماً، لذا أثبتناها ومع ذلك فالوزن يختل وقد تكون: فى الأنام، أو كلمة أخرى غيرها والله أعلم.

(٤) الصلدم: الصلب الشديد الحافر.

(٥) الخثحة: الاضطراب، والخثا: السير الذى لا وتيرة فيه والخثا: السريع (ص ١٣٠ ج ٢) لسان، ومع كل هذا فالعبارة غير واضحة.

فإن يك أرداداه يزيد بن مزيد قرب زحوف لفها بزحوف
عليك سلام الله وقفًا فإنني أرى الموت وقاعًا بكل شريف

وقد عقد القشيري في رسالته للفتوة بابًا أتى فيه بالعجب العجاب، فالاسم من الفتوة الفتى، ومن الفتاء الفتى، قال الرسول ﷺ «أفضل اللحم لحم فتى الغنم» كما أن القلوص الفتية من النوق وقد يطلق على كرائم الإبل إنثًا كُنَّ أم ذكرانا.

ويقال: شابة فتية، وغلّام فتى: إذا وصفا بشرخ الشباب، ولا يقال: فتى ولا فتاة، إلا لمن فيه خصال تُعجز أقرانه، قالت الصحابة يوم فتح خيبر: لا فتى إلا على، ولا سيف إلا ذو الفقار.

وقال صخر حين أتته الخنساء^(١) تطلب منه أن يعطيها مائة ناقة كوماء، وقد أعطاها قبل مائة ناقة فأتلفها عليها زوجها الأخرم، فقالت له زوجته سليمان: أما هذه فلا تكاد تدع لنا ثاغية^(٢) ولا راغية، فقال: إنه ليس بكثير في مثل الخنساء، ثم أشد فقال: (رجز)

وكيف لا أمنحها خيارها وهي فتاة قد كفتني^(٣) عارها

إذا أموت مزقت^(٤) خمّارها وجعلت من شعرها شعارها

ثم قال: اذهبي يا خنساء فخذى من إبلى ما اشتيت، واتركى ما كرهت، فقالت: إنها مائة ناقة كوماء، قال: وإن - فلا تخافى نكثًا ما بقى بيدي نشب، ثم غزا بني خزيمة فاكتسح إبلهم، فأدركه الطلب، وانهمزت بنو سليم فحماهم، فطعن فأضنى منها وطال سقمه حتى ملته زوجته سليمان، فخرجت عنه ذات يوم

(١) الخنساء هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمية أشهر شواعر العرب وأشعرهن على الإطلاق، عاشت أكثر حياتها في الجاهلية وأدركت الإسلام فأسلمت، وكان لها أربع بنين حرّضتهم على الثبات في القادسية حتى قتلوا جميعًا، فقالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم. ولما وفدت على النبي ﷺ مع قومها كان يستشدها ويعجبه شعرها. أجود شعرها رثاؤها لأخيها صخر هذا، توفيت سنة ٢٤ هجرية.

(٢) الثاغية: الشاة. والثغاء: صوت الشاة

(٣) فى (ب) قد كفتها.

(٤) فى (ب) فرقت بدل مزقت.

تظنه نائماً، فلقيها رجل من قومه، فقال لها: ما صنع صخر، فقالت له: لا حتى فيرجى، ولا ميت فينعى، ثم قال لها: متى يباع هذا الكفل؟ قالت: عن قريب، وذلك كله بإذنه، فهم بقتلها، وقال في نفسه: والله لأقدمك أمامي، فلما دخلت عليه، قال لها: ناوليني سيفي لأجرب نفسي هل أستطيع هزه؟ فناولته إياه، فلم تقله يده فقال: (الطويل)

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
 لعمرى لقد أيقظت من كان نائماً وأسمعت من كانت له أذنان
 فأى امرئ ساوى بأى حليلة فلا عاش إلا فى شقاً وهوان
 أرى أم صخر لا تمل عيادتى وملت سليمان مضجعى ومكانى
 وما كنت أرجو^(١) أن أكون جنازة عليلاً ومن ذا الذى يغتر بالحدثان

فلم ينشب أن مات فحزنت عليه أخته الخنساء بنت الشريد حزناً صار مثلاً، ورثته بمراثى كثيرة، من جملتها قصيدتها المشهورة التى مطلعها: (بسيط)

يا صخر وراى قد تناذره أهل المياه وما فى ورده عار
 إلى أن قالت:

وإن صخرًا لو ألبنا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشتو لَنَحَار
 جَوَّاب قاصية جزَّاز ناصية عقَّاد ألوية للجيش جرَّار
 وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار
 سهل الخليفة محمود الطبيعة ميمون النقيبة نفاع وضار
 لم تره جارة يمشى^(٢) بساحتها لرية حين يخلى بيته الجار

ثم عاشت بعده حتى أدركتها الرسالة، فأسلمت وحسن إسلامها، وقد غنت^(٣) لفتوتها. وكان رسول الله ﷺ يدينها ويكرمها، وكذلك أصحابه من بعده، وقالت

(١) فى النسخة (ب) وما كنت أخشى .

(٢) فى (ب) يسعى .

(٣) كذا فى الأصلين وفى الكلام حذف .

لها عائشة رضى الله عنها: ما هذا الحزن يا خنساء فى الإسلام؟ فقالت: كنت أحزن عليه فى الجاهلية حيث لا علم لى بجنة ولا نار، فكيف لا أحزن عليه الآن وقد علمت أنه صار جمرة من جمر جهنم.

وكيفية تضمنه أن الله لما خلق نوع الإنسان كافر ومؤمنه فى أحسن تقويم لشرف صورته وحسن تركيبه واشتركا فى الفناء المتضمن الاقتدار على الفتوة، فجمع المؤمن الفتوتين، فدامت له فتوته شبابا وشيبا، ودنيا وآخرة، وذلك حقيقة الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] لأن ثواب أعمالهم لا ينقص بهم ولا مرض، كما أنه لا ينقطع بموت، قال رسول الله ﷺ: «من كان على عمل صالح فمنعه منه مرض أو هرم، كتب الله له الأجر تاما». وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

وأما الكافر والفاجر، فبذهاب فتائه تنقطع فتوته فيخرف عقله، ويتكس قوامه، وتوهن قوته، وتنعدم بشاشته، ويمله أبناؤه، ويبغضه أحباؤه، وتنكره زوجته، وتتمنى موته إخوته فيندم حين لا ينفع الندم، ويكون خيرا من وجوده العدم، إذ فاتته الدنيا ولم يقدم زادا، ويثس أن يجد إلى الدنيا التى أفنى فيها فتاه واستفرغ فيها قوته معاداً، فيبقى ذلك الألم كامناً فى نفسه حتى إذا عاين ما أعد له من العذاب قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] فيقال له: كلا لا سبيل إلى الرجوع، إنها كلمة هو قائلها، لا فائدة تحتها، لأنه لو رجع إلى الدنيا لم يعمل إلى ما كان يعمل قبل، لتحتم الشقاء عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] لأنه رأى وبال أمره فى الدنيا بالعجز والهرم، وفى العقبي بالعذاب والندم.

(١) حديث إذا مات ابن آدم وفى رواية الإنسان. حديث صحيح رواه مسلم فى باب ما يلحق الإنسان بعد موته، كما رواه أبو داود والنسائى والترمذى والبخارى فى «الأدب» وأورده صاحب «الكشف» تحت رقم ١٢٧٧، وأورده السيوطى فى جامعه تحت رقم (٨٥٠) ورمز له بالضعف وهو وهم منه والله أعلم.

وأما تركيب البيت، فإن الاستفهام فيه بمعنى النفي، فيكون معناه: لم تدم الفتوة ولا الفناء لأحد قبلك فتطمع أن تدوم لك حتى تشتغل بزخارف الدنيا وتزهو باستحسان الفناء عن مهمات الأمور وفكاك المهج، قال ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها»^(١).

والبيت أيضا مركب على الكناية المعنوية، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الانبيا: ٢٠٤]، وهو أحسن ما يكون من أسلوب البديع، وأعز ما يجاء به فى جودة المعانى، والله الموفق لا رب غيره، ولا خير إلا خيره.

• قال الناظم:

٢٣ - خَسَاءٌ وَزَكَى تَفْنَى الْمُنُونُ زَكَاءَ ذِي زَكَاءٍ وَيَحْدُوها عَسَاءٌ وَعَسَاءٌ

قوله: خَسَاءٌ وَزَكَى، حالان من زكاء ذى زكاء، والمعنى: تُفْنَى الْمُنُونُ زَكَاءُ صاحب زكاء فى حال كونه مفردا وزوجا، بمعنى أنها تستأصله وتقطع شأفته، فإذا كان ذلك كذلك فإنه ينبغى للعاقل اللبيب رفع همته عن كل ما كانت إلى الفناء عواقبه، ولو كانت تستمر حالته الحسنى، فكيف وهى مهياة للعسى والعساء الحاديين به حيثما إلى الموت والفناء، فالخسا الفرد فى لغة ربيعة، ولذلك سميت قرية الخسا لانفرادها عن القرى بين البحرين، والسواد فى بادية تميم، وزكى ضد الفرد، والزكاء النماء، ويطلق ويراد به الفوز والفلاح، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَايَ مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] ويطلق ويراد به الصدق والمروءة، ومنه تزكية الشاهد، ويطلق ويراد به الطهر، ومنه طهرة المال بالزكاة.

والعسى بالقصر: الغلظ والاستواء وبلوغ الغاية، يقال: عسا النبات والحسر يعسو عساء فهو عسى على وزن غنى، والعساء بالمد: غاية الهرم، يقال: عسى الشيخ يعسى عسى: إذا هرم، وفى البيت من البديع الاستعارة، لأنه استعار

(١) حديث «كل الناس يغدو فبائع نفسه». جزء من حديث صحيح رواه مسلم فى أول كتاب الطهارة، وأوله «الطهور شطر الإيمان» كما رواه ابن ماجه وأحمد والدارمى.

للإنسان مثلاً من الزرع والنبات اللذين هما أخواه حالاً ومآلاً، فكما أن الزرع إذا تم واستوى وأفرغ فقد دنا حصاده، كذلك الإنسان إذا أدبر شبابه وبدأ شيبه وانتهت قوته فقد دنت منيته، فليتأهب لها أهبتها بالزاد والاستعداد، إذ قد دنا إبان الحصاد.

فالبيت مركب على معنى البيت السابق.

قال الشاعر: (مقارب)

إذا تم شيء بدا نفسه توقع زوالاً إذا قيل تم

يروى أنه لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، سرَّ بذلك سائر الصحابة، إلا أبا بكر رضى الله عنه، فإنه حزن حتى بكى، فقالوا: مالك يا أبا بكر يبكيك ما يسر الناس؟ فقال لهم: ما تم شيء قط إلا نقص، فإنه فهم من ذلك نعى رسول الله ﷺ، فما عاش بعدها رسول الله ﷺ إلا أربعة أشهر^(١).

ويروى عن عمر رضى الله عنه أنه بينما هو ذات يوم فى المسجد، إذ جاءه حبر من أحبار يهود، فقال له: يا عمر إني سمعت رجلاً من المسلمين يتلو آية من كتابكم لو علينا نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال له: أى آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣] فقال: إني لأعلم اليوم الذى نزلت فيه، والساعة التى أنزلت فيها، أنزلت يوم الجمعة عند الزوال من يوم عرفة والنبي ﷺ يخطب.

والاقتباس فى هذا البيت إنما فيه التلميح إلى معنى هذه الآية الشريفة التى هى

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣].

(١) أقل من أربعة أشهر حيث نزلت يوم عرفة وتوفى ﷺ فى الثانى عشر من ربيع الأول فتكون المدة ثلاثة أشهر على التحقيق، ورويت قصة شبيهة بقصة أبى بكر هذه، وهى أنه لما نزلت سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾، قرأها النبي ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص: ففرحوا واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عم؟» قال: نعت إليك نفسك، قال: «إنه لكما تقول» فعاش بعدها ستين يوماً، ما روى فيها ضاحكاً مستبشراً، أورد هذه القصة أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره (جـ ٢٠ ص ٢٣٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَايَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ الآية [النور: ٢١] فإنما جلبها الاشتراك. وهى من مشكلات كتاب الله عز وجل^(١).

• قوله:

٢٤ - أَصَابَ الضَّنَى ذَاتَ الضَّنَاءِ وَبَعَلَهَا

فَمَاتَا وَلَمْ يَنْفَعِ حَمَى وَحَمَاءٌ

قوله: أصاب، بمعنى قصد ولم يطش، الضنى بالقصر المرض المزمن الذى كلما ظن برء صاحبه نكس، وقيل: المرض المخوف، وقيل: هو المرض الذى لا يمهل، وربما كان من حرارة انعكاس المصيب^(٢) كقصة أنيس رضى الله عنه لما بلغه وفاة رسول الله ﷺ أضنى فمات مكانه كما فى «المواهب»، والضنى: فاعل أصاب ذات صاحبة الضناء بالمد، وهى المرأة العزيزة ذات النسل الكثير، كأم قرفة زوجة حذيفة ابن بدر الفزارى، وكانت العرب تضرب المثل السائر فى عزتها حتى قالوا: أعز من أم قرفة، ومن عزها أنه يعلق فى بيتها سبعون سيفاً كل لها محرم فلم يغن ذلك عنها شيئاً، وقد قتلت فى بعض غزوات أصحاب رسول الله ﷺ، أصابها سهم غرب^(٣) فقتلها، فما انتطح فيها عنزان، وأما بعلها حذيفة، فقتلته بنو عيس يوم الهباءة فى عصابة من أهل بيته، ومثل به لحنقهم عليه، وكان يقال له رب معد لشرفه ومنعته فى قومه، وكان يكفل أيتام غطفان كلها مع كثرة عددهم، فمات ولم ينفع فى دفع المنية عنه ولا عنها.

حمى بالقصر وهو أخو زوج المرأة، وأخو الزوجة، أو كل حميم، أو هو عامة الأقارب من الطرفين.

وحماء بالمد، وهو الفداء، والبيت لا يختص بهما، بل هو شامل لكل ذى قوة ومنعة، وفى هذا اليوم يقول قيس بن زهير لما قتلهم: (وافر)

(١) لا إشكال والله الحمد فى الآية، والعبارة قبلها غير واضحة.

(٢) المادى أصاب المصيبة

(٣) المادى أصاب المصيبة

تعلم أن خير الناس ميتا على جفر الهباء لا يريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكى عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر بغى فالبغى مرتعه وخيم
رأيت^(١) الحلم دل علي قومي وقد يُستجهل الرجل الحليم
ومارستُ الرجال ومارسوني فمعوج عليّ ومستقيم

وفيه من البديع الاقتباس، لأنه مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَيُّمًا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] تداركنا الله بلطفه آمين.

وله من الأحاديث قوله ﷺ لما سئل عن أخى الزوج: هل يدخل بيته كعادة العرب، فقال: «إنما الحموموت» فكررها حتى ظهر في وجهه الغضب^(٢).

وفيه أيضاً قوله ﷺ: «إن الله يحمي عبده الصالح من الأعمال كما يحمي أحدكم مريضه من الماء» قالوا: ولم يا رسول الله؟ قال: «يخاف عليه ما هو أشد، وهو العجب العجب العجب»^(٣).

* * *

• قال الناظم:

٢٥ - وَلَمْ يُنْجِ جَلَوَى رَبِّ جَلَوَاءَ جُودُهُ يُيَارَى الْجَدَى فَالنَّيْلُ مِنْهُ جَدَادُ

جلوى بالقصر: فرس من كرام الخيل كالعصا وذى العقل، وجلواء بالمد: الجلاح، وهو اتساع الجبهة من غير أن يكون أعجم، وهو أحسن ما يكون.

(١) في أيام العرب: «أظن الحلم» بدل «رأيت» وهو الصحيح.

(٢) حديث «إنما الحموموت» جزء من حديث متفق على صحته أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى، ولفظ الشيخين: «ياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أفرايت الحموموت قال الحموموت».

(٣) حديث «إن الله يحمي عبده... إلخ. رواه الترمذى وحسنه، والحاكم وصححه، لكن بلفظ: «إن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحميه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب». أما لفظ الشيخ فلم أجده، وأورده صاحب الجامع بلفظ «إن الله يحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعى الشفيق غنمه من مراتع الهلكة» ورمز له بالضعف وقال شارحه المناوى: فيه الحسين الجعفى قال الذهبى: مجهول، والله أعلم (٢٩٨ ج ٢) فيض.

قال الشاعر: (بسيط)

* صلح الوجوه وسيما السادة الصلح^(١) *

وقال غيره: (طويل)

فلا تنكحى إن فرق الله^(٢) بيننا
أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

والجدى بالقصر: المطر، وقد تقدم ما فيه، والجداء بالمد: كثرة الجود، لأن
الجداء ضرب عدد في مثله، فلا يكون إلا كثيراً. والمعنى: لم ينج الفرس المسمى
بجلوى ربه ربَّ الجبهة الواسعة الذى كان يبارى بجوده وكرمه المطر العام.

والنيل بفتح النون وسكون الياء: العطاء الواسع، والمقصود أن المنية لا تبقى
على أحد بسبب ما عنده من نفيس المتاع وكريم الأوصاف، فلا تعتد بشيء من
ذلك، فإنه لا ينجيك منه كما لا ينجى جلوى ربها، وهو كما هو فى الحسن
الذاتى، والكرم الطبيعى.

لم ينج جازم ومجزوم، وجلوى فاعله، ربه مفعول به. فالنيل مبتدأ، وفاؤه
استئنافية، منه جار ومجرور متعلق بالنيل، وجداء خبره، والمباراة المجارة على
وجه المبالغة.

قال الشاعر: (كامل)

باتت تبارينى البكاء = البكاء
ورقاً تصدح من فراق هديل

فكأنها تدرى الذى بجوانحى
وكأننى أجو لها بدليل

وفيه من البديع التلويح وهو أعلى فى الدلالة من التلميح وذلك بقوله: ﴿مَا
أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ﴾ (٢٨) هَلَاكَ مَحْنِي سُلْطَانِيهِ ﴿﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

قال الشاعر: (بسيط)

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإله ويفنى المال والولد

لم تُغن عن هرمرز يوماً خزائنه
والخُلد قد حاولت عاد فما خلدوا

(١) ورد هكذا فى النسختين أ و ب.

(٢) فى ب الدهر.

ولا سليمان إذ تجرى الرياح له
أمت منازلهم منهم معطلة
حوض هنالك مورود بلا كذب
أين الملوك التي كانت لعزتها
والطير والجن فيما بينها برد
كأنهم ما بنوا يوما وما حشدوا
لأبد من ورده يوما كما وردوا
من كل أوب إليها وافد يفد

وفيه من صريح البديع الاستطراد، وهو أن يتقل المتكلم من الفن الذي أخذ فيه إلى ما يتصل به لمناسبة بينهما ثم يرجع إلى ما كان فيه على وجه يحسن إirاده، وذلك أن المصنف قصد أولا التزهيد في الدنيا، ثم استطرده لذلك بذكر جلوى وراكبها، فمدحه بكرم الطبع وجمال الصورة وجودة الزى^(١) ثم رجع إلى ما قصده أولا من التزهيد في الدنيا ببيان أن ما ذكره لا فائدة له في دفع الموت وتأخيرها، ولا فائدة له في تنفيس كربته وسكراته، فصار لذلك قد أتى بنوع من الوعظ والتزهيد أقرب إلى الأخذ بمجامع القلوب مما كان شرع فيه أولا، وفيه قول السموأل^(٢) بن عاديا: (طويل)

ونحن أناس لا نرى القتل سبة
يقرب حب الموت آجالنا لنا
إذا ما رأته عامر وسلول
وتكرهه آجالهم فتطول

وذلك أن السموأل مدح قومه بأنهم لا يرون القتل عارا، ولا يعدونه عيبا لشجاعتهم وجلدهم عند ملاقاتة أقرانهم، ثم خرج عنه إلى هجو قبيلتي عامر وسلول ابني صعصعة بضد ذلك، ثم رجع إلى ما كان أخذها فيه من مدح قومه بالشجاعة فقال: يقرب حب الموت... إلخ. وفائدته إظهار فضل قومه على هاتين القبيلتين، ونظيره قوله الآخر: (طويل)

إذا ما اتقى الله امرؤ وأطاعه
فليس به بأس وإن كان من جرم

ألا ترى أنه أخذ في فن المواعظ والزهد، ثم خرج منه إلى قبيلة جرم، ثم

(١) الزى: اللباس.

(٢) السموأل: هو السموأل بن غريض بن عاديا، شاعر جاهلي حكيم من سكان خيبر شمال المدينة، وكان إلى حصن يسمى الأبلق، وإليه تنسب قصة الوفاء مع امرئ القيس مات نحو سنة ٦٥ قبل الهجرة (٢٠٤ ص ٤ ج) أعلام، والله أعلم.

الاستطراد على ثلاثة أضرب، ضرب غير مقصود ابتداء، وليس فيه تقوية لما قبله كما في البيتين المتقدمين، وضرب غير مقصود ابتداء، ولكنه أتى به تقوية لما قبله وتأكيده، وذلك كقول جرير^(١) يهجو أم الفرزدق^(٢):

بها برص بأسفل أستيها^(٣) كعنفمة الفرزدق حين شابا

لأنه هجا أولا أمه، ثم استطرده هجوه، وفيه زيادة لهجوها وتأكيده، وضرب مقصود ابتداء، وإنما يؤتى بما قبله ليتوصل به إليه، كقول أبي إسحاق الصابى: يمدح سيف الدولة: (كامل)

إن كنت ختكت في المودة ساعة فذمت سيف الدولة المحمودا
وزعمت أن له شريكا في العلى وجحدته في فضله التوحيدا

ألا ترى أن المقصود إنما هو مدح سيف الدولة، وإنما أتى بما قبله ليتوصل به إليه والأقرب أن يكون المستطرده به وصفا^(٤) لعلى رضى الله عنه وتفجعا عليه، كما في «الدر المنثور» لأبي تميم^(٥) الطائي لما أتاه نعي على بن أبي طالب رضى الله عنه

(١) جرير: هو جرير بن عطية بن حذيفة اليربوعي، أشعر أهل عصره، ولد ومات باليمامة، عاش يناضل شعراء زمنه، وكان هجاء فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، له ديوان شعر مطبوع مات عام ١١٠ هجرية.

(٢) الفرزدق: هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الشهير بالفرزدق، شاعر من النبلاء من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة العربية، وهو صاحب الأخبار مع الأخطل وجرير، ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر، كان شريفا في قومه عزيز الجانب لا ينشد الشعر إلا جالسا، له شعر مطبوع في ديوان، وله كذلك نقائض جرير مع الفرزدق في ثلاث مجلدات مات عام ١١٠ هجرية.

(٣) في ب اسكتيها وهو تصحيف.

(٤) كذا في الأصلين والكلام ناقص.

(٥) ليست هذه القصيدة لأبي تميم هذا وإنما هي لأبي محمد عبد الله بن أيوب التميمي يرثي بها يزيد بن يزيد الشيباني، وقد استبدل الشيخ رحمه الله كل اسم ليزيد في القصيدة بعلى كما استبدل كلمة ربيعة بقريش في قوله:

لقد عزى ربيعة إن يوما

والقصيدة طويلة أوردها بتمامها صاحب الأغاني في ترجمة يزيد (١١٥/١٨) كما أوردها صاحب المعقد الفريد (٣، ٢٩٣) والله أعلم.

تفجع عليه بقصيدته التي لم يسمع السامعون مثلها حلاوة ولا طلاوة ولا جودة ولا غزارة معنى، جمعت درراً من البديع، وغرراً من البيان، أولها قوله: (وافر)

أحَقًّا أَنه أودى على	تأمل أيها الناعى المشيد
أُتدري من نعت وكيف فاهتُ	به شفتاك كان لها الصعيد
أحامى المجد والإسلام أودى	فما للأرض ويحك لا تميد
تأمل هل ترى الإسلام مالت	دعائمه وهل شاب الوليد
وهل شيمت سيوف بنى نزار	وهل حطت عن الخيل اللبود
وهل تُسقى البلاد عشار مزن	بدرتها وهل يخضر عود
لقد هزت بمصرعه نزار	بلى وتقوّض المجد المشيد
وحل ضريحه إذ حل فيه	طريفُ المجد والحسب التليد
أما والله لا تنفكُ عيني	عليك بدمعها أبداً تجود
فإن تجمد دموع لئيم قوم	فليس لدمع ذى حب جمود
أبعد على تختزن البواكى	دموعاً أو تصان لها حدود
لتبكيك قبة الإسلام لما	وهت أطناها ووهى العود ^(١)
ليبيك معتر لم يبق دهر	له نشباً وقد ضمن المعيد ^(٢)
فمن يدع الخميس إذا تعايا ^(٣)	بميلة نفسه البطل النجيد
ومن يدع الأنام لكل خطب	يعم وكل معضلة تشود ^(٤)

(١) هذا البيت هكذا هو في النسختين.

(٢) فى (ب): ويبيك معتر. والبيت مختل وزنه.

(٣) تعايا عليه الأمر: أعجزه. ويروى البيت: ومن يحمى الخميس - بدل: فمن يدع الخميس.

(٤) تشود: تثقل أو تشق.

والبيت حسب رواية العقد الفريد:

ومن يدعو الإمام لكل خطب

وكذلك البيت الذى بعده:

يخاف وكل معضلة تشود

غدرن به وهن له جنود

ألم تعلم أجي أن المنايا

لم تعجب له أن المنيا فتكن له وهن له جنود
لقد عزى قريشا أن يوما عليها مثل يومك لا يعود

انتهى.

• ثم قال رضى الله عنه:

٢٦ - وَكَمْ ذِي دَوَى عَافَ الدَّوَاءَ وَذِي سَرَى بِقَوْسٍ سَرَاءٍ حُبَّ فَهْوٍ مَبَاءٍ

قوله: وكم من لوازم الإضافة بمعنى الكثير، ذى بمعنى صاحب، دوى أى مرض، وهو اسم استخرجته العرب من وصف، لأنهم يقولون: داء دوى، بمعنى عضال ولم يعرف له فعل، إلا أن يكون عن وزن من أوزان المبالغة، قال الرسول ﷺ لما سأل قوماً من الأنصار عن سيدهم، فقالوا: سيدنا فلان لولا بخل فيه، فقال لهم: أى داء أدوى من البخل^(١). والدواء بالمد لغة فى اللبن، لأنه أسرع فى شفاء المرضى معاً أعنى الجوع والعطش، ولما ذكره الله مدحه بخصلتين فقال: ﴿لَبْنَا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

ولما سمع بعض الحكماء هذا قال: لا يخاف منه الغصص.

وكان ﷺ كلما طعم طعاماً، قال: «اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيراً منه». وإذا شرب اللبن قال: «اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه»^(٢).

ولما أتى ليلة الإسراء بإناء من ماء، وإناء من عسل، وإناء من خمز، وإناء من لبن، اختار اللبن لسلامته من الآفات، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، أصاب الله بك، أما إنك لو أخذت إناء الخمر لغوت أمتك، ولو أخذت إناء العسل لاختارت

(١) حديث: «أى داء أدوى من البخل»، جزء من حديث رواه الحاكم فى مستدركه كما رواه الطبرانى فى الصغير له ولفظه عند الحاكم: من سيدكم يا بنى سلمة قالوا الجدى بن قيس، إلا أن فيه بخلا قال: وأى داء أدوى من البخل، بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، «أقده الذهبى سكوتاً (ج ٣ ص ٢١٩) مستدرك. أما رواية الطبرانى والتى فيها «بل سيدكم عمرو بن الجموح» فقد حسنها العراقى فى تخريج الإحياء (ج ٣ ص ٢٤٩) والله أعلم.

(٢) «حديث أن النبى ﷺ كان إذا أكل طعاماً... إلخ. رواه أبو داود والترمذى وحسنه، وسكت عليه العراقى فى «تخريج الإحياء» (٧/٢) والله أعلم.

أمتك الدنيا على الآخرة، ولو أخذت إناء الماء لغرقت أمتك، وأما إذ وفقت فأخذت إناء اللبن فإنك قد رشدت ورشدت أمتك.

ومن رأى فى المنام أنه يشرب لبنًا، فإنه ينال علما إن كان بصدد ذلك، وإلا فشفاء إن كان به مرض أو دين، لأنه يوافق الفطرة، والمتغير بحموضة أو نحوها مال، وإن كان فى سقاء فإنه فقه أو نحو أو لغة من المعقولات، وإن جهل اللبن فعلم، ولبن الإبل والغنم علم، ولبن البقر خصب، وأموال وشفاء، ولبن الخيل غنيمته، ولبن الحمير والبغال أموال لا تحل، ولبن السباع أموال تنال من أيدى الظلمة والملوك، وألبان الوحوش ضلال، ومن رأى أنه يستخرج لبنا مما لا لبن فيه، كالطير، فإنه يتدع، ولبن بنات آدم أفضل الألبان فى الرقيا، ومن رأى لبنة استحال ماءً أو طعاما، فإنه يأخذ الرشا، ومن رأى نفسه أو غيره يتجرعه ولا يكاد يسيغه، فإنه لا يجد فائدته وحلاوته، وربما حرمه، ومن رأى لبن تفجرت له من الأرض حتى صارت أنهارا، فإن الله يؤتیه علوما لدنيات ينتفع به العالم، ومن رأى أنه يرد اللبن فى الضرع، فإنه يحاول ما لا يمكن، ومن رأى نفسه يشربه ويتقيؤه، فإن كان فى إناء، فإنه ينتفع بعلمه ويؤخذ عنه، وإن كان إنما يتقيأ بالأرض، فإن علمه يضيع، وإن رأى كلابا تلغ فيه، فإنه يتعلمه عليه من لا يستحقه ممن لا خلاق له^(١).

قوله: وذى سرى، أى وكم صاحب سرى بالقصر وهو السرى، والسرى من حاز قصب السبق فى جميع المكارم، كعيسى ابن مريم، قال الله تعالى مبشرا لأمه مريم، ومعنى مريم فى العبرانية العابدة: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. والسرى فى أصل اللغة: النهر الجارى. واختلف فى السرى والفتى، فقيل لفظان مترادفان، وعليه الأكثر من محققى اللغويين وأرباب الاشتقاقات، وقيل: السرى يزيد على الفتى، لأن الله لم ينعت فى كتابه بالسراوة غير عيسى، فقد مدح كل نبي بما فيه، فصارت السراوة من جنس معجزاته الخارقة للعادة، كإحياء الميت، وإبراء الأكمه والأبرص، ووجوده من غير ذكر، وكلامه فى المهدي، وإتيانه الحكمة صبيا.

(١) لا أدري من أين هاهنا العلوم المفصلة.

قوله: بقوس سراء. القوس معروف، وعبر به عن السهم، إذ لا يُشك إلا به، والسراء بالمد: شجر النع، وهو من أصلب الأشجار وأنضرها، ولا ينبت إلا على قن^(١) الجبال.

قوله: حب، أى أصيبت حبة قلبه، فهو مباء، أى محمول متهيئ لأن يغسل ويكفن ويدفن، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقوله: عاف الدواء، استعارة عن عياقة أهل الأهواء لدين الله، ورغبتهم عنه مع ما فيه من قرة العين ومكافحة^(٢) الأنوار، والأنس بالعزیز الجبار، وما ذلك إلا لما جعل الله في قلوبهم من مرض النفاق، وضعف المعاصي، والشقاق، كما يعاف ذو المرض الصفراوي ألد الأشياء وأشهاها إلى النفوس، كالماء واللبن، وفي ذلك يقول البوصيري برد الله ضريحه: (بسيط)

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

وقال غيره^(٣): (وافر)

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرأ به الماء الزلالا

وربما كان اللبن كناية عن العلم، لأن نفوس الجهلة تمجه وتزدریه، وتستبعد تحصيله، مع ما فيه من لذة العاجل والآجل، قال الرسول ﷺ «منهومان لا يشبعان، طالب دنيا، وطالب علم، ولا سواء، فطالب العلم لا يزداد من الله إلا قربا، وطالب الدنيا لا يزداد من الله إلا بعدا»^(٤).

قال الشاعر:

وقد يرى الجاهل في جهله ما يرى العالم في علمه

هذا يرى الإحسان في رشده وذا يرى التوفيق في جرمه

(١) القن: جمع قنة: رأس الجبل.

(٢) مكافحة الأنوار، كذا في الأصلين، والكلمة لا تناسب المقام.

(٣) غيره هو أبو الطيب المتنبى.

(٤) حديث منهومان لا يشبعان: تقدم تخريجه.

وفى المثل السائر: من جهل شيئاً عاداه .
قال الشاعر: (الوافر)

فمنزلة السفية من الحلِيم كمنزلة الحلِيم من السفية
فهذا زاهد فى مثل هذا وهذا فيه أزهـد منه فيه

وفى شطر البيت الثانى نوع من الاستطراد وهو الاستطراد غير المقصود، لأنه وصف الرجل بكونه سرياً، فلما بلغ بسرأوته كل مبلغ وامتطى كل مجد وشرف . فلما قيل: قد تمت نخوته، وعلمت رتبته، إذا سهم المنية قد شك حبة قلبه، فإذا هو مباء مسلوب ما كان فيه من السراوة، مهياً للموت، وحسرة الفوت، كأن لم يخن بالأمس، إذ صار رهين القبر والرسم .
قال الشاعر:

يا من بدنياه اشتغل وغرّه طول الأمل
ولم يزل بغفلة حتى دنا منه الأجل
الموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل

وكأنه المعنى بقول أبى مدين الغوث:

تمر الليالى بعقلى ومالى فيا قوم مالى عن الموت سالى
شبابى يفر وشيى يكر وما إن تمر المنون بيالى
أفى الموت ريب أيجمل عيب لمن لاح شيب له فى العذالى
نهارى جدال ولىلى انجدال^(١) وحولى رجال على مثل حالى
يبيعون رشداً صحيحاً بغى فبؤسا وسحقاً لهم من رجال^(٢)
أرى عظم ذنبى فيشتد كرى ولكن ربي عظيم النوال
فسيرى طويل وزادى قليل وحملى ثقيل فكيف احتيالى

(١) الانجدال: الارتقاء على الأرض، والمراد هنا النوم.

(٢) هذا البيت هكذا هو فى النسختين.

فياذا الجلال ويا ذا الجمال وياذا الكمال عليك اتكالي
فكن عند ظني ولا تسلمني ولا تهلكني بسوء فعالي
اللهم يا ذا المنة والإفضال، يا عميم النوال، حسن أحوالنا، وزك أعمالنا،
واجعل في طاعتك رسوبنا وانتقالنا، برحمتك يا أرحم الراحمين .

• قال الناظم:

٢٧ - وَذِي بَيْتٍ اعْتَاضَ الْبَهَاءِ مِنْ بَهَائِهِ وَرَبًّا عَفَا مَثْرَ عَالَاهُ عَفَاءُ

قوله: «وذى بيت» أى ورب ذى بيت شرف، اعتاض من المعاوضة، وهى
المبادلة، إلا أن المعاوضة إبدال الشئ بما هو دونه، والمبادلة إبدال الشئ بمثله.

قال الشاعر: (بسيط)

لكل شئ إذا فارقتَه بدل وليس لله إن فارقت من عوض

والبها بالقصر وهو البيت المخرق، كناية عن القبر، لأنه كثيرا ما يتخرق من
تقادم الأزمان، والبهاء بالمد: الجمال الرائع، والبها والبهو: نور الشمس، فلما
تحزم سمي باسم ملازمه، وهو بهو الشمس، ورب عفا مثير بضم الميم: كثير المال
والولد والخول^(١)، والحشد علاه عفاء أى الرمل وذهاب الأثر، قال الرسول لأبى
هريرة رضى الله عنه: «إذا كان عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء».

وقال زهير: (وافر)

تحمل أهلها عنها فبانوا على آثار من ذهب العفاء

والبيت فيه من البديع والاقتباس، فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ
وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] إذ هو أول يوم من أيام
الآخرة، وأول منزل من منازل القيامة، يستوى فيه الغنى والفقير، والعظيم
والحقير، وإنما كان القبر عوضا من بيته البهى الدنيوى فيما يرى الرءاون، وإن لم
يكن إلا ذلك لكان فيه أعظم زاجر عن الدنيا.

(١) الخول: العبيد والإماء وغيرهم.

وأما إذا كان روضة من رياض الجنة، فهو خير مما اعتيض منه، لقوله ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار»^(١).

وأما إن كان حفرة من حفر النار، فظاهر القبر المحرق جنة بالنسبة إليه لو وجد سبيلا إلى الفناء المحض، أمدنا الله برضاه آمين.

• قال الناظم رحمه الله:

٢٨ - وما رب هطلى أم هطلاء فارتوى كهلكى اقتضى هلكاء هن ظماء

قوله: «وما رب هطلى» ناقة تمشى رويداً لعظم طبيها^(٢) وأخلافها حتى صارت هطلاء لغزارة لبنها، حتى يهطل دائماً أم أى قصد سحابة هطلاء بالمد أى دائمة التوكاف، واسعة الأكناف، وطفاء^(٣) ليست بخلب ولا جهام ولا جهمة جائلة^(٤) ولا كهام^(٥) تروى الطراب والآكام، وتزيل اللغوب^(٦) والهيام^(٧)، فارتوى منها فتى ارتدى عزمه واحتذى حزمه، فليس هو فى حزمه وعزمه كهلكى جمع هالك، اقتضى أى أوجب قصدهم مفازة هلكاء، على وزن حمراء، أى كثيرة المهالك، إذ أهلكهم بها الظماء لتفريطهم وإفراطهم، قال ﷺ المؤمن بين قصد واقتصاد، وحزم وعزم، والأحمق بين إفراط وتفريط». وقال ﷺ لعللى رضى الله عنه «أنت كعيسى، يهلك فيك رجلان، محب مفرط، ومبغض مفرط»^(٨).

(١) حديث: «القبر إما روضة»... إلخ. رواه الترمذى وقال فيه: غريب ولفظه «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة»، وعنه الغزالي فى «الإحياء»، وسكت عليه العراقي (ج ٤ ص ١٧١).

(٢) الطيى: حلقات الضرع من ذوات الأربع.

(٣) الوظفاء: وصف للسحابة إذا تدلت ذيولها.

(٤) الجائلة: السحابة التى لا تستقر.

(٥) الكهام والكهيم: الرجل المسن الذى لا مال أو لا خير عنده، وربما استعير للسحاب التى لا ماء فيها.

(٦) اللغوب: التعب.

(٧) الهيام: أشد العطش.

(٨) تقدم تخريج هذا الحديث.

والبيت مفرغ في قالب التمثيل، فمن لا خبرة له بأمثال العرب، وفحوى خطابها، ولحن قولها، لا يشق غباره، ولا يبلى أخباره، ولا يحتسى رشفة من أنهاره، ولا يسبح عباب تياره^(١). والشطر الأول مثل في طي كناية، لأنه كنى بالناقة الهطلى عن الدنيا التي هي أم الآخرة، فهو يسيرها بهمته العلية بعدما شد عليها رحل العزم ببطان الحزم، وقد تزود بدرها الهاطل، واستغنى بكونه خريثاً^(٢) حاذقاً عن اتباع^(٣) سراب الباطل، فقد جمع بين در الحمراء وشيم السحابة الوطفاء، فأصبح في نعم الله يتقلب، وإليه بأنواع طاعته يتحجب، صحب الزاد حتى تروى برى المعاد، فهو دنيوى، أخروى، سماوى، أرضى، فصار المعنى بقوله ﷺ «الدنيا نعم المطية للرجل الصالح، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر»^(٤) أى يبلغ على متن النجبية الهطلى، ويراد لئن علمها وعملها الهاطل غدرانها^(٥)، والجنة الهطلاء ذات الخمر والماء والعسل والنعماء، وينجو من أن يكون من جملة الهلكى، وهم الذين طلبوا الدنيا للدنيا، وأخذ بمجامع قلوبهم سحرها، وأصم أسماعهم وأعمى أبصارهم دفرها^(٦) فاقتادهم الهوى إلى مهامه التوى^(٧) فوقعوا في المهامه الهلكى والمفاوز الفيءاء، من غير دليل مرشد، ولا حميم مؤيد، فلمع لهم فى البيداء سراب، فظنوه شراباً، فلما أتوه لم يجدوه شيئاً، فوجدوا الله عنده، فوفاهم حسابهم بتعجيل تبابهم^(٨) وفجاءة عذابهم، إذ ورطهم عطش الحرص والاتهام^(٩) بسموم الشح والاتظام، فأصبحوا نكالا لما بين يديها وما خلفها،

(١) التيار موج البحر الهائج.

(٢) الخريت: الدليل الماهر، وتقدم مرارا.

(٣) فى (ب): «واتتجاع» بدل «واتباع».

(٤) الدنيا نعم المطية . . . إلخ لم أجده هكذا غير أن الطبرانى روى من يتزود من الدنيا ينفعه فى الآخرة وعنهما الهيثمى وسكت عليها (٣١١ / ٨٠).

(٥) كذا فى الأصلين وفى العبارة بتر.

(٦) الدفر، والذفر: النتن.

(٧) التوى: الهلاك.

(٨) التياب: الهلاك.

(٩) الاتهام: لعله من أتهم إذا سار فى الأرض المنخفضة كتهامة. تقول العرب: أتهم: إذا سار فى مكان منخفض كتهامة كما تقول: ألجد: إذا سار فى مكان مرتفع كنجد.

وسوعظة لمن يبغى خلقها وخلقها، فيتفسح في الساحات، ويجمع بين الماضي والآت، أينعت ثمراته فتولدت، وزهبت غمراته فتجلت، فبعد الصباح يحمد القوم السرى، وعلى قدر الارتقاء يبلغ القوم الكرام الذرى. فهذا مثل للعامّة، وأما مثل الخاص، فرجل امتطى ظهر كلمة الإخلاص وتملى برى لبّ الإخلاص، فجد لما توجهت إليه مراكب الحب تحمل على ظهورها خلع القرب فمنت قلوبه الوجناء^(١) إذ رأت أترابها يبشرنها باقترابها من معاهدها وأسرابها، فأشدت بفصيح لسانها المنبئ عن سرها وحالها فقالت:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

إذا اشتكت من كلال السير أو عدها قرب المزار فتخيا عند ميعاد

فلما سمعها حادى الشوق خاطبها بلسان الذوق، فقال لها:

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى الهوينا وتجى فى الأول

فاعترضتها حور القصور بالتحف والخبور، فأنتفت عن خطابهن وما قرأت حرفا

من كتابهن، ثم أنشدت فى جوابهن: فقالت:

تَنحَى يا حُورَ الجنانِ عِنا مالِكِ قاتِلنا ولا قُتلنا^(٢)

ولكنْ إلى مليكنا اشتقنا فهو يعلم السر وما أعلننا

فلما سمعن ذلك قلن: بخ بخ نفس وأردة غير شاردة لما سمعت قولهن،

أنشدت مجيبةً لهن: (فى بحر الوافر)

لى حبيب خياله نُصب عيني سره فى ضمائرى مدفون

إن تذكرته فكلى قلوب أو تأملته فكلى عيون

فإذا جاوز هذا المركز خاطبته رجال الغيب، وأخرجت له ما فى الجيب فيجدونه

وقد أذهله القلق، وخامرهم الدهش والأرق، فيقول لهم: لا تكدرُوا على خلوتى،

ولا تشوشوا على نجعتى، إنما إلى المحبوب قصدت، وما لديه طلبت، وإلى

(١) وجناء: شديدة، قوية.

(٢) فى النسخة (ب) يا حوراء الجنان.

حضرته هربت، ثم أنشدت فقالت:

أسيرُ الهوى عينه تدمع	وفى ليله العين ما تهجع
تساعده عند تذكره	بدمع غزير وما تقلع
سل الليل عن حال أهل الهوى	إذا لاحت الأنجم الطلع
يخبرك لو أنه مخبر	بأنهم سجد رُكع ^(١)
فطوراً يناجون مولاهم	وهم في عبادته خضع
يقولون يا من يرى حالنا	ويعلم في الليل ما نضع
أعنا بصبر على شوقنا	إليك فقد شفتنا المطمع
سأبكي لأهل الهوى رحمة	لعلمي أن الهوى يجمع
هم الأولياء لمحبوهم	وهم في جنان العلى رتع

فإذا جاوز هذا المركز، اشتاقت إليه الأرواح الروحانية، لما اشتموا من رائحة أريج^(٢) حبه، فيستأذنون الله في زيارته وقربه، فإذا رأوه ورأوا ما به من الذبول والتحرق والدهول، رُقوا له، فقالوا: ألك حاجة؟ فيقول: أما إليكم فلا، وأما إلى الله فبلى، فيقولون: ألا تسأله؟ فيقول لهم: إنه ليس بجاهل فأنبئه، ولا بغافل فأنبئه، فيقبل الله عليه حينئذ فيزيل عنه رواق دهش الجلال بفسحة لذة الجمال، فسكن لذلك روعه، وجعل الأكوان طوعه، فوقع على قرة العين بزوال حجاب البين، فطاب وغاب، وحير الأبواب، بسروره بعد قلقه، ونومه بعد أرقه، فتكثر القالة^(٣)، وتضمحل الدلالة، فلا يعرفه إلا شكله، ولا يوصل إليه إلا حبله. فهذا ورد القوم، ليس هو في اليقظة، ولا في النوم، فيشربون خمرة الكلف^(٤) على بساط الدنف^(٥)، في كأس الشغف، فسكروا فما صحوا إلا وقد زالت الحجب،

(١) هذا البيت ورد هكذا في النسخين.

(٢) الأريج: الرائحة الطيبة.

(٣) القالة - بالقاف - الراحة أو الدعة.

(٤) خمرة الكلف: هي الخمرة التي تشتد حمرتها حتى تضرب إلى السواد.

(٥) الدنف: المرض الشديد والقرب.

وكافحهم المحبوب^(١) فقال لهم: أين السبيل إلىَّ إذ لا زمن، ولا أوان، ولا جهة، ولا مكان، فيجيبه: لا كنت إن كنت أدري كيف السبيل إليك؟ أفردتني عن جميعي، فكنتُ سلمًا لديك، فيقول له: اذن أيها العبد، فقد خيرتكَ ولذلك خيرتُكَ، فيدركه الدهش هنيئةً، حتى إذا أمدّه الله بعلوم من لدنه نطق بجوامع الكلم فقال:

حيرتوني في جلال جمالكم فاحترتُ بين صفاتكم والذات
فبقيت من دهشى بكم حينًا بلا جمع ولا فرق ولا لذات
حتى أفضتُم من بحار كمالككم سحب العناية والبقاء لذاتي

فينتعث بعد الفناء، ويستريح بعد العناء، إذ لم تبق معه بقية من حسه، إذ صارت قرة عينه بنفسه، فيقول حينئذ أنا الكل^(٢)، وعلى فدل وتلك رتبة المشاهدة المعبر عنها بالوصول، فهي سبعون رتبة تحرم في شأنها العبارة، وتستقل الإشارة.

وقد عبر المصنف رحمه الله عن كنياته بالإبل للمناسبة التي بين الإبل وبين الأسفار الشاقة، والمهامه الواسعة، إذ ليس من الأموال ما يشاكلها، ولا من الحيوان ما يواكلها، وقد رصع منظومته بروائع الآيات، وغرر الأحاديث المسندات، ليأتي من فن البديع بالتلويح، بعد الكناية والتلميح، وليعلم من جراه ما قصد من التضمن والتفتن.

أما الآيات فمنها قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢] فبين بهذه الآيات أن الحيوانات ليس فيها ما يشاكل الفلك، إلا هي لأنها سفن البر.

وقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالِكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ [النحل: ٧] قيل: هي مكة، وقيل: مواطن الغزو، وقيل: سائر البلدان. وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ إلى ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣] فإن الله لم يجمع في شيء من الحيوانات ما جمع فيها من المنافع، ولولا أنه ذللها لنا ما

(١) في النسخة (ب) وكافأهم المحبوب.

(٢) الكل بالترديد يعتبرها بعض اللغويين لنا فلا تعرف كلمة كل إلا منكرة، وقد تقدم ذلك.

انتفعنا بها .

قال ﷺ: «أكرموا الإبل، فإنها من نفس الرحمن»^(١).

وقال ﷺ: «عليكم بالكريمتين الناقة والنخلة، المطعمات في المحل، والراسخات في الوحل»^(٢).

وقال ﷺ: «أكرموا الإبل، فإنها مهر الكريمة، وفكاك النفس، وثمر الجنة»^(٣).

وقال أيضاً: «الإبل أشرف أموال العرب وحصونها التي تآرى إليها».

وسميت إبلًا لأنها تأتي بالبلاء، وتذهب به. قال بعض العرب: سميت الإبل إبلًا لأنها تبل ساقبها، وتبول على ساقبها. قال أكثم بن صيفي: الإبل فيها من أخلاق الكرام أوصاف، منها أنها تكون مثقلة بالأحمال، ضمراً من الجوع والهزال، فإذا حداها الحادي، نسيت ما كانت فيه، فتراها تجد في السير محاكاة للحادي، فتراها تمد الأعناق استعداداً للصوت، وتحرك الأذان، وربما سحت الدموع على الخدين، كما قال الشاعر: (بالطويل)

ترفق بنا يا حادي العيس والتفت	فللنور بين الوادين وضوح
إذا العيس باحت بالغرام ولم تطق	جفء فما للصب ليس ييوح
وقد مدت الأعناق شوقاً إلى اللقا	ومدمعها بالوجنتين سفوح
وآت مطايا الركب حتى كأنها	حمام على غصن الأراك ينسوح
وإلا فما للركب هاج اشتياقه	فكل من الشوق الشديد يصيح
فما هذا إلا مواطن طيبة	وهذا سناها يغتدى ويروح ^(٤)

يروى أن رجلاً من التابعين استضاف حياً من أحياء بني تميم، يقال لهم: بنو حماد، فإذا عند رجل منهم عبد مغلل مثقل في الحديد، فقال له: ما بال عبدك في الحديد، فقال له: ذلك عبد نقلني إلى حالة الفقر بعد إذ أنا غني، فقال له: وكيف ذلك؟ قال: سافرنا إلى السواد فبعنا وأفضلنا، وانقلبنا بأموال كثيرة، وطلع

(١)، (٢)، (٣) لم أجد لهذه الأحاديث الثلاثة سنداً.

(٤) الشطر الأول غير مستقيم.

جمّة، فلما طال على الإبل السفر، وأدركها الكلال والضجر، أمره بعض من أمره بالحداء، فما هو إلا أن سمعت الإبل نغمته، خرجت من أصل طبعها، فقطعت الحبال، وألقت الأحمال، وكسرت الجوالق^(١) فمنها ما توحش، ومنها ما هام، ومنها ما قطع نياط قلبه فمات، فقال: إن شئت حبوتنى بإطلاقه وأسمعتنى بعض نغماته بما لى من حق الضيافة، قال: أفعل، فأطلقه من قيده وغله، وأقبل به إلى التّابعى، فما هو إلا أن جاءه قال: أسمعنى بعض ألحانك، فحدا العبد، فما هو إلا أن سمع حسن نغماته، فأثار كامن الشوق فغشى عليه، فما أفاق إلا بعد حين، فقالوا له: كنا نسمع حداه ونغماته، فلا تؤثر فينا شيئاً، فقال: أما إنكم على طبع الحمير، فإن من لا تهيجهُ الأوتار، ولا تحركه الأشعار، ولا تشوقه الألحان، ولا يخوفه القرآن، فذلك غليظ الطبع، قليل النفع، أليس الله تعالى يقول: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الزمر: ٢٣].

ومنها أنها تبلغ الغاية فى العطش، فإذا أعطيت ماء كدرا مجته فعافته، ومنها أنها تأتى المكان الخصب النَّابت على الدمن، وبها من الجوع ما لا مزيد عليه، فإذا شمته أفتت وجاوزته، انتهى.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

• قال الناظم رحمه الله:

٢٩ - وَقَاكَ الْعَمَى مُرْجِي الْعَمَاءِ فَلَذِيهِ^(٢)

فَرُبَّ عَشَى أَفْضَى إِلَيْهِ عَشَاءُ

قوله: وقاك، فعل ماض بمعنى الدعاء، معناه: جعل الله بينك وبين ما تكره وقايةً تفيك العمى، من عمى البصر، وعمى البصيرة، مزج، أى سائق. العماء

(١) الجوالق، والجوالق: العدل من صوف أو شعر وأصلها فارسية.

(٢) فى النسختين (أ) و (ب): «فعذبه». والأصح «لذ».

بالماء الغيم الرقيق، أو هو اسم لمطلق المطر، لأنه يأتي من العماء، وهو الغيب،
ففي الخبر: «كلم الله موسى في عماء» أي في غيم أبيض رقيق نوراني. ومزجي،
فاعل وقاك فعُدْ به، أي لذ به والفاء سببية، والباء للإلصاق، والضمير عائد على
الله، قرب للتكثير، والفاء للسببية أيضا، والمجرور محذوف، أي: رب صاحب
عشى بالقصر، وهو من عَشَى بالكسر يعشى بالفتح عشى: إذا كان يبصر بالنهار
دون الليل، أفضى إليه، أي أدى إليه عشاء بالماء، وهو طعام الليل، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا
وضع العشاء وأقيمت صلاة العشاء، فقدموا العشاء على العشاء»^(١).

والبيت أيضا تمثيل قصد به التصور لإتيان الشر من حيث يُحتسبُ الخير،
وصُدور الضرر من الجهة التي يُتوقع منها النفع، وإذا كان ذلك كذلك، فالركون
إلى شيء من الأشياء، والاعتماد على سبب من الأسباب، جهل، فعلى هذا
يكون البيت مقتبسا من قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ
تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. أي والله يعلم ما فيه
لكم من الخير وإن كرهتموه، وما فيه لكم من الشر وإن رغبتموه، فيصرفكم عما
شاء لما شاء.

يروى أن الله يسوس أهل ولايته فيقلب لهم أعيان المحن منحا، وأعيان المنح
محنا، لئلا يعتمدوا على غيره.

يروى أن يوسف عليه السلام نظر يوما في المرأة فرأى حسنه وجماله، فحدثته
نفسه أن أحدا لا يقدر على ثمنه، لجمال وجهه، وكمال صورته، وكونه ابناً
ليعقوب نبي الله، فسلط الله عليه إخوته الذين يعلمون نسبه وشرفه، فشروه^(٢)
بشمن بخس دراهم معدودة، فلما يئس من نسبه وحسبه، وذلت نفسه، ويئس من
النصرة إلا من ربه، بيع بوزنه ذهباً، ووزنه ورقاً، ووزنه جواهر، ووزنه مسكاً،

(١) حديث «إذا وضع العشاء»... إلخ حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة
أكثرها: إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدأوا بالعشاء، ونقل المناوي عن العراقي أن لفظ إذا
حضر العشاء والعشاء فابدأوا بالعشاء لا أصل له بهذا اللفظ (ج ١ ص ٢٩٥) فيض.

(٢) العبارة مبتورة لأن إخوة يوسف لم يشتروه ولم يبيعوه، وإنما باعه الذين أخذوه من الجب.
فالكلام لذلك لا يستقيم هكذا. والله أعلم.

ووزنه كافورا^(١) فلما اتخذته العزيز ولدا، فكساه الحرير والذهب، وطوقه بالياقوت، فلما ركن إلى ذلك بعض الركون، سلط الله عليه زليخا، فدعته إلى الفاحشة، فاستعظم وعصم، فلما خاف الفتنة، قال: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] فسلط الله عليه العزيز وزليخا اللذين كانا يكرمان مثواه، فجعلاه في السجن، فمكث اثنتي عشرة سنة حتى تمم الله نعمته عليه بالنبوة، وأرسل الله إليه خلع الكرامة بسبب رؤيا الملك الريان، فكان من أمره ما قص الله في كتابه فتمحض له ملك مصر من غير نزاع ولا منازع، فصار الملك من جملة عبيده، ورد الله إلى زليخا شبابها وحسنها وبصرها فتزوجها حلالا، وأظهر الله براءته وعفته من يومئذ إلى يوم القيامة، فما من كتاب سماوى، إلا وقد نزل ببراءته وقصته، كما نزل في القرآن العظيم. ثم ساق الله إليه إخوته أذلاء، حتى شفى غيظه منهم فى تؤدة، ثم جنح الله شمله بأبيه وأخيه وجميع عشيرته على أتم هيئة، وأحسن حال، فلما تم له الأمر تأقت نفسه إلى ما هو أشرف من ذلك، وهو لقاء ربه، فقبضه بعد ذلك بسبعة أيام أو نحوها، فلما مات تنافس أهل مصر فى دفنه، فكل قوم يريدون دفنه فى محلهم رجا بركته، حتى أشرفوا على القتال، فلما أشفوا على القتال تداعوا إلى الصلح على أن يجعلوه فى مجرى النيل، فجعلوه فى صندوق من مرمر، ثم جعلوا على صندوق المرمر صندوقا من ذهب، ثم جعلوهما فى صندوق من ورق، وكان لما احتضر عليه السلام أخذ العهد على بنى إسرائيل إذا ذهبوا إلى الشام أن يحملوه معهم، فقالوا: أنذهب إلى الشام بعد ما اطمأنا بمصر، فقال: نعم إنه سيكون ملك جبار كافر يقال له الوليد يستعبدكم هو وقومه، ثم إن الله سيرسل نبيا كريما، يقال له: موسى يستنقذكم على يديه، ويكون ذلك سبب هلاكه وهلاك قومه، فلما أرسل الله موسى بعد ذلك، وكان من أمره مع فرعون وقومه ما كان، أمره الله تبارك وتعالى أن يسرى بقومه إلى بحر القلزم^(٢)، فلما انفصلوا من مصر، غيمت عليهم السماء، ومنعوا السير، فسأل موسى ربه أن يخبره بسبب ذلك، فأوحى الله إليه أن يوسف عليه

(١) لا أدرى من أين للشيخ رحمه الله بهذه التفاصيل الخاصة بالأوزان التى بيع بها يوسف عليه السلام، والأرجح أنها لم تثبت، والله أعلم.

(٢) بحر القلزم: هو خليج السويس المتفرع من البحر الأحمر.

السلام أخذ العهد على بنى إسرائيل أن يحملوه معهم إذا ذهبوا إلى الشام، فيجعل موسى ينادى فى بنى إسرائيل: ألا من له علم بمحل يوسف فليخبرنى، ومن لا علم له فأصم الله سمعه، فلم يجد من يخبره إلا عجوزاً من بنى إسرائيل، قالت إالى، فإن عندى نبأه، لكن على شرط أن تدعو الله أن يرد على شبابى، وأن يجعلنى رفيقك فى الجنة، ففعل، فذهبت معهم فدلتهم على قبره، فحملوه معهم إلى الشام، فلما حملوه بدت النجوم، فجدوا فى السير^(١).

وقال ﷺ: «أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وفى ذلك يقول الشاعر:

يا طالب المجد والنهى بقوة هيهات أنت بياطل مشغوف^(٣)
رعت الأسود مع قوة جيف الفلا ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

ويروى أن فاطمة بنت زيد الخثعمية كانت قد قرأت الكتب القديمة، وقد ترقبت مولد رسول الله ﷺ، فأقبلت من اليمن بأموالها تؤم مكة، ترجو أن يكون النبى ﷺ ولدها، فوافقت اليوم الذى فدى فيه عبد الله بمائة من الإبل، فعارضته فرأت النور فى وجهه، فقالت له لك مثل الذى نحر عليك من الإبل، وقع على الآن، فقال لها: (من بحر الرجز)

(١) ما أجدر هذه القصة أن تكون مختلقة من الإسرائيليات التى لا سند لها، أعنى قصة العجوز.
(٢) حديث «أبى الله أن يرزق عبده إلا من حيث لا يحتسب»... إلخ. جزء من حديث طويل أخرجه الديلمى، وأوله اجتمع على بن أبى طالب وأبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم، فتماروا فى شىء فقال لهم على انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ إلى أن قال: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يعلم»، وهذا حديث موضوع. قال ابن الجوزى فى موضوعاته، قال ابن حبان: هذا حديث موضوع، وأحمد بن داود راويه كان يضع الحديث، وقال الدارقطنى: هو متروك كذاب (ج ٢ ص ١٥٣) موضوعات.
وأورده صاحب «كشف الخفاء» تحت رقم (٥٨) وقال: رواه القضاعى والعسكرى بسند ضعيف بالمرّة والله أعلم.

(٣) البيتان من بحر الكامل غير أن الشطرين فيهما خلل من حيث الوزن.

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغيه يحمي الكريم عرضه ودينه

ثم ذهب مع أبيه إلى شعب بنى هاشم، فزوجه أمنة بنت وهب، فوقع عليها لحينه، فعلمت برسول الله ﷺ، ثم رجع إلى الخثعمية، فقال لها: هل لك إلى ما طلبت مني، فنظرت إليه، فقالت له: هل أحدثت بعدى حدثاً؟ قال: نعم، تزوجت أمنة بنت وهب، فوقعتُ عليها، فقالت له: هيهاتُ إنى لست ببغى، ولكنى رأيتُ نورا فأردتُ أن يجعله الله مني، فأبى الله أن يجعله إلا حيث شاء، ثم أنشدت فقالت: (بحر الطويل)

بنى هاشم ما غادرت من أخيكم أمنة إذ للباه يعتركان
كما غادر الصباح عند خموده فتائل قد ميثت له بدهان
وما كان ما يحوى الفتى من تلاده بحزم ولا ما فاته لتوانى
فأجمل إذا حاولتُ أمراً فإنه سيكفيكه جَدَّان يعتلجان^(١)
سيكفيكه إما يد مقفلحة^(٢) وإما يد مبسوطة بينان
فلما رأيتُ النور قد زال بهوه نبا بصرى عنه وكلَّ لسانى

يروى أن دانيال عليه السلام لما غضب عليه بختنصر فألقاه فى بئر وألقى عليه أسداً قد جوعه ثم سد عليهما رأس البئر بصخرة عظيمة، فجعل الأسد يتمسح على دانيال، ويلحس ثيابه، فلما أراد الله تعالى إنقاذ بنى إسرائيل، وإخراج دانيال من الجب، رأى بختنصر رؤيا هالته، فأرسل إلى المنجمين والكهنة من أهل مملكته، فقال لهم: إنى قد رأيتُ رؤيا هالتي، ولا أثق بتأويلها إلا ممن أخبرنى بها

(١) فى النسخة (أ) و (ب): إذ للمياه يعتلجان.

(٢) هذه الكلمة غير واضحة فى النسختين، وأقرب شىء ما أثبتناه، والذى يظهر لى والله أعلم أن القصة والشعر مختلفان على الرغم من أن أصحاب السير أوردوها وقد وجدت فى البداية والنهاية الأبيات وأثبت الكلمة «منقلعة»، ومعنى الاقتعال: التنحية (٢/٢٥١).

وعلى كل حال فالأبيات تكثر الأخطاء فيها فى النسختين (أ) و (ب) لذا قمنا بتصحيحها من البداية والنهاية لابن كثير ومع ذلك هذا البيت مختل الوزن.

قَبْلَ أَنْ أَقْصِبَهَا عَلَيْهِ، وَقَدْ أَجَلَّتْكُمْ ثَلَاثًا فَإِنْ أَخْبَرْتُمُونِي، وَإِلَّا قَطَعْتُ مَا فِيهِ
 أَعْيُنَكُمْ، فَلَمَّا رَأَوْا الْجَدَّ مِنْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، قَالُوا لَهُ: إِنْ
 يَكُنْ عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ أَحَدٍ، فَعِنْدَ فَتَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ: عَزِيرٌ، يَزْعَمُ أَنَّ لَهُ
 رَبًّا فِي السَّمَاءِ يَعْلَمُ السِّرَّ وَمَا فِي الضَّمَائِرِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ:
 إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالِكِي، فَإِنْ لَمْ تَخْبُرْنِي بِهَا وَبِتَأْوِيلِهَا، قَطَعْتُ مَا فِيهِ عَيْنَاكَ، فَقَالَ
 لَهُ: إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَخْبَرَنِي
 بِرُؤْيَاكَ وَبِتَأْوِيلِهَا قَبْلَ أَنْ آتِيكَ، لَكِنْ عَلَى شُرُوطٍ، وَهِيَ أَنْ تَعْفُوَ عَن دَانِيَالٍ، وَتَرُدَّ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى أَرْضِهِمْ، وَتَجْعَلَ عَلَيْهِمْ قَهْرَمَاتًا مِنْ قَهْرَمَانَاتِكَ لِيَعْمُرُوا بِلَادَهُمْ،
 فَإِنَّهَا أَرْضُ الْمُنْشَرِّ وَالْمَحْشَرِّ، وَأَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي مَلِكِكَ، فَقَالَ
 لَهُ: أَفْعَلْ، فَأَخْبَرَنِي بِرُؤْيَايَ، فَقَالَ: أَجَلُ أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّكَ رَأَيْتَ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ
 صَنْمًا رَأْسَهُ مِنْ حَدِيدٍ، وَعُنُقَهُ مِنْ نَحَاسٍ، وَصَدْرَهُ مِنْ وَرَقٍ، وَبَطْنَهُ مِنْ ذَهَبٍ،
 وَقَائِمَتَاهُ مِنْ فَخَّارٍ، فَبَيْنَمَا أَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَدْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهُ وَجَمَالُهُ، إِذْ وَقَعَتْ
 عَلَى رَأْسِهِ صَخْرَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَدَقَّتْهُ حَتَّى اخْتَلَطَ حَدِيدُهُ وَنَحَاسُهُ وَوَرَقُهُ وَذَهَبُهُ
 وَفَخَّارُهُ، حَتَّى صَارَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ رَفَاتًا، ثُمَّ جَعَلَتْ الصَّخْرَةُ تَمْتَدُّ حَتَّى سَدَّتْ
 مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَقَالَ لَهُ: وَالنَّارُ إِذَا لَهِيَ، مَا أَخْطَأَتْ مِنْهَا حَرْفًا فَمَا
 تَأْوِيلُهَا؟ فَقَالَ لَهُ: أَمَا الصَّنَمُ؟ فَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، فَمَلِكُكَ
 أَقْوَاهُ وَأَشَدُّهُ، وَهُوَ رَأْسُهُ، وَمَلِكُ التُّرْكِ دُونَ ذَلِكَ فِي الْقُوَّةِ، وَهُوَ النُّحَاسُ، وَمَلِكُ
 الرُّومِ دُونَ ذَلِكَ فِي الْقُوَّةِ، وَهُوَ الْوَرَقُ، إِلَّا أَنَّهُ أَنْفَسُ الْمَلِكِينَ، وَمَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 دُونَ الْجَمِيعِ فِي الصَّلَابَةِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا أَنَّهُ أَشْرَفُ لِكُونِهِمْ مُسْلِمِينَ، وَدُونَ ذَلِكَ فِي
 الْمَلِكِ وَالْقُوَّةِ وَالْحَسَنِ، وَالْفَخَّارُ وَهُمْ أَمْتَانِ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لِأَحَدَاهُمَا حَمِيرٌ،
 وَالْآخَرَى كَهْلَانٌ، وَأَمَا الصَّخْرَةُ الَّتِي رَأَيْتَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ وَلَدِ
 إِسْمَاعِيلَ يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدٌ ﷺ، فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُلِ يَبْعَثُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ
 يَذُلُّ اللَّهُ بِهِ أُمَّمَ الضَّلَالِ وَالشِّرْكِ فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ بَيْنَ الْخَافِقِينَ إِلَّا دَخَلَ فِي طَاعَتِهِ،
 إِمَّا رَاغِبٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَإِمَّا مَقْهُورٌ بِالسَّيْفِ، يَهْلِكُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْ أَصْحَابِهِ بَابِلَ
 وَأَهْلَهُ، حَتَّى يَنْفَقُوا كَنُوزِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنَّهُ لِيَتَّبِعُهُ عَدَدُ نَجُومِ السَّمَاءِ، وَأَكْثَرُ
 جُنُودِ الْمَلَائِكَةِ، يَسِيرُونَ مَعَهُ حَيْثَمَا سَارَ.

فقال له: أما دانيال، فقد عفوتُ عنه، وأما بنو إسرائيل فسأنظر فيمن أبعث إليهم، فذهب من عنده إلى دانيال، فلما دنا من البئر سمعه يقول: سبحان من لا ينسى من ذكره، ولا يخيب من دعاه، فوقف ليسمع مناجاته، فقال: ادن إلي يا عزيز، فقال له: ومن أخبرك؟ فقال: الذي بعثك بالطعام، وأخبرك برؤيا الملك، فأزال الصخرة عن فم البئر، ثم أدلى إليه حبلاً، فقال له: أخرج الأسد قبلي، فإنه كان رفيقي في الجب، فاستخرج الأسد، فلما استخرجه جعل الأسد يعينه في استخراج دانيال، فلما خرج دانيال عليه السلام وضع بين يديه خبزاً ولحماً وتينا وعصييراً، فجعل دانيال يتناول الأسد من اللحم حتى شبع، فقال له عزيز: لم لا أكلت قبلُ ثم أفضلت للأسد؟ فقال له: ليس ذلك من الفتوة، فقال له عزيز: هل استوحشت من الأسد في الجب؟ فقال: كيف أستوحش من كلب ربي؟ بل كنت أستأنس به، ثم تزود عزيز، وذهب إلى الشام فأنقذهم الله تعالى من التلف بالتلف، أي من التلف الذي هو الرق والجلأء بالتلف الذي هو بختنصر من غير سبب منه ولا منهم، بل بأمر رباني، وهو الرؤيا التي أرى الله بختنصر حتى دعته إلى العلم بفضل عزيز وقومه، حتى ردهم الله إلى الشام، فبارك الله عليهم فناموا وكثروا في أقصر مدة، واجتمعت إليهم أشياعهم من جزائر البحر ومن مصر، فأخرجوا عامله، فغزاهم بختنصر^(١)، وقومه، فنصرهم الله عليه، فهزموه وقتلوا عساكره قتلاً ذريعاً^(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦].

وكذلك لما منع الله نبيه محمداً ﷺ بعمه وشد أزره بوزيرته وزوجته صديقة النساء خديجة بنت خويلد^(٣) فلما اطمأن إليهما، وركن بعض الركون توفاهما الله

(١) بختنصر: ملك بابل، عاش في الفترة ما بين ٦٠٤ إلى ٥٦١ قبل الميلاد، أغار على مصر وفتح أورشليم القدس وأحرقها وأجلى اليهود إلى بابل.

(٢) قصة الرؤيا والجب والأسد من الإسرائيليات التي لا يعول عليها. ونحن المسلمون بحمد الله في غنى عنها وعن مثيلاتها بما لدينا من التراث الصحيح الناصح.

(٣) هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشية الأسدية زوج النبي ﷺ، وأول من صدقت ببعثته مطلقاً، وكانت تدعى قبل البعثة: الطاهرة، تزوجها ﷺ قبل البعثة بخمس عشرة سنة وكانت موسرة وثبت عنه ﷺ أنه قال: «خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نساها مريم»

في عام واحد، وكان ﷺ يسمى ذلك العام عام الحزن، فنالت منه قريش ما لم تكن تطمع أن تنال منه حياة أبي طالب وخديجة، فذهب إلى أهل الطائف من ثقيف ليسندوا ظهره ويثووه حتى يبلغ رسالة ربه، فأغروا به سفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى ضرجوا عراقيبه بالدماء، فانصرف عنهم وهو مغموم، فدعا ربه بدعاء الفرج المشهور فقال: «اللهم إنك ترى ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب الطيبين، إلى من تكلمني، إلى عدو يتجهمني^(١) أو إلى صديق وليته أمري، إن لم تكن ساخطا علي، فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي ملى أركان عرشك، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل علي غضبك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» فضجت ملائكة السماوات السبع، فقال لهم الله: اذهبوا إليه، فإن استغاث بكم فأغيثوه، وإن طلب منكم أمرا فاقضوه، فبينما هو عند قرن الثعاليب، إذا بسحابة قد أقبلت عليه تؤمه، فلما دنت منه، إذا الملك يسلم عليه من السحابة، ويقول له: السلام عليك يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك وما ردوه عليك، وأنا ملك الجبال، وإن الله أمرني بطاعتك، فإن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فعلت، فقال له ﷺ: «لا بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ويوحده» فرجع إلى مكة في جوار المطعم بن عدى، فما هو إلا أن رجع ألقى الله في قلب عمه حمزة^(٢) الإسلام، فأسلم، وكان أعز فتى في قريش وأشدّه شكيمة، فكفت عنه قريش بعض الكف لعلمهم أن عمه غير مسلمه، إذ قد أسلم، ثم لما اشتد البلاء بأصحابه أمرهم بالهجرة إلى النجاشي^(٣) أصحابه ملك الحبشة، فنزلوا على

= بنت عمران» رواه مسلم وولدت له ﷺ: القاسم، وعبد الله، وبناته الأربع، وتوفيت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين، والله أعلم.

(١) تجهم: عبس في وجهه، أى استقبله بوجهه عابس.

(٢) حمزة: هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى، عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، ولد قبل النبي ﷺ بستين، وأسلم في السنة الثانية من البعثة شهد بدرًا وأبلى فيه وعقد له رسول الله ﷺ أول لواء عقد في الإسلام ولقبه أسد الله، وسماه سيد الشهداء، قتل ثلاثين شخصا قبل أن يقتل يوم أحد، وله من المآثر ما لا يحصى، استشهد رضى الله عنه في السنة الثالثة من الهجرة يوم أحد وهو دون الستين.

(٣) النجاشي: هو أصحابه من بحر النجاشي ملك الحبشة، والنجاشي لقب له، أسلم في عهد النبي =

خير جار بأعز دار، فلما بلغ قريش عزمهم عند النجاشي وكرامته لهم، غاظهم ذلك، فجمعت قريش هدايا وتحفاً، وأرسلت بها إلى النجاشي وبطارقته ليسلموا إلى عمرو بن العاص^(١) وعمارة بن الوليد أصحاب رسول الله ﷺ، وكان بين عمرو بن العاص والنجاشي صداقة، فلما أتيا النجاشي، أرسلوا إلى كل بطريق هديته على حدة، ثم أرسلوا إلى كل من زوجاته هدية، ثم قال لهم عمرو: إني متوجه إلى الملك في أمر عظيم فأعينوني، ثم أمهل النجاشي حتى خرج إلى دسكرتة^(٢) حيث تجتمع عليه بطارقته، فأتاه وسجد بين يديه على عادته، فقال له: مرحباً بحبيبي عمرو، وهل أتيتني بهدية؟ قال: أتيتك بهدايا وتحف لم آتك بمثلها قط، لكن على أمر هو هين عليك عظيم موقعه منا، فبينما هو يخاطبه، إذ جاء أصحابه بالتحف والهدايا، فأعجبت النجاشي، وفرح بها، فلما رأى ذلك من النجاشي، طمع عمرو وكان أشد شيء عليه أن يسمع كلام أصحاب محمد ﷺ، فقال له: أيها الملك إن عصبة منا سفهاء خالفوا ديننا، ولم يدخلوا في دين الملك، وقد بَعَثْنَا قَوْمًا وقومهم في أمرهم، فإنهم أعلا^(٣) بهم عينا وأعلم بتأديبهم، فقالت البطارقة: رد إليهم إخوانهم أيها الملك، فإنهم أعلا بهم عينا، فقال: دون أن أكلمهم؟! لا ها الله لا أفعل، قوم انضموا إلي، واختاروني عنمن سواي، ثم بعث إليهم، فلما جاء الرسول جعفر^(٤) وأصحابه، فزعوا إلا ما كان من جعفر، فإنه قال: والله لا نقول إلا الحق، كان فيه نجاتنا أو هلكتنا، لكن ذروني والقوم،

= ﷺ ولم يهاجر إليه، وكان ردءاً للمسلمين، ولما مات صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب.

توفي رضى الله عنه في السنة التاسعة، والله أعلم.

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) الدسكرة: الصومعة، أو بيوت للملاهي - فارسية.

(٣) كذا في الأصلين، ولعل المراد أعلم بحالهم أو أحق بهم.

(٤) جعفر: هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ابن عم النبي ﷺ، وأحد

السابقين إلى الإسلام، قال أبو هريرة فيه: ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا ولا وطئ الأرض

بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب، وكان يكنى أبا المساكين، وقال فيه رسول الله

ﷺ: «أشبهت خلقتي وخلقتي» هاجر إلى الحبشة، فأسلم النجاشي على يديه، ومنها هاجر إلى

المدينة، توفي رضى الله عنه في غزوة مؤتة، عام ثمان في جمادى الأولى وعمره أربعون سنة،

والله أعلم.

فسأكنفيكم أمرهم، فذهبوا إلى النجاشي، فلما وقفوا بالباب، قالوا: السلام عليكم. يستأذن أهل الله، فلما سمع النجاشي خطابهم، قال: مرحباً بأهل الله، فأذن لهم فدخلوا، فلما دخلوا سلموا ولم يسجدوا، فقال لهم: ألا تسجدون كما يسجد كل من دخل علي؟ فقالوا له: إنا قد جئناك بتحية الله وتحية الملائكة وتحية أهل الجنة، ثم ابتداءً جعفر الكلام، فقال: أيها الملك سل هؤلاء الذين أتوك في أمرنا، هل كنا عبيداً لهم فأبقنا؟ فسأل النجاشي عمراً فقال: لا بل كانوا أحراراً كراماً. ثم قال: أيها الملك، سلهم هل وترناهم؟ فقال: هل وتروكم؟ فقالوا: لا ولا قدر محجم، ثم قال: سلهم أيها الملك، هل أخذنا لهم نهبا؟ قال: هل أصابوا لكم نهبا؟ قال: لا، ولا قدر أنف، ثم أقبل على الملك فقال: اسمع ما أقول لك، والحق أقول، كنا قوماً أهل أوثان وشرك، يأخذ أحدنا حجراً يتخذ إحداهما صنماً يعبده، والأخرى أوثاناً لقدره، وكنا في جاهلية جهلاء، لا نحل حلالاً، ولا نحرم حراماً، حتى بعث الله منا رجلاً قد عرفنا صدقه، وأمانته، وعفته، قد أرسله الله إلينا رسولاً، وأنزل إليه كتاباً، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، فلما دعوناهم إلى الله وعبادته كذبوا الرسول الصادق، وآذونا في الله، ففررنا إليك بديننا ودمائنا، لأننا رجوناك لما لم نرج له غيرك، وآمنناك على ما لم نأمن عليه غيرك، فقال: أمسك، فإنك ذكرت أمراً عظيماً، فالتفت إلى البطارقة فقال: هلم بالإنجيل، وكان النجاشي أعلم النصارى بالكتاب، فقال لهم: افتحوا عن موضع كذا، فإن فيه نعت أحمد الذي يأتي بين عيسى والساعة، ففتحوه ودرسوا نعت محمد ﷺ، ثم التفتوا إلى جعفر، فقالوا: هو يشبه هذا الرجل إن لم يكن هو، فقالوا: لا، إنما هو ابن عمه، ثم قال النجاشي: هل تقرأون شيئاً مما أنزل عليه؟ فقال جعفر: نعم، فأمره أن يقرأ عليهم بعضاً مما أنزل عليه ﷺ، فقرأ سورة يس وسورا بعدها، فلما سمعوا القرآن أحببوا وخشعوا حتى أخضلوا مصاحفهم بالدمع، فقالوا: والله إن هذا وما أتى به عيسى ليخرجنا من مشكاة واحد، فقال له عمرو ابن العاص: إنهم ليقولون في عيسى قولاً عظيماً، فالتفت إليهم فقال: ما تقولون في عيسى؟ فقالوا نقول في عيسى ما قال الله، فقال: ما يقول الله؟ فتلا عليه جعفر قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية [آل عمران: ٥٩] ثم

قال له: ماذا يقول هو في عيسى؟ قال: هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فقال: والله إن عيسى لا يزيد على ما تقول شيئاً، ثم قال: اذهبوا فأنتم سيوم^(١) ومن ظلمكم فقد عرم^(٢)، والله لو أعطيت عليكم دبر^(٣) ذهب ما أسلمتكم، فإن الله لم يأخذ على رشوة حين ولانى أمر الحبشة، فأخذ الرشوة على أهل طاعته، ردوا إلى عمرو وأصحابه هداياهم، فرجع عمرو بخيبة، ومات عمارة بأرض الحبشة مسحوراً قد جن وتوحش، ثم أسلم النجاشي، وأسلم بطارقتة وأهل مملكته بإسلامه.

ثم لم ينشب رسول الله ﷺ أن جاءتة الأوس والخزرج، فبايعوه بيعة العقبة، وفشا الإسلام في قبائل العرب، ثم هاجر ﷺ إلى المدينة، فاجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وصارت المدينة يعسوباً^(٤) للإسلام، وقراراً للمسلمين، وذلك قوله ﷺ: «أمرت أن أهاجر إلى قرية تَأْكُلُ الْقَرْيَةَ، يقال لها: طابة»^(٥) فأراه الله أن نصرته له أنتم وأدوم من نصرة أبي طالب وخديجة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى ﴿قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] فجاءته غيرة الحق بأمداد النصر حتى ظهر أمر الله وهم كارهون، وتلك عادة الله مع أنبيائه وأوليائه، كلما اطمأنوا إلى السبب زواه عنهم، حتى إذا يئسوا من نصرة غيره والتجئوا إليه، توجهت إليهم غيرته بأمداد المنح، ومما لا تبلغه أوهامهم من الفتوحات وأنواع السرور والفرح قال الله تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وقال ﷺ في حديث قدسى يرويه عن ربه: «لا يعتمد عبد من عبادى على أحد دونى أعلم ذلك من نيته فيكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت كيدهم

(١) سيوم: كلمة حبشية ربما كان معناها: أحرار، أو ضيوفى.

(٢) عرم: كذا فى الأصلين والعرم: الشدة والخروج عن الحد، والأذى.

(٣) دبر ذهب: الدبر بالكسر المال الكثير.

(٤) العيسوب: ذكر النحل، أو رئيس القوم، والمراد مقر يأوى إليه المسلمون.

(٥) أمرت أن أهاجر... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ إلا أن البخارى ومسلما والنسائى رووه بلفظ

(أمرت بقرية تَأْكُلُ الْقَرْيَةَ يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد)

فالحديث بهذا اللفظ متفق على صحته، والله أعلم.

في خسار»^(١).

ثم اعلم أنه رضع بيته بالتلويح، كما في قوله مزجي العماء إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣].

فإن قلت: ما الموافقة بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] فالجواب أن الله تعالى يرسل الرياح فتثير السحاب من بين الخافقين، فإذا أثارته بعث إليه ملائكة، وكلهم يسوقه إلى حيث يشاء من بلاده وقيل: إن المزن تحمل، والرياح تلقح، والملائكة تسوق، والمعصرات تدر، كما تدر اللقحة باللبن.

قال أبو قيس: (من بحر المتقارب)

فأسلمتُ وجهي لمن أسلمت	له الأرض تحمل صخرًا ثقلاً
دحاها فلما رآها استوت	على الماء ألقى عليها الجبالاً ^(٢)
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت	له المزن تحمل ماءً زلالاً
إذا ما زجاها إلى بلدة	أطاعت فألقت عليها سجلاً ^(٣)

(١) هذا الكلام الذي ذكر الشيخ لا يصح إطلاقاً، لاستحالة معناه، إذ من المعلوم المسلم به أن من اعتمد على غير الله لا يمكن أن يجعل كيد أعدائه في خسار وعلى كل حال، فربما كان يقصد الحديث القدسي الطويل الذي رواه أبو تمام وابن عساكر والديلمى ولفظه: «أوحى الله إلى داود: وعزتي ما من عبد يعتصم بي دون خلقى أعرف ذلك من نيته فتكيد السماء والأرض بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه وأرسخت الهوى من تحت قدميه...» إلى آخر الحديث. والحديث فوق هذا فيه يوسف بن السفر متروك، وقال البيهقي: هو في عداد من يضع الحديث، والله أعلم.

(٢) البيت هكذا هو في النسختين إلا أن رواية البداية والنهاية له:

دحاها فلما استوت شدها سواء وأرسي عليها الجبالاً

(٣) والبيت الثاني في البداية هو:

إذا هي سيقست إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجلاً

والشعر كما هو معلوم لأمية بن أبي الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل على اختلاف في ذلك - لا

لأبي قيس -.

ويصدق قول أبي قيس هذا قوله تعالى: ﴿وَالسُّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والحاصل أن الأسباب والمسببات لله تعالى ومن الله، لا يتوصل بها إلى غرض، ولا تُجدي في تحصيل غرض، ولذلك صار ترك الأسباب مع الله سوء أدب، والاعتماد عليها شرك، والطريق بينهما وهو استعمال الأسباب من غير اعتماد عليها.

• قال الناظم رحمه الله:

٣٠ - سَيَعْلُوكَ مَرْمُوسًا سَفَىٰ فَالسَّفَاءَ دَعُ

وَحَدَّ عَنْ ذَكِيٍّ بِالْحَزْمِ فَهُوَ ذَكَاءٌ

أيها المجد في جمع الدنيا ومنعها والمنافسة فيها أقصر، فإنه سيعلوك أى يظلك وإن بلغت الغاية القصوى فيها من العز والملك والثروة.

مرموساً حال من الضمير، أى حال كونه مرموساً ملوثاً بتراب القبر.

سفى بالقصر الريح التى تجرى على وجه الأرض، أو ما تجعله على القبر من الرمال الدقيقة فأعل يعلوك.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

ونوفلٌ كان دون القوم خالصتى تُسفى الرياح عليه بين غزاة

قوله فالسفاء دع أى دع السفه وهو عدم التثبت فى الأمور، وهو ضد الرشد والحلم، وهمزة المد مبدلة من الهاء كما يقال فى هرق أرق، وحقيقة السفه: الخفيف الطائش الذى لا يستفيد ولا يستفاد منه، ولا يكظم الغيظ، ولا يطلب الفضل، ولا ينظر إلى العواقب.

وفى وصفه يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

وذى رحم قلمت أظفار ضيغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى قطيعتها تلك السفاهة والظلم

أشيد له مجدًا ويهدم طائلي وليس الذي بيني كمن شأنه الهدم
يحاول حتفى لا يحاول غيره وكالموت عندى أن يحل به غرم

قال عبد الملك^(١) بن مروان يومًا لأرباب دولته وعشيرته: ليشدنى كل واحد منكم أحسن ما بلغه من الكف عن السفية والحلم على ذوى القربى، فأشد كل رجل ما عنده حتى إذا أوعبوا قال لهم: إن كل ما ذكرتم لا يفى بالغرض، وإنما جماع ذلك وملاكه فى هذه الآيات، فأشدهم الآيات المتقدمة آنفا، فاتفقوا أنها أحسن ما قيل فى الكف عن السفية والحلم على العشير.

قوله: وحد أى مل، عن ذكى بالقصر، وهو لهب النار، إذا تم وقودها. بالحزم، وهو إفراغ القوة فى التحرر من المعاصى من غير غفلة ولا توان، قال الرسول ﷺ: «الحزم أن تشرب الماء على الماء، وجماعه الصبر والمصابرة والمرابطة» قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فجعل الفلاح من وراء هذه الشرائط الأربعة، فهو أى الحزم ذكاء، أى من علامة كمال العقل، يقال: رجل ذكى، إذا كان تام العقل، وبذلك سميت الذكاة ذكاة، لأن بها يتم إزهاق النفس من غير تعذيب، قال الرسول ﷺ: «من قتل منكم فليحسن القتلة، ومن ذبح منكم فليحسن الذبحة»^(٢) بأن يحد الشفرة ويجد فى القطع ولا يحدها وهى تنظر ولا يذبحها وصاحبها تنظر إليها، ولا يعنفها عند الإضجاع، وليسقها قبل الذبح.

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية الخليفة الفقيه، ولى الخلافة بعد أبيه مروان، شهد مقتل عثمان وهو ابن عشر، واستعمله معاوية على المدينة، وكان ناسكًا قبل الخلافة، قال نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك، جاءته الخلافة والمصحف فى يديه، فاطبقه وقال: هذا آخر العهد بك، كان من رجال الدهر ودعاة الرجال، وكان الحجاج من ذنوبه، توفى فى شوال سنة ٨٦ عن نيف وستين سنة.

(٢) حديث «من قتل منكم فليحسن القتلة»... إلخ. جزء من حديث صحيح رواه مسلم وأحمد ولفظه «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبحته». وأورده السيوطى تحت رقم (١٧٦١) وكان الشيخ نقله بالمعنى، والله أعلم.

وفى البيت من البديع الاقتباس، لأن البيت مقتبس من معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ﴾ [التحریم: ٦] أى غلاظ القلوب قد نزع الله الرحمة من قلوبهم ﴿شِدَادٌ﴾ لو شاء أحدهم لرفع أهل الأرض جميعاً بمرزبة فى دفعة واحدة، ولو أنه وضعها على جبال الدنيا لذابت كلها.

• قال الناظم رحمه الله:

٣١ - وَهَوْنٌ حَفَى أَفْضَى إِلَيْهِ حَفَاؤُهُ بِيَرٍ فَعُقْبَاهُ سَنَى وَسَنَاءُ

أى هونٌ على نفسك ما تلاقيه من حفى مطاياك بالقصر، وهو مصدر حفى الحيوان بالكسر: إذا رق أسفل رجله من مباشرة خشونة الأرض وطول المشى حتى إنه لو وطئ لبل الأرض بدمه ولو أفضى ذلك إلى حفاء رجلك أيها الراكب والمسافر. والحفى مصدر حفى الرجل: إذا مشى حافى الرجل من حفا^(١) أو انتعل.

قال الشاعر:

ألا فاحفوا أو انتعلوا أحيا نا

ونعل لأجل بر تحاوله.

وفى المثل: من عرف ما طلب هان عليه ما بذل.

وقال الشاعر: (من بحر البسيط)

لا تحسب المجد تماًراً أنت آكه لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقال غيره: (من بحر البسيط)

الجد بالجد والحرممان بالكسل فانصب تصب عن قريب غاية الأمل

وفى المثل: من جدَّ وجد.

(١) العبارة مبتورة فى (أ) و (ب) كما أن شطر البيت غير موجود فى النسخة (ب) والبيت ليس فى

(ب) كما أنه غير واضح فى (أ) والعبارة فى النسختين فيها تقديم وتأخير وغموض.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

ولذلك كان نيل المجد صعبا كثودا. فعقباه، أى فإن عاقبة أمره سنى، بالقصر: أى ضواء، وسناء، بالمد: أى رفعة، لأن الأمور بعواقبها، فإن كانت العاقبة خيرا كانت البداية باطلا، إذ خير العواقب ينسى الشر المتقدم.

كما قال الشاعر: (من بحر الطويل)

كأن الفتى لم يعر يوما إذا اكتسى ولم يك صعلوكا إذا ماسمولا

ولم يك فى بسؤس إذا بات ليلة يناغى غزالا ساجى الطرف أكحلا

وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] من النصر والظفر والثواب وحسن العاقبة فليحملكم ذلك على استطابة الألم فضلا عن الصبر عليه. وقد رثى ذلك منهم عيانا، لأنه ﷺ فى غزوة ذات الرقاع بعث رجلين من أصحابه رثية^(١) وكانا يتناوبان النوم، فنام أحدهما، وقام الآخر يصلى، فرماه بعض العدو بسهم فأصابه فترعه وثبت قائما فى صلاته، فرموه بسهم آخر، فترعه وثبت كذلك فى صلاته حتى أصابه السهم الثالث، فحينئذ انفتل من صلاته وأيقظ صاحبه، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ ولم لم توقظنى عند أول سهم؟ فقال: لما أجد فى صلاتى من اللذة، ولولا أنى خفت على رسول الله ﷺ والمسلمين ما انفتلت من صلاتى، فذهبا إلى العسكر، فأخبراه بقرب العدو، فلما رأت غطفان ذلك، فرت. ومن هذا ما روى عن عروة بن الزبير^(٢) أنه أصابته أكلة فى ركبته، وكانت تؤذيه جدا، فزعم الأطباء أنه إن لم تقطع الرجل كانت سببا لهلاكه فقالت لهم ابنته: إن أردتم ذلك فاتركوه حتى يأخذ فى حزيه من الليل فافعلوا به ما بدا لكم، فإنه لا يشعر،

(١) أى حراسا.

(٢) عروة: هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الإمام، عالم المدينة، أبو عبد الله القرشى الأسدى، أحد الفقهاء السبعة، ولد سنة ٢٣ هجرية وكان من كبار العباد، يقرأ ريع القرآن كل يوم فى المصحف نظرا ويقوم به بالليل، فما تركه إلا ليلة قطعت رجله، كان ثقة ثباتا مأمونا كثير الحديث فتيها عالما. توفى رضى الله عنه سنة ٩٤ هجرية.

ففعّلوا، ففقطعوها وحسموها وهو رضى الله عنه على حاله حين أتوه وحين ذهبوا عنه، فلما أتم ورده إذا رجله قد قطعت، فقال لهم: متى قطعت رجلى؟ فقالوا له: قطعناها وأنت تصلى، أما حسست بشيء من ذلك؟ قال: لا، إلا أنى شممت رائحة الزفت^(١). وكذلك فعل جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه يوم مؤتة، وذلك أنه لما قدموا على الشام سمعت بهم الروم والعرب، فاجتمعت لهم فى مائتى ألف، فلما بلغ أصحاب رسول الله ﷺ كثرة من تجمع لهم من الروم والعرب، أقاموا ليلتين على معان، فقال بعضهم: نبعث رسولا إلى رسول الله ﷺ نخبره بكثرة ما تجمع لنا من العرب والروم، فإما أن يمدنا، وإما أن يأمرنا بأمره، فشجعهم ابن رواحة، وقال: يا قوم، إنما هى إحدى الحسينين، إما الشهادة، وإما الظفر والغنيمة، فشجع ذلك المسلمين، ورغبهم فيما عند الله، فجعل ينشد وهم مصغون إليه، فقال: (من بحر الوافر)

جنبنا الخيل من أجأ وفرع	يخرُّ من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصوان متناً	أزلَّ كأن صفحته الأديم
أقامت ليلتين على معان	فأعقب بعد خمرتها جموم
فرحنا والجياذ مسومات	تنفّس فى مناخرها السموم
فلا وأبى معانَ لنا غنيماً ^(١)	ولو كانت بها عرب وروم
فعبأنا أعتتها فجاءت	عوايس والغبار لها يريم
بذى لُجْب كأنَّ البيض فيه	إذا برزت قواسمها النجوم
فراضية المعيشة طلّقتها	أستنا فتتكحُّ أو تقيم

فلما التحم القتال، ترجل جعفر رضى الله عنه عن فرس له أشقر، فعقره وانغمس فى العدو شاهراً سيفه، ويده الراية وهو يقول: (رجز)

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

(١) الزفت: القار.

(٢) هذه الكلمة غير واضحة فى النسختين.

والروم روم قد دنا عذابها على إن لاقيتها ضرابها

فقطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ثم قطعت شماله، فاحتضن الراية بعضديه حتى أخذها منه زيد، ثم اقتحم زيد كذلك حتى استشاط على رماح القوم، ثم أخذها عبد الله بن رواحة^(١) رضى الله عنه، ثم جعل يقول: (رجز)

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلنى فعلهما هُديت

ثم ترجل بعد تردد فى النزول، وعقر فرسه، وفعل ما فعل صاحبا، فلما مات حمل الراية رجل من بللى، فحابى بها، وجعل يقول: من يتولى رايتمكم؟ فقالوا له: أنت، فقال: لست بفاعل، فاصطاح الناس على خالد بن الوليد، فانحاز عن المشركين، وانحازوا عنه، وفى هذا اليوم وقع علم من أعلام نبوته ﷺ وهو رفعهم له بالمدينة وهم بالشام، فبينما هو بين أصحابه، إذ شخص ببصره نحو الشام، فذرفت عيناه، فقالوا: ما أبكاك يا رسول الله؟ فقال «إنه رفع إلى جعفر وعسكره، فرأيت حين ترجل عن فرسه فقهره، وقاتل حتى قتل شهيدا وقد أبلى، ثم أخذها زيد فأبلى ومات شهيدا، ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فسكت النبى ﷺ حتى رثى التغيير فى وجوه الأنصار، مخافة أن يكون صاحبهم قد أحدث حدثا لا يرضاه الله ورسوله، ثم قال: تردد هنيهة ثم تقدم فقاتل حتى قتل شهيدا، ثم أخذ الراية سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد، فانحاز بالقوم، وانحيز عنه، والله إنى لأنظر إلى معركتهم ساعتى هذه، فلما قدم البريد قال له رسول الله ﷺ: «إن شئت أخبرتنى، وإن شئت أخبرتك» فقال: بل أخبرنى يا رسول الله، فجعل ﷺ يخبره كيف قتالهم مع المشركين، وعمن أغنى ومن لم يغن، وعمن مات من المسلمين ومن مات من المشركين، وكيفية المعترك، وعمن أخذ خالد الراية، وكيف انحاز وانحيز عنه، فقال: والله إن الأمر لكما ذكرت، ما زدت ولا نقصت.

فهذه معجزة من معجزاته ﷺ، وهذا من فضائل أصحابه كرشفة عصفور من بحر زاخر، والحمد لله على ما أنعم وتم.

(١) عبد الله: هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصارى الخزرجى الشاعر المشهور، كان أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدرًا وما بعدها حتى استشهد رضى الله عنه فى السنة الثامنة فى غزوة مؤتة.

• قَالَ التَّنَازُحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

٣٢ - وَصَلَّ بِوَحْيِ الدَّاعِي الوَحَاءَ إِغَاثَةً وَبَارِ الوَلَى نَفْلًا يُحِطُّكَ وَوَلَاءٌ

قوله: صل، فعل أمر. بوحى بالقصر: الصوت على وجه الاستغاثة، الداعي، مضاف إليه ما قبله. الوحاء بالمد: السرعة والإقبال وهو منصوب بالداعي. وإغاثته، مفعول صل، أى اجعل صوت الشخص الداعي الوحاء، أى القائل فى صوته: الوحاء؟، أى السرعة، موصولا بإغاثتك.

قوله: وبار الولى فعل أمر من بارى، من المباراة، والولى لغة فى الولى وهو المطر الذى يأتى إثر الوسمى، بأن تجاريه جودا وكرما، والنفل: العطاء لله وفى الله، يحطك: يحفظك ويحرسك، ولاء بالمد، أى عناية وتولية من الله.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

وقال: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحریم: ٤].

ويقال لفلان على بنى فلان ولاء بعق أو ولادة، والولاء أيضا: الوراثه بغير النسب والصهر، والولاء: الحلف بين القبائل على المناصرة.

قال عنترة العبسى: (من بحر الطويل)

ونحن منعنا بالفروق نساءنا نطرد عنها مشغلات غواشينا

إلى أن قال:

فما وجدنا فى الحروب إشابة وما وجدنا فى الحروب مواليا

وبيته متضمن الحث على إغاثة اللهفان.

وفى قوله: «وصل بوحى الداعى الوحاء إغاثة» إشارة إلى قوله ﷺ: «من كان

فى حاجة أخيه المسلم، كان الله فى حاجته»^(١).

(١) حديث: «من كان فى حاجة أخيه المسلم»... إلخ. رواه الخرائطى فى «مكارم الأخلاق» له،

وأورده صاحب «الكشف» تحت رقم ٢٥٧٩ دون لفظ (المسلم).

وقال ﷺ: «من قضى لأخيه المؤمن حاجةً قضى الله له سبعين حاجة، ثلاثون في الدنيا، وأربعون في الآخرة، أدنى حوائج الدنيا الغنى، وأدنى حوائج الآخرة الغفران»^(١).

وقال ﷺ: «من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة».

وفي رواية: «يؤتى بأهل الحوائج يوم القيامة وكأنهم ملائكة مقربون أو أنبياء مرسلون، يشفعون فيشفعون»^(٢).

يروى أن الله يوقف عبده يوم القيامة، فيقول له: يا عبدى استحملتك فلم تحملنى، أما إنك لو حملتني لوجدت ذلك عندي، فيقول: أى رب، كيف أحملك وأنت رب العالمين؟ فيقول له: استحملك عبدى فلان فى دار الدنيا، فلم تحمله، أما إنك لو حملته لوجدت ذلك عندي، ثم يقول له: استكسوتك فلم تكسنى، فيقول: أى رب كيف أكسوك وأنت رب العالمين؟ فيقول له: إنه استكسأك عبدى فلان، فلم تكسه، أما إنك لو كسوته لوجدت ذلك عندي، ثم يقول: استطعمتُك فلم تُطعمنى، فيقول له: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول له: استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، ثم يقول له: استسقيتُك فلم تُسقىنى، فيقول: كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول له: قد استسقاك عبدى فلان، فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي،

(١) حديث «من قضى لأخيه المسلم»... إلخ. رواه الخطيب بلفظ «من قضى لأخيه حاجة من حوائج الدنيا قضى الله له اثنتين وسبعين حاجة أسهلها المغفرة» وأورده ابن الجوزى بلفظ «من أعان ملهوقاً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة، واحدة منها فى صلاح أمره كله، واثنان وسبعون درجات له عند الله عز وجل» (ص ٣٧٦ ج ٢) كشف. وقال ابن الجوزى فى هذه الرواية: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، فيه زياد وهو ابن أبى حسان، قال العقيلي: لا يعرف هذا الحديث إلا بزياد، ولم يتابع عليه، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وقال الدارقطنى: هو متروك. اهـ (ص ١٧١ ج ٢) موضوعات. ولهذا الحديث ألفاظ كثيرة كلها ضعيفة، والله أعلم.

(٢) حديث «من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا»... إلخ. جزء من حديث متفق عليه أوله «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه»... إلخ. وآخره «ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة». أما الرواية التى أولها «يؤتى بأهل الحوائج» فلم أجدها، والله أعلم.

ثم يؤمر به إلى النار، ويقول: إنما خلقتُ رحمتي للرحماء من خلقي.

يروى أن رجلا من التابعين أتى أبا هريرة رضى الله عنه فقال له: ادع الله لابنى زيد، فإنه سافر فى البحر، وإنه وقع فى نفسى الخوفُ عليه، فقال أبو هريرة رضى الله عنه: ارجع إلى بيتك، وخذ شيئاً من خالص مالك، وتصدق به على الفقراء على وجه الفداء لزيد، فإنه أسرع فى إغاثة ابنك من دعاء أبى هريرة، فرجع إلى بيته مبادراً، فأخذ شاة كانت عنده فذبحها، واشترى خبزاً كثيراً، فأطعم المساكين وهو يقول: اللهم هذا فداء ابنى زيد من البلاء، فوافى ذلك ابنه زيداً ومن معه فى السفينة وقد أشرفوا على الهلاك والغرق، فإذا رجال بيض الثياب، بيض الوجوه، كأنهم يحملون السفينة على وجه الماء، وإذا هاتف ينادى: ألا إن الفداء مقبول، وزيد مغاث، حتى بلغوا قرية من قرى الساحل، فأرخوا ذلك اليوم وتلك الساعة، فإذا هو اليوم الذى تصدق فيه أبو زيد على وجه الفداء لابنه زيد.

وأصل ذلك قوله ﷺ: «عليكم بصنائع المعروف، فإنها تقى مصارع السوء»^(١).

وقال ﷺ: «باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتعدها»^(٢).

وقال ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة»^(٣).

وقال ﷺ: «إن الله أخذ بيد الكريم، كلما عثر أقامه».

والى ذلك أشار بقوله فى عجز بيته:

(١) «عليكم بصنائع المعروف»... إلخ. حديث ضعيف أخرجه القضاعى بلفظ «صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصله الرحم تزيد فى العمر» قال صاحب

الكشف: وفيه صدقة بن عبد الله وثقه دحيم، وضعفه الجمهور (ص ٢٩ ج ٢) وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٦٦٥ بلفظ «الصدقة تمنع ميتة السوء» وقال: ضعيف، ثم عاد وحكم عليه بالوضع لوجود القاسم بن أحمد المطى. والله أعلم.

(٢) حديث «باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتعدها» حديث ضعيف رواه أبو الشيخ وابن أبى الدنيا بلفظ «فإن البلاء لا يتخطاها» وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٨٧٦ وقال: قال ابن حجر: ليس الحديث بموضوع، وأورده ابن الجوزى فى موضوعاته، والله أعلم.

(٣) حديث «داووا مرضاكم بالصدقة» ضعيف جداً، رواه البيهقى فى الشعب، وأوله «حصنوا أموالكم بالزكاة» قال صاحب الكشف: فيه فضالة بن جبير صاحب مناكير، ورواه الديلمى بلفظ «داووا مرضاكم بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة»... إلخ. وقال البيهقى: إنه منكر بهذا الإسناد (ص ٤٣٣ ج ١) كشف.

* وبار الولي نفلا يحطك ولاء * *

وقال ﷺ: «احفظ الله في الرخاء يحفظك في الشدة، احفظ الله تجده أمامك»^(١).

يروى أن العبد إذا كان يذكر الله في الرخاء ويعبده، ويتضرع إليه ويناجيه، فإذا أصابته فاقة أو بلية فدعا الله، قالت الملائكة: إلهنا صوت معروف، فيقول: نعم أجيبوه واقضوا حوائجه، وإذا كان العبد غافلاً عن ربه، فأصابته شدة أو بلية فدعا الله، قالت الملائكة: إلهنا، صوت مجهول، فيقول: ذروه، فإنه نسينا في الرخاء، فنساه في الشدة.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٣٣ - وَهَبْ ذَا الْقَصَى سَكْنَى الْقَصَاءِ وَدَعْ نَهَى

وَبِالْعَسْجِدِ اجْبُرْ مَا أَفَاتَ نَهَاءِ

وهب: أمر من الهبة، وهى تمليك من غير أخذ عوض من المملك. ذا القصى: أى صاحب النسب البعيد، وهو مصدر قصى الشئ: إذا بعد، ولذلك سمي قُصَى قُصِيًّا، لأنه تقصى عن قومه مع أخواله من قُضاعة.

قوله: سَكْنَى الْقَصَاءِ، أى أَدْنُ مِنْكَ ذَا النَّسَبِ الْبَعِيدِ تُسَكْنُهُ قُصَاءٌ دَارِكٌ بِالْمَدِّ، أى فناءها، وإذا فعلت هذا بقصى النسب، فمن باب أخرى قريبه. وفى المثل «دانق تجب وتقرب، خير من قنطار نسب مع تجنب».

قوله: ودع نهى بالقصر، أى اترك نهى فى طلب نيل المال الخسيس بل اجبر ما أفاته^(٢) واجبر ما أفسدته بالخلق النفيس وهو الودع وما شاكله من المال الخسيس، لأن النفيس لا ينال ولا يشتري بالخسيس بل اجبر ما أفاته نهاؤك، وهو كناية عن

(١) حديث «احفظ الله فى الرخاء»... إلخ. حسن رواه الطبرانى والقضاعى. وهو جزء من حديث طويل أوله «كنت رديف النبى ﷺ، فالتفت إلى فقال: يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» وفى بعض رواياته ضعف.

(٢) هذه العبارة التى هى (بل اجبر ما أفاته) موجودة فى النسخة (ب) دون (أ).

سوء صنيعك، عبر عنه بالنهى الذى هو عدم إنضاج اللحم بأنفس أموالك، وهو العسجد، أى الذهب النفيس الأحمر، إذ هو الخليق بأن يرفع من شرفك ما قدم، ويبنى من طائل عرشك ما هدم، ويقدم^(١) للعدو إذ أعد، فارفع همتك واربا بها عن سفاسف الأمور، واجنح إلى معاليها، فإذا وقعت إساءة منك إلى أحد، فامحها بأحسن شيء عندك وأنفسه، قال الرسول ﷺ «التحجب إلى الناس نصف العقل، والاقتصاد نصف العيش، والظهارة نصف الإيمان»^(٢) فكانه يقول: قرب بقصى أخلاقك الواسعة الأطراف كل من تقصى عنك إلى الفناء والأكناف لتكون من ذوى الهيئات الأشراف.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

لعمرك ما المصيبة هدم دار ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن المصيبة موت حر يموت بموته بشر كثير

ودع دنى الأخلاق كالودع، فإنه لا يلزم شعثاً ولا يرم نكتاً، بل ما أفاته عليك نهاء أخلاق غيرك هى الغاية فى الأخلاق الحميدة، والشيم الكريمة التى كنت توصف بها وتنسب إليك، أو كان فلتة من فلتات الكرام فأصلحه بعسجد أخلاقك الكريمة.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وداؤِ بليِنٍ ما جرحتَ بغِلظةٍ فطِبُّ كَلامِ المرءِ طيبٌ كَلامه

(١) فى (ب): ويقدر على العدو إذا أعد.

(٢) حديث «التحجب إلى الناس»... إلخ. ضعيف رواه البيهقى والعسكرى والديلمى والقضاعى بألفاظ مختلفة، كما أورده صاحب الكشف تحت رقم ٤٧٦ بلفظ «الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم» وقال فيه: ضعفه البيهقى وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ١٥٧ بلفظ صاحب الكشف وقال فيه: ضعيف. وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/٢٨٤) سألت أبى عن حديث رواه هشام بن عمار عن المخيس بن تميم فذكره وقال: قال أبى: هذا حديث باطل ومخيس وحفص مجهولان. اهـ.
وقال الذهبى فى ترجمة مخيس هذا: روى عنه هشام بن عمار حديثاً منكراً، وساق الحديث (ميزان).

وكنا نَعاف اللحم لنتنه وخبثه، فلا تألفه طباعنا، ولا تشتهيه نفوسنا، لأن النفوس تمجه وتعافه ولا تألفه، كما أن الخلق السيئ تنفر منه الطباع، ويعجز عن ثقله الدفاع، وتستبشع مباشرته البقاع، فإنه ليبغض إلى الأولاد، كما أن الخلق الحسن يحب إلى الأضداد. قال الشاعر: (من بحر الرجز)

الناس كالأرض ومنها همُ
من لين المس ومن خشن
فجندل تدمى به إصبع
وإثممد يجعل فى الأعين

وفيه التلويح بقوله: «ودع نهى» إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أى فلا تيمموا الخيث من الأخلاق تنفقون أو تدفعون به، فإنه لا يرتضيه لكم، كما لا يرتضى الخيث منكم فى الإنفاق، كذلك لا يرضى منكم سيئ الأخلاق، لأنه طيب، ولا يحب إلا الطيب صفةً كاختيار^(١)، وحقيقة كالحلال، لأن الله لا يمحو الخيث بالخيث، وإنما يمحو الخيث بالطيب.

أما ما فيه من الاقتباس، فإن البيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ إلى ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] وهذه الآية الكريمة من أمهات الأخلاق الكريمة والشيم، ومن جوامع الكلم والحكم، إذ لو تتبعنا تفنن أفانينها، وإيضاح أعلامها وبراهينها، لأتينا فى ذلك بمجلدات، وفى هذه الآى وأمثالها يقول رسول الله ﷺ «أدبنى ربي فأحسن تأديبي»^(٢). وناهيك من خصلة تجعل العدو ولياً حميماً، وتنبيل من تخلق بها عند الله حظاً عظيماً، وتكسب يوم القيامة أجراً جسيماً، ويكون فى العالم العلوى والسفلى محبباً

(١) فى النسختين (الخيار) والمعنى غير واضح.

(٢) حديث «أدبنى ربي فأحسن تأديبي» لا سند له ثابت عن النبي ﷺ ومعناه صحيح رواه العسكرى بسند ضعيف جدا. وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٦٤ وقال فيه: قال ابن حجر: إنه غريب ولكن معناه صحيح إلى أن قال: وأخرجه السرقسطى فى الدلائل له بسند واه. ثم قال: وبالجملة فالحديث كما قال ابن تيمية لا يعرف له إسناد ثابت عن النبي ﷺ. وقال فى اللآلئ: معناه صحيح لكن لم يأت على النبي ﷺ من طريق صحيح. وقال ابن الجوزى: لا يصح فى إسناده ضعفاء. ويتضح من كل هذه النقول أن الحديث لا يصح من حيث السند وهو صحيح قطعاً من حيث المعنى والله أعلم.

كريماً، ويكون للألد الخصم خصيماً.

يروى أن عيسى ابن مريم عليه السلام مر على ملاً من كبار بنى إسرائيل، فجعلوا يسبونهم ويقولون له: يا فاعل ابن الفاعلة، يا ساحر يابن الساحرة وهو يثنى عليهم، فقال له الحواريون في ذلك، فقال لهم: كل ينفق مما عنده، امتلأوا شراً فأنفقوا منه، وامتلاتُ خيراً فأنفقتُ منه.

وفى مثل هذا يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

وكل إناء بالذى فيه راشح وأهل الخنا والشر رشح الشرار

ويروى أن النبي ﷺ لما فتح مكة اجتمعتُ إليه قريش وهي تخاف أن يسترقها، قال لهم: يا معشر قريش ما تظنونني فاعلاً بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال لهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ولما فتح مكة أهدر دماء رجال منهم ابن الزبيرى السهمى، وكان لسان قُريش وشاعرها، وكان يبارى حسان بن ثابت^(١) فى هجو النبي ﷺ والمسلمين، فلما فتح النبي ﷺ مكة فر إلى نجران، فأرسل إليه حسان بيتاً واحداً، وهو قوله: (من بحر الكامل)

لا تعدمن رجلا أحلك بغضه نجران فى عيش أجب^(٢) لثيم

فلما بلغه البيتُ دبّتُ فى مفارق رأسه نخوة قُريش، فقال: والله لأذهبن إلى ابن عمى [وإن] كان فى ذلك حتفى أو حياتى، فقدم على النبي ﷺ منصرفه من حرب هوازن وأتى بقصيدته التى أولها قوله: (من بحر الكامل)

منع الرقاد بلابلٌ وهموم والليل معتلج^(٣) الرواق بهيم

عما أتانى أن أحمد لامنى فيه فبتُ كأنى محموم

يا خير من حملت على أوصالها عيرانة^(٤) سرح اليدين غشوم

(١) حسان: هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام وستأتى ترجمته.

(٢) أجب: مقطوع، والمراد أنه ناقص حقير.

(٣) معتلج: متلاطم.

(٤) سرح اليدين: سريعة الخطو أو المشى.

إني لمعتذر إليك من الذي
أيام تأمرني بأغوى^(١) خطة
وأمد أسباب الردى ويقودنى
فاليوم آمن بالنبي محمدٍ
مضتِ العداوة وانقضت أسبابها
فاغفر فدىً لك والدىَّ كلاهما
وعليك من علم المليك علامة
أعطاك بعد محبةٍ برهانه
ولقد شهدت بأن دينك صادق
والله يشهد أن أحمد مصطقى
فرعٌ علا بنيانه من هاشم

فعفا عنه رسول الله ﷺ، وأكرمه وأدناه، حتى كأنه لم يعمل ظلماً، ولم يباشر
جرماً، وآلى على نفسه أن لا ينشد قصيدة في هضم الإسلام إلا أنشد مثلها في
تعظيمه وذكر محاسنه.

ومن أحسن ما قيل في هذا النمط قول الشاعر في الجناس التأم: (من المتقارب)

خذ العفو وأمر بعرف كما
ولن بالكلام لكل الأتأم
أمرت وأعرض عن الجاهلين
فمستحسن لذوى الجاه لين
والبيت الأول من أتم أنواع الاقتباس.

(١) فى ب: أشقى.

• قال الناظم رحمه الله:

٣٤ - وَكَمْ ذِي سَخَىٰ أَعْرَىٰ السَّخَاءِ بِيْذِهِ
لَأَنْتَقَىٰ بَرَّتْ أَنْقَاءَهُ بِرَحَاءِ

قوله: وكَمْ، أى كثير من جمل. ذى، أى صاحب. سَخَىٰ، بالقصر: أى ظلع يصيبه من وثبة، وهو مصدر من سخا يسخو سَخَىٰ وسَخَاءٌ. قوله: أَعْرَىٰ السَّخَاءِ بالمد، أى هيج الجود ربه وأغراه إلى بذله، أى إلى إعطائه لرجل أنتقى بالقصر، أى دقيق العصب من صفة الأنتقى المُعْطَىٰ أنه قد برت أنقائه بالمد^(١) جمع نقو بالكسر، وهو كل عظم فيه مخ برحاء، والبرحاء: الشدة، أى أنحلت البرحاء عظامه، ذات أنتقى، أى المخ، فالسَخَاءُ الممدود مرفوع على أنه فاعل أَعْرَىٰ، ولام لأنتقى متعلقة ببذله، والمقصود التزهيد فيما تتنافس فيه النفوس من متاع الدنيا النفيس، فإنه معرض للآفات التى تقتضى الرغبة عنه وبذله.

وقوله: برت من البرى، وهو إزالة اللحم عن العظم، كما يرى القلم بالسكين.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

* والشوق والوصل بييرنى^(٢) وييرنى *

ومن أحسن ما قيل فى التزهيد فى الدنيا من أجل ما يعرض لها من الآفات، قول صاحب الرياض:

إخوانى ألبسوا الدنيا جبة الهجر واسمعوا فيها من مواعظ الزجر
واحسبوها يوماً صُمْتُموه للأجر وصابروا لياليها فما أسرع إتيان الفجر
ولا تبعوا الظن باليقين فحرام بيع الحق^(٣) الذى هو من علامات السفه.

(١) العبارة مشوشة وهى موجودة هكذا فى النسختين.

(٢) كذا فى الأصلين ولعل المراد بييرنى الأولى من البرى الذى هو الانتحال، والثانية من البرء الذى هو الشفاء فتكون الأولى راجعة للشوق والثانية راجعة للوصل.

(٣) كذا فى النسختين والكلام مبتور ولعل تمامه فحرام بيع الحق الذى هو اليقين بالباطل الذى هو الظن لأن ذلك من علامات السفه، والله أعلم.

ثم أنشد فقال: (من بحر البسيط)

ودون ما يأمل التنغيص والأجل
كمنزول الركب حلوا ثمت ارتحلوا
وصفوها كدر وملكها دول
فما يسوغ له لبس ولا جذل
به تظل بنات الدهر تتنصل^(١)
وكل عثرة رجل عندها جلل
والقبر وارث ما يسعى له الرجل

يا أيها الذي قد غره الأمل
ألا ترى أنما الدنيا وزينتها
حُوفها رصد وعيشها نكد
تظل تُفزعُ بالروعات طالبها
كأنه للمنايا والردى غرض
والنفس هاربةٌ والموتُ يتبعها
والمرء يسعى بما يسعى لوارثه

وفي مثل هذا يقول: (من بحر الطويل)

له عن عدوٍّ في ثياب صديق
شواظ لهيب أو دخان حريق
قراراً فما دنياك غير طريق
ولا يتأذى أهلها بمضيق
إلى منزل ناء المحل سحيق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
ومأ يعدم الدنيا الدنية أهلها
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها
عليك بدار لا تزول ظلالها
وقل لغريب الدار إنك راحل

وقال غيره: (من بحر الطويل)

قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
إلى قبره غير الذي كان يعمل
يقيم قليلاً عندهم ثم يرحل

تزود قريناً من فعالك إنما
ولن يصحب الإنسان من بعد موته
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله

وقال غيره:

طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
أنها ليست لحيّ وطننا

إن لله عباداً فطنا
فكروا فيها فلما أيقنوا

(١) انتضل السهم: أخرجه، والمراد تعبت به.

جعلوها لجةً واتخذوا صالح الأعمال فيها سفناً
نزلوا فيها رجال قَبَلنا رحلوا عنها واخلوها لنا

وقال مطر القَارِي: غلبني النوم ليلةً فنمت عن حزبي، فرأيت فيما يرى النائم جاريةً كأنها القمر المستتم ومعها رَقٌّ، فقالت: أتقرأ أيها الشيخ؟ قلت: نعم، قالت: اقرأ هذا الكتاب، ففتحتُه، فإذا فيه مكتوب: (من بحر الوافر)

ألَهتكَ اللذائذ والأمانى عن الفردوس والظلل الدوانى
ولذة نومة عن خير عيش مع الخيرات فى غرف الجنان
تعيش مخلداً لا موت فيها وتبقى فى الجنان مع الحسان
تيقظ من منامك إن خيراً من النوم التهجد بالقران

وقال مالك بن دينار: كان لى جار بطّال، فبينما هو ذات ليلة فى بطالته ولهوه، إذ سمع هاتفا ينشد: (من بحر البسيط)

يا أهل لذة دار لا دوام لها إن المنايا تُبِيد اللهُو واللعبا
كم قد رأيناه مسروراً ببلدته أمسى فريداً من الأهلين مغتربا

قال: فتاب وحسن رجوعه إلى الله، والحمد لله.

وقال مالك بن دينار^(١): ترك الرجل درهماً من حرام إذا تركه من خشية الله خير له من أن يتصدق بمائة ألف دينار، ونحو هذا عن سحنون^(٢).

قال عياض فى «المدارك»: قال يحيى بن عمر: كان سحنون يقول: ترك الحرام أفضل من جميع عبادة الله تعالى، وترك الحلال لله أفضل من سبعين ألف حجة تتبعها سبعون ألف عمرةً مبرورة متقبلة، وأفضل من سبعين ألف فرس فى سبيل

(١) مالك بن دينار البصرى أبو يحيى من رواة الحديث المعروفين والزهاد المشهورين كان ورعاً يأكل من كسب يده ويكتب المصاحف بالأجر توفى رحمه الله بالبصرة عام (١٣١).

(٢) سحنون: هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى قاض فقيه انتهت إليه رئاسة العلم فى المغرب كان زاهداً لا يهاب سلطاناً فى حق يقوله أصله من الشام ومولده بالقيروان، ولى القضاء بها سنة ٢٣٤ إلى أن مات، كان رفيع القدر أبى النفس، توفى رحمه الله عام ٢٤٠ هجرية، والله أعلم.

الله بزادها وسلاحها ومن سبعين ألف بدنة يهديها إلى بيت الله العتيق، وأفضل من عتق سبعين رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل، فبلغ كلامه هذا عبد الجبار بن خالد، فقال: نعم، وأفضل من ملء الأرض إلى عنان السماء ذهباً وفضة كسبت من حلال، وأنفقت في سبيل الله لا يراد بها إلا وجه الله تعالى. انتهى من «المدارك» من ترجمة سحنون.

وقال القشيري في «التحبير»: قيل: يؤخذ بالدائق من الفضة سبعمائة صلاة مقبولة، فتعطى للخصم يوم القيامة. قال أبو محمد بن عتاب في «شفائه» قال مالك بن دينار: لو أن رجلاً نادى بباب المسجد: أخرجوا شركم رجلاً ما سبقني أحد إلى الباب قال: فبلغ قوله عبد الله بن المبارك، فقال: بهذا صار مالك بن دينار مالكاً.

وعن خلف بن تميم قال: التقى إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي بمكة، فقال إبراهيم لشقيق: ما كان بدء أمرك الذي بلغك هذا؟ فقال: سرت يوماً في بعض الفلوات، فرأيت طائراً مكسور الجناحين، فقلت: من أين يأتي رزق هذا؟ فقعدتُ بحذائه، فإذا أنا بطائر قد أقبل وفي منقاره جثة جرادة، فوضعها في منقار الطائر المكسور الجناحين، فقلت لنفسي: يا نفس الذي قيض الطير الصحيح للطير المكسور في هذه الفلاة، قادر على أن يرزقني حيثما كنت، فتركت التكبسب، واشتغلت بالعبادة. وذكر ابن عتاب في ترجمة شقيق البلخي أنه أوصى حاتماً الأصم أن لا يجلس في الأسواق، فإن الجلوس فيها يبعد من رحمة الله، وهذا يوافق ما ذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» له ولفظه: ولما كثرت الباطل بالأسواق، وظهرت فيها المناكر، كره علماءنا دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين تنزيها لهم عن البقاع التي يعصى الله فيها، وإذا كره لهم دخولها، فالجلوس بها أشد، إذ لا يخلو الجالس بها من مشاهدة منكر.

وقال سهل^(١) بن عبد الله: من خاف الله أمنه، ومن رجا منه أمراً بلغه، ومن تقرب إليه قبله، ومن توكل عليه لم يكله إلى نفسه.

(١) سهل بن عبد الله بن يونس التستري أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعبوب الأفعال، له كتاب في التفسير وغير ذلك توفي عام (٣٨٣) هجرية.

وقال: أعمال الخير يعملها البر والفاجر، والمعاصي لا يتجنبها إلا الصديقون، وقال: ومن أخلاق الصديقين وسيرهم أن لا يحلفوا بالله لا صادقين ولا كاذبين، وأن لا يغتابوا أحداً من خلق الله، وأن لا يشبعوا بطونهم، وإذا وعدوا لم يخلفوا.

وقال: ما من يوم إلا والله عز وجل يقول: يابن آدم ما تنصفتني، أذكرك وتسناني، وأدعوك إلى وتذهب إلى غيري، وأدفع عنك البلياء وأنت معتكف على الخطايا، فماذا تقول إذا أتيتني غداً؟

وقال: علامة حب الله عز وجل حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ، اتباع سنته.

ومن أولى ما ينبغي اجتنابه من زخارف الدنيا وشهواتها العاجلة: النساء، لأنهن حبائل الشيطان. قال الشميظ بن عجلان: ما خلا رجل بامرأة ليست منه بمحرم إلا بسط الشيطان حبائله بينهما، ودعا كل عضو منها إلى كل عضو منه، وكانا في سخط الله حتى يفترقا، وما من نظرة تنظر إليه أو ينظر إليها إلا هويها بها في النار مائة عام.

وقال رضى الله عنه: من رضى بالفسق فهو من أهله، ومن رضى أن يعصى الله لم يرفع الله له عملاً.

وقال: إن الله تعالى جعل قوة المؤمن في قلبه، ولم يجعلها في أعضائه، ألا ترى أن الشيخ يكون ضعيفاً يصوم الهواجر، ويقوم الدياجر^(١)، والشاب يعجز عن ذلك.

قال عبد الله بن شميظ: سمعت أبي يقول: إن المؤمن أبصر الدنيا فأنزلها حيث أنزلها الله، فإن هي أقبلت عليه قال: لا مرحباً بك ولا أهلاً، والله ما أظنك جئت بخير، وما فيك من خير، إلا أن أفتدى بك من النار، وأطلب بك الجنة، فإن أدبرت عنه قال: عليك العفى، وعلى من يتبعك نفسه السفى، الحمد لله الذى صرف عنى بليتك وشرك.

وقال محمد بن واسع: بينما أنا قائم أصلى وأنا يومئذ غلام، إذا أنا برجل على

(١) الدياجر: الظلم.

فرس فقال: يا غلام، عليك بالبر والتقوى، فإن البر والتقوى يهديان إلى الإيمان، وإياك والكذب والفجور، فإن الفجور والكذب يهديان إلى النار، ثم قال: يا بن أخى اصحب أولياء الله، فقلت: بأى شىء أعرف أولياء الله؟ فقال: إن أولياء الله، العفلاء الحذرون المسارعون فى رضوان الله، الراغبون له، فإذا رأيت أهل هذه الصفة فاقرب منهم، فإنهم أولياء الله، فقلت له: كيف أعرف أهل النفاق والكذب والفجور؟ فقال: أولئك قوم إذا رأيتهم بأباهم قلبك، ولا يقبلهم عقلك، وإذا سمعت كلامهم سمعت كلاماً لا منفعة له، وإياك أن تصحب أهل الخلاف، قلت: ومن أهل الخلاف؟ قال: المفرقون بين الكتاب والسنة، أولئك عبيد أهوائهم، تراهم مصطحبين وقلوبهم يلعن بعضهم بعضاً، فاحذر هؤلاء، وعليك بالصلاة والتقرب إلى الله عز وجل بالنوافل، فإنك إذا كنت كذلك كنت شاكراً عالمًا. قال: ثم التفت فلم أر أحداً.

ومن وصايا وهب بن منبه: أكثر من ذكر الموت، وقصر أملك، وخطة الثالثة إذا كنت أصبتها ظفرت بالغاية القصوى وألقيت بها عنك حملاً ثقيلاً وحملت أمرى على من هو أقوى عليه منك؛ قال: ما هى؟ قال: التوكل على الله سبحانه وتعالى. قال أحمد بن حرب: بلغنا أن النبى ﷺ قال: «من أطاع الله فقد ذكره وإن قل صيامه وصلاته وتلاوته القرآن»^(١).

وبلغنا عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس»^(٢).

(١) حديث «من أطاع الله»... إلخ. رواه الطبرانى، وأورده السيوطى تحت رقم ٨٤٦٣ وفيه زيادة: «ومن عصى الله لم يذكره وإن كثرت صلته وصيامه وتلاوته القرآن»، قال المناوى: قال الهيثمى: وفيه الهيثم بن جماز وهو متروك (٦/٧٠).

والغريب أن السيوطى رمز له بالحسن، إلا أن المناوى تعقبه.

(٢) حديث: «كن ورعاً تكن أعبد الناس»... إلخ. هذا أول حديث رواه البيهقى والقضاعى، وهو ضعيف جداً.

وأورده السيوطى فى جامعه تحت رقم ٦٤٢٢ ورمز له بالضعف، قال شارحه المناوى: قال العلائى وأبو رجاء: متكلم فيه، وأقول أيضاً: فيه، يزيد بن سنان أورده الذهبى فى الضعفاء، قال: يرى القدر وبه يعرف ٥٢/٥ فيض.

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»^(١).

وعن وهب المكي أنه قال: إذا كانت العبادة الصلاة والصيام فما أيسرها وإنما العبادة الورع.

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ما تقبل منكم إلا بورع صادق».

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «جلساء الله غداً أهل الورع والزهد في الدنيا»^(٢).

وبلغنا عن كههمس أنه قال: قال الله سبحانه لموسى عليه السلام: إنه لم يتزين إلى المتزينون بشيء خير من الزهد في الدنيا، ولم يتقرب إلى المتقربون بشيء خير من الورع عما حرمت. قال: يا رب، فبم أثبتهم؟ قال: أما الزاهدون في الدنيا فإني أثبتهم بالجنة يتبوؤون منها حيث شاءوا. وأما الورعون فإنه لم يخطر خاطر الحساب يوم القيامة إلا ناقشته ونصبتة للحساب إلا أهل الورع فإني أجلبهم وأستحيي منهم أن أسألهم عن شيء، وأما أهل الدموع فإنهم سكان الرفيق الأعلى. جعلنا الله من جملتهم وأن يحشرنا في زمرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين.

• قال الناظم رحمه الله:

٣٥ - وَعَجَلَى لَدَى الْعَجَلَاءِ حَنْتُ لِبَارِقٍ

بِغَمَىٍّ وَلِلْغَمَاءِ مِنْهُ ضِيَاءٌ^(٣)

أى ورب امرأة عجلى بالقصر: أنثى العجلان، يقال: رجل عجلان وامرأة

(١) (فضل العلم: زيادته). وحديث «فضل العلم»... إلخ. أورده ابن عبد البر فى جامع بيان العلم (١٧/١).

(٢) حديث «جلساء الله غدا أهل الورع»... إلخ. ضعيف رواه الديلمى وابن لال وأورده السيوطى تحت رقم ٣٥٩٧ ورمز له بالضعف، وقال شارحه المناوى: إسناده ضعيف (٣/٣٥٠).

(٣) فى النسخة (أ): (بغمى ولا غماء ثم تناء) وعلى هذه الرواية شرح الشيخ رحمه الله.

عجلى كثكلى وثكلان. لدى: أى عند المكان المسمى بالعجلاء، بالمد. حنت: أى اشتاقت إلى إليها لأجل رؤية بارق لمع من جهته بليلة غمى، بالقصر: أى غم فيها الهلال، وهو فعل من الأفعال التى لا تأتى إلا مبنية للمجهول وهى: غم وحم وسقط وحن وكف وطل، فى حال كونها على فرس غماء، بالمد، أى: مستورة الجبهة بشعر الناصية، ولا يختص ذلك بالخييل؛ فهى لأجل ذلك غماء. ثم تناء أى: تنهض. مضارع أئناها أى: أنهضها، مبنى لما لم يسم فاعله.

والمقصود أن صفاء هذه الدار مشوب بالأكدار، وحلوهما متعقب بالمرارة وقد تعذرت فيها الأوطار، فيحمل ذلك الأحرار على استعمال الأسفار، واقتحام الأخطار، واعتساف الأقفار، والإدلاج فى ظلمات الليل على متون العتاق من الخيل، حتى يتسبب عن ذلك الحنين لرؤية البارق، وطلوع الشارق، بقلب خافق، لأجل أسى غير موافق؛ ولذلك قال ﷺ: «لأن أموت بين شعبتى رحلى فى طلب الحلال أحب إلى من أن أموت غازياً فى سبيل الله».

ويروى أن رجلاً من الأنصار كان كثير الإقبال والإدبار فى طلب الحلال، وكان قوياً شديداً، وكان كلما قدم من سفر أول ما يبدأ به أن يدخل على رسول الله ﷺ ويستصحب معه مقدوره من الهدية، فدخل عليه ذات يوم وعنده أبو بكر وعمر فقالا: ليت قوته يا رسول الله كانت فى سبيل الله، فقال ﷺ: «أتريدان بسبيل الله الجهاد؟ قالوا: نعم، قال: ما الجهاد بأفضل مما هو فيه إن صحت نيته».

وقال ﷺ: «إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا صيام ولا حج ولا جهاد إنما يكفرها الكد فى طلب الحلال»^(١).

وقال ﷺ: «من ضاعت دنياه فأخرته أضيع».

وقال ﷺ: «اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»^(٢).

(١) «إن من الذنوب ذنوباً»... إلخ. ضعيف رواه الطبرانى وأبو نعيم والخطيب، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٧٨٣ وأورده صاحب الإحياء ٣٣/٢ مختصراً، قال العراقى: وسنده ضعيف.

(٢) حديث «اعمل لدينك»... إلخ. لا أصل له مرفوعاً، رواه ابن قتيبة فى غريب الحديث له موقوفاً، وابن المبارك فى الزهد، والبيهقى مرفوعاً بسند ضعيف، وعنهم الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٨ وقال: لا أصل له مرفوعاً، والله أعلم.

فهذا من الأحاديث التي جمعت من العلوم ما لا يدخل تحت حصر .

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

فإنما رجلُ الدنيا وواحدُها مَنْ لا يعوِّكُ في الدنيا على رجلٍ

وقال غيره: (من بحر الكامل)

احتلُّ لنفسك أيها المحتالُ ومن المروءة أن يرى لك مالُ

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥]

لأديانكم ومروءاتكم .

وقال صلى الله عليه وسلم: «ناقش عند درهمك فإن المغبون لا مأجور ولا مشكور» .

• قال الناظم رحمه الله:

٣٦ - وأظمى لَدَى الْأَظْمَاءِ يَنْفَعُ مَوْرِدًا وَإِنْ بَعَدَتْ عَنْهُ رَحَى وَرَحَاءُ

أى: رب رمح أظمى أى: سريع الورد عند الهيجاء لتعطش صاحبه إلى ملاقاته الأقران؛ فيورده من نجيع أجوافهم حتى يرويه، فلما كثر وقوع ذلك منهما صار بذلك الرمح وكأنه اكتسب الظماً من سريان حال حامله إليه لم يكن جباناً ولا معرداً^(١).

قال حسان^(٢) رضى الله عنه فى قصيدته المشهورة: (من بحر الوافر)

عدمنا خيلنا إن لم تروها تُشير النقع موعدها كداء

(١) معرداً: هارياً:

(٢) حسان: هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصارى الخزرجى ثم النجارى شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو عبيدة: فضل حسان على الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى صلى الله عليه وسلم فى أيام النبوة، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام. ومع ذلك يوصف بالجن، كان صلى الله عليه وسلم يقول له: «أجبت عنى، اللهم أيدى بروح القدس» .

وقال له: «اهجهم وجبريل معك». مات رضى الله عنه بعد سنة أربعين وعمره مائة وعشرون سنة. ويعد حسان من المخضرمين، عاش فى الإسلام ستين سنة وفى الجاهلية ستين سنة، والله أعلم.

يَنَازِعْنَ الْأَعْنَةَ مَصْعَدَاتٍ عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلَ الظَّمَاءُ

وأظمى: نعت لمحذوف. ولدى: بمعنى عند. الأظماء: جمع ظمء، بالكسر، وهو ما بين الشريبتين، فينفعه رمحه إذ قد تعود ذلك وإن بعدت عن ذلك المورد رحي، بالقصر: أى أحواته في الحرب المتكاثرون الذين يدورون في الحروب كدوران الرحي عندما تطحن فلا تجاوز مركزها وإن دارت ولا تسعى في غير توهين ما صادته حتى تأتي على آخره. والرحاء، بالمد: لغة شاذة في رحي: الطاحونة، وإنما أتى بها مراعاة للازدواج.

وفى البيت من البديع الكناية مع كونه مفرغاً في قالب التمثيل؛ فكنى عن الحزم بالرمح، وعن العزم بالإيراد، وعن الشدائد بالأظماء، فالنحرير السميدع المقدام الذى قد أعد للأمر أقرانها إذا ناب خطب مذهب أضمر فى نفسه أن ليس لرده غيره؛ فيمتطى جواد عزمه، ويعتقل رمح حزمه، وقد لبس درع صبره، وأفرغ على رأسه قوس خيره، وتقلد سيف اعتماده، وأخذ جنة اعتقاده، فناهده ثم جاهده، فلا يفتح الخطب باب ريح حرب إلا فتح عليه إعصارها، حتى يحقق خبيتها وجسارها، فيصير ليلها نهاراً وصرحها غباراً، فلا يبالي إن بعدت عنه رحي قومه لكفايته بعزمه وحزمه وجلده، فهو واحد نسجه وفريد عصره، كما قالت عائشة رضى الله عنها: عمر نسيج وحده.

وقال ابن دريد: (من بحر الرجز)

والناس ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عنى

وقال رضي الله عنه: «الناس اليوم كمائة من الإبل لا تكاد تجد فيها راحلة»، وفى المثل: «رب رجل كألف وألف كأف».

وفى مثل هذا يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرةٍ يرى غمرات الموت ثم يزورها

يروى أن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص الأموى وكان سيداً لبيياً مقداماً سرياً^(١) متنسكاً، وكان قد أعطى التأييد على كافة المشركين وخصوصاً الروم،

(١) السرى: السيد، والسرى: النهر الصغير.

وكانوا لا يملئون صدره ولا يهولونه، وكان إذا رأى منهم جمعا تقدم في نحورهم وهو يقول لأصحابه: «غمرات ثم تنجلي» وكانوا إذا رأوه أيقنوا بالغلبة، وكان كثيراً ما يغزو في البحر، ولقد انتهى في غزوه إلى قرى وجزائر في البحر لم يبلغها غاز قبله، وكان يذهب بنفسه طليعة ليتجسس أخبار العدو ويطلع على عوراتهم، فلما أراد الله كرامته بالشهادة ذهب طليعة في زورق صغير مظهراً أنه تاجر، فلقبته عجوز من عجائز الروم فقالت له: أسألك بدينك ودين نبيك إلا ما نفعتنى؛ فحثا لها في ثوبها من التبر حثيات ولم ينظر إلى ما أعطى ولا إلى ما بقي؛ فرجعت إلى الروم فقالت: هل لكم في سعيد بن عمرو بن سعيد؟ فقالوا لها: أنى لك سعيد وقد أباد الروم ودوخ صناديدها؟ فقالت: والله إنه لهو، فقالوا: تقدمت لك به معرفة؟ قالت: لا ولكني رأيت رجلاً يحثو حثو الملوك ولا يقبض قبض التجار، ورأيت وجهاً منيراً كأنه البدر السافر، والله ما هو بوجه تاجر؛ فثارت عليه أعلاج الروم من كل جانب فقتلوه، فقدم الجيش أميراً، فلما التحم الحرب جعل الأمير يدمر القوم ويقول: تقدموا لعنكم الله؛ فقالت له بنت سعيد: ما هكذا كان أبي يقول؛ فقال: ما كان يقول؟ قالت: كان يدفع في نحور القوم ويقول: غمرات ثم تنجلي. فانهزم جيش المسلمين.

وفي سعيد هذا يقول الشاعر: (من بحر الوافر)

ترى الغر الجحاح من قريش إذا ما الأمر في الحدثن غالاً^(١)
قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالاً

ويروى أن أبا ليلي العبسي انفرد عن حيه يوماً في طعنه وإبله، فبينما هو يسير إذ غشيته خيل العدو وكان قد اعتقل رمحه فنتسيه من شدة الدهش؛ فقال له بعض القوم: يا أبا ليلي إن رميت إلينا برمحك تركنا لك طعنك، فقال: لا أبا لك أو معي رمحي؟ فنظر فإذا معه رمحه، فأخذه وكر عليهم، فطعن رجلاً فدق صلبه، ثم طعن رجلاً آخر فدق صلبه، ثم طعن رجلاً ثالثاً فدق صلبه، ثم جعل يستنقذ منهم الإبل وهو يقول: (من بحر الرجز)

(١) البيتان قالهما الفرزدق في سعيد بن العاص بن أمية لا في سعيد بن عمرو كما قال الشيخ؛ انظر سير أعلام النبلاء (٣/٤٤٤).

ردوا على دانيها الأقصيا إني لها بالمشرفيَّ حاميا
ذكرتني الطعن وكنت ناسيا أنا أبو ليلى ونعم الداعيا

وممن كان يستغنى بنفسه عن الجيوش مروان القرظ ابن ظالم العبسي؛ وذلك أنه لما قتل عمرو ملاعب الأسنه ابن جعفر بن كلاب العامري ابن عمه علم أنه لا ينجو منه ففر إلى النعمان، فلما أتاه قال له: يا نعمان أجرتني فإني عملت دمًا ثقيلاً، قال: لا تخف فإنك قد نجوت ووقعت في جوار لا يضام وكنف لا يرام. فلما سمع مروان موت ابن عمه قال لبني عبس: يا بني عبس، اشتغلوا بحربكم فإني ذاهب إلى عمرو ملاعب الأسنه لأقتله. فقال له: ومن لك بقتله وقد دخل في جوار النعمان؟ فقال: والله لأقتلنه ولو كان في حجره.

ثم أخذ أهبطه وسافر إلى العراق، فلما وصل العراق دخل على الملك وكان ملاعب الأسنه لا يأكل إلا معه فوجد الملك يؤاكل عمرًا وأخاه تمرًا، فحيًا الملك وأقبل عليه ودعاه إلى المؤكلة، فأخذ بيده تمرًا؛ فقال له العامري: يا مروان، قتلت ابن عمك وأفرغت لك رئاسة بني عبس، فجعل يرتعد والتمر يتساقط من يده وهو يقول: أنت قتلتني؟ واحمرت عيناه وانزع^(١)؛ فأشار النعمان إلى عمرو بالانصراف؛ فخرج هو وأخوه، فقال الملك: يا مروان، هل لك في المال؟ فقال: أبيت اللعن أيها الملك، إن دماء بني دواره أشرف من أن تباع بالأموال فقال: ذلك خير لك من الفوات فإنه دخل جوارى، فقال مروان: كفاني شرقًا أن لا يجير عليَّ غيرك، ولئن أجرته عليَّ فلن تجير أكفاه من أبناء عمه.

فلما خرج مروان من عند الملك دخل عليه عمرو فقال له: أيها الملك إني خفت على نفسي من هذا الفاتك وإنه لم يأت إلا لشر، فقال: أتخافه وأنت تحت جوارى وفي مستقر ملكي؟! فقال: أبيت اللعن إن بني رواحة نكد أباء؛ وكان النعمان قد بنى لعمرو وأخيه قبةً خارج القصر، فقال له: أعطيك سلسلة فطوق بها قبتك؛ فأخذ السلسلة وطوق بها قبته ونام بها هو وأخوه. فلما ذهب وهن من الليل ذهب مروان إلى القبة فإذا هو بها مطوقة بالسلسلة؛ فضربها بسيفه فقطعها

(١) انزع: أصابته رعدة، وأصل الزمع رعدة تصيب الإنسان إذا هم بأمر عظيم.

وشق القبة ودخل عليهما فأيقظ عمرًا وقال له: تأهب يا قاتل فلان؛ فلبس أهبطه، فقتله وأخذ درعه وسلاحه وانصرف، وترك أخاه، فأقبل أخوه يقول: واسوء جواراه؛ قال له: وما ذاك؟ قال: إن مروان قتل أخي عمرًا، قال له: كيف وجد السبيل إليه؟ قال: لو وجد دونه جبالاً لهدّه حتى يخلص إليه! فقال له: ما يرضيك؟ أنبعث معك الدوسر حتى تقتله وتبيد قومه؟ فقال: أجل أيها الملك يرضيني ذلك كل الرضى، فاحقوه، فجعل يطاردهم حتى قتل منهم رجالاً واستنقذ منهم خيولاً، ثم رجعوا بخيبة، وسار إلى أهله وقد أدرك وتره وشفى غيظه وأخفر الملك في مستقر سلطانه مع ما أتى به من الغنيمة والذكر والشرف ورفع الصيت، وحكايات مثل هذا عن صنديد العرب تخرج عن قصد الاختصار.

ومنهم البراض الكناني وفيه يقول الشاعر: (من بحر الخفيف)

والفتى من تُعرِّفه الليالي والقيان كالحية النضاضِ
وله بالزمان في كل يوم فتكةٌ مثلُ فتكة البراضِ

ومنهم ربيعة بن مكدم الكناني، وهو المعروف بحامي الظعن، وكان فتىً كما^(١)، فبينما هو يسير مع ظعن فيه أمه إذ غشيتهم خيل كثيفة من سليم، فجعل يطاردهم عن الظعن ويطردهم حتى كفهم وهابوه بعد ما قتل منهم رجالاً، فأصابه سبهم غرب^(٢) فأتى أمه فقال: اسقني ماء واعصبي لى هذا الجرح فإني هالك لكن سأحميكن ميتاً كما حميتكن حياً؛ فقالت له: لن يقوتك الماء؛ فاذهب فكف القوم، فإنك إذا شربت استرخيت، ثم قال: (رجز)

ضمي على العصب أم سيارٍ فقد رزئت فتى كالدینارِ

فجعلت تعصب جرحه وتقول: (رجز)

إننا بنى ربيعة بن مالك مرزأ خيارنا كذلك

(٣)

ما بين مقتول وبين هالك

(١) بياض في النسختين.

(٢) غرب: طائش.

(٣) هكذا في النسختين.

ثم كر راجعاً إلى القوم، ووقف في نحورهم على الثنية، واعتمد على رمحه وقد فاضت نفسه، فوقف كذلك ساعة زمنية وهم يحجمون أن يقتحموا الثنية وهو واقف بها، فلما طال عليهم الوقوف قال بعضهم لبعض: ما بال الفتى لا يحمل علينا ولا يتبع الظعن؟! فلعله نزفه الدم فاعتمد على رمحه أو هو ينتظر أصحابا له؛ فهلهم فلنرم الفرس بسهم، فإن قمص الفرس فألقاه فهو ميت، أو قد نزفه الدم، وإلا فهو ينتظر أصحابه، فالنجاؤه فإنه قد غلبكم وحده فكيف إذا كان له أصحاب من قومه؟! فرموا الفرس بسهم فقمص فألقاه؛ فطلبوا الظعن ففاتهم. فسمع ابن عمه بخبره، فأتاه فواراه، ونصب عليه حجارة ليعرف مكانه، فلما ركب قلوصله ليذهب نفرت من الحجارة المنصوبة عليه؛ فجعل يقول: (من بحر الكامل)

لا يبعذن ربيعةً بن مكدّم	وسقى الغواذى قبره بذنوب
نفرت قلوصى من حجارة حرّة	نصبت على طلق اليدين وهوب
لا تنفرى يا ناق منه فإنه	شريب خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد قفر مهمه	لتركتها تجبو على العرقوب

ولم يبلغنا أن أحداً فى جاهلية ولا إسلام حمى ميتاً غيره؛ حمانا الله مصارع السوء بمنه وكرمه، آمين.

• قال الناظم رحمه الله:

٣٧ - وأهل الغبى مثل الغباء فدعهم
وحد عن ذمى تنعش ويحيا ذمأ

قوله: وأهل الغبى، بالقصر والفتح أى أرباب الجهل الذين صاروا أهلاً له واتخذهم الجهل أهلاً بأن استوطنهم. والجهل جهلان: منه ما هو ضد العلم وهو عبارة عن ترك ما ينبغى لمثله علمه كعلم الكتاب والسنة والفرائض، قال الرسول ﷺ: «العلم آية محكمة، وسنة قائمة، وفريضة صادقة، وما سوى ذلك فضل»^(١).

(١) حديث «العلم آية محكمة»... إلخ. ضعيف رواه أبو داود وابن ماجه فى السنة والحاكم فى الرقاق، وأورده السيوطى تحت رقم ٥٧٠٩ بلفظ: (العلم ثلاثة وما سوى ذلك فضل: آية =

وقال ﷺ: «عليكم بعلم الفرائض فإنه أول علم يرفع حتى يظل الرجل يطوف فلا يجد من يقسم له فريضة»^(١).

وقال ﷺ: «قيدوا العلم بالكتاب»^(٢).

وقال ﷺ: «كل علم ليس في كتاب الله دليله فهو جهل».

قوله: مثل العباء، بالمد والفتح: الغبار لكونهم يضرون ولا ينفعون، وفي المثل (إياك وصحبة الجاهل فإنه يريد أن ينفك فيضرك). ومن الجهل ما هو ضد الحلم، قال الشافعي رضى الله عنه: العلم في الرجل الخليم كرامة، ومصيبة في الأحمق الطياش، كل ذى علم غرثان^(٣) إلى حلم. والفرق بين الحلم والصبر هو أن الحلم تحمل الأذى من الخلق، والصبر حبس النفس على أمثال ما يرد عليها من جانب الحق كالسكون تحت عساكر البلايا بالرضى والتسليم وعدم الشكوى والضجر، وتحت عساكر العطايا بالشكر، وتحت بوارق الأوامر بامتثال الأمر، وتحت رعود الزواجر باجتناب مواضع الشر. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

= محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة). ورمز له بالصحة، وقال شارحه المناوى: قال الذهبي فى (المهذب) وتبعه الزركشى: فيه عبد الرحمن بن الغم ضعيف، وقال فى (المنار): فيه أيضاً عبد الرحمن بن رافع التنوخى لم تثبت عدالته بل أحاديثه سناكير. اهـ. وأقول: فيه أيضاً عند ابن ماجه وغيره رشد بن سعد، ومن ثم قال ابن رجب: الحديث فيه ضعف مشهور (٣٨٦/٤) فيض، وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي: ضعيف (٣٣٢/٤) مستدرک.

(١) حديث (عليكم بعلم الفرائض الخ) رواه ابن ماجه والدارقطنى والحاكم، ولفظ الحاكم: «تعلموا القرآن وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموه الناس؛ فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض، وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان فى الفريضة لا يجدان من يقضى بها». اهـ. وقال: صحيح الإسناد وله علة، وقال الذهبي: صحيح كذا رواه النضر (٣٣٣/٤) مستدرک.

(٢) حديث «قيدوا العلم بالكتاب» لا أساس له من كلام النبى ﷺ، وقد يكون من كلام أنس أورده صاحب الكشف تحت رقم (١٩٠٦) بلفظ «قيدوا العلم بالكتابة» وقال: رواه الطبرانى وأبو نعيم.. إلى أن قال: ما أحسبه من كلام النبى ﷺ بل من قول أنس (١/١٣٠).

وروى عبد الله بن المنثى عن ثمامة أنه قال: كان أنس يقول لنبى: قيدوا العلم بالكتابة، والله أعلم.

(٣) غرثان: جائع، أو محتاج.

وفى الخبر: «الصبر على ثلاثة أقسام: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على المصيبة؛ فالصابر على الطاعة له فى الجنة ثلاثمائة درجة، كل درجة كما بين السماء والأرض، والصابر عن المعصية له ستمائة درجة كما بين السماء والسابعة إلى الأرض، والصابر على المصيبة له تسعمائة درجة، كل درجة كما بين العرش والثرى»^(١).

قوله: فدعهم: أى اترك صحبتهم والإعجاب بزيئهم؛ فالغيبى اسم من غيبى الرجل، بالكسر، غباوةً فهو غيبى إذا كان جاهلاً، قال الشاعر: (من بحر الطويل)
وكم حية طالت على ذقن جاهل وما تحتها إلا الغباوة والجهل
وقوله: أهل؛ مرفوع بالابتداء، ولا وجه لنصبه على الاشتغال لدخول فاء الاستئناف على الفعل المفسر إذ لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. قوله: وحد أى: مل عن ذمى، بالقصر والفتح: كل رائحة منتنة تأنفها النفوس الشريفة. تنعش:
أى تقوى بعد ضعف وتعلو منزلتك بعد سخف، قال ابن الخطيب: (من بحر المجتث)

من أنت مولاه حاشا	علاه أن يتلاشى
والله يا روح قلبى	لا خاب من بك عاشا
قوم لهم أنت ساقٍ	لا يرجعون عطاشا
بل النعيم مقيم	لمن أوجبتَ انتعاشا
لا قصَّ دهرٌ جناحا	له وفاؤك راشا
ومن بحولك يقوى	فكيفَ لا يتحاشا

قوله: ويحيا: من موت الجهل أو الهوى. ذماء: بالمد: تقول: ذمى المذبوح يذمى: إذا تحرك وارتفع بعد الذبح، قال الله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

(١) حديث «الصبر على ثلاثة أقسام»... إلخ. موضوع رواه أبو الشيخ وابن أبى الدنيا، وأخرجه السيوطى فى جامعه تحت رقم ٥١٣٧ ورمز له بالضعف. قال شارحه المناوى: والحديث كما قال ابن الجوزى موضوع (٤/٢٣٥) هذا مع أن الألفاظ التى أورد بها الشيخ هذا الخبر لا تماثل لفظ السيوطى ولا ابن الدنيا، وفيها تقديم وتأخير، والله أعلم.

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿﴾ [الأنفال: ٢٤] وهو العلم والعمل به ونور الحكمة .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قرية؛ لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والمحدث في الخلوة، والجلس في الوحدة، والنصاحب في القرية، والدليل على السر، والمعين على الضر، والزينة عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، به يبلغ العبد منازل الأخيار في الدرجات العلى، ومجالسة الملوك في الدنيا، الفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الله ويوحد، وبه يطاع ويعبد، ولغدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة»^(١).

وقال علي: أقل الناس قيمةً أقلهم علما .

وقال بعض السلف: العلوم أربعة: الفقه للأديان والطب للأبدان، والتنجيم للأزمان، والنحو للسان .

وقال الهرواني: (من بحر الكامل)

النحو يصلح من لسان الألكن
لحن الشريف يُزيله عن قسدره
والمرء تكرمه إذا لم يلحن
فتراه يسقط من لحاظ الأعين

(١) حديث «تعلموا العلم»... إلخ. كلام موضوع على رسول الله ﷺ، رواه المرهبي، وأورده صاحب «تنزيه الشريعة» وقال: فيه محمد بن تميم السعدي وهو آفته، وقال: أخرجه ابن عبد البر وقال: حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوى، وقال: روينا عن طريق أبي عصمة وهو أحد الكذابين .

وأما قول ابن عبد البر في الحديث: حسن، فلعله أراد معناه لا الحسن المتعارف عليه عند المحدثين بدليل أنه قال: ليس له إسناد قوى .

قلت: وهذا الكلام عراه صاحب (تنزيه الشريعة) إلى الحافظ العراقي في تخريج «الإحياء» إلا أنى لم أجده فيه، إلى أن قال: فإن موسى بن محمد راوى الحديث نسب إلى الكذب والوضع، وعبد الرحيم متروك، ووالده مختلف فيه، والحسن لم يدرك معاذًا. اهـ (١/٢٨٢) تنزيه .

قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه أبو الشيخ وابن حبان وابن عبد البر، وقال: ليس له إسناد قوى (١/١٢) إحياء .

حاز الفصاحةً باللسانِ البينِ
فأجلُّها منها مُقيمُ الألسنِ

وترى الدنيَّ إذا تكلمَ معرباً
وإذا طلبت من العلومَ أجلَّها

وقال آخر: (من بحر الرمل)

كهلال لآح من بين السدف^(١)
تخرجُ الدرَّةُ من بين الصدف
يدرك النحوىُّ بالنحو الشرف

إنما النحوىُّ في مجلسه
يُخرج اللفظةَ من فيه كما
اخترِ النحو من العلم فقد

ودخل أعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون!

وكلم أبو موسى بعض قواده فرد عليه الجواب بلحن فقال له: لو نظرت في العربية! فقال: بلغني أن من نظر فيها قلَّ كلامه، فقال له: ويحك لأن يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر بالخطأ.

وكان يقال: مجالسة الجاهل مرض العاقل.

وقال أبو الأسود الدؤلي: إذا أردت أن تُعذب عالماً فاقرن به جاهلاً.

وقال عليه السلام: «الناس أربعة: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فهو عالم فاتبعوه، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فهو غافل فنبهوه، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فهو جاهل فعلموه، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فهو هالك فارفضوه».

وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل؟ فقال: «العلم بالله، والفقهِ في دينه». وكرههما عليه فقال: يا رسول الله، أسألك عن العمل فتخبرني عن العلم؟! فقال: «إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل».

وقال عليه السلام: «من علم وعمل وعلمَ عدَّ في الملكوت الأعظم عظيماً».

وقال الخليل: للعلوم أفعال، ومفاتيحها السؤال^(٢). وعنه: زلة العالم مضروب

(١) السدف: الحجب أو الظلمة.

(٢) حديث «للعلوم أفعال»... إلخ. ضعيف، رواه أبو نعيم بلفظ: «العلم خزائن مفاتيحها السؤال ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والعالم والمستمع والمحِب لهم» وبهذا اللفظ أورده كذلك الغزالي في الإحياء، وقال العراقي، إسناده ضعيف (١/١٠) إحياء.

بها الطبل، وزلةُ الجاهل يخفيها الجهل.

وقال يزيد بن ميسرة: من أراد بعلمه وجه الله أقبل الله عليه بوجهه ووجه العباد إليه، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله عنه وجوه العباد.

وقال الحسن: رأيتُ قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، وهو كالسائر على غير طريق، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم.

روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال: «بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ أقبل علينا بوجهه الشريف فقال: ألا أخبركم بأجود الأجواد؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجود الناس بعدى رجل علمَ علماً فنشره يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل»^(١).

وعن الفضيل بن عياض رضى الله عنه: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصالونه وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقادت لهم الناس وكانوا لهم تبعاً، ولكن أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا، فإننا لله وإنا إليه راجعون، أعظم بها من مصيبة!

ولقد أحسن كل الإحسان على بن عبد العزيز الجرجاني حيث يقول: (من بحر

الطويل)

يقولون فيك انقباض وإنما	رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من دانا هم هان عندهم	ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما زلت منحازاً بعرضي جانباً	عن الذم أعتد الصيانة مغنما

(١) حديث «ألا أخبركم بأجود الأجواد»... إلخ. موضوع، أورده الشوكاني فى فوائده تحت رقم

٨٥٣ - ٣ وقال: رواه ابن حبان وقال: منكر باطل (٢٧٣/١)، وأورده كذلك صاحب (تنزيه

الشرية) وقال: رواه ابن حبان وقال: منكر باطل، وفيه نوح بن ذكوان عن أخيه أيوب حديثهما

منكر. قلت: وفيه أيضاً سويد بن عبد العزيز متروك (٢٥٦/١).

قلت: وليس فيه (ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل)، والله أعلم.

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
 أنهنها عن بعض ما لا يزينها
 فما كل برق لاح لى يستفزنى
 ولم أفض حق العلم إن كنت كلما
 ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى
 أأغرسه غرساً وأجنيه ذلةً
 فإن قلت جدُّ العلم كابٍ فإنما
 ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
 ولكن أهانوه فهان ودنسوا
 وقال لقمان: جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله يحيى القلوب الميتة بنور
 الحكمة كما يحيى الأرض الميتة بوابل المطر.

وقيل: من عرف بالحكمة لاحظته الأعين بالوقار.

وكان ابن مسعود إذا رأى طلاب العلم قال: مرحبا بكم، ينابيع الحكمة،
 ومصاييح الظلام، خلقان الثياب، جداد القلوب، ريحان كل قبيلة.
 قال على كرم الله وجهه: كفى بالعلم شرفاً أنه يدعيه من لا يحسنه ويفرح به
 إذا نسب إليه، وكفى بالجهل صلفاً أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه.
 وعن النبي ﷺ قال: «ما أتى الله أحداً العلم إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه
 أحداً»^(١).

ودعا بعضهم لآخر فقال: جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية.

وعن عمر رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «على باب الجنة شجرة تحمل
 ثماراً كئدى النساء تخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل
 اللبن الحليب والناس عطاش».

(١) حديث: «ما أتى الله أحداً العلم»... إلخ. رواه أبو نعيم وأخرجه فى الإحياء وسكت عليه
 العراقى (١/١٠).

وعن ابن مسعود رضى الله عنه: «من تعلم باباً من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً»^(١).

وفى مثل ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

العلمُ أنفَسُ دُخْرِ أنتِ ذاخره من يدرسِ العلمِ لم تدرسِ مفاخره
أقبل على العلمِ واستقبل مقاصده فأول العلمِ إقبالِ وآخره

يروى أنه دخل عبد الله بن مسلم الهذلي فى القراء فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل فى المغنين فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل فى القصاص فأخذ عشرة آلاف درهم؛ فقال المهدي: لم أر كالיום أجمع مما جمع الله فى أحد منك.

وقيل: لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ من البحر قطرة، ثم انحط على ورك الخضر، فرفرف وطار، فنظر الخضر إلى موسى وقال: يا نبي الله، إن هذا العصفور يقول: يا موسى أنت على علم من علم الله علمك لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه إياه لا تعلمه أنت، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ولا الخضر، وما علمى وعلمك وعلم الخضر فى علم الله إلا كقطرة من هذا البحر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

قال ابن عباس^(٢) رضى الله عنهما: خلق الله أربعين ألف عالم، والجن والإنس

(١) حديث: «من تعلم باباً من العلم»... إلخ. موضوع أخرجه الحاكم وعنه الكنانى فى كتابه تنزيه الشريعة وقال: وفيه الجارود بن اليزيد (١/٢٧٥).

قلت: الجارود بن يزيد أبو على العاصى النيسابورى كذبه أبو أسامة وأبو حاتم وقال الحاكم: روى عن الثورى أحاديث موضوعة، والله أعلم.

(٢) ابن عباس: هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، قال له ﷺ يوماً بعد ما ضمه إليه: «اللهم علمه الحكمة» وكان يقال له: حبر العرب، وكان عند وفاة النبي ﷺ ابن ثلاث عشرة سنة، غزا إفريقية مع عبد الله بن سعد سنة (٢٧) وفيه قال النبي ﷺ: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» وكان يكنى حبر الأئمة، مات رضى الله عنه بالطائف بعد ما عمى سنة ثمان وستين.

عالمان ، والباقي لا يعلمهم إلا الله»^(١).

وقال موسى: يا رب، لو لم تطعك السماوات والأرض ماذا كنت فاعلا بهما؟ قال: يا موسى، كنت أمر دابة من دوابي تبتلعهما، قال موسى: يارب، أين تلك الدابة؟ قال في مرج من مروحي، قال: يارب، أين ذلك المرج؟ قال: لا يعلمه إلا أنا^(٢).

وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة قال: فيم تفكرون؟ قالوا: نفكر في ذات الله؟ قال: تفكروا في خلق الله؛ فإن الله خلق من جانب الغرب أرضاً يقال لها البيضاء مسيرتها تقطعها^(٣)، الشمس أربعين يوماً فيها خلق ما عصوا الله طرفة عين، فقال عمر: يا رسول الله أين إبليس منهم؟ قال: ما علموا أن إبليس خلق أو ما خلق، قال: أمن بنى آدم هم؟ قال ما يعرفون آدم وما سمعوا به»^(٤).

فهذه كلها مما أعد الله في غيبه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٥) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾ [يس: ٨٢، ٨٣].

والحاصل أن العلم لا يحصله إلا من استفرغ فيه جميع جهده وأفنى فيه سائر عمره.

وفى المثل «العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً منه».

وفى ذلك يقول الشافعي رضى الله عنه: (من بحر الطويل)

(٢) هذا الكلام من الإسرائيليات، وإن صح عن ابن عباس فلا أشك أنه أخذه من بعض أحبار اليهود الذين أسلموا.

(٣) هذه المحاوراة من الإسرائيليات ولم تصلنا بسند يوثق به.

(٤) فى النسخة (أ): تقطعه الشمس.

(٥) حديث «فيم تفكرون»... إلخ. ضعيف رواه أبو نعيم وابن أبي شيبه والطبراني فى الأوسط والبيهقى فى الشعب بألفاظ مختلفة بعضها قريب من لفظ الشيخ كما أورد صاحب الكشف جزءاً منه تحت رقم (١٠٠٥) وأورد بعض طرقه، قال: وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسبها قوة ومعناه صحيح (٣٧٢/١).

قلت: هذا لا يخرج الحديث عن الضعف الشديد، والله أعلم.

أخى لن تنال العلم إلا بستة
سأنيك عن تفصيلها بيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة
وهمة أستاذ وطول زمان

وقال غيره: (من بحر الطويل)

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم
وعنه فباحث كل من عنده فهم
فإني رأيت الجهل يزرى بأهله
وذو العلم في الأقسام يرفعه العلم
وما أبصرت عينك أقبح منظراً
من أشيب لا علم لديه ولا حلم
هي الخصلة السوداء فاحذر سماتها
فأولها خزي وآخرها ذم
فخالط رواة العلم واصحب خيارهم
فخلطتهم زين وصحبتهم غم
ولا تعدون عينك عنهم فإنهم
نجوم إذا ما غاب نجم بدا نجم
فوالله لولا العلم ما اتضح الهدى
ولا بان من غير الأمور لنا رسم

وقال أبو الأسود الدؤلي: (من بحر البسيط)

العلم زين وتشريف لصاحبه
فاطلب هديت فنون العلم والأدبا
لا خير فيمن له أصل بلا أدب
حتى يكون على ما زانه خربا
كم من كريم أخى غنى وطمطمة
فدم لدى القوم معروف إذا انتسبا^(١)

(١) الطمطمة: العجمة أو اللكنة. والقدم: العبي عن الكلام، الأحق.

في بيت مكرمة أبأوه نُجِبٌ
وساقط خاملِ الآباءِ ذى أدبٍ
أضحى عزيزاً عظيم الشأن مشتهراً
قد يجمع المالَ شخصٌ ثم يُحرّمه
وجامع العلم مقبول به أبداً
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه

كانوا رؤوساً فأمسى بعدهم ذنباً
نال المعالي والآداب والرتباً
في خدّه صعرٌ قد ظلّ منحجباً
عما قريب فيلقى الذلّ والخرباً
ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
لا تعدلنّ به دراً ولا ذهباً

ولما كان العلم أكثر من أن يحاط به كان ينبغي للإنسان أن ينتخب من كل فن أنفعه عاقبة وأجمعه غائبة.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

تَعَلَّمْ كُلَّ عِلْمٍ تَبْلُغِ الْأَمْلا
فَالنَّحْلُ لِمَا رَعَتْ مِنْ كُلِّ نَابِتَةٍ
الشَّمْعُ بِاللَّيْلِ نَوْرٌ يَسْتَنَارُ بِهِ
ويقال علم بلا أدب كنار بلا حطب.

ولا يكن لك فن واحد شغلا
أبدت لنا الجوهرين الشمع والعسلا
والشاهد يُبْرِى بِإِذْنِ الْوَاحِدِ الْعِللا

وقال بعض الحكماء: العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام.

وقال على كرم الله وجهه: الأدب كنز عند الحاجة، عون على المروءة، صاحب في المجلس، أنيس في الوحدة، تعمر به القلوب الواهية، وتحيا به الأبواب الميتة، وينال به الطالبون ما طلبوا.

ويقال: علم بلا أدب كشجاع بلا سلاح.

ويحكى أن رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن؛ فقال: ابن من أنت؟ فقال: أباي الأدب يا أمير المؤمنين؛ فقال: نعم النسب انتسبت إليه.

ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد.

وفى ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك مضمونه عن النسب

إن الفتى من يقسول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى

وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضيعاً، وبعد صيته وإن كان خاسلاً، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً.

وقال الشاعر: (من بحر المتقارب)

لكل شىء زينة في الورى وزينة المرء تمام الأدب

قسد يشرف المرء بأدابه مناً وإن كان وضيع النسب

وفى المثل: (المرء بفضيلته لا بفضيلته، وبكماله لا بجماله وبأدابه لا بأنسابه).
حقق الله نسبتنا إليه آمين.

وفى البيت اقتباسان: فصدره مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

[الأعراف: ١٩٩].

وعجزه مقتبس من قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفيه أيضاً تلميح إلى المثل السائر: (الجهل عار ولا يرضاه إلا حمار) لأنه لمح إليه بقوله: (وحد عن ذمى) أى: مل عن نتن الجهل؛ لأن نتن الجهل أتن من كل منتن؛ إذ منه تنشأ جميع الأخلاق السيئة، فإذا رفعت همتك عنه واشتغلت باقتناء العلم النافع انتعشت موات أموالك بالعلم النافع، واهتزت وربت أجاديب أعمالك بأزهار الحكمة، فأنتبت من كل زوج بهيج، فيحيا ذماء قلبك المذبوح بمدية الهوى، ويتروى من بسائتيه ما قد ذوى. أنعش الله هممنا بوابل عرفانه.

• قال الناظم:

٣٨ - وَصَيْدُ الْمَهْيِ عُدْمُ الْمَهَاءِ يَزِينُهُ كَمَا زَانَ مَشْدُودًا نَجَاهُ نَجَاهُ

المهى بالقصر: بقر الوحش، سمي بذلك لبياضه، والمعروف المتداول أنه نوع من اليواقيت، قال حاتم بن عبد الله الطائى: (من بحر الخفيف)

رب بيضاء كالمهي تهادى قد دعتنى لنفسها فأبيت
لم يكن شيمتى العفاف ولكن كنت ندمان زوجها فاستحيت

والمهاء، بالمد: اعوجاج فى السهم يمنعه من حسن الإقضاء. والنجا بالقصر:
أعواد الهودج، وبالمد: سرعة السير، يقال: قلوص نجبية إذا كانت لا تجارى.

قال ﷺ: «إذا كتتم فى خصب فأعطوا الدواب حقها، وإذا كتتم فى جذب
فأنجوا عليها»، أى: أسرعوا بها حتى تبلغوا الخصب.

وفى البيت من البديع الكناية، فإنه كنى بصيد المها عن السعى فى تحصيل
الحسنات بالقصد المستقيم والحزم المستديم، كما يظفر بالصيد القانص إذا استعان
عليه بالسهم المسدد والرمى بالحديد، فإن الله خص بنيل الدرجات واقتناء الكرامات
وما أعد فى دار كرامته من الحور العين والولدان والرفق والخيرات الحسان ﴿اللَّذِينَ
قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] فلم يمل بهم عن السبيل فسق ولا ابتداء، ولا
زيغ ولا ارتفاع، ثم لا يتم لهم ذلك إلا بالحزم المضمم والجد المتمم. وقول الناظم
«كما زان مشدوداً نجاء نجاء» أى نجاه حزمه لسبب نجاء عزمه ومجده.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ
مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾
[الذاريات: ١٥ - ١٨].

قال مالك بن دينار: لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها.

وقال حاتم الأصم لما قيل له: هلا استرحت هنيهة؟ فقال: كيف يستريح رجل
النار تسعر تحته والجنة تزخرف فوقه وهو سائر لا محالة إلى إحداهما وقد كتب
اسمه فى الديوان ومع ذلك لا يدرى أفى ديوان السعداء كتب اسمه فيها أم فى
ديوان الأشقياء كتب اسمه؟! فواخجلاه فقد جلت مصيبته عن التعزية، وعظمت
رزيته عن الشكل، فبأى حجة وبأى وجه يقابل الملك الجبار وقد عصى أمره واقتحم
نهيته؟! ثم غشى عليه فما أفاق إلا بعد حين.

• قال الناظم رحمه الله:

٣٩ - وَكَمْ فِي قَسِيٍّ مِنْ ذِي قَسَاءٍ وَذِي رَجَاءٍ
بِدُنْيَاهُ دَامَتْ رَغْبَةٌ وَرَجَاءٌ

أى: كثير من صاحب قساء، بالمد: أى قساوة فى القلب، حالٌ. قسى، بالقصر: موضع من بلاد العرب. ومن ذى رجا: أى صاحب رجا أى: مرتج عليه فى كلامه. يروى أن عثمان رضى الله عنه قام يوماً ليخطب فأرتج عليه فى خطبته؛ فقام طويلاً وهو ساكت، ثم نزل عن المنبر، ثم قال: السكوت عما لا يليق خير من النطق به. وهو مصدر رجى، بالكسر: إذا حصل له ذلك، من صفة ذى الرجاء أنه دامت رغبته فى دنياه ورجاؤه، أى خوفه من ذهابها مثلاً. وبالخوف فُسر الرجاء فى قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أى لا تخافون. ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى: (من بحر الطويل)

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نوبٍ عواسل

والنوب: النحل لأنهن سود كالنوبة، والنوبة جنس من السودان منهم أبو طالب المكى ولقمان الحكيم. قال عليه السلام: «لا تسبوا النبوة فإن منهم رجلين من سادة أهل الجنة لقمان الحكيم وبلال بن حمامة»^(١).

والمعنى أن الدنيا ملئت بقساة القلوب الذين لا يرغبون فى غيرها ولا يخافون سواها. والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وهم الكثيرون عدداً القليلون مدداً، بخلاف الشاكرين فإنهم القليلون عدداً الكثيرون مدداً. قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

(١) حديث «لا تسبوا النبوة»: إلخ. لم أره بهذا اللفظ إلا أن ابن حبان وعنه صاحب تنزيه الشريعة رواه بلفظ «اتخذوا السودان فإن فيه ثلاثة من سادات أهل الجنة: لقمان والنجاشى وبلال» (٣٣/٢).

قلت: وفيه أبين بن سفيان المقدسى ويقال له أبان، قال ابن حبان: روى أشياء موضوعة. وقيل: أبان غير أبين، قال الذهبى فى المغنى: كلاهما له بلايا. وللحديث شاهد رواه الحاكم بلفظ: «خير السودان لقمان وبلال ومهجع مولى رسول الله عليه السلام»، والله أعلم.

وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى آدم أن يخرج من ذريته بعث الجنة فقال: أى رب، وكم هم؟ فيقول: من كل ألف واحد إلى الجنة وتسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار؛ فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ حتى كثرت حينهم بالبكاء، فقال لهم: أبشروا فإنى أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة؛ فكبروا، ثم قال: أبشروا فإنى أرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، فكبروا واستبشروا، ثم قال: أبشروا فإنى أرجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنة، فقالوا: يا رسول الله ما معنى نجاة الواحد من الألف؟ وما يبلغ فى الجنة؟ فقال: ما مثلكم فى المشركين ويأجوج ومأجوج إلا كالثلثة السوداء فى الثور الأبيض أو كالشامة البيضاء فى الثور الأسود». والحديث مخرج فى الصحاح الستة بأسانيد متعددة^(١) وألفاظ مختلفة حتى أنه بلغ حد التواتر.

• قال الناظم رحمه الله تعالى:

٤٠ - وَمَرْدَى بِمَرْدَاءٍ لَدَى مُتَوَكِّلٍ وَأَرْضٌ سَوَى لِلْوَارِدِينَ سَوَاءٌ

قوله: مَرْدَى، بالفتح والقصر: المهلك مكاناً أو مصدراً، كالمهدى ومثوى. والمرداء: الأرض التى لا نبات فيها، يقال: رجل أمرد إذا لم تكن له لحية كما يقال: أرض مرداء إذا لم يكن فيها نبات.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

منا الذى هو ما إن طرّ شاربه والعانسون ومنا المرْدُ والشيبُ

وأرض سوى: وهى أرض بها ماء من مياه العرب يقال له: سوى وسواء، بالمد: أرض مستوية.

والمعنى: رب مهلك، أى مكان للهلاك، أو هو نفسه، كان فى أرض فقراء لا نبات فيها وقد حل به متوكل على الله، أى معتمد عليه، نابذ للدنيا وراء ظهره،

(١) الحديث كما قال الشيخ متفق على صحته: رواه البخارى ومسلم بألفاظ كثيرة كما رواه غيرهما، وأول الحديث عند البخارى: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: ليك وسعديك والخير فى يدك، فيقول: أخرج بعث النار»... إلخ، كتاب أحاديث الأنبياء.

لا رغبة له في حصولها، ولا رهبة له من زوالها، وقليل ما هم، كأبي تراب النخشبى رضى الله عنه، فإنه مات في البيداء ونهشته الحيات. هذا مقابل لقول الناظم: «وكم ذى قسى بذى قساء» البيت. فإنه إخبار بكثرة من في الدنيا من قساة القلوب الذين لا رغبة لهم إلا فيها ولا رهبة لهم إلا منها، وهذا صادق مع قلة غيرهم ومع عدم وجودهم رأساً، فأخبرت في هذا البيت بوجودهم على سبيل القلة، فإن «رُبَّ» المقدرة معناها التقليل بدليل السياق والمجورور بها مرفوع بالابتداء، و «بمرداء» صفه له، و«لدى متوكل» خبره. وأما قوله: «وأرض سواء إلى آخره» فمعناه أن أرض هذا الماء المسمى بسوى بالقصر مستوية في حق الواردين لا تفاوت لهم فيها ولا يمنع منها إلا من أبى وتكاسل، وهذا كناية عن أرض الجنة فإن الله دعا إليها كل عباده حيث قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] أى كل عباده على ما قاله أئمة التفسير ودل عليه الحديث؛ قال ﷺ: «كلكم يدخل الجنة إلا من أبى»^(١).

وقد فسر الحديث الشريف بما هو ظاهر في عدم سلوك طرقها بامثال الأوامر واجتناب النواهي؛ فإن الشيء إنما يتوصل إليه عن طريقه، فمن لم يسلك طريقه التى توصل إليه فقد أباه؛ قال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجرى على اليس

لأنه استعمل طاقته وصرف إرادته إلى غير طريق الجنة فيما يظهر من اختياره واستطاعته وإن كان مجبوراً على تلك الإباية بحسب الباطن لاقتضاء حكمة الحكيم سبحانه ذلك فهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وما ربك بظلام للعبيد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، كلُّ يعمل على شاكلته، ومسير لما خلق له؛ يسرنا الله لما يرضيه عنا، آمين.

(١) «كلكم يدخل الجنة»... إلخ. حديث صحيح رواه الطبرانى فى الأوسط، والحاكم، وأورده السيوطى تحت رقم ٦٣٦٩ بلفظ: «كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله». اهـ. وصححه، قال المناوى شارحه: قال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح غير على بن خالد وهو ثقة (٣٨/٥).

ورواه البخارى بلفظ: «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟! قال: من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى» (كتاب الاعتصام)، والله أعلم.

• قال الناظم رحمه الله:

٤١ - وَإِنَّ سَدَى فَوْقَ السَّدَاءِ لَأَيَّةٌ

فَحَصَلُ جَلَى إِنْ غَابَ عَنْكَ جَلَاءٌ

السدى، بالقصر والفتح: الندوة أو الندى، وحقيقته ما يعلو الأشجار صباحاً إلا أنه لا يكثر جداً إلا فى الأرض الوبية وربما كثر فى سنة الخصب إذا لم يكثر هبوب الرياح. والسداء، بالمد والفتح: البلح بلغة أهل المدينة، يقال من الأول: سديت ليلتنا، بالكسر: إذا كثر نداها، وقلما يقال: سدى اليوم. والجلى، بالقصر: ضرب من الكحل. والجلء، بالمد: البياض، يقال: ما أقمت عندهم إلا جلء يوم أى نهارةً واحداً.

قال الشاعر: (بحر الرجز)

ما لى إذا أقصيتنى من مقعدٍ إلا جلء اليوم أو ضحى الغدِ

والمعنى: أن الندى فوق البلح آية أى عبرة ودلالة دالة على كمال قدرته تعالى وتما إرادته يعتبر بها المعتبرون بآيات الله وعجائب قدرته فيزدادون بذلك يقيناً وبما عنده إيماناً، فحصل كحلا لعينى بصيرتك بالنظر إلى عجائب مصنوعاته لتتوصل بذلك إلى معرفته إن فاتتك تلك المعرفة التى عبر عنها بالجلء بالمد؛ فتترقى من علم اليقين إلى عين اليقين بالجلى، بالقصر، الذى أريد به علم اليقين إلى الجلاء، بالمد، الذى أريد به عين اليقين.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤] ولما نزلت هذه الآية وكانت ليلة صعد فيها ﷺ على سقف بيته وقال: «يا ربات الحجال قمن فإنه نزلت على الليلة آية»، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» والآية فى السماء؛ سمكها بغير عمد ولا علاقة، وما فيها من الكواكب السيارة والأفلاك الدوارة، والمنازل والبروج المرتبة على تقديرات الدهور من ساعات الليل والنهار، وارتحال الشمس ومكثها فى كل برج من البروج، مع ولوج الليل فى النهار وولوج النهار فى الليل شتاءً وصيفاً، واعتدالهما فى ليلتين: ليلة فى الربيع، وليلة فى الخريف، وكل ذلك

بحسبان لا يتجاوزانه كحسبان الرحي بحكمة ربانية تبهر العقول، فالشمس تعوم الفلك لانتهاء العام وبذلك سمي العام عامًا. والآية في الأرض ما يرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والثمار والأنهار. النوع الثاني اختلاف الليل والنهار في المجيء والذهاب والتكوير والنور والظلمة وقدم الليل لأن الظلمة أقدم، وجعل أحدهما للتكسب والثاني للراحة والسكون. والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهي موقرة^(١) بالإنقال والرجال فلا ترسب، وجريانها بالرياح مقبلةً ومُدبرةً، وتسخير البحر بحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجانه فلا ينجي منه إلا الله تعالى.

وأصل الفكر إعمال الخاطر بالشيء وتردد القلب في ذلك الشيء، وهو قوة متطرفة للعلم الموصل إلى المعلوم، والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا يمكن التفكر إلا فيما له صورة في القلب؛ ولهذا قيل: تفكروا في آيات الله ولا تفكروا في ذات الله؛ إذ هو منزه عن أن يوصف بصورة؛ فلذلك أخبر عن عباده الصالحين لأنهم يفكرون في خلق السماوات والأرض وما أبدع فيهن من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته. ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ويعلموا أن لها خالقًا قادرًا مديرًا حكيمًا؛ لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى، كما قيل: (من بحر المتقارب)

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقيل: إن الفكر مقلوب عن الفك لأن الفكر مستعمل في المعاني وهو فك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها. وقيل: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الحشية كما يحدث الماء للزرع النماء، وما حليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة، ولذلك قال الرسول ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»^(٢)

(١) موقرة: مثقلة؛ محملة.

(٢) حديث «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» لا أصل له من حديث النبي ﷺ.

ذكره الفاكهي وقال: إنه من كلام سري السقطي، وأورده صاحب كشف الحفاء تحت رقم ١٠٠٤ كما أورده في الجامع تحت رقم ٥٨٩٧ بلفظ «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» ورمز له =

وقال: «كل كلام في غير حكمة فهو لغو، وكل سكوت بغير فكرة فهو سهو، وكل نظر بغير اعتبار فهو لهو».

وقال علي كرم الله وجهه: لا خير في عبادة لا يصحبها تفكير، ولا خير في قراءة لا يصحبها تدبر.

وقال ابن عباس: الذي يقرأ القرآن ولا يتدبره كمثل الحمار يحمل أسفارا.

يروى أن الشافعي رضى الله عنه استضاف أحمد بن حنبل برسم الزيارة، وكانت لأحمد ابنة متعبدة تمنى رؤية الشافعي لتعلم كيفية عبادته فقالت لأبيها: اجعلني في البيت الذي يليه لأنظر إليه من الطاقة، وكان أحمد أعد له منزلاً^(١) وطعاماً كثيراً، فأكل الشافعي رضى الله عنه حتى شبع، ثم شرب حتى روى، ثم استلقى على قفاه، فلم يزل كذلك حتى أصبح فصلى بغير وضوء ولا تيمم، وكان ذلك كله بمرأى منها فأصبحت وقد سقط من عينها، فأتاها أبوها رضى الله عنه فقال لها: ما رأيت البارحة من أمر الشيخ؟ فقالت له: لم أر طائلاً؛ أكل كثيراً وشرب كثيراً ونام طويلاً وصلّى بغير وضوء ولا تيمم؛ فذهب في الحين إلى الشافعي رضى الله عنه فقال له: ما شيء بلغني عنك؟ وذلك أن ابنتي كانت مشتاقة إلى رؤيتك لما بلغها من عبادتك، فلما كان البارحة طلبت منى أن أجعلها في البيت الذي يليك لتتظر إليك وإلى عبادتك من الطاقة، فلما أصبحت أتيتها لأسألها عما رأت من عبادتك فقالت: لم أر طائلاً؛ أكل كثيراً، وشرب كثيراً، ونام طويلاً، وصلّى بغير وضوء ولا تيمم، فقال له الشافعي: أما إن ابنتك قد

= بالضعف، وقال شارحه المناوي بعد أن أورد كلام ابن الجوزي فيه: اقتصر العراقي على تضعيفه في الإحياء وقال: له شاهد (٤/٤٤٢) كما أورد ابن الجوزي بهذا اللفظ وقال: هذا حديث لا يصح وفي الإسناد كذابان فما أفلت وضعه من أحدهما: إسحاق بن نجيح قال أحمد: هو أكذب الناس.

وقال يحيى: هو معروف بالكذب ووضع الحديث، وقال الفلاس: كان يضع الحديث على رسول الله ﷺ صراحاً. والثاني عثمان قال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات (٣/١٤٤). كما أوردته الألباني في موضوعاته تحت رقم ١٧٣ وقال: موضوع، وأورد الكلام المتقدم، والله أعلم.

(١) في ب: ونزلاً.

صدقت: أما قولها: أكل كثيراً، فإنه بلغنى عن رسول الله ﷺ «أن طعام الأحبة شفاء» فأحبيت أن أستكثر من الشفاء، والطعام يستدعى الشراب فشربت كثيراً. وأما قولها: نمت طويلاً، فإنى لما فرغت حضرنى قوله ﷺ: «ما فعل النغير يا أبا عمير» فعلمت أنه لا ينطق عن الهوى، ففكرت فى هذا^(١) الحديث، ففتح الله على، فاستخرجتُ منه ثمانين مسألة: أربعين فى الحلال، وأربعين فى الحرام فأصبحتُ ولم أنم ولم أحدثُ فصليتُ بغير وضوء ولا تيمم، فإنه بلغنى عن رسول الله ﷺ «أن تفكر ساعة خير من عبادة سنة» فكيف بتفكير ليلة؟! وقد استخرجتُ فيها كنوزاً من الحلال والحرام^(٢).

(١) فى النسخة (ب): ففكرت فيها، وهو خطأ.

(٢) لا أعتقد أن قصة الشافعى هذه تصح عنه للأسباب الآتية:

أولاً: لأن الشافعى رحمه الله خرج من بغداد إلى مصر عام ١٩٩ ومات بها عام ٢٠٤ ولم يعد إلى بغداد هذه الفترة، وعمر الإمام أحمد رحمه الله آنذاك فوق الثلاثين بقليل؛ ومن المستبعد أن تكون له بنت قد وصلت هذا المستوى من الإدراك لصغر سنها إن كانت له بنت فى هذا التاريخ أصلاً.

ثانياً: إن فى القصة نوعاً من التجسس لا يقره الإمام أحمد قطعاً لما عرف عنه من التمسك بالشريعة والابتعاد عن الشبه.

ثالثاً: علامات التأليف واضحة فى القصة لضعف الأسلوب وكثرة المبالغات التى هى أقرب إلى الكذب.

رابعاً: الحديث الثالث فى القصة الذى هو «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» موضوع، ومن المستبعد أن يستدل الشافعى بحديث موضوع ويقره الإمام أحمد وهو سيد النقاد فى ذلك العصر وربما فى العصور التى بعده إلى اليوم.

خامساً: وعلى كل حال فالحديث الأول المذكور فى القصة والذى هو «طعام الأحبة» لم أجده بهذا اللفظ، وقد روى الدارقطنى فى غرائب مالك: «طعام البخيل داء وطعام الجواد شفاء» وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٦٥٣ وقال قال الذهبى: كذب، وقال ابن حجر: منكر، وأورد له ألفاظاً كثيرة. والثانى الذى هو «ما فعل النغير» صحيح، والثالث موضوع وسبق أن خرج.

سادساً: والأهم من هذا كله أن الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء فى ترجمة الإمام أحمد قال: قال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول: تزوجت وأنا ابن أربعين سنة... إلى أن قال: قال أبو بكر الخلال فى كتاب أخلاق أحمد: أُملى على زهير بن صالح بن أحمد قال: تزوج جدى عباساً بنت الفضل فلم يولد له منها غير أبى، وتوفيت، وتزوج بعدها ربحانة فولدت عبد الله =

• ثم قال الناظم رحمه الله:

٤٢ - رَبَّ حَوَىٰ عِنْدَ الْخَوَاءِ اسْتَطَابَهُ ۖ مَوَالِي ضَحَىٰ لَمْ يُزَوَّ عَنْهُ ضَحَاءُ

قوله: رب حرف جر بمعنى التكثير، هنا، حوى، بالفتح والقصر: أى جوع استطابه عند الخواء، بالمد والفتح، أى الخلاء لأنه يحتوى على ساكنه كما تحتوى الأمعاء على الجوع والشبع، وهو من باب تسمية الظرف باسم المظروف، لأن الأمعاء تُسمى بالأخواء فمفردها حينئذ حَوَى، وتسمى بالحوايا، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا﴾ [الأنعام: ١٤٦] ومفرده كذلك حوى، وهذا كناية عن استطابة المتنسك الأعمال الشاقة لما يجد فيها من قرة العين تارة ومن رجاء الثواب أخرى، وإنما خص الصوم هنا بالذكر والإشارة لأنه أقرب أعمال البر إلى الإخلاص لقول الله تعالى: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به»^(١).

يروى أن الثورى رضى الله عنه لما احتضر بكى ف قيل له: ما بكأؤك؟ فقال: والله ما بكائى جزعاً من الموت ولا حرصاً على البقاء فى الدنيا ولا على غرس الأشجار وإجراء الأنهار وإنما بكائى على ما فاتنى من ظمأ الهواجر وقيام الدواجر^(٢) ومزاحمة العلماء بالركب.

ويروى أن الشافعى رضى الله عنه قال: لو يجد هؤلاء المنهمكون فى الشهوات ما يجده المتملقون بالأسحار لخرجوا عما هم فيه وللزموا الفلوات.

ويروى أن طيفور بن عيسى البسطامى كان يواصل خمسة عشر يوماً ولا يفطر إلا على تافه، ف قيل له فى ذلك فقال: أما بلغكم قول رسول الله ﷺ «إنى أبيت

= عمى، ثم توفيت فاشترى حسن فولدت له أم على زينب والحسن والحسين توءمان وماتا بقرب ولادتها، ثم ولدت الحسن ومحمدا (١١/١٨٥).

قلت: وبهذا يتضح أنه لم تولد له بنت أصلاً إلا بعد موت الشافعى بزمان طويل، بل لم يتزوج إلا بعده، والله أعلم.

(١) حديث «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم». . . إلخ. جزء من حديث متفق على صحته، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى.

(٢) الدواجر: الليلية ذوات الظلم. وفى النسخة (ب): ما يبيك.

عند ربي يطعمني ويسقيني»^(١). هيهات هيهات لو تجدون ما يجد الصائمون في صومهم من النعيم وقرّة العين لزهدتم في النعيم الخسيس.

وقامت رابعة العدوية حتى أفعدت، وبكت حتى أظلمت عيناها، وصامت حتى تغير لونها، فاجتمعت إليها عشيرتها وقالوا لها ألا ترحمي هذا الجسم المسكين؟! أليس لعينيك عليك حق ولنفسك عليك حق؟! فقالت: الرفق أردتُ به، فإن كان له عند الله خير فإنما هي أيام قلائل ثم يستريح الراحة السرمدية، وإن لم يكن له عند الله خير فهذا أهون ما يلاقى، فجعلت تبكى حتى انصرفوا عنها وتركوها.

وكان ﷺ لا تشاء أن تراه صائماً إلا رأيتُه صائماً، ولا تشاء أن تراه مفطراً إلا رأيتُه مفطراً^(٢).

وكان ﷺ يقول: «أفضل الصيام صيام داود عليه السلام؛ كان يفطر يوماً ويصوم يوماً»^(٣).

وكان ﷺ يقول: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله»^(٤).

وكان ﷺ يقول: «عليكم من الدين بما تطيقون فإنه ما شادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، وأحب الأعمال إلى الله ما كان ديمة وإن قل»^(٥).

(١) حديث «إني أبيت عند ربي»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم وغيرهما في باب الوصال بالفاظ كثيرة منها: «إني يطعمني ربي ويسقيني» «وإني أطعم وأسقى» وغير ذلك.

(٢) هذه زيادة في النسخة (أ) أي قوله: وكان ﷺ لا تشاء أن تراه صائماً إلا رأيتُه صائماً، ولا تشاء أن تراه مفطراً إلا رأيتُه مفطراً.

(٣) حديث «أفضل الصيام»... إلخ. جزء من حديث متفق عليه رواه البخاري في باب صوم داود، ومسلم في باب صوم الدهر بالفاظ كثيرة. وأول الحديث عند البخاري «إنك لتصوم الدهر» والقول موجه لعبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) حديث «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر»... إلخ. جزء من حديث صحيح، متفق عليه، وهو من الحديث الأول، ولفظه عند البخاري: «صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله».

(٥) حديث «عليكم من الدين بما تطيقون»... إلخ. حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وغيرهما، ورواية البخاري: «خذوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبي ﷺ ما دووم عليه وإن قلت» (البخاري باب صوم شعبان) بزيادة: «وكان إذا صلى صلاة داوم عليها» والله أعلم.

وقال ﷺ: «دين الله يسر فأوغلوا فيه برفق».

وقال ﷺ: «ياكم والمُنْبَت فإنه لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

وفى الخبر: «إن بالجنة نهراً يقال له الريان لا يشرب منه إلا الصائمون»^(١).

وأفطر ابن عمر رضی الله عنهما من بثرة فى إصبعه. وكان ﷺ يأمر الشيخ الفانى والمرضع والحامل بالإفطار والإطعام، ويأمر الزَّمن^(٢) والضعيف والمريض بالإفطار من غير إطعام. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يُكرهون مما ليكهم على الصوم من غير قتل إذا أقروا بالإسلام.

وكان ﷺ يثبت دخول شهر رمضان برؤية عدلين أو عدل واحد أو خير عن حى أو مدينة.

وكان ﷺ يقوم لىالى رمضان ويأمر بقيامها من غير أن يكون ذلك حتماً منه.

وكان يأمر بصيام عاشوراء وتاسوعاء ورجب وشعبان^(٣).

وكان ﷺ يقول: «ما من أيام الصوم فيها أفضل بعد رمضان من عشر ذى الحجة».

وكان لا يخص بصومه يوماً نعيماً بل يصوم متى شاء ويفطر متى شاء. وكان السلف رضی الله عنهم يقولون: الصوم على أربعة أقسام: صوم خاصة الخاصة، وصوم الخاصة، وصوم الصالحين، وصوم عامة المؤمنين؛ فصوم خاصة الخاصة هو الصوم عما سوى الله، وصوم الخاصة هو أنهم يصومون عن الدنيا ويفطرون على الآخرة، وصوم الصالحين هو الصوم عن الكلام إلا أن يكون ذكراً أو تلاوة أو ما فى معناهما من العلم النافع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وصوم عامة المؤمنين هو كف اللسان والجوارح عن المفسدات شرعاً وحقيقة.

(١) «إن فى الجنة نهراً يقال له الريان»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، غير أن البخارى ومسلماً والنسائى والترمذى رواوا: «إن فى الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون»... إلخ. والحديث أطول من هذا، وألفاظه كثيرة، والله أعلم.

(٢) الزمن: الضعيف من كبر أو مرض.

(٣) لم يثبت عنه ﷺ أنه أمر بصيام رجب وشعبان، فقد ثبت عنه أنه كان يصوم أكثر شعبان، أما الأمر بذلك فيه أو فى رجب فلم يثبت، والله أعلم.

قوله: استطابه: أى استحلاه واستلذه. موالى: أى مباشر. ضحى، بالقصر: مصدرٌ ضحى، بالكسر: إذا برز للشمس، قال الله تعالى: ﴿لَا تَطْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩]، أى لا يصيبك وهج الشمس. وفيه المد لعة، والضحاء بالمد لا غير وهو الوقت الذى يقرب من الزوال. وقوله: يزو: مبنى للمجهول مضارع زوى الشئ بالزاي فانزوى أى انقبض، مجزوم بلم.

ومعناه: إنما يرجو حسن الثواب من زويت له مسافة الدنيا حتى شاهد بعين بصيرته ما يأتى؛ ولذلك هانت عليه موالة وهج الشمس فى الضحى والضحاء؛ فصبر فى حال كونه سالكاً، واشتاق والتذُّ وذاق فى حال كونه مشاهدًا واصلاً مواصلاً؛ إذ الدين مبدؤه سلوك ومجاهدة ومتهاه ذوق ومشاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وفى ذلك يقال: (من بحر الطويل)

تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سرُّ
وقدم إماماً كنت أنت إمامه
وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر
وصل صلاة الظهر^(١) فى أول العصر

• ثم قال الناظم رحمه الله:

٤٣ - حوى جلدًا فاق العلى لعلائه
فلو بورى يبلى وقاه وراء

قوله: حوى: أى حاز موالى ضحى، جلدًا: أى قوة على موالة ما ذكر ففاق بذلك الجلد. العلى، بالقصر: جمع علاة، وهى منسأة^(٢) الحداد لأجل علائه أى شرف نفسه وعلو همته، فلو قد رأته يبلى أى يمتحن بورى بالقصر: داء فى الجوف، وقاه أى حماه وراء بالمد: ما يستتر به أى فدى لعزته وعظيم موقعه فى النفس مما يفدى به من رفيع الأشياء وأحبها إلى النفوس من كل بؤس ومن الورى المقصور الممثل به. وهذا البيت إنما جىء به تميمًا لمعنى البيت السابق لأنه متضمن معناه وليس تحته طائل معنى.

(١) فى (ب): الصبح.

(٢) المنسأة: العصا، وهى آلة يشحذ عليها الحداد آلاته.

ثم قال الناظم رحمه الله تعالى:

٤٤ - فَمَا بِالصَّبَا يُهْدَى الصَّبَاءُ لِقَلْبِهِ وَكَيْفَ الْكِرَى وَالْمُسْتَفَرَّ كِرَاءُ

الصبا: الريح الشرقية. والصباء، بالمد: مصدر صبا بالفتح إذا مال إلى الهوى، أو هو مطلق الميل، وقيل في الميل عن المرغوب فيه إلى المرغوب عنه، ولذلك كان مشركو مكة يسمون من أسلم منهم الصابى لأنهم مالوا بزعمهم عن دين مرغوب فيه إلى دين مرغوب عنه، وكانوا إذ قالوا لأحد منهم: صبوتَ قال: ما صبوت ولكني أسلمت لرب العالمين؛ ولذلك سمي إبراهيم حنيفاً لأنه مال وحده عن جميع أديان الكفر إلى الخيفية السمحة، قال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥] والحنيف والخنيفية مأخوذان من حنف إبهام الرجل: إلى جانب عن جميع الأصابع، وبذلك سمي الأحنف بن قيس أحنف، وكانت أمه ترى فيه مخايل الحلم والكرم وهو صبي، وكانت إذا اجتمع عليها نساء بنى تميم ترقصه وتقول: (الرجز)

والله لولا حنف برجله ودقة أبصرها في ساقه

ما كان من صبيانكم كمثلها

وقد أسلم صبيًا وحسن إسلامه، فأدرك العلم والحكمة، وكان إليه المنتهى فيهما، وكان يكنى أبا بحر. يروى أنه دخل على معاوية في ملأ من بنى تميم، وكان دميماً، فاقتحمته عين معاوية فقال: يا بنى تميم لم سادكم الأحنف ولم يكن أحسنكم وجهاً ولا أشرفكم بيتاً ولا أكثركم جمعاً؟ قالوا: كان يحلم إذا جهلنا، ويوجد إذا بخلنا، ويثبتنا إذا جبّنا، ويحوطننا إذا غفلنا. فقال: والله لو كانت هذه الخصال في ضبّ لساد، انتهى.

وصبى بالكسر لعب مع الصبيان. وكيف استفهام إنكارى بمعنى النفى. الكرى: النوم مصدر كرى، بالكسر: إذا نام. وكراء^(١) بالمد: ثنية، وهو محل معروف بالخوف تغزوه العرب من اليمن وبلاد غطفان ونجد والسواد، فلذلك لا ينبغي لكل ذى عقل سليم الكرى والغفلة في دار الدنيا مع ما فيها من مخاوف النفس

(١) كراء بالمد: جبل بين الطائف ومكة وليس ببيشة.

والشيطان والهوى؛ فيستعين على تلك الأعداء والمخاوف بالتوكل على الله والالتجاء بامثال أوامره واجتناب نواهيه لينصره على أعدائه، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] إذ ربما أصبح الرجل منقطعاً فلا يمسي إلا هو واصل^(١)، وربما أصبح مطيعاً فلا يأتي عليه المساء إلا وهو في ظلمات المخالفات.

حكى أنه كان في بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي، وكان شيخاً لكل^(٢) من في العراق، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات. فخرج في بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما، وقال الشبلي: فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار، فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية وإذا نحن بكنائس وفيها شماميس^(٣)، وقساوسة ورهبان وهم يعبدون الأصنام والصلبان، فتعجبنا من قلة عقولهم، ثم انصرفنا إلى بيت^(٤) في آخر القرية فإذا نحن بجوارٍ يستقي الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن منها ولا أجمل وفي عنقها قلائد الذهب، فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال: هذه بنت من؟ فقيل له: يا سيدي بنت ملك هذه القرية، قال: فلم لا يدللها^(٥) أبوها ويدعها تستقي الماء؟ قلن: يا سيدي أبوها يفعل ذلك بها لئلا تعجب بنفسها فإذا زوجها برجل من قومه أكرمه وخدمته، فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لم يأكل ولم يشرب ولم يكلم أحداً غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه لا يدرون ما يصنعون.

قال الشبلي: فتقدمت وقلت: يا سيدي إن أصحابك يعجبون من سكوتك ثلاثة أيام ولم تكلم أحداً؛ قال: فأقبل علينا بوجهه^(٦) وقال: يا قوم اعلمو أن الجارية التي رأيتموها بالأمس شغفت بها حباً فلا أقدر على فراق هذه الأرض، قال الشبلي:

(١) في (ب) إذ ربما أمسى الرجل واصلا فلا يمسي إلا وهو منقطع.

(٢) في (ب) لمن بالعراق.

(٣) الشماميس: جمع شماس: رتبة لرجال الدين النصارى.

(٤) في (ب) إلى آخر القرية.

(٥) في (ب) ويكرمها.

(٦) بوجهه زائدة في (أ).

فتقدمت وقلت: يا سيدي أنت شيخ العراق ومعروف بالزهد والورع ومريدوك اثنا عشر ألفاً فلا تفضحنا وإياهم بحرمة كتاب الله. فقال: يا قوم جرى القلم بما هو^(١) كائن، ووقعت في بحار العدم، وقد انخلعت عنى عقدة الولاية، وطويت أعلام الهداية، ثم بكى بكاء شديداً، وقال: يا قوم انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر، فتعجبنا من أمره، وسألنا الله أن يُنجينا من مكره، ثم بكينا بكاء أروينا التراب منه.

ثم انصرفنا عنه جميعاً إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقاءه، وخرج مريدوه من جملة الناس فلم يروه؛ فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً، وجعل الناس يتضرعون ويسألون الله أن يرد عليهم الشيخ، وأغلقت الرباطات والزوايا والخوانيت، ولحق الناس حزن عظيم.

فأقمنا سنة كاملة، ثم خرجت مع أصحابي لنكشف خبره، فأتينا القرية، فسألنا عن الشيخ فقيل: إنه في البرية يرعى الخنازير! قلنا: وما السبب في ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها، فأبى أن يزوجها إلا من هو على دينه يلبس العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير؛ ففعل ذلك كله فهو في هذه البرية يرعى الخنازير؛ قال: فانصدعت قلوبنا، وانهملت بالدموع عيوننا، وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير^(٢)، فلما رأنا نكس رأسه فإذا عليه قنسوة النصارى وفي وسطه زنارهم وهو متوكئ على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام على المحراب، فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا: يا شيخ ما هذا وما ذلك وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟! قال: يا إخواني وأحبائي ليس لي من الأمر شيء، سيدي تصرف في كيف شاء وحيث أراد بعدى عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبائه؛ فالحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يا أهل المودة والوصفا من القطيعة والجفا. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاي لم يكن ظني بك هذا، ثم جعل يستغيث ويكي وينادى: يا شبلي اتعظ بغيرك؛ فنادى الشبلي بأعلى صوته: بك المستعان، وأنت المستغاث، وعليك المتوكل، اكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك، فلما سمعت الخنازير

(١) في (ب) جرى القلم بما حكم.

(٢) قدام الخنازير: ليست في النسخة (ب).

بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم، وزعقوا زعقات عظيمة دوت منها الجبال.

قال الشبلي: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديداً.

قال الشبلي: فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك وقد استرعتُ الخنازير بعدما كنت أرى القلوب؟! قلنا: يا شيخ كنت تحفظ القرآن بالسبع فهل بقي معك منه شيء؟ قال: نسيتُه كله إلا آيتين، قلت: وما هما؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ الآية [الحج: ١٨]، والثانية قوله: ﴿وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، قلت: يا شيخ كنت تحفظ عن رسول الله ﷺ ثلاثين ألف حديث فهل بقي معك منها شيء؟ قال: حديث واحد، وهو قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١) قال الشبلي: فتركناه وانصرفنا عنه ونحن متعجبون من أمره.

فسرنا ثلاثة أيام فإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر ثم طلع وهو يتشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا وقال: يا قوم أعطوني ثوباً طاهراً؛ فأعطيناه إياه، ثم صلى وجلس، فقلنا: يا شيخ الحمد لله الذي ردك إلينا وجمع شملنا بك، ثم قلنا له: صف لنا ما جرى بك؛ قال: لما وليتم من عندي سألتُ الله فقلت: يا مولاي أنا المذنب الجاني فاعف عني بجودك وغطني بفضلك وإحسانك، فقلنا له: بالله هل كان لمحو محبتك من سبب؟ قال: نعم؛ لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حولها قلت في نفسي: ما قدر هؤلاء عند الله أنا مؤمن موحد وهم مشركون؟! فنوديت في سرى: ليس هذا منك ولو شئنا عرفناك ثم أحسست بطائر خرج من صدري فكان ذلك الطائر الإيمان، قال الشبلي: ففرحنا به فرحاً شديداً، وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوراً، فتحت فيه الرباطات والزوايا والخوانيت، وركب الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً، أقام على ذلك زماناً طويلاً،

(١) حديث «من بدل دينه فاقتلوه»... إلخ. حديث صحيح أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الجهاد، كما أخرجه الأربعة، وأورده السيوطي تحت رقم ٨٥٥٩ قال شارحه المناوي: قال ابن حجر: استدركه الحاكم فوهم (٩٥/٦).

ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك .

فبينما نحن جلوس عنده فى بعض الأيام بعد صلاة الصبح إذا بطارق يطرق باب الزاوية، فنظرت من الباب فإذا شخص ملتحف بكساء أسود، فقلت: ما تريد؟ فقال: قُلْ لشيخك إن الجارية الرومية التى تركت بالقرية قد جاءت لخدمتكم، قال: فدخلت وعرفت الشيخ، قال: فاصفر لونه وارتعد، ثم أمر بإدخالها، فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً؛ فقال لها الشيخ: كيف جئت؟ ومن أوصلك إلى هنا؟ قالت: يا سيدى لما وليت من قريتنا كان من أخبرنى بك، فبت ولم يأتنى قرار، فرأيت فى منامى شخصاً وهو يقول لى: إن أحببت أن تكونى من المؤمنات فاتركى ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعى ذلك الشيخ وادخلى فى دينه؛ فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام، قلت: وما هو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، فقلت: كيف لى بالوصول إليه؟ قال: أغمضى عينيك وأعطنى يدك، ومشى قليلاً ثم قال: افتحى عينك ففتحتها فإذا أنا بشاطئ دجلة، قال: امضى إلى تلك الزاوية وأقرئى الشيخ منى السلام وقولى له: إن أخاك الخضر يسلم عليك. قال: فأدخلها الشيخ على جواربه وقال: تعبدى هاهنا. . فكانت أعبد أهل زمانها؛ تصوم النهار، وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير رسمها؛ فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الفوات، ومع ذلك لم يرها الشيخ، فقالت: قولوا للشيخ يدخل على قبل الموت، فلما سمع ذلك الشيخ دخل عليها، فلما رآته بكت فقال: لا تبكى فإن اجتماعنا غداً يوم القيامة فى دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله، فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمه الله .

قال الشبلى: فرأيت فى المنام وقد تزوج سبعين حوراء، وأول ما تزوج بالجارية، وهما من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

• قَالَ اتَّناظَرُ رَحْمَةً اِنَّهُ :

٤٥ - يَرَى وَهُوَ أَحْنَى مِلءٍ أَحْنَاءَهُ ضَحَى

وَلَا يَشْتَكِي إِنْ عَيْقَ عَنْهُ ضَحَاءٌ

الأحنى، بالفتح والقصر: المنحنى الظهر من شدة الجد والتشمير وعدم الونى والفتور. والأحناء: جمع حنو وهو كل ضلع معوج. والضحي، بالقصر والفتح: مصدر ضحي، بكسر الحاء، أى عرق. الضحاء، بالمد والفتح: الغداء. وملء الشيء: المقدار الذى يملؤه.

والمعنى: يبصر موالى ضحي وهو منحنى الظهر من شدة الجد والتشمير المقدار الذى يملأ أضلاعه كافيًا له من الغذاء ولا يتعداه لطلب ما سواه مكثراً مفاخرًا ولو لم ينله إلا بعد عرق وكد، بل ولو منع منه ذلك المقدار الذى يملأ أحناءه فلا يظهر لأجل ذلك شكوى إلى مخلوق وإن منع منه ما لا بد منه من ضرورياته كغذائه مثلاً^(١) فأحرى ما لم تدعه إليه ضرورة. فجملة «وهو أحنى» فى موضع نصب على الحال من مرفوع يرى، وأما ملء أحنائه ضحي فيصح نصبها حالا منه أو من فاعل أحنى. والبيت فيه من البديع التضمين وهو متضمن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩] أى فى الجنة. وفيه الحث على الاكتفاء باليسير لأنه مقتبس من قوله ﷺ: «خيركم رجل خفيف الحاذ قل ترائه وقل بواكيه وقل حسابه»^(٢).

(١) فى النسخة (ب) بعد قوله: (مثلاً) هذا البيت:

إن الكريم إذا نالته مخمصة أبدى إلى الناس ربا وهو ظمان

وبعده:

يطوى الضلوع على مثل الغضا حرقا والوجه غمر بماء البشر ريان
فأحرى ما لم تدعه ضرورة إليه.

(٢) «خيركم رجل خفيف الحاذ»... إلخ. ضعيف روى بطرق كثيرة حكم على بعضها الصغاني بالوضع، ورواه الحاكم فى مستدركه بلفظ «إن أغبط الناس عندى لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة الله وأطاعه فى السر غامضا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصر على ذلك، ثم نفى رسول الله ﷺ بأصبعه وقال: عجلت منيته وقل بواكيه وقل ترائه» اهـ.

قال علي كرم الله وجهه: رجال هذه الأمة أربعة، وخيرهم رجل ارتحل من جنة إلى جنة، ويليه رجل ارتحل من نار إلى جنة، وخير الرجلين الأخيرين رجل ارتحل من جنة إلى نار، وشر منه رجل ارتحل من نار إلى نار. وهو الذي قال فيه ﷺ: «أشقى الأشقياء رجل جمع الله عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة»^(١).

وهو يشير أيضاً إلى التعفف عن المسألة بما يناله من عرق جبينه وكد يمينه لأنه من أحل الحلال وهو مراد الشارع.

يروى أن الله تعالى لما أهبط آدم من الجنة قال له: اهبط إلى دار الدنيا فإنك لا تنال العيش فيها إلا كدًا، فصابر جنود الهوى والشيطان بالجد والاجتهاد وكأنك بالعيش بالماضي وقد رجعت إلى أحسن من المعتاد؛ فقال: أي رب، وكيف أجاهده وأكابده وقد شغلتنى عنه بالكد في طلب المعاش وقد سلطته على وأفرغته لى؟ قال: إني سأعينك عليه فإني أغفر لك ولبنيك ما اقترفتما ما لم تغرغوا، إني جعلت الحسنة بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها وأعفو عن الكثير، وإني رفعت القلم عن الصبي حتى يبلغ وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ، وإني عفوت عنك وعن ذريتك الخطأ والنسيان وما استكرهتم عليه وما حدثتكم به أنفسكم، وإني جعلت مهلكاتك ثلاثًا وكلُّ قد أعتتكت عليه بطبقتين فأطبق عينيك ولسانك وفرجك، وإني جعلت الهم بالحسنة حسنة وغفرت الهم بالسيئة، وإني

= وقال: هذا إسناد للشاميين صحيح عندهم ولم يخرجاه، وعقب عليه الذهبي قائلاً: لا بل إلى الضعف هو، والله أعلم (١٢٣/٤) مستدرک. وسبق تخريج الحديث.

(١) حديث «أشقى الأشقياء»... إلخ. موضوع أخرجه الحاكم والطبراني والقضاعي، كما أورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ١٣٩ وصاحب الكشف تحت رقم ٣٧٥ وأورده السيوطي في جامعهم وقال المناوي شارحه: من العجب العجائب أنه رمز لصحته، وأورده الهيثمي وقال: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين في أحدهما خالد بن يزيد وقد وثقه أبو زرعة وضعفه الجمهور، وفي الأخرى أحمد بن طاهر وهو كذاب (٢٦٧/١٠).

وحكم عليه الألباني بالوضع بعدما ناقش جميع طرقه (١٧١/١).

قلت: ومن الغريب أن الحاكم قال فيه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٣٢٢/٤)، والله أعلم.

جعلت صاحب اليمين مقدماً على صاحب الشمال فلا يدعه يكتب السيئة إلا بعد تسع ساعات ليبصر مبصر وليستغفر مستغفر ولا يهلك على إلا هالك^(١).

ويروى أن داود عليه السلام لما آتاه الله الملك والنبوة جعل يخفى نفسه ثم يطوف في رعيته ليسأل الناس عن سيرته حتى لقيه ذات ليلة جبريل عليه السلام يظنه إنساناً قال له: ما بلغك عن هذا الرجل الذي يقال له داود في سيرته وعدله؟ فقال له: لم يبلغني عنه إلا خير إلا أن فيه عيباً واحداً؛ قال له: وما هو؟ قال: إنه يعيش من بيوت الأموال ولا يعيش من كد يمينه؛ فسقط داود عليه السلام على وجهه، وجعل يمرغ وجهه في التراب، ويسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل له حرفة يتكسب منها ويعيش فيها، فألان الله له الحديد فلا يأخذ حديداً إلا لان في يده فصار كالزبد، وهو أول من صنع الدروع. وكان عليه السلام يصوم يوماً ويفطر يوماً على بلغة من قيمة الدروع.

وكان ﷺ يقول: «خيركم المحترف». وكان ﷺ تاجراً قبل النبوة، فلما أرسل وأمر بالجهاد جعل الله رزقه تحت ظل سيفه، فأحل له الغنائم، وخصه بالخمس طعمة، وأحل له الهدايا، وحرم عليه الصدقة والمن ليستكثر، ومع ذلك كان لا يبيت على موجود، ويؤثر على نفسه حتى لبس الحصير، وحتى لا يجد ما يقع منه موقعاً؛ فعاتبه ربه في ذلك فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ولقد فتحت على أصحابه ﷺ كنوز كسرى وقيصر وأجيبت إليهم الأموال من الأقاليم فما غيرتهم وما أخذت منهم حتى لحقوا بصاحبهم على الحالة التي فارقه عليها.

يروى أن عمر رضي الله عنه لما ذهب إلى الشام ذهب إليه على حمار وعليه مرقعة ومعه عبدان له يتناويانه، فلما قدم الشام تلقتهم أمراء الأجناد، فأول من لقيه منهم أبو الأعور^(٢) السلمى وعمرو بن العاص السهمي على زى أهل الشام وعليهم

(١) هذا الكلام مؤلف من عدة أحاديث بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها صحيح المعنى والله أعلم.

(٢) أبو الأعور السلمى: هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمى، كان من أصحاب =

ثياب بيض، فجعل عمر رضى الله عنه يحثو التراب فى وجهيهما ويقول لهما: ما أسرع ما أخذت منكم الدنيا وأخذتم منها وغيرتكم! ما على هذا فارقتم محمداً وأصحابه. ثم لقي أبا عبيدة رضى الله عنه وعليه مرقعة، وبيده رمح ملعب، وتحتة سرج خلق؛ فعانقه والتزمه وجعلا يبكيان، فقال له عمر: أنت أخى والله، ما نلت من الدنيا ولا نالت منك، ولا أراك إلا ملاقيا صاحبك على الهيئة التى تركك عليها. ثم لقيه معاوية فى موكب عظيم وقد أتاه بفرس من فره خيل الشام فقال له: اركب عليه فقال: إن فى حمارى الكفاية عما أرى، فقال: اركب عليه فإن بالشام جواسيس الروم وبقايا من أجنادهم، وركوبك على الفرس أهيب لك فى صدورهم، فقال: هيهات! إنكم ترون الأمر من هاهنا، وأشار إلى الأرض، وأنا أراه من هاهنا، وأشار إلى السماء، فإن الله إنما أعزنا بالإسلام، فلا تزالون أعزة ماتمسكتكم بهذا الدين، فإذا ضيعتموه وتنافستم الدنيا سلط الله عليكم عدوكم؛ فأذلكم بعد العزة، ومزقكم بعد الجماعة. فلما علا عمر رضى الله عنه على جبل القدس لقيه أسقف إيلياء وهو على حالته وقد أخذ من مخلاته فتات خبز شعير يابس يأكله من غير إدام؛ فرجع إلى أهل إيلياء وقال: ويلكم أعطوه ما سأل؛ فإنى لقيت رجلا لو حاول إزالة جبل لأزاله، وإنه لعلى زى نبي لا زى ملك، لا كبرياء معه ولا تجبر ولا حرس ولا شرط، وإنه لصاحبكم الذى تجدونه فى كتبكم؛ ففتحوا له إيلياء، وأعطوه ما سأل. ودخل المسجد الأقصى، فلما دخله أمر بلالاً^(١) أن يؤذن، فأذن، فلما سمع أصحاب رسول الله ﷺ أذان بلال تذكروا رسول الله ﷺ؛ فارتجح المسجد بالبكاء، فسأل النصارى عن ذلك، فقيل لهم: إنه لما أذن

= معاوية بالشام، وغزا بأمر منه قبرس، وليست له صحبة على الصحيح، روى عن النبى ﷺ برسلا (٥٣٣/٢) الإصابة، والله أعلم.

(١) بلال: هو بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ، يكنى أبا عبد الله، مولى أبى بكر الصديق، اشتراه بخمس أواق ثم أعتقه، وكان خازن رسول الله ﷺ مع الأذان. شهد بدرًا وأحدًا ومئات المشاهد، وهو سابع شخص دخل الإسلام قلبه، وأسلم علنًا، وعذب لذلك عذابًا شديدًا، كان صادق الإسلام طاهر القلب، أصله مولى لبنى جمح، ومولده فى مكة أو فى السراة، واسم أبيه رباح، واسم أمة حمامة، توفى رضى الله عنه عام ٢٠ بدمشق، أذن حياة النبى ﷺ وحياة أبى بكر، ثم ترك المدينة وسافر إلى الجهاد فى سبيل الله، ولم يؤذن خلافة عمر إلا مرة واحدة، والله أعلم.

مؤذن رسولهم ذكروه فبكوا لفقده، فقالت النصرارى: أما هؤلاء فلا يناوئهم أحد إلا ظهروا عليه ما داموا على هذه الحالة من الرقة والوفاء والعدل واليقين، لكنهم سيغيرون ويتغيرون كما فعلت الأمم قبلهم، ولن ينصروا بعد ذلك إلا بالعدد، ولن يكونوا أكثر الأمم، ثبتنا الله على دينه ولا جعلنا ممن يغير فيغير عليه.

• قال الناظم رضى الله عنه:

٤٦ - كَفَاهُ الْمَشَاهِمَ الْمَشَاءِ فَلَا شَرِيَّ لَدَيْهِ لِأَقْوَاءِ^(١) حَوَاهُ شَرَاءُ

«المشى» بالقصر والفتح: نبت معروف يقال له الفصّة، والفصيصة تأكله العرب عند الخمصة وربما أكلته تفكها. و«المشاء» بالمد والفتح: كثرة النسل، ومنه سميت الماشية ماشية. والشرى: شدة الغضب، يقال: أشر الرجل، بالكسر: إذا استشاط غضباً، وربما سمي به كل شيء بلغ فيه الغاية مما لا ينبغي قال الله تعالى: ﴿كَذَّابٌ أَشْرٌ﴾ [القمر: ٢٥]، ويطلق الأشر فيراد به النهامة، يقال: أشر أكل. و«الشراء» بالمد والفتح: موضع معروف تعتزل فيه المتصوفة.

والمعنى: كفى من ذكر وهو موالى ضحى إذ الضمير عائد عليه أى أغناه ما فيه كفافه وما تقوم به بنيته من الحلال كالمشى مثلاً وما فى معناه من نبات الأرض الذى لا يفتقر فى تحصيله إلى كبير مؤونة ولا يخشى معه تبعة لمخلوق. «هم»: مفعول كفى، و«المشى»: فاعله. و«المشاء» بالمد: مضاف إليه، أى كفاه هم غيره ككثرة النسل أى الاهتمام به، وهو ميل النفس إلى تحصيله، أو الهم الكائن لأجله بعد حصوله الذى يوجب فقدان ما يحتاج إليه من مأكله ومشربه وملبسه؛ ومنشأ الكفاية أن الاقتصار على ما فيه الكفاف من الحلال ينور البصيرة، فتطيب السريرة، فتصرف النفس عن الدنيا الحقيرة، وتطمح إلى المراتب الخطيرة، فتعد من أجل ذلك كل كبيرة صغيرة، ومن كان كذلك فلا غضب لديه لأجل ما فاته من دنياه، إذ لا يغضب كبير خطير لفوات صغير حقير؛ لأنه صار لسيدته الكبير الذى هو أكبر كل شيء عبداً فلا يرى ما دونه كبيراً. [قوله: لأقواء: جمع قوى، وهو

(١) فى النسخة (أ): لأفوات بدل (لأقواء)، والأول عليه الشرح.

المكان القفر^(١).

وقوله: «حواه»: أى ضمه مكان قفر ينفرد فيه بربه حرصاً على صفاء قلبه وجلاء مرآة لبه. وقوله: «لأفوات» جمع فائت، وهذا كله منه حث على العزلة والخلوة بالله عز وجل والتبرؤ من الخلق بالفرار إلى الخالق. قال الرسول ﷺ: «الخمول نعمة وكل الناس يأباه، والظهور نقمة وكل الناس يتمناه»^(٢).

وقال بعضهم: تخلق بالخمول تعش سليماً وجالس كل ذى خلق كريم.

وقال غيره: كم وحدة أنفع من بجليس، ووحشة أنفع من أنيس.

وكان أبو معاوية الضرير يقول: فى خصلتان ما يسرنى بهما رد بصرى: قلة الإعجاب بنفسى، وخلو قلبى من حب اجتماع الناس إلى.

وقال عمر رضى الله عنه: خذوا حظكم من العزلة.

وصعد حسان على أطم^(٣) من أطام المدينة فنادى: واصباحاه؛ فاجتمعت إليه الخزرج فقالوا: ما عندك؟ فقال: قلت بيت شعر أحببت أن تسمعه، قالوا: هات قال: (من بحر الطويل)

وإن امرأ أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبى وقاص منزله بالعقيق قيل له: تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ونزلت العقيق؟! فقال: رأيت أسواقهم لاغية، ومجالسهم لاهية؛ فوجدت الاعتزال فيما بينهما عافية.

(١) ما بين القوسين زيادة من نسخة (ب).

(٢) «الخمول نعمة وكل الناس يأباه... إلخ». ليس بحديث وإنما هو من كلام بعض السلف، أورده صاحب الكشف تحت رقم ١٢٢٦ والسخاوى فى القاصد تحت رقم ٤٤٦ وقال: ليس من كلام النبى ﷺ، إلا أن صاحب الكشف قال: ثبت معناه عند مسلم مرفوعاً: «إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى».

إلى أن قال: قال ابن الغرس: وقد رأيت فى بعض التعاليق زيادة: (والشهرة نقمة وكل يتوخاها). اهـ، وقال: وقد جاء فى السنة وفى كلام السلف ما يدل لهذه الزيادة، والله أعلم (١/٤٦٠).

(٣) الأطم: الحصن.

وقيل لعروة أخى مرداس: لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم؟ فقال: أكره أن يميل قلبى باجتماعكم إلى حب الرئاسة فأخسر الدارين.

وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضيل نعوده فقال: ما جاء بكم؟ والله لو لم نجئونى لكان أحب إلى، ثم قال: نعم الشئ المرض لولا العيادة.

وقيل للفضيل: إن ابنك يقول: وددت أنى بالمكان الذى أرى الناس فيه ولا يروننى، فقال: ويح على لم لا أتمها فقال: لا أراهم ولا يروننى؟

وقال عليه الصلاة والسلام: «طوبى لمن شغله عييه عن عيوب الناس، طوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعة ربه، وبكى على خطيئته، وكان من نفسه فى شغل والناس منه فى راحة»^(١).

وقال سفيان الثورى: الزهد فى الدنيا الزهد فى الناس.

وقيل لراهب فى صومعته: ألا تنزل؟ فقال: من مشى على الأرض عشر.

ثبت الله أقدامنا على طاعته ولا جعل لنا سبيلا إلى معصيته، آمين.

• قال الناظم رحمه الله:

٤٧ - وَتَأَلَّفَهُ الْخَيْطَاءُ وَحَيْطَاءُ الْفُهُ وَكَوَلَا أَلْمَنَى لَمْ يَرْضَ مِنْهُ مَنَاءُ

و«تألفه»: أى تسكن إليه وتستأنس به، والضمير راجع على المنفرد بالشراء للخلوة بربه. و«الخيطاء»: لغة فى الخيطة وهو القطيع من النعام. و«الخيطاء» بالمد والفتح: النعامة الطويلة العنق والقائمتين، وقيل: التى يخالط سوادها بياض.

(١) «طوبى لمن شغله عييه عن عيوب الناس»، هذا القدر من الحديث رواه الديلمى وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٦٧٣، وقال: قال فى التمييز: أخرجه البزار بإسناد حسن (٦٠/١)، وأورده كذلك السخاوى فى المقاصد تحت رقم ٦٦٣ وقال: رواه الديلمى عن أنس، وأورد السيوطى الجزء الأول منه فى جامعه تحت رقم ٥٣٠٦ والجزء الثانى تحت رقم ٥٣٠٨. قال المناوى شارحه: وقال العراقى بعد ذكر طريقته: وكلها ضعيفة (٢٨١/٤) أما الجزء الثانى من الحديث الذى هو «طوبى لمن ملك لسانه»... إلخ. فقد قال فيه الهيثمى: حسن، ورمز له السيوطى بالحسن تبعاً لذلك، والله أعلم.

و«المنى» بالفتح والقصر: لغة شاذة في القدر ولذلك اشتق للمنية اسم منه فيقال: المنية يأتي بها المنى.

قال الشاعر:

إن المنى تأبى المنى فاختر رضى وسلم

و«المناء» بالفتح والمد: محل النهوض أو النهوض نفسه، و«النوء والمناء»: النهوض عن ثقل وتؤدة حتى لا يكاد يفعل؛ قال الله تعالى في صفة أموال قارون: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

والمعنى: وتآلف من ذكر في شراء أى تصحبه فيه جماعة من النعام، وإفقه أى مؤالفه نعامة موصوفة بطول العنق والرجلين أو باختلاط البياض والسواد فيها، أى من شدة فراره عن الناس وطول ملازمته للفلوات ألفتها وجاورته وأنست به، ولولا القدر لم يرض أحد نهوضاً في حال كونه منه، بمعنى أن كل من تجرد لربه بقلبه وجسمه فهو ملحوظ بعين السخط والاحتقار عند العامة لنبو العين عنه وازدراء النفوس له فلا يعبأ به لقلته^(١) وذلته، ولعله ممن لو أقسم على الله لأبره، وإنما يرضى نهوضه مع ما يجد من الاحتقار والأمور الشاقة على النفس باعتبار أن الله أقدره على ذلك وتعلقت بتخصيصه إرادته القديمة لا بالنظر لصدوره منه.

وليس بعجب لزوم الوحوش للصالحين المتجردين، ولقد كثر ذلك حتى صار أمراً ضرورياً، كما روى صاحب الرياض أن أبا مدين رضى الله عنه قال: أول ما فتح به على في خلوتي أتى كلما أتيت متعبدى وموضع خلوتي انحدرت إلى من الجبل غزالة، فتلحسنى من قدمى إلى مفروق رأسى، ثم تبرك بإزائى، وتجعل تجتر وتنظر إلى، حتى ذهبت يوماً إلى بعض القرى، ففتح على بخمسين ديناراً، فصررتها في مرقعتى، وأتيت بها متعبدى، فما هو إلا أن وقع بصرها على، أقبلت إلى تعدو، فجعلت تنطحنى حتى كادت تمزق على مرقعتى، فعلمت أنه لم يصبنى ما أصابنى إلا من تلك الخمسين؛ فألقيتها في الماء، فلما ألقيتها رجعت إلى عاداتها معى وجعلت تلحسنى.

ويروى أن قُس^(١) بن ساعدة كان يَرِدُ الغدران والمياه، فإذا طرد القوى من الوحش الضعيف أخذ بقرونه وقال: والله لا تشرب حتى يشرب الضعيف، وكان يذودها كما يذود الرجل غنمه.

ويروى أن رجلا ضلت له إبل، فطلبها شهراً، ولم يترك أرضاً من بلاد الله إلا طلبها فيها إلا وادي بيشة فإنه تحاماه لكثرة سباعه وقطاعه، فلما أشفى على الوادي إذا هو بإبله ترعى، وإذا هو بولى من أولياء الله فى غيضة^(٢) من تلك الغياض، فتلطف حتى دنا منه، فلما دنا منه إذا بأسد يحمل غزالا على رقبتة حتى وضعه بين يديه فقال له: هذا فطورك أتيتك به، وإذا بأسد آخر قد أقبل وليس معه شيء فقال له: يا ولى الله طردت هذا الغزال حتى أتعبنى طرده، فلما أخذته لأذهب به إليك جاء هذا الأسد فغلبنى عليه وذهب به إليك، فجعل يأخذ بأذن الأسد ويصفعه ويويخه وهو يبصص بذنبه، ثم قال: اذهبا بغزالكما فلا حاجة لى به، فبينما هو كذلك إذا بطائرين كل منهما يقول: أفطر بى يا ولى الله، فقال لهما: نعم، أحدكما لى والثانى لضيفى صاحب الإبل الذى يظن أنى لم أعلم به، فأتاه وجعل يقبل يديه ورجليه، ثم أقبل عليه وقال له: إن إبلك عندى منذ شهر، خلصتها من السباع والطوارق، فذبح الطائران من غير ذابح، ونتفا من غير ناتف، ونضجا من غير منضج، فناوله أحدهما ثم قال له: إياك أن تكسر له عظماً، فلما فرغنا من الأكل جمع عظامهما وجعل عليهما كمة ثم قال: ارجعا إلى هيتكما بإذن الله، فما استتم كلامه حتى طارا بإذن الله، فجعلت ألتمزه وأبكى وأطلب منه الدعاء، فالتفت وهو يبكى ويقول: اسأل الله أنت لى فإنى لا أدرى أين الفائر أنا

(١) قس بن ساعدة بن جذامة الإيادى خطيب العرب، عده بعضهم من الصحابة، والصحيح إن شاء الله خلاف ذلك، وهو أحد المعمرين، وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكل على عصا فى الخطبة، وأول من قال: أما بعد، وأول من كتب: من فلان إلى فلان، وقد رآه النبى ﷺ فى سوق عكاظ على جمل أحمر، وفى رواية: أورك.

أما فضيته مع السباع أو الوحوش التى أورد الشيخ فقد ذكرها ابن شاهين عن رجل من قوم قس عن قس، وأوردها عنه ابن حجر فى الإصابة وسكت عليها، إلا أنه قال: السباع بدل الوحوش (٢٦٥/٣) والله أعلم.

(٢) الغيضة: مجتمع الشجر فى مغيض الماء (الأجمة).

أم أنت؟ فإنك مؤمن لم يعجل لك من حسناتك شيء وأنا قد عجل لي ما ترى، فإن الكرامات بلايا في أشخاص، عطايا، فالمغتر بها هالك، والمعتمد عليها منقطع، والمنكمش عنها على خطر عظيم. ثم أخذ في البكاء والنحيب، فاستقت إبلى وتركته يبكي^(١).

ويروى أن أخوين من أهل تونس كانا وليين لله تعالى، أحدهما متجرد، والآخر متكسب، وكان المتجرد كثيراً ما يطعن في المتكسب، وقد بلغ من تجرده أنه كان يركب أسداً ويلجمه بأسود صالح^(٢)، وكان لكل منهما مريدون، فأرسل المتجرد رجلاً من تلاميذه فقال له: اذهب إلى أخي المفتون عن الله فسلم عليه مني وقل له: إلى متى هذا الشغل عن الله؟! فذهب المريد، وجعل لا يمر على بستان من بساتين قرية المتكسب إلا قيل له: هذا لفلان المتوجه إليه حتى دخل القرية فإذا الأموال تجبي إليه من كل ناحية، فرأى من ذلك أمراً عظيماً، فبينما هو كذلك إذ أقبل الشيخ في غاشيته^(٣) والمظلة عليه قد لبس الوشى ومريدوه حافدون^(٤) في خدمته، فلما رأى ذلك اشمأزت نفسه حتى هم بأن لا يراه ولا يبلغ له رسالة أخيه المتجرد، ثم قال: لأؤدين رسالة الشيخ إليه ولا أبالي بحال هذا الهالك، فبلغه الرسالة والسلام، فلما قال له المريد ما قال تبسم الشيخ المتسبب ثم قال له في تودة: سلم على أخي المتجرد بزعمه وقل له: أخوك يسلم عليك ويقول لك: إلى متى وأنت في سكر حب الدنيا؟! ولو أتيتني لرأيت ما لم يكن لك في حساب. فانصرف المريد غير مكتوث برسالة الشيخ لسخطه عليه، فلما قدم على الشيخ أقبل عليه يسأله عن أمر أخيه وما قال له، فقال المريد لشيخه: إنك ما أرسلتني إلي أحداً فقال له: ومع ذلك فأخبرني بما قال، قال: إنه يقول: سلم على أخي المتجرد بزعمه وقل له: أخوك يسلم عليك ويقول لك: إلى متى وأنت في سكر حب الدنيا؟ ولو أتيتني لرأيت ما لم يكن لك في حساب. فلما سمع مقالة أخيه

(١) ما أشبه هذه الحكاية بحكايات الخرافات!!

(٢) الأسود: الثعبان، السالخ صفة له، ومعناها الحية التي تسلخ من جلدها كل سنة.

(٣) الغاشية: الخدم، والزوار.

(٤) حافدون: مسرعون.

خر مغشياً عليه، فقال: لقد صدقنى أخى والله ونصحنى، ولو كنت مكانه لأفتنت. ثم تأهب وسار إليه فى تلاميذه، فلما قدم إليه بنى له فسطاطاً^(١) وبسط له ما ينبغى، وقد أمر زوجاته بتزين الجوارى، وقد قيد أسده بأسوده، وقال فى نفسه: والله إنهن لجميلات لولا أن فيهن مشغلا عن الله، فأقبل على أسده لما أراد الذهاب على عادته، فهر له الأسد وفغر الأسود فاه وهما به، فلما بلغ الشيخ المتسبب ذلك أقبل إليه وأخذ بأذن الأسد يقوده ذليلاً، ثم حل الأسود من رجله خاضعاً فقال لهما: على زلة من أخى تسيئان معه الأدب؟! أقبل يا أخى واركب على كلبك واذهب إلى الصحراء فإنما كان يترك وأصحابك الفرار والحيل، فها أنت قد فنتت بجوار يحملن الطعام! فما ظنك لو وقع بصرك على سيداتهن فى الجمال وقد لبسن الحلى والحلل وتضمخن بالطيب كأنهن البدور المسفرات، وقد رفعت الرجال عنهن الهمم، وهن فى قبضة الملك، وعلى بساط الإباحة، شغلاً بالله، وما ينظرون إليهن إلا كما ينظرون إلى الحجارة اكتفاء بالمحسن^(٢). وليس الشأن فى قتل الحية، إنما الشأن فى أخذها وهى حية، وشتان ما بين من منع نفسه بالميدان ونهته عن ساحته فى ممارسة الأقران وبين الفار الجبان المرتعش الولهان^(٣) الذى لا يبالى إن سلم بذل ولا هوان.

وحكاياتهم رضى الله عنهم فى مثل هذا لا تنحصر. حصر الله رجاءنا عليه، وفيما لديه.

• قال الناظم رحمه الله:

٤٨ - وَلَيْسَ كَذَى جَرَبًا بِجَرَبَاءِ مَاكثٍ قَرِيبِ الْكَدَا فَالْوَصْلُ مِنْهُ كَدَاءٌ

أى وليس المتجرد بشراء على وجه الخلوة بربه حرصاً على صفاء قلبه وجلاء مرآة لبه مثل صاحب إبل ذات جرب، واحدها جربى بمعنى أجرب ماكث فى أرض جرباء، بالمد: أى مقحوظة. قريب الكدا، بالقصر: أى الغضب، فالوصل

(١) الفسطاط: خيمة كبيرة من شعر، ج فساطيط.

(٢) كذا فى الأصلين ولعل المعنى اكتفاء بالمحسن باسم الفاعل عن المحسن باسم المفعول والله أعلم.

(٣) الولهان: الخائف.

معه لأجل ذلك كداء، بالمد: أى مقطوع، بل هو على خلاف صاحب شراء البعيد الغضب القريب الرضى الواسع الصدر لزهده فى الدنيا ورغبته فى الآخرة واتساع صدره للصاحب والخليل لمعرفة بالله واعتماده عليه وحسن إخائه فيه، فحبله لمن وصله موصول، وفضله مبدول، وقربه معسول، كما قال الشاعر: (من بحر البسيط)

تكاملت فيك أوصاف خُصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة والكف مانحة والنفس واسعة والوجه منبسط

وفى البيت من البديع التلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ [النجم: ٣٤] وفى أكدي اشتراكات: منها أكدي بمعنى بخل، وأكدي بمعنى قطع وأمسك، وأكدي البئر إذا ظهرت فيه كدية دون الماء، وأكدي الفرس إذا لقيت حافره كدية منعتة من تمام اعتماده عليها. لا أكدي الله علينا فى الإحسان، ولا ضيق علينا فى ميدان المن والامتنان.

• قال الناظم رحمه الله:

٤٩ - يقي ذا العظاء داء العظاء بكرّ ذى وقى ماله دون القضاء وقاء

العظاء، بالقصر والظاء المشالة: مصدر عطي البعير، بالكسر، إذا اشتكى من أكل العنظوان، وهو ضرب من الحمض. والعظاء، بالمد: جمع عظاية، وهى دوية تؤلم الإبل وتضنيها، وأصل ياء العظاية الهمزة، ووضع الياء محل الهمزة فى هذا وما أشبهه من كل مفرد يزيد على جمعه بالتاء جائز. والوقى: مصدر الواقى من الخيل، وهو المتوقع الأرض لعرج به. والوقاء، بفتح الواو وكسرها: ما يتوقى به الشيء.

والمعنى: يقي ذو الإبل الجرباء اللابث فى جرباء الجمل الذى اشتكى من أكل العنظوان داء العظاء، أى يستره منه وحاول حمايته يجرى فرس صاحب عرج يتألم من مس حافره الأرض لأجل ظلع أصابه فيجتهد ولا يجدى، ويزيد بذلك غمه،

ويتضاعف همه، ويكثر غضبه، ولا يزول غضبه^(١)؛ فالمثال لذي نفس شريرة خبيثة
 دنيئة اكتسبت مالا من سحت وحرام، كلما حاولت فلاحًا ونجاحًا ازدادت عطفًا
 لتعذر أسباب الفلاح لخبثها وخبث مكتسبها. فالإبل الجرباء كناية عن الكسب
 الخبيث الذي أفرده عن أبناء جنسه، لأن الخبيث الطبع القليل النفع لا يألف ولا
 يؤلف؛ فيتجنبه الناس لخبثه، ويتجنبه الناس لسوء أخلاقه ويخله وإملاقه، فبقدر ما
 يتوغل في أخلاقه يزيد من الله بعدًا، ويزداد الناس فيه زهدًا؛ فلا خير عنده يعهد،
 ولا خصب بأرضه يقصد. والجرباء، بالمد، كناية عن أحواله المجذبة، فمنها ما هو
 سباخ لا ينبت ولو كثرت عليه الهتون، ومنها ما هو حزن^(٢) خبيث قليل الخير
 فينبت ما لا نفع فيه كالعشر^(٣) الخمط^(٤) والعنظوان والشبرق والزقوم واليريز^(٥)،
 وإن نبت معه حشيش نبت قليلًا متفرقا. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي خُبْتُ لَا يُخْرِجُ إِلَّا
 نَكَدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] فينبت عشر: الرياء والسمعة والبطر والغفلة وعنظوان الإسراف
 والقتر وشبرق الشح والأشر وزقوم المخالفات ويريز المعاندات، فإن طرقة طارق
 خير أو داعى رشد لم يجد في الساحات قابلية وإن قصد إليها طيف وأبله جرئًا
 حَيَّالًا^(٦)، وله من جنسه عيال، أدلقتهم جوع وهزال، وأقلقتهم شح وانتحال،
 فحمل حزمه منعوظ، وجواد عزمه موقى منحوظ^(٧)، فلا هو للقضاء يدفع، ولا
 هو للبلاء يرفع، ولا له عند الله جاه فيشفع، ولا له من الله عناية فيضرع، ولا له
 في سابق القدر سهم فيخشع، ولا له آلة النهوض فيفزع، فحزنه طويل، وجاره
 ذليل، وقربه ثقيل، لا يغنى فتيلًا، ولا يريش نزيلًا، ولا يمنع دخيلًا، عقده
 محلول، والمتنصر به مخذول، وعرشه مثلول، فَنَجَرَبُ أخلاقه لا يداويه الهنا،
 وشؤم أحواله لا يزيله العنا، وعنظ^(٨) عزمه لا يداوى، وعرج حزمه لا يناوى،

(١) كذا كرر غضبه مرتين، وهذا في النسختين (أ) و (ب) ولعله غير ذلك.

(٢) حزن: صلب.

(٣) العشر: شجر له أوراق كثيرة لا يؤكل.

(٤) الخمط: المتغير الرائحة، والمراد هنا الشجر الذي لا شوك له.

(٥) العنظوان والشبرق والأرزين: نباتات لا خير فيها.

(٦) العبارة غير واضحة في النسختين ولعلها (جرئًا سيال) أى كثير السيل.

(٧) منحوظ: نحظ الفرس إذا أطلق صوتًا مكتومًا من الإعياء.

(٨) العنظ: الفحش.

وعطاء مصائبه لا يزد، ووباء نوائبه لا يسد، إذ على قدر تقوى الله تأتي المواهب، كما أنه على قدر الذنوب تأتي المصائب، وفي ذلك يقول القائل: (من بحر الطويل)

على قدر تقوى الله تأتي المواهب وتأتى على قدر الذنوب المصائب

وفي البيت وما قبله نوعان من البديع: وهما الكناية كما ذكر آنفاً، والاستطراد لأنه مدح موالٍ ضحى بالأبيات الثلاثة، ثم استطرده يذم الجرباء بثلاثة أبيات.

• قال رحمه الله:

٥٠ - يَظَلُّ بِمَشْنَى جِيدٍ مَثْنَاءَ مُغْرَمًا وَيَهْوَى وَرَى مَا يَنْتَقِيهِ وَرَاءُ

قوله: يظل: من أخوات كان، مغرمًا: خبره، بمشنى: جار ومجرور متعلق بيظل، وهو المنعطف من الجيد والخصر ونحوهما. ومثاء، بالمد، فعلاء: وصف لامرأة تشتكى مشاتها من السمن. والورى: مصدر ورى المخ، بالكسر: إذ كثر. والوراء، بالمد، ولد الولد.

والمعنى: يظل صاحب الجرباء لدناءة همته مغرمًا أى مولعا بعطف جيد امرأة مشتكية مشاتها، ويهوى أى يحب اكتناز المخ من السمن لما تعوده من لؤم الطبع وخبث الأخلاق؛ فقصاراه فى الدنيا ماشية كإبل تعب فى تحصيلها ورعايتها ويفنى أيامه فى معالجة ما بها من الآفات، وامرأة حسناء تشغله بمحاسنها عن المقصود بالذات والاستعداد لما هو آت بما بعد الممات، فهى تسايه فى لؤم الأخلاق، وتباريه فى الفسق والنفاق، وإيقاع يهوى على ورى لأجل أنه السبب فى هوى صاحبته، فهو فى الحقيقة إنما يهوى الورى وما ينتقيه أى يخرج نقيه^(١)، وليس ذلك من هم الرجال العقلاء الأذكياء، وإنما هو مما يولع به صغار البنين كالولد وولد الولد مثلا لذمامته؛ فتجد النفوس تعافه وتذم فاعله، يقال: انتقيت العظم: إذا استخرجت نقيه، وانتقيت المخ: استخرجته من العظم.

(١) نقيه: مخه.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

* ولا نتق المخ الذي في الجماجم *

* ثم بالغ أيضاً في ذمه ووصفه بالضلال وعدم الهداية بحال، فقال رحمه الله:

٥١ - كَأَنَّ بَغَطُشِي مِنْهُ غَطُشَاءُ أُعْشِيَتْ

بِعَوَى فَلَا عَوَاءَ ثُمَّ تَنَاءُ

يعنى كأنه في ضلاله بأرض غطشاء: وهى التى لا يهتدى فيها بمنار ولا يكاد الخريت يجد فيها سبيلاً إلى النجاة لاتساعها وقلة مائها وبعدها عن العمران وخلوها من القاطن؛ فهى لا تسلك ولا تملك، وكأنه فى جهالته وعدم علمه ناقة غطشاء، بالمد، وهى العمشاء التى لا تكاد تبصر نهارا، وفى حمقه وقلة ذكائه وعدم استبصاره ناقة عشواء: وهى التى لا تبصر ليلا؛ فهو مسرمد الضلال، دائم الخيال، ظاهر الوبال، فإذا وقع عليه ضوء النهار منعه العمش، وإذا أجته الليل حبسه العشا والرمص، وإذا سار فى باديته منعه الغطش^(١) وأحاط به العطش، ومع ذلك فزمنه زمن العوى: وهى منزلة من منازل القمر كثيرة الرياح والغيوم شديدة الحر والسموم؛ فلا عواء، بالمد، تحمله، وهى الهرمة من النوق التى لا تكاد تنأى، أى تنهض، لهرمها وهزالها مع أنها لم توجد أصلا؛ فهذه حالة صاحب الشهوات، المطرح لما هو آت، الذى لا همة له ترفعه، ولا سابقة عناية له من الله تنفعه، ولا حب يقوده، ولا تقوى تدوده؛ فعلى ذلك يكون البيت مقتبساً من قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا﴾ [النور: ٤٠] نور الله بصائرنا، وجعل تنويرها من لدنه.

(١) الغطش: الظلمة.

* ثم ذمه أيضاً رحمة الله عليه بنوع آخر من الدناءة ليس هو من جنس ما قبله، فقال:

٥٢ - يُضَاهِي الْغَرَى مَنْ لَا غَرَاءَ وَلَا ضَرَى

لَهُ بِالْتُقَى لَا أُمَّ مِنْهُ ضَرَاءٌ

قوله: يضاهي الغرى: أى يشابه ويمائل الغرى، وهو ولد البقرة أول ما يولد حتى يشتد لحمه، فهو لبلهه وعدم فطنته يظن كل ما رأى أمه فيطلب منه إرضاعاً وانتفاعاً وربما كان ذلك سبب حثفه بأن يرمحه رامح فيتلفه أو يضربه ضارب فيؤلمه، فكذلك من لا غراء له، بالمد مصدر غرى بالشىء بالكسر، أى ولع به لما يبصر فيه من حسن عاقبته لذكاء عقله ونفوذ نور بصيرته، بخلاف من لا غراء له فإنه يرى كل بيضاء شحمة وكل مدور كعكا. وقصر الغراء أشهر من مده كما نقله العيني وغيره. والضرى، بالقصر: مصدر ضرى بالشىء، بالكسر: إذا اعتاده وتدرّب به، وفى المثل: «قطع الضراوة عداوة» وفى الخبر: لذئب ضار أبقى على الغنم من عالم السوء على الأمة. وفى رواية: بأفسد للغنم من عالم السوء للأمة والضرء، بالمد: أرض مستوية ذات شجر وتلال، وهو مأخوذ من الضرى وهو الدف. وأم: فعل ماض بمعنى الدعاء مبنى لما لم يسم فاعله، أى لا قصد منه ضراء، والضرء: المنعة والالتجاء ووجود الرفق، وضراء: نائب فاعل أم.

والمعنى: يشابه الحيوانات العجم من لا ولوع له بالْتُقَى ولا ضراوة له عليها؛ لأن فضيلته عليها إنما هو انتفاعه بعقله فما يعود عليه نفعه فى عاجله وآجله كالولوع بتقوى الله، فإذا سلب من ذلك سلب من حال مزيته عليها وساواها فى مجرد تناول على مقتضى الشهوة وما تدعو إليه النفس من ارتكاب هواها فى تحصيل مناهها على أن فيه رداها، أما بالنظر إلى المآل فهى أفضل منه حيث كانت لا تحاسب ولا تعاقب؛ فالييت حينئذ مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤] لأن الله تبارك وتعالى جعل العالم الحساس على ثلاثة أقسام: قسم ركب فيه العقل دون الشهوة وهم الملائكة، وقسم ركب فيه الشهوة دون العقل وهم البهائم، وقسم ركب فيه عقل الملائكة وشهوة البهائم وهم الثقلان، فمن غلب عقله على شهوته فهو كالملائكة بل هو أفضل، ومن غلبت

شهوته على عقله فهو كالبهائم بل هو أضل؛ إذ أعطى آله الشرف فضيعها، إذ هي الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ﴿فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] بتضييعها بعد أخذ العهد عليه من الله بصيانتها وترفعها، ﴿جَهُولًا﴾ بقدرها وغلاء قيمتها، إذ بسببها سجدت له الملائكة الكرام، ووجب عليهم بسببها التبجيل والإعظام؛ فهم يحرسونه من طغاة الجان، ويحفظون عليه أعماله إلى منتهى الأزمان، ويستغفرون له في كل حين وأوان، وبلغ من عظمته أن حملة العرش الذين يحملون العرش ومن حوله يستغفرون له ويدعون له بالهداية ويسألون الغيث في كل سنة لعياله وعالته، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

* * *

• قال انناظم رحمه الله:

٥٣ - وَالْيَ بِالْأَاءِ كَأَبَى إِذَا طَغَى فَبَابُؤُهُ مِنْهُ إِذَا بُرَأَ

ألى الرجل: إذا عظمت أليته، يقال له: رجل ألى وألى إذا عظمت أليته. والآء: النعم واحدها ألية^(١)، قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] وما بعدها، وآبى، بالفتح والقصر، وزنه أفعل، وهو ذو همزتين قلبت ثانيتهما وهى التى فى محل الفاء، وهو وصف للعنز التى أبيت، بالكسر، أى أصابها الأبى، بالفتح، وقد تقدم تفسيره فى قوله:

كأن الورى والموت نسى وراءهم ذوات الأبى قد حازهن أباء

والمؤنث: عنز أبواء.

وآباء، بالمد: جمع أب. فالى يصح فيه أن يكون مجروراً بواو رب أو برب المحذوفة بعدها، وهو مرفوع بمعنى الابتداء، وخبره كآبى، ويصح فيه أن يكون مرفوعاً عطفاً على «من» فى قوله «من لا غراء له ولا ضرى له» وقوله: «إذا طغى» راجع لآبى، وهو المنظور إليه بتشبيه الآلى بالآبى.

(١) فى القاموس المحيط: «والآء: النعم، واحدها: إلى وألى وألى وألى» وليس فيه (ألية).

ومعنى تركيب البيت يضاهاى الغرى الذى لا غراء له بالتقى، وألى أى صار عظيم الأليتين لفراغ قلبه بالتنعم بالآلاء فى حال كونه مثل عنز أصابها مرض الأبي عند طغيانه، أو فى زمن طغيان ذلك الأبي بسبب نعم الله، فالمشبه بالشىء فى حالة طغيانه أى طغيان المشبه به يلزم منه أن يكون هو طاغياً وإلا لما حضر ذلك القيد فى المشبه به حال التشبيه، وحاصل الأمر أن الآلاء أى النعم أظغت الآلى بالقصر وأبطرته؛ فشبّه بسبب طغيانه بالنعم وبطره بها بعز الأبي عند طغيانه، وحالة المشبه به إذ ذاك الوقوف والصياع، وذلك يكسبه ضرراً؛ وهكذا الطاغى بنعم الله تعالى يعود وبال ذلك عليه عاجلاً وآجلاً؛ أما عاجلاً فإن النعم التى طغى بها تزول عنه كائنة ما كانت؛ لأن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ولو لم يحصل له فى الآجل إلا تحسره على ما قوته عليه الطغيان بالنعم من عدم الشكر عليها لكان ذلك كافياً. وأما براءة آباءه منه فلانتفاء الشبه بينهم وبينه؛ فتنحقق غيريته^(١) لهم، والغير براء من غيره، ويعنى بآبائه آباءه الأقدمين من النبيين والمرسلين ومن تبعهم من الأئمة الهادين المهتدين لتبرؤ السلف الصالح من الخلف الطالح الذين قال الله فى مثلهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩] بخلاف الخلف، بالفتح، فإنهم الذين خلفوا الأسلاف باقتداء آثارهم واتباع سننهم بالشكر على النعم الشكر التام الذى يستوجب المزيد؛ وهو استعمال الجوارح فيما خلقت له، واستغراق النعمة فى عين المنة مع رؤية التقصير.

والنعم على قسمين: ظاهرة وباطنة، وكل منهما لا يتأدى شكرها إلا من جنسها، فشكر النعمة الظاهرة لا يتأدى إلا بالشكر الظاهر، فالظاهرة نعمة الإسلام، فلا تتأدى إلا بامتثال الواجبات وما يتعلق بها من السنن والمندوبات، مع لهج اللسان بالذكر والشكر على التوفيق. والنعم الباطنة الإيمان، ولا يتأدى شكرها إلا باستحضار القلب لتحقيق متعلقاته من البراهين والدلائل العقلية والنقلية إن كان من أرباب السلوك، وأما إن كان من أرباب المشاهدات فالغيبية والغفلة فى حقهم محال، إذ قد استغرقوا فى معارف الله ومشاهداته، فيستدلون به

(١) فى (ب): مغايرته لهم، والغيرية والمغايرة واحد.

على الأكوان ولا يستدلون بالأكوان عليه لتلاشى الكائنات في قلوبهم.
يروى أن المدمن على ثلاثة لا يموت إلا على الإيمان: مدمنُ الشكر على
الإيمان، ومدمن الخوف على سلب الإيمان، ومدمن النفع لأهل الإيمان.

وقيل: الظاهرة: نعمة الغنى والباطنة نعمة الإنسانية، إلى غير ذلك مما لا يدخل
تحت حصر. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فإذا
شكر نعمة الغنى بالبذل والرفق بالمسكين وعدم احتقار الفقير والضرير، وأن لا
يشغله جمعه عن نوافل الدين، وأن يشكر الله من غير أن يرى نفسه غنياً أو يرى
نفسه خيراً من أحد بسبب غناه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وأما شكر الصحة فاستعمال البدن في طاعة الله تعالى ومنافع المسلمين: بأن
تحمل لأخيك المسلم على دابته، وتأخذ بركابه، وتُميظ الأذى عن الطريق، وتهدي
الضال، وترشد الأعمى، وتمنع المستضعف.. إلى غير ذلك.

قال الرسول ﷺ: «اغتنم أربعاً قبل أربع: شبابك قبل هرمك، وغناك قبل
فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»^(١). وهذا الحديث من جوامع
كلمه ﷺ التي لو شاء العلماء لأتوا فيها بدفاتر من العلوم.

قال الشاعر في ذم من لم يستعملها فيما يجب: (رجز)

إن الشبابَ والفراغَ والجدَّةَ مفسدةٌ للمرءِ أيُّ مفسدَه

واختلف في الحمد والشكر أيهما أشرف؛ فقيل: الحمد أشرف لأنه حظ الله من
عبده، والشكر حظ العبد من ربه، وشتان ما بين ما هو للرب وما هو للعبد؛
ولأن الحمد هو الذي أثنى به على نفسه أولاً فثبت له أبداً، بخلاف الشكر، وأن

(١) حديث «اغتنم أربعاً قبل أربع»... إلخ. حديث حسن أخرجه الحاكم بلفظ: «اغتنم خمساً قبل
خمس: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك»... إلخ. وقال: صحيح على شرط
الشيخين، وسكت عليه الذهبي (٣٠٦/٤) كما أورده السيوطي تحت رقم ١٢١٠ وقال المناوي:
قال العراقي: إسناده حسن، وقد أخرجه النسائي في المواظ، وروى مرسلًا (١٦/٢) وأورده
صاحب الكشف تحت رقم ٤٣٦ بلفظ: «اغتنم خمساً قبل خمس»... إلخ. وقال: رواه الحاكم
والبيهقي وأحمد في الزهد مرسلًا، والله أعلم.

الحمد لا يستدعى العلة والشكر يستدعيها، ولأنه يلازم الاسم الأعظم لمشاكلته إياه فتقول: الحمد لله كما تقول: باسم الله، لأن الله اشتق لنفسه منه اسماً وهو الحميد، وكذلك اشتق لأحب عبده إليه وأخصهم به خاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين اسماً فسماه أحمد ومحمداً وحامداً، فأحمد على أشرف وزن من أوزان المبالغة وهو بمعنى حمده لربه دنيا وبرزخاً وأزلاً وما لا يزال، والثاني اشتقه من حمد الكائنات له، وهو دون الأول وصفاً ورتبةً، إذ الأحمدية له والمحمدية لغيره، فكلٌّ من الاسمين ناسب أصله وعنصره، وأما اسمه حامد فهو دون الأحمدية وفوق المحمدية، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه: (من بحر الطويل)

أغر عليه للنبوّة خاتم من الله من نور يلوح ويشهد
وضمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهدُ
فشق له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد

ولأنه تعالى ختم الكون بالحمد كما بدأه به فقال: ﴿وَأَخِرُّ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقال حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [٣٤] الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴿ [فاطر: ٣٤، ٣٥]، ولأنه أول كلمة انفتق عنها لسان آدم عليه السلام فاغتنمها حملة العرش فأضافوها إلى التسبيح فأصبحوا وقد خف عنهم حمل العرش، ولأنه يقع على السراء والضراء بخلاف الشكر، ولأنه يطلق على ما يطلق عليه الشكر من العهد والجنس والاستغراق والحقيقة.

وقيل: الشكر أفضل لأنه في مقابلة الكفر، قال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢].

ولأنه يقتضى المزيد ويدفع العذاب، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولأنه اشتق لنفسه منه اسماً فسمى نفسه الشكور.

ولأنه يستوعب الأعمال كلها فتدخل فيه بخلاف الحمد، قال الله تعالى:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].

ولما قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه قيل له: أنشق على نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]، والقليل هم الأنبياء والأولياء، إذ هم القليلون عدداً، الكثيرون مدداً، ولأنهم القليلون في الوجود، الكثيرون في العهود، ولأنهم القليلون ترفاً، الكثيرون شرفاً، فنسبتهم في القياس كنسبة الشمس إلى الكواكب، فالكواكب كثير عددها قليل مددها، والشمس قليل عددها كثير مددها، إذ لا نور للكواكب أصلاً، وإنما يستمدون نورهم من نور الشمس لمرورها عليهم نهائراً، فإذا غابت ليلاً ظهر عليهم من نورها ما اكتسبوه من نوره حين الأخذ والطواف فظهروا بتلك الأنوار قبل مظهره ﷺ، وكل بشر به، وأخذ على أمته لئن أدركوه ليؤمنن به ولينصرنه، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] فبان من هذا أنه ﷺ رسول الرسل، إذ لو أدركوا زمنه لوجب عليهم طاعته والإيمان به، فيكون رسولا إليهم، ويكونون رسلا إلى أمهم بواسطته ﷺ، وظهر مصداق ذلك ليلة الإسراء لصلاته بجمعهم، وفي المحشر لا اختصاصه بلواء الحمد، وكونهم تحت ظل لوائه، وتدافعهم الشفاعة الكبرى التي خلصت إليه، ونسخ شريعته الشريفة شرائعهم، وفي ذلك يقول البوصيري برد الله ضريحه: (من بحر البسيط)

فإنه فضل شمس^(٢) هم كواكبها يُظهرن أنوارها للناس في الظلم

حتى إذا طلعت في الأفق عمَّ هدى للعالمين وأحيت سائر الأمم

فيتحصل من جميع ما ذكر أن الحمد أشرف رتبة وأعظم مزية، والشكر أقرب

(١) حديث «أفلا أكون عبداً شكوراً»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه البخاري في

باب قيام النبي ﷺ، ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه، وأوله عند البخاري: «كان ﷺ يقوم

ليصلى حتى ترم قدماه»... إلخ.

(٢) في (ب): فإنه فضل شمس فضل هم كواكبها.

عائدة وأكثر فائدة، إذ الشكر في مقدور الخلق، والحمد منه ما هو في مقدورهم ومنه ما ليس في مقدورهم لمحلله من العظمة والجلال.

قال عليه السلام: «من ظفر منكم بنعمة أو لقي حبيباً فليقل: الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات؛ فإنه يغفر له ما تقدم من ذنبه وقد أدى شكر تلك النعمة بالغة ما بلغت، ومن أصابه ما يكره فليقل: الحمد لله على كل حال ما كان؛ فإن الله يفرج كربته ويغفر ذنبه ويخلف عليه ما ضاع له، وإذا لبس أحدكم ثوباً فليقرأ الفاتحة وليقل: الحمد لله الذي كساني هذا الثوب وستر به عورتى وأعطاني ما أجمّل به في صلاتي؛ فإنه لا يكتب عليه ذنب ما دام لابسه، وإذا طعم فليقل: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقني من غير حول مني ولا قوة؛ فإنه لا يحاسب عليه يوم القيامة ولا يسبغ لقمته منه أو جرعة إلا كتب له بها عمل صالح، وإذا شرب ماء فليقل: الحمد لله الذي سقانيه عذباً فراتاً برحمته ولم يسقنيه ملحاً أجاباً بذنوبي^(١) وإذا استفاد عبداً أو أمة أو دابة فليأخذ بناصيتها وليقرأ آية الكرسي وهو ينظر إليها حتى يتمها وليقل: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما جبلت عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما جبلت عليه. وإذا تزوج امرأة فليأخذ بناصيتها وليقرأ الفاتحة والمعوذتين وليقل: اللهم اكفني مؤونتها وامنحني معونتها، واجعلها على نعمة، ولا تجعلها لى فتنة، وارزقني منها رزقاً طيباً كثيراً مباركاً، اللهم اهد إلى طاعتك وطاعتي قلبها، وارزقني حبها، وجنبي شؤمها وخبها^(٢)، إنك على كل شيء قدير، وإذا أتيتها فقل: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إذا قضى بينكما ولد لم يضره الشيطان. وإذا زاد عند أحدكم ولد فليلبه^(٣) بسورة الإخلاص يقرؤها، ثم يؤذن في أذنه اليمنى، وليقم في أذنه اليسرى، وليجعل يده على يافوخه وليقل: البرُّ سبغاً، وليرقه برقية إبراهيم ابنه إسحاق وإسماعيل وهي: باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد

(١) حديث «الحمد لله الذي سقانيه عذباً... إلخ» رواه الطبراني مرسلًا بلفظ: «الحمد لله الذي

جعل الماء عذباً فراتاً برحمته»... إلخ. وسكت عليه العراقي (٦/٢).

(٢) خبها: خداعها أو فسادها، أو خيلها.

(٣) فليلبه: أى يلتزمه ويدنيه.

ثم يقول: أُنبتك الله نباتًا حسنًا، سبعا، اللهم اجعله برًا تقيًا ولا تجعله فاجرًا شقيًا. وإذا مرض فليقل: الحمد لله على ما دفعت مما هو أعظم مما به أصبت، اللهم اجعل مرضتى هذه مثوبة وطهرة، ولا تجعلها عقوبة وحسرة، اللهم أرضني بقضائك، وفرحني بلقائك، ثم ليكثر من قراءة سورة الإخلاص؛ فإنه إن مات مات شهيدًا، وإن شفى شفى مغفورًا له، وأبدله الله دمًا خيرًا من دمه، وحمًا خيرًا من لحمه. وكان النبي ﷺ إذا برئ أحد من أصحابه من مرض قال له: أوف بنذك فإنه ما مرض مؤمن إلا ونذر الله على نفسه توبة. وأما المنافق والكافر فإنه كالجمل عقله أهله ثم أطلقوه فلا يدرى فيم عقلوه ولا فيم أطلقوه. وإذا عوفى فليقل: «اللهم أنت الذى أمرضت فأبليت، وأنت الذى عافيت فأوليت، فلك الحمد على ما أسديت تباركت وتعاليت، اللهم عرفنى نعمك بدوامها، ولا تعرفنيها بزوالها عنى، اللهم قُدىنى إليك بسلاسل الامتتان، ولا تقدىنى إليك بسلاسل الامتحان، اللهم كما مننت على بإطلاقى من أسر البلايا فوفقنى للعمل بأسباب العطايا، اللهم يسرنى للصالحات، ويسر على أسبابها، وافتح لى بابها، لا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا رادًا لما قضيت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت على كل شىء قدير، اللهم لك الحمد كله، ولك الشكر كله، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره، لك الحمد إنك على كل شىء قدير» فإنه مجرب الإجابة مؤد لشكر النعمة.

• قال الناظم رحمه الله:

٥٤ - كَأَعْيَاءِ إِذَا الْأَعْيَاءُ يَوْمًا لَهُ اعْتَزُوا بِأَهْوَى وَفِي أَهْوَاهِهِمْ غُلُوءًا

يعنى وهذا البائس اللئيم الذى لا غراء له بالتقوى فإنه فى انتسابه إلى آبائه الأقدمين وافتخاره بهم دون أن يهتدى بهديهم ويقتدى بكريم أفعالهم فهو فى ذلك كاعتزاء الأعياء، وهو جمع عبي، والعمى من لا قدرة له على الإفصاح عما فى ضميره فيستعين على ذلك بالإشارة بيده ومع ذلك لا يأتى بلفظ سليم ولا بمعنى مستقيم، بخلاف الأعياء بالقصر وبنيه فإنهم قوم فتق الله ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة والبيان، وإنما سموه بأعياء نفيًا للعين عنه كما سموا امرأة رائعة الجمال

بقيحة، والأعيا رجل من فضاغة، وأبو أعيا بطن منهم، فيكذبهم الحال والمقال وهو أن أرض بنى أعيا بالقصر أهوى كما قال شاعرهم:

عقاب عقبات^(١) ترى من حذارها ثعالب أهوى أو أشافر تصرح

والأهواء، بالمد: جمع هوى. والغُلَّواء، بضم الغين المعجمة وفتح اللام: العلو والارتفاع. فقوله: كأعيا فى محل نصب على الحال من ضمير يرى فى البيت قبله.

والمعنى: فأباء من ذكر بسبب كونه كما ذكر برآء منه فى حال كونهم مماثلين للأعيا زمن انتساب الأعيا له بالمكان المسمى بأهوى فى حالة غلوائهم وطموح مناهم، وحالة أعيا إذ ذاك البراءة منهم كل البراءة، ولسان الحال منه يصيح: ليسوا منى ولست منهم فى شىء؛ إذ هما متغايران بواضح البرهان. وتشتد البراءة فى خصوص المكان كأهوى مثلاً، فإنه أدخل فى البراءة منهم، وأشد عوناً على نفيهم عن أعيا، وتكذيبهم فى دعواهم أنهم من بنيه وذويه، ويزيد ذلك إذا كان فى الأهواء غلواء فى الاعتزاء؛ ولذلك قال: وفى أهوائهم غلواء، أى لهم لجاج فى الاعتزاء.

وهذا البيت متضمن لمعنى البيت قبله، وإنما جىء به لتتميم معناه؛ فقوله: كأعيا: خبر مبتدأ محذوف. وإذا: ظرف لما يستقبل. والأعيا: فاعل فعل محذوف تقديره: إذا اعتزى الأعيا يوماً له اعتزوا؛ لأن إذا لا تدخل على الجملة الاسمية إلا بدخولها على فعل محذوف يفسره ما بعده كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

ويوماً: ظرف زمان. واعتزوا: فعل ماضٍ مفسر مؤكداً للفعل المحذوف بعد إذا. بأهوى: جملة فى موضع نصب على الحالية. وفى أهوائهم: خبر مقدم. وغلواء: مبتدأ مؤخر.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وهذه الآية الشريفة من إعلام نبوته ﷺ لأنها إخبار عن أهل

(١) عقبات: جمع عقبة: المرقى الصعب من الجبال. والعبارة السابقة للبيت لا تخلو من غموض.

الأهواء الآتين من أمته بعده، وهم: القَدْرِيَّة^(١) والجَبْرِيَّة^(٢) والحُرُورِيَّة^(٣) والشيعية والإباضية والصفيرية والنصيبية والخوارج والمعتزلة والزيدية وغير ذلك^(٤) من الفرق الضالَّة أهل الأهواء الباطلة والآراء الفاسدة؛ ثبتنا الله على الطريق المرضي والنهج المستقيم السوي.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٥٥ - فَأَقْنَى وَأَقْنَاءَ وَشَرَوَاهُمَا اطْرَحُ وَهُونَ كَدَى حَتَّى يُلُوحَ كَدَاءُ

قوله: فأقنى: المحدودب الأنف الذي في قصبته علو وارتفاع وفي عرينته سهولة وحسن حذب، وهو من علامات جودة الفرس وكونه عتيقاً، وقد يقال أيضاً للإنسان: أقنى الأنف. والأقناء، بالمد: جمع قنو، وهو شماريخ النخل، وقيل: هو مجرد الكباسة ويقال لها: العرجون. وقوله: شروي: وهو من شَرَى الشيء، بالفتح والقصر: تعب في تحصيله أو لم يكن إلا بمشقة فادحة لنفاسته وعلو منصبه، ومثله قوله: وهون كدى، بالقصر والفتح: مصدر كديت الأصابع: إذا أصابها كلل وخشونة من الكد. وكدى الفصيل: فسد جوفه من شرب اللبن. وكداء: ثنية معروفة بأعلى مكة، وهي بحسب المعنى مستعارة للمعنى المطلوب والغرض المقصود.

والمعنى: اطرح، أى انبذ، فرساً أقنى وأقناء من النخل ومثلهما فلا تشغل بهما قلبك فإنهما من الأعراض التي تفنى، وهون ما تلقاه في هذه الدار من أعراضها التي تأتي من حيث لا تحتسب ولا تقدر على دفعها والتحفظ منها، وعد ذلك هيناً

(١) القدرية: بالفتح، فرقة إسلامية تقول: إن كل عبد من عباد الله خالق لفعله، متمكن من عمله أو تركه بإرادته.

(٢) الجبرية: فرقة إسلامية تقول: إن العبد لا قدرة له مكتسبة، وهو مسير في عمله خيره وشره (عكس القدرية).

(٣) الحرورية: فرقة من الخوارج، وهم الذين قاتلهم على رضى الله عنه.

(٤) وكل ما ذكر بعد ذلك فرق إسلامية لها عقائد تخالف ما عليه سلف هذه الأمة، يضيق المجال عن تعريف كل فرقة على حدة.

كما تتحمل ما كلفته من مشاق التكليف والدأب على ما التزمته مما أمرت به ونهيت عنه، حتى تظفر بمطلوبك، وتحصل على الطائل من مرغوبك مما لم يخطر على قلبك ولا على قلب بشر، فكان قد فجأك ذلك، ونسيت كل ما لقيته قبل ذلك، حتى كأن لم تكن مصيبة فادحة.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

إن ابتغيت المعالي فازددن^(١) تعباً أو ارض بالذل واختر راحة البدن

فالييت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

واعلم أن خيرى الدنيا والآخرة لا ينالان إلا باستصحاب ثلاثة أمور: التقى بأنواعه، والصبر بأنواعه، ولا يوجدان إلا باستصحاب الإحسان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وفى مثل هذا يقال: (من بحر الطويل)

وليس بنوم الجفن تغتم العلى
وبالغض من دار الغرور وزهوها
ومن بعد وخز النحل شور^(٢) شهاده
ومن بعد غوص البحر فى لجج الدجى
وبعد اغتراب واقتراب من النوى
ومن بعد حبس النفس عن شهواتها
وحدور وولدان وروح ورحمة
كأنك لم تتعب إذا فزت بالمنى

ولكن يأسهار الجفون وبالجهد
وبالصبر يجنى الرطب من فنى المجد
ومن بعد قطع البيد يظفر بالمجد
ينال الغنى من لؤلؤ وزبرجد
تجهىذ ذو جهل ففاز بمقصود
يفز بالمنى والسعد فى جنة الخلد
وملك مقيم فى ذرى الملك الفرد
ولم تفتقر يوماً إذا فزت بالمجد

فأقنى، بالقصر: مفعول مقدم لا طرح. وأقناء، بالمد النصب: عطفاً عليه. وشرواهما: معطوف أيضاً ومضاف إليه. وهون: فعل أمر بمعنى سهل. وكدى:

(١) فى النسختين: فازدد تعباً، والبيت مكسور الوزن، فإذا قال: فازددن استقام الوزن.

(٢) هذه الكلمة فى النسختين غير واضحة، والشور أخذ العسل من محله.

مفعول لهون. وحتى لوح: ناصب ومنصوب. وكداء: فاعل يلوح؛ فكدى،
بالقصر: كناية عن الكد.

ومعناه: اصبر على كد الكروب والشعوب^(١) والشجون حتى تظفر بفرح^(٢) مرح
كداء المرغوب، إذ المعلوم المتعاطي جاهليةً وإسلاماً تحمل المشاق وجوب الآفاق
وسير العتاق إلى البيت العتيق. قال الله تبارك وتعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام
لما بنى البيت العتيق: اعلُ على جبل أبي قبيس، وقيل: على جبل حراء، فأذن في
الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر. فقال: أى رب، وما عسى أن يبلغ
صوتي؟! فقال له تبارك وتعالى: عليك الدعاء وعلىّ البلاغ. فنادى إبراهيم عليه
السلام وجعل إصبعه في أذنه فقال: إن الله يأمركم بالحج إلى البيت العتيق
فحجوا، فلم يبق أحد من يومئذ إلى يوم القيامة إلا أجابه بليك، فأجابوه من
أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، فلم يبق نبي من الأنبياء إلا حججه، حتى مر عليه
سليمان عليه السلام تحمله الريح حين غزا سبأ، فلما مر عليها ولم ينزل ولم يطف
بكت الكعبة فقال الله تبارك وتعالى لها: مه يا كعبة، فقالت: يارب، هذا نبي من
أنبيائك ورسول من أصفياك ومعه المؤمنون مر علىّ ولم يطف بي ولم يحل
بساحتي؛ فقال: لا تبكى فإنى باعث منك وشيكاً نبياً كريماً، أصطفيه على جميع
الأنبياء والرسول، هو خيرتى من خلقي، وأمته خير الأمم، أجعلك قبلته وقبله
أمته، يحجونك من الآفاق شعناً غرباً، فيأتونك من كل فج عميق، يحنون إليك
حنين الناقة إلى حوارها، ويزفون إليك زفوف الطير إلى أوكارها، فلا يبقون
حولك صنماً إلا كسروه يطهرونك من الأوثان وعبادة الشيطان، فلا تزالين مطهرة
مصونة إلى آخر الأزمان.

فهى وإن كانت بواد غير ذى زرع أخصب من جميع المدن والقرى، وذلك من
زمنه ﷺ إلى يوم القيامة، وذلك لما يجيى إليها من الثمرات من جدة وزبيدة
وصنعاء والبحرين والبصرة والكوفة والطائف واليمامة وحضرموت والهند.

واختلف فى وجوب الحج: هل هو على الفور أو التراخي؟ فذهب مالك

(١) المراد بالشعوب: مفارقة الأحباب، ومجاهدة النفس، وأصله لجام الفرس.

(٢) كذا فى النسخة (ب) أمام (أ) ففيها: حتى تفرج بمرح كداء.

وأصحابه إلى أنه على التراخي، وذهب الشافعي ومن وافقه من المالكية إلى أنه على الفور. ولا خلاف أنه على الفور إذا خيف الفوات. ولما أنزل الله قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] سأله بعض أصحابه: هل هو واجب في كل سنة؟ فسكت ﷺ حتى ظنوا أنه يوحى إليه، ثم التفت إليهم فقال: «لا تسألوا عن مثل هذا؛ لو قلت: نعم، لوجب عليكم كل سنة ولعجزتم فهلكتهم، فإذا أمر الله بأمر فامتثلوه وإذا سكت فاسكتوا» فأنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ الآية [المائدة: ١٠١] «وإذا أمركم في غير عزيمة فافعلوا من ذلك ما تستطيعون»^(١).

وأركانه خمسة اتفاقاً وعلى المشهور: الإحرام، وطواف الإفاضة، والوقوف بعرفة، ورمى الجمار، والسعى بين الصفا والمروة^(٢).

واختلف في تاركه عمداً، فقيل: يكره، وقيل^(٣): لا يكرهه قال سحنون: إن ادعى عذر دين وإلا ضيق عليه حتى يحج. وقال ابن وهب: إنما الإكراه على الصلاة والزكاة فقط، وأما الحج والصوم فإنهما موكولان إلى المؤمن؛ لأن الله قيدهما بالاستطاعة؛ فحيث كان الحج على التراخي لم يكن للإكراه وجه، إلا أن النبي ﷺ يقول: «من استطاع أن يحج هذا البيت فلم يحججه فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»^(٤).

(١) الحديث الذي أورده الشيخ رحمه الله دليلاً على وجوب الحج مرة واحدة صحيح، رواه مسلم وغيره وبالألفاظ كثيرة، وأوله عند مسلم: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام... إلخ».

(٢) قول الشيخ رحمه الله: (وأركانه خمسة اتفاقاً) خطأ؛ فالأركان المتفق عليها ثلاثة فقط هي: ١ - الإحرام. ٢ - طواف الإفاضة. ٣ - الوقوف بعرفة.

والسعى ركن عند الجمهور وواجب عند أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه.

وهناك ركن خامس: وهو المبيت بالمزدلفة عند بعض التابعين والظاهرية وبعض الشافعية.

أما رمى الجمار فلم يقل أحد من أهل العلم بأنه ركن إلا ما ذكر عن عبد الملك بن الماجشون من أصحاب مالك من أن رمى جمرة العقبة ركن، والله أعلم.

(٣) يكره على الحج، وقيل: لا يكرهه عليه، أي يجبر على فعله، وقيل: لا يجبر.

(٤) حديث: «من استطاع أن يحج هذا البيت»... إلخ. ضعيف جداً، رواه الترمذي وابن عدي، وأورده صاحب (تنزيه الشريعة) بلفظ: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم =

وقال ﷺ: «من مات ولم ينو الحج ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق»^(١).

ويروى أنه لما خلق الله الأرض ودحاها على الماء بسطها من تحت البيت وهو ياقوتة حمراء يُبَيَّرُ أساسه من الأرض السابعة إلى أن اتصل بالبيت المعمور فقال: أنا الله ذو بكة لأغنين الحاج ولو بعد حين، ولأفقرن الزاني ولو بعد حين، وإنى جعلتك بيت أضيائي يفدون إلي من جميع الآفاق، وأنا أحق من أكرم ضيفه، ولا أرضى لهم بكرامة دون كرامة الجنة.

يروى أن الله يبعث يوم القيامة ملائكة إلى مكة فيزفونها كما تزف العروس وقد كسيت نوراً وبهاء، فإذا أرادوا أن يزفوها قالت: إلى أين؟ قالوا: إلى الجنة، فتقول: لا أرضى بدون أن يذهب معي زواري وعماري؛ فتعطى ذلك، فيحفون بها وقد أسدلت عليهم أستار الأنوار حتى تستقر بهم في بحبوحة الجنة. جعل الله قرارنا إليه آمين.

• قال الناظم:

٥٦ - كَالْأَعْمَى الَّذِي الْأَعْمَاءُ يَغْرُونَ فَلَا تَدْعُ

سَبِيلَ الْهُدَى مَا عَنْ عَدَاهُ عَدَاءُ

قوله: كالأعمى: التشبيه فيمن ترك طريق الهدى عمداً أو جهلاً، بل الأعمى خير منه لقوله ﷺ: «أعمى العمى الضلال بعد الهدى». وكذلك كل من يأتي شيئاً من غير علم ولا برهان من ربه فهو كالأعمى؛ ولذلك لا ينبغي للإنسان أن

= يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً. اهـ (١٦٧/٢). وأورده ابن الجوزي في موضوعاته وقال فيه: عن علي وأبي هريرة وأبي أمامة رضى الله عنهم. وحديث على هو الذى أوردنا نصح، قال فيه: قال الترمذى: هلال بن عبد الله مجهول، والحارث كذبه الشعبى وغيره (٢١١/٢)، والله أعلم.

قلت: وأما حديث أبي هريرة وأبي أمامة فهما موضوعان، وصح عن عمر رضى الله عنه من قوله: من أمكنه الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً، والله أعلم.

(١) حديث: «من مات ولم ينو الحج»... إلخ. لم أقف عليه.

يفعل فعلاً حتى يعلم حكم الله فيه، وهذه الرتبة يقال لها: المرضية، ولذلك قال موسى عليه السلام لأخيه هارون لما استخلفه على بنى إسرائيل فعبدوا العجل زمن غيبة موسى ليأتي بالتوراة فقال له هارون: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]. وأن قوم صالح لما ضلوا بعد الاستبصار وصفهم الله بالعمى فقال: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

وقال لرسوله استبعاداً لذلك: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ النَّمِيمَ أَوْ تُهْدِي النُّعْمَى﴾ [الزخرف: ٤٠].

وقال: ارتكب العماء والعمياء: إذا ذهب في غير مذهب.

ومنه قول الحجاج عند موته لما أرجف به المرجفون وشمت به الشامتون وسمع بعض الأقيام يحلفون إنه لمن أهل النار فقال منشداً: (من بحر البسيط)

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا
أيمانهم أننى من ساكنى النار
أيحلفون على عمياء ويلهم
ما ظنهم بعظيم العفو غفار

والأعماء، بالفتح والمد: ما لا يهتدى فيه من الأرضين. ويغرو: أى يتبع كيشعر، ومنه استغراء الكلب على الصيد وهو الإشلاء. عدى، بالفتح والقصر: جهة الشيء ووجهته وطريقته، ومنه العدوتان. والعداء، بالفتح والمد: ما لا بد منه أو ما لا متجاوز عنه، تقول: عدتك حالى، أى جاوزتك ولم يصبك شؤمها.

والمعنى: إن الذى ينتجع الأرض التى لا يهتدى فيها بمائل للشخص الأعمى فى عدم الهداية؛ فلا تترك طريق الهدى فما عن ناحيته بد لسالك، وإلا فقد تورط فى المهالك.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. علمنا الله من العلوم ما يحصل به الانتفاع والارتداع آمين.

الإعراب: كالأعمى: جار ومجرور فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الضال كالأعمى أو الذى يتبع ما لا يهتدى إليه كالأعمى، والذى يترك طريق الهدى عمداً كالأعمى، فعلى كل الوجوه هو خبر إما لمبتدأ محذوف أو للذى فىكون خبراً مقدماً. والذى يغرو: مبتدأ مؤخر. والأعماء، بالمد: مفعول ليغرو. وفاء فلا تدع: سببية. ولا تدع: جازم ومجزوم. وما: نافية. وعدها: جار

ومجرور ومضاف إليه، وعداه: اسم ما على لغة تميم لأنهم لا يطلون عملها بتقديم خبرها على اسمها، بخلاف سليم وأهل الحجاز، فعلي مذهبهم عداء مبتدأ مؤخر، وعن عداه: خبر مقدم؛ ولذلك سوغ الابتداء بالنعرة لتخصيصها بالنفي وحرف الجر.

• قال الناظم رضى الله عنه:

٥٧ - وَرَمُّ رَاحَةِ الْأَنْسَى وَالْأَنْسَاءِ رَاعِيَهَا لِنَسِيَا وَنَسِيَاءَ فَذَكَ وَفَاءُ

قوله: ورم: أى حاول تسكين وجع المريض الذى يشتكى عرق النساء. وراع الأنساء: أى التأنف الحقيقى المعرض لأن ينسى فى حال كونه لذى ضرورة كنسيا ونسياء مثلا، فذلك أى رومك راحة المبتلى وكونك فيما قل من حاجته ستمراً فضلاً عما جل. والأنسى: وصف لرجل مصاب بداء عرق النساء فتقول فى ذلك: رجل نسىّ وامرأة نسياء. وقوله: لنسيا، بالقصر: أى فقير معدم، وكذلك إذا كان لنسياء، بالمد، وهو جمع نسى، وهو الضعيف المحقر الذى لا حيلة له، فقيامك واجتهادك فى الحقيقى من أمورهم فضلاً عن الخطير وفاء بحق الصحبة وقيام بواجب الفتوة؛ فإنك إذا كنت رحيماً بذى العاهة والضعيف ومن لا اعتناء به وكنت فى عونهم واهتممت بالحقيقى من شأنهم فضلاً عن الخطير كنت من الذين خلقهم الله لمنافع عباده وأمدهم بأمداده، فإليهم يلجأ الضعيف والشريف.

يروى أن النبى ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن كان مما قال له فى وصيته إياه: «يا معاذ كن للضعيف كالأخ الشفيق، والمسكين كالأب الشفيق، وللأرملة كالزوج العطوف، ولليتيم كالأب الرؤوف، وإياك أن تشعب وجارك جائع»^(١).

وقال ﷺ: «إنما ترحمون وترزقون وتنصرون بضعفائكم»^(٢).

ويروى أن النبى ﷺ شكأ إليه بعض أصحابه قساوة قلبه فقال له: «إن شئت أن يلين قلبك ويغفر ذنبك وتُدرك حاجتك فواكل المسكين وجالس الفقير وامسح رأس

(١) لم أعثر على هذا الكلام.

(٢) حديث: «إنما ترحمون... إلخ» سبق تخريجه.

اليتيم وبلغ حاجة من لا يقدر على بلاغها ونفس كربة المكروب، وأنا زعيم لك بما طلبت»^(١).

وقال ﷺ: «إن الله لا يزكى قوماً لا يأخذ فيهم الضعيف حقه إلا بالتقية».

ويروى «أن النبي ﷺ كانت تأخذ بيده العجوز الفانية فتذهب به في حوائجها حتى تطوف به المدينة فما ينتزع يده منها حتى تكون هي التي تركته».

ولما أتاه عدى بن حاتم ليلسّم وجدّه في المسجد، فاستصحبه إلى بيته، فبينما هو يمشى معه إذ أنت النبي ﷺ عجزوز فأوقفته في الشمس تخاطبه حتى فرغت من حاجتها؛ قال عدى: فقلت في نفسي: والله ما هذا بشأن ملك ولا صنيعه، فلما أتينا بيته إذا هو ليس فيه إلا وسادة من آدم^(٢) حشوها لف، فألقاها إلى لأجلس عليها، فاستعظمت أن أجلس على الوساد وهو جالس على الأرض ليس بينه وبينها بساط ولا حائل، فألقاها إلى وقال: لا يجلس عليها غيرك، فجلست على الوساد وجلس ﷺ على التراب، فقلت في نفسي: وهذا أيضا ليس بزى ملك ولا جبروته، فأقبل على ﷺ وأخذ يخبرني بالمغيبات، فأسلمت، ورجعت إلى قومي فدعوتهم إلى الإسلام، فرزقهم الله الإسلام فأسلموا.

وقال ﷺ: «الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»^(٣).

وقال ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»^(٤).

وقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»^(٥).

وقال ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٦).

(١) لم أعثر على هذا الحديث مخرجاً.

(٢) الأدم: الجلد.

(٣) و (٤) حديث «الخلق عيال الله... إلخ» وحديث «أهل المعروف... إلخ». تقدم تخريجهما.

(٥) حديث: «من لا يرحم لا يرحم» صحيح، أخرجه البخاري في قصة الأقرع ابن حابس وتقبيله ﷺ للحسن.

(٦) حديث: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» رواه أبو داود والبخاري في الأدب، وأحمد والترمذي، وقال: حديث صحيح، صححه الحاكم كذلك لما له من الشواهد. وأورده صاحب (الكشف) تحت رقم ٢١٤، والله أعلم.

وكان ﷺ يقول لأصحابه: «اشفعوا تؤجروا»، ويقص الله على لسان رسوله ما يشاء»^(١).

ولما احتضر ﷺ كان من آخر ما قال: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم» حتى جعلت تتجلجل في صدره ولا ينبس بها لسانه.

ومما مدح الله به أصحاب رسول الله ﷺ أن وصفهم بالرحمة فيما بينهم والشدة على المشركين فقال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وليس شدتهم على الكفار تنافي رحمتهم بهم؛ لأن شدتهم عليهم هي نفس الرحمة بهم، ولأن شدتهم عليهم إنما كانت ليخرجوهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، أو ليريحوهم من زيادة الآثام، وليكون قتلهم داعياً إلى إسلام من هو على رأيهم ودينهم من أبنائهم وأشياعهم وإخوانهم، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

الإعراب: رم: فعل أمر من رام كقام. راحة: مفعول به. الأنسى: مضاف إليه ما قبله. والأنساء، بالمد: منصوب بالاشتغال تقديره: راع الأنساء. وراعها: فعل أمر، والضمير مفعول به. ولنسيا: مجرور متعلق براعها. ونسياء، بالمد: معطوف على نسيا. فذاك: اسم إشارة في محل رفع على الابتداء. ووفاء: خبره.

ولما انتهى كلامه على المفتوح قصراً ومداً، مع تقديم المقصور وتأخير الممدود، ووضع آياته على الجناس والاقتناس وغير ذلك من أنواع البديع كالاستطراد والتلميح والكناية والتصريح، التي تشهد على غزارة علم ناظمها ووسع باعه في العلوم، فليس يماشيه فيها إلا القليل فضلاً عن أن يجاريه، مع ما تضمنته منظومته من الأحاديث النبوية والقدسية. ولقد هم رجال بشرحها، فوجدوا ذلك كالثريا من يد المتناول، أو السحابة من هامة المتناول؛ فاقترضوا على فتح لغاتها مع عدم الإجادة وقلة الإفادة. فلما رأيت ذلك حملتني الغيرة أن أتحفها بشرح يكون بين

(١) حديث: «اشفعوا تؤجروا»... إلخ. حديث صحيح رواه الشيخان وأبو داود والنسائي وأورده السخاوي تحت رقم ١١٧ وصاحب (الكشف) تحت رقم ٢٦٨ وفيهما: «ويقص الله على لسان نبيه» بدل «رسوله»، والله أعلم.

الاختصار والإطناب، والتقصير والإسهاب، فيأتي بعون الله وتوفيقه على وفق أمنية جميع الطلاب.

شرح يبين ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد مع اختلاف المعنى^(١)، فلا مدّ مع فتح، ولا قصر مع كسر، فقال رضى الله عنه:

(١) فى النسخة (ب): فقال: باب ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد باختلاف المعنى.

باب ما يفتح فيه سر ويكسر فيمد مع اختلاف المعنى

٥٨ - طلاً وطلاءً دَعَّ وَلَا تَصْحَبَنَّ لَعَى فَإِنَّ نَفْسَ الْأَشْرَهَيْنِ لَعَاءُ

فالطلاء، بالفتح والقصر: الصغير من كل شيء، وقيل: ولد الغزال خاصة، وقد وضعت العرب لكل صغير من أنواع الحيوانات اسماً يختص به: فولد الإنسان صبي، وولد الأسد شبل، وولد النمر ردع، وولد الطير فرخ، إلا النعامة فولدها رأل، وولد الفيل نوص، وولد الخنزير خنوص، وولد الظبي خشف، وولد الكلب والذئب والسبع والضبع والدب جرو، وولد الأرنب خرنق، وولد البقرة عجل إنسية كانت أم وحشية، وولد الناقة سقب، وولد العنز جدى، وولد الضأن خروف، وولد الفرس فلوء، وولد الحمار جمحش، ومع الفرس بغل.

والطلاء، بالكسر والمد: الذي يربط به الطلاء، بالقصر. واللعي، بالقصر والفتح: الرجل الشره، واللعاء، بالكسر والمد: جمع لعوة، وهي الكلبة الحريصة على الأكل.

فكأنه يقول: اترك الطلاء لتستغنى عما يحتاج إليه من الطلاء، ولا تصحب صاحب شره فإن نفوسهم كلاب حريصة، ويخشى عليك من خلطتهم أن ترجع نفسك إلى أصلها، فإن من شأنها أن تحن إلى سربها، وتضيق ذراعاً بنقلها عن حزبها، فإنك إن أعطيتها في الانفساح شبراً طلبت منك ذراعاً، وإن أعطيتها ذراعاً طلبت منك باعاً، ويقدر ما تتعبها تريحك، ويقدر ما تريحها تتعبك، ويقدر ما تضيق عليها توسع عليك، ويقدر ما توسع عليها تضيق عليك، وإن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل؛ فتفرغ لجهادها، وحبسها عن مألوف طبعها، بزمتها بحبل الصيام، وضربها بسوط القيام، وترك ما يشغلك ويشوش عليك قلبك، كالولد الذي تهتم بما يحتاج إليه، فتجد النفس إليك سبيلاً في تحصيل أغراضها العاجلة فتقول لك: اتق الله في عيالك فإن نفقتهم تحب عليك، فإن وجدت منك ذلك قالت لك: وسع على عيالك فإن ذلك من واجب حق المروءة، فلا تزال بك حتى تطلب المكاثرة والمناخرة؛ فتورد نفسك حينئذ موارد الهلاك، فيكون ذلك آخر

العهد بك، وينقطع الرجاء منك.

قال بعض القوم: (من بحر الطويل)

لعمرك ما أبكى على ساكنى الثرى ولكننى أبكى على المتزوج

وقيل: لا دين قبل التزويج ولا علم بعده. وقيل لبعضهم: تزوج، فقال: إنما يتزوج النساء الرجال ولست برجل، وقلما تزوج مريد قبل التمكين فأفلح.

وإنما قصد المؤلف رحمه الله بيته الحديث المستحسن المخرج فى صحيح أبى داود، وهو قوله ﷺ: «إذا مضى من الزمان خمسمائة عام فتكون أمتى حينئذ شوكا بلا ورق، إن فررت منهم طلبوك، وإن أقبلت إليهم فتنوك، فتكون حينئذ فتنة الرجل فى أبويه، فإن لم يكونا له فى زوجته؛ فإن لم تكن له زوجة ففى عشيرته. فقالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يعيرونه بالفقر فيورد نفسه موارد الهلاك، وهى الوقوع فى الحرام والشبهة طلباً للمكاثرة، فيكون المؤمن فى ذلك الزمان كشاة بين ذئب وأسد ودب وضبع»^(١).

ف قيل: الأسد هو السلطان لجوره، والدب هو القاضى لحيفه ومكره، والذئب هو الخليفة^(٢) فى الدنيا لخيانته وغدره، والضبع هو اللص والمحارب.

فإن قلت: ما الجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «إذا تزوج الرجل فى حداثة سنه صاح الشيطان وقال: يا ويلاه، قد عصم منى دينه؟» فالجواب أن هذا كان فى صدر الإسلام حيث كانت الفتنة مأمونة، والأمة مستقيمة، والإخوان فى الله كثيرون، والأعوان على الدين موجودون. وأما حيث لم يبق من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه فتركه أولى، بل ربما وجب، إذ من الواجب على المؤمن الفرار وهجرة البقعة التى ظهرت بها الفواحش والآثام، فإن النكاح فيها والإقامة بها علامة الرضا بالمنكر والفواحش، فيعمه من الغضب والعذاب ما يعمهم. وفى ذلك يقول القائل: (من بحر الطويل)

إذا شاع فى أرض فساد ومنكر وليس بها ناهٍ مطاع وزاجر

(١) حديث: «إذا مضى من الزمان خمسمائة عام»... إلخ. لم أجده فى أبى داود ولا فى غيره.

(٢) فى (ب): الخليفة، ولعل المراد الشخص الذى يخالط الإنسان.

ففر ولا تقم بساحة بلدة يموت بها عرف وتحميا المناكر
فإن عقاب الذنب حين خفائه يخص وإن يظهر يعم المجاور

وفى مثل ذلك يقول الشاعر أيضاً: (من بحر الطويل)

يلوموننى أن بعث بالرخص منزلى ولم يعلموا جارا هناك ينغص
فقلت لهم كفوا الملام فإئسا بجيرانها تغلو الديار وترخص

واتفتت الأمة على أن المنكر إذا شاع وظهر وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم يعلم عدم الفائدة، فإذا علم عدم الفائدة وجب الفرار حينئذ. وفى ذلك أنزل الله قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لِّأُتِصِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وذلك أن المنكر إذا ظهر ببلدة ولم ينكر عم العقاب فاعله وغير فاعله، قال ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعقاب من عنده».

وفى رواية: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو لیسلطن الله علیکم ظلمة لا یرحمون صغیرکم ولا یوقرون کبیرکم، یدعو علیهم خیارکم ولا یرستجاب لهم فیهم»^(١).

وقال ﷺ: «إذا رأیتم من ولاة أمورکم جوراً فی الأحکام وظلماً فی الأموال فلا یحملنکم ذلك على الركون إليهم ولكن اركنوا إلى الله بالتوبة فإن قلوب الملوك ونواصيهم»^(٢) بيده فإما أن يعطفهم عليكم وإما أن يريحكم منهم».

وهذا البيت مشتمل على النهى على اتخاذ الولد ليجتنب بذلك النكاح الذى هو سبب الولد، وهما سبب ثقل المؤونة والشغل عن الله إلا من عصم الله، إذ البيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فإنما للحصر

(١) حديث «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر»... إلخ. رواه الترمذى بلفظ: «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» وقال: حديث حسن. ت (٢١٧٠).

أما الرواية الأخرى فقد رواها الطبرانى فى الأوسط والبخارى، قال الهيثمى: وفيه حيان بن على وهو متروك، وقد وثقه ابن معين (٢٦٦/٧)، والله أعلم.

(٢) ونواصيهم: زيادة من (ب).

والإثبات، فيكون الأنسى بحسب معنى الناس والآية^(١) إما مشغول عن الله بهما فهو هالك دنيا وأخرى، ومختبر فإن أعطى كل ذي حق حقه فأدى حق الله بالعبادة، وحق المال بالصيانة والإنفاق في وجوه البر، وحق العيال بالتأديب والتعليم والحيطة من غير إسراف ولا إقتار، ويرى نفسه في جميع ذلك واسطة، فهو ناج، فإذا لم يكن كذلك وقع في الخطر، فيكون كما قال ﷺ: «الولد مجبنة مبخلة»^(٢).

ومعنى ذلك أنه إذا التحم الحرب في جهاد المشركين أداه حبههم والشفقة عليهم إلى الجبن مخافة أن يموت فيهلكوا جوعاً؛ لأنه يرى نفسه رازقاً لهم؛ فيقوده ذلك إلى كبيرتين:

إحداهما في عقيدته، وهى تخيله رازقاً غير الله: فيكون سبباً لضعف يقينه أو ذهابه بالكلية.

قال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين، قالوا: يا رسول الله، وما ضعف اليقين؟ قال: الشك في المقدور، وكثرة الاهتمام بالرزق»^(٣). ولذلك كان كثيراً ما يقول فى دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من خوف الخلق، وهم الرزق، والرضا عن النفس؛ لأنهن أمهات الخبائث».

الثانية: التولى يوم الزحف، والتعريد^(٤) من خوف الختف، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِفَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦].

ومعنى كونه مبخلة أن الرجل لا تزال نفسه سخية يبذل المال وإنفاقه ما لم يولد

(١) هذه العبارة هكذا هى فى النسخة (ب)، وفى النسخة (أ): فيكون الناس بحسب معنى الآية إما مشغول... إلخ. وفيها عدم تناسق فى النسختين كما ترى.

(٢) حديث: «الولد مجبنة مبخلة»: رواه ابن ماجه والحاكم، وأوله: «أن النبى ﷺ أخذ حسناً فقبله، ثم أقبل عليهم وقال: إن الولد مجبنة مبخلة، وأحسبه، قال: مجهلة».

وأورده صاحب (الكشف) تحت رقم ٢٩١٦ والسخاوى تحت رقم ١٢٦٩ فى المقاصد الحسنة.

(٣) حديث «أخوف ما أخاف على أمتى» لم أجده مخرجا بهذا اللفظ.

(٤) كذا فى النسختين: التعريد، ومعناه الهروب.

له، فإذا ولد له، وكان ممن يرى الرزق من المال، بخل بإنفاقه؛ مخافة أن يتركهم عائلة، أو يكون ذلك سبباً للإقتار عليهم. فهذا معنى كون الولد مبخلة.

الثاني: النهي عن صحبة الحريص وخلطته للخبر: «المرء على دين خليله فاختر من تخالل». وفي رواية: من صحب الأبرار حشر معهم ولو لم يعمل بعملهم، ومن صحب الفجار حشر معهم ولو عمل بعمل الأبرار؛ لقوله ﷺ: «من أحب قوماً حشر معهم»^(١).

والمصاحبة تستدعى المودة غالباً، وإلا بأن لم تحصل مودة فلا تزر وازرة وزر أخرى.

وقال ﷺ: «إياك وجليس السوء، فإن الطبع يسرق من الطبع بحيث لا يعلم السارق ولا المسروق منه»^(٢).

وقال ﷺ: «الجلس الصالح كحامل المسك: إما أن تشتري منه، وإما أن يعطيكه، وإما أن تجد من ريحه. وجليس السوء كصاحب الكير: إما أن يحرق ثيابك بناره، وإما أن يصيبك بدخانته وقتره»^(٣).

قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

(١) حديث «من أحب قوماً حشر معهم» رواه الحاكم في مستدركه جازماً بلا سند، وأورده السخاوى تحت رقم ١٠٥١ وصاحب (الكشف) تحت رقم ٢٣٥٣ وله شاهد متفق عليه بلفظ: «المرء مع من أحب» والله أعلم.

(٢) حديث «إياك وجليس السوء»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، إلا أن ابن عساكر روى في تاريخه: «إياك وقرين السوء فإنك به تعرف» ٣٢٣/٤، وهذا اللفظ موضوع، وآفته إما محمد بن مسلمة الواسطي، وإما شيخه موسى الطويل، هذا مع أن السيوطي أورده تحت رقم ٢٨٩٠ ورمز له بالضعف، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٨٤٧ وحكم بوضعه، والله أعلم.

(٣) حديث «الجلس الصالح كحامل المسك»... إلخ. متفق عليه، وأوله: «مثل جلس الصالح والسوء كحامل المسك وناقض الكير».

• قال الناظم رضى الله عنه^(١)؛

٦١- وَإِنَّ صَدَى مَنْ لَا صِدَاءَ لَهُ أَدَى وَإِنَّ الْغَرَاءَ بِاللَّهْوِ فِيهِ غَرَاءٌ

الصدى، بالفتح والقصر: ما يرجع إلى المتكلم من صوته عند الجبل، ويطلق ويراد به السواد، قال كعب بن مالك:

* إِنَّ أَحَا الْحَرْبِ أَصْدَى اللَّوْنِ مَهْزُولُ *

والصدى أيضاً: صدأ الحديد والنحاس، والصدى أيضاً: شىء كانت تقوله العرب؛ وهو أن الميت إذا مات انتقلت روحه إلى طائر أو حية بفناء القبر، فإذا رأى ما يحب صاح، وفي ذلك يقول شاعرهم: (من بحر الطويل)

ولو أن ليلي الأخيلية سلّمت على ودوني جندل وصفائحُ
لسلّمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائحُ

ويطلق ويراد به الظمأ، ويطلق ويراد به الحب. والصداء، بالكسر والمد: المماراة^(٢) كالصادة. والغرى، بالقصر والفتح: الولوج بالشىء. والغراء، بالكسر والمد: مصدر من غريت بالشىء لاححت به أو عليه، قال كثير: (من بحر الطويل)

إذا قلت مهلاً غارت العين بالبكا غراءً ومدتها مدامعُ حقلُ

والغراء أيضاً: الموالاة بين الشئيين. والغراء أيضاً: اللصاق، ويطلق ويراد به الملازمة. فكأنه يقول: إن حكاية صوت الشخص الذى لا يوالى الناس ولا يؤالفهم أدى له ولهم: أما له فإنه لا أمان له منهم لسوء صنيعه بهم؛ فيرتاع لكل صوت سمعه، وإن كان حكاية صوته عند الجبل. وأما لهم فإنهم لم يتعودوا منه إلا قبح المعامل، فإذا سمعوا صدهاء تأذوا منه؛ لأن رؤية المؤذى كسمع صوته، فإنهما يذكران إذايته، وفي ذلك يقول المتنبي: (من بحر الخفيف)

(١) سقط من النسختين (أ) و (ب) بيتان وجدتهما فى نسخة خطية هما:

٥٩ - وتأبى طلى الأسد الطلاء فلن ترى حدى الدهر طلوا يفتفيه جداء

٦٠ - مطيع الطلاء مثل الطلاء فلا مرى جداً بل كمثل الضئان من جداء

(٢) فى (أ): المرأة، أما فى (ب) فأقرب شىء إلى الكلمة: المماراة.

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضى به الأجسام

قوله: وإن غرا باللهو: أى الولوع باللهو فيه ملامة؛ إذ الولوع باللهو يستدعى الانكباب عليه وعدم الانفكاك عنه؛ إذ النفس الأمانة بالسوء لشدة شرها وحرصها إذا نالت شيئاً من مطلوبها قوى شرها واشتدت نهامتها؛ فتلح فى الحرص والطلب، فكلما نالت بعد ذلك شيئاً ازداد شرها على حسب ما نالت من شهواتها؛ فلا تنفك من أسرها، ولا تحيط بها بأسرها، وفى ولوعها بالشىء غاية خسرها، نسأل الله السلامة من شرها، هذا إذا ظفرت به، وأما إذا لم تنل منه شيئاً فإنها لا تزال تتحسر عليه، وتحن ولو بعد حين إليه، ولا تزال بصاحبها حتى يعرض على ما فاقتته منه يديه، ويصير أسوأ حالاً من الفاعل الذى لا يريد العودة الى الفعل، فأحرى الفاعل النادم؛ لأن الندم على الفعل توبة، والندم على الترك إصرار. قال الشاعر: (من بحر البسيط)

إذا غدا ملك باللهو مشتغلاً فاحكم على ملكه بالويل والخرب

وقال ﷺ: «إذا رأيت وهناً فى بدنك، أو حرماناً فى رزقك، وقساوة فى قلبك، فاعلم أنك اشتغلت بما لا يعينك».

وقال ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة أكثرهم خَوْضاً فى الباطل»^(١).

وناهيك من سوء حاله أن ساوى الله بينه وبين المكذبين بيوم الدين فقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦].

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٦].

وقال ﷺ: «أشد الناس ندامةً يوم القيامة أكثرهم كلاماً فيما لا يعنى».

وقال ﷺ: «إن الرجل ليقول الكلمة ليضحك بها جلساءه يبلغ بها من عذاب

(١) حديث «أشد الناس عذاباً يوم القيامة»... إلخ. رواه ابن أبى الدنيا مرسلًا والطبرانى موقوفًا، وسند الطبرانى صحيح، ورجال ابن أبى الدنيا ثقات، قاله العراقى (١١٢/٣) إحياء، وهو بلفظ (أعظم) بدل (أشد).

الله ما لم يكن له فى الحساب»^(١).

يروى أن حاتمًا الأصم رضى الله عنه بينما هو جالس ذات يوم إذ نظر إلى باب دار فقال: لمن هذه الدار؟ ثم ازدجر فاستغفر واستعبر ثم قال: لقد تكلمت فيما لا يعينى، وأى حاجة لى فى البيت وبابه؟ فنذر الله عليه صوم سنة كفارة لتلك الكلمة.

وقال ﷺ: «كل لهو يلهوه الإنسان فهو باطل إلا روى الرجل بسهمه، أو ملاعبته زوجته، أو تأديبه فرسه ليعلمها ويتعلم» ولهذا حرم الله المياسر كلها.

ومن الحكم الداودية: ينبغى للرجل أن يقسم أوقاته بين عمل لآخرته، ومرة لدنياه فيما لا بد له منه من ضروريات طبعه ومؤونة عياله، وساعة يشتغل فيها بمنافع الخلق، ووقتًا يخلو فيه بنفسائه، وساعة يحاسب فيها نفسه يخلو فيها بربه، ولا يترك نفسه سدى كالبهيمة الراعبة.

وقال ﷺ: «من كان غده خيرًا من يومه فهو فائز، ومن استوى غده ويومه فهو خاسر، ومن كان يومه خيرًا من غده فالموت خير له من الحياة».

وقال ﷺ: «إن الله يبغض الفرحين المرحين»^(٢).

وقال ﷺ فى حديث يرويه عن ربه «إنى خلقت خوفين وأمنين فلا أجمعهما على عبد: من خافنى فى الدنيا أمتته فى الآخرة، ومن أمننى فى الدنيا خوفته فى الآخرة».

قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] لأن من جعل أهوال القيامة نصب عينيه، وكشف قناع الغفلة عن قلبه، وزالت كئائف^(٣) الطبع

(١) حديث «إن الرجل ليقول الكلمة ليضحك بها جلساءه»... إلخ. رواه ابن أبى الدنيا وفيه: «يهوى بها أبعاد من الثريا» وسنده حسن، وأصله عند الشيخين والنسائى بلفظ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفًا فى النار» والله أعلم.

(٢) حديث: «إن الله يبغض الفرحين المرحين» موضوع رواه الديلمى بلفظ: «إن الله يبغض البذخين الفرحين، ويحب كل قلب حزين» وأورده السيوطى تحت رقم ١٨٥٠ قال المناوى شارحه: فيه إسماعيل بن أبى زيادة الشامى قال فى الميزان: قال الدارقطنى: متروك يضع الحديث (٢/٢٨٤) هذا مع أن السيوطى رمز له بالضعف فقط. قلت: وعلة من إسماعيل هذا، والله أعلم.

(٣) فى نسخة (ب): كئائف.

عن بصيرته، لم تسمح له نفسه أن يلهو مع اللاهين، ولا أن يغفل مع الغافلين.

وقال ﷺ: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يلهو مع اللاهين، ولا أن يجهل مع الجاهلين، فإذا فعل قال له القرآن: ويلك ألا تستحي مني وأنا بين جنبيك فيأني شاهد لا يرد، وشفيع لا يصد، أما لك في عبء؟ أما لك فيما نزلت به موعظة؟ فلو أنزلت على جبل لتخشع وتصدع».

فعلى هذا يكون البيت مقتبساً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ إلى ﴿يُؤْفِكُونَ﴾ [المنافقون: ٤٤]، لأن البيت إنما جرى به في نعت المنافقين.

قال الرسول ﷺ: «في قلب كل مؤمن صوت نائحة، وفي قلب كل منافق صوت مزمار»، ولذلك صار النبي ﷺ الذي هو أتم الخلق إيماناً أكثرهم حزناً. قال أنس بن مالك رضى الله عنه: «كان ﷺ ظاهر البشر، متواصل الأحزان ليست له راحة، وكان إذا كان في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء»^(١).

وكان يقول ﷺ لأصحابه: «لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»^(٢). وروى أنه ﷺ كان يقول في بعض خطبه: «عجبت لمن أيقن بالنار كيف ينام، ولمن يعلم أن الله مطلع عليه كيف يعصيه، ولمن أيقن بالجنة كيف لا يجد في طلبها، ولمن علم خداع النفس كيف يطيعها، ولمن علم زوال الدنيا كيف يركن إليها ويطمئن فيها، ولمن علم أن المال عارية بيده كيف يبخل به عما يعود عليه نفعه في الآخرة»^(٣). تقبل الله أعمالنا، وأصلح أحوالنا، وأخذ بنواصينا إليه آمين.

(١) حديث: «وكان إذا كان في الصلاة يسمع لصدره أزيز»... إلخ. رواه الترمذى في الشامل وأحمد ٢٥/٤ وأبو داود في الصلاة والنسائي ١٣/٣ في السهو وإسناده قوى، وصححه ابن خزيمة وابن حبان وأخرجه البغوى في شرح السنة ٢٤٥/٣ بلفظ: «أتيت النبي ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، ييكى»، وفي رواية: «من البكاء»، وفي رواية: «كأزيز الرحي» والأزير: الصوت المكتوم، والله أعلم.

(٢) حديث: «لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى والنسائي.

وأوله عند البخارى «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، والله أعلم.

(٣) حديث: «كان ﷺ يقول في بعض خطبه»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ.

• قال الناظم:

٦٢- أَخَا الدِّينِ أَوْلَىٰ بِالْإِخَاءِ فَذَا نَدَىٰ أَجِبْهُ إِذَا مَا كَانَ مِنْهُ نِدَاءٌ

قوله: أخا الدين: مفعول ثان لاتخذ، تقديره: اتخذ أخا الدين أخاً، فهو أولى: خبر لمبتدأ محذوف، وبالإخاء متعلق بأولى. والمد: المصافاة في الله، والأثرة على النفس، وهي سنة متبعة وقاعدة من قواعد الإسلام معتبرة، سنّها رسول الله ﷺ لما قدم مهاجراً ومعه من أسلم من قومه، فأخى بين كل رجلين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة صدراً من الإسلام حتى نسخ ذلك بقوله: تعالى: ﴿وَأَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] فنسخ التوارث وبقيت المصافاة، وكان الأنصاري إذا كانت له زوجتان نزل عن إحداهن لأخيه من المهاجرين، وربما شاطره إن احتاج إلى ذلك ورضيه، إلا ما كان من عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فإن أخاه من الأنصار كان أبا أيوب فقال له اختر أى زوجاتى أحببت أنزل لك عنها وأشاطرك مالى، ورباعى^(١). فقال له: بارك الله عليك فإنك قد أديت حق الإخاء، وإنى رجل تاجر، فأعزنى منزلاً، وأسلفنى، ففعل، فلم يلبث إلا أياماً قلائل حتى رد عليه ما أسلفه، واتخذ منزلاً، وتزوج امرأة من فضل تجارته، فأتى النبي ﷺ وعليه أثر صفرة^(٢) فقال: مه يا عبد الرحمن؟! قال: تزوجت جارية من الأنصار، واشترت منزلاً من فضل تجارتي، وقد طلب منى أخى الأنصاري أن ينزل لى عن أى نسائه أحببت، وأن يشاطرنى ماله، فأبيت إذ لا أحب أن أكون كلاً على أخى فى الله؛ لأننى كنت رجلاً تاجراً، فقال له رسول الله ﷺ: بارك الله لك فى صفقة يمينك. فقال بركة دعاء رسول الله ﷺ فكان من أمره ما تقدم فى صدر الكتاب.

وأما على رضى الله عنه فإنه لما وقعت المؤاخاة ولم ير النبي ﷺ أخى بينه وبين أحد من الأنصار، قال: وأين أخى يا رسول الله؟ فأخذ بيده فقال: أنا أخوك. فصار ذلك من مفاخر على رضى الله عنه؛ إذ كأنه لم ير له كفتاً غير نفسه، وفى ذلك يقول: (من بحر الوافر)

(١) الرباع: البيوت.

(٢) أثر صفرة: أثر طيب.

محمد النبي أخى وصهرى
وجعفر الذى يغدو ويمسى
وبنت محمد سكنى وعرسى
وسبطا أحمد ابناى منها
ويشهد بالولاية لى عليكم
سبقتكم إلى الإسلام طراً
وحمزة سيد الشهداء عمى
يطير مع الملائكة ابن أمى
منوطٌ لحمها بدمى ولحمى
فأيكم له سهمٌ كسهمى
رسول الله يوم غدیر خمٌ
صبيّاً ما بلغتُ أو أن حلُمى

ومثل هذا من المحاسن والفضائل والمناقب، وما كان اختص به من زوائد
الفضل. مدحه بعض ملوك اليمن فقال: (من بحر البسيط)

سائل قريشاً به إن كنت ذا عمه
من كان أقدمها سلماً وأكثرها
من وحد الله إذ كانت مكذبة
من كان يقدم فى الهيجا إذا نكلوا
من كان أعدلها حكماً وأبسطها
إن يصدقوك فلن يعدوا أبا حسن
إن أنت لم تلق أقواماً ذوى صلف
من كان أثبتها فى الدين أوتادا
علما وأطهرها زوجاً وأولادا
تدعو مع الله أوثاناً وأندادا
عنها وإن بخلوا فى أزمة جادا
علماً وأصدقها وعداً وإيعادا
إن أنت لم تلق للأبرار حسادا
وذا عناد لحق الله جحادا

يقال: أخاه وواخاه، وأخوته وأخيته أخوة وإخاء ومؤاخاة فهو مؤاخ. وإنما أخى
رسول الله ﷺ بين أصحابه ليشد بذلك من عضدهم، ويذهب به عنهم وحشة
الغربة ومفارقة الأهل والوطن، وليحرك به من نشاطهم إلى الجهاد، وليهز به
أعطف تواددهم، وتأكيد ألفتهم المشار إليها بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [الأنفال: ٦٣] فكانوا كذلك حتى إن الرجل منهم إذا
مات ورثه أخوه فى الدين دون أخيه فى النسب، فلما أكثر الله المسلمين وجاء
الفتح زالت الوحشة لدخول الناس فى الدين أفواجاً، فنسخ الله التوارث بالأخوة
الإسلامية، ورجع إلى الأخوة النسبية، وبقي التوادد والمصافاة والموالاتة الموجبة
للنصرة والمعاضدة والمؤازرة، فأكد الله تعالى بقاءها فيما بينهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومثله قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمنون تكافأ دماءهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم».

وكان رسول الله ﷺ لما آخى بين المهاجرين والأنصار بالمدينة آخى بين معاوية ابن أبي سفيان والحُتات^(١) بن زيد بن علقمة المجاشعي، فلما ولى الشام رحل إليه ولازمه لتلك الأخوة؛ فأحسن إليه معاوية، وبقي معه إلى أن أفضت إليه الخلافة، فمرض الحُتات ومات، فحاز معاوية جميع مخلفاته، وادعى أنه أولى بإرثه لتلك الأخوة، وإلى هذا يشير الفرزدق ويشنع عليه تلك الخصلة إذ يقول: (من بحر الطويل)

أبوك وعمى يا معاوى أورثا تُرثاً ليحتاز التراث أقرابه
فما بال ميراث الحُتات أكلته وميراث صخر جامد لك ذائبه

وفى تأكيد نسب الدين وإبطال نسب الطين قال الرسول ﷺ: «لا توارث بين ملتين شتى»^(٢)؛ ولذلك من لا رحم له فى الإسلام ترثه جماعة المسلمين، وكذلك السائبة، ومن علم إسلامه قومه ثم جهلت أعيانهم.

واختص بالأخوة التامة من هذه الأمة أهل التصوف رضى الله عنهم؛ فبقوا على ما كان عليه سلفهم الصالح من أصحاب رسول الله ﷺ لم يزد لديهم إلا تأكيداً؛ فأوجبوا تقديم حق الأخ من الشيخ على الأخ للأب والأم^(٣)، بل صيروا أخوا النسب أجنبيّاً، فلا يستحلون فى طريقتهم أن يمنع أحدهم من أخيه ما يحتاج إليه

(١) الحُتات - بضم الحاء وتخفيف التاء -: ابن زيد بن علقمة، وفد على النبي ﷺ فى وفد بنى تميم وأسلم، وقصة الأخوة مع معاوية ذكرها ابن إسحاق والكلبي. وفيها أنه مات عند معاوية فى خلاقته فورثه (٣١٠/١) إصابة.

قلت: ومن المستبعد عندى أن تكون هذه الأخوة صحيحة، لأن الأخوة إنما تمت بين المهاجرين والأنصار فى الصدر الأول من الإسلام.

ومعاوية لم يهاجر قطعاً إلا بعد الفتح، ولم يسلم على الصحيح إلا بعده، والله أعلم.

(٢) حديث: «لا توارث بين ملتين»... إلخ. صحيح رواه مسلم بلفظ: «لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم» (٥٩/٥).

(٣) الأخوة الإسلامية شاملة لجميع المسلمين، أما اختصاصها بأخوة الشيخ فلا أظن الأدلة تساعد على ذلك، والله أعلم.

من ماله، ويتخرجون من قول: مالي، وهذا لي، إلى ما لا يدخل تحت حصر من مآثرهم رضى الله عنهم، إذ تتبعه يخرجنا عن قصد الاختصار. وفي ذلك يقولون: (من بحر الرجز)

إن أذاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا رب الزمان صدعك شت فيك شمله ليجمعك

وبقى نوع آخر من الأخوة وهو أخوة العامة وهي المناصرة ظاهراً دون المصافاة باطناً، وذلك ما تُساس به دول الملوك وألفة القبائل فيما بينها.

يروى أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً بدير سمعان، واجتمع إليه وجوه الناس فقال: أنبئوني بأحسن ما قيل في الأخوة؛ فأخذ كل منهم يقول ما عنده، فلما فرغوا قال لهم: أحسن ما قيل في الأخوة قول الشاعر: (من بحر الخفيف)

إنما خلُّك المصاحب في المرُّ ر وأين المصاحب في المرِّ أيناً
الذى إن حضرت زانك في الحى وإن غبت صار أذنا وعينا
فاتفقوا على أنه أحسن ما قيل في المؤاخاة.

ومن هذا القبيل قول بعض الفضلاء: (من بحر الطويل)

أحب من الإخوان كل موات عفيفاً غضيض الطرف عن عثرات
يوافقنى فيما أروم وأشتهى ويسعدنى حياً وبعد ممات
فمن لى بهذا ليتنى قد وجدته أقاسمه مالى ومن حسنات

قوله: فذا ندى: منصوب على الاشتغال أى أجب ذا ندى، أى صاحب كرم أجه. وإذا: ظرف لما يستقبل، وما: زائدة توكيدية. وكان: فعل ماض ناقص. ونداء، بالكسر والمد: اسم كان، وخبرها المجرور قبله.

والمعنى: إذا ناداك الكريم، أى دعاك، فأجبه ولا تخيب نداءه؛ فإنه إنما يدعوك إلى فضل أو فضيلة، ومن لا يدعو إلا فضل أو فضيلة فهو خليق بأن يجاب داؤه؛ لأن «السخى قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار»، كما روى عن

رسول الله ﷺ^(١). فمن هذه أوصافه خليق أن يُواخى. وفي مثل ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

إذا دعاه كريم يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرمٌ
وقال غيره: (من بحر الطويل)

وليس بدحورٍ^(٢) إذا سيل حاجة ولا بمنكب في ثرى الأرض ينكت
وقال غيره: (من بحر الطويل)

فما خذلَّ قومي فأخضع للعدا ولكن إذا أَدعوهم فهم هم

ومن مآثر الكرام أنهم يكسبون مجالسهم والمتسير بسيرتهم أخلاقاً حميدة وشيماً كريمة لما يسرى إليه من غرائب نفوسهم المهذبة؛ فتكتسب منه الأخلاق الحميدة فضلاً عن صحبتهم؛ فمن ذلك ما أنشده حاتم الطائي لما ألح عليه قومه بالعدل على الكرم؛ إذ كان كلما نفذ ماله استلف واستدان مخافة أن يسرى في عرضه خلل أو في مكارمه فشل؛ فقال^(٣): (من بحر الطويل)

يلومونني في الدين قومي وإنما ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا
لهم جلُّ مالى إن تتابع لى غنى وإن قلّ مالى لا أكلفهم رفدا
فإن شتموا عرضى وفرت عروضهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم فليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وإنى لعبد الضيف ما دام نازلا ولا شيمة لى غيرها تشبه العبددا
وله أبيات فى الموضوع غير هذه.

(١) حديث: «السخي قريب من الله قريب من الجنة»... إلخ. ضعيف جداً، أخرجه الترمذى (١٤٣/٣) والعقيلي فى الضعفاء (١٥٤) وابن عدى (١٨٣/٢) قال الترمذى: غريب، وقال العقيلي: ليس لهذا الحديث أصل من حديث يحيى ولا غيره. وقال ابن حبان: غريب غريب. وأورده ابن الجوزى فى موضوعاته، وتعقبه السيوطى فى اللآلئ (٩٢/٢)، وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ١٥٤ وقال: ضعيف جداً، والله أعلم.

(٢) الدحور والدحور: الذى يدفع الناس عنه أو يطردهم.

(٣) المعروف أن هذه الأبيات للمقنع الكندى، وليست لحاتم الطائي كما ذكر.

وقال ﷺ: «ولتجب إذا دعيت إلى وليمة العرس وأنت في الأكل بالخيار». ومن واجب الأخوة العامة ما قاله الصادق المصدوق ﷺ حيث يقول: حق المسلم على أخيه المسلم أن يرد عليه السلام إذا سلم، وأن يطعمه إذا استطعم، وأن يشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويحجبه إذا دعاه، وإذا افتقر إلى مواساته واساه، وينصحه إذا حضر، ويحفظه إذا غاب، وإن استأذنه في الدخول أذن إن لم يكن شغل أو مانع، ولا يدخل عليه بغير إذن، ولا يزيد في الاستئذان على الثلاث بل ينصرف عند الاستئذان الثالث، ولا ينقر الباب وإن نقر خف، وليذكر اسمه إذا سئل، ويحرم النظر إلى داخل البيت عند الاستئذان، ومن ذلك القيام بحق الجار والأجير والمستجير.

قال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(١).

وقال ﷺ: «أربعون داراً جاراً»^(٢).

وقال ﷺ: «جار له أربعة حقوق، وجار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد؛ فالذي له أربعة حقوق: جار ورحم مسلم قريب المنزل له حق الجوار وحق الإسلام وحق قرب المنزل. والذي له ثلاثة حقوق: جار مسلم قريب المنزل له حق الجوار وحق الإسلام وحق قرب المنزل. والذي له حقان: جار مسلم له حق الجوار وحق الإسلام. والذي له حق واحد جار مشرك له حق الجوار فقط»^(٣).

(١) حديث: «ما زال جبريل يوصيني بالجار»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) حديث: «أربعون داراً جاراً»... إلخ. ضعيف، أخرجه الطبراني بلفظ: «ألا إن أربعين داراً جوار، ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه»... إلخ.

وأورده الهيثمي (١٦٩/٨) مجمع، وفيه: يوسف بن السفر وهو متروك، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٢٧٥ وقال: ضعيف، وقال: روى هذا الحديث بسند رجاله ثقات ولولا أنه مرسل لحكمت بصحته، أما الموصول فهو ضعيف، قال العراقي في تخريج أحاديث (الإحياء) بعد أن ساق الحديث من الوجهين: المرسل والموصول كلاهما ضعيف (٢/٢١٢).

قلت: أول الحديث ضعيف، وآخره «ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه» فصحيح لأن مسلماً رواه في صحيحه، والله أعلم.

(٣) حديث: «جار له أربعة حقوق»... إلخ. ضعيف جداً، رواه أبو الشيخ والبخاري وأبو نعيم، وأوله عندهم: «الجيران ثلاثة»... إلخ. قال الحافظ العراقي بعد أن أورد الحديث: رواه البخاري =

وهذه الرواية غريبة جداً، وإنما المشهور الموجود في جميع الصحاح ما نصه: «جار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد».

قال الله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦] وإنما أتى الله بهم على هذا النسق لتأكيد حقهم دون سائر المسلمين.

وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»^(١).

وقال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقالوا: أما نصره مظلوماً فقد عرفناه فما نصره ظالماً؟ قال: أن تأخذوا على يديه»^(٢).

وقال ﷺ: «المسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً»^(٣).

وقال ﷺ: «المسلمون كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى كله بالألم والسهر»^(٤).

وقال ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم رجل استأجر أجيراً فأدى ما عليه ثم أكل أجرته، ورجل اقتطع نصيباً من مال مسلم يمين فاجرة بعد العصر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه»^(٥).

= وأبو نعيم وأبو الشيخ بسندين وكلاهما ضعيف (٢١٢/٢).

وأورده الهيثمي وقال: رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد وهو وضاع (١٦٤/٨). كما أورده صاحب (الكشف) تحت رقم ١٠٥٥ وقال: ضعيف، والله أعلم.

(١) حديث: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والترمذي، وهو عند البخاري في كتاب (المظالم).

(٢) حديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي وهو عند البخاري في باب (المظالم).

(٣) حديث: «المسلم للمسلم كالبنيان»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان بلفظ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ثم شبك بين أصابعه».

أما لفظ: «المسلم للمسلم» فلا أعرفه. والحديث عند البخاري في كتاب (الأدب)، والله أعلم.

(٤) حديث: «المسلمون كالجسد الواحد»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وأحمد، وأوله عند مسلم وأحمد: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم»... إلخ. أما أوله عند البخاري فهو: «ترى المؤمنين في توادهم» (كتاب الأدب).

(٥) حديث: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة»... إلخ. أخرجه الجماعة بلفظ غير لفظ الشيخ؛ فهو عند البخاري بلفظ «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم: رجل =

وقال ﷺ: «أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»^(١).

وقال ﷺ: «أنا خصيم من أكل حق أجير».

وفى رواية: «من أكل حق أجير كان الله خصمه، ومن كان الله خصمه أنا خصمه».

ومن واجب الأخوة أيضاً حفظ حرمة المستجير، قال ﷺ: «من استغاث بك فأغته، ومن استجار بك فأجره».

وفى ذلك يقول الشاعر:

إن الكريم يحلم ما لم يرَينَ من أجاره قد أهينا^(٢)
وفيه أيضاً يقول السموأل فى قصيدته المشهورة: (من بحر الطويل)
فما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكرين ذليلٌ

وهذه الخصلة مما يستوى فيه المسلم والمشرک صيانة لذمم الإسلام. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. ولقد بالغوا فى ذلك حتى صار أحدهم يحمى الجراد إذا نزل بساحته من أن يستباح حتى يرتحل.

ومن تمام حق الأخوة الإحسان إلى المملوك، قال ﷺ: «سوء المملكة شؤم».

وقال ﷺ: «أفضل الصدقة ما تصدق به على مملوك يساء إليه»^(٣).

= كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لنديا فإن أعطاه منها رضى وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذى لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل، ثم قرأ: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) البخارى كتاب (المساقاة).

(١) حديث: «أعط الأجير حقه»... إلخ. ضعيف رواه أبو يعلى فى مسنده بلفظ: «أعطوا الأجير أجره» وأورده السيوطى تحت رقم ١١٦٤ بهذا اللفظ ورمز له بالضعف، قال المناوى: وبالجملة فطرقة كلها لا تخلو من ضعيف أو متروك لكن لمجموعها يصير حسناً (١/٥٦٣)، والله أعلم.

(٢) البيت مكسور الوزن.

(٣) حديث: «أفضل الصدقة ما تصدق به على مملوك»... إلخ. ضعيف رواه الطبرانى فى الأوسط ١ بلفظ: «أفضل الصدقة ما تصدق به على مملوك عند ملك سوء».

وقال ﷺ: «إخوانكم خولاكم^(١) جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم فأطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون وإذا كلفتموهم فأعينوهم»^(٢).

وكان ﷺ يأمر أصحابه أن يريحوهم في أحد الملوين^(٣).

وما ضرب ﷺ مملوكاً بيده إلا أن يكون في حد من حدود الله.

ومن واجب حقوق الأخوة دفع زحوف المشركين عن مدائن المسلمين وثغورهم على قدر الاستطاعة والطاقة، فيكون الدفع حينئذ فرضاً على كل قرية من قرى الأمة حيث كانت المدينة لا تقوم بدفع الزحف. وقيل: إنما يجب ذلك على الأمراء لوجوب طاعتهم؛ فيجب حينئذ الجهاد والدفع على من دعوه إليه، كما فعل المعتصم بالله في القرن الخامس^(٤)؛ وذلك أن نوفلس ملك الروم أغار على ثغر من ثغور المسلمين فأباد رجاله وسبى نساءه، فسبى عالج من أعلاج الروم بنت كبير من كبراء المسلمين، فعنفها؛ فقالت: وامعتصماه، فلطمها وقال: ما يغني عنك المعتصم؟ فلما بلغت كلمتها المعتصم خرج من فوره وهو يقول: لبيك لبيك. فلما أجمع الغزو جاء المنجمون فقالوا له: لا تغزُ أيها الأمير فإننا نرى عندنا من كتب التنجيم أنك إن غزوتهم الآن استصعبوا عليك ولم تقدر لهم على شيء! فقال:

= وأورده السيوطي تحت رقم ١٢٦٤ وقال فيه: مالك بدل ملك، وهو الأولى، ورمز له بالضعف.

قال المناوي نقلاً عن الهيثمي: فيه بشر بن ميمون وهو ضعيف (٣٨/٢)، والله أعلم.

(١) الخول: الخدم والعبيد الذين يتعهدون الأمور.

(٢) حديث: «إخوانكم خولاكم» متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والنسائي بالفاظ يزيد بعضها على بعض غير أنها متقاربة، وهو عند البخاري قريب من هذا اللفظ في كتاب (الإيمان)، والله أعلم.

(٣) الملوين: الليل والنهار، ولم أعر على هذا الأمر الذي هو قول الشيخ: «وكان يأمر أصحابه أن يريحوهم أحد الملوين».

(٤) المعتصم بالله: هو محمد بن الرشيد هارون بن محمد الخليفة العباسي، ولى الخلافة بعد أخيه المأمون عام ٢١٨ وتوفي عام ٢٢٧، والقصة التي ذكر الشيخ وقعت له في مدينة عمورية، وليس هو ولا هي في القرن الخامس الهجري وإنما في أول القرن الثالث. واسم ملك الروم نوفل بن ميخائيل حسب رواية ابن خلدون (٢٦٢/٣) والله أعلم.

آمنت بالله وبرسوله وما جاء به من عند الله وكفرت بالنجوم، فنزل على عمورية، فبدلوا له الأموال على أن ينصرف عنهم، فقال: والله لا رجعت عنها أو أقلع أساسها. فأتاه المنجمون من الروم فقالوا له: انصرف أيها الملك فإنه ما حاصرها قوم فأدركهم نضج التين والعنب إلا استؤصلوا فأفناهم الطاعون، فقال: آمنت بالله وتوكلت عليه، والله لا أثنى حتى أستأصلها أو أموت دونها. فنزلها حتى خربها وقتل تسعين ألفاً من صناديدها، ففر وفلس. وسبى المعتصم من الروم ما لا يحصيه العدد بعدما استنقذ ما بأيديهم من سبايا المسلمين وفيهم المرأة التي استغاثت به؛ فأنشأ أبو تمام القصيدة التي مطلعها قوله معرضاً بالمنجمين الذين قالوا له: إنها لا تفتح في هذا الوقت: (من بحر البسيط)

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب	في حده الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيض الصفائح لا سود الصحائف في	متونهن جلاءُ الشكِّ والريبِ
وَأَلْعَلِمُ في شُهْبِ الأرماحِ لامعةٌ	بينَ الخميسينِ لا في السبعةِ الشهبِ
أين الروايةُ بل أين النجومُ وما	صاغوه من زخرفِ فيها ومن كذبِ
تَخْرُصًا وأحاديثًا ملفقةً	ليست بنبعِ إذا عدت ولا غرَبِ
عجائبًا زعموا الأيامِ مجفلةً	عنهن في صفرِ الأصفارِ أو رجبِ
وخوفوا الناس من دهياءَ مظلمةٍ	إذا بدا الكوكبِ الدرِّ ذو الذنبِ
وصيروها الأبرجِ العُليا مرتبةً	ما كان منقلبًا أو غيرَ منقلبِ
يقضون بالأمرِ عنها وهي غافلةٌ	ما دار في فلكِ منها وفي قُطبِ
لو بينتُ قطُ أمراً قبل موقعه	لم يخفَ ما حل بالأوثانِ والصُّلبِ
فتح الفتوحِ تعالى أن يحيط به	نظمٌ من الشعرِ أو ثرٌّ من الخطبِ

- (١) النبع: شجر ينبت في أعلى الجبال مشهور بالصلابة. والغرب بالتحريك: نبت ينبت على الأنهار ليس له قوة. والمعنى أن هذه الأحاديث الملققة ليست قوية كالنبع بل ولا ضعيفة كالغرب بل هي لا شيء، وهذا النوع معروف في وصف الشيء بالعدم، والله أعلم.
- (٢) في (ب): دهياء داهية بدل مظلمة، وكذلك الكوكب الدرِّ بدل الغريب الموجودة في الدواوين المطبوعة.

فَتَحَّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ
 يَا يَوْمَ وَقَعَتْ عَمُورِيَةٌ أَنْصَرَفْتُ
 أَبْقَيْتُ جَدَّ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي صَعْدِ
 لِمَا رَأَى الْحَرْبَ رَأَى الْعَيْنِ نُوفَلَسُ
 غَدَا يَصْرِفُ بِالْأَمْوَالِ خُزَيْتِهَا
 هِيَهَاتَ زُعْزَعَتِ الْأَرْضُ الْوُقُورُ بِهِ
 لَمْ يَنْفَقِ الذَّهَبَ الْمُرْبَى بِكَثْرَتِهِ
 إِنْ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَابِ هَمَّتُهَا
 وَلَى وَقَدْ أَلْجَمَ الْخَطِيئُ مَنْطِقَهُ
 أَحْسَى قَرَابِيْنَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى
 مَوْكَلًا بِيَفَاعِ الْأَرْضِ يَذْرَعُهَا
 إِنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدَوَ الظُّلَيْمِ فَقَدْ
 تَسْعُونَ أَلْفَا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضَجَتْ

وَتَبَرَزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ (١)
 عَنْكَ الْمَنَى حَفْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلْبِ
 وَالْمَشْرِكِينَ وَجَدَّ الشَّرِكِ فِي صَبَبِ (٢)
 وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ
 فَغَرَّهُ الْبَحْرُ ذُو التِّيَّارِ وَالْعَيْبِ
 مِنْ غَزْوٍ مُحْتَسِبٍ لَا غَزْوٍ مُكْتَسَبِ
 عَلَى الْحَصَى وَبِهِ فَقَرَ إِلَى الذَّهَبِ
 يَوْمَ الْكَرْبِيَّةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ
 بِسَكْتَةٍ تَحْتَهَا الْأَحْشَاءُ فِي صَخْبِ
 يَحِثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الرَّعْبِ (٣)
 مِنْ خَيْفَةِ الْمَوْتِ لَا مِنْ خَيْفَةِ الطَّرْبِ (٤)
 أَوْسَعَتْ جَا حِمَّهَا مِنْ كَثْرَةِ الْحَطْبِ (٥)
 جَلُودَهُمْ قَبْلَ نَضَجِ التِّيْنِ وَالْعَنْبِ

«ومن الأخوة ما هو على دخل، وهي أخوة اللثام والمنافقين، وفي المثل: كن بدوى القرابة شديد الاسترابة، فالمدخر الشفيق لا الشقيق، والمعتبر الوداد لا الولاد» معناه: كن كثير ظن السوء في جميع أقاربك، ولا تظمئن إلى أحد من أبنائك فضلاً عن إخوانك. وهذا مثل قول الطغرائي رحمه الله تعالى (٦): (من بحر البسيط)

(١) القشب: جمع قشيب: الحديد النظيف الأبيض.

(٢) في النسخ المطبوعة من الديوان: (ودار الشرك) بدل (وجد الشرك).

(٣) في (١): (أحصى) بدل (أحسى)، و (يحث) بدل (يحث)، ومن الهرب بدل الرعب.

(٤) اليفاع: المرتفع من الأرض. والبيت في ديوان أبي تمام هو:

موكلاً بيفاع الأرض يشرفه
 من خيفة الخوف لا من خيفة الطرب

(٥) الجاحم: الذي يوقد النار.

(٦) الطغرائي: هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي الملقب بمؤيد الدين المشهور بالطغرائي المتوفى =

أعدى عدوك أدنى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخل
ومثله قول الآخر: (من بحر البسيط)

العجز ضرر وما بالحزم من ضرر
وأحزم الحزم سوء الظن بالناس
وفى ذلك يقول ذلك النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من إخوان العلانية أعداء السر».

وقال على كرم الله وجهه: الحزم سوء الظن بالناس؛ لأن أكثر الناس المنافقون
واللثام وأقلهم الأصفياء الكرام لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].
وفى ذلك يقول الشاعر: (من بحر الوافر)

صحبت الناس جيلا بعد جيل
فلم أر غير مغتال وقال
وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشريد: (من بحر البسيط)

ترى الأمور سواءً وهى مقبلة
وفى عواقبها تبيان ما التبسا
ترى الجليس يقول القول تحسبه
نصحاً وهيهات ما نصحا به التمسا
فجالسنه ولا تأمن غوائله
والبس له ثوب غل مثلما لبسا

فاسمع مقالته واحذر عداوته، فغاية ما يجتنى من صحبة اللثام والمنافقين السلامة
من شرهم وغوائلهم كما أنه لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك صحبتهم.

وأخوتهم ليست لها عاقبة تحمد كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ فى التحذير من
خلطتهم وأخوتهم هو أمره بتجنبهم وعدم مصافاتهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾
إلى قوله ﴿فَاحْذَرُهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

وفى مثلهم يقول الشاعر: (من بحر الوافر)

تخذتهم سهاماً للأعداى
فكانوها ولكن فى فؤادى
وقالوا قد صفت منا قلوب
نعم صدقوا ولكن من ودادى

= سنة ٥١٣ من قصيدة له تعرف بلامية الطغرائى، وأولها:

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل
وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
وهى طويلة ومليئة بالحكم، وتسمى لامية العجب.

فلما خفت شرهم رَمِينَا صحیح القرب منهم بالبعاد

وحقيقة الأخوة على دخل هو أن تكون أخوتهم منعقدة على الأغراض، وموهة على الأمراض، إن وجد من أخيه ما أحب وما هوى شكره، وإن رأى غير ذلك يوماً ما أنكرك ثم كفر؛ وفي مثلهم يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال رسول الله ﷺ: «شر الناس عند الله منزلة من صحب إماماً على دخل إن أعطاه من الدنيا رضى وإن لم يعطه سخط».

وفي مثلهم يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

إِنْ يَسْمَعُوا سَبَّةً طَارُوا بِهَا فَرِحًا مَنَى وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

وقال غيره: (من بحر الطويل)

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الذى هو فيه
فلا خير فيمن لا يرى عيب نفسه وينسبُ عيباً باطلاً لأخيه

ومثالب إخوان السوء لا تحصى، لا جعلنا الله منهم، ولا جعلهم إلينا.

• قال الناظم رضى الله عنه، آمين:

٦٣ - وَأَهْلَ اللَّخَا أَهْجُرُ وَاللِّخَاءَ اتَّبِعْ بِهِ وَحَا السَّلْفِ الْمَرْضَى مِنْهُ وَخَاءُ

قوله: أهل اللخا، بالقصر والفتح: كثرة الكلام بالباطل. والزم اللخاء، بالكسر والمد: أى العطاء فى ذات الله وما يصون العرض والمروءة، ويقال: والموافقة والمخالفة بالخاء المهملة. قوله: اتبع بها سبيل السلف الصالح، وهو وخاء، بالقصر والفتح: أى ما يرضى منه. وخاء، بالمد والكسر: أى مؤاخاة ومصافاة

وهذا البيت تميم للبيت قبله، وهو من باب التضمين المجازى؛ لأنه حض على الكرم بقوله: الزم اللخاء، بالمد: تلميحاً لقوله ﷺ: «شر الناس ثلاثة: غنى بخیل، وشيخ فاسق، وفقير متكبر».

وقال على كرم الله وجهه: الملك البخیل شر من الغنى البخیل؛ لقوله ﷺ:

«أبخل الناس من بخل ببال غيره»، وهو الملك، كما قال الشاعر في الجناس: (من المتقارب)

إذا ملك لم يكن ذا هبه فدعه فدولته ذاهبه

وقال غيره: (من بحر الطويل)

فلا تجمع الأموال إلا لبذلها كما لا يساق الهدى إلا إلى النحر

وقال ﷺ: «خلق الله أربعاً لأربع: خلق المال للإنفاق لا للإمساك، والولد للموت لا للبقاء، والبناء للخراب لا للدوام، وخلق العلم للعمل لا للتعلم».

يروى أن عزرائيل عليه السلام يصيح كل يوم بأهل الدنيا: لدوا للموت وابنوا للخراب.

والبذل منه محمود ومذموم؛ فالممدوح منه ما أفاد أجراً، أو أكسب ذكراً، أو صان عرضاً، وأصلح فرضاً. والمذموم منه ما كان سرقاً، وأدى إلى تلف؛ فلا هو مأجور ولا عند الله مشكور. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وليس التبذير بكثرة البذل، وإنما التبذير ما كان لغير الله وإن قل، أو وضعه فيغير موضعه. وأما ما كان لله وفي موضعه فليس بتبذير وإن أتى على جميع المال.

كان أبو بكر رضى الله عنه يتجرد من ماله مراراً فلم ينكر ذلك عليه رسول الله ﷺ، بل باهى الله به ملائكته من فوق سبع رقاع^(١)، وقد تخللت الملائكة يومئذ لتخلله غبطة بما صنع، لكن من لم يكن فى اليقين كأبى بكر ينبغى له أن يبقى لورثته كما قال النبى ﷺ لأبى لبابة لما تيب عليه فقال: إن من توبتى يا رسول الله أن أنخلع من جميع ما أصبحت فيه فقال ﷺ: «لا تفعل بل تصدق بالثلث والثلث كثير؛ فلأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكفون الناس»^(٢).

(١) الرقاع: السماوات.

(٢) حديث «الثلث والثلث كثير»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان وأحمد وابن ماجه إلا أنهم رووه فى قصة سعد بن أبى وقاص لا فى أبى لبابة، والله أعلم.

ومن أحسن ما قيل في الكرم ومكارم الأخلاق والإقدام ما رثى به أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ابن حميد بن مخطبة الأزدي عشيرته فقال: (من بحر البسيط)

عهدي بهم تستنير الأرض إن نزلوا
ويضحك الدهر منهم عن غطارفة
يوم التُّباج لقد أبقيتَ بآئجةً
من لم يعاين أبا نصرٍ وقاتله
فيم الشماتةُ إعلانًا بأسدٍ وغى
لا غرورًا إن قتلوا صبرًا ولا عجبٌ
بها وتَجتمع الدنيا إذا اجتمعوا
كأن أيامهم من حسنها جمع^(١)
أحشاؤنا أبدأً من ذكرها قطعٌ^(٢)
فما رأى ضبعًا في شدقها سجعٌ
أفناهم الصبرُ إذ أبقاكم الجزع
فالقتل للحر في حكم العلاء تبعٌ

ومن ذلك النمط قول أبي تمام أيضًا في مرثية محمد بن حميد إذ يقول: (من بحر الطويل)

وقد كان قوتُ الموت سهلًا فردّه
ونفسٌ تعافُ العارُ حتى كأنما
فأثبتَ في مستنقع الموت رجله
إليه الحفاظُ المرُّ والخلقُ الوعرُ
هو الكفر يوم الروح أو دونه الكفر
وقال لها من تحت أخمصك الحشر^(٣)

ومن ذلك قول الحارثي: (من بحر الطويل)

ولا يكشف الغمَاء إلا ابنُ حرةٍ
نقاسمهم أسياقنا شرًّا قسمةٍ
يرى غمراتِ الموت ثم يزورها
ففينا غواشيها وفيهم صدورها
ومن ذلك قول مسلم بن الوليد يمدح ابن مزيد الشيباني: (من بحر البسيط)

يفتر عند افترار الحرب مبتسمًا
إذا تغير وجه الفارس البطل

وقول الآخر: (من بحر الوافر)

(١) الغطارفة: جمع غطريف، وهو السيد الشريف.

(٢) البائجة: الداهية.

(٣) الأخمص: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

تراه وأوجه الأبطال سود يضيء كأنه قمر منيرٌ

ومن هذا النمط قول أبي الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة: (من بحر الطويل)

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جنن الردى وهو نائمٌ

تمرُّ بك الأبطالُ كلِّمى هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقال حاتم بن عبد الله الطائي: (من بحر الطويل)

أضاحك ضيفي ثم أحمل رحله فيخصب عندي والمكان جديب

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب^(١)

ويذمون بضد هذا، قال الأشتر النخعي: (من بحر الطويل)

فأبقيتُ وفرى وانحرفت عن العلا ولاقيت أضيافى بوجه عبوس

ونظيره قول الفرزدق: (من بحر الطويل)

لقد خنتَ قومًا لو لجأت إليهم طريد دمٍ أو حاملاً ثقل مغرمٍ

لألفيتَ فيهم معطياً أو مطاعناً وراءك شزراً بالوشيج المقوم

وفى البيت اللف والنشر المعكوس. ومن هذا النمط قول أبي الطيب يمدح

شجاع بن محمد الطائي: (من بحر الكامل)

وصن الحسام ولا تذله فإنه يشكو يمينك والجماجم تشهد

يبس النجيع عليه وهو مجرد من غمده فكأنما هو مغمد

ومنه أيضاً قول أبي الطيب يمدح الأمير محمد بن إسحاق التنوخي فقال: (من

بحر الطويل)

(١) فى النسخة (أ):

* ولكنما وجه الكريم للأضياف خصيب *

والبيت معه لا يستقيم.

والبيت الأول فى العقد الفريد هو:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب

(٢٣٦/١).

يزور الأعدى في سماء عجاجةٍ أَسْتَهَا في جانبيها الكواكبُ
فتسفر عنه والسيوف كأنما مضارِبُهَا مما انفلن ضرائب
طلعن شمساً والغمود مشارق لهن وهاماتُ الرجال مغارب
وقد سبقه إلى ذلك على بن محمد الحماني حيث قال: (من بحر المتقارب)
وإنَّا لتصبح أسيافاً إذا ما انتضين ليوم سُفوكُ
مطالعهن بطون الأكف وأغامدهن رؤوس الملوكُ

ومن أحسن ما قيل في الهمة واستصغار الأمور العظام وإن كانت عظيمة في أنفسها، وذلك غاية المدح، وإنما يمدح به الرؤساء، كقول دريد بن الصمة يذكر قتل ربيعة بن مكرم الكناني لأصحابه بوادي الخزامى: (من بحر الكامل)

أردى فوارسٍ لم يكونوا نهزةً ثم استمر كأنه لم يفعل^(١)
متهللاً تبدو أسرة وجهه مثل الحسام جلته كف الصيقل

ومن أحسن ما قيل في علو الهمة أيضاً والإقدام على الأمور العظام قول الصيبي بن الحارث البرجمي: (من بحر الطويل)

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا على قضاء الله ما كان جالبا
وأذهل عن دارى وأجعلُ هدمها لعرضى من باقى المذلة حاجبا
ويصغر فى عيني تلادى إذا اثنت يمينى بإدراك الذى كنت طالبا
عليكم بدارى فاهدموها فإنها تراث كريم لا يخاف العواقبا
أخى عزماتٍ لا يريد على الذى يهم به من مفتح الأمر صاحبا
إذا همَّ الفتى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانباً^(٢)
إذا هم لم تردع عزيمة همه ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
ولم يستسر فى أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

(١) النهزة: الشيء الذى لك معرض كالغنيمة.

(٢) هذا البيت لا يستقيم وزنه.

ومن ذلك أيضاً ما مدح به الفرزدق يزيد بن المهلب بن أبي صفرة العتكي ثم الأزدى فقال: (من بحر الكامل)

وَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ	خَضَعَ الرِّقَابَ نَوَاسِ الأَبْصَارِ
إِنِّي رَأَيْتُ يَزِيدَ عِنْدَ شِبَابِهِ	لَيْسَ التَّقَى وَمَهَابَةُ الْجِبَارِ
مَلِكٌ عَلَيْهِ مَهَابَةُ الْمَلِكِ التَّقَى	قَمَرُ التَّمَامِ بِهِ وَشَمْسُ نَهَارِ
مَهَّدَتْ جِيَادَ يَزِيدَ كُلَّ مَدِينَةٍ	بَيْنَ الرُّدُومِ وَبَيْنَ نَخْلِ وَبَارِ
شَعَثَ مُوسُومَةَ عَلَى أَكْتَاْفِهَا	أَسَدُ هَوَاصِرِ الْكِرَامِ ضَوَارِ ^(١)
يَدْنِي خَوَافِقَ مِنْ خَوَافِقِ تَلْتَقَى	فِي ظِلِّ مَعْتَرِكِ الْعِجَاجِ مِثَارِ

• ثم قال الناظم رحمه الله تعالى:

٦٤ - وَكُنْ ذَا رَدَى لَا فِي رِدَاءٍ وَلَا أَدَى وَحَدِّ عَنْ دَنَا لَا يَدْنُ مِنْكَ دِنَاءُ

قوله: كن ذا ردى: صاحب ردى، بالقصر والفتح: أى زيادة. لا فى رداء، بالكسر والمد: أى دين، وبه فسر قول على رضى الله عنه: من أراد النساء ولا نساء فليباكر بالعدراء وليخفف الرداء، وليقلل غشيان النساء. أى: كن صاحب زيادة فى غير الدين والأذى لا فيهما؛ لأن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يقول: «اللهم إني أعوذ بك من المغرم والمهرم. قيل: يا رسول الله، ما لنا نسمعك كثيراً ما تتعوذ من المغرم؟ قال ﷺ: إذا غرم الرجل كذب فخان، ووعد فأخلف» وكان يقول: «الدين هم ولو كان درهماً»^(٢). وقال أيضاً: «الدين رق فاختر من يزقك».

(١) سقط من النسخة (أ) بيت بعد هذا البيت وهو فى النسخة (ب):

ما زال مذ عقدت يده إزاره فسمأ فأدرك عشرة الأشبار

(٢) حديث «الدين هم ولو كان درهماً»: رواه الديلمى والطبرانى بلفظ (الدين ولو درهم، والعائلة ولو بنت، والسؤال ولو كيف الطريق).

وأورده السخاوى فى المقاصد له تحت رقم ٥٠١ وقال: لا أستحضره فى المرفوع ومعناه صحيح، والله أعلم.

وقال ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»^(١).

وفى اصطلاح القوم: الدين شين الدين. ويقولون: الدين سبب البين، وجالب المين، وعادية الرين^(٢).

نعم حمل الدين لا يذم على الإطلاق؛ لأنه قل من مات من السلف إلا وذمته عامرة من الديون؛ فإن عمر رضى الله عنه مات وعليه أربعون ألفاً، فلما احتضر أرسل إلى ابنه عبد الله فقال له: أى بنى إنه على من الديون أربعون ألفاً لم أتحمّلها سرّاً ولا تشهياً، وإنما كنت أعطيها للوفود، وأجعلها فى مصالح المسلمين، فإذا أنا مت فاقضها من أموال آل الخطاب، فإن لم يكن فى أموالهم وفاء بالدين فسل فى بنى عدى ولا تسأل غيرهم؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المرء مرتهن بدينه» إلا أنى سمعته يقول: «من مات وهو يحسن النية فى أدائه ولم يترك وفاء أدى الله عنه يوم القيامة».

وكان ﷺ يسأل عن الميت: هل عليه دين؟ قيل: نعم، انصرف، وقال: صلوا على صاحبكم. وإن قيل له: لا، صلى عليه. وذلك فى صدر الإسلام، فلما فتح خيبر واليمن صار يقول: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كان عليه دين فعلى قضاؤه، ومن ترك مالا فهو لورثته» فيصلى على صاحب الدين وغيره^(٣).

وكانت عائشة رضى الله عنها لا تقضى ديناً إلا حملت مثله؛ فقيل لها فى ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استدان ديناً فى غير إسراف لم يزل فى ذمة الله حتى يقضيه، وأحب أن أكون فى ذمة الله»^(٤).

(١) حديث «من أخذ أموال الناس يريد أداءها»... إلخ. صحيح أخرجه البخارى فى كتاب الاستقراض، وابن ماجه بهذا اللفظ، والله أعلم.

(٢) الرين: الوسخ.

(٣) حديث «كان ﷺ يسأل عن الميت»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى، وهو عند البخارى فى كتاب الحوالات.

(٤) حديث «من استدان ديناً»... إلخ. رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط، وأوله عندهما: «من أدان» بدل «استدان»، وسكت عليه العراقى فى تخريج الإحياء ٢/٨٣.

يروى أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه قد ركبني من الدين ما أثقل ظهري فهل من حيلة؟ فقال له ﷺ: هلم أعلمك كلمات إذا أنت قلتها قضى الله عنك دينك ولو كان مثل أحد ذهباً: قل إذا أمسيت وإذا أصبحت: اللهم فارح الهم كاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمني فارحمي رحمة تغنيني بها عن سؤلك^(١). ولم يمكث إلا قليلاً حتى أتى النبي ﷺ فقال له: إن الله قد قضى ديني ووسع علي.

وكان ﷺ كثيراً ما يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»^(٢). قوله: وحده: مل عن دني، بالفتح والقصر: أي عن قلة وإقتار. قال ﷺ: «جهد من مقل كثير».

وفي مثل ذلك أنزل الله قوله في مدح أبي طلحة وزوجته وجميع الأنصار: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَيَّ أَنفُسَهُمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] فذلك أدل دليل على سماحة النفس والكرم الغريزي.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ليس العطاء من الفضول سماحةً حتى تجود وما لديك قليلٌ

قوله: لا يدن منك دناء، بالكسر والمد: جمع دنا، وهذا دعاء للمخاطب أو هو نفسه؛ لأنه جرد من نفسه شخصاً بأن لا يقرب من دنا؛ لأن قرب الدنا فضلاً عن الدناء يورث الدناءة، فحينئذ يخلع جلباب الحياء عن وجهه فلا يبالي بما ارتكب ولا ما اكتسب، فيمتطي بردوناً لا أبالي فما هو في المعالي المتوسط ولا التالي، فيخسر مع الخاسرين، ويرتبط بربقة المارقين.

(١) حديث «اللهم فارح الهم»... إلخ. روى الترمذي آخره وقال: حسن غريب، وأوله عنده:

«اللهم اكفني بحلالك عن حرامك».

(٢) حديث «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل»... إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان مع

اختلاف كبير في الألفاظ.

قوله: ولا أذى: عبارة عن الغمز واللمز والهمز، وهى أخلاق الخبثة الضعفة من المنافقين واليهود ومن لا خلاق له من فسقة المسلمين.

قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي﴾ الآية [الصف: ٥].

وكان ﷺ إذا أودى فى الله قال تأسياً وتسليماً: «رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر»^(١).

وبالجملة فلما كان الدين ركناً من أركان العمارة ولم يكن للناس بد منه اعتنى الله تعالى بأمره فى كتابه فقال: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ثم قال: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢] ثم قال: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فُلْيَمَلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وذلك كله حسماً للنزاع، وقطعاً للدفاع؛ رحمة من الله وعناية لهذه الأمة الشريفة، ثم لما خيف الحرج وسع فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولا تشهدوا عليها. ثم حض عباده على الصدق والوفاء وأداء الأمانة والنصح وعدم الكتمان بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَمِنَ أمانته وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ﴿وَلَا يَخْسُ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ثم قسم الغرماء فجعلهم ثلاثة أصناف: صنف لا غرم عليه ولا أداء، وصنف أمر بإنظاره، وصنف أمره بالأداء من غير تأخير ولا إنظار:

فالأول: الفقير المعدم، قال الرسول ﷺ: «لا غرم على معدم».

الثانى: المعسر، فإن الله ورسوله أمرا بإنظاره والتوسعة عليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقال ﷺ: «من أنظر ذا عسرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وصلت عليه ملائكة الرحمن، وكان فى ذمة الله ما بقى بدمه غريمه درهم من دينه»^(٢).

(١) حديث «رحم الله موسى لقد أودى»... إلخ. متفق عليه، وهو عند البخارى فى كتاب الأدب.
(٢) حديث «من أنظر ذا عسرة»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، نعم، روى أحمد ومسلم: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» وهو جزء من حديث طويل.

الثالث: الغنى، قال ﷺ: «مطل الغنى ظلم»^(١) والظالم أحق أن يحمل عليه حملنا الله على أقوم سبيل بفضل، أمين.

• قال الناظم:

٦٥ - وَكُنْ كَأَبًا فِي اللَّهِ نَاءً إِبَاؤُهُ ذَرَاهُ نَجَا جَادَتْ عَلَيْهِ نَجَاءُ

قوله: كأبًا: أى مثل أبا، بالفتح والقصر، وهذه لغة شاذة؛ لأن الأسماء الخمسة أوجه الإعراب فيها بالحروف لا بالقصر إلا بشرط الإضافة، وإنما سمع قول من قال بقصرها على لغة هذيل لاستدلاله بالبيت وهو قوله:

إِنْ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَّغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

أى كن على عباد الله فى الله موصوفًا بالشفقة والرحمة، كما أن الأب كذلك على بنيه. قوله: ناء: أى بعيد، ونأى: أى بعد إباؤه، بالمد والكسر: أى بعد امتناعه، أو نأت داره أو مكانه الذى يستقر فيه لأجل شفقتة عليهم وكف آذاه عنهم. قال ﷺ: «تزاوروا ولا تجاوروا»^(٢).

وفى المثل: المجاورة تورث المحاورة وما جمعت عمد إلا تقعقت^(٣) قوله: ذراه: أى كنفه ومأواه. نجا، بالفتح والقصر: أى شجرة دحداحة^(٤) لاكتفائه باليسير ولتعفنه عن المطاولة والبنيان.

قال ﷺ: «لن تقوم الساعة حتى ترى الحفاة العراة العالة»^(٥) من أهل البادية يتناولون فى البنيان»^(٦).

(١) حديث «مطل الغنى ظلم» متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى والنسائى، وفى لفظ البخارى: «وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع». (كتاب الحوالات).

(٢) «تزاوروا ولا تجاوروا» لم أجده من كلام النبى ﷺ.

(٣) تقعقت: تفرقت وارتحلت أو اصطدم بعضها ببعض.

(٤) الدحداحة: القصيرة.

(٥) العالة: الفقراء.

(٦) حديث «لن تقوم الساعة... إلخ» حديث متفق على صحته رواه الشيخان وباقي الجماعة بألفاظ مختلفة ومتقاربة أحيانًا. وهو حديث طويل، وهذا جزء منه عند بعضهم، وهو عند البخارى فى كتاب الإيمان، وأوله: «كان ﷺ يوماً بارزا للناس فأتاه رجل فقال: ما الإيمان»... إلخ.

ويطلق النجا أيضاً ويراد به جمع نَجاة وهي الغصون الناعمة. قوله: جادت عليه، أى على ذلك النجا الذى هو ذرى الأبا. نجاء، بالكسر والمد: أى صببت عليها سحابة، وواحد النجاء نجوا، وهو الذى نماؤه من السحاب.

أى: لتكن شقيقاً على خلق فى الله بمثابة الأب من ولده، واعتزلهم من الشفقة عليهم، واقتصر على ما لا بد منه مما يواريك من الحر والبرد كأغصان الأشجار التى أصابتها الأمطار. قال الشاعر:

والفتى ظاعن ويكفيه ظل السدِّ رعن ضرب أطناب وأوتادِ
وقال غيره: (من بحر الطويل)

أما كان فى ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحيل
وقال أبو العتاهية للمنصور لما استنشده حين أتم بناء قصره المشهور الذى لم يبن مثله فى المعمور وقد جمع عليه ندماءه، فقال له بديهة: (من مجزوء الكامل)

عش ما بدا لك آمناً فى ظل شامخة القصور
يُجِبِّيْ إِلَيْكَ نَعِيمُهَا بعد العشى وفى البكور
قال له: قد أحسنت، ثم قال له:

فإذا النفوس تحشرجت يوماً وضاق بها الصدور
أيقنت أنك لم تزل من طول عمرك فى غرور

وقال عدى بن زيد بن عمر فى التزهيد فى الدنيا وتحقير شأنها والكفاية باليسير منها فقال: (من بحر الخفيف)

أيها الشامتُ المعيرُ بالدهـ ر أنت المبرأُ الموفورُ
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خَلَّينَ أم من ذا عليه من أن يضامَ خفيرُ
أين كسرى كسرى الملوك أنوشِرُ وان أم أين قبله سابور؟
وبنو الأصفر الكرام ملوكُ الر وم لم يبق منهمُ مذكور

وأخو الخضر^(١) إذا بناه وإذ دج
شاده مرمراً وجللته كل
لم يهبه ريب المنون فبان الـ
وتذكر رب الخورنق إذ أشد
سره ماله وكثرة ما يم
فارعوى قلبه وقال فما غب
ثم بعد الفلاح والملك والنعم
ثم أضحوا كأنهم ورق جـ

سلة تجبى إليه والخابور
سأ فللطير في ذراه وكور
ملك عنه فبابه مهجور
رف يوماً وللهى تذكير^(٢)
لك والبحر معرضاً والسدير
طة حتى إلى الممات يصير؟
مة وارتهم هناك القبور
ف فألوت به الصبا والدبور

وقد ذكر أبو الفرج الأصبهاني وغيره من أهل الأخبار حكاية عجيبة وقعت
للنعمان بن امرئ القيس مع رجل من الراضة، وهم قوم زهاد لا يخلى الله الأرض
منهم، وهم القائمون له بالحنة، وهي التي أشار إليها زيد بن عمرو بن نفيل
بقوله:

وتأمل رب الخورنق البيت

وذلك أنه لما بنى الخورنق، وهو قصر له على دجلة، وبين يديه السدير، وهو
نهر آخر عن يمينه، والبساتين تخترقها جداول المياه كأنها أرقام^(٣) مسيرة ستة أميال
من كل ناحية، وكان الذى بناه له هو سنمار الرومى، فلما أكمل بناءه بعد عدة
سنين، جاءه النعمان فتأمله فأعجب به غاية الإعجاب فلما رأى سنمار إعجابه به
قال له: أيها الملك، والله لو شئت لبنيت أحسن منه، وإن فى طوقى أن أبني قصرًا
يدور مع الشمس كيفما دارت؛ فأمر به فقذف من فوق القصر، فمات، فضربت
العرب مثلاً فيمن أحسن إلى غيره وأساء إليه. قال سليط بن سعد التميمي: (من
بحر البسيط)

(١) فى (أ): الخضر، وفى (ب): القصر. وفى الأخبار والعقد: الخضر، بالخاء والضاد: وهو حصن
عظيم كان على شاطئ الفرات بناه ساطرون من أجداد النعمان بن المنذر.

(٢) أورد ابن عبد ربه هذا البيت فقال: (وتبين) بدل (وتذكر)، و(للهدى) بدل (للهى).

(٣) الأرقام: جمع أرقم: الثعبان.

حزى بنوه أبا الغيلان عن كبر . وفعل خير كما يجزى سنماً

وقال غيره يذكر رجلاً أحسن إليه فأساء إليه الرجل : (من بحر الطويل)

جزانى جزاه الله شر جزائه جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

سوى رصد البناء عشرين حجة يعالى عليه بالقراميد والسكب

ثم لبث بعد ذلك ما شاء الله أن يلبث، فصعد يوماً إلى أعلى الخورنق ومعه قوم من خاصته ومعهم رجل من الراضة، فأشرف نحو المشرق، فرأى ما يعجبه من كثرة الأشجار وجداول تخترقها من تلك الأنهار، ثم نظر إلى الشمال فرأى مثل ذلك، ثم نظر إلى المغرب فرأى مثل ذلك، ثم نظر إلى الجنوب فرأى مثل ذلك، فسره حسن ذلك وترتيبه وكثرته وما أمد به من بحر دجلة ونهر السدير كما أشار إليه عدى بقوله:

سره ماله وكثرة ما يمد لك والبحر معرضاً والسدير

فقال لخواصه: لمن هذا كله؟ قالوا: إنه للملك أدام الله سروره ووالى عليه جبوره، فقال لهم: هل رأيتم من ملك مثله؟ قالوا: لا أيها الملك، قال: وهل سمعتم أن أحداً أعطى مثل ما أعطيت؟ قالوا: لا أيها الملك، فقام إليه الرجل فقال له: أيها الملك قد سألت عن أمر أفتأذن لى فى الجواب عنه؟ فقال له: نعم، قال: رأيت ما أنت فيه أشيء لم تزل فيه؟ أم هو شىء صار إليك ميراً من غيرك؟ وهو زائل عنك وصائر إلى غيرك كما صار إليك منه؟ فقال: فكذلك هو، قال له: كيف عجت بشىء يسير تقيم فيه قليلاً وتغيب عنه طويلاً وتكون غداً بحسابه مرتهاً؟ قال: ويحك فأين المهرب؟ وإلى أين المطلب؟ قال له: إما أن تقيم فى ملكك وتعمل بطاعة ربك على ما ساءك وسرك ومضك وأرمضك^(١) وإما أن تضع تاجك وتضع على ظهرك أطمارك^(٢) وتلبس أمساحك^(٣) وتعبد ربك فى هذه الجبال حتى يأتبك أجلك. قال فإذا كان السحر فاقرع على بابى فإنى أختار أحد الأمرين،

(١) أرمضك: أوقعك فى الرضاء: التراب الحار.

(٢) الأطمار: الثياب البالية.

(٣) المسوح: نسيج من الشعر يلبس على البدن تقشفاً.

فإن اخترت ما أنا فيه كنت وزيراً لا تعصى، وإن اخترت السياحة كنت رفيقاً لا يخالف. فلما كان وقت السحر قرع عليه بابه فإذا هو قد وضع تاجه ولبس أمساحه وتهاياً للسياحة، فلزما الخلوات ورفض الشهوات حتى ماتا، كما أشار إليه عدى بقوله:

فارعوى قلبه وقال فما غبطةً حتى إلى الممات يصير

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

يروى أن النبي ﷺ وعظ أصحابه يوماً فقال لهم: «الدنيا قليل، ولم يبق منها إلا قليل ذهب صفوه وبقي كدره؛ فلا يفتنكم قليل ذهب صفوه عن كثير دائم كله صفو». ويكفي من عظمة نعيم الآخرة أن سماه الله كبيراً فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الذمر: ٢٠] وأنت وشيك الارتحال إليه، سريع الانقلاب إليه.

يروى أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن ليؤاجر على كل نفقة ينفقها في غير رياء ولا سمعة إلا ما أنفقه في الماء والطين»^(١) يعنى البنيان.

وقال ﷺ: «إذا بنى الإنسان فوق سبعة أذرع ناداه ملك من السماء فقال له: إلى أين تريد يا طاغي»^(٢).

فإن قلت: الماء والطين منهما المساجد والرباطات، وقد وردت آثار صحاح في الثواب عليها، فهل بين الخبرين معارضة؟

قلت: لا؛ لأن المساجد والرباطات من العمل لله والدار الآخرة بخلاف ما

(١) حديث «إن المؤمن ليؤاجر»... إلخ. حسن رواه ابن ماجه بلفظ: «كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين». وفيه: «إلا في التراب». قال العراقي في تخريج الأحياء: إسناده جيد (٢٣١/٤).

(٢) حديث «إذا بنى الإنسان فوق سبعة أذرع ناداه ما لك»... إلخ. موضوع أو ضعيف جداً. أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧٥/٣) بلفظ: «إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة أذرع ناداه مناد من السماء: أين تذهب يا أفسق الفاسقين».

وأفته تفرد الوليد بن موسى القرشي به وهو ضعيف، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ١٧٤ وقال: موضوع والله أعلم.

سواهما من بناء الدور والقصور المؤدين للمفاخرة، والإخلاد إلى العاجلة وإتلاف مال الله في غير فائدة ولا عائدة.

واختلف فيما كان للتحصن من العدو، فقال قوم: يثاب عليه؛ لأنه من باب الرباط لعموم المنفعة. وقال آخرون: إنما قصاره أن لا يكون فيه محذور، كما لو كان في قصر من بلاد السبية يكثر فيه النقب والتسور والفساد؛ فإنه ينبغي أن يبنى ويحكم ويرص بنيانه حتى يأمن ساكنه على نفسه وماله، إذ يكون ذلك حيثئذ من باب حفظ النفس والمال الواجب حفظهما، فيجازى عليه إن عرى من قصد المفاخرة، وإلا فمكروه.

وأما البناء على القبور وزخرفتها فحرام إن كان من أجل المفاخرة وإلا فمكروه. وأما بناء الفنادق للفقراء وابن السبيل فما وقفت على نص في ذلك صحيح أو صريح إلا أنه ينبغي أن تكون من أعمال البر إن صحت نية بانيها.

وأما المساجد فقد وردت فيها آثار جملة بأسانيد مختلفة؛ منها ما أخرجه البيهقي من طريق أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «من بنى لله قدر مفحص قطاة يصلى فيه بنى الله له بيتاً في الجنة»^(١).

وقال ﷺ: «شرفوا بيوتكم، واجعلوا مساجدكم جماء»^(٢).

وكان ﷺ أول ما يشترط على من أسلم من العرب أن يبنوا المساجد بساحتهم، وأن ينوهوا بالأذان فيها، وأن يعلموا صبيانهم كتاب الله، ولا يقبل منهم عذراً.

قال ﷺ: «وسعوا مساجدكم تملأوها».

وفي حديث قدسني قال الله تعالى: «أيا قوم شيدوا دورهم وقصورهم وخرّبوا بيوتى ووضعوها إلا خربت دورهم وقصورهم ولم أجعل لهم نصيباً فيما عندي

(١) حديث «من بنى لله قدر مفحص»... إلخ. حديث صحيح رواه البزار والطبراني وابن ماجه بهذا اللفظ، ورواه الترمذى بلفظ قريب من هذا، وفيه: «مسجداً صغيراً كان أو كبيراً» بدل «مفحص قطاة». ورواه الشيخان بلفظ: «من بنى مسجداً يبغى به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة».

وأورده بلفظ الشيخ صاحب الكشف تحت رقم ٥٧٧٥ والله أعلم.

(٢) حديث «شرفوا بيوتكم»... إلخ. لم أجده.

ولأصبيئهم بالهوان».

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا اسْمَهُ﴾ [النور: ٣٦] بأن يعلى بنيانها وصوامعها على البيوت لشرفها، وليكون ذلك أبلغ في رفع صوت المؤذن، وأطول لمد صوته، والتطهير من الأقدار بالقم^(١) والصيانة، ولا تدخلها حائض ولا جنب ولا مشرك، ولا يتحدث فيها بحديث الدنيا، ولا ترفع فيها الأصوات.

وقال ﷺ: «جنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم وبيعتكم وشراءكم ودوابكم وسل سيفوكم وخصوماتكم»^(٢) انتهى.

ولا ينام فيها إلا غريب، ولا تتخذ ممراً، وتقطع فيها البعوث، وينشد فيها من الأشعار ما فيه توهين أمر الشرك ورفع أمر الإسلام، وكذلك ما كان منه في المواعظ والحكم.

يروى أن عمر رضی الله عنه وجد حسناً رضی الله عنه ينشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ فانتهره وقال له: أتُنشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ؟! فقال حسان: أنشدته في موضعي هذا بين يدي من هو خير منك، يعني رسول الله ﷺ؛ فالتفت عمر على من هو في المسجد من أصحاب رسول الله ﷺ كأنه يستشهدهم فقالت طائفة منهم: صدقك حسان؛ فأمسك عمر رضی الله عنه.

وبالجملة فالشعر ينقسم على أقسام الشريعة الخمسة: فالواجب منه ما يرد به على المشركين إذا هجوا الإسلام وأهله وغضوا منهما؛ يروى أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة فوجد بها أنصاراً ومأوى وقراراً خافت قريش دهماً العرب فأذلقته بألستها هجواً وتزهيداً في الإسلام، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: ما بال رجال

(١) القم: التنظيف.

(٢) حديث «جنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم»... إلخ. ضعيف رواه ابن ماجه، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٠٧٧ بلفظ: «جنبوا مساجدكم صبيانكم» وقال: قال البزار: لا أصل له (١/٤٠٠)، وأورده السخاوي تحت رقم ٣٧٢ في مقاصده وقال: ضعيف، ولكن له شاهد عند الطبراني والعقيلي وابن عدي بسند فيه العلاء بن كثير وهو ضعيف، إلى أن قال: وفي الباب مما يستأنس به لتقوية عدة أحاديث كحديث: «من رأيتموه يبيع أو يبتاع في المسجد أو ينشد ضالة» (١/١٧٦) والله أعلم.

نصرونا بسيفهم لا ينصروننا بألستهم؟! فبلغ قوله ﷺ حسناً وكعباً وعبد الله بن رواحة وكانوا شعراء بني قيلة؛ فأتاه حسان أولاً فقال له: إن قريشاً قد آذتك في الله فهلا أثرت عليها هذا الأسد الرابض؟! وأخرج لسانه حتى جعله على عرينه^(١). وكان لا يقدر على ذلك غيره؛ فقال له رسول الله ﷺ: كيف تخرجني منهم وهم العشيرة والأصل؟ فقال: والله لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين. وكان أشد شعراء قريش له أذى ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقال له: إن كنت فاعلاً فاذهب إلى أبي بكر فإنه أنسب قريش لقريش، فما خذرك منه فاتركه، وما أمرك به فافعله. فكان يمضى إلى أبي بكر فيقول له: كفَّ عن فلان وفلانة، واهج فلاناً وفلانة.

فلما هجا أبا سفيان بن الحارث بقوله: (من بحر الطويل)

وإن سنام المجد من آل هاشم	بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أفناء زهرة منكم	كريمًا ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولا كابن أمه	ولكن لثيم لا يقوم له زند ^(٢)
وإن امرءًا كانت سمية أمه	وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهد

فلما سمعه أبو سفيان قال: هذا كلام لم يرغب عنه ابن أبي قحافة. وهو ممن حكم له شعره بالجنة، وذلك أنه قال مجيباً لأبي سفيان: (من بحر الوافر)

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

فقال له رسول الله ﷺ: جزاؤك على الله الجنة. ولما قال:

فإن أبي ووالده وعرضي	لعرض محمدٍ منكم وقاءً
قال له ﷺ: وقاك الله حر النار.	

واتفق العلماء أن أشعر أهل المدر^(٣) أهل يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف.

(١) العرين: الأنف كله، أو ما صلب منه.

(٢) البيت في ديوان حسان هو:

ولست كعباس ولا كابن أمه ولكن هجين ليس يورى له زند

(٣) أهل المدر: أهل المدن، والمدر: التراب.

وعلى أن أشعر أهل المدر على الإطلاق حسان بن ثابت. وزعم بعضهم أنه ممن خاض في الإفك فبرأته عائشة رضى الله عنها فقالت: لم يقل شيئاً من ذلك^(١) ولكنه قال: (من بحر الطويل)

حصان رزان ما تُزَنُّ برييةً وتصبح غرثى من لحوم الغوافل^(٢)
عقيلة حى من لؤى بن غالب كرام المساعى مجدهم غير آفل^(٣)

وأما ما حكى عنه من الجبن فإنه كذب وباطل، ولقد هاجى فحول الشعراء فلم يسمع عنهم أنهم هجوه به، ولو كان كذلك لذكروه.. وكان قبل إسلامه من فحول الشعراء المطبوعين ومن مكثريهم المجيدين، وكان ينتجع آل جفنة من ملوك غسان بالشام وفيهم يقول: (من بحر الكامل)

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يَسْقُونَ من ورد البريص عليهم برداً يصفق بالرحيق السلسل^(٤)
يُغشُونَ حتى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمُّ الأنوف من الطراز الأول

قال عبد الملك بن مروان: هذا أمدح شعر قالته العرب.

وتوفى حسان رضى الله عنه بالمدينة سنة خمسين، وقيل: سنة أربع وخمسين،

(١) ما قاله الشيخ هنا من أن عائشة رضى الله عنها قالت: لم يقل شيئاً من ذلك خلاف التحقيق، والصحيح ما روى الشيخان عن مسروق قال: دخلنا على عائشة رضى الله عنها وعندها حسان ابن ثابت ينشدها شعراً يشب بأبيات له وقال:

حصان رزان ما تزَنُّ برييةً وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك. قال مسروق: فقلت لها: لم تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى: (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم)؟! فقالت: وأى عذاب أشد من العمى. قالت له: إنه كان ينافح أو يهاجى عن رسول الله ﷺ. (البخارى كتاب المغازى ٦٤ باب حديث الإفك ٣٤)، والله أعلم.

(٢) غرثى: جائعة، كناية عن أنها لا تخوض فى أعراض الناس.

(٣) آفل: زائل.

(٤) البريص: نهر بدمشق، ويردى كذلك، والرحيق: الخمر، والسلسل: السهل.

وهو ابن مائة وعشرين سنة: ستون منها في الجاهلية وستون في الإسلام، وهو أحد المخضرمين، مع ما حصل له من عظيم الصحبة والغناء. وكان يأتي قريشاً وسائر العرب في الهجو من قبل أنسابهم وأنصابهم^(١). وكعب بن مالك يخوفهم الحرب، وابن رواحة يعيرهم بالكفر. وبلغني أن إسلام دوس كان سببه قول كعب: (من بحر الوافر)

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجمعنا السيوف
نسائلها ولو نطقت لقاتل قواطعهن دوساً أو ثقيفاً^(٢)

فلما سمعوا هذا من الشعر وبلغتهم وقعة رسول الله ﷺ بثقيف قال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ نأخذ منه الأمان لأنفسنا قبل أن ينزل بنا ما نزل بثقيف.

ويروى أن كعباً قال: يا رسول الله، هل لي من أجر في هذا الشعر الذي أنافح به عنك وعن الإسلام؟ فقال: «من أعانني بسيفه ولسانه كان له أجر رجلين ممن جاهد في سبيل الله» فأنزل الله مصداق ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [٢٢٤] أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿٢٢٤﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧]، فقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ نزل في شعراء المشركين كابن الزبعرى وأبي سفيان بن الحارث وكعب بن زهير وابن هبيرة وضرار ابن الخطاب الفهري وغيرهم من شعراء مضر والمستنثون شعراء رسول الله ﷺ ككعب وحسان وعبد الله بن رواحة ومن سلك سبيلهم من شعراء المسلمين إلى يوم القيامة؛ لأن رسول الله ﷺ قال لحسان: «قل ومعك روح القدس»، وفي رواية: «أيدك الله بروح القدس»^(٣).

(١) الأنصاب: جمع نصب: الأصل.

(٢) رواية الاستيعاب: (نخيرها) بدل (نسائلها)

(٣) حديث «قل ومعك روح القدس»: متفق على صحته، رواه الشيخان وغيرهما، ورواية البخاري: «اهجهم أو هاجهم وجبريل معك» وفي رواية أخرى: «اللهم أیده بروح القدس». (كتاب بدء الخلق ٥٩ - باب ذكر الملائكة ٦).

وقال لكعب لما قال فى غزوة الأحزاب: (بحر الكامل)

جاءت سخينة كى تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب

وهى طويلة، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد شكر الله قولك يا كعب: جاءت سخينة» إلى آخر البيت. ومطلعها قوله:

أبقى لنا حدث الحروب بقيةً من خير نحلة ربنا الوهاب^(١)
 بيضاء مشرفة الدرئ ومطاعنا حم الجذوع غزيرة الأحلاب
 كالثوب يبذل جمها وجفيلها للجار وابن العم والمنتاب
 ونزائعا مثل السراح نعى بها حلف الشعير وجزة المقضاب^(٢)
 عرى الشوى منها وأردن نحضها جرد المتون وسائر الآراب^(٣)
 قودا تراح إلى الصياح إذا غدت فعل الضراء تراح للكلاب^(٤)
 وتحوط سائمة الديار وتارة تردى العدى وتؤوب بالأسلاب^(٥)
 يغدون بالزرغف المضاعف شكه وبمترصات فى الثقاف صياب^(٦)
 وصوارم نزع الصياقل غلبها وبكل أروع ماجد الأنساب^(٧)

(١) النحلة: العطية عن طيب نفس.

(٢) النزاع: الخيل التى حملت من أرضها. والسراح، بالحاء: جمع سرحة: الشجرة الطويلة.

والجزة، بكسر الجيم: ما يجر لها من النبات. والمقضاب: آلة القضب.

(٣) الشوى: الأطراف. وعريت: تجردت من الشعر. والنحض: اللحم. وأردف: كثر فى الأرداف.

جرد المتون: لا شعر بها. والمتون: الظهور. والآراب: المفاصل.

(٤) القود: جمع أقود: الطويل. تراح: يذهب بها. والصياح: جلبة الحرب. والضراء: الكلاب،

والكلاب، بضم الكاف وتشديد اللام: الذى يصيد بالكلاب، ويجوز الفتح، فىكون صاحب الكلاب.

(٥) يعنى أنها تحمى الماشية وأحياناً ترجع بالأسلاب والغنيمة بعد أن تهلك الأعداء.

(٦) الزغف: الدرود الواسعة الطويلة والشك: النسيج. والمترصات: الرماح المثقفة. والصياب: جمع

صائب: الذى لا يخطئ فى مرماه.

(٧) الصوارم: السيوف. والغلب: الحثونة.

وكلت وقيعته إلى خباب^(١)

وتردّ حد قواجز النشاب^(٢)

وأبت بسالتها على الأعراب

بلسان أروع طيب الأثواب

من بعد ما عرضت على الأحزاب

يصل اليمين بمارن متقارب

وكتيبة ينفي القرآن قتيها

أعيت أبا كرب وأعيت تبعاً

ومواعظ من ربنا نهدي بها

عرضت علينا فاشتبهنا ذكرها

وقال أيضاً: (من بحر الطويل)

علينا وراموا ديننا ما نواع^(٣)

وخذف لم يدروا بما هو واقع

عن الكفر والرحمن راء وسامع

على غيظهم نصر من الله واسع

علينا ومن لم يحفظ الله ضائع

لقد علم الأحزاب حين تألبوا

أضاميم من قيس بن عيلان أصفقت

يذودوننا عن ديننا وتسودهم

إذا غايظونا في مقام أعاننا

وذلك حفظ الله فينا وفضله

وقال أيضاً: (من بحر الوافر)

وما بين العريض إلى الصماد^(٤)

وخوض ثقت من عهد عاد^(٥)

فليست بالجمام ولا الثماد^(٦)

ألا بلغ قريشاً أن سلعا

نواضح في الحروب مدربات

رواكد يزخر المرار فيها

(١) المارن: الرمح اللين. الوقعة: الصنعة. وخباب: هو خباب بن الأرت الصحابي المعروف، وكان حداداً في الجاهلية.

(٢) القرآن: النبال. والقتير: رءوس المسامير في الدروع. والنشاب، بضم النون: السهام، وبفتحها: الرامي بالنشاب.

(٣) ما نواع: ما نسالم، وهو من الموادة.

(٤) سلع: جبل بالمدينة. والعريض: واد. والصماد، بالصاد المكسورة: جبل كذلك.

(٥) الخوص: الآبار الصغيرة. وثقت: حفرت.

(٦) الرواكد: السواكن. يزخر: يعلو. المرار: الكثير المرور، ويروى: المداد. والجمام، بفتح الميم: البئر الكثيرة الماء. والثمار: جمع ثمء وهو الماء القليل.

بلاد لم تُثر إلا لكيما
 أثرتنا سكة الأنباط فيها
 أجيونا إلى ما نجتديكم
 وإلا فاصبروا لجلادِ يوم
 نصبحكم بكل أنحي حروب
 وكل طمرة خفق حشاها
 خيول لا تضاع إذا أضيعت
 ينازعن الأعنة مصغيات
 إذا قالت لنا النذر استعدوا
 وقلنا لن يفرج ما لقينا
 أشد بسالة منا إذا ما
 ولن ترى عصابة ممن لقينا
 إذا ما نحن أسرجنا عليها
 قذفنا في السوايغ كل صعر
 وقال حسان يجيب ابن الزبعرى عن كلمة قالها فى مدح الأحزاب والغض من
 المسلمين: (من بحر الكامل)

هل رسمُ دارسة المقام يبابٍ متكلم لمحاوّر بجواب

(١) ثر: تحرث. نجالد: نحارب.

(٢) السكة: الطريق المستوى. والأنباط: قوم من العجم. والجلهات: جمع جلهة: حافة الوادى.

(٣) نجتديكم: نطلبه منكم.

(٤) المذاد: موضع، والمعنى: إلى جهة المذاد.

(٥) الطمرة: الفرس، الجواد الطويل القوائم. خفق: مضطرب. والدفيف: المشى الخفيف.

(٦) القوانس: جمع قونس، وهى أعلى بيضة الحديد.

(٧) الجدل: الدرود المحكمة النسج. والأرب، بضم ففتح: جمع أربة، وهى العقدة.

(٨) السوايغ: الدرود الوافرة. والزناد المعتلث: هو الذى إذا قذح لم يور ناراً

قفر عفى رهم السحاب رسومه
ولقد رأيت بها الحلول يزينهم
فدع الديار وذكر كل خريدة
واشك الهموم إلى الإله وما ترى
ساروا بأجمعهم إليه وألبوا
جيش عينة وابن حرب فيهم
حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا
وغدوا علينا قادرين بأيديهم
بهوب معصفة تفرق شملهم
فكفى الإله المؤمنين قتالهم
من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم
وأقر عين محمد وصحابه
عاتى الفؤاد موقع ذى ريبة

ولما قال هيرة بن وهب المخزومي قصيدته التى يفخر فيها بغزوه المدينة التى
كانت سبب غزوة أحد وهى قوله: (من بحر البسيط)

ما بال هم عميد بات يطرقنى
باتت تعاتبنى هند وتعذلنى
مهلا فلا تعذلينى إن من خلقى
مُسَاعَفُ لبني كعب بما كلفوا
بالود من هند إذ تعدو عواديهها
والحرب قد شغلت عني مواليها
ما قد علمت وما إن لست أخفيها
حمالُ عبءٍ وأثقال أعانيها

(١) الرهم: جمع رهمة، بكسر فسكون: وهى السحابة الدائمة المطر. والمراب: الدائمة.

(٢) متخبطون: مختلطون، أو غضاب متكبرون. والحلبة: مضمار السباق، أو الخيل التى تعد
للرهان.

(٣) أيدهم: قوتهم.

وقد حملت سلاحى فوق مُشْتَرَفٍ
 كأنه إذ جرى، غير بفسدْفَدِهِ
 من آل أعوج يرتاح الندى له
 أعدده ورقاقَ الحَدِّ متتخِلا
 هذا وبيضاءَ مثل النَّهْيِ محكمة
 شقنا كنانة من أطرف ذى يمن
 فأجابه حسان رضى الله عنه بقوله: (من بحر البسيط)

سقطم كنانه جهلاً من سفاهتكم
 أوردتموها حياض الموت ضاحيةً
 جمعتموها أحايثاً بلا حسب
 ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت
 كم من أسير فككنانه بلا ثمن
 إلى الرسول فَجَنَدُ الله مخزيتها
 فالنار موعدها والقتل لاقيتها
 أئمة الكفر غرتكم طواغيها
 أهل القليب ومن ألقيته فيها
 وجزّ ناصية كنا مواليتها

وأما المندوب منه فما كان في الحكم كلامية العجم، أو ما كان في مدح الرسول ﷺ كبردة المديح.

وأما المباح منه فما كان في التفجع، وذكر فراق الأحبة، وذكر الوطن ومدحه والبكاء عليه.

وأما المكروه فمدح الغنى لأجل غناه. واختلف في مدح الظالم فقيل: يدخل في هذا الباب، وقيل: حرام؛ لقوله ﷺ: «إذا مدح الظالم اشتد غضب الرب»^(٤).

(١) المشترف: المنتصب. والساطى: الفرس البعيد الخطو. والسبوح: السريع.

(٢) رقاق الحد: السيوف. المتخيل: المتخير. والمارن: الرمح.

(٣) النهى، بكسر فسكون: الغدير، وقد تفتح النون. والبيضاء: الدرع.

(٤) حديث «إذا مدح الظالم اشتد غضب الرب»... إلخ. منكر رواه أبو يعلى والبيهقى وابن عدى وأبو الشيخ والخطيب بلفظ «إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش» وأورده بهذا اللفظ السيوطى تحت رقم ٨٥٦ قال المناوى: رواه ابن أبى الدنيا من حديث أبى خلف، وأبو خلف =

وفى الحكيم: من أحب بقاء ظالم فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه.
وأما الحرام فذكر القُدود والحدود فى التشبب والمجون، وكذلك الهجو، قال
الرسول ﷺ: «أشد الناس فريئةً من هجا قبيلة».

وفى مثل الأخير وردت الآثار والأخبار فى الزجر عن الشعر كقول أبى هريرة
رضى الله عنه: «لأن يمتلى صدر أحدكم قبحاً يريه خير له من أن يمتلى شعراً
فيقوله»^(١).

وقال ﷺ: «أحب الأصوات إلى الله صوت رجل مؤمن يتغنى بالقرآن، وصوت
رجل يثوب بالأذان. وأبغض الأصوات إلى الله صوت المغنى وصوت النائحة».

يروى أن الله لما أهبط إبليس من الجنة مذموماً مدحوراً قال: يا رب إنك جعلت
لآدم كتاباً ولم تجعل لى كتاباً، فقال له: كتابك الشعر، فقال: وجعلت له أذانا،
فقال: أذائك المزمار، وجعلت له حباله ولم تجعل لى حباله، فقال: حبالك
النساء، فقال: وجعلت له طعاماً ولم تجعل لى طعاماً قال: طعامك وشرابك ما لم
يذكر اسم الله عليه، قال: وجعلت له بيتاً ولم تجعل لى بيتاً، فقال له: بيتك
الحمام»^(٢) انتهى.

وبالجمله فإن أشعار العرب صارت فى زماننا هذا علوماً من أشرف العلوم؛ إذ
كيفما كانت فإنها لا تخلو من فائدة: إما لغة تقتنى، وإما إعراب يجتنى، أو مثل
يضر، أو آداب تكتسب. قال رسول الله ﷺ لما سمع الشنفرية قال: «علموا
أبناءكم أشعار العرب فإن فيها الشجاعة ومكارم الأخلاق»، علمنا الله من العلوم
ما ينفعنا ديناً وعقبى، آمين.

= هذا قال الذهبى فيه: قال يحيى: كذاب، وقال أبو حاتم: منكر الحديث، وقال ابن حجر فى
الفتح: سنده ضعيف، وقال العراقى: سنده ضعيف، وفى الميزان: خبر منكر (٤٤/١) كما أورده
الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٥٩٥ وقال: منكر (٦٠/٢) والله أعلم.

(١) «لأن يمتلى صدر أحدكم قبحاً»... إلخ. حديث متفق على صحته. وليس من كلام أبى هريرة
كما ذكر الشيخ، بل هو حديث رواه الشيخان وابن ماجه، ولفظ البخارى فى كتاب الأدب: «لأن
يمتلى جوف أحدكم قبحاً خير له من أن يمتلى شعراً». والله أعلم.

(٢) هذا الكلام المنسوب إلى إبليس يبدو أنه من الإسرائيليات إذ لم يصلنا إلا عن طريقهم، والله
أعلم.

• قَالَ النَّاضِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦ - وَشُدَّ الْمَطَاءَ وَارَعَ الْمِطَاءَ وَلَا يَخْبُ

لِمُعْلَى وَعَى يَرْجُو نَدَاكَ وَعَاءُ

قوله: وشد المطا: أى قوَّ ظهرك برعاية أهل الورد القديم، أو شد ظهورهم برعاية ودهم وعهدهم القديم، قال الرسول ﷺ: «إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل وداً أبيه بعد أن يولى»^(١) أى: يموت. فالمطا، بالفتح والقصر: الظهر؛ ولذلك سميت المطية مطية لأن راكبها يمتطى ظهرها، وهو من باب تسمية الشيء باسم ملازمه، وإنما يقوى الرجل ويعز إذا كان كلما التفت إلى ظهره رأى أعوانه وإخوانه وراء ظهره يتبعونه أينما سلك، قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [التقصص: ٣٥].

وقال موسى عليه السلام، كما أخبر الله: ﴿أَخِي﴾^(٢) اشْدُدْ بِهِ أُرْزَى^(٣) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿ [طه: ٣٠ - ٣٢].

ولذلك سميت المظاهرة مظاهرة لأن كلاً منهم يحمى ظهر صاحبه عند الهيحاء أو عند غيبته، قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

يروى أن الصحابة لما فتحوا اليمامة وقتلوا مسيلمة كان رأى أبى بكر رضى الله عنه أن لا يُتْرَكَ أحد منهم مر عليهم موسى^(٤) إلا قتل؛ ليستأصل شأفة الردة لأنهم لا يزالون من فتنه كذابهم فى شر، فألقى ذلك خالد قد أوقع الصلح بينه وبينهم بعدما أفنى أكثرهم على أن يعطوه شطر السبى وعلى البيضاء والصفراء والحلقة والسلاح والخف والسافر. وكان رأى الأنصار فيهم يوافق رأى الخليفة أبى بكر رضى الله عنه، فلما جاء كتاب أبى بكر حملته الأنصار إلى خالد فقال: صلح قد مضى وعقد قد استحکم لم يكن لى أن أنقضه والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) حديث «إن من أبر البر»... إلخ. صحيح رواه مسلم بهذا اللفظ وأبو داود وابن ماجه بلفظ: «جاء رجل من بنى سلمة إلى النبى ﷺ فقال: هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما؟» وفى آخر الحديث «وإكرام صديقهما».

وسند هذا الحديث صحيح باستثناء على بن عبيد الساعدى لم يوثقه غير ابن حبان، والله أعلم.

(٢) مر عليه موسى: كناية عن البلوغ.

آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴿١﴾ [المائدة: ١] فقالت له الأنصار: طاعة أبي بكر مقدمة على طاعتك، فقال: إن كانت طاعة أبي بكر فوق طاعتى فطاعة الله فوق طاعته قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] فلما فرغ من أمرهم ذهب بوفدهم إلى الخليفة، فأمر أبو بكر أن لا يؤويهم أحد ولا يكلمهم؛ فبقوا حيارى لا يقدرّون على الرجوع إلى أهلهم ولا على المقام؛ فأمرهم بعض أصدقائهم من أهل المدينة أن يذهبوا إلى عمر رضى الله عنه وقد قتلوا أخاه زيداً وهو حامل لواء المهاجرين وقد وجد^(١) عليه أخوه عمر لما مات وجداً عظيماً، فدخلوا على عمر رضى الله عنه وفيهم قاتل أخيه، فوجدوه قد اعتقل عزراً له يحلبها على رغائف وابن أخيه زيد أخذ بعاتقه الأيمن وابنته آخذة بعاتقه الأيسر، فلما رآهم اشتد حلبة حتى جعل الخبز يتطاير من الإناء، فسلموا وأظهروا الضراعة والإسلام فقال: أنشدكم الله هل ما تقولونه بألستكم ثابتٌ فى أفئدتكم؟ فقالوا: إى والله إن ما نقوله بألستنا ثابت فى قلوبنا فلا تردوا علينا ما قبلتموه من غيرنا، وهو الإسلام، فتمهل عمر، ثم أقبل عليهم وهو يقول: الحمد لله الذى جعل لنا من المسلمين ما يشد به ظهورنا، فذهب بهم إلى أبى بكر، فقبلهم، وجعل عليهم رجلاً منهم.

ويحتمل قوله: وشد المطا: معنى آخر غير ما تقدم ذكره، وهو أن يشد ظهر بعيره، ويستعمل الرحلة لنيل الأوطار، واقتفاء الأخطار. قال الرسول ﷺ: «سافروا تصحوا وتغنموا»^(٢). فالغنيمة تحتمل الدنيوية والأخروية، كما أن الصحة تقتضى البدنية والقلبية، إذ ربما لقيت فى رحلتك ولياً من الأولياء؛ فتحصل بسببه سعادة الدارين؛ لأن لحظة واحدة منهم ربما أغنت الغناء السرمدى.

قال ابن عطاء الله: سبحانه من لم يجعل الدليل عليهم إلا من حيث الدليل

(١) وجد: حزن.

(٢) حديث «سافروا تصحوا وتغنموا» منكر، رواه ابن عدى والظهيرى فى الأوسط (١١٢/١) وابن بشران فى الأمالى (٦٦/٣) والخطيب فى تاريخه (٣٨٧/١٠) عن محمد بن عبد الرحمن بن رداد، قال ابن عدى: لا أعلم يرويه غير الرداد هذا، وعامة ما يرويه غير محفوظ، وقال ابن أبى حاتم: ذاهب الحديث. وأورد الحديث الذهبى فى الميزان وقال: منكر. وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٣٠٦/٢): قال أبى: هذا حديث منكر. وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٢٥٥ وقال: منكر، والله أعلم.

عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

قال ابن عباد: معرفة الولي أبعد من معرفة الله وأصعب؛ لأن الله ظاهر لتجليه لقلوب المؤمنين بجماله وجلاله، واستدلال العامة عليه بما يرون من آثار قدرته، بخلاف الولي فإن الله حجه عن أفئدة المطرودين بالصورة البشرية، فطوى عنهم الحقيقة الربانية، وأشهدهم الصورة البشرية، فإذا رأوه قالوا كما قال أشياعهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] فيطرد بنور المنع وظلمة الطبع فينقطع عن النفع، ومن أراد الله انتفاعه طوى عنه الصورة البشرية، وأشهدة اللطيفة الربانية، فأدرك إدراكاً قطعياً لا ظنياً ولا حسابياً، فوصل بسببه إلى الله في لحظة؛ إذا لا مكان ثم ولا زمان يفتقر إلى الرحلة والنجعة؛ إذ الأولياء عرائس مخدرات، فحرام على الأجانب رؤيتهم؛ إذ لا يعرفهم إلا أشكالهم أو من أراد الله أن يفيثه ببركاتهم.

قال بعضهم: (من بحر الطويل)

إذا خفت ضيقاً أو ذهاب مروءة

فسافر ففى الأسفار خمس فوائد^(١)

تفريج همٍّ واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

وقال صاحب لامية المعجم: (من بحر البسيط)

لو كان^(٢) فى شرف الماوى بلوغ من

لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

وقال غيره: (من بحر البسيط)

والتبرُّ كالتربِّ ملقى فى أماكنه

والعودُ فى أرضه نوعٌ من الحطب

وقال غيره: (من بحر الكامل)

والماء يكسى بالركود كدورة

ويروق رونقه إذا لم يركد

قوله: وارع: فعل أمر من رعى. والمطاء، بالمد والكسر: مفعول به، وهو

(١) البيت كما فى الخزانة هو:

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا

وسافر ففى الأسفار خمس فوائد

(٢) فى (ب): لو أن، وهو موافق لما فى اللامية المطبوعة.

معدول من المواطأة؛ لأن الأصدقاء تتواطأ أهواؤهم وآراؤهم كما تتواطأ وتتعاصد قواهم. قال الرسول ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر من رمضان»^(١). وفي رواية: «مرائيكم»: جمع رؤيا.

وقال ابن الخطيب: تواطأ قلب رسول الله ﷺ وقاله عند المشاهدة، وسمعه وبصره فما زاغ بصره وما طغى قلبه.

تقول: تواطأ مواطأة وتواطؤا، وقوم مطاء: إذا وصفتهم بالتواطؤ والمواطأة كما تقول: رجل مهداء، وقوم مهداء، ورجل معطاء، ورجال معطاء، ورجل مسقام إذا كثر سقامه.

والمعنى: وارع الأصدقاء في سرك وجهرك، وفي حضورك وغيبتك ولا يخب: من الخيبة، وهي خلف الرجاء والأمل، أي لا يخب لشخص محل صوته في حال كونه يرجو فضلك وعاء. فوعاء: فاعل، وهو أحد الظروف. والوعى، بالفتح والقصر: رفع الصوت، وهو مقلوب عوى، فأعط من رفع صوته لك بالسؤال بأن أعلن حاجته لك وأظهر فاقتة ملء وعائه، لا ترده خائبا، فيبقى وعاءه خاويًا، وكفه صفراء من مكارم مواهبك، فإن ذلك مما يخل بالمرءة ويبطل الفتوة ويذهبها رأسًا.

يروى أن بعض الأعراب أتى ملكًا من الملوك العباسيين يحمل على رأسه قلة، فلما وقف ببابه سخر منه الحجاب، فذهب بعضهم إليه وقال له: إن بالباب رجلاً يحمل قلة على رأسه، فأمرهم بإدخاله، فلما دخل والقلة على رأسه ومثل بين يديه ضحك منه الخليفة فقال: ما هذه القلة على رأسك؟ فأجابه بديهة فقال: (من بحر الطويل)

فلما رأيت الناس أدلوا دلاءهم إلى بحرك الطامى أتيت بقلتي
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا البخل يبقئها إذا هي ولت
إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طراً قبل أن تتفلت

(١) حديث «أرى رؤياكم قد تواطأت»... إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان، وهو عند البخاري في كتاب التراويح.

فأمر له بملء قلته سبع مرات من الذهب، وخلع عليه خلعة سنية.
وكان الشافعي رحمه الله مع ما آتاه الله من العلم والورع جواداً بالمال ذا فتوة
ومروءة، ومما يدل على فتوته ورفع منصبه قوله: (من بحر البسيط)

يا لهف نفسي على مال أجد به على المقلين من ذوى المروءات

إن اعتذارى إلى من جاء يسألني ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

وكان رضى الله عنه يقول: (من بحر الوافر)

أرى نفسي تتوق إلى أمور ويقصر دون مبلغهن مال

فلا نفسي تطاوعني ببخل ولا مالى يبلغنى فعال

ويروى أن رجلاً من سادات حمير جاء حاجاً فمات مطاياها، وكان شريف
النفس عظيم الشأن، فاستشار بعض أصدقائه فقال له: إنى قد انقطعت بى
الأسباب وإنى رجل شريف، وإنه لا بد أن أسأل أحد سادات قريش، فدلنى على
رجل إن أرقت إليه ماء وجهى لا يخيننى؛ فإنى رجل شريف، ولئن اجتمع لى
إراقة ماء وجهى مع خيبة المسعى فإنه الموت. فقال: أدلك على عبد الله بن جعفر؛
فإنه سيد فاضل، ومن بيت النبوة، وإنى ضامن لك عدم الخيبة والإسعاف
ببغيتك. فلما آتاه جعل جبينه يرشح عرقاً، فأقبل إليه ابن جعفر فقال له: مرحباً
بك وأهلاً، تكلم أخوا العرب، فإنى أرى وجهاً خليقاً بأن يسعف بحاجته، ولعله
لم يتعود المسألة؛ لأنى أرى عليه علامة الخجل، فقال: يا بن عم رسول الله ﷺ،
إنى رجل من حمير أتيت حاجاً فماتت دوابى وظهري، وجئت أستحملك، ولم أر
من هو أهل أن يريق الكريم عليه ماء محياه غيرك، فإن تسعف فمشكور، وإن
حال من دون ذلك حائل فمعدور. فلما سمع عبد الله قوله هزه ما سمع؛ فالتفت
إلى وكيله فقال له: كم أصبح عندنا؟ فقال له: مائة بعير، وخمسمائة بغلة، وألف
دينار، وأسفاط^(١) من فاخر الثياب. فقال له: ائتنى بجميع ذلك الساعة؛ فأتاه به
فقال للحميرى: خذ جميع ما ترى، ولولا أنك جئتنى على نفاذ لأجزلت لك فى
العطاء، فقال له: أيها السيد إنى أكتفى منك بأقل من هذا، وإنما جئت

(١) أسفاط: جمع سفظ: وعاء كالكفة أو الجوالق.

أستحملك، وإني رجل غني بأرضي. فقال له: خذ أيها الرجل جميع ذلك فإنه قليل من كثير، فإن العطايا تتعاطم عليها ولا تتعاطم علينا، والله ما أديت من واجب حقتك على قدر دانق، وإن متك لفي عنقي ما بقيت، وكيف لا يكون ذلك وقد بت تتلوى على فراشك وحاجتك تتردد في صدرك، ولم تر لها من سادات قريش غيري! فذهب الحميري بجميع ذلك، ووصل منه من دله على عبد الله بن جعفر رضي الله عنه.

وحكاياتهم في مثل هذا لا تنحصر، والحمد لله على فضله وتفضله على هذه الأمة الشريفة.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٦٧ - وَغَيْرَ الشَّوَى هَبِيْ شِوَاءَ لَطَارِقِ يَرُومُ ذَرَى فِيهِ سَلَاءٌ وَسِلَاءٌ

وغير: مفعول مقدم لهيئ. والشوى، بالفتح والقصر: هنا أرذل المال كالمريض والشارف والعجفاء والزمن وما لا منفعة فيه.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

أكلنا الشوى حتى إذا لم ندع شوى أشرنا إلى خيراتها بالأصابع

أى أكلنا الأشرار أولاً حتى أفنيناها فتعدينا إلى الأختيار صوتاً لأعراضنا ومروءاتنا. والشواء. بالكسر والمد: هو اللحم ينضج بالفوار دون اللهب والملة^(١) فإنه يقال لذلك الصلّي، وأما السميط فهو أن يزال الشعر أو الصوف بماء مسخن ثم يجعل في الفرن حتى ينضج، فهو أطيبه وألذّه، إلا أنه من أطعمة الرفاهية لما فيه من السرف؛ وهو إتلاف الجلد لاحتياج الناس إليه في اللباس والبسط.

روى أن رسول الله ﷺ مات ولم يأكل سميطاً ولا سميداً، وهو الخبز المرقق المغربل، وما كان ذلك لإقتار ولا قلة، وإنما كان تنزهاً عن التغالي في التمتع. خلافاً للباحي الطليطلي فإنه قال في أثناء مناظرته لعلماء الأندلس: إن زُهد

(١) الملة: الجمر أو الرماد الحار. وعادة يكون في حفرة الفرن.

رسول الله ﷺ لم يكن اختياراً منه، ولو وجد التنعم لتنعم؛ فحكموا بزندقته لاستخفافه بحق رسول الله ﷺ لتسميته إياه يتيم أبى طالب أثناء المناظرة المتقدمة آنفاً.

والذرى: تقدم. والسلا، بالقصر والفتح: مصدر سلا كدعا، والسلاء، بالكسر والمد: السمن فكأنه يقول: هبىء ويسر وأعد لمن طرقتك من شخص قاصد محلا فيه سلو لنفسه وشواء أى لحمًا مشويًا من خيرات مالك لا من شراره كالشوى؛ فإن الله لا يقبل إلا طيبًا، فجد بأنفس ما عندك على من قصدك لا برده؛ فإن ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ لأن الفتوة تقتضى إنزال الطارق والأضياف على قدر أقدارهم، وبحسب تفاوتهم فى معائشهم، ولذلك وصف الناظم الطارق الذى له الشواء غير الشوى بكونه يروم فيه سلا وسلاء.

قال الرسول ﷺ: «أمرت أن أنزل الناس منازلهم»^(١).

ويروى أنه قدم على النبى ﷺ وفدان: أحد الوفدين أشراف، والآخر دونهم فى الشرف ففضل النبى ﷺ الأشراف، فقال له عمر رضى الله عنه: "مالى أراك يا رسول الله تفضل هؤلاء على هؤلاء؟! ولا أرى ذلك إلا أنك اعتبرت عليهم فى الجاهلية وقد هدم الله ذلك بالإسلام، وكل من الفريقين إنما جاء ليسلم؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إن ربي أمرنى أن أنزل الناس منازلهم، وأن خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا».

وهو يشير بقوله:

* وغير الشوى هبىء شواء لطارق *

(١) حديث «أمرت أن أنزل الناس منازلهم» حديث حسن رواه أبو داود وابن خزيمة والبخاري في الأدب، وأخرجه مسلم تعليقاً بلفظ: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم» (٤/١) مسلم المقدمة، وأورده السخاوى تحت رقم ١٧٩ وقال بعد أن أورد طرق الحديث: صححه الحاكم وغيره، وتعقب بالانقطاع وبالاختلاف على راويه فى وقفه ورفعته. . إلى أن قال: وبالجملة فحديث عائشة حسن (٩٢/١)، والله أعلم.

وأما الجزء الأخير منه والذى هو «وأن خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا» فهو جزء من حديث صحيح تقدم تخريجه وليس من الحديث الأول، والله أعلم.

إلى وجوب الضيافة، وليس من أداء واجبها إشباعه فقط بل لا بد من إكرامه وكرامته، فالكرامة خدمته بالنفس؛ كإنزال رحله، ورعى دوابه، والمبادرة إليه قبل النزول، والترحيب به، وبسط الوجه، كما قال حاتم بن عبد الله: (من بحر الطويل)

أبسط ضيفي قبل إنزال رحله فيخصب عندي والمكان جديب^(١)

وقال: (من بحر الطويل)

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً ولا شيمة لى غيرها تشبه العبد

قال الشافعي: أربعة أنواع من الخدمة لا يتولاها إلا كريم ولا يأنف عنها إلا لئيم: خدمة الشيخ، وخدمة الوالد، وخدمة الضيف، وخدمة الفرس.

ومن كرامته أن يبدأ بالسلام، ثم بالطعام، ثم بالكلام، وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك بصنيع أول من سن القرى وهو إبراهيم الخليل عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿فَرَأَى إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] فإنه بعدما سلم عليهم ورحب بهم راغ بأن أخفى عنهم ذهابه إلى بيته لئلا يخلجهم فجاءهم بعجل سمين محنوذ.

ومن سننه مجيئه إلى الأضياف مع الطعام، وتلقيهم، وحضهم كل الأكل، وتطييبهم بمثل المسك والغالية والعود، وإلانة فرشهم، وأن يتخير لهم من الأطعمة ما يعلم أنه يعجبهم كالثريد واللحم والفاكهة، وإذا كان زمن الشتاء فليأتهم بالنار والخطب، وليتول وقودها غيرهم وإلا أشعل المصباح.

والحاصل أن الأضياف أنواع: منهم الكريم واللئيم، فإن كان كريماً فضيافته ما تقدم ذكره، وإن كان لئيماً فأشبعه من أرذل الطعام كالفول والجلبان والعدس، وإن كان أعلى من ذلك ولم يكن من الكرام فهبىء له شبعه من مثل الدخن والذرة، ولا تبجله فإن التبجيل ليس من طبعه، فإنه ربما دعاه إلى المقام عندك حتى يجرجك.

(١) في (ب): أضاحك.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ومن كرامة الضيف علف فرسه، وقد نظم ذلك يعرض الأدباء فقال: (من بحر

البيسط)

للضيف عشر خصال من أحاط بها وفَى وإلا فإن الضيف قد بُخِسا

إلى أن قال:

* لن تكرم الضيف حتى تعلق الفرسا *

إلى أن قال: (من البيسط)

وإن يكن من لئام الناس فابعث له من جودك الفول والجلبان والعدسا

ثم الضيف على خمسة أقسام: ضيف الله، وضيف رسوله، وضيف الدنيا، وضيف نفسه، وضيف الشيطان. فضيف الله الفقير المسلم، وضيف رسوله العالم، وضيف الدنيا ذو المال الذى يرجى نائله، وضيف نفسه السلطان، وضيف الشيطان الظالم.

قال ابن عباد: لا تأكل إلا طعام تقى، ولا يأكل طعامك إلا تقى. وهذا على مذهب القوم لكن بعضه حديث لا بأس بإسناده، وهو قوله ﷺ: «إذا أحب الله مالا جعله فى أهل الحفاظ وإذا أبغضه جعله فى غيرهم»^(١).

والبيت مقتبس من قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(٢).

وقال ﷺ: «الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم وليلة، ولا ينبغي لضيف أن يقيم فوق ثلاث»^(٣) انتهى. فإن أقام فهو كالسائل المتطفل إن شاء أطعمه وإن شاء منعه

(١) حديث «إذا أحب الله مالا»... إلخ. لا أعرفه.

(٢) حديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه، وهو عند البخارى فى كتاب الأدب، وأوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» والله أعلم.

(٣) حديث «الضيافة ثلاثة أيام»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان، وأوله: =

ولا حرج.

واختلف فى إقامته بعد ثلاثة أيام، فقيل: هى حرام لتحريمه المضيف، وأكله الحرام، واقتحامه النهى، بل ينبغى له أن لا يزيد على ليلة إلا أن يكون رجلاً قد انقطعت به الأسباب، فلا ينبغى له أن يزيد على ثلاث ليال.

وفى المثل: الضيف أول ليلة يكون ذهباً فإذا أصبح مقيماً صار نحاساً، فإذا أقام بعده صار حديداً، وبعدها يكون جنديلاً^(١) لا يباع ولا يقتنى ولا يعبأ به.

وكان على رضى الله عنه ينهى عن التكلف للضيف ويقول: إنه يبغض إليك الضيف، وربما جلب الرياء والسمعة. وكان يقول: لا تبخل بوجود، ولا تتكلف بمفقود.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها ولن وجود امرؤ إلا بما وجدنا

ولأن الله مدح أبا طلحة بقوله: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] على رأس شاة لم يكن له لِيَلْتَنِدَ غيره، فنوم صبيانه، وباتوا طاوين، وأعطاه لضيفه.

وأما قول من يقول: الضيافة على أهل الوبر لا على أهل المدر، ويزعمون أنه مروى عن رسول الله ﷺ، فكذب وافتراء كما نص على ذلك ابن حجر فى شرحه للأربعين حديثاً للنوى.

يروى أن رسول الله ﷺ قال: «طلبت خمسة فوجدتها فى خمسة: طلبت رضوان الله فوجدته فى إكرام الضيف، وطلبت صفاء القلب فوجدته فى صيام الصيف، وطلبت السلامة فوجدتها فى الصمت، وطلبت الغنى فوجدته فى

= «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» وآخره: «والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة» البخارى (٤٤١/١٠)، مسلم (١٣٥٢/٣)، ولمسلم: «لا يحل لمسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه. قالوا: يا رسول الله، وكيف يؤثمه؟ قال: يقيم عنده ولا شىء يقريه به»، والله أعلم.

(١) الجنديل: الحجر.

القناعة، وطلبت خير الدنيا والآخرة فوجدته في قيام الليل»^(١).

وربما كان الرجل جواداً بالمال بخيلاً بالطعام، فلا ينقله ذلك من حسنة اللؤم؛ لتركه الواجب المتكرر للمندوب النزر الذي ربما لا يقع إلا مرة في الدهر.

يروى أن إبراهيم عليه السلام لما بنى المسجد الحرام صلى عند كل سارية ألف ركعة، فأوحى الله إليه أن تقرب إلي بما هو أفضل من الصلاة، فقال: وأي عبادة أفضل من الصلاة؟ فقال له: إطعام الطعام؛ فارتحل إلى الشام، فاتخذ زاوية بجبل حلب، فجعل يطعم منها الطعام حتى توفي عليه السلام.

وكان بعض الفضلاء يكثر الطعام للضيف حتى يفضل؛ فقليل له في ذلك، فقال: إنني لم أكثره إسرافاً ولا رياء، ولكن بلغني عن رسول الله ﷺ: «أن سؤر الأضياف من النعيم الذي لا يسأل عنه»^(٢). فأحبيت أن آكل وأطعم عيالي من سؤر الأضياف رجاء أن لا أسأل عنه.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا نزل الضيف نزل برزقه، وإذا ارتحل ارتحل بذنوب أهل البيت»^(٣).

يروى أن إبراهيم عليه السلام استضافه مشرك فحرمه، فلما أصبح انصرف وقد يئس من القرى، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال له: إن ربك يقرئك السلام

(١) حديث «طلبت خمسا»... إلخ. تقدم.

(٢) حديث «سؤر الأضياف من النعيم»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، نعم روى الدارقطني في الأفراد: «من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه» كما ورد: «سؤر المؤمن شفاء»، ولفظ ثالث: «الشرب من فضل وضوء المؤمن شفاء من كل داء أذناها لهم».

أما بالنسبة للأول فقد رواه الدارقطني، وأورده عنه ابن الجوزي في موضوعاته وقال: موضوع؛ لأنه من رواية نوح بن أبي مريم. وأورده كذلك الألباني تحت رقم ٧٩ وقال: موضوع.

وأما الثاني فلا أصل له، وأورده الألباني تحت رقم ٧٨ وقال: لا أصل له، وأورده كذلك العجلوني تحت رقم ١٥٠٠ وقال: قال النجم: ليس بحديث.

وأما الثالث فقد قال الألباني: إنه موضوع كذلك (١٠٥/١)، والله أعلم.

(٣) حديث «إذا نزل الضيف»... إلخ. ضعيف رواه الديلمي وابن أبي شيبه بألفاظ كثيرة، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٩٤٣ بلفظ: «الضيف يأتي برزقه ويرتحل بذنوب القوم يحمص عنهم ذنوبهم»، ورقم ٢٢٧ بلفظ: «إذا دخل الضيف»، وقال: ضعيف. كما أورده السخاوي تحت رقم ٦٢ إلا أنه قال: «وإذا خرج خرج بمغفرة ذنوبهم»، وقال: ضعيف، والله أعلم.

ويقول لك: لِمَ حرمت عبي؟ فقال له: إنه مشرك، فقال له جبريل: إن الله يقول لك: أأنت خلقت أم أنا؟ فقال: بل أنت. ثم قال له: إنه يقول لك: أكان كفره بك أم بى؟ فقال: بل كان كفره بك. قال: إنه يقول لك: أأنت كنت ترزقه فيم مضى من عمره أم أنا؟ قال: بل أنت رازقنى ورازقه. قال: إنه يقول لك: أهو خلق الكفر فى قلبه أم أنت خلقتة وجبلته عليه؟ قال إبراهيم: بل أنت. قال جبريل: إنه يقول لك: أكان كفره يضره أو يضرك؟ قال: بل يضره، قال له: إنه يقول لك: إن كان ذلك كذلك فلم حرمته وهو عبي وأخوك؟ فإنه لا يخلو من حالتين: إما أن أشقيه فأجعله غداء لنارى ومحلاً للجرىان واجب غضبى واقتدارى، وإما أن أتوب عليه فأجعله من جملة أحبائى وأسكنه دار رحمتى وعطائى؛ فلحقه إبراهيم عليه السلام، ولقيه وجيلاً^(١)، فتلطف به، وراوده على الرجوع ليطعمه، فقال له: إن لك نبأ: حرمتنى أولاً، ثم تطلقت آخرًا وكأنك أنت الذى تطلب الحاجة إلى! فقال: إن ربي عاتبني فيك، فقال له: نعم الرب ربك إذ يعاتب حبيبه فى عدوه، فأسلم ولازم العبادة مع إبراهيم عليه السلام حتى مات رحمة الله عليه^(٢).

واختلف فى الضيف الذى تجب ضيافته وجائزته؛ فقال الثورى فى مسنده: قال: هو المسافر المتزود الذى يطول سفره حتى يفنى زاده ولا سوق ثم يشتري منه زادًا، وأما إذا كان ملياً وفى بلاد الأسواق فلا ضيافة له، ولا يحل له أن يستحمل الناس مؤونته، فيكون ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، بخلاف من لا زاد له أصلاً أو فنى زاده ولا مال معه فأما هذان فتسوغ لهما الضيافة، ويجب على من نزل عليه أن يضيفهما ويحسن جائزتهما. وكذلك الغزاة وطلاب العلوم والسعاة والبريد والمحاسب، وأما غير هؤلاء فلا ضيافة لهم تجب، إلا أنه من شاء أن يعطيهم صوتاً لعرضه أو طلباً للمثوبة إن رأى ذلك، جعل الله أعمالنا ونياتنا له آمين.

(١) وجيلاً: مضطرباً، أو ساقطاً من الخوف، أو مسرعاً على دابة.

(٢) ما أشبه أن تكون هذه القصة مختلقة من الإسرائيليات.

• ثم قال رحمه الله:

٦٨ - فَاكْمُ ذِي غَشْيٍ أَضْحَىٰ غِشَاءً مُّهَنْدًا

صَلَاةً لِّكَيْ يَخْتَارَ مِنْهُ صَلَاةً

قوله: فكم ذي غشي، كم: اسم عدد ملازم للإضافة. ذي بمعنى صاحب غشي، بالفتح والقصر: أي فرس سابل الغرة، وذلك من علامة يمنه وجودته وعناقته.

قال ابن دريد في مقصورته: (من بحر الرجز)

كأثما الجوزاء في أرساغه والنجم في جبهته إذا بدا^(١)

والفرق بين الغرة والغشوة والدينار والرثمة هو أن الغرة مال بلغ الأنف من بياض الوجه أو كان، ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قيل له: كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: «إنهم يبعثون من قبورهم غراً محجلين من آثار الوضوء»^(٢).

فالغرة في حقهم شعاع نوراني يغشى وجوههم. وقيل: هو نور أبيض كالغرة يتميزون به كبياض يد موسى.

والغشوة: ما غشى وجه الفرس أو البعير حتى يعم الوجه كله والمشفرين، والرثمة: بياض يخص المشفرين أو أحد المشفرين فقط. والدينار: بياض مدور يكون قدر الكف أو دون ذلك، وهو أحسن الأصناف عند العرب، وكان من أثر مسحة جبريل عليه السلام، وذلك أنه لما أدخل آدم الجنة يحمله على عاتقه أتخفه الله بأن بعث إليه الفرس والبراق، وصحبه رضوان خازن الجنة فقال له: إن الله أرسلني إليك بهاتين الدابتين لتختار أيهما شئت لركوبك، فالتفت إلى جبريل كالمستشير، فقال له: اختر أحسنهما وجهاً؛ فاختر الفرس، وكان أحسن وجهاً من البراق، فقال له جبريل: اخترت عزك وعز بنيك إلى يوم القيامة، فمسح جبريل

(١) الجوزاء: نجم معروف، والنجم: هو الثريا، يصف غرة فرس وتحجيلة.

(٢) حديث «إنهم يبعثون يوم القيامة... إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان وأحمد بلفظ: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء»، زاد مسلم: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل». (البخارى - كتاب الوضوء - باب فضل الوضوء والغر المحجلين).

ناصيته وبارك فيه، فلما رفع كفه إذا موضع كفه غرة بيضاء تلوح، فالتفت إلى آدم فقال: هذه علامة يمن الخيل يوم القيامة^(١).

قال ﷺ: «كل شؤم من الفرس يذهب الدينار والدرهم».

وكان ﷺ يكره الشكال؛ وهو أن تكون اليد اليسرى بيضاء والرجل اليمنى كذلك، بل يكره ذلك ولو كان من جانب واحد ما لم يكن الفرس أغر. أخرجها السيوطي في جامعه^(٢).

قوله: أضحى: من أخوات كان، اسمها صلاة، وخبرها غشاء، بالكسر والمد، أى: صار صلاه غشاء، أى غمداً لسيف مهند، فمهند نعت لسيف المحذوف، كقوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: ١١] أى دروعاً سابغات. المهند: الذى سقى مرة بعد مرة مع انتخاب حديد المصاغ منه حتى يترطب ويلين بحيث إذا أثبتته ثم أطلقته يرجع إلى حاله قبل العطف، وإن بقى معوجاً فردىء، وإن بقى فيه حنو فعيبه بقدر ذلك، وأفضلها وأشرفها الهندوانية التى تصنع بالهند لكونها تقطع الحديد، إلا أنها إذا ضرب بها فى يوم بارد تحطمت متونها.

ولما كان يوم اليمامة برزت حنيفة إلى عسكر خالد وقد جردت سيوفها، فقال خالد للمسلمين: أبشروا فإن القوم قد فشلوا؛ أما ترون إلى سلهم سيوفهم يرهوننا بها؟! وكان فجاعة أسيراً عند خالد فقال: إنهم لم يجبنوا وليس الجبن لهم بخلق، ولكنها الهندوانية، وقد خافوا عليها أن تتحطم متونها، فأبرزوها للشمس لتتصلب. فلما دنوا من معسكر المسلمين قالوا: إنا نعتذر إليكم من سل سيوفنا فإننا لم نسلها جبناً ولا لتهربكم بها وإنما هى الهندوانية، وكانت غدوة باردة فأبرزناها للشمس لتتصلب متونها حتى نتلقاكم، وسترون ذلك إذا لقيناكم.

والصلى: واحد الصلويين، وهما ما عن يمين الذئب ويساره. والصلاء، بالمد والكسر: المشوى بالملة.

(١) لا أظن هذه القصة تصح بأى حال، والله أعلم.

(٢) حديث «كان ﷺ يكره الشكال من الخيل»... إلخ. حديث صحيح رواه مسلم فى كتاب الإمارة

فالمعنى: كأنه يقول: كثير من فرس فارهِ^(١) كالأعشى صار صلاه غشاء لسيف مهند عرقبه به فغشاء وغطاه وصلاه لأجل أن يختار من لحم ذلك الفرس صلاء. فعل ذلك جوداً وكرماً.

يحكى أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ سأل زوجة حاتم بعد ما أسلمت، فقال لها: حدثيني ببعض غرائب حاتم في الكرم؛ فقالت: أصابت طيئاً مجاعة أفنت الخف والظلف، وقد أفنى حاتم ماله في تلك المجاعة بذلاً وعقرراً وبيعاً في الزرع والثمر ليطعم الجائع والطارق حتى إنه لم يبق في ملكه غير فرسه، وبتنا طاوئين وسفانةً وعدى صبيان وقد أجهدهما الجوع، فجعل يعلل سفانةً لتنام، وجعلت أعلل عدياً. فلما ناما أقبل على يحدثني ليشغلني بذلك عن ألم الجوع لعل أنام؛ فتومت نفسي شفقة عليه، فقال لى: نمت؟ فلم أجبه، فظن أنى قد نمت، فجلس، فبينما هو كذلك إذا بسواد قد أقبل فقال: من هذا؟! فقالت: جاريتك فلانة، وقد تركت صبياني يتضورون جوعاً، فقال لها: والله لأشبعنهم وإياك، فارجمي إلى بنيك وائتى بهم، فرفعت رأسى وقلت له: وبم تشبعهم وما نومنا صبيانا إلا بالتعليل؟! فأخذ سيفه فعقر فرسه ثم ذبحه وأجج ناراً، ثم أمر المرأة أن تأكل وتشبع صبيانها، وأيقظ سفانةً وعدياً وناولنى المدية فقال: كلى وأطعمى صبيانك وعبيدك، ثم نهض فقال: والله إنه للؤم أن أشبع وأهل الحى جياع، فذهب إلى الحى يوقظ أهل كل بيت فيقول لهم: هلموا إلى النار فإن آل حاتم قد نحروا؛ فاجتمع أهل الحى على النار حتى لم يتركوا إلا حوافره وهو متقنع بردائه، فوالله ما طعم منه مضغة وقد كان أحوجنا إليه وأشدنا جوعاً!!

يروى أن الله يجعل له في النار بيتاً من برد فلا يجد ألم النار لجوده وكرمه، ولا يدخل الجنة لأن الله حرمها على المشركين^(٢).

ومراد الناظم الحث على الجود بأنفس الموجود، والترغيب فى إفراغ الجهد فى ذلك على الوجه المحمود؛ عملاً بما عليه أرباب الإرادة الذين قصرُوا المقصود على رضا الرب المعبود ومالك الموجود والمعدوم، لتكون من أهل السعود، الموفين

(١) فى (أ): فرس فارهِ، وفى (ب): فرس فارس، ولعل الأول أصوب.

(٢) القول بأن حاتمًا يبني له بيت من برد فى النار لجوده غير صحيح، والله أعلم.

بالعهد، القائمين على الحدود، الذين أحلهم تواجدهم^(١) جنة الوجود، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

• ثم قال رحمه الله:

٦٩ - وَذَاتَ الْحَذَا اصْنَعُ مِنْ نَجَاهَا حِذَاءَ ذِي

وَجِيٍّ وَاغْتَنِمُ صَوْمًا فَفِيهِ وَجَاءُ

قوله: وذات الحذا: أى اعمد إلى بقرة ذات حذا، بالفتح والقصر، وهو مصدر حذيت البقرة أو الناقة: إذا انقطع سلاها فى بطنها، فاصنع من نجاهها أى جلدها حذاء شخص صاحب وجيٍّ، بالقصر: مصدر وجى الرجل، بالكسر: اشتكى باطن قدمه، فإن زاد فهو حقى، والحذاء، بالمد: النعل. واغتتم صوماً؛ فذلك الفعل والصوم وجاء، بالكسر والمد: أى رَضُّ الأثنيين من غير نزع لهما من محلهما، فقطعهما خصاء.

قال مالك بن المرجل فى نص الفصيح له: (من بحر الرجز)

وقد خصيت الفحل والخصاء أن تنزع الخصيين والوجاء أن يتركها هناك بعد رض ينوب عن نزعهما وغض

وقد وقع فى الحديث الصحيح: قال ﷺ: «من لم يستطع منكم الباءة^(٢) فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٣)؛ لما فيه من قطع مادة الشهوة بالاستقلال عن الأكل والشرب.

(١) لم يتضح المقصود من كلمة (تواجدهم) إلا إذا كان يريد جبههم لله أو فرحهم للقائه. فأصل التواجد أن يرى الإنسان من نفسه الوجد أى الفرح أو المحبة أو الحزن، والله أعلم.

(٢) الباءة: النكاح لغة، والمراد هنا الأهبة له، أى من استطاع منكم مؤونة النكاح فليتزوج.

(٣) حديث «من لم يستطع منكم الباءة فعليه بالصوم»... إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان فى كتاب الصوم، ولفظه عند البخارى: «من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

والوجاء: أصله رض الأثنيين، وأطلق على الصوم مجازاً؛ لأن كلا منهما مذهب للشهوة، والله أعلم.

قال البوصيرى رضى الله عنه: (من بحر البسيط)

* إن الطعام يقوى شهوة النهيم *

وقال عليه السلام: «لا رهبانية فى الإسلام، ورهبانية أمتى الصوم والجهاد».

وإنما يكسر الصوم سَوْرَةَ الشهوة بالطول والإدمان عليه، وأما أول مرة فلا تزداد الشهوة به إلا إيقاداً لما فى ذلك من تخفيف الرطوبات التى من شأنها أن تُرخى العصب وتكسر سورة الحرارة الغريزية، كما فى كتاب المدخل.

قوله: وذات الحذا: عبارة عن الدنيا؛ لأن قطع السلى من المرض المخوف إذ قلما أنت فى جوف البهيمة فسلمت.

قال ابن دريد: (من بحر الرجز)

ولا أقول إن عرتنى أزمسة^(١) قول القنوط انقذ فى البطن السلى

وإذا كانت الدنيا كذلك فاتخذ من نجاتها حذاء للعمل ومن لحمها زاداً لبلوغ الأمل، واقطع شهواتها التى هى كأحلام النوم بالزهد فيها والرغبة عنها، فذلك المقصود بالصوم، تكن من المفلحين، وتلحق بالقوم، وإلا فأعد جلباباً للتوبيخ واللوم، واستحضر فجاء الشقاء والشؤم؛ فإنه ليس بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار، وذلك معنى قوله عليه السلام: «من ضاعت دنياه فأخرته أضيع». وضياعها عدم التزود منها، إذ هى فانية زائلة لا محالة، فمن فاتته ولم يتزود منها فقد ضاعت عليه دنياه فى غير فائدة، وأخرته أضيع؛ إذ لا آخرة إلا بزاد من التقى والعمل الصالح يقدمه لآخرته من دار دنياه، فإن فاتته هذا فلا دنيا له ولا آخرة، ومن لا دنيا له ولا آخرة فالنار مثواه، والحزى والوبال مأواه؛ إذ الآخرة بنت الدنيا ونتيجتها.

قال على كرم الله وجهه: من قدم دنياه أمامه أحب اللحوق بها، ومن أفنى دنياه فى شهواته وهواه كره القدوم على دار قد خربها، ولا بد له من ذلك؛ فيندم حيث لا ينفع الندم؛ لا جعلنا الله ممن قدم الأمل وأخر العمل حتى فجاء الأجل، آمين.

(١) النسخ المطبوعة من قصيدة ابن دريد: (نكبة) بدل (أزمة).

• ثم قال رحمه الله:

٧٠ - وَكُنْ لَوْزِيَّ هَابَ الْوِزَاءِ مُؤْمِنًا فَشَرُّ الْبَرِي مِنْهُ الْكِرَامُ بِرَاءً

كن: فعل أمر من الكون، وخبره مؤمناً، واسمه مستتر وجوباً. لوزي: جار ومجرور متعلق بكن، وهو القصير الهلب من الدواب، والضعيف من الرجال، ومن لا قرن له، وهو بالزاي المعجمة مع فتح وقصر، هاب: فعل ماض، وضمير فاعله المستتر عائذ على وزى. الوزاء، بالكسر والمد: الأقباء، وهو مفعول هاب. قوله: فشر البري: فشر: مبتدأ، والبري، بالفتح والقصر: مضاف إليه ما قبله. والكرام: مبتدأ ثان، وبراء: خبره. والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول. ومنه: متعلق ببراء، فالبري الخلق، ومعناه: فشر الخلق منه الكرام براءً، جمع برىء وبراء.

وقد وقع في الحديث الصحيح أن «من شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه»^(١) أى داراه الناس وغمضوا عنه عيونهم اتقاء ما يصدر منه، ونزاهة عن فحشه؛ لما يستخرجه النصح والزجر منه مما هو شر منه من كان عليه، وهو من الذين إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم؛ فحسبه مؤدباً وزاجراً ومستعتباً جهنم وبئس المصير؛ إذ لا دواء له غيرها؛ فهو كالزبوق^(٢) لا يصلح إلا للنار، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث؛ معناه: إن تعظه لا يتعظ، بل لا تزيده الموعظة إلا خبثاً؛ لأنها تثير ما فى بطنه من خبث الطوية، أو تتركه فلا تعظه لا يزال على ما جبل عليه من الضلال والشر والفحش والطيش؛

(١) حديث: «إن من شر الناس... إلخ» جزء من حديث متفق على صحته، رواه الشيخان وأبو داود والترمذى؛ وسببه أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، فلما جلس تطلق فى وجهه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له: كذا وكذا، ثم تطلقت فى وجهه وانسبطت إليه! فقال: يا عائشة، متى عهدتني فحاشاً؟ ثم قال - حسب رواية البخارى -: «إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره» (كتاب الأدب).

والرجل المشار إليه هو الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزارى.

(٢) كالزبوق: كذا فى الأصلين ولعل الكلمة خطأ، إلا إذا كانت كالزبوف، الذى هو المزيف من الدراهم، فهذا فعلا لا يصلح إلا للنار، والله أعلم.

لأن الله لم يجعل له في الخير حظاً ولا نصيباً.

قال عليه السلام: «أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن، وإن الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»^(١).

وقال عليه السلام: «إن الرجل ليلبغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم». وفي رواية: «درجة الصائم الذي لا يفطر والقائم الذي لا يفتر».

وقال: «لو كان الحياء رجلاً لكان رجلاً خيراً، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجلاً سوء»^(٢).

وقال: «البذاءة من النفاق».

* ثم قال رحمه الله *

٧١ - وَحَاذِرٌ كَهَيِّ مِنْ ذِي كَهَاءٍ عَلَيَّ قَرِيٌّ

وَمَا هُمُّهُ إِلَّا لَهْيٌ وَقِرَاءٌ

قوله: وحاذر: فعل أمر من حاذر. كهى، بالفتح والقصر: مفعول حاذر، أو منصوب بنزع الخافض، أى: حاذر أن تكون كذى كهى^(٣)، والكهى: مصدر كهى الرجل، بالكسر، إذا كان جبناً مخلعاً.

قال عليه السلام: «إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية، ويبغض الجبن ولو من أسد حرد»^(٤).

والكهاء، بكسر الكاف والمد: المفاخرة بعظم الجسم، وذلك من شأن من لا شلاق له.

(١) حديث «أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن». رواه الطبراني وأبو الشيخ، وعنهما صاحب الكشف دون الزيادة التي هي: «وإن الخلق السيئ»... إلخ. وهو عنده تحت رقم ٨٢٩، والله أعلم.

(٢) حديث «لو كان الحياء رجلاً لكان رجلاً خيراً»... إلخ. تقدم ذكره.

(٣) وفي هذه الحالة لا يكون منصوباً بنزع الخافض.

(٤) حرد: غضب.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

ترى الرجل النحيف فتزدرية وتحست ثيابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه ويخلف ظنك الرجل الطرير^(١)

يروى أن النبي ﷺ لما أتاه وفد عبد القيس سألهم فقال: هل فيكم الأشج؟ فقالوا له: ذاك هو، وكان رجلاً قصيراً دميماً، فلما نظر النبي ﷺ إليه خاف أن يكون قد انكسر قلبه لدمامته، وتكون عين رسول الله ﷺ قد اقتحمته، فقال: «ادن أيها الرجل فإن الرجال لا يستقى في مسوكها»^(٢) إنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه». وأول من قال ذلك شقة التميمي، وكان يحارب النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وقد نهب أمواله وقتل أبطاله؛ فطلبه كل الطلب فلم يتدر عليه مع قوة سلطانه وكثرة أعوانه، فلما يئس منه بعث إليه رجلاً من قومه فقال له: سلم على شقة وقل له: إن أنت أتيتني وسالمتني أعطيتك ألف ناقة؛ فوفد إليه، فلما رآه اقتحمته عينه واحتقرته لدمامته وقصر قامته، ففهم ذلك شقة، وكان رجلاً ليباً مفوهاً، فقال له: أيها الملك، أبيت اللعن، إنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان؛ فأقبل إليه الملك، وأدناه، ورفع منزلته، فلما ناطقه أعجبه ما رأى من فصاحته، وجودة عقله، وكمال أدبه، وثبات جأشه، فقال له: أي شقة، إنى كنت أسمع بمكارمك وليس الخبر كالعيان، وإنى قد رغبت فيك كل الرغبة، فإن شئت أعطيتك من الأموال ما يحيط بالأموال، وإن شئت كنت لى نديماً وأنا لك بكل ما تشتهي نفسك زعيماً؛ فقال له: المال محبوب لكنى لا أختار على الملك شيئاً؛ قال له: لله أبوك يا شقة! عجزت الرجال أن تماثلك، وقصرت الأبطال عن أن تطاولك، فلاجمعن لك بين الحباء^(٣) والاحتباء، فأعطاه من الأموال ما يقصر عنه الوصف، ثم اتخذه نديماً.

والكهاء، المتقدم ذكره، مصدر كاهى الرجل الرجل: إذا فاخره بعظم الجسم.

(١) الطرار: الشال، السارق. الطرير: الذي طلع شاربه، والرجل الطرير: ذو طرة وهيئة حسنة

وجمال. ويقال: رجل جميل وطرير.

(٢) المسوك: الجلود.

(٣) الحباء: العطية. والاحتباء: النصرة.

والقرى، بالفتح والقصر: الظهر. واللُّهى، بضم اللام المشددة: جمع لهية، وهى العظية والمأكل.

قال الشاعر:

* واللُّهى تفتح اللُّها *

والقراء، بالكسر والمد: الحياض، جمع قرة.

ومعناه: احذر جبناً من ذى مفاخرة بعظم جسمه حال كونه مستلقياً على ظهره وقفاه، وليست له همة إلا فيما يأكل ويُعطى، أو فيما يشرب منه من الحياض أو يمرح فيه من الرياض؛ فهو بهيمة فى صورة إنسان، كما قال الشاعر: (من بحر الكامل)

أبنىَّ إن من الرجال بهيمةً فى صورة الرجل الفطين المبصر

فطن بكل مصيبة فى ماله وإذا يصاب بدينه لم يبصر

عكس الأبله.

قال رسول الله ﷺ: «خير أبنائكم الأبله، قالوا: وما الأبله يا رسول الله؟ قال: من له فطنة بأمر دينه ولا فطنة له بأمر دنياه، وهم أكثر من يدخل الجنة بعد الفقراء». جعلنا الله ممن جمع له خير الدنيا والآخرة وعافيتهما، آمين.

• ثم قال رحمه الله:

٧٢ - وَكُلَّ مَلَأً بَدَّ الْمَلَاءَ رَضَى وَذَا خَلَاءُ دَمٌ فَطَوَّعٌ لَا يَدُومُ خِلَاءُ

قوله: وكل ملا: الكل: لفظ موضوع للعموم، الملا: أحد الملوتين: الليل والنهار. والملاء، بالكسر والمد: جمع ملء، أى غنى، بَدَّ، بالذال المعجمة: أى غلبهم وفاقهم، ويضبط بضم الباء وفتح الذال، ويجوز ضمها وكسرهما، كما هو الشأن فى الأمر من الثلاثى المضاعف كلذوا وشذوا. وكل: منصوب بالظرفية. والملاء: الكلام الحسن. والخلاء، بالكسر والمد مصدر خلئت الناقة، وهو فيها بمثابة الحران. ومنه ما فى الحديث: خلأت القصوى، وهى ناقة النبى ﷺ، فقال ﷺ:

«ما خلأتُ القسوى وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل»^(١).

والخلاء أيضاً: المشاركة.

والمعنى: وكل واحد من الليل والنهار غلب الأغنياء والأقوياء وأهل العيافة والتنجم وفاقهم، وإنما ينبغي لك حينئذ الرضى بما قدر لك، والتسليم لأمر الله؛ فينتج لك ذلك الرضى فى كل وقت بما يوافقك.

قال ابن عطاء الله: ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث فى الوقت ما ليس فيه، ولا تختتر على ربك، وليكن رضاك بفقرك أكثر من رضى الأغنياء بغناهم.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

وسلم للمهيمن فى قضاءه ولا تختتر فليس لك اختياراً

ودم صاحب كلام حسن. فطوع لا يدوم خلاء: أى فذلك الطوع لا يدوم، فكأنه لم يفعل أولاً.

قال عليه السلام: «أحب الأعمال إلى الله ما كان ديمة ولو قل»^(٢).

وقال عليه السلام: «اعملوا ولا تفتروا فإن الله لا يمل حتى تملوا».

فإن العمل إذا صنع ثم قطع فكأنه لم يفعل، وذلك مما يفسد النفس، ويحملها على الفشل والرعونة والكسل، إذ النفس كالناقة التى تخلاً قلما تحمل عليها بعد المتاركة.

فالكلام دعاء مفرغ فى قالب الخبر؛ فالملأ: مضاف إليه ما قبله. وبذ: فعل ماض. والملاء: مفعوله. وفى البيت تعقيد وتقديم وتأخير؛ فقدم: فعل أمر بمعنى الدعاء حال كونك ذا رضى وذا كلام حسن بما يجرى به الملوان من المقادير، فسلم له حال كونك ذا رضى. فرضى وخلا: حالان من ضمير دم. وطوع: مبتدأ. لا:

(١) «ما خلأتُ القسوى»... إلخ. قاله عليه السلام فى قصة الحديدية لما بركت ناقته عليه السلام.

(٢) حديث «أحب الأعمال إلى الله»... إلخ. متفق على صحته. رواه الشيخان بألفاظ مختلفة،

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٢٢ والسيوطى تحت رقم ١٩٧، والله أعلم.

نافية. يدوم: فعل مضارع، والجملة وصف لطوع، ومحلها الرفع. وقال المبرد: لا محل لها لكونها اعتراضية بين المبتدأ وخبره، وإنما قصارها أن تكون مسوغة للابتداء بالنكرة وخلاء: خبره.

• ثم قال رحمة الله عليه:

٧٣- وَعَظَّ نَفْسَكَ السَّهْوَى لِسَهْوَاءِ انْقَضَتْ

وَعُدَّ لَقَى مَا خُذَّ مِنْهُ لِقَاءُ

قوله: عظ نفسك: عظ: فعل أمر من وعظ يعظ وعظاً: إذا ذكروا وأنذروا، ودعا من الغفلة إلى اليقظة، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الكسل إلى الخدمة، ومن التواني إلى العزيمة، إذا كان في السامع قابلية.

قال رسول الله ﷺ: «من لم يكن له واعظ من نفسه فلا واعظ له».

نفسك: مفعول به ومضاف إليه ما قبله. السهوى: نعت لنفسك، وهو مؤنث السهوان: الذي يسهو كثيراً.

وفي المثل: «كيف ترجو من الناس وعداً وهم بنو سهوان؟» لأن أباهم آدم عليه السلام هو أول من سها. قال الله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥].

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

فلا تلم من نسي في محاورة فإن أول ناسٍ أول الناسِ

والسهواء: ساعة من الليل معروفة، فلهواء: جار ومجرور متعلق بعظ. انقضت: فعل ماض نعت لسهواء. وعد: أى اترك. ولقى، بالقصر والفتح: وهو ما لا يعبأ به من سفاسف الأمور، والأردال من الناس. واللقاء، بالكسر والمد: من الملاقاة.

والمعنى: عظ نفسك الساهية كثيراً، أى حذرها وأنذرها وذكرها ما يجرها عن انهماكها، وانتشلها من انتسابها في وحل الغي، وارتباكها في ثرعات الزى، وكرر ذلك عليها لمضى كل ساعة من ليل أو نهار، وعد، أى احبس نفسك عن كل لقي

من الحقير الخسيس من أمور الدنيا، فإنه إن لم يكن في نفسك كذلك فهو في الحقيقة كذلك؛ لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوى عند الله جناح بعوضة؛ فما فات منها مما تحاوله قليل من قليل، وهون عليك ما لم تنل من أمور دنياك بتحقيقك إياه وتصغيرك قدرها، بالإضافة إلى ما تطلبه تفتح لك بحول الله وقوته أبواب السلوك وتصل إلى محل لا يصل إليه إلا الملوك، وما ذلك على الله بعزيز، وهو الذى يعلى الخسيس بإضافته إليه، ويخلع خلع العز والقبول عليه، لا حرمانا الله من ذلك وإن لم نكن أهلا له، آمين.

• قال رحمه الله تعالى:

٧٤ - وَكُنْ لِحَقَا النَّجْوَى خِفَاءً يَقَى جَوَى

فِبِالصَّوْنِ لِلنَّجْوَى تُصَانُ جَوَاءُ

فالخفاء، بالقصر: الشىء الخفى. والنجوى: مشتقة من طلب النجاة؛ لأن بصيانة السر تحصل السلامة، وقيل: هى مشتقة من النجوة: وهى الأرض التى لا عمارة فيها؛ لأن المتناجين يطلبان محلاً خاليا من الناس.

روى أنه ما أذيع سر إلا كانت إذاعته سبباً للتلف، قال الله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَا بُنَى لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]، فلما أفضى يوسف رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت امرأته أخوته؛ فحل به ما حل. ولقد أرشد الله أهل عنايته إلى كتمان السر وتبجيله، بما حكاه عن خلوته بصفيه وخليله، بمستوى وحيه وتنزيله، فقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وفى الحديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود»^(١).

(١) حديث «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان»... إلخ. ضعيف، رواه الطبرانى وأبو نعيم بسند ضعيف، والبيهقى وابن أبى الدنيا بسند فيه سعيد بن سلام وقد كذبه أحمد. والعسكرى بسند ضعيف وفيه انقطاع، واللفظ عند أكثرهم: «استعينوا على إنجاز حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود».

وأورده بهذا اللفظ صاحب الكشف تحت رقم ٣٤٢، والله أعلم.

وقال على كرم الله وجهه: سرك أسيرك، فإذا تكلمت به صرت أسيره.
واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجوداً من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من
كتمان الأسرار؛ لأن الأموال تحرز بالأبواب والأقفال، والأسرار بارزة يدفعها لسان
ناطق، ويشيعها كلام سابق، فإن الرجل يكون سره في قلبه؛ فيلحقه من القلق
والكرب ما لا يلحق من حمل الأثقال، فإذا أذاعه سكن قلبه، واستراح خاطره،
وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً.

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية، والشفاه أفعالها، والألسن مفاتيحها؛
فليحفظ كل إنسان مفاتيح سره.

ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، والأسرار
كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها.

قال أنوشروان: من حسن سره فله بتحصيله خصلتان: الظفر بحاجته، والسلامة
من السطوات.

قال كعب بن سعيد القنوي: (من بحر الطويل)

ولست بمبد للرجال سريرتي ولا أنا عن أسرارهم بسؤول

وقال أبو مسلم صاحب الدولة: (من بحر البسيط)

قد نلت بالعزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مهان أشدوا

ما زالت أسعى بجهد في دمارهم والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا

ما زلت أضربهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أجد

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

قال بعضهم لرجل استودع أحمضت؟ قال: بل نسيت.

وقال المهلب بن أبي صفرة: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه
نسيانه ما أسر إليه.

(١) رواية الذهبى فى سير أعلام النبلاء لهذا البيت هى:

طفقت أسعى عليهم فى ديارهم والقوم فى ملكهم بالشام قد رقدوا

ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر: (من بحر الكامل)

ولها سرائر بالضمير طويتها نسي الضمير بأنها في طيه

وفيل: كتمان السر يدل على جوهرة الرجل، كما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها فكذلك لا خير في لسان لا يمسك سره.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ومستودعي سرًا كتمت مكانه عن الحسن خسوفًا أن ينم به الحسن

وخفت عليه من هوى النفس شهوة فأودعته من حيث لا تعلم النفس

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: (من بحر الطويل)

وناس أمناهم فأفشوا حديثنا فلما كتمنا السر عنهم تقولوا

وقال المتنبي: (من بحر الطويل)

وللسر منى موضع لا يناله نديم ولا يفضى إليه شراب

قوله: الخفاء، بالمد: الغطاء، بالغين المعجمة، من أى شىء كان، وهو خبر كن. والجوى: هنا النتن، وكنى به عن قبح إفشاء السر، ودناءة صاحبه، وعدم نظره إلى عواقب إفشاء السر، وما يؤول إليه من المفاسد، وأراد الناظم بذلك لازم معنى النتن من القبح وسوء الطوية والبعد عن مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويصح أن يكون لفظيًا؛ فالجوى استعارة لإفشاء السر. والجواء، بالمد والكسر: جمع جواء وهو المكان المظمن، وخصهما على ما قاله لأن سكناه إنما يكون فى المصالحة والمهادنة. يقول: وكن للسر الخفى غطاء، كفى ذلك الغطاء قبح إفشاء السر، فبالصون للسر من الإفشاء أى بكتمانه تصان جواء، ويدوم الأمن والمصالحة والحياء، وتتأى عن الساحة الأعداء والاعتداء، وتتألف الأهواء، وتقل بسبب ذلك الشكوى والشكواء^(١)، ويرفع البلا والبلواء، وتكثر الآلاء، وتزول اللأواء^(٢)، وتقطع الشحناء، وتحل مكان الضراء السراء، وتنجلي الأزمات وتحل مكانها

(١) الشكواء، بالمد: المرض.

(٢) اللأواء: الشدة والضيق.

السراء . جعلنا الله ممن يسره لليسرى ، وفتح عليه باب الذكرى ، وأصلح له الدنيا والأخرى ، آمين بجاه الأمين .

• قال رحمه الله:

٧٥- تَوَقَّ الرَّدَى وَالْبَسُ رِدَاءً مِنَ التَّقَى لَعَلَّ الشِّفَا يُلْفَى لَدَيْهِ شِفَاءُ

قوله: توق: أى احتفظ من الردى أى الهلاك مصدر ردى بالكسر إذا هلك، والبس رداء كائنا من التقى، لعل الشفا، بالقصر والفتح: وهو طرف كل شىء، والمراد به هنا آخر العمر، يوجد عنده شفاء، بالمد والكسر: أى براء أو ما يقع به البرء من الأدوية وشبهها؛ فالردى هنا كناية عن المهلكات من الذنوب الموبقات، أو ما يجر إليه من الأهواء والانكباب على الشهوات، فإذا لبست درع الصيانة، وجعلت على رأسك بيضة الأمانة، وأخذت بشمالك جنة التقوى، وهززت بيمينك صارم التوكل والنجوى، فقد أخذت أهبة النجاة من المهالك، وسلكت أنجح المسالك، واستحصلت ما ضاع عليك بأفضل المدارك فاستدركته، وجز حيثئذ بسيف العزم مسافة التسويف، وعُلَّ بعد الأثخان^(١) علة برمح التعريف، تجد كلما أشفيت على المخاوف ظهيراً من اللطيف، يجبر كسر الضعيف، عندما يطوف به طائف من الشيطان المخيف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] بدفع مكائده وسد ثغور مصائده، وتحصنوا بالتوبة النصوح من الغى والفضوح^(٢)، فوقع الشفاء، وحصل بعد الشفا على الخطوة الاصطفاء، فاضمحل المحذور، ووقع الأمن والسرور، وانحسم الغرور، وتضاعف الجبور، فأصبح العيش هنياً والفقير غنياً.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وَجَزَّ بِسَيْفِ الْعَزْمِ سَوْفَ وَلَا تَكُنْ وَإِيَّاكَ عَلَّ فَهَى أَخْطَرِ عِلَّةٍ

قال الرسول ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيراً بصره بأمره وجعل له كلما عثر من

(١) الأثخان: الجراح الشديدة.

(٢) كذا فى الأصلين: الفضوح.

ينبهه من نومه، وإذا أراد الله بعبده سوءاً لم يجعل له منبهاً وتركه ونفسه».

يروى أن رجلاً من السلف كان له ورد من صلاة، وكان له محراب، فغلبته عيناه ليلة، فبينما هو نائم إذ محرابه قد انشق عن سبع جوار: ستة منهن عليهن الحلى والحلل وكان وجوههن أقمار صحو، وإذا معهن جارية سوداء شوهاء منتنة الرائحة، فقال لها: مالك أيتها الجارية قد شوه الله خلقك بين صواحباتك؟ فقالت: أو ما تعرفنى؟ قال لها: لا والله ما أعرفك وهذه صورتك، فقالت له: أنا ليلتك هذه التى نمتها، ثم أنشدت فقالت: (من بحر البسيط)

اضرع إلى الله فى ردى إلى حالى	فأنت شوهت شكلى بين أشكالى
لا ترقدن الليالى ما حييت فإن	نمت الليالى فهى الدهر أمثالى
نحن السرور لمن نال السرور بنا	جوف الظلام بسكنى المنزل العالى
وقد أردت بخير إذ وعظت بنا	فأبشر فأنت من الموالى على بال

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الاعراف: ٢٦] لأنه أستر للعورات، وأدفع للروعات، وأنفع فى الماضى والآت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ (١) [مريم: ٧٢]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] أمدنا الله باليقين، وجعلنا من حزبه المتقين.

• ثم قال رحمه الله:

٧٦ - وَشِبْهُ الْهَجَا أَهْلُ الْهَجَاءِ فَلَا تَكُنْ (٢)

حَجَا مَعْشَرَ هُمْ بِالْهَجَاءِ حِجَاءٌ

قوله: وشبه الهجا: فيه تقديم وتأخير، وترتيبه: أهل الهجاء، أى أصحاب الهجاء، شبه الهجا وهى الضفادع، لأنهم ينطقون ويصوتون بغير فائدة كالضفادع

(١) جثيا: جمع جاث: جلس على ركبته، أو قام على أطراف أصابعه.

(٢) فى النسحة (ب): فلا تظر، وعليها شرح المؤلف.

فى الماء، بل الضفداع خير منهم لأنها ترفع أصواتها بذكر الله، إلا أنها لا تفهم، لقوله ﷺ: «إن الله لم يخلق دابة من دواب البر ولا من دواب البحر أعبد ولا أكثر ذكراً من الضفدعة».

ولذلك قيل بتحريمها لكثرة ذكرها لله، ويكون تحريمها حرمة لا تحريم خبث ولا فساد كتحریم لحم الإنسان، كما قال الدميرى.

ويروى عن على كرم الله وجهه أنها تقول فى نقيقتها^(١): سبحان الواحد القهار، سبحان المعبود فى البحر والقفار. ذكره فى جملة من أذكار الحيوانات لما سأله عن ذلك حبر من أحبار يهود، فأجابته عنه كما فى التوراة، انظر البحر المحيط عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: ما من حيوان يصوت إلا ذكر الله ما عدا الحمار والغراب فإنهما يلعبان العشارين فإذا رعى البعير فإنه يقول: حسبي الله، وكفى بالله وكياً. وإذا حن فإنه يقول: كيف يستطيع السكوت من لم يجد القوت؟! وأما الفرس فإنه يقول: سبحان الله حافظى إذا التقت الأبطال واشتغل الرجال بالرجال. ويقول كلما أصبح وأمسى: اللهم من ملكته ناصيتى فاجعلنى من أحب أمواله إليه. وتقول الشاة فى ثغائها: سبحان اللطيف رازق الضعيف. وتقول البقرة فى حوارها: سبحان من بسط رزقه ولم يضيع خلقه. وتقول الفأجة^(٢) فى هديرها: سبحان من أحاط بكل شىء علماً، وأحصى كل شىء عدداً. ويقول الديك فى تأذينه: اذكروا ربكم يا غافلون. ويقول الصرد فى ضجيجه: سبحان من لا ينسى من ذكره ولا يكرم من كفره. الى غير ذلك مما يطول ذكره ولا تحمله هذه العجالة المختصرة.

فالهجاء، بالكسبر والمد: المشائمة بالأشعار على وجه المبالغة، وهو مما لا ينبغى شرعاً ولا عادة.

قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إذا عظمت على أمتى الدنيا رفعت عنها

(١) النقيق: صوت الضفداع.

(٢) الفأجة: كذا فى الأصلين، ولعل المراد الفالج، وهو الجمل الضخم ذو السنامين، ويسمى كذلك

الدهانج. ذكره الدميرى (٢/٢٠٢).

هيبة الإسلام، وإذا لم يتناهوا عن منكر فعلوه رفعت عنهم بركة الوحي، وإذا تسابوا وتهاجوا أسقطوا من عين الله».

والحجاء، بالفتح والقصر: الناحية. والحجاء، بالكسر والمد: جمع حجاج، وهو الفرج، كأنه يقول: أهل المشائمة بالأشعار في الأشرار شبه الضفادع؛ فلا تحم حول ناحية معشرهم. وهم مولعون بالمشائمة بالشعر. فلا تظر: يقال: طاره يطروه طوراً: حام حوله. والحجاء أيضاً: الفرج، وتصح إرادته هنا بأن يكون المعنى هم فروج أى مثلها في الاستقذار، والحجاء يطلق ويراد به الولوع بالشئ، والحجاء: العاقل.

وهذا حيث لم يكن الهجو محموداً، وهو على قسمين: محمود ومذموم: فالمحمود منه: ما كان في توهين الشرك، وذم أهله، وتحقير الفجور، وشم أهل الشرك.

والمذموم: ما كان في شتم أعراض المسلمين، وهتك أستارهم وحرمتهم، والتفكك بلحومهم، وهذا حرام بلا خلاف، وقيح، ويجرح أهله، لكنه ينبغي تعلمه تدريجاً وتفصيلاً واستعداداً لرد مثله إن وقع من أهل الكفر والفجور؛ لقوله ﷺ: «من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا»^(١).

وإنما ينبغي تعلمه لما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجو ولا على صدق الشاعر فيما رماه به، فما كل مذموم بذميم، وقد يهجو الإنسان بهتاناً وظلماً وعبثاً وإرهاباً. وقال المتوكل لأبي العيناء: إلى كم تمدح الناس وتذمهم؟! قال: ما أحسنوا وأساءوا.

وقد رضى تعالى على عبده أيوب فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وغضب على عبد فقال: ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [١٢] عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِمَ^(٢) [القلم: ١٢، ١٣].

(١) حديث «من تعزى عليكم»... إلخ. رواه أحمد والنسائي وابن ماجه، وأورده صاحب الكشف

تحت رقم ٢٤٣٧.

(٢) الزنيم: الدعى.

وقال دعبل في المأمون بعد البيعة له وقتل الأمين: (من بحر الكامل)

إني من القوم الذين هم هم قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذك من الحضيض الأوهدي^(١)

فقال: ما أبهته ما أبهته! ليت شعري متى كنت حاملاً وفي حجر الخلافة ربيت

وبثديها رصعت؟!

ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس وحزن، ف قيل له: أتبكي عليه وقد

هجوته؟! فقال: ذلك لركوبى الهوى، بلغه أنى قلت فيه، (من بحر الطويل)

ولست وإن أظنبت في وصف جعفر بأول إنسان خرى في ثيابه^(٢)

فكتب إلى عامله أن يدفع لي عشرة آلاف درهم أغسل بها ثيابي.

ومن البعث بالهجو ما روى عن الخطيئة أنه أصبح وقد هم بهجاء، فلم يجد

من يستحقه إلا نفسه؛ فهجاها فقال: (من بحر الطويل)

أبت شفتاي اليوم إلا تكلمًا بسوء فلم أدرى لمن أنا قائلة

أرى لي وجهًا قبَّح الله خلقه وقبَّح من وجهه وقبَّح حامله

وعبث يوما بأمه فقال: (من بحر الوافر)

تنحى واقعدى منى بعيدًا أراح الله منك العالمينا

فغريبالاً إذا استودعت سرًا وكانونًا على المتحدثينا

حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

وقال رجل: ما أبالي أهجيت أم مدحت؛ فقال الأحنف بن قيس: أرحت

نفسك من حيث تعب الكرام، لأن الإنسان إذا كان لا يخشى على عرضه فقد

يستوى عنده المدح والذم، وبئس الرجل ذلك.

(١) الأوهدي: السحيق، وشطر البيت كما هو في العقد الفريد:

* رفعوا محلك بعد طول خموله *

(٢) (١٩٦/٢) عقد.

(٢) يعنى أنه ليس أول إنسان تغوط في ثيابه.

وكان الرجل من بنى نعيم إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بنى نعيم، فلما هجاهم جرير بقوله: (من بحر الوافر)

فغضَّ الطرف إنك من نعيم فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

صاروا إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل؟ قال: من بنى عامر. وما لقيت قبيلة من العرب من الهجو ما لقيت بنو نعيم من بيت جرير هذا^(١).

وهجا ابن بسام رجلاً فقال: (من بحر الخفيف)

يا طلوع الرقيب ما بين إلف وغريماً أتى على ميعاد^(٢) .

يا ركوداً في يوم غيم وصيف يا وجوه التجار يوم الكساد

يروى أن أهدى شعر قالتها العرب: (من بحر البسيط)

قوم إذا نبج الكلاب ضيفهم^٣ قالوا لأهمهم بولى على النار

فتمسك البول خوفاً أن تجود به ولا تبول لهم إلا بمقدار

وقصد ابن عينة قبيصة المهلبى فمدحه ولم يسمح له بشيء؛ فانصرف مغضباً،

فتوجه إليه داود بن زيد فأرضاه وأحسن إليه؛ فقال: (من بحر الكامل)

داود محمود وأنت مُدَّمٌ عجباً لذلك وأنتما من عود

ولرب عود قد يشق لمسجد ويكون باقيه لحش^(٣) يهود

فالحش أنت له وذاك لمسجد كم بين موضع مسلح^(٤) وسجود

هذا جزاؤك يا قبيص فإنه جادت يده وأنت مثل حديد

(١) وبعد هذا البيت قوله:

ولو وضعت شيوخ بنى نعيم على الميزان ما عدلت ذباباً

وهذا منتهى الذم.

(٢) فى (أ): أتى لغير ميعاد.

وفى النسختين: ما بين ألف، والعبارة غير واضحة.

(٣) الحش: الكنيف.

(٤) المسلح: مكان الغائط، أى المكان الذى ينز فيه.

وقال في هجاء خالد: (من بحر الطويل)

أبوك لنا غيث يعاش بوبله وأنت جراد لا تُبقي ولا تذرُ
له أثر في المكرمات يسرنا وأنت تُعفي دائماً ذلك الأثرُ

ويروى أن أبا دلامة دخل على المهدي وعنده إسماعيل بن علي وعيسى بن موسى والعباس بن محمد في جماعة من وجوه بني هاشم، فقال له المهدي: والله لئن لم تهج واحداً ممن هو في هذا البيت لأقطعن لسانك؛ فنظر إلى القوم، وتحير في أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد ويغمزه بأن عليه رضاه إن كف عنه؛ فأزداد حيرة؛ فلم ير له أسلم من أن يهجو نفسه، فقال: (من بحر الطويل)

ألا بلغ لديك أبا دلامه فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامةً وجمعت لؤماً كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
إذا لبس العمامة قلت قرداً وخنزيراً إذا وضع العمامه

فضحك القوم ولم يبق منهم إلا من أجازه.

وقال ابن الأعرابي: أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب في محمد ابن هاشم قال: (من بحر البسيط)

لم يند كفك من بذل النوال كما لم يند سيفك ممن قتلته بدم

ولابن منقذ بن طليب وقد احترقت داره: (من بحر الكامل)

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا قهراً إلى الأنوار بالأقذار
ما أوقد ابن طليب قط بداره ناراً وكان خرابها بالنار

وكان للوجيه بن سورة المضرى دار موصوفة بالحسن فاحترقت، فجعل فيها ابن

جهم هذه الأبيات: (من بحر الطويل)

أقول وقد عاينت دار ابن سورة وللنار فيها وجهة تتضرم
فما هو إلا كافر طال عمره فجاءته لما استبطأته جهنم

وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن المبارك الشهير بابن الأعمى في ذم دار

كان يسكنها فقال: (من بحر الكامل)

أن تسكن الحشرات في جنباتها
 والشرُّ دانٍ من جميع جهاتها
 كم أعدم الأجنانَ طيبَ سنّاتها
 غنت لها رقصت على نغماتها
 قد قدمت فيه على أخواتها^(١)
 من الشمس عن نظراتها^(٢)
 فينا وأين الأسدُ من وثباتها
 أبصارنا عن حصر كفيّاتها
 مع ليها ليست على عاداتها
 عنه العتاق الجرد في حملاتها
 في أرضها وعلت على جنباتها
 أودى الكمأة الصيد عن صهواتها
 مما يفوت العين كنه ذواتها
 قد قل ذرّ الشمس عن ذراتها
 ورق الحمام سجعن في سحراتها
 لا برء للملّسوع من لدغاتها
 فنعوذ بالرحمن من نزغاتها
 فينا حمانا الله لدغ حماتها
 ة ولا حياة لمن رأى حيّاتها
 والأرض قد نسجت بيراقتها

دار سكنت بها أقلُّ صفاتها
 الخير عنها نازح متباعد
 من بعض ما فيها البعوضُ عدمته^١
 وتبيت تسعدها براغيثُ متى
 رقص بتنقيط ولكن قافه
 وبها ذباب كالضباب يسد عي
 أين الصوارم والقنا من فتكها
 وبها من الخطاف ما هو معجز
 وبها خفافيش تطير نهارها
 وبها من الجرذان ما قد قصرت
 وبها خفافيس كالطنافيس أفرشت
 لو شم أهل الحرب مُنن فسوها
 وبناتُ وردانٍ وأشكالُ لها
 وبها من النمل السليمانى ما
 سجعت على أوكارها فظننتها
 وبها زنابيرٌ تظن عقارباً
 ما راعنى شيء سوى وزغاتها
 وبها عقارب كالبالغال فترتعى
 كيف السبيل إلى النجاة ولا نجا
 منسوجة بالعنكبوت سماؤها

(١) يعنى قرصاً.

(٢) فى إحدى النسخ المطبوعة:

فضجيجها كالرعد في جنباتها
 والبوم عاكفة على أرجائها
 والنار جزء من تلهب حرها
 شاهدت مكتوباً على أرجائها
 لا تقربوا منها وخافوها ولا
 أبداً يقول الداخولون بابها
 قالوا إذا ندب الغراب منازلنا
 وبادرنا ألف غراب ناعق
 صبراً لعل الله يعقب راحة
 دار تبيت الجن تحرس نفسها
 كم بت فيها مفرداً والعين من
 فأقول يا رب السماوات العلى
 أسكنتني بجهنم الدنيا وفي
 واجمع بمن أهواه شملى عاجلاً

جمع الله شملنا بدنيانا وأخرانا غير نخزايا ولا ندامى، آمين.

• ثم قال رحمه الله:

٧٧ - عَلَى الْغَرِّ يَخْفَى ذُو الْفَرَى لِفِرَائِهِ وَذِي الدَّارِ وَالنُّوَكَى فَلَاءٌ وَفَلَاءٌ

الغرة: الذي لا تجربة له بالأمر. والفرى: الدهش، مصدر فرى، بالكسر.

والفراء، بالمد والكسر: جمع فروة بمعنى ثروة: وهى كثرة المال. والنوكى: الحمقى، جمع أنوك.

قال الشاعر: (من بحر الرجز)

أَنُوكُ من عبد ومن عرسه من حَكَمَ العبد على نفسه

والفلا، بالفتح والقصر: جمع فلاة. والفلاء، بالمد والكسر: جمع فلو: وهو ولد الحمار.

يقول: على الغر يخفى دهش صاحب الدهش لكثرة ماله، لا على غير الغر فلا يخفى عليه، وهذه الدار، أى دار الدنيا، كالحلاء إذ لا يحصل فيها على طائل، والحمقى رتع فيها، لقصور همهم عليها، واكتفائهم بزرجونها^(١)، كجحوش الحمير فى الفلوات، يأكلون فيشبعون، ثم يروثون فيمرحون. ولذلك قال ﷺ: «لولا الحمقى لخربت الدنيا».

وقال ﷺ: «الدنيا جيفة وطالبها كلب».

يعنى أن كون الحمقى فى هذه الدار يشبه كون الفلاء فى الخلاء، لأن همهم مقصورة على الأكل والشرب ونزو بعضهم على بعض، فإذا أحسوا بخطر نفروا فتفرقوا، فإذا غاب عنهم رتعوا حتى يؤخذوا فى غراتهم أو مأمهم. ومن أعظم النوكى أهل القرى لأجل الفراء؛ لأن لهم شبيهاً بالفلا فى الفلاء.

تنبيه: أفاد الإتيان بقوله: «وذى الدار... إلى آخره» عقب ما ضمن تقديم حالهم من عدم فراهم لأجل فراهم تنبيهاً على غير الغر، وهذا يقال لختم التنبيه به.

وقد تضمن نكتة يتم المعنى بدونها، وتلك النكتة هى تمثيل حالهم فى الدنيا بحال الفلا.

وفى البيت من البديع الاقتباس لتضمنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَفِرَّةٌ﴾ [٥٠] فرّت من قسورة ﴿[المدر: ٥٠، ٥١].

(١) الزرجون: صبغ أحمر، والمراد: الزخرف، والكلمة فارسية.

• ثم قال رحمة الله عليه:

٧٨ - يَرَى ذُو الْحِنا ذَاتَ الْحِنا فَيَرْتَجِي حَظِي بَاطِلاً وَالْحَادِثَاتُ حِظَاءُ

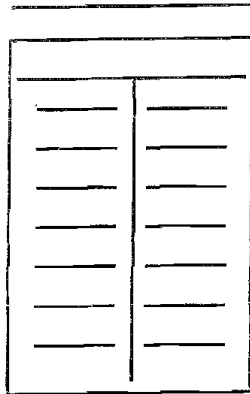
قوله: يرى ذو الحنا: أى يبصر المرء صاحب الحنا؛ أى انحناء الظهر من الكبر المرأة صاحبة الحناء، بالمد والكسر: أى التى تشتهى الفحل وهو مصدر حنيت الشاة: إذا اشتهدت الفحل؛ فيرتجى ذو الحنا بسبب رؤيته ذات الحناء حظياً، بالفتح والتخفيف والقصر: أى ظفراً منها بمراده، وهو مصدر حظ، بالشىء، بالكسر: إذا سعد به باطلاً؛ لأن حوادث الدهر قد تحول بينه وبين ما رجاه، وقد بين ذلك بقوله: «والحادثات حظاء» أى: سهام مصيبة له قبل أن ينال ما ارتجاه.

وجملة قوله: «والحادثات حظاء» تذييلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها أكدت مفهوم قوله: «باطلاً»؛ لأن ذلك يفهم أنه لا يدرك ما ارتجاه لمانع، وإلا كان حقاً لا باطلاً، وفى ذلك نظر؛ لأن الجملة بحسب هذا أنها ليست تذييلية فتكون حالاً من فاعل يرتجى.

والبيت مفرغ فى قالب التمثيل. وذو الحنا عبارة عن طلب الدنيا، وهو مع قرب أجله يحاول كل ما دعاه إليه هواه، ولو كان لا يصل إليه بحال وإن نواه، لتغطية غبار حبه شعاع بصيرته ولبه.

قال عليه السلام: «الحب يعمى ويصم». وفى رواية: «حبك الشىء يعمى ويصم»^(١).

يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس بين أصحابه إذ خط خطاً مربعاً هكذا:



(١) حديث «حبك الشىء يعمى ويصم» ضعيف، رواه أبو داود موقوفاً ومرفوعاً، كما رواه أحمد، =

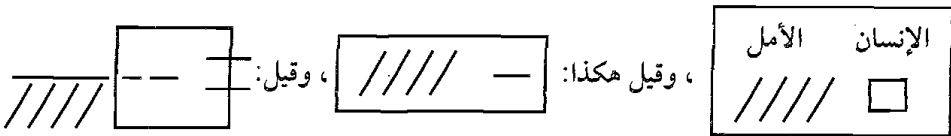
ثم خط في وسطه خطاً مستقيماً، ثم خطوطاً صغاراً عن يمينه وعن شماله، ثم خط خطاً مستعرضاً بين المربع والمستطيل وراء الجميع فقبل له: ما هذا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: «أما الخط المربع فإنه القدر المحيط، وأما الخط المستطيل فإنه الأجل والمدة، وأما الخطوط الصغار فما يلاقيه من الأعراض، وأما الخط الخارج من وراء الجميع فإنه الأمل، وأما الخط المستعرض دون المربع ووراء المستطيل فإنه الموت، فلا يزال المرء يسعى في طلب الأمل حتى فاجئه دونه الموت ويحيط به القدر»^(١).

ولذلك كان على رضى الله عنه يقول في بعض مناجاته وهو يخاطب الدنيا فيقول لها: إلى تعرضت، أو إلى تشوقت، هيهات لما طلبت! فإننى قد طلقتك ثلاثاً، عمرك قصير، وشأنك حقير، وخطرك خطير، تباً لمن غره تمويهك، أو زاغ به تزويقك، فعهدك مكذوب، وعزك مسلوب، وصاحبك عليك مغلوب، بعدما هو على شهواتك مكبوب، فأنت سريعة الانقلاب، وشبكة الخراب، حظ الحمير

= وفى سننه ابن أبى مريم وهو ضعيف، وقد أورده الصغاني وحكم عليه بالوضع، وتعقبه العراقى قائلا: إن ابن أبى مريم لم يتهمه أحد بالكذب إنما سرق عليه حلى فأنكر عقله. وقال الحافظ ابن حجر تبعاً للعراقى: يكفيننا سكوت أبى داود عليه؛ فليس بموضوع ولا شديد الضعف. وقال القارى بعد أن ناقش طريقه: فالحديث إما صحيح لذاته أو لغيره مرتق عن درجة الحسن لذاته وإن لم يثبت مبناه. اهـ.

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٠٩٥ بلفظ الشيخ وقال: فى سننه ابن أبى مريم، ضعيف. كما أورده السخاوى تحت رقم ٣٨١ وقال: رواه أبو داود والعسكرى من حديث بقة بن الوليد. إلى أن قال: وابن أبى مريم ضعيف، وأورد المناقشة المتقدمة باختصار، والله أعلم.

(١) حديث «بينما النبى ﷺ جالس بين أصحابه إذ خط خطاً مربعاً». إلخ. صحيح رواه البخارى فى كتاب الرقاق (باب فى الأمل)، كما رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه بألفاظ مختلفة ورسوم مختلفة كذلك، منها:



قال ابن حجر فى الفتح بعد أن أورد خمس صور: والأحاديث متوافقة على أن الأجل أقرب من الأمل، والله أعلم.

والكلاب، فظاهرك غرة، وباطنك عبرة، فلئن عبثت باللثام فقد عبث بك الكرام، يا عجباً لمن يعرفك ثم يركن إليك؛ لأنك غدارة غرارة، لا تفي بعهد ولا يوثق منك بود.

وذات الحناء هي الدنيا؛ لأن الله خلقها مهياً لآدم وبنيه، فالمؤمن يتزود، والكافر يأكل ويتمتع، والمنافق في ربه يتردد، والفاسق في غفلته يجهد، ولغيره يسعى ويحقد قال الله تعالى في حق المؤمنين: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي حق الكفار: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣].

وفي حق المنافقين: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

ثم وصفهم بكونهم في الدرك الأسفل من النار لتعظيمهم حرمة الخلق دون حرمة الخالق؛ فجازاهم بذلك جزاء وفاقاً، إذ يرجى للكافر من الخير ما لا يرجى للمنافق؛ إذ المنافق أضله الله على علم، بخلاف الكافر فإنما يمنعه من الإسلام حجاب الجهل أو مجرد التقليد، كقوله تعالى حكاية لقول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وربما منعه الإسلام نخوة التكبر بأن لا يرضى أن يكون ذنباً تابِعاً بعد أن كان متبوعاً. وأما الفاسق الخارج عن محض الطاعة خروجاً ما فإنما بينه وبين الفكرة رواق رقيق، فكلما تفكر وادكر فتقه فاعتبر، فإن طال اعتباره قاده إلى التوبة النصوح، وإلا بقى في تلوّيته ووحله وتنكيته.

فاللدينا سوق المتجر، والآخرة مدينة الجمع، والملائكة هم الوكلاء والنحاسون، والرب هو مالك السوق والمدينة، والثقلان عبيده، وقد بعثهم إلى السوق بجواهر نفيسة؛ فمن عرف حق الجواهر، وأدى واجب صون الأمانة، ولم يبخس سلعته بل ناقش عنها حتى ربح، فأفضل، وأتى برأس ماله سالماً، فأداه إلى الملك، وأراه الفضل، وعلم منه صيانة الأمانة، أكرمه ويجله، وفي دار كرامته أدخله. ومن أضاع الجواهر ولم يعرف لها قدرًا، وخان أمانته، ولم يصنها عن خطر، أو بخس في تجره، وضيع المال فباعه بدون قدره، أو أضاع رأس المال لتفريطه وتبذيره، ولم يأت بالفضل لسوء تدبيره، بعث إليه الملك زبانيته، وأمرهم بتوبيخه وتعزيره،

وأن يخبروه بطرده وتخسيره، فيأتوا به إلى الحضرة مغلولاً، مسربلاً باللعنة مخذولاً، فيأتون به وقد اسود محياه؛ إذ باع آخرته بدنياه، وقد انقطع من رحمة الله رجاءه، فينادى على رأسه باللعنة والتويخ، ثم يؤخذ بناصيته فيلقى في نار الزخيخ^(١)، فيجد ما قد استبعده قريباً؛ إذ لم يجعل له الرحمن من نور العقل نصيباً، فيلقى في نار جهنم ملوماً مخذولاً.

فهذه حالة الفريقين في دنياهم، وكيفية منقلبهم ومثواهم، جعلنا الله من حزبه الأمين من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، آمين بجاء النبي الأمين

• ثم قال رحمه الله:

٧٩ - وَمَا مِنْ تَوَى يُنْجِي التَّوَاءَ وَذُو النَّوَى

فَلَيْسَ بِمُدْنٍ مَا نَوَاهُ نَوَاءً

قوله: «وما من توى»: فما: نافية، ومن: حرف جر يدل على التعميم، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦٠]؛ لأن إتيانها بعد «ما» النافية يكسبها التعميم ويورثها العموم، كما في مختصر ابن الحاجب^(٢). والتوى، بالقصر والفتح: الهلاك. والتواء، بالكسر والمد: سمة من سمات الإبل كانت تفعله العرب في الجاهلية تدفع به إصابة العين. والتوى، بالقصر والفتح: ما ينوى المسافر بلوغه من سفره، وقد يعبر به عن البعد، ويطلق ويراد به الفرقة، ويطلق فيراد به المتأوأة وهي معالجة الشيء ومكابדתه. والنواء، بالكسر والمد: جمع ناو، وهو السمين من الإبل وغيرها ومن استعماله في سمن الإبل قول الأنصارية لحمزة ابن عبد المطلب رضى الله عنه: (من بحر الوافر)

ألا يا حمزُ للشرفِ النَّوَاءِ^(٣) فَهِنَّ مَعَقَلَاتٌ بِالْفَنَاءِ
ضِعُّ السَّكِينِ فِي اللَّبَاتِ مِنْهَا وَضَرَّجَهُنَّ حَمَزَةٌ بِالْدمَاءِ

(١) الزخيخ: يريق الجمر أو النار.

(٢) يريد أن النكرة في سياق النفي نص في العموم.

(٣) النواء، بكسر النون والمد مخففاً: جمع ناوية، وهي الناقة السمينة.

وكان قد ثمل، فرأت الأنصارية نياقاً سمائاً قد اشتراهن على رضى الله عنه ليولم بهن على فاطمة رضى الله عنها^(١)، فأتاهن حمزة رضى الله عنه فحرهن كلهن، فلم يفجع علياً رضى الله عنه - وقد أتى إليهن ليستاقهن - إلا وخواصرهن موضوعة على الأرض وقد سلخن؛ فسأل: من فعل هذا بشوارفى؟ فقيل له: عمك حمزة، فرجع إلى النبي ﷺ وهو مغضب فقال له: يا رسول الله ما لقيت كالיום من حمزة! فجعنى فى شوارفى ولم أجمعهن إلا بعد جهد؛ فذهب إليه النبي ﷺ، وقيل: أرسل إليه، فلما قام عليه قال له: ما حملك على ما صنعت بشوارف على ما صنعت؟ فصعد النظر فى رسول الله ﷺ ثم صوبه فقال: هل أنتم إلا عبيد أبى؟! فعلم رسول الله ﷺ أنه ثمل لا يعقل شيئاً، فذهب عنه وتركه.

فلما رجع رسول الله ﷺ قال له عمر: وددت يا رسول الله أن لو سألت الله تعالى فحرم الخمر على أمتك، فسكت عنه حتى أنزل عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فقالوا: إن الله لم يعزم فى تحريم الخمر؛ فشربه من شربه، وتركه من تركه.

ثم بعد ذلك بحين شرب رهط من الأنصار وكانوا إخوة أحياء فى الله، فلما ثملوا عبث بعضهم ببعض، ف وقعت بينهم خموش، فلما أفاقوا جعل الرجل يسأل: من خمشنى؟ فيقولون: أخوك فلان؛ فيقول: لو كان مشفقاً على ما فعل بى مثل هذا؛ ف وقعت بينهم الضغائن لذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى تحريم الخمر بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] فقال الصحابة: انتهينا ربنا انتهينا.

ويروى أنه وقع فيما بين الأمرين أن رهطاً من أهل العالية أدركتهم الصلاة

(١) لم يكن على اشترى الناقتين، ولا كان يريد أن يولم بهما، وإنما كان يريد أن يأتي عليهما بإذخير لبيعه ويستعين بثنه على الوليمة، وإحداهما كانت له من غنائم بدر والأخرى أعطاهها له رسول الله ﷺ من الخمس، والله أعلم.

(٢) قصة حمزة هذه صحيحة، رواها الشيخان بالفاظ تقرب أحياناً من لفظ الشيخ، وهى عند البخارى فى كتاب فرض الخمس ٥٧ باب (١).

فقدموا رجلاً منهم ليصلى بهم، فلما أحرم جعل يهذى، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «اللهم أفتنا في الخمر» فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فقال الصحابة: لا خير في شيء يحول بين المرء وصلاته؛ فتركته طائفة لذلك، وبقي من بقي متمسكاً بأصل الإباحة المتقدمة، فبعد ذلك بيسير بت الله تحريمه بنزول الآية المتقدمة آنفاً.

ومن: متعلقة بينجى. ونواء، آخر البيت: اسم ليس. وممدن: خبره، والباء زائدة فيه. وجملة «ليس بمدن.. إلى آخره» خبر مبتدأ وهو «ذو النوى» والمعنى: وما ينجى الوسم الذى فى الجمل والناقة صاحبه مما قضى الله عليه من إصابة العين وغيرها من الآفات. قال الشاعر: (من بحر الكامل).

وإذا المنية أنشبت أظفارها. ألفت كل تيممة لا تنفع

وصاحب البعد لا يقرب منه النوى الذى نواه إبل سمان إذا لم يقدر له ذلك؛ فحق على المرید السالك أن لا يسند وجود شيء إلى حادث إلا على سبيل الاقتران العادى والربط الخارجى، ويجزم أنه لا يقتضى أحدهم الآخر بحسب الحقيقة؛ فبان من هذا أن الاعتماد على سبب من الأسباب أو موجود من الموجودات مع إهمال الحقيقة وإغفال أمر الله مخل بالسلوك مُفسد للعقل، كما قدمت ذلك مبسوطاً فى صدر الكتاب؛ فيتأمل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

• ثم قال رحمه الله:

٨٠ - وَمَا كُلُّ مَاتَى ظِلٌّ مِتْنَاءَ رَفْقَةٍ وَلَا لَأَلَىٰ كُلِّ الْإِلَاءِ تَهَاءُ

الماتى، بالقصر والفتح: المذهب. والمتناء، بالكسر والمد: الطريق والمهجع المؤثر بكثرة السالكين. والألى، بالفتح والقصر: من ألى الحيوان: إذا عظمت أليته. والإلاء، بالمد والكسر: جمع ألية.

وكأنه يقول: ليس كل مذهب سلكته الرفاق فتأثر بسلوكهم فصار مهيجاً بمنج من سلكه من التلف بمجرد كونه مسلوفاً، فكذلك الطريقة والسنة لا تؤخذ من بطون الكتب بكون السلف قد أجمعوا على الأخذ بها والعمل بمقتضاها حتى

درجوا على ذلك؛ إذ لا بد من شيخ يريك شخوصها ويكشف لك شמושها، كما روى: أن العلم فى بطون الكتب ومفاتيحه فى صدور الرجال؛ فلا يؤخذ إلا على شخص واصل قد ارتضع ألبان الوصول ودربته أيدي الفحول؛ يريك مسالكها، ويجنبك مهالكها، حتى يوردك عذب زلالها، ويسمعك طيب مقالها، بل يفهمك فحو خطابها، فتتضلع من لذيد شرابها، قبل غوصك فى لجة عبابها، فإذا زال جلبابها، وفتح بابها، حتى يقول لك: ها أنت وربك، فاخرج أو ادرج، فرب مسلك لا يسلكه إلا الخريت الماهر العالم بالطريق وسهباها ونباتها وشعابها فإذا سلكه غيره هلك فيه حيرة، فلم تحصل نجاة ولا ميرة؛ فوقع عليه قول الشاعر:

(من بحر البسيط)

لما رأى واشقَّ إقعاصَ صاحبه ولا سبيل إلى عقلٍ ولا قودٍ
قالت له النفس إنى لا أرى طمعاً وإن مولاك لم يسلم ولم يصيدٍ

وكذلك أيضاً ليست كل آية عظيمة تُهاء: لغة فى تهيأ فى لألائها أى عظمها، فرب آية عظيمة شحمها رذل وعظمها به آفة وعلّة؛ فأكلها قد يحدث داء عضالاً. يقال: هاء الأمر، ويهاء ويهوى: أخذ له أهبتة كتهياً له، وهو من غريب اللغات ولو جاء به صاحب القاموس كذلك؛ فعلى هذا فالأصل: يهاء لها، فحذف اللام، وعَدَى الفعل بنفسه، فقال: تهاء، بضم التاء: مبنى لما لم يسم فاعله، وهو ضمير لإلاء، بالمد، أو ضمّنه معنى تهيأ.

وهذا كله تمثيل أشار به إلى أنه لا بد للمريد السالك من مصاحبة الدليل المرشد، وهو الذى تسلك به الفلوات التى تتحير فيها الأدلاء، وتقطع بها المفاوز والمجاهل الفيحاء^(١)، التى تضل فيها القطا، وتقل فيها آثار الخطا، ويكشف عن الأدلاء الغطا، وتهابها الخيطة والخيطة^(٢) لوسع المطا وقلّة المطا^(٣)، ولا بد له حيثئذ

(١) كذا فى (أ): الفيحاء، وفى (ب): الفيح، والأول أصح، ومعنى الفيحاء الواسعة.

(٢) الخيطة: النعام. الخيطة: الجماعة من النعام والجراد.

(٣) المطى الأولى: مسافة السير أو امتداد السير، والثانية: الظهر: أى ما يركب عليه من المطى.

وفى النسخة (ب) زيادة: (ويكثر فيها الخطا وتكثر فيها آخر الخطا)، بعد قوله: (ويضل فيها القطا).

من العلم النافع في المهيعين الذي يقف به على عين ما أبيضت له تناوله قطعاً، فيتناوله على بصيرة من أمره، وبينه من ربه، ويتلوها شاهد من نفسه، يعين له ما تشابه فيتركه، وما ينبغي فيسلكه، وما يقربه من ربه فيجعله هجيرةً، فيكون نصب عينيه، ولا يخطر بباله خطر، ولا يقوده إلا ما لا ينبغي وطراً؛ فيصل وإن سار الهوينا كما قال الشاعر: (من بحر الرجز)

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى الهرينا وتجي في الأول

وإنما يجتنب وقوع الخطر من استحضار الحذر، إذا ساعده بمساعدة القدر، وليس كل متسمن بسمين، ولا كل متدين بمدين، ولا كل متورم بسمين؛ إذ ليس المتنبئ كالتبئ، ولا المتولى كالولى؛ إذ المتألى على الله يكذبه، والكاذب عليه يعذبه. لأن النبي ﷺ لم يتقول إسماعيلي النبوة قبله صيانةً لناموس الوحي، وإرهاصاً للنبي ﷺ، وتأسيساً لنبوته.

يروى أن شيخاً من بنى عامر كان كلما رجع حجاج بنى عامر سألهم: هل حدثَ حدثٌ بالحرم؟ أو هل خالف على قريش رجل منهم؟ حتى قدموا عليه حجتهم التي عرض عليهم فيها رسول الله ﷺ نفسه، فسألهم كما كان يسألهم؛ فقالوا له: لا، إلا أنه أتانا فتى من قريش ثم من بنى هاشم، فعرض علينا نفسه يزعم أنه رسول الله إلى الناس على أن نحمله إلى بلدنا ونمنع ظهره حتى يؤدي رسالة ربه، فأبينا عليه، وآذاه من آذاه من سفهائنا. فلما سمع ذلك ضرب يديه على رأسه وقال: هل لذناهاها من تلاق^(١)؟ أين ذهبت عنكم عقولكم يا بنى عامر؟! والله ما تقولها إسماعيلي قبله. فقالوا: إن قومه يكذبونه، فقال: والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون، ولو أنكم أخذتموه لنتم به شرف الحياة وفوز الممات.

فلما ثبتت نبوته ﷺ وظهر أمر الله وهم كارهون ادعى رجال النبوة طمعاً في نيل ما ناله النبي ﷺ واستدراجاً من الشيطان؛ فوكلهم الله إلى أنفسهم: كمسيلمة الكذاب من بنى حنيفة، والأسود العنسي من مذحج، وطليحة من بنى أسد، وسجاح من بنى تميم، وذلك قبل موت النبي ﷺ بقريب أو بعده بقريب. أما

(١) هل لذناهاها من تلاق؟: مثل يضرب للأمر المهم الذي فات، ومعناه: هل لهذا الأمر العظيم من

مسيلمة والأسود العنسى فقد أخبر بهما قبل موته بقريب، كما فى الصحيح قال: «رأيت فيما يرى النائم سوارين فى يدى من ذهب وقد أهمنى أمرهما؛ فنفختهما، فطارا، فقالوا: يا رسول الله، ما أولتهما؟ فقال: أولتهما كذابين، أما أحدهما فالأسود العنسى باليمن، وأما الثانى فمسيلمة بن خليفة باليمامة، وإنما سيقتلان بعدى؛ أما الأسود العنسى فيقتله العبد الصالح فيروز، وأما مسيلمة الكذاب فإن أصحابى سيقتلونه من بعدى»^(١).

وأخبر ﷺ «بأن تقيفاً سيكون فيهم كذاب ومبير»^(٢): أما الكذاب فالمختار بن عبيد بن عمرو بن عمير بن ياليل بن عبد كلال بن مالك الثقفى. وأما المبير فالحجاج بن يوسف. فأمكن الله من الجميع، فاستأصلهم ومحا آثار أباطيلهم التى تمجها الأذان وتنف منها الأذهان.

وكذلك كلما أظهر الله ولياً ادعى أقوام جهلة الولاية؛ فيكذبهم الله ويفضحهم، لظهور جهلهم، وكسوف أنوارهم، ونفور الطبع من أخبارهم، فيموهون والنَّاقِد بصير، ويسرقون والمالك خبير؛ فيكونون كالزبد على وجه الماء، فيظن أنه علا، بل ذهب وخلا^(٣). قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ

(١) حديث «رأيت فيما يرى النائم سوارين»... إلخ. صحيح رواه مسلم فى كتاب (الرؤيا) بالفاظ كثيرة كما رواه غيره (٥٨/٧).

ولفظ مسلم فى إحدى رواياته: «بيننا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب أهمنى شأنهما، فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما، فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى. فكان أحدهما العنسى صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة». انتهى.
أما الزيادة التى أورد الشيخ وهى «سيقتلان بعدى»... إلخ. فلم أجد لها من كلام النبى ﷺ، والعلم عند الله.

(٢) حديث «أن فى ثقيف كذاباً ومبيراً»... إلخ. صحيح أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل (١٩٠/٧) كما أخرجه غيره فى قصة قتل الحجاج بن يوسف لعبد الله بن الزبير وصلبه إياه، وأن أمه أسماء قالت للحجاج حديث رسول الله ﷺ: «أن فى ثقيف كذاباً ومبيراً»، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه.

ومعنى المبير: المهلك، ومعناه: كثير القتل، الكلام الأخير تفسير من أسماء للحديث، والله أعلم.

(٣) فى النسخة (ب) بعد خلا: (ويظن أنه غالب فإذا هو منعدم ذاهب، فصار جفاء قد حملته الرياح وألقته على السفاح، فصار هباء لا زبداً ولا ماء)، وهذا ليس فى (أ).

فِي الْأَرْضِ ﴿ [الرعد: ١٧]، نفعنا الله بما آتانا، وبارك لنا فيما أولانا وتولانا في آخرتنا وأولانا، آمين بجاه النبي الأمين.

• ثم قال رحمه الله:

٨١ - وَهَذَا الْجَأَى فَإِنِّي الْجِئَاءُ يَسُوسُهُ وَلَيْقُ الدَّوَى لِلْكَاتِبِينَ دِوَاءُ

الجأى: بالفتح والقصر: هو الكميت من الخيل، وهو الذي يُخالط حمرة سواد، وهو من أحب الشيثات^(١) إلى العرب. قال الشاعر: (من بحر البسيط)
يا خير من فرحت كمت الجياد به عند الهياج إذا ما استوقد الشرر
وقال قيس بن زهير في حرب داحس: لم يصبر معنا في حربنا هذا إلا
الكميتات من الخيل، وسمر النعم، وبنات العم.

والجأى، بالفتح، وهو مصدر جئى الفرس فهو جأى: إذا كان أحمر إلى السواد. والجيءاء، بالمد والكسر: جمع جئات: وهى غشاء القدر أو شىء يوضع عليه من جلد أو غيره. وقيل: الجيئاء: هو ما يكسوها، تقول: جأوت الشىء أجؤوه إذا كسوته. قوله: يسوسه: يديره بالرياضة. والدوى، بالفتح والقصر: جمع دواة، ووزن الدواة «فَعَلَّة» بالتحريك كشجرة، وأصلها دَوِيَّةٌ، فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، واشتقاقها من الدواء لأن بها صلاح أمر الكتابة. وليقتها: جعل الليقة فيها: وهو المداد، وقيل: الليقة جمع المذاد والصوف، مصدر ألقتهأ فهى مليقة، ويقال: ألقتهأ أيضاً فهى ملاقة، ولا يقال لصوفتها إذا بلت، وقيل: ذلك يقال لها حيث خلطت بالمداد من غير بلل وإلا فهى صوفة. والدواء: بكسر الدال والمد: مصدر دوى الشىء كالمداواة إذا أصلح وأتقن، ويقال: دوى الشىء: إذا تم، ودوى النهار: إذا اشتد حره، ودوى إذا صار له دوى كدوى النحل. وأما الدواء، بالفتح: فاسم ما يتداوى به.

ومعنى البيت: فهذا الفرس ذو الجأى، وهو الجون، جعله نفس الجأى مبالغة لاشتداد جوائته حتى كأنه نفس الجأى، كقول الشاعر:

(١) الشيثات: جمع شيثة: كل لون يخالف معظم لون الشىء.

قد سنه غلمان أشؤم (١)

أى ذؤؤ شؤؤم، وكما يسمى ذو النرح فرحاً، يسوسه فانى الجأى لا غيره؛ إذ تقديم الفاعل يدل على الحصر، وهذا إشارة إلى كرم صاحبه واشتغاله بإطعام الطعام لاستحضاره القدور لنضجه وأوعيته وهى الجئاء إذ من عال آلة كلفها، والله يعين المرء على قدر همته، ويجعل معونته على قدر مؤونته.

يروى أن النبى ﷺ قال: «رأيت جفنة ابن جدعان يأكل منها الراكب». وهو رجل من بنى تميم بن مرة.

وكان هاشم بن عبد مناف يطعم الطعام فى جاهليته جبلة من الله جبلة عليها، وما جعل فى صلبه من نور النبوة، وكان قد ولى السقاية والرفادة، وكان فيما يزعمون إذا حضر الحج فام صبيحة هلال ذى الحجة ويأتى البيت، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها، فيحضر قومه على رفادة الحاج التى سنها لهم قصى بن كلاب، فيقول لهم فى خطبته: يا معشر قريش أنتم سادات العرب، أحسنها وجوهاً، وأعظمها أحلاماً، وأوسط العرب أنساباً، وأقرب العرب بالعرب أرحاماً، يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله، أكرمكم الله بولايته، وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل، حفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره، وإنه يأتىكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته؛ فهم أضياف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه؛ فأكرموا ضيفه وزواره، فإنهم يأتون شعناً غبراً من كل بلد على ضوامر كالقداح، وقد أزحفوا وأرملوا؛ فاقروهم وأعينوهم، فورب هذه البنية لو كان لى مال يحمل ذلك لكفيتكموهم، وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله ما لم تقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يؤخذ فيه حرام فواضعه، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعله؛ وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً لم تقطع فيه رحم ولم يؤخذ غصباً.

فكانت بنو كعب بن لؤى وسائر قريش يجتهدون فى ذلك، ويتراقدون^(٢) عليه حتى يأتوا به هاشم بن عبد مناف، فيضعونه فى داره. وكان هاشم يخرج فى كل

(١) هذا الشطر بدون عجز فى النسختين.

(٢) تراقدوا: تعاونوا، أى يرفد بعضهم بعضاً.

سنة مالا كثيراً، وكان قوم من قريش أهل يسار ربما أرسل كل رجل منهم مائة مثقال هرقلية^(١)، وكان هاشم يأسر بحياض من آدم^(٢)، فتجعل فى موضع زمزم من قبل أن يحفر، ثم يستقى فيها الآبار التى فى مكة قبل التروية^(٣) بيوم، ثم يبنى، ثم يجمع^(٤) وعرفة، يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر، ويجعل لهم الماء، فيطعمهم ويسقيهم حتى يصدروا، وكان اسم هاشم عمراً، ويقال له: عمرو العلاء، وإنما سمي هاشمًا لهشمه الخبز لقومه بمكة، وهو أول من سن الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، وفى ذلك يقول بعض الشعراء: (من بحر الكامل)

عمرو العلاء هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف^(٥)
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأضياف

ثم ولى ذلك عبد المطلب بعده، ولما هلك عبد المطلب ولى زمزم والسقاية ابنه العباس وهو يومئذ من أحدث إخوته سنًا؛ فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده، فأقرها له رسول الله ﷺ على ما مضى من ولايته.

وكان ﷺ يجله إجلال الولد للوالد، يقول كريب مولى ابن عباس: وما ينبغى لرسول الله ﷺ أن يجل إلا والدًا أو عمًا فضيلة خص الله بها العباس دون من سواه.

وقال ﷺ: «احفظونى فى عمى العباس؛ فإن عم الرجل صنو أبيه»^(٦).

(١) هرقلية: منسوبة إلى هرقل.

(٢) الأدم: الجلد.

(٣) يوم التروية: هو اليوم الثامن من شهر ذى الحجة، وهو اليوم الذى يروى فيه الحجاج ويذهبون إلى منى.

(٤) جمع: مزدلفة.

(٥) مستنون: أصابهم سنة أى هم مصابون بجذب وشدة، وعجز هذا البيت فى النسختين:

* تقوم بمكة مستنين عجاف *

وهى رواية ابن هشام (١/١٤٥) وما أثبتناه رواية اللسان (٢/٤٦) وهى أصح، والله أعلم.

(٦) حديث «احفظونى فى عمى العباس فإن عم الرجل صنو أبيه» رواه أبو بكر فى الغيلانيات له، وأورده السيوطى فى جامعه تحت رقم ٥٦٢١ ورمز له بالحسن، وسكت عليه المناوى ولفظه: «عمى وصنو أبى العباس».

وظلع يوماً على رسول الله ﷺ فقال: «هذا العباس أجود قریش كفاً، وأوصلها للرحم»^(١).

ولم يزل العباس سيِّداً في الجاهلية والإسلام؛ يمنع الجار، ويبدل المال، ويعطى في النوائب.

قال الزبير: كان للعباس بن عبد المطلب ثوب لعارى بنى هاشم، وجفنة لجائعهم، ومقطرة لجاهلهم، والمقطرة: خشبة ذات سلسلة يحبس فيها الناس. وفي ذلك يقول إبراهيم بن علي بن هرمة: (من بحر الطويل)

وكان لعباس ثلاثٌ يعدُّها إذا ما جناب الحى أصبح أشهبها
فسلسلة تنهى الظلوم وجفنة تناخ فيكسوها السنام المرغبا
وحلة عصب ما تزال معدةً لعار ضريك ثوبه قد تهدباً

قال ابن شهاب: لقد جاء الله بالإسلام وإن جفنة العباس لتدور على فقراء بنى هاشم، وإن قيده وسوطه لمعدان لسفهائهم. قال: فكان ابن عمر يقول: هذا والله الشرف: يطعم الجائع، ويؤدب السفیه، ويكسر العارى. وكان ابنه عبد الله ترجمان القرآن كذلك. ثم تداولت وتوارثت إطعام الطعام الخلفاء والصالحون إلى يومنا هذا، وذلك من أشرف الشرف، وأدنى القربيات إلى الله إن صحت النية.

وليقُ الدوى مداواة للكاتبين لا لغيرهم، وهذا تنظير^(٢) وتمثيل لكون الأشياء لمن هى له لا لكل أحد؛ إذ ليس الشبعان كالمشيع، ولا المطبوع كالمطبع، فإطعام الطعام - وإن كان من أشرف الشرف - فإنه من أصعب الكلف، فيحتاج إلى طبع

= ورواه الطبرانى بلفظ: «استوصوا بالعباس خيراً فإنه بقية أبائى فأما عم الرجل صنو أبيه»، قال الهيثمى: وفيه عبد الله بن خراش، وهو ضعيف، ووثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ، وبقية رجاله وثقوا (٢٦٩/٩) مجمع.

(١) حديث «هذا العباس أجود قریش... إلخ» حديث حسن رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط له بالفاظ متقاربة.

قال الهيثمى: وفيه محمد بن طلحة التيمى وثقه غير واحد، وبقية رجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح (٢٦٨/٩) والله أعلم.

(٢) فى (ب): وتمثيل لكل الأشياء لمن هو أهل له لا لكل أحد.

غريزي في الكرم، وعرق ينزعه من آبائه القدم، وتدريب وعناية ربانية، وتربية تنشأ عنها، فاعتادها من غير تكلف ولا تشوف، تسوقه رغبة الأجر، وتفوده مخافة الوزر.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

لكل امرئ من دهره ما تعودا

وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وفي البيت من البديع الاقتباس؛ إذ هو مقتبس من قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْهٍ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ إلى قوله: ﴿ قَمَطِرِيرًا ﴾^(١) [الإنسان: ٨ - ١٠].
ثم قال الله تعالى في وصف ما أعد لهم: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً
وَسُرُورًا ﴾ إلى قوله: ﴿ تَذَلِيلًا ﴾ [الإنسان: ١١ - ١٤]؛ فلم يأت سبحانه على عمل من
الأعمال بعد التوحيد بمثل ما أتى به في إطعام الطعام لوجه الله الكريم؛ ولذلك
اختاره لخليله عليه السلام كما قدمته قبل. عودنا الله ما يرضاه ويرضيه عنا

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٨٢ - وَيَشْفِي الصَّهَاءَ رَوْمُ الصَّهَاءِ وَبِالنَّهَاءِ

عَنِ الرَّيْثِ تُرْضَى الْوَارِدِينَ نَهَاءُ

قوله: ويشفي: أى يبرىء. الصَّهَاءُ، بالفتح والقصر: مصدر صهى الجرح،
بالكسر: إذا ندد^(٢). والصَّهَاءُ: ذرورة كل شيء، وهى جمع صهوة. والنهَاءُ، بالفتح
والقصر: مصدر نهى عن الشيء، بالكسر، بمعنى انتهى عنه. والنهَاءُ، بالمد
والكسر: جمع نهى، وهو الغدير، وروم: بالرفع فاعل يشفى.

والمعنى: يشفى روم الصهوات، أى قصدها ومحاولة نيل المراتب العلية، الجرح
الذى ندد، وبالانتهاه أى الكف عن الريث: وهو البطء، تُروى الواردين أى

(١) القمطير: الشديد من الأيام.

(٢) ند: انفجر بعد برء.

الأشخاص الذين يردون الماء الحياض التي يردونها، بمعنى أنها تسعهم ويجدون فيها كفايتهم. والمقصود الإغراء بطلب معالي الأمور والتصدر؛ فإن في ذلك شفاء للصدر، والتحذير من التسويف والونى والفتور فى فعل الخيرات خوفاً من العوارض والعوائق، كما قيل: (من بحر الوافر)

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل عاصفة سكون
وإن درت نياقك فأحتلبها فما تدرى الفصيل لمن يكون

ومن ذلك القبيل قوله: (من بحر البسيط)

تتبع الأمر بعد الفوتِ تغريرُ وتركه مقبلاً عجز وتقصيرُ
وكلُّ ما يتمنى المرءُ^(١) يدركه بالاعتماد وترك الحق محذور
وكل وجدان حفظ لا ثبات له فإنه عدم محض وتكدير
وكل كسر فإن الحق يجبره^٢ وما لكسر قناة الدين تجبير
وكل حى وإن طالت سلامته فإنه ميت والحق تنوير
وكل ما راحة قبل الممات فلا تغررك فالموت تنغيص وتكدير
وإنما بعدها ما تشتهي وما تخشاه والعمر أرياح وتخسير^(٢)
فاجعل قرينك تقوى الله تحظ بما ترجوه فالدهر تيسير وتعمير
حتى تمر ليليه القصار كما تمر عادة النجدين تشمير
الميت يحزنه تضييع ساعته لا المال والأهل والتعمير تعمير

(١) فى نسخة (ب): العبد.

(٢) هذا البيت ليس فى النسخة (ب).

• ثم قال رحمه الله:

٨٣- وَمَا بِالْفَضَا يُحْصَى الْفِضَاءُ وَقَلَمًا

يَهُونَ الْأَسَى إِنَّ لَمْ تَرْمَهُ إِسَاءُ

قوله: وما بالفضاء: فالواو: للاستثناف، وما: نافية بمعنى ليس. بالفضاء: جار ومجرور متعلق بيحصى. والفضا، بالفتح والقصر هنا: الآراء المختلفة. والفضاء بالكسر والمد: جمع فضية، وهو الماء الذى يجرى على وجه الأرض.

ويحصى: أى يعد. والأسى، بالفتح والقصر: يقال: أسوت الجرح: أصلحته. والإساء، بالكسر والمد: جمع آس، وهو الطبيب، كما قال الخطيب العبسى فى هجو الزبرقان بن بدر: (من بحر البسيط)

لما بدا لى منكم عيباً أنفسكم	ولم يكن لجراحي منكم آس
أزمنت ياساً مييناً من نوالكم	ولا ترى طارداً للحر كالياس
ما كان ذنبٌ بغيضٍ لا أبا لكم	فى بائس جاء يحدو آخر الناس
جار لقوم أطلوا هون منزله	وغادروه مقيماً بين أرماس
مكّوا قراه وهرتة كلابهم	وجرحوه بأنيابٍ وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ولما سمع الزبرقان هذه القصيدة غضب وقال: ليس لى فى المكارم إلا أنى طاعم كاس، قد هجانى والله أشد الهجو، فبلغ ذلك الخطيب فقال: (من بحر الوافر)

وإنى قد علقنت بحبل قوم	أعانهم على الحسب الثراء
إذا نزل الشتاء بجار قوم	تجنب جار بيتهم الشتاء
هم الآسون أم الرأس لما	تواكلها الأظبة والأساء
ألم أك نائياً فدعوتونى	فجاء بى المواعد والرجاء
فلما أن أتيتكم أبيتهم	وشر مواطن الحب الإباء

ألم أك جاركم فتركتموني ككلب في دياركم عواءُ
ولما أن أتيتهم حبوني وفيكم كان لو شتمت حباء
فلما أن مدحت القوم قلتهم هجوت وهل يحل لى الهجاء
فلم أستمكم حسبًا ولكن حدوتُ بحيث يستمع الحداء

فكأنه يقول: ليست تعد المياه الجارية على وجه الأرض بالآراء المختلفة والعزائم التي ليست بمرتبطة، بل إنما تنال وتستخرج ويقدر على تمشيتها في البساتين والأشجار، والانتفاع بها بالآراء المتفقة والعزائم التي ليست بمختلفة ولا مفتلة، وقلما يسهل إصلاح الجرح ومداواة المرضى على من رame من غير الآراء الصالحة وإيساء الأطباء الحاذقة. وهذا تمثيل، والمعنى: أنه لا يصلح للدلالة على الطريق إلا من كان على بصيرة من مواردها ومصادرها، بحيث لا يتغير له رأى، ولا تنحل له عزيمة، فإن لم يكن كما ذكر هلك وأهلك. وكذلك أيضًا لا يصلح لمداواة الأمراض إلا من كان آسيًا عالمًا بالأدواء والأدوية التي تليق بالدواء، وإلا أهلك من يعالجه في الغالب.

قال الرسول ﷺ: «يذهب العلماء الأول فالأول، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلة؛ فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا»^(١).

وقال الرسول ﷺ: «ما اتخذ الله وليًا جاهلًا ولكن إن اتخذ علمه»^(٢).

يروى أن الجنيدى رضى الله عنه كان يقول: أخوف ما يخاف على هذه الأمة جهلة المتصوفة، وعلماء الألسنة جهلة القلوب: المتصوفة يضلون الناس بألسنتهم فيدعون من ضلالة إلى ضلالة أشد منها، وعلماء الألسنة جهلة القلوب يدعون إلى الضلالة بأقوالهم وأفعالهم، فتميل بهم أهواؤهم إلى ترك العمل بما علموا؛ فيغتر بهم الجاهل فيقول: إنه لم يفعل ذلك إلا لعلم عنده لم نبلغه؛ فيكون أشد

(١) حديث «يذهب العلماء الأول فالأول»... إلخ. متفق على صحته، ولفظه عند البخارى: «إن

الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ولكن قبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالًا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» (كتاب العلم - باب كيف يقبض العلم) والله أعلم.

(٢) حديث «ما اتخذ الله وليًا جاهلًا»... إلخ. سبق تخريجه

فى الضلالة من الجاهل؛ لأن الجاهل لا يهتم من أمره بشيء إن هو فعله على علم، ولا يغترون بمجرد فعله لعلمهم بجهله، وربما حمله الغرور على الفتوى بالشاذ، وارتكاب التأويلات؛ حباً للرياسة، وطمعاً فى طعمة ينالها ممن أفتاه؛ فىكون قد اقتحم باباً من أبواب السحت بعد إضلاله المقتدى والمستفتى؛ فىضل المقتدى به بحيث لا يعلم؛ فىكون مُسْتَدْرِجًا وَمُسْتَدْرِجًا، وذلك معنى قوله ﷺ: «إن من العلم لجهلاً، وإن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً»^(١).

قال ﷺ: «سهلك المنتطعون من أمثى». قالوا: وما المنتطعون يا رسول الله؟ قال: شرار الرجال، فىجمعون شرار المسائل، فىعمون بها خلق الله.

وقيل: هم المتكلفون الذين يتكلفون إلى علمهم علم ما لا فىعلمون؛ فىستحى أحدهم أن فىقول فىما لا فىعلم: لا أعلم.

قال مالك بن أنس رضى الله عنه: ألا أنبئكم بعلم العلماء وحكم الحكماء؟ قالوا: بلى؛ قال: إذا سئل أحدكم عما لا فىعلم فىلقل: لا أعلم.

وقال ابن القاسم: كان مالك رضى الله عنه كثيراً ما فىقول إذا سئل: لا أعلم، ولقد كان فىقول ذلك فى المجلس ثلاثين مرة، وربما قال: لا أعلم، ثم فىفتى بعد ذلك وفىجيد الجواب.

وقال ﷺ: «إنه سياتى زمان تكثر فىه المسألة وفىقل الفقه، فىما أن فىعجز أحدكم أو فىكون منافقاً، فمن أدرك منكم ذلك الزمان فىلِعِجِزْ ولا فىكن منافقاً».

وىروى أن رجلاً من المنتطعين أتى عاصم بن عمر فسأله عن مسألة فقال له: لا أدرى؛ فقال له: إنه فىقبح بمثلك أن فىسأل عن شيء من أمر الدين فلا فىوجد عنده فرج ولا مخرج وأنت ابن إمام من أئمة المسلمين وفىخليفة من خلفاء رسول رب

(١) حديث «إن من الشعر لحكمة»... إلخ. صحيح رواه البخارى وأبو داود والنسائى ومالك، وفىلفظه عند البخارى: «إن من البيان لسحراً» أو «إن بعض البيان لسحراً» (كتاب الطب).

أما اللفظ الثانى الذى هو «وإن من الشعر لحكمة» فهو صحيح كذلك أخرجه البخارى فى كتاب (الأدب) وأبو داود وابن ماجه.

أما قوله فى أول الحديث: «إن من العلم لجهلاً» فلم أجد فى المرفوع من كلام النبى ﷺ، والله أعلم.

العالمين . فقال له : أقبح من ذلك أن أقول فيما لا أعلم : إني أعلم ؛ فأفتى بجهل ؛ فأهلك وأهلك ، أو ما بلغك قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أرى عينيه ما لم يرياً ، وأسمع أذنيه ما لم تسمعاً » .

ويروى أن بعض السلف قال : إن الناس يرون الورع في الكف عن الشبهات ، وترك ما لا بأس فيه مخافة أن يقعوا فيما فيه بأس ، وإنما الورع ورع اللسان .

يروى أن المقداد لم يرو عن النبي ﷺ مع طول صحبته إياه إلا حديثاً واحداً ؛ فقيل له : ما لنا لا نراك تروى عن رسول الله ﷺ الآثار كما يروونها أصحابك ؟ فقال . أما إني قد سمعت من رسول الله ﷺ مثلما سمعوا ، وعقلت عنه مثلما عقلوا ، ولكني تورعت أن أروى عن رسول الله ﷺ فأزيد أو أنقص بعد ما سمعته يقول : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »^(١) . فرأيت الكف عن الرواية أسلم لي وقد تولى عنى أصحابي ما هنالك ، فلست أخاف من وعيد قوله ﷺ : « من كتم علماً وهو يعلمه أجم بلجام من نار »^(٢) .

وفى رواية : « من سئل عن علم وهو يعلمه أجم بلجام من نار يوم القيامة » . فهم لا يسألونني لما رأوا من عدم اشتغالي بالرواية . انتهى .

وقال مسلم في صحيحه : اعلم وفقك الله أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها ، وثقات الناقلين لها من المتهمين ، أن لا يروى منها إلا ما عرف صحة مخارجه ، والستارة^(٣) في ناقله ، وأن يتقن ما كان

(١) حديث « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » حديث متفق على صحته ، رواه الشيخان وغيرهما ، وهو من المتواتر النادر .

قال العلماء : إنه مجمع على تواتره ، والله أعلم .

(٢) حديث « من كتم علماً وهو يعلمه أجم بلجام يوم القيامة » . . . إلخ . صحيح رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وابن حبان والحاكم وصحاحه ، وقال فيه الترمذي : حسن صحيح . وأورده السخاوي تحت رقم ١١٦٨ .

قلت : وله طرق كثيرة أوردها ابن الجوزي في العلل المتناهية له ، والله أعلم .

(٣) الستارة : هي كالسترة ، والمعنى : ما يستتر به ، والمراد هنا معنى الصيانة .

عن أهل التهم والمعاندين من أهل البدع. والدليل على الذى قلنا من أن هذا هو
اللازم دون ما يخالفه قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] إلخ.

وقال عز وجل: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

فدل بما ذكرنا من هذه الآى أن خبر الفاسق ساقط غير مقبول، وأن شهادة غير
العدل مردودة.

والخبر وإن فارق معناه معنى الشهادة فى بعض الوجوه. فقد يجتمعان فى أكثر
معانيهما؛ إذ كان خبر الفاسق غير مقبول عند أهل العلم، كما أن شهادته مردودة
عند جميعهم.

ودلت السنة على نفي رواية المنكر من الأخبار كدلالة القرآن على نفي خبر
الفاسق، وهو الأثر المشهور عن رسول الله ﷺ «من حدث عنى بحديث يرى أنه
كذب فهو أحد الكذابين»^(١).

روى شعبة عن منصور عن ربعى بن خراش أنه سمع علياً يخطب قال: قال
رسول الله ﷺ: «لا تكذبوا علىّ فإنه من يكذب علىّ يدخل النار»^(٢).

وقال: قال على بن ربيعة: أتيت المسجد والمغيرة أمير الكوفة، قال: فقال
المغيرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كذباً علىّ ليس ككذب على أحد»^(٣).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما
سمع»^(٤).

وقال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: بحسب المرء من الكذب أن يحدث
بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع.

(١) حديث «من حدث عنى حديثاً»... إلخ. رواه مسلم فى مقدمة صحيحه (١/٧) وهو صحيح.

(٢) (٣) حديث «لا تكذبوا علىّ» تقدم تخريجه.

(٤) حديث «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» رواه مسلم فى مقدمة صحيحه (٨/١)، وعنه

القضاعى، كما أورده السخاوى تحت رقم ٨٠٧.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: لا يكون الرجل إماماً يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع.

وقال سفيان بن حسين: سألتني إياس بن معاوية فقال: إني أراك قد كلفت بعلم القرآن، فاقراً على سورة من القرآن وفسرها حتى أنظر فيما علمت، قال: ففعلت، فقال لي: احفظ على ما أقول لك: إياك والشناعة في الحديث فإنه قلما حملها أحد إلا ذل في نفسه وكذب في حديثه.

وعن عبد الله بن عبيد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود قال له: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وعن عثمان بن يسار عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سيكون في آخر أمتي ناس يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آبائكم فيأهمهم»^(١).

وفي رواية: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آبائكم، فيأهمهم، فلا يضلونكم ولا يفتنونكم»^(٢).

وقال: حدثني أبو سعيد الأشج عن وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المسيب بن رافع عن عامر بن عباد قال: قال عبد الله: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل، فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب، فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث.

وعن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان، فستخرج فتقرأ على الناس قرآنًا.

وعن طاوس قال: جاء بشير بن كعب فجعل يحدث عن ابن عباس، فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا وكذا؛ فعاد له ثم حدثه فقال له: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له، فقال له: ما أدري أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا؛ فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذا لم يكن يكذب عليه، قال: فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه.

(١) حديث «سيكون في آخر أمتي»... إلخ. أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (٩/١).

(٢) وهذه الرواية أيضًا في مقدمة صحيح مسلم (٩/١).

وحدث نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: كتبتُ إلى ابن عباس أسأله أن يكتب لي كتاباً ويخفي^(١) عني، فقال: ولد ناصح أختار له الأمور اختياراً وأخفى عنه، قال: فدعا بقضاء عليٍّ، فجعل يكتب أشياء ويمر بالشيء فيقول: والله ما قضى بهذا علي إلا أن يكون ضل.

وقال سفيان بن عيينة: عن طاوس قال: أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء عليٍّ فمحاها إلا قدرًا، وأشار سفيان بن عيينة بذراعه.

وعن الأعمش عن أبي إسحاق قال: لما أحدثوا تلك الأشياء بعد عليٍّ رضي الله عنه قال رجل من أصحاب عليٍّ: قاتلهم الله أي علم أفسدوه علينا. فلما رأى السلف ذلك أحدثوا الإسناد دفعًا لتقول المتقولين وردًا لغلو الغالين.

قال إسماعيل بن زكرياء عن عاصم الأحول عن ابن سيرين قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فيُنظرُ إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظرُ إلى أهل البدعة فلا يؤخذ حديثهم.

وعن عبد العزيز بن سليمان بن موسى قال: قلت لطاوس: إن فلانًا حدثني بكذا وكذا قال: إن كان صاحبك مليئًا^(٢) فخذ عنه.

وقال أبو بكر بن خالد الباهلي قال: يقول سعد بن إبراهيم: لا ينبغي أن يحدث عن رسول الله ﷺ إلا الثقات. وإن الله قد خص هذه الأمة بالإسناد، وتنقيح الرواة وانتخاب المسند إليهم.

وكان ابن المبارك يقول: الإسناد من الدين؛ ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

وقال عبد الله بن عباس: بيننا وبين القوم القوائم يعني الإسناد.

(١) كذا ورد في مقدمة صحيح مسلم بالحاء، وفي رواية بالحاء، فيكون المعنى على رواية الحاء: ولا تكثر على، أن يكون من باب الاستقصاء والإحاح، ويكون عنى بمعنى على، أى استقص ما تحدثنى، وقال ابن الصلاح: هو بالحاء المعجمة، ومعناه: أى يكتفى عنى أشياء ولا يكتبها لى إذا كان فيها عليه مقال من الشيع المختلفة وأهل الفتن؛ لأنه إذا كتبها ظهرت، وإذا ظهرت خولف فيها وحصل فيها قال وقيل. نقل هذه الأقاويل النووى رحمه الله (١/٨٢) والله أعلم.

(٢) قوله مليئًا: معنى ثقة.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقاني: قلت لعبد الله بن المبارك: يا أبا عبد الرحمن الحديث الذي جاء: «من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك، وتصوم لهما مع صومك» قال: فقال عبد الله: يا أبا إسحاق، عمن هذا؟ قلت: هذا من حديث شهاب بن خراش، قال: ثقة، عمن قال؟ قلت: عن الحجاج بن دينار، قال: ثقة، عمن؟ قلت: قال رسول الله ﷺ، قال: يا أبا إسحاق، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تقطع فيها أعناق المطى، ولكن ليس في الصدقة اختلاف، غير أن الله تبارك وتعالى قيض لهذا العلم في كل قرن عدولاً يحفظونه من زيغ الزائغين، وتبديل المتدعين، وغلو الغالين، جعلهم الله فرقاناً بين الحق والباطل حتى يأتي أمر الله؛ اقرءوا إن شئتم: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

يروى أن المتقول^(١) على النبي ﷺ وشهداء الزور يؤتى بهم يوم القيامة وقد أدلعت ألسنتهم. حتى قيل في بعض الآثار: إنهم يطئون عليها. وكفى بهذا زاجراً عن ترك الورع في الرواية والشهادة ورؤيا المنام؛ إذ هي نوع من النبوة؛ فلا ينبغي التهاون بها ولا التساهل في شأنها.

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله يكلف من أرى عينيه في المنام ما لم تريا يوم القيامة أن يصنع حبلًا من تراب وما هو بصانع. وكذلك المصور يكلفه أن ينفخ الروح فيما صور وليس بفاعل؛ فلا يزالان يعذبان بأنواع العذاب حتى يفرغ أهل المحشر من الحساب، فيؤمر بهما فيلقيان في سواء الجحيم».

فالحاصل أن المقتدى بالجاهل كالمستدل بالأعمى؛ فأنى له الرشاد؟! والمقتدى بالفقيه الراغب في جمع الحطام، ولا سيما إن كان يأخذ الرشى، المستدل بمن به لم من الجن فلا يزيده غير خبال. وأما غير الراغب فقصاراه أن يعلم قوانين البشر الظاهر، وليس له سبيل إلى الرشاد لعدم تمام الوراثة، وإنما يرشد من ورث علم الرسول ﷺ وأحواله ومقاماته لوجود الأمداد الربانية، فيغذى القلوب والأرواح بأمداد الفطرة الربانية والمواهب القدسية، ويجذبهم بأحواله الزكية، لوجود الإذن في التعبير، والتوفيق للتنوير، لنقاء ثوبه، وصفاء قلبه، ولين لبه، فهو والدُّ مُرَبٌّ،

(١) في نسخة (ب): المتقول على الله وشهداء الزور... الخ.

وواجد ملب، وواحد بعلم الحقائق^(١)، تضلع من علوم الشريعة بعد ما تضلع من علوم الحقيقة، ليس بفظ ولا غليظ، ولا متشعب عنيف^(٢)، وهب لربه كله، واستحمله كله، يغضب له لا لنفسه، فيومه خير من أمسه، قد طوى خمسة في خمسة، وباطنه في حسه؛ فهو الطبيب الماهر، والخريب الظاهر، والمشرب الطاهر، والنور الباهر ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦]. وفقنا الله بنوره لنوره، وخصنا بحبوره، آمين.

• ثم قال رحمه الله:

٨٤ - وَكَيْسَ جَوَىٰ عِنْدَ الْجَوَاءِ أَثَارَهُ يُدَاوَىٰ بِمَعْنَىٰ فِي سَحَاهُ سِحَاهُ

قوله: جوى: اسم ليس، وجملة «عند الجواء أثاره»: صفة له. ويداوى: خبر ليس. والجوى: فهو بالفتح والقصر: كل ألم باطن، وفعله جوى، بالكسر، يجوى، بالفتح، والمراد به هنا الشوق والغرام، كما يقتضيه سياق البيت. قال الشاعر:

جوى الجوى وحشا الأحشاء منه هوى من محياه وربيع الدار عبران^(٣)

والجواء، بالكسر: كل واد واسع، وقيل: هو ما بين العدوتين من سهب واسع تخترقه السيول وليس بواد، بل هو رياض نقية وبقاع طيبة تخترقها السيول، وتثير مراعيها الذبول، تمرع على الطل، ولا تقلى بوخم ولا سل، رقيقة الترب، كثيرة العشب

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذكر هجرته مع رسول الله ﷺ:

يعسفن عرض البلاد بعد أطولها وكل سهب رقيق التراب موار

(١) بيأض في النسختين قدر كلمة واحدة ولعلها (قد).

(٢) العنيظ: الساخر البديء.

(٣) هذا البيت في النسخة (أ) غير واضح، وهو في (ب) هكذا:

جوى الجوى وحشا الأحشاء منه هوى حى المريع بالدار عبران

ووزنه مختل.

وهي قصيدة طويلة، ونريد أن نأتى بها للتبرك بقائلها، أولها قوله رضى الله عنه: (من بحر البسيط)

ونحن فى سدفة من ظلمة الغار^(١)
وقد تكفل لى منه بإظهار
كيدُ الشياطين كادته لكفار
إما غدوًا وإما مدليج سار
قوم عليهم ذوو عز وأنصار
وحال من دون من نخشى بأستار
ينعين بالقوم نعيًا تحت أكوار
وكل سهب رقيق الترب موار
من مدليج فارس فى منصب وار
كأسد ذى اللبدة المستأسد الضارى
من دونها لك نصر الخالق البارى
فانظر إلى أربع فى الأرض غوار
قد سخن فى الأرض لم تحفر بحفار
وتأخذوا موثقى بنصح أسرار
وأن أعور منهم عين عوار
يطلق جوادى وأنتم خير أبرار
يا رب إن كان منه غير إخفار
ومهره مطلقًا من كل آثار
وفاز فارسه من هول أخطار^(٢)

قال النبى ولم يجزع يوقرنى
لا تخش شيئًا فإن الله ثالثنا
وإنما كيدٌ من تخشى بوادره
وأنت مرتحل عنهم وتاركهم
وهاجرن أرضهم حتى يكون لنا
حتى إذا الليل وارثنا جوانبه
جاء الأريقت يهديننا وأينقه
يعسفن عرض البلاد بعد أطولها
حتى إذا قلت قد أنجزن عارضها
يردى به مشرف الأقطار معترم
فقال كروا فقلنا إن كرتنا
إن يخسف الله بالأجوى وفارسه
فهيل لما رأى أرساغ مقربة
فقال هل لكم أن تطلقوا فرسى
وأصرف الحى عنكم إن لقيتهم
فادع الذى هو عنكم كف عدوتنا
فقال قولاً رسول الله مبتهلاً
فنجّه سالماً من شر دعوتنا
فأظهر الله إذ يدعو حوافره

(١) السدفة: الظلمة.

(٢) لا تصح نسبة هذه القصيدة إلى أبى بكر الصديق لركاكة أسلوبها وعدم وجود إسناد يوثق به لها، هذا ما اعتقده، والله أعلم.

وسراقة هذا هو الذي أظهر الله فيه هذا العلم العظيم من أعلام نبوته ﷺ قد أظهر الله فيه أيضاً أثراً آخر من الآثار الشاهدة له عليه السلام؛ لأن الله أطلعه على الغيب في حياته بما ظهر مصداقه بعد وفاته .

روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى الأشعري عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟»^(١).

قال: فلما أتى عمر رضى الله عنه بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة ابن مالك فألبسه إياهما، وكان سراقة رجلاً أرب كثير شعر الساعدين، وقال: ارفع يديك وقل: الله أكبر، الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابياً من بنى مدلج، ورفع بهما عمر رضى الله عنه صوته. انتهى .

فلما رجع سراقة وفى لرسول الله ﷺ بما عاهده عليه، فما لقى أحداً يطلب رسول الله ﷺ إلا رده، حتى لقى موكباً من قريش فيه أبو جهل فسأله عن النبى ﷺ فقال: أما هذا الوجه فقد كفيتموه؛ فقال له أبو جهل: لعلك لقيته فأمتته! قال: وإن كان ذلك فلا سبيل إلى طلبه، ثم أنشده بعد محاوره فقال: (من بحر الطويل)

أبا حكم واللات لو كنت شاهدا	أمام جوادى حين ساخت قوائمه ^(٢)
علمت ولم تشكك بأن محمداً	رسول ببرهان فمن ذا يقاومه
إليك فرد القوم نعه فإننى	أرى أمره يوماً ستعلو ^(٣) معالمة
بأمر تود النضر طراً بأسرها	بأن جميع الناس طراً تسالمة ^(٤)

(١) حديث «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى» صحيح أورده ابن حجر فى الإصابة بلفظ الشيخ وبالسند المذكور ويحذف إسرائيل، وسكت عليه (١٨/٢) إصابة .

(٢) هذا البيت فى الإصابة هكذا:

لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه .

أبا حكم والله لو كنت شاهداً

(٣) فى الاستيعاب: «ستبدو» بدل «تعلو» .

(٤) هذا البيت فى الاستيعاب هو:

بأن جميع الناس طراً يسالمة

بأمر يود الناس فيه بأسرهم

(١١٩/٢) استيعاب .

فرجعت قريش وكنانة لجواره ومنعه إياهم من الطلب . انتهى .

قوله: أثاره: أى حركه وأهاجه . والمعنى ، بالمعنى المعجمة: المكان الذى غنى أى عمر، قال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] معناه: أنها خربت وعفى أثرها حتى كأنها لم تتقدم لها عمارة بالأمس، والمراد بالأمس ما مضى من الزمان وإن بعد العهد به، لا ما يسبق إلى الوهم وهو ما قبل يومك هذا الذى أنت فيه . والسحن، بالفتح والقصر: جمع سحاة، وهى الساحة . قال الرسول ﷺ لما وقع بصره على حصون خيبر: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذ نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(١) . والسحاء، بالكسر والمد: نبت حلو ذكى له نورٌ أبيض إذا رعته النحل طاب عسلها .

فكان الناظم يقول: ليس يداوى الشوق والحزن اللذين هيجهما عهد الجواء، أى ذكر ما عهد فيه من نيل الأوطار وجميل الآثار التى فيها قرة عينه، بالحلول فى مكان قفر نبت فى ساحته السحاء . والمعنى أنه لا يسلى الحسيس عن النفس، فاللذية لحستها لا تغنى عن الآخرة لنفاستها، فجواه إنما أثاره جواء معاهد الجنة وما أعد الله فيها لأولياؤه؛ فلا يبرئه منه زرجون^(٢) هذه الدار التى ملئت بالأكدار، ولا راحة لمؤمن فيها دون لقاء ربه، والظفر بمقتضى حبه .

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كتقص القادرين على التمام

فالتمام إفراغ الجهد فى طلب الدار الباقية رغبة فى أن يكون فيها جاراً للحبيب ومنادماً للقريب المجيب . وتخصيص الشوق لمن أمذك بالذوق، إذ القلب محل القرب وموضع نظر الرب، قال الرسول ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأحوالكم»^(٣) . فجدير بمن بلغه هذا الأثر

(١) حديث «الله أكبر خربت خيبر»... إلخ . حديث صحيح رواه مسلم (١٨٥/٥) كما رواه غيره وهو جزء من حديث طويل .

(٢) الزرجون: تقدم .

(٣) حديث «إن الله لا ينظر إلى صوركم»... إلخ، صحيح رواه مسلم فى صحيحه وابن ماجه بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» . وأورده بهذا اللفظ صاحب الكشف تحت رقم (٧٣٨) .

الشريف أن لا يجعل حبه إلا لله وفي الله، وإلا فقد علق الجوهر في أعناق الخنازير، ورام الكتابة من غير قلم ولا مداد، والسلطنة وهو جالس على المزبلة، والقطع بدون المدينة.

• ثم قال رضى الله عنه:

٨٥ - وما ذُو نَسِيٍّ بَيْنَ النِّسَاءِ بِمَبْرِيٍّ ذَوَاتِ طَنَّا أَشْفَتْ بِهِنَّ طَنَاءُ

قوله: وما ذو نسي: أى وليس صاحب نسي، بالفتح والقصر: مصدر نسي الرجل إذا اشتكى نساها، فذو: اسم «ما». نسي: مضاف إليه ما قبله. بمبرى: خيرته. بين النساء: ظرف ومضاف إليه ما قبله، والجملة خبر لمبتدأ محذوف، أى: هو كائن بين النساء. والمبرى من المرض: الذى يشفى منه بالعلاج الموافق لدفع العلة من عقار وغيره: من مبرد فى ثوران الحرارة، ومسخن فى هيجان البرودة وغلبتها، بل ولو كان ذلك بغذاء موافق للطبيعة والجسم. قال الرسول ﷺ: «عودوا كل جسم ما اعتاد»^(١).

والطنى، بفتح الطاء المهملة والقصر: التصاق طحال البعير بجنبه من شدة العطش واليبس، وليس هو خاصا بالبعير، بل يقال: طنى الإنسان: إذ عظم طحاله من الحمى وغلبة الصفراء، وهو مصدر طنى، بكسر النون فيهما. والطناء بالكسر والمد: جمع طنى، بالكسر والهمز: وهو بقية الروح، ومنه قيل: هذه حية لا تطنى، أى لا يعيش لديغها.

قوله: أشفت: أشرفت على الموت.

فكأنه يقول: ليس رجل صاحب شكاية بوجع نساها فى حال كونه بين النساء قد

(١) حديث «عودوا كل جسم ما اعتاد» ليس له أصل من كلام النبي ﷺ، رواه الخلال وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٧٨٨ وقال: قال العراقى: لم أجد له أصلا. كما أورده السخاوى تحت رقم ٧٢٢ بلفظ «بدن» بدل «جسم» ورقم ١٠٣٥ وقال: لم أجد له أصلا، وأورده الشوكانى تحت رقم ٨٠٩ - ١٦٢ وقال: قال فى المختصر: لم يوجد، وقال فى المقاصد: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، وأوله عنده: «البطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء»، وأورد باقيه سواء بسواء، والله أعلم.

أحطن به يمرضنه لشدة مرضه بمداوٍ إبلاً ذوات طنى، أى مطحولة، أشرفت على الموت، فهو لأجل مرضه ودفنه وكونه بين نساء قد أحطن به لا يغنى عن ذوات البطنى التى لم يبق فيها إلا بقايا من الأرواح، كيف وقد شغل بنفسه، وقد دنا من مواراته فى رسمه، وحيث عجز عن مداواة نفسه، فعجزه عن علاج غيرها أخرى.

والكلام مفرغ فى قالب التمثيل؛ فهو كناية عن أمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ثم يقتحمه، إذ لسان الحال أصدق من لسان المقال، فغاية أمره ونهيه أن يجلب بهما الازدراء لنفسه. قال الشاعر: (من بحر الكامل)

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلاً لنفسك كان ذا التعليم
فأبدأ بنفسك فانها عن غيرها	فإذا فعلت إذا فأت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويقتدى	بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

فكما لا يبلغ المنهل إلا الخريت الماهر كذلك لا يوصل إلى الله إلا الواصل المتصل، كما قيل: من اتصل بشيخ واصل وصل، ومن اتصل بشيخ منفصل بان وانفصل. هيهات! كيف يوصل إلى الملوك من جهل كيفية السلوك؟ أم كيف يداوى أمراض الذنوب من هو متلوث بهفوات العيوب؟ أم كيف يخرج أضغان القلوب من لم يغص فى غمرات الغيوب؟ أم كيف يقوم اعوجاج النفوس من لم يشرب من مشارب القدوس؟ أم كيف يطرد جنود الهوى من لم تلج فؤاده التقوى؟ أم كيف يحى الموتى من عاش ومن العلوم اللدنية لم يؤت؟^(١) أزال الله بلوانا، ولا خيب مسعانا، آمين.

(١) لعله يريد موتى القلوب لا أموات الأجسام؛ إذ لا سبيل إلى ذلك بعد ما أعطى الله عيسى وأخبر به على سبيل الإعجاز.

• ثم قال رحمة الله عليه:

٨٦ - وَلَا ذُو الْحَقَى يَكْفَى بِكَثْرِ حَقَائِهِ وَغَايَةَ ذِي الدُّنْيَا صَنِىٌّ وَصِنَاءٌ

يعنى أنت صاحب الحقى، بالقصر والفتح: جمع حقو، وهو وجع الحاصرة؛ إذ الحقو إنما هو موضع ربط الإزار، وهو من أصغر ضلع إلى منتهى الورك، كما روى أن رسول الله ﷺ لما مات إحدى بناته دخل على النساء وهنَّ يغسلنها فقال: «اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن في الأخيرة كافوراً، فإذا فرغتن فأذنى. قالت: فلما فرغنا ألقى إلينا حقوه فقال: أشعرنها إياه»^(١). وهو من باب تسمية الشيء باسم محله أو ملازمه؛ فيقال للإزار حقو، كما يقال للمحل.

أى لا يكفى من مؤونة الموت ولا من إصابة البلياء والمحن بسبب كثر، وهو بضم الكاف هنا مراعاة للتاء المحذوفة فإذا أعيدت فتح الكاف وجوباً، فإذا قلت: بكثرة فتحتها، وإذا قلت: بكثر ضممتها، أى بكثرة حقائه، بالكسر والمد: جمع حقو، وهو الرداء. فالمراد أن عرض الدنيا لا يكفى^(٢) صاحب غرضاً من الأغراض التى تناله فيها. والصنى، بالفتح والقصر: حجر مطروح لا يلتفت إليه. والصناء، بالكسر والمد: الرماد. فالمعنى أن غاية ذى الدنيا ولو بلغ فيها صاحبها المنتهى فى الملك والشرف والثروة فإنما مصيره ومأواه أن تنصب عليه أحجار لا يبالي بها ويصير تحتها رميمًا، ثم بعد صيرورته رميمًا يصير ترابًا، فيندرس رسمه، فلا يذكره ذاكر، ولا يزوره زائر، كما كان ﷺ يقول: «اللهم ارحمنا إذا عرق الجبين، وكثر الأئين، وفارقنا الحبيب، ويئس منا الطيب، اللهم ارحمنى إذا درس رسمى، ونسى اسمى ولم يزرنى زائر، ولم يذكرنى ذاكر». فالبيت موضوع للتزهيد فى الدنيا واحتقارها، وهو فى قوة قوله تعالى: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] كما فى المثل: غاية كل متحرك السكون، وغاية كل متكون أن لا يكون.

(١) حديث: «اغسلنها ثلاثاً»... إلخ. حديث متفق على صحته، رواه الجماعة، والذى أورد الشيخ

إحدى روايات البخارى، وهو عنده فى كتاب (الجنائز).

أما المغسلة فهى زينب بنت النبى ﷺ.

(٢) كذا فى الأصلين: لا يكفى، وربما كان الصواب لا يقى، من الوقاية.

و ثم قال رحمه الله:

٨٧- وَرَبُّ قَوِيٍّ أَضْرَ الْقِسْوَاءَ بِهْ غَمِيٍّ وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ فِي الْقُحُوطِ غِمَاءٌ

قوله: رب قوى أى كثيراً ما أصبح الموضع القفر عمراناً بعد ما كان خلاء، وربما أصبح البلد العامر بالأموال والرجال والأشجار والعقار قوى، أى خالياً لا عمارة فيه، وبذلك سمي المسافر مُقَوِّياً، وجمعه مقوون؛ لأن يقطع المفاوز ويجاوز العمران طلباً للأرباح ورجوعاً إلى المراح، فيقال: قوى المكان: إذا أقر. والقواء، بالمد والكسر: جمع قوى، وهو على غير قياس؛ لأن القياس فى جمع قوى: أقوياء، ويقال فيه: أولو قُوَّةٍ: إذا كان بمعنى شدة البطش وكثرة الخطو.

قَالَ ﷺ: «إِنَّمَا الْقُوَّةُ الرَّمْيُ». وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

[الأفال: ٦٠].

ويسمى القوي أيضاً؛ بالتشديد.

قال الرسول ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند

الغضب»^(١).

وفى ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

ليس الشديد الذى يحمى فريسته يوم الوغاء ونار الحرب تشتعل

لكن من غض طرفاً أو ثنى قدماً عن المحارم هو الفارس البطل^(٢)

وأض: عاد، وهى من أخوات «كان». والغمى، بفتح الغين المعجمة والقصر:

الذى أغمى عليه لغبة المرض أو من إفراط الضعف، وهو أشد من العشى ودون السكر.

وفى صحيح مسلم: «كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي أصابه مثل

(١) حديث «ليس الشديد بالصرعة»... إلخ. حديث متفق على صحته، رواه الشيخان وابن حبان

والنسائي، وهو عند البخارى فى كتاب (الأدب - باب الحذر من الغضب). ولفظ الشيخ كلفظ

البخارى سواء بسواء.

(٢) الشطر الثانى مكسور الوزن، والرواية الصحيحة:

* عن الحرام فذاك الفارس البطل *

الغشى الخفيف؛ فينقصم عنه وقد تفضد جبينه عرفاً فهو كالجمان».

فَالْغَشَى لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحَاءِ، وَالْإِغْمَاءِ لِلْمَرْضَى وَالضَّعْفَاءِ، وَالسُّكْرَ لِأَهْلِ
الْأَهْوَاءِ عِنْدَ الْمَوْتِ. وَالْجَلَاءِ: الزَّهَابُ بِالْكَلِيَّةِ، وَأَمَّا التَّخْبِطُ فَالضَّرْعُ، وَالتَّخْبِطُ لِمَنْ
بِهِ لَمْ الْجَانُ وَلَا كَلَةُ الرَّبَا عِنْدَ اللَّقَاءِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا
كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ
سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢٢]. فَالْغَمَى لَا يَشْنَى وَلَا يَجْمَعُ
وَلَا يُؤْنِثُ كَمَا فِي التَّسْهِيلِ. وَالْغَمَاءُ، بِالْكَسْرِ وَالْمَدِّ: الْغَيْومُ. قَالَ الشَّاعِرُ: (مَنْ
مَخْلَعُ الْبَسِيطِ)

هم العطية والأمانى	والمُدُنُ والمُزْنَ والغيومُ
لم تتغير بنا الليالى	حتى عفت منهم الرسوم
وهم حياتى وعيشى	ونور عينى والطعوم
عليهم منى سلام	ينهل ما دامت الديوم

ومفرده غيم، وربما قيل فى مفرده: غماء كسماء، وماضيه غيم مضعفاً.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فإن غيمت فالويل للظهر والعصر (١)

ووقع سماعاً غمى على وزن رمى كما قال البناني: وإذا أسند إلى الهلال جىء
به على صيغة البناء للمجهول فتقول: غم، بضم الغين المعجمة وتشديد الميم، وله
أخوات لا تأتى مواضعها إلا على هذه البنية كجم وسقط وجن وألحق وأفلس،
انظر القبوس شارح القاموس.

فكأنه يقول: رب أقوياء ذوى أموال كانوا يفتخرون بقوة أجسامهم ولأجل
غناهم فصاروا بعد ذلك فقراء ضعفاء حتى كادوا يهلكون بسبب فقرهم وضعفهم؛
فلم يغن عنهم شيئاً بالهم ولا منالهم بعد تغير حالهم بعد ما كانت سيول نوالهم
تغنى عن الغيوم فى سنى القحوط؛ وهو جمع قحط، أى قحوط المطر ببيسة وقلته

(١) كذا فى الأصلين، لم يرد إلا شطر.

بسبب صرفه عن الخلق لأجل ذنوبهم وظلمهم؛ فيصرفه إلى البحار الملحة والأرض غير المعمورة، حتى إذا نفذ فيهم أمره فتاب تائب أو تذكر متذكر صرفه إليهم بقدر ما يشاء.

ولأبي الشيخ أبي حيان في كتاب «العظمة» قال: إن الغيث لا ينقص ولا يزيد، فهو ينهمل من يوم خلق الله السماوات والأرض، لا ينقطع طرفه عين حتى تقوم الساعة، وهو معظم الجزء الواحد الذي أرسل الله إلى الدنيا من تجزئة مائة جزء، ورحمة الله لا تنقطع؛ فلا يقطع المطر، ولكن يصرفه إلى الثلث الخراب من الدنيا والبحار، ولو أن بني آدم أطاعوا الله ولم يعصوه لمطرهم بالليل، ولأخرج لهم الشمس بالنهار، ولما أسمعهم صوت الرعد. انتهى.

والقحط جند من جنود الله، يؤيد به أنبياءه، ويؤدب به أعداءه، كما في الصحيحين أن النبي ﷺ لما استصعبت عليه مضرٌ وردت عليه أمر ربها قال: «اللهم أعني على مضر بسبع كسبع يوسف»^(١).

وفي رواية: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف».

فأصابتهم سنة حصت الأموال حتى أكلوا الميتة والعظام والعلهز^(٢)، وحتى صار الرجل منهم ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان من الجهد؛ فارتحل تميم وضبة والرباب إلى السواد، حتى ارتهن زرارة ابنه وقوسه عند كسرى، وأما سليم وأسد وغطفان فإنهم نزلوا بعوالي المدينة وأظهروا الإسلام أو من أظهره منهم، فأنزل الله في شأنهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] فلما تيقنت قريش الهلاك وفد إلى رسول الله ﷺ أبو سفيان مع من وفد معه من أشرف قريش، فقال أبو سفيان: إن قومك قد هلكوا فادع الله لهم كما دعوت عليهم، فإننا ننشدك الله والرحم أن لا يكون هلاك قومك على يديك، وإنك كنت تأمرنا بصلة الرحم، فادع ربك أن يغثنا؛ فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا

(١) الحديث متفق عليه كما قال الشيخ، وهذا أوله عند البخاري، وهو أطول من هذا ودون ذكر العلهز.

(٢) العلهز: تقدم، وهو الدم مع الشعر يبس ثم يدق في الشدة ويؤكل.

إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿ [الدخان: ١٥] فدعا لهم؛ فأغيثوا من يومهم حتى سال وادى قناة شهراً، وكان في الوفد رجل من كنانة، وكان قد أسلم قال: يا رسول الله، إني قلت في أمرك هذا وإغاثة مضر شعراً إن أذنت لي أسمعك إياه؛ فأذن له، فقال: (من بحر المتقارب)

لك الحمد والحمد ممن شكر	سقيناً بوجه النبي المطر
دعا الله خالقه دعوة	إليه وأشخص منه البصر
وما كان إلا ككف الردى	أو أسرع حتى رأينا الدرر
به قد سقى الله حتى مضر	وهذا العيان لذاك الخبر
نبي كريم دعا ربه	عليه شعاع كضوء القمر

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى قحوط المطر عن أهل مصر زمن الملك الريان سبباً لولاية يوسف عليهم وملكه إياهم.

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى قحوط الشام سبباً لنقطة يعقوب عليه السلام من البدو إلى مصر ولقائه لقرة عينه يوسف، وفي ذلك يقول الله حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ إلى قوله: ﴿ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وكذلك جعل الله القحط سبباً لطواعية بنى إسرائيل لإلياس عليه السلام؛ لأن الله أرسله إلى أهل بعل، وكانوا قد كفروا من بعد موسى عليه السلام فعبدوا صنماً يقال له: بعل، فلما دعاهم إلى الله هموا بقتله؛ ففر منهم إلى الجبال، ثم جدوا في طلبه، فصار كلما جاءت طائفة منهم دعا الله أن يكفيه أمرهم بما شاء؛ فيرسل الله عليهم ناراً فتحرقهم عن آخرهم ولا ينجو منهم إلا المخبر. فلما يئس من فلاحهم سأل الله أن يجعل مطرهم بيده سبع سنين، فقال الله: إني أرحم بخلقى من ذلك، قال: ست سنين، فلم يزل يستنقصه حتى جعلها ثلاث سنين؛ فمنع الله عنهم الغيث ثلاث سنين حتى هلكت أشجارهم وزروعهم ومواشيهم، وأخذ الموت في الناس حتى مات خلق كثير؛ فبعثوا إليه إيسع يناشدونه الله والرحم، وأرسل إليهم أنه لا يرجع إليهم حتى يهدموا بعلاً، فهدموه، فأخبره أنه سيخلفه على بنى إسرائيل إذا أسلموا، وعلامة

ذلك أن ينزل عليه كساءً من السماء ودابة كلون النار، فرجع إلى بني إسرائيل، ورفع يده إلى السماء، فأمطروا من ساعتهم، وجاءته الدابة كما وصف، فركب عليها، فطارت به إلى السماء، وجعل الكساء على رأس يسع، واستخلفه على بني إسرائيل^(١).

ولقد نزل بالعراق ونواحيه قحط مجحف زمن الحجاج؛ فوفدت عليه ليلي الأخيلية. فلما أدخلت عليه استنسبها فانتسبت، فقال لها: ما أتى بك يا ليلي؟ فقالت له: إخلاف النجوم، وقلة الغيوم، وكلب البرد، وشدة الجهد، وأنت لنا بعد الله الرشد. فقال: صفى لنا ما مررت به من الفجاج، فقالت: الفجاج مغبرة، والأرض مقشعرة، والمبرك معتل، والعيال مختل، والمختبط للقل، والضارح للذل، والناس مستتون، ورحمة الله يرجون، أصابتنا سنون مجحفة مبظلة، لم تدع لنا هبياً^(٢) ولا زيباً^(٣) ولا غابطة^(٤) ولا نافطة^(٥)، أذهبت الأموال، وفرقت الرجال، وأهلكت العيال. ثم قالت: قد قلت في الأمير أبياتاً فليأذن لي في ذكرها، قال: هاتي ما قلت، فقالت: (من بحر الطويل)

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـ	حنايا يكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعط العصاة مناهم	ولا الله يعطي للعصاة مناهم
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة	تتبع أقصى دائها فشفاهم
شفاها من الداء العضال الذي بها	غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها سجلاً سجالة	دماء رجال حيث شاء حشاها
إذا سمع الحجاج رنً كتيبة	أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مسمومة فارسية	بأيدي رجال يحلبون صراها
فما ولد الأ Bakar والعون مثله	بيحر ولا أرض يجف ثراها

(١) هذه القصة من الإسرائيليات التي لا سند لها ثابت فيما أعلم.

(٢) الهبع: الفصيل الذي ينتج في الصيف، أو الحمار.

(٣) الزيب: الشيء الحقيق، والمراد أنه لم يبق لنا شيء.

(٤) الغابطة: الذبيحة تنحر وهي سمينة.

(٥) النافطة: الماعزة.

فقال لها: حسبك ويحك، سلى تعطى، فقالت له: مثل الأمير أعطى من غير مسألة، فأعطاها مائة ناقة برعائها.

ويروى أنه وقع فحط زمن موسى عليه السلام، فاستسقى موسى لقومه ليالى فلم يزد الأمر عليهم إلا شدة، فقال: أى رب، لم منعنا الغيث وأنت الواسع المفضال؟ فقال له: لو رفعتم إلى أيديكم حتى تسقط مناكبكم، وسجدتم حتى تتقطع أعناقكم فتصيروا كالحنايا، لما رحمتكم وفيكم نمام؛ فقال: أى رب، نبئني به أقتله، فقال: يا موسى افهم ما تقول! كيف أخبركم به فأكون نماماً وقد نهيتكم عن النميمة؟! ولكن ادع قومك إلى التوبة من النميمة ومن كل ذنب أسقهم؛ ففعل موسى عليه السلام، فتأبوا كلهم وأخلصوا لله نياتهم؛ فسقاهم، وقد تاب النمام من جملة من تاب^(١).

وروى أيضاً أن عيسى عليه السلام خرج فى أمته يستسقون وقد فحطوا فحطاً فادحاً، فلما خرجوا نزل عليه الروح الأمين فقال له: إن ربك يقول لك: إن كنت تحب السقيا فلا يخرج معك للصلاة إلا من لم يعصنى فيما مضى من عمره، فرجع القوم إلا رجلاً واحداً، فقال له عيسى عليه السلام: يا فتى، هل عصيت ربك قط؟ قال: لا يا روح الله إلا أتى التفت يوماً فوق بصرى الأيمن على أجنبية من غير قصد فأقتلعتها من أصلها ورميت بها، فقال له عيسى عليه السلام: اسأل السقيا للناس فأتى أحق بذلك منى، فرفع يديه إلى السماء، وشخص ببصره، فسقوا^(٢).

ولما أراد الله كرامةً على رضى الله عنه بالإسلام أسنتت^(٣) قريش، وكان أبو طالب مع سيادته قليل المال كثير العيال، فأتى النبي ﷺ العباس رضى الله عنه، وكان أكثر بنى هاشم مالا، فقال له: إنك ترى ما نزل بالناس من هذه الأزمة، وإن عمى وأحاك أبا طالب كثير العيال قليل المال، فهل فلنأخذ من صغار بنيه اثنين: أخذ واحداً وتأخذ واحداً، فأجابه إلى ذلك، فأتياه، فأخذ النبي ﷺ علياً رضى الله

(١) وهذه القصة أيضاً من الإسرائيليات التى لا يكاد عاقل يصدقها، ولا سند لها حسب علمى.

(٢) وهذه القصة أبعد عن التصديق من السابقة.

(٣) أسنتت: أى فحطت.

عنه، وأخذ العباس جعفرًا رضى الله عنه، فلم ينشب النبي ﷺ أن نبئ وهو فى حجره؛ فدعاه إلى الإسلام فأجابه وهو ابن سبع سنين، وقيل: ابن عشر، أسلم بعد خديجة بثلاثة أيام، فصارت تلك الأزمة سبباً لكرامته، وإلا لكان كسائر إخوته؛ إذ منهم من مات مشرکاً كطالب، ومنهم من تأخر إسلامه إلى الفتح كعقيل.

وقولى: أسنت بسكون السين يلحنه كثير ممن ينسب إلى الفصاحة فيقول: أسن، بفتح السين، ومنهم من يقول: أسنت، وذلك كله لحن وتصحيف، بل وزنه «أفعل» بناء على أن التاء لما صارت عوضاً من الواو المحذوفة اعتدوا بها وصيروها كأنها من نفس الكلمة، فاشتقوا منها^(١) الفعل، كما نقل عن سيويه، وأن يكونوا افتعلوا البناء على أن التاء لم يعتدوا بها وإن صارت عوضاً لكونها غير أصلية، وإنما لم يردوه إلى الأصل فيقولون: أسنى القوم، بمعنى أجذبوا لثلا يلتبس بقولهم: أسنوا فى هذا المكان، إذا مكثوا فيه سنة، وهذا وإن نقل عن له حذاقة فى هذا الفن فليس بقوى؛ لأن مرادهم الدلالة على القحط بقولهم: أسنت القوم فهم مستنون، فالسنة هكذا، فصار استعمالها فى القحط أكثر من استعمالها فى السنة التى هى العام، ولو لم يعتدوا بها وأنزلوها منزلة لام الكلمة لوجب حذفها عند الجمع فى قولهم: هم مستنون، كما حذفوها فى جمع سنة بمعنى العام على سنين بحذفها^(٢)، وإن كانت عوضاً فلم حذفوه من قولهم: أكلتهم السنة، أى أذهبتهم شدة القحط، ولام السنة واو؛ لأنها مأخوذة من سنا يسنو، ثم حذفت وعوض عنها التاء، واشتقوا منه أسنت بعد التعويض، أى: أسنت القوم، بسكوت السين، وسن الرجل فهو سان: إذا سنَّ سنة.

قال الرسول ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها... إلخ»^(٣).

(١) فى (أ): منها، وفى (ب): منه، والأول هو الأصح.

(٢) هذه الكلمة غير واضحة فى النسختين، وأقرب شئ إليها: (بحذفها) مع عدم مناسبتها تماماً.

(٣) حديث «من سن سنة حسنة»... إلخ. صحيح رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه بألفاظ مختلفة.

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٥٠٩ بلفظ: «من سن فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وسن الرجل فهو مسن، إذا بلغ السن. واستن البعير فهو مستن إذا ركض طرفاً وفرحاً.

قال الرسول ﷺ: «ولو أنها قطعت طيلها»^(١) فاستنت شرقاً^(٢) أو شرفين^(٣) الحديث^(٣).

وأسنوا، بتشديد السين: أقاموا بالمكان سنةً فهم مستنون، وأسنت الجلد فهو مسنت: إذا دبغ، وأسن: إذا تغير، ووسن فهو وسنان: إذا أخذته السنة، وهو النوم الخفيف، وأسنى المكان: إذا كثر به السنى. قال ﷺ: «لو كان للموت دواء لكان السن»^(٤). وقال: «عليكم بالسنا والسنوت»^(٥).

فالسنا معروف، والسنوت^(٦): سن تكون فيه خطوط من عسل أو رب؛ فهو خاص بما كان في عكة الأعراب.

قوله: رب قوى: قرب عند جمهور البصريين حرف موضوع لإنشاء التقليل وقد تستعار للتكثير في مقام الافتخار كثيراً، واستدلوا على حرفيتها بأنها لإنشاء التقليل، والأصل في الإنشاء أن يكون بالحروف كما في الاستفهام والأمر والنهي والنداء؛ ولذلك لزم الصدر فلا تدخل عليها العوامل، ولو كان اسماً لدخلت حروف الجر عليه كما تدخل على كم الخبرية؛ فلا تقول: برب رجل أكرمت، ولا غلام رب رجل ضربت، كما تقول: بكم رجل مررت؟ وغلام كم رجل اشتريت؟

(١) طيلها: الطيل، بكسر الطاء: الحبل الطويل يربط فيه الفرس فيرعى مكانه.

(٢) شرقاً: مسافة من الأرض نحو الميل.

(٣) حديث «ولو أنها قطعت طيلها»... إلخ. جزء من حديث طويل متفق على صحته رواه الشيخان.

وأوله: «الخيل لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر»، وهو عند البخارى في كتاب المساقاة.

(٤) حديث «لو كان للموت دواء لكان السن»... إلخ. صحيح أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٤٠٤/٤) مستدرک، والله أعلم.

(٥) حديث «عليكم بالسنا والسنوت»... إلخ. أخرجه ابن ماجه والحاكم، وأورده السيوطى فى جامعه ورمز له بالحسن، وزاد: «فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام وهو الموت». قال المناوى قال الحاكم: صحيح، وتعقبه الذهبي بأن عمرو بن بكر اتهمه ابن عدى بأن له مناكير (٣٤١/٤).

وتشكل حرفيتها بنحو قولهم: رب رجل كريم أكرمت؛ لأن حروف الجر موضوعة لإفضاء بفعل معناه آيل إلى مفعول لولاها لم يفض إليه؛ فأكرمت يتعدى بنفسه فلا يحتاج إلى تعدية بحرف فإن زعموا أنه إنما عدى به لضعفه عن العمل بالتأخير كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، قيل لهم: المَطْرَدُ في مثله أن يتعدى الفعل باللام لما فيه من معنى الاختصاص دون غيرها من الحروف الجارة.

وتشكل أيضاً بنحو قولهم: رب رجل كريم لقيته؛ لأن الفعل لا يتعدى إلى المفعول بالحروف وإلى ضميره بنفسه؛ فلا يجوز أن تقول: لزيد ضربته، ولا للرؤيا تعبرونها إجماعاً. فإن زعموا أن «أكرمت» جملة وقعت صفة للرجل والعامل في المجرور محذوف مقدر بما يساعد عليه المعنى قيل لهم: هذا المقدر غير محتاج إليه لاستقامة معنى الكلام بدونه، فتقديره غير سائغ؛ على أن المعنى لا يساعد على تقديره من غير لفظ ما ذكر بعده ومن غير معناه، فلقبته هو العامل، والضمير للمصدر المدلول عليه بالفعل لا للمجرور، كما قالوا في قول الشاعر: (من بحر البسيط)

هذا سراقه للقرآن يدرسه والمرء عند الرشا إن يلقها ذئب

أى يدرس الدرس، ولقيت اللقاء. قيل لهم: هذا تخريج على ما هو قليل الورد في كلامهم، ونحو «رب رجل كريم لقيته» شائع فيه؛ فلا يسوغ ترجيح القليل النادر على الكثير الشائع. فإن زعموا أن «لقيته» صفة ثانية وهي مفسرة للقيت مقدر يعمل فيه قيل لهم: أجمعوا على أن ما لا يجوز أن يعمل بنفسه لولا شاغل شغله لا يفسر عاملاً. وأجمعوا على أن الصفة لا تعمل في الموصوف ولا فيما تقدمه؛ فلا يجوز أن تفسر عاملاً يعمل فيها. على أنه لم يثبت في كلامهم تفسير عامل المجرور بفعل ظاهر بعده؛ فلا يجوز أن يقال: بزيد جاوزته، على أن التقدير مررت بزيد جاوزته، بل زيدا مررت به على التقدير: جاوزت زيدا.

وعند الأخفش والكوفيين هو اسم موضوع لإنشاء التقليل كما أن «كم» اسم موضوع لإنشاء التكثير، وهما مضافان للنكرة بعدهما. وإنما لم تدخل العوامل اللفظية على «رب» ولا عمل فيها ما بعدها كما دخلت على «كم» وعمل فيها

الفعل بعدها؛ لأن «رب» لما وضعت لإنشاء التقليل ضارعت أدوات النفي: في لزوم الصدر، وعدم دخول حروف الجر عليها، وعمل ما بعدها فيها. بل لزم الابتداء؛ لأن عامله معنوي؛ فهي دائماً عندهم مبتدأ لا خبر له كما في قوله: أقل رجل يقول ذلك إلا زيد.

ومثله قول المتنبي: (من بحر المديد)

غير مأسوف على زمن ينقضى بالهم والحزن

والمعنى لا تتأسف على ما هذه الصفة صفته، فلما استقام المعنى بدون وجود اللفظ ولم يتوقف على تقديره وجب الاستغناء عنه كما في قولهم: أقائم الزيدان، وذلك أن قولنا: رب رجل لقيته، قليل من هذا الجنس. وكثيراً ما تطلق القلة ويراد بها النفي لاستلزامها إياه؛ ولذلك كان لها الصدر، ولا يتقدم عليها عامل لفظي؛ فوجد أن يكون المعنى: ما لقيت من هذا الجنس إلا رجلاً واحداً؛ لأنه جواب لقول من قال: هل لقيت أحداً؟ وهذا المعنى تام في نفسه من غير أن يتوقف على تقدير شيء.

ويؤيده ما يحكى عن أبي عمرو بن العلاء أن «رب» لا عامل لها لأنها ضارعت النفي، والنفي لا يعمل فيه عامل، ولكونها بمعنى النفي التزموا أن يصفوا مجرورها بجملة فعلية، كقولهم: رب رجل لقيته، ورب غلام اشتريته؛ لأن النفي يطلب الفعل طلباً حثيثاً، كما التزموا ذلك في قولهم: أقل رجل يقول ذلك إلا زيد؛ ولذلك وصف المتنبي زمناً في قوله:

* غير مأسوف على زمن *

بجملة فعلية؛ لأن المعنى لا تتأسف على زمن ينقضى متلبساً بالهموم والأحزان. لكن «رب» لما كانت تستعمل في معنى الكثرة عل وجه الاستعارة كثيراً خرجت لذلك على معنى النفي؛ فجاز في مجرورها أن يوصف بجملة اسمية، كقول الشاعر:

* يا رب هيّجا هي خير من دعه *

أو باسم مفرد كقوله عنه: «رب كاسيات في الدنيا عاريات يوم القيامة».

والأكثر الأفصح في كلامهم أن يوصف مجرورها بجملة فعلية مراعاة لأصلها وإن استعيرت للتكثير، كقول الأعشى: (من بحر الخفيف)

رب رُفد نصعته ذلك اليَوْمُ م وأسرى من مشعر أقيال

وقول امرئ القيس: (من بحر الطويل)

ألا رب مكروب كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفّساً

قولي: مجرور برب على أنها حرف جر هو مذهب سيويه والبصريين، وبالإضافة إلى مذهب الأخفش والكسائي والكوفيين. أض: فعل ناسخ. القواء: اسمه. وغمي: خبره، والجملة الفعلية صفة لمجرور «رب»، والباء من به: سببية، والضمير راجع على قوى. وقد: حرف تحقيق. كان: ناقصة، اسمها غماء. منهم: شبه جملة في محل خبرها. والقحوط: جمع قحط: مضاف لمحدوف دخل عليه حرف الجر، وهو زمن القحوط، متعلق بالكون، وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢] ففي ذلك زاجر لكم عن الانهماك في شهوات الدنيا والاختار بعزها، فإنهم كانوا كما كنتم بل أشد قوة وآثاراً، وستعودون كما عادوا، وتبيدون كما بادوا.

قال الشاعر وهو عمرو بن الحارث الجرهمي: (من بحر البسيط)

يا أيها الناس سيروا إن قصدكم أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا

حثوا المطايا وارخوا من أزمتهـا قبل الممات واقضوا ما تقضونـا

كنا أناساً كما كنتم فغيرنا دهر فأنتم كما كنا تكونونا

كان الله لنا في الحاليتين، آمين.

باب ما يكسر فيقصر ويفتح فيمد مع اختلاف المعنى

يعنى أنه إذا كسر قُصر ولا يمد، وإذا فتح مد فلا يقصر، فغاية المكسور أن يكون مقصوراً، وغاية الممدود أن يكون مفتوحاً؛ فلا مد لمكسور، ولا قُصر لمفتوح؛ فهو عكس الباب الذى قبله؛ لأنه قدم فى هذا الباب المكسور فقصره، وآخر المفتوح ومدّه.

• فقال:

٨٨ - سَوَى مَسَلِّكَ الْأَبْرَارِ يَمِّمْ سَوَاءً فِدَاكَ نَفُوسٌ عَافَهُنَّ فِدَاءً
 قوله: سوى، بالكسر والقصر: عبارة عن نفس الشيء أو عينه، وهى لغة نادرة من باب تسمية الشيء باسم نقيضه لم تسمع إلا فى الشعر، كما قيل: (من بحر الرجز)

كأنها نائحة تفجع تبكى لمت وسواها موجه

أى نفسها موجهة.

ومنه قول حسان بن ثابت: (من بحر الطويل)

أتانا ولم نعدل سواه بغيره فجدنا له بالنفس والمال والنسل
 أى لم نجعل لنفس النبى ﷺ عدلاً أى مساوياً يماثله فى المودة والإكرام والطواعية.

والعدل، بفتح العين وقد تكسر: أحد جانبي الحمل، والحمل بالفتح أيضاً، وقد تكسر، قال الله تعالى:

﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢]. قال المبرد: إذا أريد به عدل الحمل فتح، وإذا أريد به إحدى الغرارتين كسر.

وسواء، بالفتح والمد: وسط الطريق. قال موسى عليه السلام: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، وقال الله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٥٥]، والفدا، بالكسر والقصر: جمع فدية، وهو ما يفدى به. قال الله

تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].
وقال ﷺ: «لا فدية في الإسلام ولا سباء».

ولما هزم رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر فقتل سبعين من أشرافهم وأسر سبعين اختلف أصحابه ﷺ؛ فدنهم من كان هواه قتلهم، منهم عمر وسعد بن معاذ، ومنهم من كان هواه الإبقاء عليهم، منهم أبو بكر؛ وكان ذلك هوى رسول الله ﷺ، ومنهم من كان هواه أخذ الفداء لفاقة المهاجرين وإبقاء على قومه. وكان الفداء أربعمائة درهم عن كل أسير، فلما تم الأمر نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] فهذه الآية من جملة الآي التي وافق الله فيها رأى عمر، فتفتح النبي ﷺ وأبو بكر - رضی الله عنه - وجعلا يبيكان فأتاهما عمر - رضی الله عنه - فقال لهما: ما لكما تبكيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: كاد العذاب أن ينزل لأخذنا الفداء واستبقاء المشركين^(١). فخير النبي ﷺ أصحابه بين أخذ الفداء ويقتل منهم العام القابل عدد الأسارى وبين أن يتركوا الفداء ولا ينال المشركون منهم نيلا، فاختاروا أخذ الفداء على أن يقتل منهم العام القابل مثلهم، قال: ما نكره من الشهادة مع ما نتقوى به على جهاد العدو من الفداء، فقتل منهم بأحد سبعون.

فإن قلت: ما وجه كراهة الله الفداء والإبقاء مع أنه لو شاء لنسخه كما نسخ سائر الأحكام؟

قلت: الوجه فيه أن ذلك وافاهم وقد أمضوا القضية فيكون في نقضها أمران محذوران:

أحدهما: نقض العقود بعد إبرامها وتوكيدها وذلك ممنوع في سائر الشرائع.

الثاني: القتل بعد التأمين وهو أيضاً محرم لما فيه من إيهاام الغدر؛ فبين الله لرسوله وأوليائه ما هو أولى، ثم أبرم أمره وأمضى حكمه مع ما قضى في سابق علمه أنه سيكون: من إباحة الفدية والغنائم لهذه الأمة، وقتل من قتل بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولما في ذلك من التسلي لهم إذ قد تسبوا له ورضوا به

(١) لا صحة لتكون النبي ﷺ خمر وجهه وبكى هو وأبو بكر لنزول الآية.

قبل وقوعه .

ولقد كان في هزيمة أحد وما أصاب المسلمين من الفوائد والتأييدات ما لا يدخل تحت حصر؛ منها: تجميع المسلمين، وكرامة من مات منهم بالشهادة، وكسر ساحة أنفسهم؛ لأنهم لما هزموا جموع فھر بيدر أشرت^(١) نفوس من لا فقه له منهم؛ فظن أن ذلك لشدة بطشهم وبسالتهم؛ فلما أصابهم ما أصابهم يوم أحد انكسرت أفئدتهم، فتاب الله عليهم لأنه عند المنكسرة قلوبهم من أجله .

ومن الدلائل على أشر أنفسهم ما روى أن رسول الله ﷺ لما فصل من بدر فبلغ الروحاء^(٢) لقيه المسلمون يهتئون بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش: لا تهتئونا به، فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعقلة فنحرنها؛ فنبسم رسول الله ﷺ ثم قال: يا بن أخي أولئك الملاء، ولكن وقى الله شرهم وأعان عليهم بجنود السماء .

ومنها: أن المنافقين كانوا يكتُمون نفاقهم قبل وقعة أحد، فلما وقعت أظهروا الشماتة وبينوا ما كان في ضمائرهم، فعلم المسلمون أن لهم عدواً بدارهم .

ومنها: أنه كان سبياً لنقض يهود ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من المواثيق، فأفاء الله على رسوله أموالهم، فقتل قريظة على دم واحد، وأجلى النضير وقينقاع وهذيل إلى أذرعات وخيبر .

وحكمة الله اقتضت أن ينال من الرسول أولاً ثم ينالون، وذلك أنهم لو نُصروا دائماً لدخلهم من ليس منهم، ولو كسروا دائماً لذهبت فائدة الرسالة .

وقوله: فذاك: يحتمل أن يكون منصوباً على أنه مفعول لجعل محذوف، ونفوس مفعوله الثاني، فتقول: جعل الله فداك نفوساً، وهو مصدر بمعنى الدعاء، فتقول: فذاك، بالإضافة، وتقول: فدى لك، فإذا أضيف عمل فيما بعده، وربما جرى به بدلاً من فعله، ويكثر ذلك في المصادر اللاتية بمعنى الدعاء، كقول الخنساء بنت الشريد: (من بحر الوافر)

(١) أشر: بطر ومرح، والبطر غير وارد في حق الصحابة حتى قليلى الفقه منهم، والله أعلم .

(٢) الروحاء: بئر بين المدينة وبدر، وهو عن المدينة قرابة ٧٠ كيلو متراً .

فدى للفأرس الجشمى نفسى وأفديه بمالى من خليل^(١)

ومنه: سحقاً وبعداً وجدعاً وسقياً وغوثاً ولا كرامة وتباً ورويداً ومهلاً وسهلاً وأهلاً، إلى غير ذلك، وإن شئت زفعت (نفوس) على أنها فاعل للمصدر المحبوس بالإضافة، كقول الشاعر: (من بحر البسيط)

أفنى تلامي وما جمعتُ من نَشَبٍ قرعَ القواقيز أفواهَ الأباريتي^(٢)

على القول برفع أفواه وهو مذهب المبرد وابن جنى، وهو مشكل، وإن شئت قلت: نفوس: مبتدأ مؤخر، وفداك: خبره، وسوغ الابتداء به كونه موصوفاً. وكثر استعمال التمدى حتى صار الرجل يقول لصاحبه: إلى أو هلم يا فديتك ويا فدى لك، وربما استغنوا عنه بمتعلقه فيقتضرون على قولهم: بأبى أنت، أو بأبى أنت وأمى، وربما اقتصروا على أبى، ويقولون: فداك أبى، ولا يفدى عندهم إلا السرى^(٣). والمفدون سعد بن أبى وقاص الزهرى، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وبشر ابن الحارث الأنصارى، وعلى يوم قتل عمرو بن عبد ود^(٤).

أى وقاك من كل مكروه يجرى به الزمان بنفوس خبيثة عافهن على تيمم، أى قصد سبيل، كل بر من السلف والخلف، المشمرين خوف الوقوع فى التلف. فداء، بالفتح والمد: كل مائدة وضع عليها ألوان من الأطعمة مما يتباهى به من لا خلاق له من التمر والعسل والثريد والسكر والزبيب والإسفنج^(٥)، وربما صَفَرُوا بعضه بالزعفران. قال الشاعر: (من بحر الوافر).

كَانَ فِدَاءَهُ إِذْ جَرَدُوهُ وَطَافُوا حَوْلَهُ سَكِّ يَتِيمٍ^(٦)

(١) هذا البيت فى النسختين هكذا، وهو غير موجود فى ديوان الخنساء المطبوع. والجشمى: ربما كان معناها النسبة إلى تجشم الأمور الصعبة أى تحملها.

(٢) القواقيز: الكنوس الصغار، وفى بعض النسخ: القوارير.

(٣) السرى: السيد، والنهر الصغير.

(٤) فدى النبى ﷺ علياً يوم قتل عمرو بن عبد ود فى الخندق، وسعد فدى يوم أحد، وفاطمة رضى الله عنها فى مناسبات عدة.

(٥) الإسفنج: كائن بين النبات والحيوان بحرى، ولا يوضع عادة على الموائد.

(٦) السك هنا: الدرهم، ومعناه: سك يتيم فريد، هذا مع أن للسك معانى كثيرة، منها: البثر الضيقة، والطيب، وغير ذلك.

وفيه من البديع التجريد، وهو أن يجرد الإنسان من نفسه شخصاً يخاطبه، فكأنه يقول له: أيها الأخ في الله، انتخب نفسك مسلك الأبرار، والمسلك: هو الطريق الأرحب. والأبرار: الأخيار من كل جيل، واحدهم بر، بغير ألف، ولا تقتصر على مجرد السلوك، بل يمم، أى اقصد وسطه، وكن من خيار أهله، ولا يمنعك من ذلك ما منع اللثام المنهمكين فى طلب ما ضمن لهم، المقصّرين فى تحصيل ما وكل إليهم.

قال ابن عطاء الله: اشتغالك بما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك دليل على طمس البصيرة نسأل الله أن يعافينا من ذلك.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ولما تبرأت الروافض قالوا لابن عمر وقد حاورهم: نبئنا بما يدل على وجوب توليهم من كتاب الله؛ فقال لهم: قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] إلى آخر الآية: فأفحموا؛ فتاب من تاب منهم.

عافهن فداء: فعل وفاعل، والضمير مفعول به، والجملة الفعلية نعت لنفوس.

فإن قلت: مم اشتق الفداء؟

قلت: من الفد، وهو رفع الصوت بالدعوة به، وقيل: لرفع أصوات رعاة الناس وغنائهم حوله. ومن ذلك قوله ﷺ: «الكبر والخيلاء فى الفدادين أهل الوبر»^(١).

وقال الشاعر: (من بحر الوافر)

تجد أغنامهم ولها فديد	إذا جنت حيهم بخصب
ولا للجار عندهم مزيد	فلا أضيفهم يجدون رحباً
وليت دونهم أمدا مديد ^(٢)	فسحقاً ثم سحقاً ثم سحقاً

(١) حديث «الكبر والخيلاء»... إلخ. جزء من حديث صحيح، وقد تقدم.

(٢) الشطر الثانى من البيت مختل الوزن والإعراب.

ثم قال رحمه الله:

٨٩ - وَحَدِّ عَنْ عِنَى الْأَهْوَاءِ تَكْفُفَ عَنَاءِهَا

فَعِزُّ الْعِزِّيِّ أَنْ يُسْتَادَمَ عَزَاءُ

فقوله: حد، أى مل وانحرف. قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ن: ١٩] أى تُثْبِرُ وتثفر. عن: حرف جر متعلق بحد. وعنى، بالكسر والقصر: حافة الشيء وناحيته والقصد إليه، تقول: عنيت كذا: قصدته دون غيره.

يروى أن مروان بن الحكم أيام ولايته على المدينة وقف يوماً على الحسن رضى الله عنه، فجعل يسب علياً رضى الله عنه والحسن معرض، فقال له مروان: إياك عنيت؛ فقال الحسن: وعنك أعرضت؛ فجعل مروان وانصرف، وقد فهم أن الحسن يعرض له بقوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فاقتصر منه من غير فحش بل بمجرد الفحوى.

والعناء، بالفتح والمد: التعب. والعزى، بالكسر والقصر: جمع عزة، وهى الفرق الضالة، قال الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المارج: ١٢٧]. والعزاء، بالفتح والمد: الصبر، وإذا أطلق فهو الصبر عن الميل.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

تَعَزَّ فَلَ شَيْءٌ عَلَى الْأَرْضِ بِأَقْبَا
وَلَا وَرَّرَ مَا قَضَى اللَّهُ وَأَقْبَا

وقال غيره: (من بحر الطويل)

تَعَزَّ لَمَّا قَضَى اللَّهُ دَافِعٌ
وَلَا شَيْءٌ فِى دَهْمِ الْمَنِيَةِ نَافِعٌ

قوله: فعز العزى: وهو الانتماء إلى مذهب من المذاهب؛ إما أن يكون إلى آباء الحق والحقيقة ﴿وَمَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، ولا يتوصل إلى ذلك إلا بالعزاء الذى هو الصبر بأنواعه الثلاثة؛ فيحصل حينئذ هذا الاحترام بسبب كونك محققاً غير مبطل؛ إذ المنتسبون منهم محقق وهو المفتى المصابر الصابر، ومنهم المبطل، وهو المدعى المخلف

المدابر، ومنهم المُنْتَفَى لأهل الأهواء، الطالب للهباء، فَسَعِيه باطل وَقَصْدُه عاطل، وهم أهل الأهواء الذين يتبعون ما سولت لهم به أنفسهم من غير هدى من الله أتاهم، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، فهذه الآية وإن نزلت في المشركين فإنها تشمل أهل الأهواء من الخوارج والرافضة والشيعة والقدرية والجبرية والمرجئة والزيدية والصفورية والمعتزلة والإباضية والإسماعيلية^(١) وغير ذلك من أهل البدع؛ لأن رسول الله ﷺ قال: افتقرت اليهود إلى سبعين فرقة، وافتقرت النصارى إلى إحدى وسبعين فرقة، وستفترق أمتي إلى اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة وهي الناحية، فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن الواحدة، قال: الذين اتبعوا ما أنا عليه وأصحابي^(٢).

وقال ﷺ: «الخوارج كلاب النار».

وقال ﷺ في شأن ذى الخويصرة لما قال لرسول الله ﷺ عندما أعطى المؤلفه قلوبهم: أعدل يا محمد؛ فإنني أرى قسمة ما أريد بها وجه الله؛ فتلون وجه رسول الله ﷺ وقال: من يعدل إن لم أعدل؟! فقال له أصحابه: دعنا يا رسول الله

(١) هذه كلها فرق إسلامية، كل فرقة تدعى أنها على صواب وأن ما سواها من المسلمين ضال ومنحرف.

والحق أن كل فرقة تمسكت بسنة رسول الله ﷺ فهي ناجية، وعلى قدر بعدها من السنة تقرب من الضلال، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(٢) حديث «افتقرت اليهود إلى سبعين فرقة»... إلخ. صحيح، أخرجه الأربعة والحاكم وابن حبان بالفاظ كثيرة، وصححه. كما أورده السيوطي تحت رقم ١٢٢٣ بدون ذكر «كلهم في النار».

قال المتاوى: قال الزين العراقي: أسانيد جياذ. ورواه الحاكم من عدة طرق، ثم قال: هذه أسانيد تقوم بها الحجة، وعدة المؤلف من التواتر (٢٠/٢) ف.

وأورده بلفظ آخر صاحب الكشف تحت رقم ٤٤٦ وأورد له طرقاً كثيرة والفاظاً مختلفة منها، قال: رأيت في هامش الميزان المذكوراً في تخريج أحاديث مسند الترمذ لل حافظ ابن حجر بلفظ: «فتفرق أمتي على بضع وسبعين فرقة، كلها في الجنة إلا واحدة وهي الزنادقة». اهـ. وأسنده (١٦٩/١).

قلت: والتوفيق بين الروايتين إن صحت الثانية أن أهل الجنة في الرواية الثانية مالا، أي مآل جميع الفرق الجنة إلا واحدة، والله أعلم.

نضرب عنقه؛ فقال: ذروه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، وإنه يخرج من ضؤضؤ هذا الرجل أقوام هم أشد على أمتي من الروم، ولو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد. ثم التفت إلى علي فقال: هذا وشيعته تقاتلونهم حتى تقتلوا ذا الشدية، فقالوا: وما ذو الشدية؟! قال: رجل يده كئدى المرأة تدر دراً^(١).

فقال أبو هريرة: أشهد لقد سمعته من رسول الله ﷺ، ولقد قاتلتهم مع علي، فلما قتلناهم أمر علي بالتماسه في القتلى؛ فالتمسناه؛ فوجدناه في القتلى؛ فجئنا به إلى علي، فجمع الصحابة حتى رأوه؛ ليكونوا على بصيرة من أمرهم، وليروا هذا العلم من أعلام نبوته ﷺ؛ ليزدادوا إيماناً و يقيناً؛ فرفعوا عند رؤيته أصواتهم بالتكبير.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:

١٥٩] فالمشهور أنها نزلت فيهم.

ومعنى قول الناظم: وحد، أى: مل عن سبلهم إلى اتباع سنة الرسول، وصالح السلف تكف معاناتها، وتكف التعب والمشقة الناشئين عن تلك الأهواء عاجلاً وآجلاً؛ إذ هم قد تكلفوا من تلقاء أنفسهم ما لم يأت النبيُّ به، ولا سنَّه أصحابه من بعده، ولولا أن القرآن محفوظ لحرفوه، بل حرفوا معانيه بحسب أهوائهم الفاسدة، وكان غرضهم إبطال الدين وذهاب أصله بتكفيرهم أصحاب رسول الله ﷺ، إذ هم الذين حملوا إلينا الكتاب المبين، وبلغوا لنا السنة والدين، وقارعوا عنه الزحوف حتى أذاقوهم الحتوف، وجردوا السيوف طلباً لمرضاة الله، وأن تكون كلمة الله هي العليا حتى أتاهم اليقين، فلا يغيظون إلا كافرين مكابراً، وبذلك استدل مالك على كفرهم^(٢). فمن لم يتبع سنتهم وعصى أمرهم فقد دخل في زمرة الأذلين، ومن لم يحبهم ويتولهم فهو في سواد المنافقين.

(١) حديث ذى الخويصرة متفق على صحته، رواه الشيخان وغيرهما بالفاظ كثيرة باستثناء قوله:

«أقوام هم أشد على أمتي من الروم... إلى ثم التفت إلى علي فقال: هذا وشيعته تقاتلونهم» فهذا القدر لم أجده في الروايات الصحيحة، والله أعلم.

(٢) الضمير عائذ على الخوارج، والخلاف فيهم مشهور.

قال الرسول ﷺ: «احفظوني في أصحابي لا يطالبكم الله بحقهم، فإن الذنب فيهم ليس كالذنب في غيرهم، فإنه ليس مما يتركه الله».

وقال ﷺ: «إذا ذكرتهم أصحابي فاذكروهم بخير أو أمسكوا، وإذا ذكرتهم القدر فأمسكوا».

وقال: «أصحابي يهفون من بعدى هفوة تغفر لهم بصحبتى وسابقتهم، وإنه يأتي من بعدهم أقوام يترخصون للقتال بما وقع بينهم؛ فيكبههم الله في النار على مناخرهم»^(١).

وقال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(٢).

وقال: «أنا أمان لأصحابي، فإذا مت أتى أصحابي ما يوعدون».

وفي الصواعق المحرقة للسيوطي قال: قال رسول الله ﷺ: «لحوضي أربعة أركان: فأبو بكر رضى الله عنه على ركن من أركانه، وعمر رضى الله عنه على ركن، وعثمان رضى الله عنه على ركن، وعلى رضى الله عنه على ركن، فمن أحب أبا بكر وأبغض عمر لم يسقه أبو بكر، ومن أحب عمر وأبغض أبا بكر لم يسقه عمر، ومن أحب الشيخين وأبغض عثمان لم يسقه الشيخان، ومن أحب عثمان وأبغض الشيخين لم يسقه عثمان، ومن أحب علياً وأبغض عثمان لم يسقه علي، ومن أبغض علياً وأحب عثمان لم يسقه عثمان، ولا يشرب من حوضي إلا

(١) هذه الأحاديث الثلاثة لم أجد لها سنداً عن النبي ﷺ.

(٢) حديث «أصحابي كالنجوم»... إلخ. موضوع، رواه ابن عبد البر: في جامع العلم (٩١/٢)، وابن حزم في الأحكام له (٨٢/٦).

وقال ابن عبد البر: هذا إسناد لا تقوم به حجة. وقال ابن حزم: هذه رواية ساقطة، أبو سفيان ضعيف، والحرث بن غصين هو أبو وهب الثقفي، وسلام بن سليمان يروي الأحاديث الموضوععة، وهذا منها بلا شك. اهـ.

وقد أورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٥٨ وحكم عليه بالوضع وقال: الحمل في هذا الحديث على سلام بن سليم، ويقال: ابن سليمان، وهو الطويل، فإنه مجمع على ضعفه، بل قال ابن خراش: كذاب، وقال ابن حبان: روى أحاديث موضوععة (٧٩/١).

قلت: أبو سفيان ليس ضعيفاً كما قال ابن حزم بل هو صدوق كما قال الحافظ في التقریب، وقد أخرج له مسلم في صحيحه، والله أعلم.

من أحب جميع أصحابي»^(١).

وقال: «حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلى واجب كوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج»^(٢).

الإعراب: حد: فعل أمر. عن عني: جار ومجرور. الأهواء: مضاف إليه ما قبله. فالتقدير: حد عن أهل الأهواء، أو عن طريق الأهواء؛ إذا الأهواء أمور معنوية لا يسند إليها بالاستقلال. تكف: مبنى للمجهول، وهو جواب الأمر. نائبه مستتر. عناءها: مفعول لتكف ومضاف. فعز العزى: مبتدأ ومضاف إليه، والفاء سببية. أن يستدام: أن مصدرية ناصبة ليستدام: مركب للمجهول، ونائبه عزاء. والجملة خبرية، فهو مبتدأ ثان لأنه يفهم من سياق الكلام، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، فهو في قوة قولك: عز العزى هو استدامة العزاء.

وبالجملة: فالصبر محمود إلا عن رسول الله ﷺ. قال الشاعر (من بحر الكامل)

والصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمده

ولذلك قال: «من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني، وليس من حقي أن أجفني»^(٣).

يروى أن زيد بن خارثة كان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فجاءه يوماً وكان قد نزفه الدم، قال له مالك يا زيد؟ قال: ما بي من مرض إلا

(١ و ٢) حديث «لحوضي أربعة أركان»... إلخ. وحديث «حب أبي بكر وعمر إلخ» لم أجد لهما سنداً ثابتاً إلى النبي ﷺ.

(٣) حديث «من حج البيت فلم يزرني»... إلخ. موضوع، رواه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء وفي غرائب مالك للدارقطني.

وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٥٤ وقال: موضوع.

وقال الذهبي في الميزان: موضوع (٢٣٧/٣)، كما أورده الصغاني في موضوعاته، والزرکشي

وابن الجوزي والشوكاني. وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٤٦٠ ورقم ٢٧١٢ وقال عند الرقم

الأول بعد إيراد كلام ابن حجر فيه: ومع هذا فلا ينبغي الحكم عليه بالوضع فتدبر. وقال عند

الرقم الثاني بعد إيراد النقول عنه: ولا يصح.

ملحوظة: (وليس من حقي أن أجفني) لم أجد لها، والله أعلم.

أنى إذا غبت عن عيني استوحشتُ فلا يسكن جأشى حتى أراك، ثم أنشأ يقول:
(من بحر الوافر)

ألا يا صاحب الوجه الملبح بحقك لا تغب فأت روح
إذا ما غاب وجهك عن عياني عُدِمْتُ فلا يرى إلا ضريح
فراق مُغْرَمٍ فى الحب أمسى وأصبح ذا أسى دَنَفًا طريح
محب ضاق بالأدواء ذرعًا وآوى منك للكرم الفسيح

فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر فأنت معى فى درجتى يوم القيامة».

ويروى أنه كان رجل من الأنصار قلما يفارق مجلس رسول الله ﷺ، وكان لا يجلس إلا قبالة وجهه؛ فلا يزال يتأمل وجهه الشريف، فقال له رسول الله ﷺ: «مالى أراك تتأمل وجهى كثيراً؟ فقال: أتمتع بالنظر إليك فى الدنيا قبل يوم القيامة فىنى أخاف أن لا أراك، فإن دخلت النار فىنى لا أراك أبداً، وإن دخلت الجنة كنت فى درجات الأنبياء وكنت فى درجة دون ذلك، فسكت رسول الله ﷺ حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69] فتلا عليه رسول الله ﷺ الآية. فما فرح أصحاب رسول الله ﷺ بشيء فرحهم بهذه المعية الشريفة.

وهناك معية أشرف من هذه وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128] إلا أن بينهما مغايرة: فالنبوة تقتضى المكان، بخلاف الربانية فإنما هى بالنصر والمعونة. وقيل: بالمكانة لا بالمكان.

يروى أن النبى ﷺ قال: «حُبُّ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

وقال أبو بكر: حُبُّ إِلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَلَاثٌ: النَّظَرُ إِلَيْكَ، وَالْجُلُوسُ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَإِنْفَاقُ الْمَالِ عَلَيْكَ.

وقال عمر: حُبُّ إِلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَلَاثٌ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ،

(١) حديث «حُبُّ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ»... إلخ. سبق تخريجه. وقد اتفق الحفاظ على أن كلمة (ثلاث) ليست من الحديث، والله أعلم.

وإذلال أهل الشرك.

وقال عثمان: حُب إلى يا رسول الله ثلاث: تلاوة القرآن، ومداومة الإحسان، ومواساة الإخوان.

وقال على كرم الله وجهه: حُب إلى يا رسول الله ثلاث: صيام الصيف، وإكرام الضيف، والضرب بين يديك بالسيف.

ومن علامة فضيلة أبي بكر أن كان جميع ما حُب إليه في رسول الله ﷺ، فهو حبه وخليفته دون مدافع ومن غير نزاع.

قال محمد بن إسحاق: لما تُوفى رسول الله ﷺ، وارتفعت الرنة، وسجى، دهش الناس، كما روى عن غير واحد من الصحابة، وطاشت عقولهم، وأفحموا، واختلطوا؛ فمنهم من خبل، ومنهم من أصمت، ومنهم من أقعد، فكان عمر رضى الله عنه ممن خبل، فجعل يصيح ويقول: إن رجلاً يقولون مات رسول الله ﷺ! والله ما مات رسول الله، ولا يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجل آخرين، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات. وأما عثمان بن عفان فقد أصمت حتى جعل يُذهب به ويهجا ولا يتكلم. وأقعد على رضى الله عنه فلم يستطع حراكاً، وأضنى^(١) عبد الله بن أنيس فمات مكانه، وبلغ الخبر أبا بكر وهو بالسنح^(٢)؛ فجاء وعيناه تهملان. وزفراته تتردد في صدره، وغُصصه^(٣) ترتفع كقطع الحجارة، وهو في جميع ذلك جلد العقل والمقالة، حتى دخل على رسول الله ﷺ، فأكب عليه، وكشف عن وجهه، فمسحه، وقبل جبينه، وجعل يبكى ويقول:

بأبي أنت وأمي، طبتَ حياً وميتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء؛ فعظمت رزيتك عن الصفة، وجلت عن البكاء، وخَصَصَتْ حتى صارت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولو أن موتك كان بالاختيار لجدنا عنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشجون، وأما ما لا

(١) أضنى: مرض.

(٢) السنح، بضم السين: موضع بالعوالي جنوب شرق المدينة.

(٣) غصصه: أى شىء اعترض في صدره.

نستطيع فيه عنا فكمد وحزن يتخالفان لا ييرحان، اللهم فأبلغه عنا السلام، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن منك على بال، فلولا ما خلفت من السكينة لم نقم بما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا السلام، واحفظه فينا.

ثم خرج إلى الناس وهم في عظيم غمратهم، وشديد سكراتهم، فقام فيهم بخطبة، جلها الصلاة على النبي ﷺ، ثم قال:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه، وأشهد أن الكتاب كما أنزل، وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين... في كلام طويل ثم قال:

أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وإن الله قد قدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]، وإن الله سبحانه قد اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى جواره، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه؛ فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 135]، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتنكم عن دينكم؛ فعاجلوا الشيطان بالخزي تعجزوه، ولا تستنظروه فيلحق بكم.

فلما فرغ من خطبته التفت إلى عمر فقال: يا عمر، أنت الذي بلغني عنك أنك تقول على باب رسول الله ﷺ: والذي نفس عمر بيده ما مات نبي الله؟! أما علمت أن رسول الله ﷺ قال يوم كذا: كذا وكذا، وقال الله في كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، فقال عمر: والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل ذلك اليوم لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما أنزل، وأن الحديث كما حدث، وأن الله حي لا يموت، صلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله.

ولما سرى عن عمر وأيقن بوفاة رسول الله ﷺ بقول أبي بكر وقع إلى الأرض لا تحمله رجلاه، فقال: (من بحر الطويل)

لعمرى لقد أيقنتُ أنك ميتٌ
وقلت بغيب الوحي عنا لفقده
وكان هوائى أن تطول حياتهُ
فلما كشفنا البرد عن حرٍّ وجهه
فلم تك لى عند المصيبة حيلةٌ
سوى أذان الله الذى فى كتابه
وقد قُلت من بعض المقالة قوله
ألا إنما كان النبى محمداً
ندين على العلات منأً بدينه
فوليت محزوناً بعين سخينة
وقُلت لعينى كل دمع خزنته

ولكن ما أبدى الذى قُلته الجزعُ
كما غاب موسى ثم يأتى كما رجعُ
وليس لحيٍّ فى بقا ميتٍ طمعُ
إذا الأمر بالجزع المرعب قد وقعُ
أرد بها أهلَ السماتة والفرعُ
وما آذنَ اللهُ العبادَ به وقعُ^(١)
لها فى حلوق الشامتين بها شيع
إلى أجل وافى به الموتُ فأنقطعُ
فنعطى الذى أعطى وثنع ما منعُ
أكفكف دمعاً والفقوادُ قد انصدعُ
فجودى به إن الشجى له دفعُ

وذكر موسى بن عقبة أن المقام الذى قام به أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد الذى كان من عمر رضى الله عنه من القول هو أنه خرج سريعاً إلى المسجد يتوطأ رقاب الناس حتى أتى المنبر وعمر يكلم الناس؛ فجلس عمر حين رأى أبا بكر مقبلاً، فقام أبو بكر على المنبر، وأمر الناس بالجلوس؛ فجلسوا وأنصتوا، فتشهد شهادة الحق ثم قال: إن الله قد نعى لكم نبيكم ونعاه لنفسه وهو حى بين أظهركم، ونعاكم لأنفسكم، فما هو إلا الموت حتى لا يبقى أحد إلا الله تعالى، فإنه يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ٢٦ ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦].

[٢٧].

(١) شطر هذا البيت لا يستقيم وزنه هكذا.

ثم إن الله عمّر محمداً وأبقاه حتى أقام دين الحق، وأظهر أمر الله، وبلغ رسالة الله، وجاهد أعداء الله حتى توفاه الله صلوات الله عليه وهو على ذلك، وترككم على الطريقة المثلى؛ فلا يهلك هالك إلا من بعد البيعة، فمن كان الله ربه فإن الله حي لا يموت؛ فليعبده، ومن كان يعبد محمداً ويراه إلهاً فقد هلك إلهه، أفيقروا أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم؛ فإن دين الله قائم، وإن كلمته باقية، وإن الله ناصر من ينصره، ومعز دينه، وإن كتاب الله بين أظهرنا هو النور والشفاء، وبه هدى الله محمداً، وفيه حلال الله وحرامه، والله لا يُبالي بمن أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهدن من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ؛ فلا يبكين أحد إلا على نفسه.

ثم انصرف وانصرف المهاجرون معه.

قال ابن إسحاق: فلما توفى رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين؛ فكانت عائشة فيما بلغني تقول لما توفى رسول الله ﷺ: ارتدت العرب، واشربأت^(١) اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، حتى جمعهم الله على أبي بكر.

وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثر أهل مكة لما توفى رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد؛ فتواری؛ فقام سهيل بن عمرو، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه. فترجع الناس، وكفوا عما هموا به، وظهر عتاب.

وقد تقدم لنا أن رسول الله ﷺ قال في سهيل بن عمرو لعمر بن الخطاب وقد قال له: انزع ثنيتي سهيل ليدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال له رسول الله ﷺ: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه فيه». فكان هذا المقام المتقدم هو الذي أراد رسول الله ﷺ، وهذا أيضاً من أعلام نبوته، إذ قاله يوم بدر، ولم يظهر مصداقه إلا بعد وفاته.

(١) اشربأت: ظهرت وباتت رؤوسها بعد أن كانت منخفضة.

ولما انصرف الناس قالت فاطمة لعلی: یا أبا الحسن، دفنتم رسول الله ﷺ؟
قال: نعم، قالت: كيف طبأت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ؟! أما
كان في صدوركم رحمة لرسول الله ﷺ؟! أما كان معلم الخير؟! قال: بلى،
ولكن أمر الله لا مرد له، فجعلت تبكي وتندب: وأبتاه، أجب رباً دعاه، وأبتاه
في جنة الفردوس مثواه، وأبتاه إلى جبريل نعاها.

ولقد كان رسول الله ﷺ أسراً إليها في مرضه أنه مقبوض؛ فبكت شفقةً من
فراقه، فأسر لها ثانية أنها أول أهله لحوقاً به؛ فضحكت راضية بالموت، مسرورةً
به، في جنب ما تستعجله من لقياه في حضرة القدس ومحل الرضوان والكرامة.

فلما رجعت إلى بيتها واجتمع عليها نساؤها قالت منسدة: (من بحر الكامل)

اغبر آفاقُ السماء وكُورَتْ
شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبي كئيبةٌ
أسفاً عليه كثيرةُ الرجفان
فليكه شرقُ البلاد وغربها
وليبكه الطودُ المعظمُ جوه
يا خاتم الرسل المباركِ ضنوه^(١)
صلى عليك منزلاً القرآنِ

وقالت أيضاً لما أخذتُ كفاً من تراب قبره الشريف وجعلت تشمه: (من بحر

الكامل)

ماذا على من شم تربة أحمد
ألاً يشم مدى الزمان غوالياً^(٢)
صبت على مصائب لو أنها
صبت على الأيام عدن ليالياً^(٣)

وجلست أم أيمن - وكانت حبشية - تبكي رسول الله ﷺ وهي حاضته، وقيل
لها: ما يبكيك يا أم أيمن؟! قد أكرم الله نبيه، وأدخله جنته، وأراحه من نصب
الدنيا. فقالت: إنما أبكى على خبر السماء، كان يأتينا غضاً جديداً كل يوم وليلة،

(١) الضنء: الأصل والمعدن. (اللسان/ ضناً).

(٢) صحة البيت كما في نهاية الأرب (ج ١٨، ص ٤٠٣):

ما ضر من قد شم تربة أحمد
ألاً يشم مدى الزمان غوالياً

(٣) (صرن) بدل (عدن).

وقد انقطع ورفع؛ فعليه كنت أبكى. وعجب الناس من قولها وهى عجمية سوداء، وبكوا لبكائها.

وقال أنس بن مالك: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء، ولما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنما لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

وحدث ابن عباس رضى الله عنهما عنه ﷺ أنه يقول: «من كان له فرطان^(١) من أمتى أدخله الله بهما الجنة». قالت عائشة: ومن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال: فأنا فرط لأمتى لن يصابوا بمثلى».

ولله در حسان إذ قال:

وهل عدلت يوماً رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد

وقال ﷺ: «لِعِزِّ الْمُسْلِمِينَ فِي مَصَائِبِهِمُ الْمَصِيبَةَ بِي».

فَيَالِهَا وَاللَّهِ مِنْ مَصِيبَةٍ، أَحْرَقَتْ الْأَكْبَادَ، وَعَمَرَتْ بِالْأَسْفِ وَالْحَزْنَ الْأَمَادَ وَالْأَبَادَ، وَرَزَعًا ثَقِيلًا آد^(٢) أَهْلَ الْإِيمَانِ مِنْهُ مَا آدَ، وَخَطْبًا جَلِيلًا أَوْدَى بِكُلِّ صَبْرٍ جَمِيلٍ أَوْ كَادَ وَلَوْلَا أَنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ رَيْبُ عَلَى الْقُلُوبِ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِأَوْدَتْ مَكَانَهَا كَمَدًّا، وَلَمَّا وَجَدَتْ إِلَى الْبَقَاءِ مَتَسَعًا وَلَا عَنِ الرِّضَا بِاللِّقَاءِ مَلْتَحِدًا، وَلَوْ رَجَفَتْ الْأَرْضُ لَفَقْدَانِ أَحَدٍ لَأَصْبَحَتْ لَفَقْدِهِ رَاجِفَةً، وَلَوْ نَسَفَتْ الْجِبَالُ لَمَهْلَكَ هَالِكٌ لِعَادَتِ رَوَاسِبُهَا عَلَى حُكْمِ الْأَسْفِ مَتَنَافِسَةً، وَلَوْ كَسَفَتْ النَّيِّرَاتُ الْمَصْرَحَ حَى لِأَمْسَتْ دُرُّهَا مَثْوَرَةً، وَلَوْ تَغَيَّرَتْ الْمَشَارِعُ الْمُرُودَةُ لَمُوتِ إِنْسَانٍ لِأَمْرٍ لَمُوتِهِ عَلَى كُلِّ وَارِدٍ عَذِبٍ مَشْرَعِهِ، هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ! ذَلِكَ وَاللَّهِ الرِّزْءُ الْكُبَّرُ، وَالنَّازِلَةُ الَّتِي يَعَى بِهَا الْإِحْتِمَالُ وَالْإِصْطِبَارُ، وَالْخَطَرُ الَّذِي تَصَاغَرَتْ دُونَهُ الْأَخْطَارُ، وَالْخَطْبُ الَّذِي سَقَى بِمَضَايِغِ مَشَاهِدَتِهِ الْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَالْمَفْقُودَ الَّذِي لَا عَوْضَ مِنْهُ أَبَدًا وَلَوْ تَطَاوَلَتْ الدَّهُورُ وَالْأَعْصَارُ، وَلَوْ غَيَّرَ الْأَقْدَارُ أَصَابَتَهُ لَبَدَلَتْ فِيهِ أَعْلَاقَ الْمَهْجِ، أَوْ غَيَّرَ الْمَنَآيَا أَتَتْهُ لَتَعَذَّرَ عَلَى قَاصِدِهِ وَجْهَ السَّبِيلِ الْمُنْتَهَجِ، وَلَكِنَّا السَّبِيلَ الَّتِي لَا

(١) الفرط: ما يقدمه الإنسان من ولده قبل موته.

(٢) آد: أثقل.

يتخطاها سالك، وما سبقت به مشيئة الدائم الباقي الذي كل شيء سواه هالك، فلا مجال في الدفاع، ولا حيلة في الامتناع، ولا شيء يضمه حكم الممكن المستطاع، غير الانقياد لأمر الله والانقطاع، ولهفًا ثم لهفًا عليه، وبإبرح شوق القلوب المشربة بنور الإيمان عليه، وشدة نزوعها إليه، وبالدموع أجريت عليه صلوات الله وبركاته واصلة إليه، لقد أجريت بحرًا، وجرت أجرًا، وحرمت نهياً عن إسبالتها وزجرًا. ولقد كان من يقدم المدينة بعد أن استأثر به مولاه الذي شرح له صدرًا ورفع له ذكرًا إذا أشرفوا عليها سمعوا لأهلها ضجيجًا يصم السمع، وللبيكاء في جنباتها عجبًا أصحل^(١) الخلق ونزف الدموع.

حدث أبو ذؤيب الهذلي قال: إنه بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل؛ فاستشعرتُ حزنًا، وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها، ولا يطلع نورها، فبت أقالس طرلها، حتى إذا كان قرب السحر أغفيت فإذا بهاتف وهو يقول: (من بحر الكامل)

خطب أجل أناخ بالإسلام بين النخيل ومقعد الآطام

قبض النبي محمد فعيوننا تدرى الدموع عليه بانسجام^(٢)

قال أبو ذؤيب: فوثبت من نومي جزعًا، فنظرت إلى السماء ولم أر إلا سعد الذابح فتأولته ذبحًا يقع في العرب، وعلمت أن النبي ﷺ قد قبض، فركبت ناقتي فسرت، فلما أصبحت طلبت شيئًا أرجر به، فعن لى شيهم^(٣)، قد قبض على صل^(٤)، فهو يلتف عليه والشيهم يقضمه حتى أكله، فزجرت ذلك وقلت: الشيهم شيء مهم، والصل التواء الناس على القائم، وأكل الشيهم إياه غلبة القائم بالأمر بعد رسول الله ﷺ، حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر فأخبرت بوفاته، وزجرت غرابًا ناعبًا فنطق بمثل ذلك؛ فتعوذت بالله من شر ما عن لى في طريقي. وقدمت المدينة ولها ضجيج بالبيكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا لإحرام؛ فقلت: مه؟ فقالوا:

(١) أصحل: يح من البكاء.

(٢) كلمة (انسجام) لا تسجم وزنًا مع بحر الكامل.

(٣) الشيهم: ذكر القناذل، ح شيهم.

(٤) الصل: الحية.

قبض رسول الله ﷺ، فممت المسجد، فوجدته خاليًا، فذهبت إلى بيته فإذا هو مرتج وقد خلا من أهله، وقلت: وأين الناس؟ فقيل لي: ذهبوا إلى الأنصار وهم بسقيفة بني ساعدة؛ فجئت الأنصار، فوجدت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة وسالمًا مولى أبي حذيفة وجماعة من قريش، ورأيت الأنصار وفيهم سعد بن عباد وكعب وحسان في ملأ من أشrafهم، فأريت إلى قريش، وتكلم الأنصار وأطالوا الخطاب وأكثروا الصواب؛ فتكلم أبو بكر والله دونه من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخطاب، وقد تكلم بكلام لا يسمعه أحد إلا انقاد له ومال إليه؛ فبوع أبو بكر بعد ما كاد الحرب أن يقع بين الحيين، ثم عصم الله دينه فجمعهم على أفضلهم، ثم انصرفوا إلى الصلاة على رسول الله ﷺ، فصليت معهم، فلما حملوه استعبر أبو بكر، ثم أنشد فقال: (من بحر الوافر)

فقدنا الوحيَ إذ ولَّيتَ عنا فودعنا من الله الكلامُ
سوى ما قد تركت لنا رهينًا تضمنه القراطيس الكرام

وقال أيضا: (من بحر مجزوء الكامل)

كنت السواد لناظري وعليك شاب الناظرُ
من شاء بعدك فليمتُ فعليك كنتُ أحاذرُ

ولما دفنوه استقبل القبر الشريف، فتنهد حتى كاد يرهقه الغشى، وقال: (من بحر الكامل)

لما رأيت نينا متجنـدلا ضاقت عليَّ بعرضهن الدورُ
وارتاع قلبي عند ذاك لهلكه والعظم مني ما حييتُ كسيرُ
أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى فالصبر عنه ما حييت عسيرُ
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي غيبْتُ في جدثٍ عليَّ صخورُ
فلتحدثن حوادثٌ من بعده تعيا بهن جوانحٌ وصدورُ

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ييكي رسول الله ﷺ (من

بحر الوافر)

أرقتُ فبتُ ليلي لا يزول
وأرقتني البكاء وذاك فيما
لقد عظمت مصيبتنا وجلتُ
وأمت أرضنا مما عراها
فقدنا الوحي والتنزيل فينا
وذاك أحق ما سالت عليه
نبي كان يجلو الشكَّ عنا
ويهدينا فلا نخشى ضلّالا
أفاطمُ إن جَزَعْتَ فذاك عذرُ
فقبر أيبك سيدُ كل قبرٍ

وليل أخی المصيبة فيه طول
أصيب المسلمون به قَلِيلٌ^(١)
عشية قيل قد قبض الرسولُ
تكساد بنا جوانبها تميلُ
يروح به ويغدو جبرئيلُ
نفوسُ الناس أو كادت تسيلُ
بما يوحي إليه وما يقولُ
علينا والرسول لنا دليلُ
وإن لم تجزعي ذلك السبيلُ
وفيه سيد الناس الرسولُ

وقال أبو ذؤيب يبكي رسول الله ﷺ: (من بحر الكامل)

لما رأيت الناس في غمراتهم
متبادرين لمشرع بأفهم
كسفت لمصرعه النجومُ وبدرها
ولقد زجرت الطير قبل وفاته
وتزعزعت أجبال يثرب كلها

ما بين ملحود له ومضرح
خضع الرقاب لفقد أبيض أروح
وتزعزعت أطام بطن الأبطح
بوفاته وزجرتُ سعد الذابح
ونخيلها بحلول خطب مُفدح

ولما بلغت عمرو بن العاص السهمي وفاة رسول الله ﷺ وهو يومئذ بعُمان

أنشد يبكي رسول الله ﷺ ويتفجع عليه: (من بحر الطويل)

أتاني ورحلي في عُمان مصيبة
غداة نعي الناعي النبي محمداً
فقدنا به وحي السماء ونعمةً
وأوحش منه منبر كسان زينة

فبتُ بعين طرفها طرف أرمد
فأعزز علينا بالنبي محمداً
تروح علينا بالمراد وتغتدي
ومسجده وحشٌ فيا خير مسجد

(١) في البداية والنهاية لابن كثير: (وأسعدني) بدل (وأرقتني) (٥/٢٨٢).

فلو كنت يوماً شاهداً بوفاته
بأذن يراه أهله ومكيدة
كما نالها منه المغيرة غرة

وقال عبد الله بن أنيس الجهني قبل موته وقد أضحى: (من بحر الطويل)

نفى النوم ما لا تبتغيه الأضالع
غداة نعى الناعى إلينا محمداً
فلورد نفساً قتل نفس قتلتها
فأليت لا أبكى على هلك هالك
ولكننى بالئ عليه ومتبع
وقد قبض الله النبيين قبله
فإن مات فالإسلام حى وربنا
فياليت شعرى من يقوم بأمرنا
ثلاثة رهط من قريش هم هم
على وصديق ألا عمر لها
أولئك خير الحى فهر بن مالك
أولئك إن قاموا بها سلكوا بنا
وكل قريش والذى أنا عبده
فإن قال منا قائل غير هذه
فيا لقصى قلدوا الأمر بضعكم
ولا تبطئوا عنها فواقا فإنها

لمست تراباً من ضريحه يدي
أسود بها ما عشت يومى وفى غدئى
وما أن دون الطائفى الحقيدد

وخطب جليل للرزية جامع
وتلك التى تستك منها المسامع
ولكنه لا يدفع الموت دافع
من الناس ما أرسى ثبير وفارع
مصيبته إنى إلى الله راجع
وعاد أصيبت بالردى والتبايع
لذا الدين ممن كاده اليوم مانع
وهل لقريش يا إمام منازع
أزمة هذا الأمر والله صانع
فليس لها بعد الثلاثة رابع
وأول من تحنى إليه الأصابع
محجتنا العظمى وقل المنازع
على كل حال للثلاثة تابع
أبيننا وقتلنا الله راء وسامع
فإن ضجيع العجز للسن قارع
إذا قطعت لم تسر فيها المطامع

ولأبى الهيثم بن التيهان الأنصارى، وكان من صلحاء الصحابة، وكان قد رأى
الشماتة من النصارى واليهود والمنافقين، فشكا ذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه لما
مر عليه، فقال فى ذلك: (من بحر الطويل)

ألا قد أرى أن المني لم تُخلد
لقد جدعت أذاننا وأنوفنا
تكلم أهل الشرك من بعد غلظة
ثلاثة أصناف من الناس كلهم
نصارى يقولون الفري^(١) وسافق
وأوعد كذاب الإمامة جهده
فإن يك هذا اليوم منهم شماتة
وما نحن إن لم يجمع الله شملنا
بأمنع من شاة يقفرا مطيرة
وإني لأرجو أن يقوم بأمرنا
أولئك خير الحى فهو بن مالك

لأن المنايا للنفوس بمرصد
غداة فجعنا بالنبي محمد
لغنية هاد كان فيها ومهتد
يروح عليها بالسنار ويغتدى
شبهه بذلك الشامت اليهود
فأخلف عودا باللسان وباليد
فلا يأمنوا ما يحدث الله في غد
بخير قريش كلها بعد أحمد
بقية قاع أو ضباب بفرقد
على وصديق أو المرء من عدى
وأنصار هذا الدين من كل معتد

ولما انتهت وفاة رسول الله ﷺ إلى ملوك همدان تكلمت سفهاؤهم بما لم يقبله
حلماءؤهم؛ فقام عبد الله بن مالك الأرجبي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ،
وله هجرة وفضل في دينه، فاجتمعت إليه همدان فقال: يا معشر همدان إنكم لم
تعبدوا محمداً، إنما عبدتم رب محمد، وهو الحى الذى لا يموت، غير أنكم
أطعتم رسولكم بطاعة الله، ودعاكم فأجبتموه؛ فهداكم، فاتبعتموه، واعلموا أنه
ولى نعمتكم فى دينكم ودياركم: فأما دينكم فاستنقذكم الله به من الشرك فى الدنيا
ومن النار فى الآخرة، وأما دياركم فاستنقذكم الله به من الرق، ولم يكن الله
ليجمع أصحاب رسول الله ﷺ على ضلالة وقد وعدهم أن يهديهم عندما اختلفوا
فيه من الحق بإذنه؛ فأطيعوا من اختاروا، وقدموا من قدموا. . فى كلام غير هذا
تكلم به على هذا المثال ونسجه على هذا المثال، ثم قال: (من بحر الطويل)

لعمرى لئن مات النبي محمد
وما كان إلا مرسلاً برسالة
لما مات يا بن القين رب محمد
يبلغها والحادثات بمرصد

(١) الفري: جمع فرية: الكذبة.

ولما قَضَى من ذلك الأمر ما قضَى
دعاه إليه ربُّه فأجابهُ
وما نحن إلا مثل من كان قبلنا
ونحن على ما كان بالأمس بيتنا
ولم يبقَ شيءٌ فيه إجمادٍ ملجودٍ
فيا خيراً مدعوٌ ويا خيراً منجودٍ
فريقين شتى كافرٍ وموحدٍ
من الذين نهدى من أراد ونهتدى

ثم قام ابن أبي مروان وكان من سادات همدان وملوكهم فتكلم فيهم فأطال
نفس الكلام، وحض على التمسك بالدين، وحمل على الطاعة للقاتم بالأمر بعد
رسول الله ﷺ، ثم قال يرثيه ويتفجع عليه: (من بحر الخفيف)

إن حزني على الرسول طویلُ
قلتُ والموتُ كربةٌ يا إمامُ
ليتني لم أكن بقيت فواقا
بكت الأرضُ والسماءُ عليه
يا لها رحمةٌ أصيب بها الخُل
ليس للناس يا إمام من الأم
ذاك مني على الرسول قليلُ
ليتني متُّ يوم مات الرسولُ
بعسده والفواق مني طويلُ
وبكاهُ خليله جبريلُ
قُتلت وحنان منها الرحيلُ
سرفيتيل وأين أين الفتيلُ

وقال مسروق بن الحارث الأرحبي - وكان سيدها من سادات حمير وقتي من

فتيانها - يبكي رسول الله ﷺ: (من بحر الخفيف)

إن فقد النبي جدعنا اليو
وقدته النفوس ليس من المو
ما أصيبت به الغداة قريشُ
دون من وجَّه الصلاة إلى الله
ورجال متأفقون شماتةً
من يكته السماء تسعدها الأر
واسرافيل قد بكاه وجبريد
م فدته الأسماع والأبصار
ت فرار وأين أين الفرارُ
لا ولا أفردت به الأنصارُ
وقد هنأت به الكفار
حين واروه كفرهم إسرار^(١)
ض وبكته بعد القفار البحار
ل وميكال والملا الأظهار

(١) الشطر الأول من هذا البيت غير مستقيم الوزن.

يا لها كلمةٌ يضيقُ بها الحلدُ قى أنانا بنقلها السفارُ
 قيل ماتَ النبي فأنصدعَ القلدُ بٌ وشابت من هولها الأشعارُ
 فعليه السلام ما هبت الريدُ حٌ ومدتُ جناحَ الظلام أنوارُ

ولما بلغت أزد السراة وفاته ﷺ قام فيهم سواد بن قارب الدوسرى يحذرهم سوء عاقبة الارتداد، وكان قد سادهم وشرف فيهم، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وهو الذى أسلم بإرشاد رثيه، وكان كاهنًا فى جاهليته، فلما بعث رسول الله ﷺ أتاه رثيه، فركضه برجله، فقال له: (من بحر السريع)

عجبت للجن وإبلاسهما وشدها العيس بأحلاسها^(١)
 تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن كأنجاسها
 فارحل إلى الصفوة من هاشم واسمُ بعينيك إلى راسها

فقال: إني نائم، فانصرف الرثى، ثم أتاه فى الليلة الثانية، فركضه برجله ثم قال: (من بحر السريع)

عجبت للجن وترحالها وشدها العيس بأحبالها
 تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن كأرذالها
 فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روايبها وأجبالها

فقال: إني نائم، فانصرف عنه وتركه، فلما كانت الليلة الثالثة أتاه فركضه برجله ثم قال: (من بحر السريع)

عجبت للجن وتكرارها وشدها العيس بأكوارها
 تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها
 فارحل إلى الصفوة من هاشم بين بطحائها وأحجارها

فقام من حينه، وكسر وثنه، وشد رحله على قلوبه حتى أتى النبي ﷺ، وقص عليه ما وقع له مع رثيه؛ فأعجب رسول الله ﷺ قوله، فجمع أصحابه،

(٢) هذا البيت فى الإصابة ٢/٩٥ هو:

وأمره أن يقص عليهم قصته مع ربيهِ؛ ففعل، ثم قال: (من بحر الطويل)
 أتانى ربيُّ بعد هدءٍ ورقدةٍ
 ثلاث ليالٍ قوله كل ليلةٍ
 وأشهد أن الله لا رب غيره
 وأنت أدنى المرسلين شفاعةً
 فمرنا بما يأتيك يا خير مرسلٍ
 فكن لى شفيعاً يوم لا ذو شفاعةٍ
 وقال رضى الله عنه يبكى رسول الله بعد وفاته: (من بحر الكامل)

وأرى المصيبة بعدها تزدادُ
 صلى عليه الله ما يعتادُ
 وهل لمن فقد النبيُّ فؤادُ
 جف الجنانُ وأخفق الروادُ
 وتصدعت وجداً به الأكبادُ
 حلماً تضمن سكرتيه رقادُ
 باق لعمرك فى الفؤاد تلامدُ
 الحقُّ حقٌّ والجهاد جهادُ
 بذلت له الأموال والأولادُ
 هذا له الغيابُ والأشهادُ
 لو كان يفديه فداه سوادُ
 جلّت مصيبتك الغداة سواد
 أبقى لنا فقدُ النبي محمد
 حزناً لعمرك فى الفؤاد مخيما
 كنا نحل به جناناً ممرعاً
 فبكت عليه أرضنا وسماؤنا
 قل المتاع به وكان عيانه
 كان العيان هو الطريق وحزنه
 إن النبي وفاته كحياته
 لو قيل تفدون النبي محمداً
 وتسارعت فيه النفوس لبذلها
 هذا وهذا لا يردُ نبينا

ولما بلغت وفاته ﷺ ملوك نجران - وكانوا نصارى أهل كتاب فأسلموا بهدى الله
 وبما بأيديهم من نعت رسول الله ﷺ - قام فيهم عبد الحارث بن أنس بن عبد

(١) هذا العجز فى الإصابة ٢/ ٩٥ هو:

* سواك بمخن عن سواد بن قارب *

المدان فجعل يبكى رسول الله ﷺ بعد ما قام فيهم أحسن مقام، فقال: (من بحر الطويل)

لعمرى لئن كان النبي محمد
لقد كسفت شمس النهار لفقده
وبكته آفاق السماء وما لها
ولو قيل تفدون النبي محمداً
وقل له منا الصداة وهذه
فإن يك واقاه الحمائم فدينه
ونحن بعون الله هامة مذحج
بنجران نعطي من سعى صدقاتنا
ونحن على دين النبي ترى الذى
أحاذر إن لم يدفع الله جولة
فيحى فيها الله من خف حلمه^(١)
نطيع قريشاً ما أطاعوا فإن عصوا
وكان لهذا الأمر منهم ثلاثة
فلم يخطئوا إذ وسدوها لبعضهم

عليه سلام الله أودى به القدر
وبكت عليه الأرض والشمس والقمر
وللأرض شجو غير ذاك ولا غير
لقلنا نعم نفيديه بالسمع والبصر
وإن بذلت لا يسترد بها بشر
على كل دين خالف الخلق قد ظهر
بنو الحارث الخير الذين هم الغرر
موفرة ما فى الحدود لها صعر
نهانا حراماً عنه والأمر ما أمر
مجدعة يبيض من هولها الشعر
ويسعد فيها ذو الأناة بما صبر
أبينا ولا نشرى السلامة بالغرر
على أو الصديق أو ثالث عمر
هم ما هم ما لكل إلا رعاة مطر^(٢)

ومثل هذه المقامات لسادات العرب وملوكها نظماً ونثراً لا يحيط بها حصر، يستعينون بها على دفع هذه الداهية الدهياء، ويردون بها حر هذه الحادثة النكراء، وعظيم المصيبة بوفاة من حق فى حقه بكاء الأرض والسماء، وقل لفقده أن تسح المدامع عوض الدموع بالدماء، إذ هو الرزء الذى ابتدع الرزايا وقال لأعين الثقيلين:

(١) فى (ب): (حكمه) بدل (حلمه)

(٢) هذا الشطر فى النسخة (ب) هو:

* وما منهم إلا رعاة مطر *

وهذا الشطر مختل الوزن فى النسختين.

جودى بالعطايا، فيبكي من لم يدرك زمنه على الفوت، كما يبكي من أدركه على الموت، وهو مغناطيس أهل الإيمان، وهديل جميع الأزمان، فمن لم يُدْرِ الدموع عند ذكر وفاته فقد أعوزه الحب بموافاته، فبكأؤه حينئذ على نفسه أولى، حتى تعزیه بمصائبه الثكلى، فكيف ينسى أو يتسلى من ديم إفضاله فى كل نفس علينا هطلى، والله در خطيب الشعراء حيث يقول: (من بحر الطويل)

بطيبة رسم للرسول ومعهـد
ولا تمحى الآيات من دار حرمة
وواضح آثار وياقى معالم
بها حجرات كان يسكن وسطها
معارف لم تطمس على العهد آيها
عرفت بها رسم الرسول وعهده
ظلمت بها أبكى الرسول فأسعدت
يذكرن آلاء الرسول وما أرى
مفجعة قد شفها فقد أحمد
وما بلغت من كل أمر عشيره
أطالت وقوقاً تذرّف الدمع جهدها
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت
وبورك لحد منك ضمن طيباً
تهيل عليه التراب أيد وأعين
لقد غيبوا علما وحلما وسودداً

منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
بها منير الهادى الذى كان يصعد
وربع له فيه مصلى ومسجد
من الله نور يستضاء ويوقد
أتاها البلى والآى منه تجدد
وقبراً بها واره فى التراب ملحد
عيون ومثلاها من الجفن تسعد^(١)
لها محصيا نفسى فنفسى تبدد
فظلت لآلاء الرسول تعدد
ولكن لنفسى بعد ما قد توجد
على طلل القبر الذى فيه أحمد
بلاد ثوى فيها الرسول المسدد
عليه بناء من صفيح منضد
عليه وقد غارت بذلك أسعد
عشية علوه الثرى لا يوسد^(٢)

(١) فى (أ): (عيون الاثر ومثلاها من العين يسعد) صحة العجز. وفى (ب):

* عيون ومثلاها من الجفن تسعد *

وهكذا هو فى السيرة (٤/٤٦٩).

(٢) هذا البيت فى السيرة (٤/٤٦٩) هو:

عشية دلوه الثرى لا يوسد

لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة

وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
ومن قد بكته الأرض فالتأس أكمد
رزية يوم مات فيه محمد
وقد كان ذا نور يغور وينجد
وينقذ من هول الخزايا ويرشد
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
فمن عنده تيسير ما يتشدد
دليل به نهج الطريقة يقصد
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
إلى كنف يحنو عليه ويمهد
على نورهم سهم من الموت مقصد
يبكيه حق الرسائل ويحمد
لغية ما كانت من الوحي تعهد
فقيده يبكيه بلاط وغرقد
خلاء له فيه مقام ومقعد
ديار وعرصات وربيع ومولد
ولا أعرفنك الدهر دمك يجمد
على الناس منها سابغ يتعمد
لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد
ولا مثله حتى القيامة يفقد
وأقرب منه نائلا لا ينكد

وزاحوا بحزن ليس فيهم نبهم
يبكون من تبكى السماوات يومه
وهل عدلت يوماً رزية هالك
تقطع فيه منزل الوحي عنهم
يدل على الرحمن من يقتدى به
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم
وإن تاب أمر لم يقوموا بحمله
فبيناهم في نعمة من الله بينهم
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
عطوف عليهم ليس يثنى جناحه
وبيناهم في ذلك النور إذ عدا
فأصبح محموداً إلى الله راجعاً
وأمت بلاد الحرم وحشا بقاعها
قفاراً سوى معمورة اللحد ضافها
ومسجده فالموحشات لفقده
وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت
فأبكي رسول الله يا عين عبرة
ومالك لا تبكين ذا النعمة التي
فجودى عليه بالدموع وأعولى
وما فقد الماضون مثل محمد
أعفى وأوفى ذمة بعد ذمة

وأبذلُّ منه للطريف وتالد
وأكرم صيتاً في البيوت إذا انتمى
وأثبتُ فرعاً في الفروع ومنبتاً
تناهت وصاة المسلمين بكفه
وليس هوى نازعاً عن ثنائه
مع المصطفى أرجو بذاك جواره
فهذه رشفة عصفور من مرآتي حسان رضى الله عنه.

وقال كعب بن مالك رضى الله عنه ييكي رسول الله ﷺ: (من بحر الطويل)
وباكية حرى تحرق بالبكا
على هالك بعد النبي محمد
فلست بباك بعد فقد محمد
فجعنا بخير الخلق حياً وميتاً
وأعظمهم فقداً على كل مسلم
متى تنزل الأملاك بالوحي بعده
إذا كان منه القول كان موفقاً
جزى الله عنا ربنا خير ما جزى

وقال عمر بن سالم الخزاعي: (من بحر الطويل)

لمحقوقه أن تستهل وتدمعا
غداة نعى الناعى النبى فأسمعا
ولم أريوماً كان أعظم موحجعا
ولا ليلة كانت أضر وأفظعا
لعمري لئن جادت لك العين بالبكا
فيا حفص إن الأمر جل عن البكا
فلم أريوماً كان أعظم حادئاً
ولم أريوماً كان أعظم مصيبةً

(١) هذا العجز غير موجود في النسخة (ب).

بأن سوف يُجزَى كُلُّ سَاعٍ بما سعى
 بدينك والدنيا فترزيهما معاً
 نعى نفسه بدءاً وعوداً فأسمعاً
 تهبج حُرْنِي والفؤادُ تقطعا
 على الدهر طول الدهر إلا تصدعاً^(١)
 نبياً هنادانا ثم ولّى وودعاً
 لشيء وما قلبت كفاً وإصبعاً

تَعَزَّى بصبر واذكرى الله واعلمى
 ولا تُرَزِّى محض الحياة فتفجعى
 فإن يك قد ماتَ النبي فبعدهما
 إذا ذكرتُ نفسَ فراقِ محمد
 فيالك نفس لا يزال يزيدها
 جزى الله ربُّ الناس أفضل ما جزى
 فوالله لا أنساك ما دمتُ ذاكرًا

وقد أكثرت الشعراء من مراثيه صلوات الله وسلامه عليه قديماً وحديثاً، وقضوا من التفجع عليه حقاً؛ إذ هو الحدث الذي لا ينبغي أن يكون عهده نكيثاً، ولم يمنعهم تقادم الأيام وتطاول الأعوام من تجديد البكاء عليه وتوكيد الحنين إليه، وكيف لا يكون ذلك إذ هو الرزء الذي من حقه أن ينسى جميع الأرزاء؟! والحدث الجلل الذي يقبح معه حسن العزاء، وطواعية الأسف عليه دائماً من الشهادات بالإخلاص لمن قام بها واستقام على سواء السبيل؛ جعلنا الله ممن أحبه حقاً، وكتبنا فيمن غدا لشفاعته المشفعة مستحقاً. ومن بكاء المتأخرين ما وقفت عليه لأبى إسحاق إسماعيل بن القاسم العنزى المعروف بأبى العتاهية من كلمة يعارض بها حسناً رضى الله عنه فقال: (من بحر السريع)

ما كان إلا رحمة للأنام
 أحيا موات الأرض صوب الغمام
 هادٍ وللناس به من إمام
 وأصبح الباطل دحض المقام

على رسول الله منى السلام
 أحيا به الله القلوب كما
 أكرم به للخلق من مبلغ
 وأصبح الحق به قائماً

وقال أيضاً: (من بحر الطويل)

ولا تنسَ قبراً بالمدينة ثاويها

ليك رسول الله من كان باكياً

(١) فى (١): طول البين.

فقد كان مهدياً دليلاً رهادياً
 إذا كنت للبرِّ المطهر ناسياً
 وآثاره بالمسجدين كما هبا
 وأكرمهم بيتاً وشعبياً ووادياً
 عليه سلام الله ما كان صافياً
 ومن علم أسمى وأصبح عافياً
 وكشفت الأطماع منا المساويا
 نراها فما نزداد إلا تعامياً
 وإن طالت الأيام ليس بنانيا
 من الخلق طراً حيثما كان لاقياً
 وعلمت يا موت البكاء البواكيا
 وعرفتنا يا موت منك الدواهيا

جزى الله عنا كل خير محمداً
 لمن تبتغى الذكري بما هو أهله
 أتسى رسول الله أفضل من مشى
 وكان أبرَّ الناس بالناس كلهم
 تكسّر من فقد النبي محمد
 فكم من منار كان أوضحه لنا
 ركناً إلى الدنيا الدنية بعده
 وإنا لنرعى كل يوم بعبرة
 كأننا خلقنا للبقاء وأينا
 أبى الموت إلا أن يكون لمن نرى
 حسمت المنى يا موت حسماً مبرحاً
 ومزقتنا يا موت كل ممزق

ولأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال الأندلسي في ذلك قصيدة قد تداولتها علماء البدو والأمصار على تطاول الأعصار، فهي دليل على متانته في العلم وحسن التأله واليقين، فله المكان الذي يلحقه بأقرانه من العلماء المثقنين، وناهيك من براعته أن ساجل حسناً فأرعى عليه، إلا أن المتقدم له فضل السلف على الخلف ولو كان المتأخر أعلى رتبةً وأوسع باعاً في العلوم، لأن العلم لما كان منحاً ربانية ومواهب قدسية لم يكن مستحيلاً على الله أن يعطى منه لبعض المتأخرين ما لم ينله جميع المتقدمين، فهو من رجال الطبقة الرابعة: فمنها قوله يعارض حسناً في قصيدته الأولى، ويمشى في التوجع والتفجع على منواله، ويسبح على مثاله، فقال: (من البحر الطويل)

ودار بها لله نور مخلد
 يبينها للعالمين محمد
 على ما محا منها البلى تتجدد

لطيفة آثار تُحج وتقصد
 ومهبط جبريل بوحى وحكمة
 ومظهر آيات كأن رسومها

عليه من الفردوس ظل مُمدِّد^(١)
 تبوأها من جنة الخلد أحمدُ
 وجذع له فيه حينٌ مرددُ
 به أمه مشوى كريمٌ ومولدُ
 له اسم خليل الله فخرٌ مسيدُ
 له رحمة والنفس ترقى وتصدُ
 بفاطمة نور بنورٍ يقيدُ
 مكانهما من عاتقيه مَهْدُ
 يقوم بها حباً لها ثم يسجدُ
 بعصمته الوثقى وجبريلُ يشهدُ
 يقمن به فى الليل والناسُ هجدُ
 من الله يحييها الكتابُ المؤيدُ
 ففى كل حى جذوة تتوقدُ
 فزائرُها فوق الردى يتوسدُ
 على الناس فى التنزيل أن يتوددوا
 وكان إليها الدينُ يأوى ويصمدُ
 بقربك لكنى من القرب مُعدُ
 وأمر رسول الله يعلو ويمهدُ
 تُرحزح قطع الليل والليلُ أسودُ
 تحل بها عصمُ الأمور وتُعدُ
 ولم يبق تبينٌ ولم يبق مشهدُ

وفى مسجد التقوى تأجج ضوءه
 يُفأوحها طيب الجنان وتربة
 ومنبره الأعلى على ذروة التقى
 ومولد إبراهيم حيث تمخضت
 وموقفه من نفسه واختياره
 وإعلانه بالحزن تدمع عينه
 ومبنى على والهدى يالف الهدى
 ومولد سبطيه وريحان قلبه
 وحيث ابنة العاص أمامة ترتقى
 وحيث بنى بالطيبات نسائه
 ومثلى كتاب الله فى حجراته
 وثمرت أصحاب الكساء طهارة
 مشاهد إيمان تألق نورها
 وكانت أماناً ثم عادت مخافة
 فى أيها الدار التى حق أهلها
 لقد درست منك المغانى وأوحشت
 ذكرك ذكرى من يهيم فؤاده
 ومثلت لى فى بهجة الدين والتقوى
 إذا أبرقت نوراً أسارير وجهه
 وألقت إليه الأرض أفلادها التى
 وغزو تبوك ثم حج وداعه

(١) صحح البيت اعتماداً على النسخة (ب).

ومثلت لى والمسلمون بشكوة
وقد جلَّل الدنيا سوادٌ مطبَّقٌ
فما راعهم إلا وفاة رسولهم
وقد ذهبوا أنَّ التي يقرؤونها
وودع جبريلٌ وداعَ مفارقٍ
وأوى إليها مسبَلاتٍ دموعها
فأوعدها سرًّا بكتٍ بنحيبه
وقد أعلنت عند الرسول بكربها
فقال لها كفى دموعك واصبرى
وبشرها عن قرب مَلْحَقِهَا بِهِ
فيا من يرى حيًّا يعزى بموته
فرارًا من الدنيا إلى قرب ربها
ولطفًا من الله العظيم بموتها
ولو أنها امتدت طويلا حياتها
وغصت على كرهه بشكل ابن عمها
أقام كتاب الله فى كل مارق
فقيض أشقى الناس يزجى شهادة
فكيف بها واللهُ يأبى هوانها
وقد جرعت حنْفَه كف جعدة

فرائضهم من روعة البين ترعد^(١)
فحال به ليل على الناس سمرمد
وكلُّ يرى أن الرسولَ مخلدٌ
إذا جاء نصر الله للموت مرصدٌ
فلا ودَّ يسثنى ولا حىَّ يعهد
كما انحل من سلك فريد مبدد
فأنتى بسر فانثنت تتجلد
لكرب أبيها وهو بالموت يجهد
فما بعد هذا اليوم كرب يعدد
بشرى حديث صادق لا يفند
فيرضى كأن الموت خلد مؤبد^(٢)
وشحًا عليها من حياة تنكد
وباب الرزايا المستكنات مؤصد
لشرد عنها النوم ليل مسهد
وبعد شهيد حزنه ليس يفند
يقرُّ به فى زعمه وهو يجحد
لمن هو أولى بالأمان وأسعد
لمصرع سبط أول وهو مقصد^(٣)
بمكرع سم مجه فيه أسود

(١) فى (ب): فرائضهم من روعة هى ترعد.

(٢) فى النسخة (ب): كأن الموت خلد ما يباد.

والعبارة غير واضحة فى النسختين، والبيت لا يستقيم هكذا فى (ب).

(٣) هذا العجز غير واضح فى النسختين، وهو هكذا فى السيرة، ومع ذلك فهو غير مستقيم تمامًا.

ولو حدثت عن كربلاء لأبصرت
 وثاني سبطي أحمد جمععت به
 ولم يرقبوا إلا لآل محمد
 وأن عليهم في الكتاب سورة
 فياسرح ما ارتدوا وصدوا عن الهدى
 وجلّي عن برد القرات عطاشهم
 في أوجها شامت وتأهت عن الهدى
 وترتم رسول الله في ذبح سبطه
 فما لكم عند الشفيع شفاعته
 لعمرى لقد غادرتم كل مؤمن
 نفضتم الحيا وأرضيتم العدى
 فيا كبدى إن لم تقيضي عليهم
 أنتهب الأيام أفلاذ أحمد
 ويضحى ويظماً أحمد وبناته
 أفي دينه في أمنه وبلاده
 وما الدين إلا دين جدهم الذي
 ينأم اليهود والنصارى بأمنهم
 وما هي إلا زدة جاهلية
 ألهنى على سبل الهدى ونبوة
 شهيسدين متبوعين من كل مؤمن
 فهذا أذابت سورة السم كبده

حسيناً فتاهسا وهو شلو مقاد
 عتاة جفاة وهو بالأرض أوحده
 ولم يذكروا أن القيامة موعده
 لقرباه لا يتحاش عنها موحده
 ومالوا عن البيت الذين بهم هدوا
 قروي منهم ذابل ومهنده
 أهذا التشفى منكم والتودد
 وبؤتم بنار حرها ليس ييرد
 وما لكم في كوثر الحوض مورده
 على مضض برح يقوم ويقعد
 وأنتم لغير الله جنده وأعبده^(١)
 فنفسى أسخى بالحياة وأجوده
 وأفلاذ من عبادهم تتودد
 وبنات زياد وردها لا يطرد
 يضيق عليهم فسحة تسورد
 به أصدروا في العالمين وأوردوا
 ونومهم بالخوف نوم مشرد
 وحقد قديم بالحديث يؤكده
 جرى لهما يوم من الشر أنكده
 بكل صلاة برة تتعقد
 وهذا أفارقه قسى تكابده^(٢)

(١) الشطر الأول من هذا البيت مختل الوزن.

(٢) هذا العجز غير موجود في النسخة (أ)، وهو في (ب) هكذا، ووزنه مختل.

وكلهم في موقف الفصل يشهد
 فليس لكم في النصر يوم ولا غد
 بغصتها أضحى وأسى وأرقد
 على أن كفاً مُمتعاً ليس يوجد
 حسين وأسى وهو سبط موحد
 تؤمك من أرض بعيد وتقصد
 على زفرة من حرها أتواد
 يلين عليها الحوادث المتشدد
 لذي البث والشكوى إمام مقلد
 فإنك في أهل السماء مبدد
 مقسام كريم في البرية يُحمد^(١)
 تذاذ رجسال دونها وتطرده
 بقتلك في طغيانها تتجمد
 فمسا لهم إلا الجحيم مغمد
 قتيلاً لكفار بذي العرش ألهدوا
 وحرية وحشي إليه أسدد
 حياتهم موصولة حين تنفد
 ومثل على وهو للمخلق سيد
 على الله لا يحصى ولا يتحدد
 مضاضته عن جهنم تسولد
 هو في حاميم يتلى ويسدد

فما عذر أهل الأرض والقسط قائم
 أيفعل هذا بابن بنت نبيكم
 أبا الله إلا أن في النفس حسرة
 إلى أن يقيد الله من كل واتر
 وأي دم يوفى دم ابن محمد
 فيا حاتم الأسباط إن تحيتي
 مثقلة بالدمع شوقاً ولوعه
 وبأ أسوة للمؤنسين كريمة
 فمن ينكر البلوى وأنت بكر بلا
 فإن تجهل الدنيا عليك وأهلها
 أبوك شفيع الناس وهو الذي له
 ومشربه الخوض الروى بكفه
 وعن يدود الله عنها عصابة
 وذنبهم في قتلك الذنب كله
 وهل كنت إلا مثل عمك جعفر
 وإلا كليث الله عمك حمزة
 وما منهم إلا عريق شهادة
 ومثل أبي حفص وعثمان بعده
 دماؤهم مسك ذكي وأجرها
 أقول بيت مستكن وظاهر
 وما سرني أني خلي من الهوى

(١) هذا البيت فيه خلل في الوزن.

سريرة حباً يومَ تُبلى سرائرُ
سلامٌ على تلك المعاهد إنَّها
فيا رب وفدنى إليها مسلماً
أفيض بها دمعى وأنقع غلتي
وأدعرو إلى الرحمن دعوة تائبٍ
وأسمو إلى البيت العتيق بفرضه
ولستُ على قبر الرسول بمؤثر
فيا رب حقق منيتي ومنيتي

يقوم بها عنى الصفيح المنضد
لآل رسول الله طهرٌ ومسجدٌ
ويا طيبَ مسرى من إليها يوفدُ
وأنعم في ربع الرسول وأنجدُ
إلى عفوهِ من طيبة يتزودُ
فكلُّ به من ذنبه يتجردُ
ليحشر من ذاك البقيع محمدُ
هنالك والأرواحُ جندٌ مجددُ

وقد اقتصرنا على هذا من مرثيئهما رغبة في الإيجاز، ولو كانت غير خالية من الإمتاع، بغوامض اللغة، والإطناب في المعاني البليغة، والألفاظ الفصيحة، وإثارة القريحة، وتهيج الشوق، وقدح نار الحب في سويداء القلب.

ومما ينبغي الإمتاع به في هذا المحل مرثية حسان لحمزة سيد الشهداء: (من بحر السريع)

أتعرف الدار عفا رسمها
بين السراييح فأدمانة
ساءلتها عن ذاك فاستعجمت
دع عنك داراً قد عفا رسمها
المالئ الشيزى إذا أعصفت
والتارك القرن لَدَى لبدة
واللابس الخيل إذا أحجمت
بعدك صوب المسيل الهاطل
فمدفعُ الروحاء في حائل
لم تدر ما مرجوعه السائل
وابك على حمزة ذى النائل
غبراء في ذى الشبم الماحل^(١)
يعثر في ذى الخرص الذابل^(٢)
كالليث في غابته الباسل

(١) الشيزى: قسعة كبيرة تصنع من خشب صلب. والشبم: البارد. الماحل: المحل، القحط.
والعاصف: الريح.

(٢) القرن: الند، وذى الخرص: الرمح.

أبيضٌ في الذروة من هاشم
 مال شهيداً بين أسيافكم
 أى امرئٍ غادر في آلةٍ
 أغبرت الأرض لفقده
 صلى عليه الله في جنة
 كنا نرى حمزة حرزاً لنا
 وكان في الإسلام ذا تُدرأ
 لا تفرحى يا هند واستجلبى
 وابكى غلى عتبة إذ قطه
 إذ خر في مشيخة منكم
 أرداهم حمزة في أسرة
 غداة جبريل وزير له
 وله أيضاً ييكي أصحاب مؤتة: (من بحر الطويل)
 تأوبنى ليلٌ بيثرب أعسر
 لذكرى حبيب هيجت لى عبرة
 بلى إن فقدان الحبيب بلية
 رأيت خيار المؤمنين تواردوا
 وهم إذا ما نوم الناس مسهر
 سفوحاً وأسباب البكاء التذكر^(٥)
 وكم من كريم يتلى ثم يصبر
 شعوباً^(٦) وخلفاً بعدهم يتأخر

(١) مطرورة: مسنونة، أى حادة. والمارئة: اللدنة الصلبة.

(٢) فى السيرة: أظلمت بدل أغبرت.

(٣) فى سيرة ابن هشام: مكرمة الداخل بدل النازل.

(٤) الرهيج: الغبار. الجائل: الثائر.

(٥) هذا البيت وزنه مختل.

(٦) شعوب: المنية، وسميت بذلك لأنها تشعب الأعبة. أى تفرقهم. ونصبت على نزع الخافض:

تواردوا على شعوب.

فلا يُعِدَّنَ اللهُ قَتْلِي تَتَابَعُوا
 غُدَاةَ مَضَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ
 أَعْرُ كَضُوءِ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
 فَطَاعَنَ حَتَّى مَالٍ غَيْرِ مُوسَدٍ
 فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابِهِ
 وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ
 وَمَازَالُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
 هُمْ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ
 بِهَالَيْلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ
 وَحِمْرَةٌ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمَتَّهُمْ
 بِهِمْ تُفْرَجُ اللَّأْوَاءُ فِي كُلِّ مَأْرِقٍ
 هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حِكْمَهُ

جميعاً وأسباب المنية تخطر^(١)
 إلى الموت ميمون النثية أزره
 أبي إذا سيم الظلامنة مجسر
 معترك فيسه القنا متكسر
 جنان وملتف الحدائق أخضر
 وفاءً وأمرًا حازمًا حين يأمر
 دعائم عز لا يزلن ومفخر
 رضام إلى طود يروق ويقهر^(٢)
 على ومنهم أحمد المتخير
 عقيل وماء العود من حيث يعصر
 عماس إذا ما ضاق بالناس مصدر^(٣)
 عليهم وفيهم ذو الكتاب المطهر

ولما مات العباس رضى الله عنه وجد عليه ابنه عبد الله وجداً شديداً حتى لزم
 بيته فلا يكلم أحداً، وقد عزى مراراً فلم ينجع فيه العزاء، حتى أتاه رجل من
 الأعراب، وقد بلغه حزنه ولزومه بيته، فقال له منشدًا: (من بحر الكامل)

خير من العباس أجرك بصدده
 فاصبر على البلوى نكن بك صبراً
 والله خير منك للعباس
 صبر الرعية عند صبر الراس

فعزى فقال له: إنه قد عزانى الناس بالآيات والآثار والمواعظ ولم أتجز إلا

(١) البيت في السيرة هكذا:

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا
 وزيد وعبد الله حين تتابعوا

بمؤنة منهم ذو الجناحين جعفر
 جميعاً وأسباب المنية تخطر

(٢) الرضام: جمع رضم: الحجارة يركب بعضها بعضاً. والظود: الجبل.

(٣) عماس: مظلم شديد. والأواء: الشدة.

بيتيك هذين، فلم أفهم قول رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة»^(١) إلا من يومى هذا؛ فعلمت أن للأشعار المستحسنة مواقع في النفوس لا يبلغها غيرها لكونها كنفًا لها، بخلاف التنزيل فإنه قولٌ ثقيلٌ تذوب تحت تجليه النفوس فيؤودها^(٢) حملة؛ فأعطى الأعرابي ألف دينار ومائة ناقة، وحمل له على قلوصه من الثياب الحسنة ما تستطيعه، ثم خر إلى المسجد فأقبل إليه الناس يهشون من كل شارع، فقال لهم: إني تعزيت بيتين من الشعر أتى بهما أعرابي من البادية؛ فعلموا أبناءكم الأشعار المستحسنة؛ فإنها تورث ذكاء وكرماً.

ولما ماتت بنت رسول الله ﷺ فحزن عليها أتاها أعرابي فقال له: يا رسول الله، عوزة سترت، ومؤونة كفيت؛ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «لقد عزاني بقولك هذا جبريل أنفًا».

ولما مات ابن معاذ رضى الله عنه وجد عليه وجدًا شديدًا؛ فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد بن عبد الله إلى معاذ بن جبل، السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد: فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإنه بلغنى موت ابنك، فحسن الله عزاءك؛ فإن أبناءنا نور أبصارنا، وربيع أفئدتنا، متعنا الله بهم فى غبطة، ثم سلبهم فى عافية؛ فلا يفسدن عليك ما ترتجيه من الأجر ما تجده من الجزع؛ فتجتمع عليك المصيبتان، ولتستعد يا معاذ لمثلها فكأن قد، والسلام عليك».

وقال معاذ: فوالله ما هو إلا أن قرأتُ كتاب رسول الله ﷺ أفرغ الله علىَّ درعًا من الصبر من هامتى إلى أن عَفَى أثرى. فما وجدتُ على ميت بعد ذلك إلى يومى هذا.

وهذا الباب بحر لا يدرك ساحله، ومشرب عذب لا يروى منه جاهله؛ فلنتصّر على هذه النبذة اليسيرة من هذه القصة العسيرة، لا أنسانا الله ذكرها ولا أعوزنا شكرها، آمين بجاه النبي الأمين.

(١) حديث «إن من الشعر لحكمة» صحيح رواه البخارى وأبو داود وابن ماجه، وهو عند البخارى فى

باب الأدب.

(٢) يؤود: ينقل.

• قال رحمه الله:

٩٠- وَذُدُّ عَنْ زَنِيٍّ وَأَمْرٌ زَنَاءٌ بَطْهَرُهُ وَلَشَّ الْقِضَى اخْتِرَ إِنْ دَعَاكَ قَضَاءٌ

قوله: وذد أي: اكفف نفسك واقرعها واحبسها عن زنى: وهو مباشرة ما لا يحل من معالجة النساء، سواء كان ذلك بالعين أو باليد أو باللسان أو بالرجل، ومن باب أخرى إن كان بالفرج.

قال الرسول ﷺ: «العين تزني، واليد تزني، واللسان يزني، والرجل تزني، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(١).

وقال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(٢).

وقال ﷺ: «إن أهل النار ليتأذون من نتن فروج الزناة، وإن الغسلين لما يسيل من فروجهم».

ويروى أن الزانية تأتي يوم القيامة وقد تدلى فرجها حتى يكون كالدلو، وإن الزاني بها يلحسه وقد غشيها من الهوان والحزى ما لم يغش أحداً من أهل الكبائر.

ويروى أن الله تبارك وتعالى لما خلق الأرض فدحاها من تحت البيت قال: أنا الله ذو بكة، لأغنين الحاج ولو بعد حين، ولأفقرن الزاني ولو بعد حين.

وقال رسول الله ﷺ: «أبغض الرجال إلى الله ثلاثة: الشيخ الزاني، والفقير المتكبر، والغنى البخيل»^(٣).

(١) حديث «العين تزني واليد تزني»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان البخاري (٨١/٥) ومسلم (٢٦٥٧)، كما أخرجه أبو داود.

ولفظ مسلم أتم وأشمل، وأوله: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى»... إلخ. والله أعلم.
(٢) حديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه، وآخر الحديث عند البخاري: «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبه ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن»، وهو عنده في كتاب الأشربة، والله أعلم.

(٣) حديث «أبغض الرجال إلى الله ثلاثة»... إلخ. رواه النسائي والترمذي بلفظ: «إن الله يبغض ثلاثاً: الشيخ الزاني، والبخيل المنان، والفقير المختال» وفيه (الغنى الظلوم) بدل (البخيل المنان). وأورده الغزالي باللفظ المتقدم (٣/٢٤٧)، والله أعلم.

فيروى: أن الرجل إذا أزال الستر بينه وبين امرأة لا تحل له نادى ملائكة السماء: ألا إن فلاناً قد أزال الستر بينه وبين ربه ألا فالعنوه، لعنه الله.

ويروى: أنه لا يملأ بصره من النظر إلى المرأة لا تحل له إلا نكت في قلبه نكتة سوداء فلا يزايلها إلا الإقلاع والتوبة النصوح.

وكان سبب هلاك برصيص الراهب بعد طول عبادته وزهده الزنى

قال عليه السلام: «باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء؛ فإنه لا يخلو رجل بامرأة لا تحل له إلا وضع عليهما الشيطان كنفه ونفخ في إحليل الرجل وفرج المرأة حتى يوقعهما في الفاحشة»^(١).

ويروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: ما كثر الزنى في بلدة إلا وجرد عليها السيف، ولا منع قوم الزكاة إلا ومنع الله عنهم قطر السماء، وما طفف قوم المكيال والميزان إلا وابتلاهم الله بغلاء أسعارهم، ولا ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا وعمهم الله بعقاب من عنده.

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

والزنى، بالكسر والقصر، أما الزناء، بالفتح والمد: فهو عبارة عن احتقان الأخبثين.

قال علي رضي الله عنه: (من بحر الطويل)

ولا تمسك الفضلات عند هياجها ولو كنت بين المرهفات الصوارم

وفي كل أسبوع عليك بفيئة لعلك تنجو من شرور البلاغم

قال صلى الله عليه وسلم: «لا يصلين أحدكم وهو يدافع الأخبثين»^(٢).

(١) حديث باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء» هذا القدر من الحديث غير ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، أورده صاحب الكشف تحت رقم ٨٧٥ وقال: قال القارى: غير ثابت، وإنما ذكره ابن الحاج في المدخل في صلاة العيدين، وذكره ابن جماعة في منسكه في طواف النساء من غير سند (٣٢٩/١)، أما باقيه فلم أجده، والله أعلم.

(٢) حديث «لا يصلين أحدكم وهو يدافع الأخبثين» صحيح رواه ابن حبان بهذا اللفظ إلا أنه قال: يصلى بدل يصلين، كما رواه مسلم بلفظ: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافع الأخبثين». وأورده ابن حجر في التلخيص تحت رقم ٥٦٦.

وقد اتفق حذاق الأطباء وجهابذتهم أن احتقان الأخشين يورث المليلة والخفقان ووجع المثانة والحصا، وربما أدى إلى السدد وهو عسر البول.

واتفقت العلماء المالكية على بطلان الصلاة به حيث كان مشوشاً للفكر.

وأما الشافعي فإنه قد أوجب بطلانها بمجرد الاحتقان؛ إذ مدافعتها عنده كحملها. وحمل نهى النبي ﷺ على التحريم؛ إذ حملة على غير ذلك يخرج بنا عن حمل الحديث على ظاهره؛ وذلك يؤدي إلى تحريف الكلم عن مواضعه؛ إذ سبيل السنة عنده كسبيل الكتاب.

وأما المالكية فقد فصلوا في ذلك، وخصصوا عموم الحديث، فقالوا: إنها تبطل الصلاة حيث كان الاحتقان يشغل عن فرض. واختلف في ذلك الفرض؛ فقيل: الخشوع، وقيل: الحضور، وقيل: الطمأنينة.

واستدلوا على الجميع بأدلة: منها قوله ﷺ: «ما لك من صلاتك إلا ما عقلت».

وقوله تعالى: ﴿ وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بِيَدِهِمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١).

وكان ﷺ إذا قام يصلي يسمعون لصدره أزيزاً كأزيز المرجل من شدة البكاء^(٢).

واتفق أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يسمعون وجيف صدر عمر رضي الله عنه من البكاء إذا قام في الصلاة وهم في مؤخر الصفوف. وعلى مثل ذلك مضى السلف، وكان زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه إذا قام إلى الصلاة اصفر حتى كأنه نرف منه الدم، حتى قيل له في ذلك، فيقول لهم: أتندرون بين يدي من أقوم ومن أناجي؟ فلا أدري أيقبلها مني فأهناً أم يردها علي فأعزى؟ *

ويروى أنه كان لا يلبي فقيل له: لم لا تلبى؟ قال: لا أستطيع التلبية؛ فقالوا له: لا بد من التلبية، فلما ألحوا عليه لبي، فلما لبي خر مغشياً عليه؛ فالتزموه

(١) حديث «صلوا كما رأيتموني أصلي» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان بالفاظ مختلفة، وهذا لفظ البخاري، وهو عنده في كتاب الأذان، وهو في التلخيص تحت رقم ٢٨٤.

(٢) حديث «كان ﷺ إذا قام يصلي»... إلخ. تقدم تخريجه.

حتى أفاق، فلما أفاق قالوا له: ما بالك؟ فقال لهم: لما قلت: لبيك خفت أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك؛ فحل بي ما قد رأيتم.

وكان السيد أبو العباس السبتي من شدة خوفه لله وتألّه لا يسمع أحداً أنشد شعراً في الغزل إلا قال لقائله: دعنا من هذا، وخذ في مدح الله، والتشوق إليه، والتحذر من أليم عذابه، ثم ينشد بديهة ما يتناقضه. وسمع منشداً ينشد أبياتاً قال: (من بحر الكامل)

* رفعوا الهودج للرحيل وأسلموا *

فقال هو: (من بحر الكامل).

فبدأ الخشوع بحزنهم فترنموا	رفعوا الأنامل للصلاة فكبروا
خوفاً لما قد أخرجوا أو قدموا	وبدت سواكبُ دمعهم مسبولةً
نائى الفؤاد وألسنٌ تتكلم	هذى صلاة المتقين وغيرهم

وسمع منشداً ينشد من أبيات: (من بحر الخفيف)

* يا أخى قم تر السليم عليلاً *

فعارضه بهذه الأبيات: (من بحر الخفيف)

واجعل الذكر والسجود سيلاً	يا أخى قم تر الكتاب دليلاً
بخضوع يراك فيه ذليلاً	واطلبنَّ الإلهَ جنةً خلده
إن فضلى لمن يكون سؤولاً	إن رب العباد يدعوك ليلاً
ليس فضلى عليك عبدى قليلاً	أسعف العبد بالإجابة منى

وكان أبو العباس يلهج بهذه الأبيات التى لشيخه أبى عبد الله العجّار: (من بحر

الكامل)

عقد الرجاء فالزمتك حقوقاً	عقدت عليك مكمناتُ خواطر
علماً بأنك خالقي تحقيقاً	إن الزمان عدا على فزادنى
إلا عبرت به إليك طريقاً	ما نالنى دهرٌ بوجه مساءةٍ
إنى وجدتك بالعباد رفيقاً	أمض القضاء على الرضى منى به

فإذا سمعها يخر ساجدا لله، وأنشده إياها حفيده أبو زكرياء وهو فى النزع، فأخذ يده فقبلها، فقال: قل: لا إله إلا الله، فأخذ بيده إلى موضع قلبه، كأنه يقول له: هو فى قلبى، وأنشد عبد الله ابنه لأبيه رحمه الله فقال: (من بحر الطويل)

ألا يا مُنيّاً بات يدعو إلهه

لقد هاج لى شوق إلى ذلك الورد

تبيت على قطع المراحل بالتقى

سبوقاً إلى الخيرات فى جنة الخلد

ومثلى على فرش البطالة غافل

فيما أسفى من قرب غيرى ومن عبدى

أنفى من الفردوس فى جنة العلى

ويحظى بها ذو الدمع سكباً على الخد

وقالت المالكية: وليس حمل النهى على التحريم بأولى من حملة على الكراهة؛ إذ لا دليل يخصصه بالحمل على المنع؛ إذ النهى منه جازم وغير جازم كما أن الأمر كذلك.

وتفصيل المالكية يقتضى الوجهين اللذين يقتضيهما ظاهر الحديث، إذ جعلوا المدافعة حيث أفضت إلى الشغل عن واجب من سجود أو قيام أو طمأنينة، أو خيف منه مبادرة إحدى الفضيلتين فيصير حينئذ وجه نهى الشارع على جهة التحريم، وإن كانت المدافعة إنما تشوش الفكر أو يدافعها مدافعة دون تلك فوجه نهى الشارع حينئذ إنما هو من باب خلاف الأولى؛ فلا يآثم المرتكب ولا تبطل الصلاة.

قال ابن الحاجب فى مختصره: وبطلت صلاة حاقن^(١) وحازق وحاقب وذى قرقرة وغثيان إن شغل الكل عن فرض.

(١) الحازق: المتقبض أو المتحفز. الحاقب: واضع الحزام على بطنه بشد.

قوله: بطهره: عبارة عن الطهارة المجازية، أى مره بإفراغ أخبثيه لأنه إذا أفرغهما فقد طهر من حملهما ومدافعتهما: حقيقة على مذهب الشافعى، ومجازاً حملاً على مذهب مالك؛ لقوله تعالى حكاية عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]؛ أى يتطهرون من إتيان الرجال فى أدبارهم، فلما لم يفعلوا ذلك الفعل القبيح صاروا وكأنهم قد تطهروا منه.

قوله: ولش: أى أكل. القضى، بالكسر والقصر: جمع قضية، وهو ضرب من الحمص.

وتركيب معنى البيت: ذد أيها المريد عن زنى نفسك أو من أراده بالفعل إن قدرت، فإن لم تقدر بالفعل فبالقول، فإن لم تقدر فاكراه ذلك بقلبك، وأمر شخصاً حاقناً للخبث بطهارته، واختر أكل ما لا يتغالى الناس فيه زهداً وتخفيفاً وتعففاً كالقضى مثلاً إن دعاه، أى اقتضى أكله، قضاء أى حكم "تعريض بأن لم تجد شيئاً سواء تأكله بدله أو شرعى بأن لم تجد معه إلا حراماً أو شبهة.

والمعنى: مر بالمعروف، وأنه عن المنكر، وتورع؛ فهذه معظم أحوال الإرادة؛ إذ أهل الإرادة يُزهون أنفسهم عن تتبع الرخص لكونه من باب الانتصار للنفس وتتبع شهواتها.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] جعلنا الله من جعل أساس بنيانه على تقوى من الله، آمين آمين.

• ثم قال رحمه الله:

٩١ - وأكل الربا احذر ذاً رباء وإن جزى

وَلَيْتَ فَوَالِ الْعَدْلِ يُسْنَ جَزَاءً

قوله: (وأكل الربا احذر): فأكل: منصوب بفعل مقدر قبله يفسره احذر. الربا: مضاف إليه ما قبله، وهو بالكسر والقصر: الزيادة فى المال على وجه لا يرتضيه الشارع، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فالمعنى: أن الربا ولو زاد المال فيما يرى الناس ظاهراً إن الله يمحقه، ويمحق

الأموال التي خالطها بذهاب بركتها أولاً، وقطع شأفتها واجتثاثها من أصلها آخرًا قال ﷺ: «الحرام أصل الخراب».

وقال ﷺ: «ما من بناء دخلته حَجْرَةٌ أو مدرة من حرام إلا كانت سببًا لخرابه».

ويروى: ما اتَّخَذَ رجل استعمال الربا في صفقة فمات وهو غني.

وما أوعد الله تبارك وتعالى بالحرب في عمل من الأعمال المَحْظُورَة إلا في الربا ومعاودة الأولياء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنَّا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿[البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

وأما معاودة الأولياء فقد قال رسول الله ﷺ في حديث قدسي يرويه عن ربه: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»^(١).

ومن عظيم أمره أن الله تبارك وتعالى لم يكتب بالنهي عنه حتى أوعد فاعله بالمحاربة، ولم يكتب بوعدِهِ إياهم بالمحاربة حتى بين سوء حالهم يوم القيامة؛ فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

(١) حديث «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» جزء من حديث طويل، رواه البخاري من إفراده، وأوله: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»، وآخره: «وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

قلت: هذا الحديث لم يروه بسند صحيح غير البخاري في صحيحه، ومع ذلك حاول بعضهم الكلام فيه؛ لأن شيخ البخاري فيه هو خالد بن محمد العطوني رمى بالشيخ، وقيل: له مناكير. كما أن شيخ شيخه وهو شريك بن عبد الله تكلم فيه.

قال الحافظ ابن حجر: قال الذهبي في الميزان: خالد بن مخلد له مناكير. وقال أبو حاتم لا يحتج به. وأخرج ابن عدى عشرة أحاديث من حديثه استنكرها. إلى أن قال - يعني الذهبي -: هذا الحديث غريب جداً، ولولا هيبته البخاري لعدوه من منكرات خالد بن مخلد، فإن هذا المتن لم يرو إلا بهذا الإسناد، ولا أخرجه ما عدا البخاري. (انتهى كلام الذهبي).

قال ابن حجر: وإطلاق أنه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود، ومع ذلك فشريك شيخ خالد فيه، فقال أيضاً: وهو راوى حديث المعراج الذي زاد فيه وتقص وقدم وآخر. وللحديث طرق أخرى يدل مجموعها على أن له أصلاً. اهـ (٣٤١/١١) فتح، والله أعلم.

وقال ﷺ: «لعن الله أكل الربا وموكله والشاهد عليه والقاضي به وبائعه ومشتريه» (١).

وقال ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بي أقواماً بطونهم كالبيوت، كلما نهضوا سقطوا؛ فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: أكلة الربا والسحت. ورأيت رجالاً يذائبهم لحم نضج طيب وهم يأكلون لحمًا خبيثًا متناً؛ فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: أولئك رجال يقومون من الليل عن نساءهم من الحلال الطيب فيذهبون إلى نساء خبيثات فيبيتون معهن. ثم رأيت رجالاً لهم أطافر من حديد يخمشون بها جنوبهم ثم يأكلون من لحومهم؛ فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء المغتابون. ثم رأيت رجلاً ورجلاً قائم عليه بفهر^(٢) يشدخ به رأسه، فإذا تدهده الفهر فذهب الرجل ليأخذه رجع الرأس إلى هيئته؛ فيرجع إليه فيشدخه به، فهما كذلك؛ فقلت له: من هذا يا جبريل؟ قال: ذلك رجل يقرأ القرآن ولا يقوم به من الليل فإنه يفعل به كذلك إلى يوم القيامة. ورأيت نساء معلقات بثديهن وهن يضربن بسياط من نار؛ فقلت: ما بالهن يا جبريل؟ فقال: تلك نساء يوطئن فرش أزواجهن من يكرهون، وفي رواية: يدخلن على أزواجهن ما ليس من أهلهم». إلى غير ذلك من تجليات الملكوت مما أريه ليلة الإسراء.

ولما حرم الله الربا قال مشركو مكة: لم حرم محمد الربا وإنما البيع مثله؟ فأنزل الله تكذيباً لهم ورداً عليه فقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فالربا من حيث هو ربا.

والربا على قسمين: جاهلي وإسلامي:

أما الجاهلي: فكان الرجل يسلم للرجل أو يداينه، فإذا حل الأجل يلزمه فيقول له: إما أن يقضيه ناجزاً، وإما أن يزيد له في الثمن إلى أجل آخر يصطلحان عليه،

(١) حديث «لعن رسول الله ﷺ أكل الربا»... إلخ. صحيح رواه مسلم بلفظ: «لعن رسول الله ﷺ أكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء» (٥٠/٥) مسلم، كما رواه الطبراني بلفظ آخر، وعنه السيوطي في جامعه ورمز له بالحسن وزاد فيه، قال المناوي شارحه: قال الحاكم: على شرط مسلم، وأقره الذهبي وقال: إسناده صحيح (٢٦٩/٥)، والله أعلم.

(٢) الفهر: الحجر.

وكان قد علما قدر الزيادة.

وأما الربا الإسلامى: فهو على قسمين: ربا فضل، وربا نساء، وكل ذلك يشمله حديثه الصحيح المخرج فى الصحاح كلها بأسانيد جمّة وروايات مختلفة، وهو قوله ﷺ: «الذهب بالذهب ربا إلا يداً بيداً مثلاً بمثل، والورق بالورق ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد، والبرُّ بالبر ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد، والتمر بالتمر ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد، واللحم باللحم ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد، والملح بالملح ربا إلا مثلاً بمثل يداً بيد».

وفى رواية: «الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء، والورق بالورق ربا إلا هاء وهاء، والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء، واللحم باللحم ربا إلا هاء وهاء، والملح بالملح ربا إلا هاء وهاء، فمن زاد أو استزاد فقد أربى»^(١).

ويشمل قوله ﷺ: «الذهب بالذهب والورق بالورق» المعادن النفيسة كلها كالرصاص والنحاس والقزدير والحديد. ويشمل قوله: «البر بالبر» جميع أنواع الحبوب والقطاني مما يقتات ويدخر. ويشمل قوله: «التمر بالتمر» جميع الثمار والعسول. ويشمل قوله: «اللحم باللحم» جميع الدسومات، ويدخل فى ذلك الزيت بأنواعه والسمن والأقط واللبن والودك وإن اختلفت أجناسه، ويدخل فى ذلك الجلد والعظم والمخ والنخاع. ويشمل قوله: «الملح» جمع المعادن المتغيرة من جنس التراب بملوحة أو مرارة أو حموضة كالشب والزرنخ والنظرون والكبريت.

فالفضل: الزيادة عدداً أو حالاً بين الأجناس المتحدة، فإذا اختلفت الأجناس فلا بأس بالزيادة كإسلامك مدى دخن بمد شعير لا مدى شعير بمد قمح لاتحاد الجنس ولو كان القمح أجود، لكن الطعام وإن اختلفت أجناسه فإنه لا بد فيه من المناجزة، وإذا تباينت الأجناس جاز الفضل والنسيئة كسلمك جملاً أو ثوباً بعشرين ديناراً إلى أجل، أو بيعك طعاماً بمائة دينار إلى شهر أو نحوه.

(١) حديث «الذهب بالذهب ربا»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان وغيرهما، وهما كما قال الشيخ مروى بأسانيد جمّة وروايات كثيرة، وليس اللحم من المتفق على صحته، والله أعلم.

والنسيئة: التأخير.

ومن البيوع ما هو فاسد من غير أن يكون ربوياً، وقد نص الشارع عليه بقوله: «لا يجوز البيع إلا بأجل معلوم وثمن معلوم وقدر معلوم». فيدخل في ذلك وجوب العلم بالثمن والقدرة عليه؛ فلا يكون مجهول العين ولا العدد كالجنين والمغيب في سلة ونحوها، والثوب الذي لا ينشر، وبيع الليل إلا ما يعلم من اللمس أو الذوق، وبيع العربان، أو على منتهى الحصة، وسعر لم يعلمه، أو على ما باع به فلان كالمضامين والملاقيح والآبق والشارد وحيتان نهر وقدم زيد لا الجذاذ وقدم الحاج وطلوع الثريا، بخلاف رجوع العسكر وإبان المطر، وباقي مسائل البيع موكول إلى كتب الفقه المستقلة، وقد تركناها مخافة التطويل الممل.

قوله: ذا رباء، بالمد والفتح: أى حالة كونك صاحب فضل أى غنى. والجزى، بالكسر والقصر: جمع جزية، وهو ما تأخذه الولاة على الرعية من زكاة أموال المسلمين والمغرم وخمس الركاز وما يؤخذ على أهل الذمة. والجزاء، بالمد والفتح: ثواب الأعمال خيراً كان أو شراً.

قال تعالى: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال: ﴿وَجَزَاءُهم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٧].

وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال: ﴿وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَافِرِينَ﴾ [سبا: ١٧].

وتركيب معنى البيت فكأنه يقول: اجتنب أكل الربا فى حال كونك ذا فضل أى غنى، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ [النور: ٢٢]، وهذا مما يفهمه قوله فى البيت الذى قبله:

* ولش القضى اختر إن دعاك قضاء *

فيكون هذا تأكيداً لذلك المفهوم، ويسمى مفهومه تذيلاً.

قوله: وإن وليت جزى: أى جعلت والياً على قبضها ممن تجب عليه، أو على جعلها فى مواضعها فوال العدل، أى تابعه والزمه ولا تحد عنه: بأن لا تأخذها إلا ممن تجب عليه بحسب الحال، ولا تدفعها إلا لمن يستحقها. قال ﷺ: «العدل إذا

دام عمره، والجور إذا دام دمر.

وليس للجباة والمفرقين إلا أجرة أمثالهم أو ما وضع لهم الإمام، كما فعل الرسول ﷺ والذي جعله على زكاة قوم، وكان يهدى إليه مكان من رسول الله ﷺ، فلما قدم على رسول الله ﷺ عزل جزءاً من المال فقال: هذا لي، وهذا من عملكم، فأخذ منه رسول الله ﷺ ما عزل ثم قال له: ليقعد أحدكم في بيت أمه فلينظر هل يهدى له بشيء؟!

ومعنى البيت بديهية: تورع في مأكلك فلا تأكل إلا طيباً، وأعدل فيما وليته يعظم جزاء أعمالك على قدر ذلك في الدار الآخرة. وقوله: «يُسْن: مضارع أسناه أى رفعه، وهو مبنى لما لم يسم فاعله مجزوم بحذف آخره لكونه جواب الأمر.

ثم قال رحمه الله:

٩٢- وَحِجْلِي وَحِجْلَاءُ اجْتَنِبْ لَجِبًا بِهَا فَمُعْطِي الْإِلَىٰ إِنَّ ابْطَرْتَهُ الْآءُ

فالحجلى، بالكسر والقصر: جمع حجلة، وهو طائر مرقم جميل يتخذه المترفون للهوى، وهو من أضعف الطير طيراناً وألينه عريكة لكونه لا يتسبع ولا يمتنع لضعفه. قال الشاعر:

ارحموا صبتي الذين كأنهم حجلى تدرج فى المدكة أو تقع

وهى التى مثل الرواة بزرها خاتم رسول الله ﷺ، وهو قرطمها، والقرطم شىء يعلو خياشيمها كأنه رقم وفيه نقط دقيقة كأنها وخز الإبر. والحجلاء، بالمد والفتح: الدابة البيضاء القوائم وسائر جسدها بخلاف ذلك. والإلى، بالكسر والقصر: مفرد النعمة، وجمعها آء. والآء، بالفتح والمد: كل ما حسن منظره ومطعمه كشجر الدفلى^(١). والبطر: استعمال النعمة فيما يجر النعمة، أو التناول بها على القرناء على وجه الفخر والازدراء والفرح بها بدون أداء واجبها، أو التكبر بها عن اتباع من أوجب الشرع اتباعه: من نبي أو ولى عالم عامل أو وال للحق موال. وحقيقة البطر الكبير والأشر، يقال: أبطرته النعم: إذا أطفته.

(١) الدفلى، بالفاء: شجر زهره كالورد الأحمر وحمله كالخروب.

فكانه يقول اجتنب اللعب بما يلهيك من الطير كالحجلى مثلاً، ومن النعم كالحجلاء مثلاً، فإن ذلك لا يجتمع مع شكر ما أنعم الله به عليك مما لا يحصى بل هو محض بطر بسببها؛ إذ لولاها لم يكن له لعب البتة؛ فالأولى به شغل خاطره بأداء شكرها الواجب عليه، المقتضى لدفع العذاب عنه، وإدائها عليه، مع المزيد الموجب لزيادة الشكر وسرمدة الذكر، ولا يستطيع أداء شكرها إلا باستمداده من الله أن يتولى شكر ذلك عنه؛ إذ لم يكن في وسع الإنسان أداء ما هنالك؛ إذ توفيقك للشكر نعمة تقتضى منك مزيد الشكر، ولذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فإذا كنا لا نقوم بشكر نعمة واحدة فكيف نقوم بشكر نعم لا تحصى؟! قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فإذا عجزنا عن مجرد الإحصاء فكيف نقوم بشكر الآلاء؟ تولى الله عنا ما هنالك، إذ هو القادر على ذلك.

ثم استعمل نشاطك الذى ربما دعاك إلى اللعب فى العمل بطاعة الله ونفع إخوانك من المسلمين، وتحصيل ما عسى أن يكون لك عوناً على طاعته وشكر نعمه الجسيمة؛ فإن النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. ولذلك خلق الله الحرف وجعلها فى طوق البشر ليتنافسوا فى تحصيلها وتكون شاغلة لهم عن الباطل.

قال الرسول ﷺ: «إن الله يحب العبد المحترف»^(١).

وفى المثل: (قيمة الإنسان فيما يحسن).

ثم أنعم الله عليهم بالفاقات داعية لاستعمالهم الحرف فى تحصيل ضروريات الطبع؛ لأن الله خلق الإنسان مضطراً إلى القوت، مفتقراً إلى اللباس، محتاجاً إلى

(١) حديث: «إن الله يحب العبد المحترف» ضعيف جداً رواه الطبرانى بلفظ: «إن الله يحب العبد

المؤمن المحترف»، وعنه السيوطى تحت رقم ١٨٧٣ والحكيم، ورمز له بالضعف.

قال المناوى: قال الهيثمى: ضعيف. وقال ابن الجوزى: حديث لا يصح: وقال فى الميزان: أبو

الربيع السمان - راويه - مضطرب الحديث. وقال الدارقطنى: متروك. وقال هشيم: كان يكذب.

وقال السخاوى: لكن له شاهد (٢/٢٩١) فيض. قلت: فبان من هذه النقول أن أقل درجات

هذا الحديث الضعف الشديد، والله أعلم.

النساء، محباً للمال والبنين، ولا يمكن تحصيل شيء من ذلك إلا باستعمال الحرف، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]؛ إذ من عباده من يسوقه إليه بسلاسل الامتتان، ومنهم من يسوقه إليه بسلاسل الامتحان.

وتشبيه أهل اللعب بشجر الدفلى لحسن ظواهرهم برونق النعم وقبح بواطنهم بشين البطر الذي هو من أعظم النقم.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [٩٧] أو أمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، فجعل الله اللعب سبباً لإتيان العذاب، أو لأن غالب أحوال من استوجب العذاب اللعب.

وقال تعالى في ذم الدنيا وأهلها: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] فَصَدَّرَ تَعَالَى بِاللَّعْبِ لِأَنَّهُ دَاعِيَةٌ تَلْكَ الْخِصَالَ الْمَذْمُومَةَ: مِنَ اللَّهْوِ وَالزَّيْنَةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالتَّكَاثُرِ، فَيَكُونُونَ بِاللَّعْبِ وَالبَطْرِ كَالْبَهَائِمِ فِي الْمَرْجِ الْخَضِرِ، عَرَفْنَا اللَّهَ نَعْمَهُ بِدَوَامِهَا وَلَا عَرَفْنَا إِيَّاهَا بِزَوَالِهَا، آمِينَ.

باب ما يقصر فيكسر ويمد باختلاف المعنى^(١)

أى هذا الباب الذى يكسر أوله ويختلف آخره بالقصر والمد كما يختلف معناه فيجتمعان فى الكسر ويختلفان فى المعنى .

• ثم قال رحمه الله:

٩٤ - وَرَبَّ حِمَى ضَاقَ الحِمَاءُ بِهِ عِفَاءً فَأَقْفَرَ حَتَّى لَيْسَ فِيهِ عِفَاءٌ

قول: رب قد تقدم بيانه. حِمَى، بالكسر والقصر: المكان المحمى؛ ومنه قوله ﷺ: «ومن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كان كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»^(٢).

والحماء، بالكسر والمد: المحامة والممانعة. قال أبو طالب بن عبد المطلب: (من بحر الطويل)

ونحمى حماها يوم كل كريهة ونضرب عن أحجارها من يرومها

والعفاء، بالقصر: جمع عفو، بكسر العين، وهى الخيار من كل شىء، والعفوة الذى هو مفرد هذا الجمع جمع أيضاً مفردة: عفو، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والعفاء، بالكسر والمد: كل ما طال وكثف من الوبر والشعر وريش النعام.

قال زهير: (من بحر الوافر)

أذلك أم أقب البطن جأب عليه من عقيقته عِفَاءٌ

فكأن الناظم يقول: رب مكان محمى عن الناس ضاقت المحامة والممانعة فيه

(١) قبل هذا الباب ترك الشيخ رحمه الله بيتاً لم يشرحه وهو:

٩٣ - وَلَا تَهْلِكِ العِزَى بِمَعْزَاءٍ وَاعْتَبِرْ بَدَى فِرَى وَذَا فِرَاءَ فَذَاكَ وَقَاءُ

(٢) حديث: «ومن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الستة، وأوله عندهم: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة»، وآخره: «يوشك أن يواقع»، وهذا لفظ البخارى وهو عنده فى كتاب البيوع، والله أعلم.

لأجل خيار أمواله لكثرتها، أى لم تسمع المحاماة جميعها لإفراد كثرتها؛ فأقفر بعد ذلك المكان المحمى، أى صار خلاء من جميع ما كان فيه من دثر حتى من الشعر والوبر.

فحمى: مجرور برب لفظاً مرفوع بالابتداء، وجملة «ضاق» صفة له، وجملة «فأقفر» خبر عنه، وصدرت بالفاء لإبهام المبتدأ لكثرة دخول الفاء عليه؛ فأشبهه الشرط لذلك.

وأتى بالبيت تنبيهاً على أن الدنيا وإن كثر حطامها فإنها سريعة الانقلاب وشيكة الذهاب مهياً للخراب.

يروى أن سعد بن أبى وقاص الزهرى أدرك الخرقه^(١) بنت النعمان بن المنذر ملك الحيرة وهى عجوز كالشن البالى، وذلك مدة ولايته فى العراق، فقال لها: ما أعجب الأشياء إليك أيام دولتكم؟ فقالت له: كثرة أصوات المجيبين إذا دعونا، وكثرة الثناء علينا إذا منحنا أو عفونا، وكنت كلما جلست تقوم حولى ألف وصيفة عليهن الخلى والدياج، وأرسل إلى ابنى يوم أضحى ألف ثور واثنى عشر ألف كبش، فظلمت غضبى عليه حتى أعدته عاقاً لقله ما بعث به إلى من الأضحى، فصاح بنا صائح الدهر، فأصبح يرحمنا من كان يغبطنا. فأجزل لها فى العطية، فقالت له: لا جعل الله لك حاجة إلى لثيم، وإذا سلب من ذى نعمة نعمته جعلك الله سبب ردما عليه.

• ثم قال رحمه الله:

٩٥- وَكَمْ بِاللَّوَى مِنْ ذِي لَوَاهٍ وَذُو بَنَى عَلَيْهِ لِأَيْدِي الْحَادِثَاتِ بِنَاءُ

فاللوى: يقال لما بين رمال عالج وبلاد نجد، وهو منقطع الرمال، ورمال عالج متصلة بأرض وبار التى سكنتها الجن بعد عاد، فلم يهتد إليها بعدهم أحد إلا

(١) لعل صاحبة القصة هند الكبرى بنت النعمان، والمحاوره التى كانت معها تمت بشكل آخر مغاير لهذه الرواية، وسع المغيرة بن شعبة أيام ولايته على العراق، والقصة التى أورد الشيخ تروى كذلك عن أم جعفر البرمكى، والله أعلم.

دُعِيمِيصٌ، فتركته الجن حتى توسط رمالها، فطمست عينيه؛ فهلك وهلك جميع من معه من العساكر والنجوع. ومن هذه الرمال يمتد حتى يدنو من الشام عن يمين السالك إلى إيلياء^(١)، وأما من قصد البلقاء والتخوم فلا بد من قطع بعض هذه الرمال، وهذا الذي كان رسول الله ﷺ يضرب به المثل في قوله: «من سبح بعد كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله كتب له من الأجر عدد رمال عالج»^(٢).

ومنه قول حسان: (من بحر الطويل)

دعوا فلجات الشام قد حال دونها
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم
إذا سلكت للغور من بطن عالج
أقمنا على رأس النجود كمائناً
بكل كُميت جوزة نصف خلقه
ترى العرفج العامى تدرى أصوله
فإن تلق في تطوافنا والتماسنا
وإن تلق قيس بن امرئ القيس بعده
ضراب كأفواه المخاض العوارك^(٣)
وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
فقولا لها ليس الطريق هنالك
بأرعن جرار عظيم المبارك^(٤)
وقب طوال مشرفات الحوارك^(٥)
مناسم أخفاف المطى الدواتك^(٦)
فوات بن حيان يكن رهن هالك
يزد في سواد لونه لون حالك

(١) إيلياء: بيت المقدس.

(٢) حديث: «من سبح بعد كل صلاة»... إلخ. صحيح رواه مسلم بلفظ: «من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد ثلاثاً وثلاثين وكبر ثلاثاً وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»، والله أعلم.

(٣) العوارك: جمع عارك: المرأة الحائض. ولا يتم المعنى بهذه الرواية، وفي السيرة لابن هشام: المخاض الأوارك بدل العوارك، وهو الصحيح، ومعنى الأوارك جمع أورك وهو العظيم.

(٤) البيت حسب رواية ابن هشام هو:

أقمنا على الرس النزوع ثمانياً
والأرعن: الجبل الطويل. والرس: البئر القديمة. والنزوع: القرية القعر.

(٥) الحوارك: جمع حارك، وهو أعلى الكاهل. وجوزة: وسطه.

(٦) العرفج: نبت معروف، والعامى منه الذى له سند أو هو الطويل.

وأبلغ أبا سفيان عنى رسالة فإنك من غير الرجال الصعالك واللواء، بالمد والكسر: كل ما استطال من الأعلام، وإذا كان مربعاً يقال له الراية، ولم تكن فى قديم الزمان، وإنما ابتدأها شدداد بن عاد، فهو أول من اتخذ الرايات والألوية، فإذا بلغ الجيش ألفاً اتخذ اللواء، وإذا كان الألف إنما يتخذ رئيسهم الراية، وإنما يحمل اللواء السيد الكريم المقدم الشجاع البطل، ولا يكون إلا فى معظم الجيش، فهو الذى يقودهم إلى الحرب، ويفيئون إليه عند الكر والفر، وقلما قتل صاحب الراية إلا انهزم جيشه إلا ما كان من يوم أحد ويوم اليمامة: أما يوم أحد فإنهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ طلباً للغنيمة، فأدبهم الله بتلك الهزيمة حتى أصابهم ما أصابهم من التمحيص. وأما يوم اليمامة فإن البلاء كان يأتى الناس من قبل الأعراب، وكانوا معظم الجيش، وكانوا يهزمون؛ فينهزم أهل السوايق والنيات، ويثبت أهل الرايات؛ فيقتلون.

فلما طال ذلك على أصحاب محمد ﷺ تنادوا: أخلصونا؛ فأخلصوا لا يخالطهم غيرهم. وانعزلت الأعراب جانباً، فباشروا الموت الناقع رضى الله عنهم مخافة أن يؤتى الإسلام من قبلهم، فاستشهد من المسلمين ألف ومائتان، سبعمائة منهم حملة القرآن، واستؤصل أصحاب الألوية رضى الله عنهم، فمات زيد بن الخطاب، وكان صاحب لواء المهاجرين، ثم أخذه سالم مولى أبى حذيفة، فقيل له: لا يؤتى الجيش من قبلك فإن هلاك الجيش وفلاحه إنما هو بلوائه، فقال لهم: بئس حامل القرآن أنا إن أتى المسلمون من قبلى، فحفر لرجليه إلى أنصاف ساقيه، فلم يبرح مكانه حتى قتل رضى الله عنه. وكذلك بشر بن الحارث الأنصارى وأبو دجانه وقيس بن شماس فى سبعين رجلاً من الأنصار.

وأول لواء عقده رسول الله ﷺ فى الإسلام عقده لأبى عبيدة بن الجراح، وبعض العلماء يزعم أنه بعثه حين قدم من غزوة الأبواء قبل بلوغه المدينة، وأنه بعث فى مقدمه المدينة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص^(١) فى ثلاثين ركباً من المهاجرين، فلحقه أبا جهل بذلك الساحل فى ثلاثمائة ركب من أهل مكة، فحجز بينهم مجزى بن عمر الجهنى، وكان موادعاً للفريقين،

(١) العيص: قرية صغيرة قرب ينبع النخل.

فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال . وبعض الناس يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين ، وذلك أن بعثه وبعث أبي عبيدة كانا معاً؛ فاشتبه ذلك على الناس ، وقد زعموا أن حمزة قال في ذلك شعراً يذكر فيه أن رايته أول راية عقدها رسول الله ﷺ ، فإن كان حمزة قال ذلك فقد صدق إن شاء الله ؛ إذ لم يكن له أن يقول إلا حقاً ، والشعر المروى عنه هو : (من بحر الطويل)

ألا يا لقومي للحلم والجهل	وللنقص من رأى الرجال وللعقل ^(١)
وللراكيين بالمظالم لم تطأ	لهم حرمان من سوام ولا أهل
كأنا نبلناهم ولا نبل عندنا	لهم غير أمر بالعفاف وبالعدل
وأمر بإسلام فلا يقبلونه	وينزل منهم مثل منزلة الهزل
فما برحوا حتى انتدبت بغارة	لهم حيث حلوا أبتغى راحة الفصل
بأمر رسول الله أول خافق	عليه لواء لم يكن لاح من قبلى
لواء لديه النصر من ذى كرامة	إله عزيز فعله أفضل الفعل
عشية ساروا حاشدين وكلنا	مراجله من غيظ أصحابه تغلى
فلما تراءينا أناخوا وعقلوا	مطايا وعقلنا مدى عرض النبل
فقلنا لهم حبل الإله نصيرنا	وليس لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغياً	فخاب ورد الله كيد أبى جهل
وما نحن إلا فى ثلاثين ركباً	وهم مائتان بعد واحدة فضل
فيا لقصى لا تطيعوا غواتكم	وفيثوا إلى الإسلام والمنهج السهل
فإنى أخاف أن يصب عليكم	عذاب فتدعوا بالندامة والشكل

واللواء من حيث هو لواء لا بد له من حامل ، وحماة يماثلون حامله أو يدانونه ، وفى ذلك يقول ضرار بن الخطاب :

(١) الشطر الأول من هذا البيت لا يستقيم وزنه هكذا .

يا نبيَّ الهدى إليك لجاجي
حين ضاقت عليهم وسعة الأُر
والتقت حَلَقَتَا البطان على القو
إن سعدًا يريد قَاصِمَةَ الظه
خزرجيُّ لو يستطيع من الغيد
فلئن أقحم اللواء ونَادى
لتكوننَّ بالبطحاء قريشُ

قريش ولات حينَ لجاء
ض وعاداهمُ إله السماء
م ونودوا بالصيلم الصلعاء
ر بأهلِ الحَجونِ والبُطحَاءِ
ظ رمانا بالنسر والعَوَاءِ
يا حماةَ اللوَاءِ أهلَ اللوَاءِ
فقعة القاع في أكف الإماء

وكان لا يوصف بحمل اللواء حقيقةً أو مجازاً إلا الكريم المنتخب. قال الرسول ﷺ: «حامل القرآن حامل لواء المسلمين؛ فلا ينبغي له أن يغفل مع من يغفل، ولا أن يجهل مع من يجهل»^(١).

وفي المسانيد المعتبرة عنه ﷺ أنه قال: «أنا قائد الأنبياء والرسل يوم القيامة، ولواء الحمد بيدي، آدمٌ ومن دونه من الأنبياء في ظل لوائى يوم القيامة. فقيل له: ما معنى لواء الحمد يا رسول الله؟ قال: أقوم مقاماً يوم القيامة يحمدنى فيه الأولون والآخرون ويغبطنى به الأنبياء والمرسلون، فإذا قمته أتانى جبريل فى ملائكة من الملائكة يحمل لواء الحمد بيده، فيجعل قائمه بيدي، ثم ينشره على رأسى، ثم ينادى مناد فى عرصات المحشر: أن هلموا معاشر الأنبياء والمرسلين والشهداء والصديقين فاستظلوا بظل لواء سيدكم وسيد الملائكة المقربين، فتخفق له سبعون ألف ذؤابة، تحت كل ذؤابة أمة من الصالحين، وقد نصب لى كرسى من النور، ونصب للأنبياء حولى كراسى بعضها من ياقوت وبعضها من زمرد وبعضها من ذهب، وأبو بكر عن يمينى، وعمر عن شمالى، وعلى بن أبى طالب بين يدي،

(١) حديث: «حامل القرآن حامل لواء المسلمين»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، غير أن الديلمي فى مسنده أخرج قريباً منه بلفظ: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، من أكرمه فقد أكرم الله ومن أهانه فعليه لعنة الله». وعنه السيوطى فى جامعه ورمز له بالضعف، قال المناوى: وفيه محمد بن يوسف، قال الذهبى فى الضعفاء له: قال ابن عدى: اتهم بالوضع (٣/٣٦٨) فيض. وأورده الألبانى فى موضوعاته وقال: موضوع تحت رقم (٣٦٨)، كما أخرجه السيوطى فى الأحاديث الموضوعية له ص ٢٣ ورقم ١١٦، والله أعلم.

وابن عفان بين كتفى، ثم يأمرنى ربي فأخطب فيهم، فيلهمنى ويفتح على من الثناء الجميل عليه والحمد له ما لم يفتح على قبل ذلك وما لم يفتح على أحد من قبلى ولا من بعدى، ثم بعد ذلك تكثر الألوية، فيؤتى كل رسول وكل نبي بلواء، ثم يؤتى كل إمام من أئمة هذه الأمة بلواء، فإن كان من أئمة الحق والعدل والهدى أوتى لواء من سندس الجنة أبيض يغشاه نور الهداية، فيذهب به حتى يقوم بين يدي الله، فيخاطبه، ويبشره، ثم يأمر ملائكته فيتوجونه بتاج الكرامة، ثم ينادى على رأسه: ألا إن فلاناً سعد سعادة لا شقاوة بعدها، ثم يبشره الله برضوانه، ويقول له: ارجع إلى أصحابك وبشرهم بأن لكل واحد منهم مثل ما لك من الأجر والثواب وعلو المنزلة، وإنى عنهم راض، فينصرف إلى أصحابه وقد صار وجهه كالكوكب الدرى، فيقولون: اللهم بارك لنا فى القادم علينا، يعنونه، فيقول لهم: أبشروا إن الله يقول لكم: إن لكل واحد منكم مالى من الأجر والثواب وعلو المنزلة، وإنه عنكم راض، فتكسى وجوههم نضرة وسروراً، ويزدادون بقوله فرحاً وحبوراً، وأما أئمة الضلالة فيعطون أولوية سوداً من مسوح النار، ثم يقادون إلى حضرة الله تارة تأخذ الزبانية بنواصيهم وتارة تأخذ بأقدامهم، حتى إذا أوقفهم بين يدي الله فيقول تبارك وتعالى للزبانية: قفوهم إنهم مسئول، ويوقفون مدة بغير جواب، فلهم أذل من الذر^(١)، ثم يسألون سؤال توبيخ وتعنت يتتعتعون^(٢) ويتتلون^(٣)، ثم ينادى على كل واحد منهم: ألا إن فلاناً شقى شقاوة لا سعادة بعدها؛ فيسود وجهه، وتزرق عيناه، ويطمس أنفه، ثم يجعل على رأسه تاج الخذلان والخزى والهوان، ثم يقول الله: ارجع إلى أصحابك وأتباعك، فسحقاً لك ولهم، وبشرهم أنى عليهم غضبان، وأن لهم من العذاب الأليم والهوان المقيم مالك؛ فيرجع إليهم، فإذا رأوه مقبلاً قالوا: اللهم لا تبارك فى هذا المقبل، فلبئسما حملنا عليه، ولبئسما أتانا به؛ فيقول لهم: بعداً وسحقاً؛ فإن لكل واحد منكم مثل ما لى من العذاب الأليم والهوان المقيم». انظر البحر المحيط عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

(١) الذر: النمل الصغير جداً، أو هو كائنات أصغر لا تكاد العين تراها.

(٢) يتتعتعون: يتلجلجون ويترددون فى الكلام.

(٣) يتتلون: كذا فى الأصلين، وهو قريب من معنى الأول.

والبنى، بالقصر والكسر: جمع بنية، بكسر الباء وقد يضم: ما بنيته. والبناء، بالمد: المبنى.

فكأنه يقول: كثير من صاحبة راية كالأمير في منقطع الرمل، أى مدفون في التراب، وكثير من صاحب أبنية ومصانع كالقصور والمنارات في حال كونه عليه بناء بأيدي الحادثات، أى هالك مع الهالكين، غير ممتنع بما بناه مما صار لسواه من بعد رده.

فكم: مبتدأ، وباللوى: خبره، والباء بمعنى «فى». و«من ذى لواء» نعتٌ لكم. وذى بنى: معطوف. وجملة «عليه بأيدي الحادثات»: حال من الضمير المستتر فى الخبر، أى: كم من شريف كان مولى اللواء فى حال كونه عليه بأيدي الحادثات بناء.

فكأنه يقول: لو أغنت العساكر والحشود والمصانع والنهود فى دفع الموت عن حى موجود لدفعتها عن المنذر بن عاد صاحب القصر المشيد، فلما ولى وطغى وتجبر، ونسى الموت، ودوخ الأرض مشارقها ومغاربها، ولم يعارضه أحد إلا غلبه، حتى ملك ما بين الصين إلى البحر المحيط من جهة المغرب، فأقام بالمغرب عشرين عاماً مشتغلاً ببناء المدائن والقصور، ثم توجه راجعاً إلى اليمن، فكره أن يرجع إلى العمران من غير أن يبنى بناء بأرض فيحاء يمنعه من الموت ويحرسه من الفوت، فحشر المهندسين وأرباب التنجيم وحذاق الدهاقين، وأمر وزراءه فى أطراف البلاد وجميع المعمور أن يجبوا إليه أنواع اليواقيت والدرر والأحجار النفيسة والعقيان والزمرد والبلور وحجر المها، فبنى القصر المشيد وأكمله، فلم يدع دُرّاً ولا ياقوتاً ولا ذهباً إلا وأفرش به أرضه وجدره، ورضعه كله بأنواع الجواهر والعقيان، وبسط أرضه بالمرمر والرخام والملون والبلور، وكان قد أعطى قوة أربعين رجلاً، فكان يلوى الحديد، ويصيح بالأسد فيقع ميتاً، وطال عمره حتى كثرت ذريته، وتمردت فى الأرض، وطغت، وبغت. فلما كبرت سنه أراد أن يمتنع من الموت فى القصر المشيد؛ فبنى خارجه كله بالحديد المصقول وحجر المها المصقول، فكان ذلك الحديد المصقول يرمى بشرر النار فى النهار، والحجر يرمى بشرر النار فى الليل؛ فيحرق كل ما قرب منه على أربعين ميلاً، واتخذ له مدخلا تحت الأرض وأجرى

فيه الماء بلا حركات، فلا يدخله أحد حتى تزول حركاته ويجف ماؤه، وقال هو ووزراؤه: من أشد منا قوة؟ فأجابهم القضاء والقدر^(١) بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وكتب على بابه: أنا الملك الأخضر،؟ أنا المنذر الذي لا أخشى الموت ولا أخاف الفوت، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم؛ فأصبحت ديارهم خالية، وقصورهم خاوية، لا يسمع فيها غير أصوات الجن المنكرة بعد القوة الراسية.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

هو الحمام فلا تبعد زيارته
يا ويح من غره دهر فسرَّ به
فانظر لمن باد تنظر آيةً عجباً
بادوا فعادوا حديثاً إن ذا عجب
تنافس النَّاسُ في الدنيا وقد علموا
فخل عن زمن تُخشى عواقبه
واعمل لأخراك لا تبخل بمكرمة
انتهى.

فالمشيد هو المجصص المعلى المزخرف.

وفي البيت من البديع الاقتباس، وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩].

(١) قصة هذا البناية العجيبة لا صحة لها إطلاقاً؛ لعدم ثبوتها نقلاً مع أن كثيراً من المفسرين أوردوها، والله أعلم.

• ثم قال رحمه الله:

٩٦ - وَكَانَ ثَنًا يَثْنِي الثَّنَاءُ بِسِيهِ قَنًا وَلَدِيهِ فِي الْحُرُوبِ قِنَاءٌ

قوله: وكان، أى ذلك الذى باللوى، وعليه بأيدي الحادثات بناء مشيد عظيم المنزلة موالياً للسيد الأعلى كالخليفة مثلاً، وصفة الثنا أنه يثنى أى يرد الثناء، أى عقيل العدم، والثناء: عقل البعير من يديه جميعاً عن قصده. بسية: أى عطائه، وكان أيضاً قنًا: أى مرضى الأحوال. وكان هذا البيت متضمن معنى البيت الذى قبله وهو نوع من البديع.

قوله: ولديه: أى عنده رماح فى الحروب لكثرة أعوانه وأنصاره وأتباعه، أى أهل قنء يحمدونه، فلم ينفعه شيء من ذلك فى دفع الحادثات التى بنت عليه بناء بأيديها. فجملة «وكان ثنا»: حال كجملة «ولديه فى الحروب قنء»، الأولى حال من ضمير الجملة التى قبلها وهو ضمير الاستقرار محذوف، ويصح أن يكون من الضمير الذى اشتملت عليه وهو مجرور بعلى، والثانية من «ثنا»، وأما قنًا فيصح أن يكون خبراً بعد خبر، ويصح فيه أن يكون حالاً من الخبر، فالثنا، بالكسر والقصر: السيد الذى يلى السيد الأعلى. والثناء، بالمد والكسر: العقال من اليدين. والقنا، بالقصر: مصدر قنى الرجل: إذا ارتضيت أحواله وأقواله. والقنء، بالمد: جمع قناة، وهى العوالى التى تجعل عليها الألوية، ويقال لها أيضاً: الحراب.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فما منعت دار ولا عز أهلها من الناس إلا بالقنا والقنابل^(١)
وهى التى يجعلون على جرابها أغشية وعلى أواخرها الزجاج^(٢).

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطبع العوالى ركبت كل لهزم

وكان من عادة العرب إذا لقيت خيل خيلاً وأرادوا الصلح قلبوا عنهم الحراب

(١) القنابل: الطائفة من الناس أو الخيل.

(٢) الزجاج - بالكسر -: الحديدية التى فى أسفل الرمح.

ومدوا إليهم الزجاج، وإن أبوا قلبوا إليهم رءوس العوالى فوقعت المناجزة أو المحاجزة.

وفى المثل: «المناجزة تورث المحاجزة».

وفى البيت تلميح بالحث على إكساب المعدم وسد الفاقة، وذلك يقتضى التلويح إلى قول خديجة رضى الله عنها للنبي ﷺ لما فاجأه الوحي فأقبل إليها ترجف بواده من الجزع، فقال لها: زملونى زملونى؛ فقالت: مالك؟ فقال: إني أخاف أن يكون قد أصابنى لم من الجن فقالت له: كلا، لا يخزيك الله؛ إنك لتصل الرحم، وتكرم الضيف، وتحمل الكل^(١)، وتكسب المعدوم - وفى رواية: المعدم - وتعين على نوائب الحق، تعنى أن من جعله الله على هذه الخصال الكريمة لم يكن الله ليخزيه بلمم الجن، وإنما الشياطين على كل أفاك أئيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون.

ثم قالت له: انظر، هل تراه الآن؟ فرفع طرفه إلى السماء فإذا جبريل عليه السلام بين السماء والأرض على كرسى من نور، فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْبِرْ ﴿٣﴾﴾ [الدثر: ١ - ٣] الآية. فأماطت الخمار عن رأسها فقالت له انظر هل تنحى أم هو فى مكانه؟ فقال: إنه قد غاب، فقالت له: أبشر يا بن عمى فإنه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى بن عمران.

وكانت امرأة حازمة ذات عقل وافر وذكاء، وكان عمها ورقة بن نوفل قد تنصر وقرأ الكتب القديمة، وكانت تسمع منه بعض ما يقول، ثم ذهبت به خديجة بنت خويلد إلى ورقة بن نوفل فقالت له: أى عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره ﷺ بما رأى وما سمع، فقال له: أثبت يا بن أخى، والله إنه الناموس الأكبر الذى كان يأتى عيسى ابن مريم، ياليتنى كنت فيها جذعاً، ولئن أدركنى يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً، ياليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال له رسول الله ﷺ: أو مخرجى هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى، ثم جعل يقول^(٢): (من بحر الوافر)

(١) الكل: المشقة.

(٢) هذه القصة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما، إلى هذا الحد مع اختلاف فى بعض الألفاظ.

لججت وكنت في الذكرى لجوجا
 ووصف من خديجة بعد وصف
 ببطن المكتبين على رجاء
 بما خبرتنا من قول قس
 بأن محمداً سيسود يوماً
 ويظهر في البلاد ضياء نور
 فيلقى من يحاربه خساراً
 فيألتني إذا ما كان ذاكُم
 ولوجا في الذي كرهت قریش
 وأرجو بالذي كرهوا جميعا
 وهل أمر السفاهة غير كفر
 فإن يبقوا أو أبق تكن أمور
 وإن أهلك فكل فتى سيلقى

لهم طالما بعث النشيجا
 فقد طال انتظاري يا خديجا
 حديثك أن أرى منه خروجا
 من الرهبان أكره أن يعوجا
 ويخصم من يكون له حجيجا
 يقيم به البرية أن تعوجا
 ويلقى من يسأله فلوجا^(١)
 ولجت وكنت أولهم ولوجا
 ولو عجت بمكتها عجيجا
 إلى ذي العرش إن سفلوا عروجا
 بمن يختار من سمك البروجا
 يضح الكافرون لها ضجيجا
 من الأقدار متلفة خجوجا^(٢)

وقال ورقة بن نوفل أيضاً في ذلك، وهو مما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق: (من بحر الطويل)

أُتْبِكِرُ أم أنت العشيّة رائح
 لفرقة قوم لا أحب فراقهم
 وأخبار صدق خبرت عن محمد
 فتلك التي وجهت يا خير حرة
 إلى سوق بصرى فالركاب التي غدت
 يخبرنا عن كل خير بعلمه

وفي الصدر من إضمارك الحزن قاذح
 كأنك عنهم بعد يومين نازح
 يخبرها عنه إذا غاب ناصح
 بغدر وبالبحرين حيث الصحاصح
 وهي من الأحمال قعس دوالح
 وللحق أنوار بهن مفاتح

(١) الفلوج: الفوز والنصر.

(٢) الخجوج: الرياح الشديدة الملتفة في مرورها.

بأن ابن عبد الله أحمدَ مرسلٌ
 وظنى به أن سوف يبعث صادقاً
 وموسى وإبراهيم حتى يرى له
 ويتبعه حيا لؤى بن غالبٍ
 فإن أبق حتى يدرك الناس يومه
 وإلا فإنى يا خديجة فاعلمى
 إلى كل من ضمت عليه الأباطحُ
 كما أرسل العبدان هود وصالح
 بهاء ومشور من الذكر واضحُ
 شبابهم والأشيون الجحاجحُ
 فإنى به مستبشر اللب فارح
 عن ارضك فى الأرض العريضة سائحُ

فبان من هذا وغيره أن فى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] نبوته، وفى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] رسالته.

• ثم قال رضى الله عنه:

٩٧ - بهيج الردى عَضْبُ الرِّدَاءِ مَوْمِلاً مِلاهُ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ مِلاهُ

قوله: بهيج، أى الحسن. الردى، بالقصر: جمع رديّة، بالكسر: وهى هيئة المرتدى، أى اللابس. الردى والرداء، بالمد هنا: السيف.

قالت الخنساء: (من بحر المتقارب)

وداهية جرها حازمٌ
 جعلت رداك فيها جمارا

أى علوت رأسها بسيفك، كذا ذكره الناظم فى تفسير الأزهرى، والملى، بالقصر: جمع ملاة، بالكسر: وهى المدة، ويجوز فيها ضم الميم، فجمعها حيثند ملا، بالضم. والمؤمل: المرجو. والملاء، بالمد هنا: جمع ملاءى مذكرها ملآن كغضبى وغضبان، فكأنه يقول: كأن من ذكر حسن هيتته لبسه الردى. غضب الرداء: أى السيف مرجو الفضل، أوقاته مملوءة من الفعل الحسن، فبهيج الردى كغضب الرداء: أخبار متعددة، وهكذا مؤملاً، ويصح فيه أن يكون حالاً من ضمير آخر بتقدير «هو».

فالبيت يقتضى التشمير وعمارة الأوقات بأفعال الخيرات: من ذكر وصلاة

وجهاد وبذل وتحسين ثمينة وإرشاد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] أى تقلباً فى أفعال الخيرات: من تعليم جاهل، ورفعة خامل، وإرشاد ضال، ونفع معدم، ومواساة مغرم، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، ونوم ينشط للعبادة، وأكل ليتقوى عليها، وصوم ليكف نفسه عن مآلوفاتها، وإنطار ليستجم^(١). فينبغى للإنسان أن يأتى من كل طاعة الله؛ لأن الله تبارك وتعالى خبأ رضوانه فى طاعته، فلعلمه يصادف رضوانه فى بعضها فيسعد السعادة. الأبدية كما خبأ اسمه الأعظم فى أسمائه، وكما خبأ الصلاة الوسطى^(٢) فى الصلوات، وساعة الإجابة فى الجمعة، والأولياء فى عباده، وليفة القدر فى الليالى، وذلك كله بحسن النية وتصحيح العقد.

قال الرسول ﷺ: «لنوم العالم خير من عبادة الجاهل»^(٣)؛ لأن العالم يعلم كيف ينام؛ فلا ينام إلا على طهارة، واستقبال قبلة، واستفراغ، وخفة، وذكر، وإقبال على الله بالكلية قائلاً: اللهم إني وجهت وجهي إليك، وأسلمت أمري بين يديك، وأسندت ظهري إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، وبنبيك الذى أرسلت، اللهم إن توفيتنى من نومي هذا فتوفنى على الإسلام، وإن أبقيتنى فأبقيتنى على الإيمان.

وفى رواية: «وإن أحييتنى».

وفى رواية: «اللهم اجعل نفسى نفساً طيبة، تؤمن بلفائك، وترضى بقضائك، وتحب أهل طاعتك من أنبيائك وأوليائك». ثم قرأ القلائل^(٤)، وآية الكرسي، ولقد

(١) الظاهر أن الكلمة ليستجم أى ليستريح، راجعة للجميع أى لكل ما ذكر، وهى غير واضحة فى النسختين.

(٢) الصلاة الوسطى: هى صلاة العصر كما أخبر بذلك نبينا ﷺ يوم الخندق بقوله: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»... إلخ. وهذا الحديث ثابت لا مطعن فيه؛ وعلى ذلك فالصلاة الوسطى لم تخبأ.

(٣) حديث: «لنوم العالم خير من عبادة الجاهل»... إلخ. ضعيف جداً، رواه البيهقي بلفظ: «نوم العالم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله مضاعف، ودعاؤه مستجاب»، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٨٣٩، أما لفظ الشيخ فلم أجده.

(٤) القلائل: لعل المراد: السور قليلة الآيات كالمعوذتين وقل هو الله أحد، والله أعلم.

جاءكم. فإن فعلت بعث الله إليك ملائكة يحرسونك ويكتبون لك من الأجر والثواب ما لا يحيط بعلمه إلا الله حتى تنتبه، فإذا انتبهت فليكن أول ما تقول: «الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور». ثم لتقل: «اللهم اهدني لصالح الأعمال، واهد صالح الأعمال إلى، ووفقني له، وأسنئ عليه، ويسر علي أسبابه، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت بكل شيء عليم، لا يهدي للخير إلا أنت، يا أرحم الراحمين، يا رب الطيبين، اللهم أغنني بفضلك، ولا تقابلني بعدلك، فإن الفضل بيدك، وأنا البائس الضرير الفقير الخانع، من ذلت لك رقبته، وخضعت لعزتك نفسه، وانقادت لطاعتك ناصيته، وهملت من خوفك عبرته، فلا تطرده من واسع فضلك وأنت بغيته، يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام.

• ثم قال رحمه الله:

٩٨ - وَكَمْ مِنْ حِذْيٍ نَالَ الْعُقَاةَ حِذَاءَهُ وَبَيْنَ الْعِدَى مِنْهُ اسْتَمَرَّ عِدَاءَهُ

الحذى، بالقصر: جمع: حذوة، وهو ما يهبه الغانم من الغنيمة لمن احتذاه، وكانت العرب تعدد عدم احتذاء المحتذى من الغنيمة لؤماً، وفي ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

لا يحتذى منهم الحاذي إذا قدموا من غزو ناحية ولا يواسوه

والحذى أيضا جمع حذية، بالياء، وهي قطعة من لحم تقطع طولاً، والحذاء، بالمد: الإزاء، وهو من ظروف المكان. والعدى، بالكسر والقصر: جمع عدو، والعدى جمع الجمع، والعداء، بالمد: الموالاة في الطعن والضرب والرشق بالسهام. والعفأة: جمع عاف، وهم طلاب المعروف كغاز وغزاة. فكم معناه الإخبار بالكثرة، وهي مبتدأ، خبره نال العفأة. ومن حذى: تميز لكم. وحذاءه: ظرف لنال. وجملة «وبين العدى منه.. إلى آخره» حال من ضمير حذاءه وإن كان مضافاً إليه؛ لأن المضاف وهو حذاء مثل الجزء من المضاف إليه في عدم الانفكاك منه.

فكأنه يقول: كثر من المواهب من مغنمه حتى نال، أى استفاد، طلاب المعروف إزاءه، والحالة أنه استمر، أى ثبت واتصل، موالاة الطعن بين أعدائه فى حال كونه ذلك كائنًا منه .

• ثم قال رحمه الله:

٩٩ - فَأَفْنَى الْإِنَى مِلءُ الْأَوَانِي إِنْ أَوْهٌ فَمَاتَ وَلَمْ يَنْفَعْ غِنَى وَغِنَاءُ

الإنى، بالقصر هنا: أحد آناء الليل، وهى ساعته، فيقال لساعات الليل: آناء، كما يقال لساعات النهار أطراف، وتسمى أيضاً ساعات الليل زُلْفًا. والإناء، بالمد: واحد الأوانى. والغنى، بالقصر والكسر: ضد الفقر. والغناء، بالمد والكسر: رفع الصوت بالألحان. والفناء الإعدام، تقول فنى الشيء كرضى وأفناه غيره، تقول: شيخ فان: أى متغير لشدة هرمه. وملء الشيء، بالكسر: القدر الذى يملؤه كالشُبُع، بالكسر: المقدار الذى يشبع، والشرب: مقدار ما يروى من الماء. قال الله تعالى: ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] والفناء فى قوله: فَأَفْنَى للترتيب اللفظى لا المعنوى.

وإنأوه: مبتدأ، وملء الأوانى: خبره، والجملة فى موضع نصب على الحال من فاعل أفنى، وهو ضمير «ذى لواء وذى بئنا» المعبر عنه على قصد التهديد فى الدنيا وترك التنافس فيها؛ لأن صيرورتها للفناء، ولا يفلح فيها إلا الزهاد.

فكأنه يقول: فأفنى من ذكر أزمته، أى: أتى على آخرها، وإنأوه ملء الأوانى كلها، أى: ملأ إنأوه ملء الأوانى لسعة ذات يده وعظيم منته وفضله على الناس، فمات ولم ينفعه غناه ولا غناؤه، أى رفع الأصوات عنده بالألحان لتطريبه، وذلك من شأن أهل الرفاهية؛ فإنهم هم الذين يفتنون بالقيان الملهيات من الجوارى المغنيات، مع أنها ليست فى شىء من الردى والفناء بمغنيات، ولا من قدر من الأقدار بمنجيات، بل هى حقيقة عين المرديات ونفس المصيبات. وأما قوله: «فأفنى الإنى» قال الأَخْفَش عند قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] أى طائع فى جميع ساعات الليل، واحدها: أنا وأنوا وأنا. والزلف: جمع زلفة، وهى

إحدى ساعات الليل؛ لأن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، في كل ساعة ألف نفس بالنفس المتوسط:

فأول ساعات النهار الشروق، ثم البكور، ثم الغداة، ثم الضحى، ثم الهاجرة، ثم الظهر، ثم الزوال، ثم القصر، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشى، ثم الغروب؛ فهذه اثنتا عشرة ساعة للنهار.

وأما ساعات الليل: فأولها الشفق، ثم الغاسق، ثم العتمة، ثم السدفة، ثم الجهمة، ثم الزلة، ثم الزلقة، وهي عند السحور وهي أفضل الساعات، ثم النزهة، ثم السحر، ثم الفجر، ثم الصبح، ثم الصباح، فهذه اثنتا عشرة ساعة ليل بالاستواء، فإذا زاد الليل نقصت من النهار وإذا زاد النهار نقصت من الليل؛ فتنتهى الزيادة إلى خمس عشرة، والنقصان إلى تسع ساعات.

وتختص الزلف في الحقيقة دون الشريعة بثلاث ساعات قبل الفجر؛ ففيها يتجلى الحق سبحانه لقلوب عباده، فمن وجدته نائمًا فهو محروم، ومن وجدته يقظان فهو مكروم.

وفي الأسانيد المعتمدة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نام أحدكم فإن الشيطان يعقد على ناصيته ثلاث عقد، كلما أراد أن يستيقظ إلى الصلاة لوى الشيطان إحدى العقد ثم قال له: نم إن عليك ليلاً طويلاً، فإن ذكر الله انحلت عقدة، وإذا توضأ انحلت عقدة، وإذا قام إلى الصلاة انحلت عقده كلها؛ فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»^(١).

ويروى أن النبي ﷺ قيل له: إن فلاناً نام إلى الصبح، فقال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنه^(٢).

لا جعل الله للشيطان إلينا سبيلاً.

(١) حديث: «إذا نام أحدكم»... إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان والنسائي. البخارى

(٢/٣) ومسلم (٧٧٦) والنسائي (٢٠٣/٣).

وأوله: «يعقد الشيطان على قافية أحدكم»، والله أعلم.

(٢) حديث: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» حديث متفق على صحته رواه الشيخان والنسائي.

البخارى (٣١/٣) ومسلم (١١٥٩) والنسائي (٢٥٣/٣)، والله أعلم.

• ثم قال رحمه الله تعالى، آمين؛

١٠٠- وَأَهْلَ الْحَبِيِّ زَانَ الْحَبَاءِ وَلَمْ تَزِنْ لِحَى يَزْدَهِي أَحْلَامَهُنَّ لِحَاءُ

قوله: أهل الحبي: أرباب الحبي، بالقصر: جمع حبة، بالكسر: وهى هيئة المحتبى: وهو المدير على ظهره وساقيه عمامة أو ثوباً، واسم تلك الشملة المدارة حبة، بالضم، وهى من الهيئات التى قد نهى عنها رسول الله ﷺ فى الصلاة. وقيل: نهى عنها مطلقاً خوف التعرى، وإذا كان ﷺ نهى عنها خوف التعرى فإذا كان تحتها قميص أو إزار أو سراويل انتفت الحرمة وبقي النظر فى الكراهة. والحباء، بالمد: العطاء بلا من. ولحى، بالقصر: جمع لحية، بالكسر. واللحاء، بالمد: الملاحاة، أى: المسايبة. والأحلام، جمع حلم، بالكسر: هى الأناة والعقل، ويجمع على حلوم أيضاً. والازدهاء هنا: الاستخفاف. وأهل الحبي: مفعول به لزان أى حسن عزم الاهتمام.

والمعنى: زان العطاء بلا من أهل الهيئات. وهم الذين يحتبون فى مجالسهم فى الأندية على هيئة مخصوصة، ولم تزن لحي طويلة تستخف أناة أهلها وعقولهم ملاحاة ومشاتمة.

ومفعول تزن محذوف أى أهلها؛ دل عليه «أهل الحباء»، أو هو مفعول له مقدر لتنزيله منزلة القاصر.

والمعنى: لم ينفع زين للحى موصوفة بما ذكر. والمقصود أن الفضل يزين صاحبه من غير حلية وبدون جمال صورة، وحلية الجمال بطول اللحية وطول القامة وحسن الرونق وبياض الجسم من عدم الأناة والعقل لا يجدى؛ فكن من أهل الحبي والحلم لا من أهل اللحي الذين يستخفهم اللحاء، حتى تظفر بالزين وتأمّن من الشين.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فكم لحية طالت على ذقن جاهلٍ وما تحتها إلا الغباوة والجهلُ

وكم راكبٍ بغلاً عليه عمامةٌ تأملُ ترى بغلاً على ظهره بغلُ

قال على كرم الله وجهه: جمال الرجل فصاحة لسانه، وكماله ثبات جنانه،

وشرفه حسن فعالة، لا كثرة جماله، وحسبه كثرة أحيائه، لا حسب آبائه، وكرمه التقوى، لا التيه والهوى.

• ثم قال رحمه الله:

١٠١ - فَأَحْسِنْ بِمَهْدَى زَانَ مِهْدَاءِ فَتِيَّةٍ وَمَقْرَى عَلَا المِقْرَاءِ مِنْهُ بِهَاءٍ

أحسن: أفعل تفضيل جيء به للتعجب منصوبة بمهدى، فهو فى قوة ما أحسن طبقاً، تقع فيه الهدايا زين فتى كثير الإهداء من فتية، وما أحسن مقرى أى ظرفاً معدلاً لقرى الأضياف.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

لنا الجففات البيض يشرقن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دماً
ولم تزل سادات العرب وأشرفها وملوكها تتباهى وتتنافس بعظم الجفان وحسنها
جاهلية وإسلاماً.

قال لبيد بن الأعصم العامري: (من مشطور الرجز)

نحى بنى أم البنين الأربعة
ونحن خير عامر وصعصعة
المالئين الجفنة المقزعة
والضاربين الهام تحت الخيضة^(١)
يا واهب الخير الكثير من سعة
نحن أتيناك من أرضٍ مسبعة

ولقد مدح الله سليمان بعضم جفانه وقدوره فقال: ﴿يَمْلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾^(٢) [سبأ: ١٣] فلما رأى سليمان ما آتاه الله من

(١) الخيضة: أصوات القتال، أو الغبار فى المعركة.

(٢) الجوابى: البرك.

تسخير الرياح والطير والجن والإنس والشياطين والوحوش والدواب، وما هياً له من الزرع والبساتين، وخرق الأنهار واستنباط المياه من الأرض والعيون، وكثرة من يجلس على موائده وجفانه، تاقت نفسه عليه السلام إلى ما هو أعظم وأشرف مما هو فيه رغبة في الأجر وإخلاًداً للذكر ولتحصل له مزية لم يعطها غيره من جميع ملوك البشر، وإنما حملة على ذلك توهم أنه لما سأل الله أن يعطيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه طلب منه أن يجعل رزق خلقه على يديه سنة تامة ظناً منه أن هذا من جنس ما سأل، فأوحى الله إليه، أنك لا تستطيع ذلك فطلب أن يجعله إليه شهراً؛ فأوحى الله إليه أنك لن تستطيع ذلك، ولكني أجعل ذلك إليك يوماً واحداً، فإن استطعتة فإنك قد أعطيت ما لم يعطه أحد قبلك ولن يعطاه أحد بعدك، وقد أمهلتك سنة كاملة تجمع قوت ذلك اليوم.

فجد سليمان عليه السلام؛ فأمر الجن والإنس بالبذر، وأمر الله السماء فأرخت ذبولها بالغيث، وأمر سليمان الطير والوحش والدواب بنقل الزروع والثمار والفواكه والبقول إلى الشط، وأمر العفاريت والسعالى والغيلان بصنعة القدور والجفان من غير تعطيل، وأمر من لا يصلح للزراعة بالطبخ والتخبيز والثرذ، حتى جمع من ذلك ما لا يدخل تحت حصر حتى صار وكأنه الجبال الشامخات، فلما كان ذلك اليوم أخرج الله إلى تلك الزروع والثمار والفواكه والتين دابة من البحر، فلحست جميع ذلك بلسانها من غير أن يشبعها، فقالت له: يغفر الله لك يا سليمان، جعل الله إليك رزقى يوماً واحداً فلم تشبعنى وأنت ملك الدنيا؟! وبقي سائر الخلق يومئذ بغير قوت. فسجد سليمان عليه السلام، فقال: رب تبت إليك من طلبى ما ليس من وسعى ولا تبلغه طاقتى، أنت الملك الحق، وأنا عبدك الضعيف المضطر إلى رحمتك، الملكُ ملكك، والعبد عبدك، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلا بك.

فأوحى الله إلى سليمان أنه لا يقدر على رزق خلقى غيرى؛ إذ لو كان فى الوجود رازق غيرى لكان شريكاً لى فى ملكى، تعاليت عن ذلك علواً كبيراً، أحيى الإنسان برزقه وأميته بأجله^(١).

(١) هذه القصة من الإسرائيليات، ولم تصلنا بسند يوثق به.

قوله: «علا المقراء منه بهاء»: فعلا: فعل ماضٍ. المقراء: مفعول به، وهو الكثير القرى. وبهاء: فاعل علا، والضمير المجرور عائد على القرى، بالقصر: متعلق بعلا. والمهدى: الطبق الذى يهدى فيه إلى الملوك عند تزويج بناتهم وأخواتهم، ولا يقال له مهدى إلا إذا كانت فيه الهدية، وكثر استعماله حتى سمي به كل طبق يهدى فيه مطلقاً.

وفى كتاب الأغاني فى حكايات الأجواد وترجمة الدولة البرمكية أن رجلاً من الأزد قعد به دهره؛ فارتحل بأهله إلى الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك، فلما دنا من مدينته التى هو بها ترك أهله خارجها وأقبل إليه وعليه أظمار رثة، وإنما قصده ليكسوه ويعطيه ما يتقوت به هو وعياله، فوجده فى دَسْكَرَةَ^(١) له وقد زوجت إحدى بناته فى ذلك اليوم وهو ينظر الهدايا على عادة الملوك، فالتفت إليه فقال له: كأنك غريب؟ قال: أجل، وإنما أخرجنى من بلدى وعشيرتى رجاء سيب الأمير، فتحملت بأهلى وعيالى حتى نزلت ساحته وبى من الفاقة ما يمنعنى من بيانه الحياء وإجلال الأمير.

فقال له الفضل بن يحيى بن خالد: حسبك يا أعرابى، فلقد أحسنت، وستكفى مؤونة ما بينت.

فبينما هو يخاطبه إذ أتى الفضل بن يحيى بن خالد بطبق من در وياقوت، فقال: خذه يا أعرابى؛ فأراد القيام وقد أدهشه السرور، فقال له: على رسلك، ثم جىء بطبق من المسك الأذفر، فقال له: خذ يا أعرابى، فرام القيام، فقال له: على رسلك، ثم جىء بطبق من كافور، فقال له: دونك يا بدوى، فذهب لينوء فقال له: على رسلك، فجىء بأطباقٍ من ذهب وورق، فقال له: ضم الأطباق إليك يا أزدى، ثم جىء بأسفاطٍ من فاخر الثياب، فقال له: ضم إليك جميع ما ترى يا مذحجى.

فقال له الفضل بن يحيى بن خالد: هل لك من أعوان على حمل هذه الأموال؟ قال: لا، أصلح الله الأمير، إنما هم صبية صغار؛ فأمر بعدد من العبيد،

(١) الدسكرة: القرية الصغيرة، وسبق تعريفها.

وأمرهم بحمل الأموال على الحمير والبغال إلى حومة من مدينة بها دور عالية وزروع وثمار وذخائر، وجعل يسايره حتى دخلها وحط بها ما معه من الأموال، فقال له الفضل بن يحيى بن خالد: إن جميع ما ترى قد أمسى ملكاً من أملاكك، وإن جميع ما فيه من العبيد والإماء والدواب والمواشي تابع لذلك فهذه الصلة وأنا العائد، فهل وجدتنى عند ظنك؟

فقال: لو كان يتعاضم الملك بشيء لقلت: تقصر دون بذل هذا جميع قوى البشر، وإن أملى ليقصر دون النزر مما أسديت، لكن الأمير عاملنى على قدر منصبه وهمته لا على قدر أملى، ولقد دهشت عند أول الأطباق فضلاً عن سائر النوال، ولولا هيبة الأمير وما أنعشنى به الله من همته لصعقت، وحقيق بمن وجد فى دركات لظى ثم نقل فى ساعة زمنية إلى درجات جنة المأوى أن يصعق.

فقال له الفضل بن يحيى بن خالد وقد هزه ما سمع: لله أبوك من عربى! ما أحسنَ خطابك وأكثر صوابك وأغزر آدابك!! والله لقد استوجبت علينا بحسن ثنائك ما لا تقوم بقيمته العطايا وإن جلت.

ولما وقع للرشيد ما أوغر صدره على البرامكة، خصوصاً الفضل بن يحيى بن خالد، فدبر لهم من المكائد ما قتل منهم بسببه ثلاثة آلاف من أشرافهم فى ليلة واحدة، ومن جملة المقتولين الفضل بن يحيى بن خالد، وكانوا قد سادوا الناس جوداً وكرماً وبسالة وذكاء ودولة حتى كادوا يغلبون على الدولة العباسية، وقد عظموا فى قلوب العامة واستمالوها، فأوعد الرشيد من ذكرهم بخير، وقد وكل الرشيد أناساً يستمعون ثناء الناس عليهم وما يقولون فى شأنهم، ووكل بقبر الفضل ابن يحيى بن خالد أمناء يرون ولا يرون.

فجاء الرجل المذكور بوهن من الليل إلى قبره، فبكى وانتحب، ثم أنشد يقول:
(من بحر الوافر)

ألا يا نخلة من ذات عرق	عليك ورحمةُ الله السلامُ
أما والله لولا خوفُ واشٍ	وعينٌ للخليفة لا تنامُ
لطفنا حول جذعك واستلمنا	كما للناسِ بالحجر استلامُ

ولم أرَ قبل موتكَ يابن يحيى حساماً فلَّهُ السيفُ الحسامُ
على اللذاتِ والدنيا جميعاً ودولةُ آلِ برمكٍ السلامُ

فأخذه الوكلاء، فأتوا به الرشيد؛ فقال له: أما بلغك نهبي عن أن يذكر البرامك بخير؟! قال: بلى أيد الله أمير المؤمنين. قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: إحسانه إلى، وجودة نفسى، وكرم أبائى. فقال له الرشيد: ما بلغ من إحسانه إليك حتى خاطرت بنفسك؟ فأخبره بجميع ما جرى له معه؛ فقال: إنى أعطيك مثل ذلك ولا تعد إلى ذكرهم. ففعل الرشيد.

ثم أخذه الحراس بعد ذلك عند قبره يبكيه بقصيدة أخرى، فأتوا به إلى الرشيد، فقال له: ألم أحسن إليك مثل إحسانه ونهيتك عن ذكر الفضل بن يحيى وأهل بيته بخير؟! قال: قد فعلت يا أمير المؤمنين، ولكن إحسانك ذكرنى إحسانهم، فليقتلنى أمير المؤمنين؛ فما أرانى بمقلع عن ثنائهم؛ فأكون أول قتيل قتل على شكر النعمة؛ فقال له الرشيد: لله أبوك! فإنك لخليق أن تصطنع فولاه على ناحية، وأبأح للناس ذكر البرامك بجميل صنيعهم.

وتركيب البيت هو أن هذا المهدي يزين المهداء، والمقرى يصير المقرء أبهى؛ فهو تعجب منه قصد منه بالهدية والقرى وكثرتهما الإغراء.

كما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تهادى الجيران وتواصلوا بورك عليهم وكانوا بعين الله، فتمت أموالهم، وحسنت أحوالهم، وذهبت الشحناء من صدورهم».

وقال ﷺ: «تهادوا تزدادوا حباً»^(١).

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

إذا أتت الهديةُ بيتَ قومٍ تطايرت الفظاظَةُ من كُوَاهَا

وفى حديث قدسى يرويه رسول الله ﷺ عن ربه: «وَجِبْتِ مَحَبَّتِي لِلْمَتَبَادِلِينَ

(١) حديث: «تهادوا تزدادوا حباً» رواه العسكرى بزيادة: «وهاجروا تورثوا أبناءكم مجداً وأقبلوا الكرام عشراهم».

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٠٢٣ وله طرق وألفاظ كثيرة.

فِيَّ، والمتواصلين فِيَّ، والمتحابين فِيَّ».

يروى أن سليمان عليه السلام جلس يوماً بشاطئ الفرات لتعرض عليه جنوده من الجن والإنس والشياطين، وأقبل الخلق إليه بالهدايا والتحف، فإذا هو بهددة تحمل جرادة بفيها، حتى إذا أقامت على رأسه ألقته في الماء، فقالت له: يا نبي الله أتيتك بهدية على قدرى لا على قدرك، فمن فاته اللحم لم تفته المرقة! فضحك سليمان من قولها، وفي ذلك أنشدوا فقالوا: (من بحر البسيط)

أنت سليمان يوم العرض هدهدٌ أهدت إليه جرادا كان في فيها
فأنشدت بلسان الحال قائلةً إن الهدايا على مقدار مُهديتها
لو كان يُهدى إلى الإنسان قيمتهُ ما كان قيمتك الدنيا وما فيها

ولم يزل التهادى شأن الكرام، ومن عوائد الملوك وسادات الأنام، وحكايات ذلك وأشعاره لا تحتمله هذه العجالة؛ فأعرضنا عنها من أجل ذلك طلباً للاختصار.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٢ - وَمِثْلِي لِدِي الْمِقْلَاءِ يُبْدِي حَسِيْسَهُ

رِضَى وَيَسِّرَ الْمُحْسِنِينَ رِضَاءً

قوله: ومثلي: الواو: للعطف على مُهدى، والمِثْلِي، بالكسر والقصر: إناء القلى. والمِقْلَاء، بالمد: العود الذى يضرب به الصبى. والرضى، بالقصر: ضد الغضب، والرضاء، بالمد: المراضاة وهى المعاملة بالرضى. والحسيس: صوت يختص بالنار وما فى معناها. قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيْسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] بخلاف الحس، الحِسُّ بالكسر والفتح، فالْحَسُّ بالفتح خاص بالحيوان الحساس، والحس يطلق على كل ما له حس أى صوت، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مریم: ٩٨]. وإنما عطفه على مهدى ليفهم من ذلك الإغراء به، فكأنه يقول: ما أحسن إناء قلى يظهر أزيه ملهياً به لأجل إرضائه بذلك الصبيان، وفى ذلك إحسان بالصبى، وملاطفة له، ومعاملة له على الرضى، ويسر

المحسنين المعاملة بالرضى فى عقابهم؛ فى الكلام إغراء بملاطفة الصبيان الصغار وتفريحهم والإحسان بذلك إليهم.

قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة باباً يقال له باب الفرح لا يدخله إلا من يفرح الصبيان».

وقال ﷺ: «من كان له صبى فليتصابى معه».

وقال ﷺ: «ليس منا من لم يرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويرق للبهيمة والمملوك»^(١).

يروى أن النبى ﷺ قال: «لما شُرح صدرى وغُسل رجعت وقد وجدت على الصغير من الرقة وعلى الكبير من الشفقة والتوقير ما لم أعهده قبل».

ويروى أن عيينة بن حصن الفزارى دخل على النبى ﷺ فوجده يقبل صبياً، فقال له: أتقبل هذا يا محمد؟! لقد ولدت اثنى عشر ولداً ذكراً فما قبلت منهم واحداً، فقال له رسول الله ﷺ: «تلك رحمة نزعها الله من قلبك»^(٢).

وفى قوله عليه الصلاة والسلام: «يا أبا عمير ما فعل النغير»^(٣) أعظم شاهد على ذلك. ولقد كان الحسن يرتحله وهو فى الصلاة، فثبت ساجداً حتى ينزل. وحمل يوماً وهو فى الصلاة أمانة بنت أبى العاص بن الربيع وهو ختن رسول الله ﷺ، فكان كلما سجد وضعها، وكلما قام حملها، كما فى الصحيحين.

(١) حديث: «ليس منا من لم يرحم الصغير»... إلخ. رواه الترمذى وأبو يعلى والعسكرى بدون ذكر البهيمة والمملوك، وأورده السخاوى تحت رقم ٩٢٥ فى المقاصد له بلفظ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ومن لم يعرف لعالمنا حقه» وأورد له ألفاظاً غير هذا، والله أعلم.

(٢) حديث: «تلك رحمة نزعها الله من قلبك» صحيح رواه البخارى بلفظ: «من لا يرحم لا يرحم» ورواه غيره بلفظ قريب من لفظ الشيخ، أما قصة عيينة ابن حصن الفزارى وكونه دخل على النبى ﷺ وهو يقبل ولداً... إلى آخر القصة فأعتقد أن هذا غير صحيح، والصحيح - إن شاء الله - أن القصة كانت مع الأقرع بن حابس لما رأى النبى ﷺ يقبل ولده الحسن فقال: إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم. هكذا روى البخارى فى كتاب الأدب.

أما قصة عيينة فهى أنه دخل على النبى ﷺ وعنده عائشة فقال: من هذه؟ وذلك قبل أن ينزل الحجاب، فقال: هذه عائشة، فقال: ألا أنزل لك عن أم البنين؟! فغضبت عائشة وقالت: من هذا؟ فقال ﷺ: هذا الأحمق المطاع. أورده ابن حجر فى الإصابة (٥٥/٣)، والله أعلم.

(٣) حديث: «يا أبا عمير ما فعل النغير»... إلخ. صحيح، وتقدم تخريجه.

• قال رحمه الله تعالى:

١٠٣ - وَحَاسِي الْقِرَى مِثْلُ الْقِرَاءِ حَيَاضُهُ

فِيَابِي الرَّوَى مِنْهَا ظَمَى وَرَوَاءُ

فالقري، بالكسر والقصر: الماء المقرو أي المجموع في الحياض، ماضيه قريت الماء أقره قري. وحاسيه: الذي يشربه شيئاً بعد شيء يتحساه. والقراء، بالمد والكسر: جمع قروة، وهي ميلغة الكلب. والروى، بالقصر: مصدر روى، بالكسر: إذا شرب فأخذ حاجته. والرواء، بالمد هنا: جمع ريان، والظما، مهموز محرك: مصدر ظمى كفرح فهو ظمى كفرح، فالذى في البيت يحتمل أن يكون مصدرًا أو اسم فاعل مسهل الهمز فيهمل، إلا أنه على المصدرية يحتاج إلى تقدير مضاف أي: ذو ظمًا.

والمعنى: أن الذي يتحسى ماء الحياض شيئاً فشيئاً لؤماً منه حياضه مثل ميالغ الكلاب في الاستقذار؛ فيعاف الارتواء منها استقذاراً لها أصحاب العطش وأصحاب الرى. والمقصود التحذير من الانتفاع بما في أيدي اللثام، وذوى الهمم الدنيئة، والنفوس الساقطة الخسيسة، ورفع الهمة عن ذلك وإن دعت إليه الحاجة، وعلى حسبي رفع الهمم عن الدنيا تعظم المزايا، وتتفاوت المقامات، وتتضح العلامات، وتنقش الغمامات؛ فتتجلى الكرامات. وفي مثل هذا يقول الشاعر الأديب الكيس الأريب الحاذق الأديب: (من بحر الطويل)

وما كل برق لاح يستفزنى

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى

أنهنها عن بعض ما لا يشينها

وقال غيره: (من بحر الطويل)

دعوني ورأى واختيارى فإننى

وأعظم من قطع اليدين على الفتى

وفى المثل: «صلة الكريم مغنم، وصلة اللئيم مغرم»، ومن ثم قال السيد المختار

ابن السيد محمد الأمين الرقادي: (من بحر الكامل)

والمال درعٌ للفتى ومهابةٌ
والمال سيف صارم ومجنةٌ
والمال فى أيدى الأفاضل روضةٌ
وإذا تراه لدى اللئام فميتةٌ
ورداً لعرض الحر إن لم يرتدى
وأسنه مهما تقاتل تسعدى
كل وارع وانظر واقترش لك واحصدى
بين الكلاب متى تقارب تبعدى

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٤ - هِدَاهُ أَصَارَتُهُ هِدَاءَ فَرَأْيِهِ جَرَى فِى مَسَاعٍ قَبَّحَتْ وَجِرَاءُ

الهدى، بالقصر: جمع هدية، بالكسر: وهى السيرة القبيحة، بخلاف الحسنة فإنها يقال لها: هدى.

قال الرسول ﷺ: «أفضل الهدى هدى محمد ﷺ، وأفضل الحديث كتاب الله، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله»^(١).

والهداء، بالمد هنا: الرجل الهداء أى الأحمق الثقيل. والجرى، بالقصر والكسر: جمع جرية، وهى هيئة الجارى، وتطلق ويراد بها دم الحروب. قال الشاعر:

تخال جرية الأبطال فيها غداة الروح جارياً مذوباً

والجرية أيضاً: السفينة الصغيرة، والجرى أيضاً جمع جرو، وقد يمد. والجراء، بالمد: المجارة، يقال: فرس لا يجارى، وزيد لا يجارى كرمًا، والمجارة هنا إنما

(١) حديث: «أفضل الهدى هدى محمد ﷺ... إلخ» مؤلف من حديثين:

الأول: «أفضل الهدى»، وهو جزء من حديث طويل متفق على صحته، رواه الشيخان وابن ماجه وأوله: «كان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته... إلخ» خ (٨/ ٥٣٠) وم (٨٦٧) وابن ماجه (٤٥) كما أورده النووى فى الرياض تحت رقم (١٧٠) وعزاه لمسلم فقط، وفيه: «وخير الهدى هدى محمد ﷺ» بدل (أفضل).

والثانى: «أفضل ما قلت أنا والنبيون... إلخ» وهو جزء من حديث آخر رواه مالك مرسلًا والترمذى وحسنه، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأوله: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون... إلخ».

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٤٥٦ بهذا اللفظ، والله أعلم.

قصد بها المصنف مجازاة اللثيم اللؤماء .

فكأنه يقول: هدى من ذكر، وهو الحاسى لؤماً، أى سيرته الخبيثة السيئة هى التى صيرته بين الناس هداءً، فتزدريه وتتحاماهُ، فرأيه أن يجرى جرى ذوى خساسة ونذالة، فيكون ذلك فى مساع قبيحة، وهو من باب تسمية الشئ باسم ملازمه؛ لأنه لما كثر على أذنيه وعلى آذان من يصحبه أو يلازمه ويرتضى سيرته أو يطلب الانتفاع منه سميت قبيحة لملازمتها سماع الأفعال القبيحة والشيم السمجة، أى القبيحة، التى تمجها الأسماع الكريمة التى لم تتعود سماع القبيح، كما قال الشاعر: (من بحر المتقارب)

وسَمَعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقُبِيحِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النَّطْقِ بِهِ
فإنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه

وإن من يجارى من جرى فيها وركض فقد صار معدوداً من جملة اللؤماء الحمقى لمجاراته إياهم فى ميادين السخف والجهل، كما قال الشاعر: (من بحر الوافر)

إذا جاريت فى خُلُقٍ دنيءٍ فأنت ومن تجاربه سواءٌ
رأيتُ الحرَّ يجتنب المخازى ويحميه عن الغدر الوفاءُ

ثم إن جريه وجرأه فيما ذكر من جملة هداه التى صرفته عن طريق هداه، فعطفه عليه من عطف مفصلٍ على مجمل، فالفاء فيه لمجرد الترتيب الذكري. فهدها: مبتدأ، أصارته: خبره، وضمير المفعول فى أصارته عائدٌ إلى حاسى القرى، وهو مفعول أصار. وهدها: مفعولها الثانى، فتصير بسبب دخول همزة التعدية عليها من باب كسا وأعطى، غير أنها باقية على كونها ناقصة، وعملت بوصفيها، كما قاله الزجاج وابن جنى؛ فرأيه: مبتدأ ومضاف إليه، وجرى: خبره، فى مساع: خبر بعد خبر، قبّحت: نعت لمساع. وجرأ: عطف على رأيه، وهو عطف مجازى ذكري، والفاء فى «فرأيه» حرف ترتيبي عطف به على «حاسى»، وضمير المضاف إليه عائد عليه.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٥ - وَصَارَى الْكِرَى بَعْدَ الْكِرَاءِ كَذَى لَوَى

وَيَجْنَى لَمَشَهُورِ الْوَفَاءِ لِوَاءٌ

قوله: وصارى: اسم للحاسب، ويطلق ويراد به عمود السفينة الذى تعقد على رأسه القلوع، فيقال: صارى السفينة، كما يقال: صارى الكرى، ويطلق ويراد به زمن الصير، يقال: زمن صار: أى يصيب الأشجار فيه الجليد. والكرى، بالكسر والقصر: مضاف إليه ما قبله: جمع كروة، بالكسر: وهى أجرة الشئ المستأجر، وقد تسمى المؤاجرة بالكراء، وتمد، فهى بمعنى المكاراة، وهو من باب تسمية الشئ باسم محله وفعله، أى فعل اسم الفاعل الذى هو صار فى افتتاح البيت، صرى يصرى فهو صار. والكراء، بالمد: المؤاجرة.

واللوى، بالقصر هنا: التواء الحية، واللواء، بالمد: من قولهم: جاء فلان باللواء أى: بكل شئ، ويجنى، بضم الياء مضارع أجنى الروض أو النخيل، إذا أدرك ثمره وبلغ أوان الجنى.

فكأنه يقول: والذى يحبس الأجرة عن أربابها بعد المكاراة كصاحب انطواء من الحيات فى كونه لئىّ للمس، قاتل السم، خفى الإذاية، ظاهر النكاية، ويتيسر للشخص الذى شهر وفائه بين الناس كل شئ يحاوله، وينجح له كل أمل، ويظفر بكل مرغوب، والمقصود التحذير من منع أهل الحق حقوقهم ومطلبهم به بعد استحقاقهم إياه، والإغراء بالوفاء حتى يقع الاشتهار بذلك.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[الفتح: ١٠].

فالوفاء ركن عظيم من أركان الإسلام نصَّ عليه الشارع فى كتابه العزيز فى غير ما موضع واحد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

وقال: ﴿وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

وقال: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِطْعًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [٢٠] وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَاطِيًا﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وذلك أن النبي ﷺ قد كان وادع أقواماً من المشركين، منهم: جهينة وبنو ضمرة وطوائف من سليم وغفار وأسلم، ثم بلغه عنهم بعد ذلك ﷺ أنهم يريدون التجمع والغدر به، فأتاه جلة أصحابه وقالوا له: يا رسول الله، إنه بلغنا أن هذه الطوائف التي قد عاقدتها ووادعتها أنهم قد هموا بالتجمع والغدر بنا؛ فهلهم فلنبادئهم بالحرب قبل تجمعهم، ويسنعهم ذلك من الاجتماع فيخاف كل منهم على مائه وأرضه؛ فأمسك النبي ﷺ عنهم فلم يجبههم؛ فأنزل الله قوله: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨] الآية. وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أنه قد بلغنا أنه قد بدا لكم في حربنا، وأنكم تريدون التجمع في ذلك فإن كان ما بلغنا عنكم حقاً فقد نبذت إليكم عهودكم وعقودكم على سواء، فإنى لا أغدر ولا يحل ذلك في ديني، فاستعدوا للحربنا». فلما بلغهم كتاب رسول الله ﷺ رعبوا؛ فوفدوا إليه، فجددوا العقود والعهود فيما بينه وبينهم، فلم يزالوا عليها حتى هداهم الله إلى الإسلام وأكرمهم به.

فكل من نقض عهداً من العهود أو تهاون بعقد من العقود فقد خلع ربة الإسلام من عنقه لكونه قد غدر وحان.

قال الرسول ﷺ: «كل شيء يطبع عليه المؤمن ليس الكذب والخيانة»^(١).

(١) حديث: «كل شيء يطبع عليه المؤمن... إلخ» ليس بالقوى، رواه البزار وأبو يعلى بلفظ: «يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب»، قال السخاوى فى المقاصد: وفى الباب أحاديث أمثلها هذا الحديث، لكن ضعف البيهقى رفعه، وقال الدارقطنى: الموقف أشبه بالصواب. اهـ (٣١٥/١) مقاصد.

وروى مالك فى موطنه قال: قيل: يا رسول الله، المؤمن يكون جباناً؟ قال: نعم: قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: يكون كذاباً؟ قال: لا. اهـ. إلا أنه مرسل أو معضل، والله أعلم.

وقال ﷺ: «المؤمن لا يغدر».

وقال ﷺ: «المؤمن إذا عاهد وفي».

وفي المثل: (الوفاء من شيم الخنفاء).

وقال ﷺ: «مطل الغنى ظلم، والظالم أحق أن يحمل عليه»^(١).

وقال ﷺ: «أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»^(٢).

واختلف في الأيمان، فقليل من العهود، وقيل: من العقود، وقيل: منهما؛ فينبغي للإنسان أن لا يحلف بالله إلا إجلالاً له وإعظاماً، فإن حلف فلا يتهاون؛ فإنه قد وقع في ورطة عظيمة، فليف لله على ما حلف عليه سواء كان منعقداً على بر أو حنث، فإن اضطرَّ فليكفر، وإن كان قد حال بينه وبين أعمال البر فالأفضل له أن يكفر ويرتكب ما حال دونه من أعمال البر، كما كان يفعل رسول الله ﷺ، ولنا فيه أسوة حسنة.

وقد نهى الشارع سبحانه في متن كتابه العزيز عن التحبس^(٣) عن البر بسبب يمين فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] الآية.

وأما تعمد الحلف بالكذب فلم يكن من أخلاق المؤمنين، وهو اليمين الغموس، وسمى غموساً لأنه يغمس صاحبه في النار.

وقد يجب الحلف بالكذب إذا لم يخلص إلى إنقاذ نفس مسلم أو ماله إلا به، فيجب عليه ويلزمه.

وكان أكثر حلف النبي ﷺ: لا والذي نفس محمد بيده. أو والذي نفس محمد بيده.

ولغو اليمين هو ما لا إثم فيه ولا كفارة، وهو ما وقع على يقين فحولف.

(١، ٢) تقدم تخريجهما.

(٣) التحبس: كذا في الأصلين، ولعل المراد الاحتباس، أي الامتناع.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٦ - وَنَجَّحَ الْمِنَى يَنْسِي الْمِنَاءَ وَكَمْ مَعِيَ

بِهِ أَيَنْعَتُ بَعْدَ الْجُدُوبِ مَعَاءٌ

قوله: ونجح، بضم النون وقد تفتح: الظفر بالشيء، مبتدأ، خبره ينسى. المنى، بالقصر والكسر: المدة التي تستبرأ فيها الناقة، أي تختبر فيها: أهي لاقح أم لا، يقال: ناقة على منى، أو هي مانية. والمنا، بالمد: الانتظار، يقال: مانيت الشيء: انتظرته. والمعى، بالقصر: مجرى المياه وما تجرّفه من الأرض، وتطلق ويراد بها مجارى الطعام.

قال الرسول ﷺ: «المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(١).

والمعى: الرجل الذى لا يستقل بنفسه ولا يرتجل الأمور. والمعاء، بالمد: رطب جُذت قبل النضج فنضجت وقد يبس بعضها، وما يبس بالكلية يقال له: حشف.

قال رسول الله ﷺ: «تعشوا ولو بكف من حشف؛ فإن ترك العشاء مهزمة»^(٢).

وإضافة النجح إلى المنى من باب إضافة الشيء إلى زمنه الكائن فيه. قال الله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أى مكر بالليل ومكر بالنهار على صيغة المجاز العادى.

والمعنى: أن النجح الكائن فى المدة التى يختبر فيها لقاح الناقة، وذلك باجتلاء

(١) حديث: «المؤمن يأكل فى معى». . . إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود، وهذا الذى أورد الشيخ لفظ البخارى، وهو عنده فى كتاب الأطعمة.

(٢) حديث «تعشوا ولو بكف من حشف». . . إلخ. ضعيف جداً، أخرجه الترمذى (١٠٠/٣) والقضاعى (٦٣/١) والخطيب (٣٩٦/٣).

وأورده الألبانى تحت رقم ١١٦ وقال: ضعيف جداً، وأورده صاحب الكشف تحت رقم (٩٩٥). قال الترمذى راويه: هذا حديث منكر لا نعرفه من هذا الوجه، وعنبسة يضعف فى الحديث، وعبد الملك بن علاق مجهول.

قلت: عنبسة هذا راوى الحديث قال فيه أبو حاتم: كان يضع الحديث، كما فى الميزان، والله أعلم.

تلك المدة عن كون الناقة لاقحاً، ينسى ذلك النجح صاحبه انتظاره لذلك، وارتقابه إياه، ومؤونة صبره على ذلك، ومعالجته لطلب العلم به، حتى كأن لم يكن شيء من ذلك، وهكذا شأن العواقب المحمودة أن تنسى كل مصيبة تقدمتها، كما أن من انتظر لقاخ نفسه بعد ضراب فحل الإيمان، ووقوع مائه في أرحام القلوب من يعسوب ماء الغيوب، فانعقد فيها جنين الإيقان، بعد مكابذته دليل العرفان مدة المنى، حتى نال المنى، بظنون حمل الهنا فحصل الغنى، واضمحلت مدة العنا، فوقع على لذته بالمشاهدة، بعد عنائه بألم المكابذة، فحمد عواقب الصبر، إذ أفضى به إلى الظفر.

قال الشاعر:

أخْلَقَ بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ

فكنى بالناقة ولقاحها عن النفس وفلاحها، وذلك من أشرف فصول البديع لو وجد مجارياً أو نحريراً مبارياً، ومراده الخض على مجاهدتها، حتى تظفر بشاهدتها، بالصبر على محاولة المطالب، والمضى في تحصيلها وإن استصعبت؛ فرب مستصعب يسهل بعد حين، ورب مستسهل يصعب بعد لين؛ فإياك والاستعجال؛ فإنه حيض الرجال، والقنوط فإنه سبب السقوط، ومثل لذلك بمسيل الماء الذي بعد عهده عن جريان المياه، يرسل الله إليه الأمطار فتمده الأنهار، فتتلاطم حافته بالفيض، فيسقى الغياض والرياض، ويروى البساتين والنخيل، وتلقح الأشجار؛ فينسى ذلك ما كان قبله من المصاب بالجدوب ذوات الإتعاب والإنصاب والأوصاب. وهكذا كل مرغوب تتعرض دون حصوله الخطوب، حتى يصير وجه الطالب ذا نكوب، فإنه إذا زال مانعه وبدا طالعه أنست لذة الظفر به ما تقدم من آلام الكد في طلبه، وهذا أيضاً نوع آخر من أنواع الكناية؛ فمجارى السيول كناية عن القلوب؛ لأنها مجارى العلوم، ومحل الفهوم، وإن أصابتها الجدوب مدة، لعارض هوائي، أو مانع نفساني، أو نازع شهواني، أو نازغ شيطاني، فإنها مؤهلة ومهيأة للنفحات الربانية، فتصيبها بعد المحول دفقات الذبول، فتحدث هوامع السيول بالحكمة والعلوم، وإلهام الغيوم الواردة من حضرة الحى القيوم، فتثمر حدائقها إذ هي حقائقها، وترهف شوارعها إذ هي شرائعها،

وتفرك زروعها إذ هي فروعها، ويثمر نخيلها إذ هو دكيلها، وتزكو فواكهها إذ هي مداركها ويكثر عشبها إذ هو كتبها، ويبتسم زهرها إذ هو دهرها، ويزهو نورها، ويلذ للقاطنين فحوها إذ هو نحوها، ويحلو مكيثها إذ هو حديثها وتسكر خمرة خطابها إذ هو منزل كتابها، ويدهش سجع نغماتها إذ هو بحر لغاتها، ويعجبه حسن بيانها إذ هو فن تبيانها، وتلهيه الحجال بنطقها إذ ذلك فن منطقها، وتفتنه الضفادع بنقيقها إذ ذلك فن بديعها، وتفجعك الفحول بصريفها وذلك نوع تصريفها، وتخبرك الهداهدُ بمكنون تعرفها إذ ذلك فن تصوفها، ويغريك بلبل الأسماء من مكنون عزفه وذلك سر حرفه، ويسر إليك الصرد من تغريده وذلك فن توحيده.

قال الرسول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيْتَةَ بِنُورِ الْحِكْمَةِ كَمَا يَحْيِي الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ بِوَابِلِ الْمَطْرِ».

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٧ - وَكَمْ إِشْفَى الْإِشْفَاءَ مَلِكَ رَبِّهِ فِدَامَ لَهُ مِنْهُ فَحَى وَفِحَاءُ

قوله: وكم: الواو للاستئناف، وكم: تكثيرية من الأدوات التي تلازم الإضافة والابتداء غالباً. والإشفي، بالقصر والكسر: واحد الأشفى، وهي معروفة يتخذها الخرازُ والرَقَاعُ والخِصافُ لشعب^(١) الفتوق وجلم الشقوق. والإشفاء، بالمد: مصدر أشفى فلان فلاناً: إذ أزال ألمه بمعالجة أو دواء، ويطلق ويراد به الإشرافُ على الشيء. وهذا الأخير هو اللائق بحال الإشفي من جهة المعنى، ونسبة الأول إليه إنما هو بالدلالة على ما به الإشفاء مجازاً؛ لأن الاستشفاء يكون بفعل الإشفي لا بدلالته على ما به يكون. والفحى، بالقصر ويفتح كما يكسر: التابل^(٢). والفحاء، بالمد والكسر خاصة: جمع فححة، بالفتح وهي الحريرة، ونظيره ظبية وظباء، ويقال لها: فحية.

(١) الشعب: موصل قطع الرأس، والمراد به هنا جمع الشق بسلك.

(٢) التابل: ما يصلح الطعام، وجمعه توابل.

فكأنه يقول: كثير مما يؤلم كالآشافي مثلا يجعل صاحبه مالكا للإشراف على بغيته وما فيه جلب صحته بسبب استعماله كخصف نعله مثلا، فيدوم له بسبب ذلك ما ذكره مما يحتاج إليه الصحيح كالتابل الذي يصلح به طعامه وكالحريرة التي يتغذى بها، ولولا الإشفى لأودى به الحفا؛ فلم يدم له فحاء ولا فحى، وكثيرا ما يقع الاستشفاء بالإشفى أيضا كبط^(١) القروح وفصد العروق، فهذا الاعتبار يكون صاحب الإشفى دالا على ما يستشفى به؛ لأنه يستشفى بالفصد وباستخراج المواد التي في البدن، وذلك متوقف على الإشفى وما في معناها؛ فوجوده مؤثر في ذلك ومعين عليه؛ فاستعير له بالدلالة، فإذا استعملته فيما ذكر لمن احتاج إليه دامت له حياته ويدوم ما لا بد له منه في حياته كالمذكور مثلا.

وفاعل ملك ضمير الإشفى، وربه: مفعول به، وملك: خبر «كم»، والإشفاء أيضا: مفعول مقدم لأن ملك من باب كسا وأعطى. والفاء من «فدام» سببية. وفحى: فاعل دام؛ إذ لا تكون ناقصة إلا بدخول ما المصدرية عليها. وفحاء: معطوف على فحى. وله: متعلق بدام، وضميره عائد على صاحب الإشفى، وضمير منه عائد على الإشفى، والمجرور متعلق بدام، وإن شئت جعلته متعلقا بملك.

وأشار المؤلف بهذا إلى أن المطلوب المحبوب قد لا ينال إلا بما فيه مشقة؛ فإنه لا أحب للنفس من الشفاء من الأمراض والإبراء من الأدوية، وكثيرا ما يتوقف ذلك على استعمال ما فيه ألم فادح وعناء، وفي هذا المعنى يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

تريدين إدراك المعالى رخيصةً ولأبدٍ دون الشهد من إبر النحل
وقال غيره:

إن ابتغيت المعالى فازددنُ تعباً أو ارضى بالذل واختر راحة البدن

(١) بط القروح: شقتها.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٨ - وَهَذَا الْكِبَىُّ عُقْبَى الْكِبَاءِ وَلِلْحَجَىِّ

غَوَائِلٌ مِنْهَا أَنْ يُطَالَ حِجَاءٌ

قوله: «وهذا الكبى»: والواو: للاستئناف، وهذا: اسم إشارة مبتدأ، والكبى خبزه: جمع كبة، بالكسر: وهى كناسة البيت، ونظيره لثَّةٌ وَلِثَى. والكباء، بالمد: نوع من الطيب، وفى ذلك يقول البوصيرى برد الله ضريحه فى همزيتة:

فإذا شمت أو شممت رباها لأح منها برق وفاح كباء

والحجى، بالقصر: العقل. والحجاء، بالمد: مصدر حاجيته إذا غالطته.

فكأنه يقول: وهذه الكناسات عاقبة الأشياء النفيسة التى يتنافس الناس فيها كالعود الذى يتبخر به ويرغب الناس فى اغتنامه، وللعقل غوائل تغتاله حتى لا يدرك مآل ما يرغب فيه لما يرد عليه من تلك الغوائل بإطالته مغالطة نفسه فى الحقائق وما يطرقها من الطوارق التى يشيب أدهاها سواد المفارق، وهذه المغالطة من أسبابها صفاء العيش، ومنها الجهل بعواقب الأمور، ومنها الغفلة عن ذلك، وقد جمعها المتنبى فى بيتين فقال: (من بحر الكامل)

تصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ عما مضى منها وما يتوقعُ
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلبَ المحال فتطمعُ

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٩ - وَأَهْلَ الْفِرَىِّ انْسُبٌ لِلْفِرَاءِ وَمِنْ مَرَىِّ

تَبْرَأُ وَلَا يَخْدَعُ حِجَاكَ مِرَاءٌ

فقوله: «وأهل الفرى انسب»: فأهل: مفعول لانسب. والفرى: مضاف إليه ما قبله، وهو بالقصر جمع فرية. والفرء، بالمد: حمر الوحش، واحدها فرى، بالتحريك، كجمل، والمرى، بالقصر: جمع مرية، بالكسر، وهو الشك، والمراء بالمد: الجدال.

فكأنه يقول: انسب أهل الافتراء لحمر الوحش وألحقهم بها حيث لم ينتفعوا بعقولهم التي امتازوا بها عن الحمرة؛ إذ لو كان لهم عقول ينتفعون بها لحجزتهم عن الافتراء لإدراكهم قبحة، وتبرأ من الكذب. ولا يخدع عقلك جدال مُجادل مزين الباطل لابس للحق به، كاتم له، بعيد بمرائه من الصدق.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١١٠ - وَإِجْلَى الْعَلَى إِجْلَاءَ ذِي الْبَغَى فَاَعْتَمِدْ

وَعَوَّلَ الْعِشَى أَحْذَرَ مَا أَجَنَّ عِشَاءُ

فقوله: إجلى، بالقصر: بمعنى من أجلك، على ما حكاه الفراء عن الكسائي أن العرب تقول: فعلت من إجلاك، بكسر الهمزة والقصر وفتح الهمزة أيضا أى: من أجلك. والإجلاء، بالمد: الحمل على الجلاء، وهو مفارقة الوطن. والغول: مصدر غال الشيء واغتاله: إذا أهلكه على وجه الغدر والاختفاء، ومنه القتل غيلة. والعشى، بالقصر: الأمور الملتبسة، الواحدة عشوة، بالكسر، ومنه قولهم: أوطأني عشوى، وخبط عشوى، والعشاء، بالمد: ما بعد غيبوبة الشفق إلى نصف الليل.

وفي الأثر قال رسول الله ﷺ: «كفوا صبيانكم عند فحمة العشاء فإن للجن في تلك الساعة انتشارا»^(١).

فإجلى العلاء: مفعول لأجله. وإجلاء ذى البغى: مفعول به، وفعلهما اعتمد. وغول العشاء، بالنصب: مفعول من أجله.

والمعنى: فاعتمد إجلاء أصحاب البغى من أجل نيل العلم، واحذر ما أجنته ظلام، أى ستره، لأجل غول العشاء، وهو على حذف مضاف أى: مخافة اغتيال الأمور الملتبسة عليك بأن تقع فيها وأنت لا تشعر.

(١) حديث: «كفوا صبيانكم». إلخ. صحيح رواه أبو داود والعسكرى، وأورده السيوطى تحت رقم (٦٢٦٧) ورمز له بالصحة، والله أعلم.

ثم إن قوله: «وغول العشاء.. إلى آخره» تمثيل لحالة التباس الأمور واشتباهاها بحالة الأشياء المشتملة بظلام العشاء، فكأنه يقول: إذا اشتبهت عليك الأشياء ولم يتبين لك أنك مأمور بها أم منهي عنها فأمسك عنها حتى تعلم حكم الله فيها: فتتقدم إن أمرت، وتحجم إن زجرت، كالتوضي يشك هل غسل العضو ثلاثاً أم أربعاً فلا يغسل، بخلاف ما إذا شك أصلي ثلاثاً أم أربعاً فإنه يحتاط؛ فيأتي بالرابعة ويسجد بعد السلام؛ إذ الغسل يكتفى فيه بالواحدة فضلاً عن الثالثة، والرابعة توقع في المحذور؛ ففررنا إلى جانب السلامة كما فررنا إلى جانب الاحتياط في الصلاة؛ إذ لا تصح الصلاة بدون تمام الأربع، فالفرار إلى ترقيعها أولى من الاعتماد على ما عسى أن يكون مفسداً لها، وكذلك من حرم واحدة من أربع فإنهن يحرمن عليه ما لم يعين الواحدة المبتوتة، وكذلك لو وقعت مضغة لحم ميتة في لحم فإن الجميع يحرم إن التبتت به.

وانتهى الكلام على ما يكسر فيمد ويقصر باختلاف المعنى.

ثم شرع يبين:

[باب] ما يضم فيقصر ويفتح فيمد باختلاف المعنى

فإنما يتفقا في المادة خاصة ويختلفان في الضم والفتح كما يختلفان في المعنى، فالقصور مضموم ولا غير، والممدود مفتوح ولا غير.

• ثم قال الناظم رحمه الله تعالى:

١١١ - غَدَاكَ أَرَعٌ وَأَعْتَضُ مِنْ عَدَاءٍ تَسَحَّرًا

وَلَا يُنْسِكُ الذُّكْرَى حُسَى وَحَسَاءُ

الغدوى، بالضم والقصر: جمع غدوة، بالضم. قال النبي ﷺ: «عليكم بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، وإياكم والمنبت فإنه لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»^(١).

يعنى أن المؤمن ينبغي له أن يعبد الله بنشاط، وذلك أن يتخذ أوراداً في أول النهار بعد أن يصلى الصبح في جماعة لأنه قد روى أن المدمن على صلاة الصبح في جماعة لا يصيبه عظيم بلاء، وقد بلغ بعض السجانين هذا الأثر الجليل، وكان كلما أخذ إنساناً ليسجنه يسأله: هل صلى الصبح في جماعة يومه ذلك؟ فيخبره أن لا، فمكث على ذلك أربعين عاماً ولم يقع في يده من صلى الصبح في جماعة يومه فثبت عنده صحة الخبر؛ فتاب، ولزم المسجد وصلاة الجماعة.

قال رسول الله ﷺ: «يختلفون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاتين: صلاة الصبح وصلاة العصر، فإذا رجعوا إلى الله سألهم وهو أعلم فيقول لهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»^(٢).

(١) حديث: «عليكم بالغدوة والروحة»... إلخ. الجزء الأخير منه رواه البزار بلفظ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع»، وأورده في الكشف تحت رقم (٧٩٤).

(٢) حديث: «يختلفون فيكم ملائكة»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان والنسائي، وهو عند البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، وأوله: يتعاقبون بدل يختلفون، والله أعلم.

والمراد بقوله ﷺ: «والروحة» صلاة العصر والمغرب. قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] فالمراد بقرآن الفجر صلاة الصبح، والمراد بقوله: مشهوداً أن حفظه الليل وحفظه النهار يجتمعون في صلاتين: صلاة الصبح وصلاة العصر.

والدعوات الماثورة بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس وبعد العصر إلى الغروب: قال الرسول ﷺ: «من صلى الصبح في جماعة، ثم جلس في موضع مصلاه، وأخذ في ذكر الله والقراءة والدعاء حتى طلعت عليه الشمس فصلى ركعتين كان له بذلك ثواب حجة وعمرة تامتين تامتين تامتين». وفي حديث قدسي يرويه عن ربه «من حفظني في أول النهار وآخره حفظته فيما بينهما».

قوله: «وشيء من الدلجة» يعني صلاة العشاء في جماعة ومن ثلثي الليل الأخير إلى الصبح، وإلا فمن السحر إلى الصبح. وفي رواية: «من صلى العشاء الأخيرة والصبح في جماعة فقد أخذ بحظه من قيام الليل»، لكنه ينبغي له إحياء ليلته ولو بركعتين، وكلما زاد فهو خير ما لم يؤد إلى الملل.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

من يتغنى جنة الفردوس يدخلها بركة في ظلام الليل يخفيها

قال الرسول ﷺ: «اتتوا من العمل ما تطيقون ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله؛ فإن أحب الأعمال إلى الله ما كان ديمة ولو قل، وإن الله لا يمل حتى تملوا»^(١).

قال ابن عباس رضى الله عنه: باكروا في طلب الرزق فإن البكور بركة مقلوبة.

قال الرسول ﷺ: «باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتعدها»^(٢).

(١) حديث: «اتتوا من العمل»... إلخ. تقدم تخريجه.

(٢) حديث: «باكروا بالصدقة»... إلخ. موضوع، رواه أبو الشيخ وابن أبي الدنيا، قال السخاوى:

قال ابن حجر: لا يتعين عندي أن هذا الحديث موضوع، لا سيما وفي معناه ما أورده الديلمي =

وقال ﷺ لفاطمة: «إياك والتصبح فإنها تمنع الرزق وتمحق بركة العمر»^(١).

وقال على كرم الله وجهه: إياكم والصبيحة فإنها مجارة مجفرة مبخرة^(٢).

وقال ﷺ: «لغدوة أو روحة في سبيل الله أحب إلى الله من عبادة سنة».

والغداء، بالفتح والمد: ما يتغدى به. والحسى، بالضم والقصر: جمع حسوة، بالضم: وهو القدر الذي يتحسى منه. والحساء، بالفتح والمد: الحسو، وهو شراب رقيق فيه حموضة يستعمل في زمن الحر للتبريد، ويطلق ويراد به الرغبة، وهى الثمالة. قال الشاعر: (من بحر الطويل)

أحسوا تسر اليوم لى فى ارتقارته

ومَن سرَّ لى حسواً فسوف أعارضُ

بنى عمنا لا تجعلوا الشعرَ بيننا

وصالاً فالسن القريض مقارضُ

فكانه يقول: ارع أزمتهك وحافظ عليها ولا تضعها فيما لا يعود عليك منه نفع؛

= من حديث عمرو بن قيس: «الصدقات بالغدوات تذهب العاهات»، وفي حديث آخر: «تداركوا الهموم والغموم بالصدقات» (١٤٢/١) مقاصد. واللفظ عندهم: «فإن البلاء لا يتخطاها» بدل «لا يتعداها».

وأورد الحديث ابن الجوزى بلفظ: «فإن البلاء لا يتخطى الصدقة» وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ. رواه عن المختار بن لفلل أربعة: أبو يوسف، وسليمان بن عمرو، وعبد الأعلى ابن أبي المساور، وابن إدريس. فأما أبو يوسف: فلا يعرف، وبشير الراوى عنه منكر الحديث. وأما سليمان: فقد أجمع العلماء على أنه كان يضع الحديث. وأما عبد الأعلى: فقال يحيى: هو كذاب، وقال على: ليس بشيء. وأما ابن إدريس: فالذى رواه عنه الصفر وكان يضع الحديث (١٥٤/٢) موضوعات.

(١) حديث: «إياك والتصبح فإنها تمنع الرزق»... إلخ. ضعيف جداً أو موضوع، وأورده ابن الجوزى فى موضوعاته بلفظ: «الصبيحة تمنع الرزق»، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وابن أبى مروة راويه، قال أحمد: لا تحل الرواية عنه، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال الدارقطنى: متروك (٦٨/٢).

والحديث رواه القضاعى وعبد الله بن أحمد فى زوائده، وأورده السخاوى عنه تحت رقم ٦١٥، وقال: ضعيف، وقال الصغانى: موضوع، والله أعلم.

(٢) هذا من كلام عمر على الصحيح، ومعنى مجارة: مظنة لمرض الخلق. مجفرة: تسبب الجفر الذى هو عدم الرغبة فى النساء. مبخرة: أى تسبب الرائحة الكريهة فى الفم. وفى رواية: «مجعرة» أى: تسبب بيوس المعدة.

وذلك بأن تعلم ما يلزمك في كل وقت فاشتغل به؛ إذ ما من وقت يمضى إلا والله عليك فيه حق لا يقضى في غيره؛ لأنه لا يصلح لقضائه لما تعلق به هو بخصوصيته. ومن هنا يقولون: الفقير ابن وقته. واعتض من غدائك تسحراً: أى اجعل التسحر وهو الأكل من آخر الليل لأجل الصوم في النهار عوضاً من الغداء وهو ما يؤكل في أول النهار أو وسطه، وأما بالذال المعجمة فهو ما يتقوت به وتقوم به البنية كان ليل أو نهار. وهذا أمر منه بالمواظبة على الصوم؛ إذ هو سياحة هذه الأمة.

قوله: ولا ينسك الذكري: أى التذكر واستعمال الفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلك، فإن ذلك من أعظم باعث على الاجتهاد في الاستعداد للمعاد، فلا يشغلك عنه ما ضمن لك الذى من جملته ما ذكره لك من الحسى والحساء والعشاء والغداء.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١١٢ - فَمَنْ خَشِيَ السُّوءَ لِسُوءِ أَمْرٍ هَاجِرًا

يَفْزُ وَهنا أَيْضًا لَدَيْهِ هَنَاءٌ

قوله: «فمن خشى السوء»: فالفاء استئنافية. من: اسم شرط بمعنى الذى. خشى: فعل الشرط، وجوابه يفز، وفاعله مستتر، والسوءى: مفعول خشى، وهو فى الأصل أتى الأسوأ «أفعل» تفضيل من السوء. والسوءاء، بالفتح والمد: القبيحة من الفَعَلَات وغيرها. وهنا: اسم إشارة يشار به إلى المكان القريب. والهناء، بالفتح والمد: ضد التنغيص. قوله: هاجرًا: حال من فاعل خشى، وهو ضمير، ولسوءاء: مفعول هاجرًا واللام فيه لتقوية العامل الضعيف عن العمل بالفرعية والتأخير. وهذه الحال لازمة لأن الخوف من سوء العاقبة السيئة فى حال كونه تاركًا لكل فعلة قبيحة. يفز بها أى: بتأديته إلى المأمّن مما يخاف، وذلك بأن تحسن عاقبته، ولأجل طلب الهناء العاجل عنده هنا صار ذلك سبباً لصفاء معيشته العاجلة مما ينغصها عليه؛ لأن تنغيص العيش أيضاً يكون بفوات المرجو من حصول

المعدوم وعدم فقد الموجود، ومن يخف عاقبة أمره لم يأمل سوى الأمن من سوئها، ويخلى قلبه من كل شيء سوى ذلك؛ فلا يحزن على ما فات، ولا يتعلق له غرض بما هو آت؛ فيصفو عيشه من الأكدار، وتقل في حقه الأخطار. وصورة الكلام صورة الخبر، والمقصود منه الحث على الخوف من عاقبة السوء، وتذكر هادم اللذات وفجأة القوات، جعلنا الله من المتذكرين لذلك، الخائفين مما هنالك.

قال الرسول ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»^(١). والمراد بالمنزل اليقين في الدنيا المحل في حضرة القدس وجنة المأوى في الآخرة التي قد جمع الله فيها ما تشتهيهِ الأنفس.

وفي المثل: «مَنْ خَافَ هَرَبَ، وَمَنْ هَرَبَ وَجَدَ مَا طَلَبَ».

وفي المثل أيضاً: «مَنْ خَافَ فَرَّ، وَمَنْ فَرَّ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ اسْتَقَرَّ».

وقوله: يفز: أى ينجح ويفلح؛ فالبيت مقتبس من قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، جعلنا الله ممن فاز بقربه وجواره، آمين.

• قال رحمه الله تعالى:

١١٣ - وما ضرَّ ذا طُرْفِي بِطُرْفَاءَ لائِثًا ضُحِّيَ إِنْ رَمَاهُ بِالْأَوَارِ ضَحَاءُ

قوله: «وما ضر ذات طُرْفِي»: الواو: للاستئناف، وما: نافية. ضر: فعل ماضٍ. ذا طُرْفِي: مفعول به ومضاف إليه. طُرْفِي، بالضم والقصر: المنتخب من كل شيء، وقد يطلق ويراد به كثرة الأنساب بين المنسوب والأب الأعلى حيث كانوا في حسب وشرف، وهو ضد الأتعَد. والطرفاء، بالفتح والمد: شجر الأثل،

(١) حديث «من خاف أدلج»... إلخ. ضعيف جداً رواه الترمذى والحاكم، قال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي، وأورده السيوطى تحت رقم ٨٦٥٣، قال المناوى: وفيه يزيد بن سنان ضعفه أحمد وابن المدينى، وقال ابن طاهر: يزيد متروك، والحديث لا يصح مسنداً، وإنما هو من كلام أبى ذر (١٢٣/٦).

قلت: وفي الحديث مع ضعفه زيادة على رواية الشيخ، والله أعلم.

ومن العرب من يقول في الواحدة: طرفة، ومنهم من يقول: طرفاء في الإفراد والجمع. والضحي، بالضم والقصر: ما قرب من طلوع الشمس، وقيل: صدر النهار. والضحاء بالفتح والمد: البروز للشمس، قال الناظم: وقصره أقيس وهو كما قال؛ لأن قياس مصدر الفعل المكسور العين «فعلى» بالتحريك والقصر لا «فعلاء» بالمد والأوار، بضم الهمزة وتخفيف الواو على وزن غراب: حر الشمس أو النار أو العطش؛ إذ كل ذلك صالح هنا ولا يصح غيرهما من معانيه. وما: للاستفهام المراد به النفي. ذا طُرْفَى: مفعول به لضر، وفاعله ضمير «مَا» الاستفهامية. ولائذًا: حال من ذا طُرْفَى. وبطرفاء: متعلق به. و«إن»: يصح ضبطه بكسر الهمزة وفتحها: فبالكسر على أنها شرطية، ورماء: شرطه، وجزاؤه محذوفٌ بدلالة ما قبله عليه. والفتح على أنها مصدرية مجرورة بلام التعليل محذوفة أى: لأجل أن رماه.

فكأنه يقول: أى شيء ضر رجلاً صاحب طرفى فى نفسه أى بينه وبين أبيه الأعلى وهو آدم - عليه الصلاة والسلام على أفضل بنيه أشرف العالم بأسره - كثير من الآباء لا يعلم عددهم لكثرتهم إلا الله تعالى، وكلهم قد هلكوا؛ فهو كذلك من أجل أنه عريق فى الهالكين.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وما المرءُ إلا ميتٌ وابنٌ ميتٌ وذو نَسَبٍ فى الهالكين عَرِيقٌ

فلا يضره شيء إذا كان كذلك فى حال كونه عائلاً بطرفاء يأوى إلى ظلها إذا رمته بأوارها الشمس، أى بحرهما، أو بعطش، ولا يضره شيء لأجل أن رمى الضحاء بحر أو بعطش؛ لأن ذلك لا يجلب له ما لم يقدر عليه من الهلاك؛ لأنه عريق النَّسَبِ فى الهالكين كما تقدم، ولا يعجله له قبل أوانه، كما أن الثواب بالقصور والغرف لا يدفعه عنه إذا حان وقته، بل له فى الانفراد النفع المحض حيث استراح من إذايتهم له، ومن إذايته لهم.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٤٤ - وَسَارِعَ إِلَى الْحُسْنَى وَحَسَنَاءَ لَا تُطْعُ

هَوَاهَا فَفِي التَّقَى غُنَى وَغَنَاءُ

قوله: «وسارع إلى الحسنى»: فالمسارعة المسابقة إلى الحسنى. والحسنى، بالضم والقصر: العاقبة الحسنى، وهى فى الأصل أنثى الأحسن «أفعل» تفضيل من الحسن. والحسناء، بالفتح والممد: المرأة الجميلة البيضاء. قال رسول الله ﷺ: «سوداء ولود خير من حسناء لا تلد»^(١).

قال الشاعر، وهو ملك غسان لما أسلم ودعاه قيصر إلى الرجوع عن دينه إلى النصرانية فأبى قال: لا أفارق دين محمد؛ فأمر به فصلب على جذع نخلة، فلما حملوه على الجذع ليصلبوه أنشد يقول: (من بحر الطويل)

ألا أبلغ الحسناء أن حليلها على باب يرقى فوق إحدى الرواحل

على ناقة لم يطرق الفحل أمها مجذية أطرافها بالمناجل

ثم التفت على قيصر فقال له: والله يا قيصر إنك لتعلم من أمر محمد مثل ما أعلم، ولكن جحدت وضننت بملكك. قال قيصر: صدقت والمسيح، ولكن لم أجد بدأ من هذا. فلما دنوا منه ليصلبوه التفت إلى رجل من بنى عمه، فقال له: (من بحر الكامل)

أبلغ سراة المسلمين بأننى سلم لربى أسلمى وعظامى

والغنى، بالقصر والضم: جمع غنية، بالضم: وهو ما يستغنى به.

والغناء، بالفتح والممد: الكفاية، وهو الذى يقوم بكل ما تولاه من الحروب وغيرها أحسن قيام.

فكأنه يقول: بادر إلى فعل ما تحصل لك به العاقبة الحسنة، ولا تطع امرأة

(١) «سوداء ولود خير من حسناء لا تلد» لا يصح عن رسول الله ﷺ، أخرجه ابن حبان فى

الضعفاء، وعنه الغزالي، قال العراقى: لا يصح عن رسول الله ﷺ (٢٧/٢) إحياء.

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٤٩٩ وقال: ذكره ابن الأثير فى (النهاية)، ورفع الأزهري، وأخرجه غيره عن عمر مرفوعاً والله أعلم.

حسنة في أمر دين أو دنيا من أجل هواك لها؛ فإنهن ناقصات عقل ودين؛ فأشارتها على حسب عقلها؛ فطاعتها مضرّة لك في الدين والدنيا، وذلك يسلبك من التقوى التي هي عين مخالفتها، وفي التزام التقوى غنية لك وكفاية عن متابعة هواها. وقال الرسول ﷺ: «شاوروهن وخالفوهن؛ فإن في خلافهن البركة»^(١).

فلما بلغه ﷺ عن قوم أن امرأة تسودهم قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»^(٢).

وقال: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربعة: آسية بنت مزاحم، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»^(٣).

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

(١) حديث «شاوروهن»... إلخ. لا أصل له مرفوعاً، رواه ابن الجعد، وأورده السخاوي تحت رقم ٥٨٥ وقال: لم أراه مرفوعاً، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم (٤٣٠) وقال: لا أصل له مرفوعاً، وكلاهما بدون زيادة «فإن في خلافهن البركة»، وهذه الجملة أوردها العسكري في الأمثال عن عمر قال: خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة، والله أعلم.

(٢) حديث «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» حديث صحيح رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب المغازي.

وسببه أن النبي ﷺ بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى لعدم من يتولى الملك من البنين؛ لأن الله أبادهم بدعائه ﷺ عليهم لما مزق كسرى كتابه، فقال.. الحديث، والله أعلم.

(٣) حديث «كامل من الرجال كثير»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه، ولفظه عند البخاري: «كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» كتاب الأنبياء، والله أعلم.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١١٥ - وَلِلْغَايَةِ الْقُصْوَى بِقُصْوَاءَ شَمَّرْنَ

فَمَا بِكُسَى زَهُو يِنَالُ كَسَاءُ

قوله: «وللغاية القصوى»: كأنه يقول: شمَّر، أى جَدَّ وأسرع، لنيل الغاية العالية المرتفعة بناقة قصواء، أى: لحجية مقطوعة طرف الأذن؛ فما ينال الشرفُ بِكُسَى، وهى بالضم والقصر: جمع كُسوة، بالضم، على وجه التكبر بها والزهو والإعجاب والخلاء، بل إنما ينال بالجد والاجتهاد وارتكاب مشاق تكاليف الشرع التى تشق فى أول الأمر على الطبع. والكساء، بالمد والفتح: الشرفُ والزهو، وهنا الكبير والتهى والفخر.

وفى المثل: «ليس من شيم الأشراف النظر إلى الأعطاف». وفيها أيضاً: «ليس من شأن ذوى الأحساب الزهو بفاخر الثياب».

يروى أن النعمان بن المنذر خرج على العرب فى يوم من أيامه وعليه حلة من الوشى لم ير الرءءون مثلها، منسوجة بالذهب والإبريز واليواقيت، فجعلت سادات العرب تهنته بها وتعجب من شأنها وفيهم أكثم بن صيفى ساكت لم يهنته ولم يذكرها بشيء؛ فقال له النعمان: ما لك لم تهنتنى بهذه الحلة ولم تعبأ بشأنها؟! فقال له: أيتها الملك، أبيت اللعن، لو كانت هذه الحلة على تاجر أو دلال لأعجبتنى كما أعجبتهم، لكن الملك أعجب إلى منها؛ لأن الأشراف تتعزز بهم الأشياء لا هم يتعززون بها. فقال له الملك: لله أبوك! ما أوسع باعك فى العقل والذكاء! فقال: إنى أعطيها غداً سيد العرب. فلما كان الغد أقبلت إليه سادات العرب كلُّ يرجو أن يعطاها، إلا أكثم بن صيفى، فإنه لم يذهب إليه ولم يطمع؛ فقال له قومه: هلاً ذهبت إلى الملك فلعله يعطيك الحلة؟! فقال لهم: إن ذلك ليس من الكيس؛ فإنما الحلة واحدة وسادات العرب كثيرون، فإن كان يريدنى فإنه يسأل عنى ويرسل إلى؛ فيكون ذلك أحفظ للمروءة، وأتم للشرف، وأبقى لماء الوجه، وإن يكن لا يريدنى ففى ذهابى إليه هضم المروءة، وهدم الشرف، ويقع على سن الخجل ما أخاف أن يكون سبباً للتلف، وفى تخلفى إبقاء

التهمة^(١)، فأحدث نفسي أنى لو أتيت لأعطاها لى، وكذلك يقول كل من له بى حسن ظن. فلما اجتمعت على النعمان أشراف العرب سأل عن أكنم بن صيفى، فقيل له: إنه تخلف ولم يأت، فما أريك إليه؟ قال: إنى أريد أن أعطيه هذه الخلة، فقيل له: إن معك من أشراف العرب وساداتها ما فيه غناء عن أكنم بن صيفى، قال: لا والله، إنه لحكيم العرب وفارسها ومن بيت مكرمتها. فبعث إليه، فلما جاء خلعها وناولها إياه، ثم نظر إلى وجهه ليرى هل ظهر السرور عليه أم لا؟، فلم ير علامة السرور على وجهه، فقال له: مالى لا أرى السرور على وجهك وقد حبوتك بغنى الدهر وعز الأبد؟! فقال له: أيها الملك، إن همتك بى شغلتنى عن السرور بالحباء فلا أدرى أقوم بشكر نعمتك فأكون كريماً أم لا فأكون لثيماً؛ ففى هذا ما يمنع الكريم من السرور ويحول بينه وبين الحبور؛ فقام إليه النعمان فالتزمه فقال له: لله درك، إنك لا تزيد فى كل مقام إلا شرفاً وظرفاً؛ فتمن على فإن لك ما تمنيت؛ فقال له: إنك قد حصرت الغنى أيها الملك حيث خلعت على حلتك هذه، وقد تاقت إليها نفوس جميع السادات، وجعلتنى لها أهلاً مع غيبتى وحضورهم؛ فالتفت النعمان إلى سادات العرب فقال لهم: هذه السيادة وأبيكم، أفيكم من أقول له يتمنى على فيقول: لا؟ قالوا له: ليس فينا من يمتنع من ذلك، فقال له: إذا امتنعت من التمنى فلا تمنى لك، فأعطاه عطايا جسيمة لا تدخل تحت حصر، ثم أعطى بعد ذلك جميع السادات ووصلهم، فانصرف، وانصرفوا.

وكانت معداً لشرفها لا تعباً بزخرفة الثياب، ولا تكثرث بها، وإنما تتنافس فى الكرم والإحسان، وفصاحة اللسان، وشجاعة الجنان، ومقارعة الأقران، والتروى من العلم والقرآن.

(١) كذا فى الأصلين: التهمة، والمعنى: إنى أنهم نفسى بالتخلف عن شىء لو حضرته لفزت به، وهذا الاتهام من النفس والغير فيه شرف لى.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١١٦ - وَعُدْرَاكَ لِلْعُدْرَاءِ لَا تَكْتَرِثُ بِهَا فَمَا لِثَوِي يَثْنِي الْمُجْدَّ ثَوَاءً

وله: العُدْرَى، بالضم والقصر: العذر على وجه الجمع، وقد يجمع على معاذير وهو القياس، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ [القيامة: ١٥]، يقال: سمعت عذراك ومعاذيرك وأعذارك فقبلتها، إلا أنَّ عُدْرَاكَ لغة شاذة لم تقع إلا سماعًا. والعُدْرَاءُ، بالفتح والمد: البكر. والاكتراث بالشيء: المبالاة به. والثوى، بالثلثة والضم والقصر: خرقه تزال بها العذرات ويوقى بها الوط (١)، وهو وعاء اللبن، أو يفعل بها ما يناسب ذلك. والحاصل أنها خرقه ممتهنة مستقدرة. والثواء، بالمد والفتح: الإقامة. والمجد: المسرع، وهو بالنصب مفعول يثنى أى: يرد، والثواء فاعله.

والبيت في المعنى كالذى قبله، أى: لا تبال بعذرك للعذراء ولا تهتم به، فما تريد إلا إقامة على حبها، أى: إن الشخص المجد في رحيله ونقلته لأجل أشياء حقيرة ممتهنة كالثوى مثلاً (٢) ونظيرها ما يحب لأجله الحياة والبقاء في الدنيا من متاعها الفانى قليل حقير لا قيمة له بالنسبة إلى ما أعد الله للمؤمنين ورجبهم في طلبه من الجنة ونعيمها.

• قال رحمه الله تعالى (٣):

١١٧ - وَلَنْ تَذْعَرَ الْحَمَى بِحَمَاءِ نَهْدَةٍ وَلَا بِكُرَى اللَّاهِي تَرَامُ كَرَاءً

قوله: «ولن تذعر الحمى» الواو: للاستئناف، ولن تذعر: ناصب ومنصوب مبنى للمجهول، والحمى: نائبه، وهى الحرارة العرقية التى تختص ببعض الأماكن. قال ﷺ: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» (٤). وهو أن ينغمس

(١) الوط: الثدى العظيم، وسقاء اللين.

(٢) الجملة السابقة فى النسختين فيها تفكك وربما تقديم وتأخير.

(٣) سقطت الآية من النسختين، وقد يكون بعدها شيء غير البيت.

(٤) حديث: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» متفق على صحته رواه الشيخان وغيرهما بهذا اللفظ، وهو عند البخارى فى كتاب (بدء الخلق).

المصاب في نهر جارٍ قبل أن تطلع الشمس .

وما كان يفعل رسول الله ﷺ ما روى عنه أنه كان يجلس في مخضب فيقول لهم: «صبوا على من سبغ قرب لم تحل أوكيتها لعلى أعهد إلى الناس»^(١).

وقد بحث في هذا الباب ابن الخطيب في تفسير هذا الأثر الشريف حتى قال: يحتمل أن يكون قول رسول الله ﷺ: «أبردوها بالماء» التصديق به ليبرد الله عنه حرَّ الحمى وتلهبها كما يبرد عن أخيه المسلم حر العطش وتلهبه؛ إذ قد شوهد مراراً لأناسٍ أصابتهم الحمى فانغمسوا في الماء واغتسلوا به فانعكست إلى بواطنهم الحرارة فأتلفتهم. وقيل: إنما ينتفع بالاعتسال والانغماس من لم تكن حماه صفراوية أو بلغمية، بل كان بإقليم تغلب عليه الحرارة الملتهبة من شدة الحر والسموم كالحجاز وتهامة.

وقال ﷺ: «حمى يوم كفارة سنة».

وقال ﷺ: «الحمى حفظ كل مؤمن من النار»^(٢).

ويروى عن النبي ﷺ: «أنه دخل على عائشة متوعكة تسبب الحمى، فقال: لا تسيبها فإنها مأمورة، ولكن أعلمك كلمات إن قاتهن برئت، فقال لها: قولي:

(١) حديث: «أن النبي ﷺ أمر أن يغسل بسبع قرب من سبعة آبار»... إلخ. رواه الدارمي في مسنده، قال العراقي في تخريج (الإحياء): فيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد رواه بالنعنة (٤/٤٥٤).

قلت: وهو حديث طويل، أوله: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك، فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس، واستغفر لأهل أحد... إلخ».

وأصل الحديث في الصبيحيين، ونلفظ البخاري: «هريقوا على من سبغ قرب لم تحل أوكيتها لعلى أعهد إلى الناس». فأجلس في مخضب حفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقتا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلت. فخرج إلى الناس، وصلى بهم وخطبهم». كما أخرجه الترمذي والنسائي، والله أعلم.

(٢) حديث: «الحمى حفظ كل مؤمن من النار» ضعيف رواه البزار، وعنه السيوطي تحت رقم ٣٨٤٦، قال المناوي: قال المذري: إسناده حسن، وقال الهيثمي: فيه عثمان بن مخلد ولم أجد من ذكره (٣/٤٢١) مجمع.

قلت: قد رمز له السيوطي بالضعف، وفي الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة ضعيفة كلها، والله أعلم.

اللهم ارحم جلدى الرقيق وعظمى الدقيق من شدة الحريق، يا أم ملدم إن كنت
آمنت بالله العظيم فلا تصدعى الرأس ولا تتنى الفم ولا تشربى الدم ولا تأكلى
اللحم، وتحولى عنى إلى من اتخذ مع الله إلهاً آخر». فلما قالتهن برئت.

والحماء، بالفتح والمد: أنثى الأحم أى: الأسود من كل شىء. والكرى،
بالضم والقصر: جمع كرة، بضم الكاف وتخفيف الراء بوزن بُرّة: وهى على
ضربين: ضرب تتخذهُ الفرس من الغزل، ويجعلون له شراكات، ثم يرمون به إلى
الهواء، ثم يتخذونه هدفاً، ثم يرمونه بالنبل والقسى وهم يعدون تحته، فمن أصابه
مراراً متكررة فقد تعلم الخطو، ومن لم يصبه ذهبوا به إلى معلم القذف، ومن
أصاب وأخطأ لم يكن عندهم برامٍ حاذقٍ فيتعلم بقدر ذلك، وأما كرة العرب
فيملؤونها بالكتان والقطن ونحوهما، فيجعلون عليها جلدًا، فيكونون طائفتين
يضربونها بالعصى، فمن أوصلها حيّةً فقد غلب وكان أحذق فى معرفة المضارب.

ويروى: أن أول من لعب بها فتية الكهف، فسببها نجوا من كيد دغيانوس
الجبّار^(١).

والكراء، بالفتح والمد: ثنية بقرب الطائف لا تكاد تسلك لارتفاعها فى الهواء
وصعوبة مسلكها. فكأنه يقول: ولن تذعر الحمى فتفارق صاحبها بعدو فرس
سوداء عالية الصهوة. والذعر: شدة الفزع، تقول: ذعر ذعراً وإذعاراً فهو مذعور،
ورجل مذعار إذا كان كثير الفزع شديده.

قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المذعرين من أمتى».

وفى رواية: «ذوو الذعر من أمتى».

قال الشاعر:

ضرم لنار الفجر إذ عرى دُعرُ وأعارهُ الوجد الفؤاد إذ عرا^(٢)

قوله: لا ترم: أى لا تحاول الثنية المسماة بكراء أى: صعودها باللعب بكرى
الشخص الملاعب، وهذا تمثيل بعدم النجاة من المخاوف والأعراض اللاحقة بما

(١) لا أدرى عن من روى هذا القول.

(٢) هذا البيت غير مستقيم فى النسخين لا من حيث الوزن ولا المعنى.

يتنافس فيه الأحياء كالمراكب الحسان مثلاً، وعدم إدراك المعالي بالتقصير واللعب، وفي ضمنه الحث على الجِد والتشمير وترك اللعب والفتور، وعدم الاعتداء بالخاص من أمور الدنيا.

• قال رحمه الله تعالى:

١١٨ - وَمَا ذُو قُوَىٍّ أَمْ الْقَوَاءَ بَقَاهِرٍ عَدَاهُ إِذَا لَمْ يَتَأَّ عَنْهُ عَدَاءُ

قوله: «وما ذو قوى»: الواو: للاستئناف. وما: حجازية عاملة عمل ليس. ذو قوى: اسم ما ومضاف إليه. بقاهر: خبره. أم: فعل ماض. القواء: مفعول به. والجملة نعت لذي قوى. والقوى، بالضم والقصر: جمع قوة، قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]. والقواء، بالفتح والمد: القفز. والعدى، بالضم: لغة في العدى، بالكسر، والعداء، بالفتح والمد: الظلم.

والمعنى: ليس صاحب قدر - جمع قَدْر - متعددة من مائة الجسم ووفور ذات اليد من صفته أنه قصد القهر ليس هو بغالب أعدائه إذا لم يبعد عنه الظلم والتعدى. والمقصود منه بهذا التحذير من الظلم؛ فإنه ظلمات يوم القيامة، ووعد على الظالم في الدنيا. قال الشاعر:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَمَا ظَالِمٌ إِلَّا سَيْلَى بِظَالِمٍ

كما تقتضى ذلك عادة العزيز الجبار المنتقم من الظالمين والفجار.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾

[الشعراء: ٢٢٧].

وفى الحديث القدسي: «حلف الله أن لا يميت الظالم حتى يريه الهوان».

قال الشاعر: (من بحر الرجز)

عِدَىٍّ وَلِلظَلَمِ سَهَامٌ تُنْتَظَرُ فِي سِيرِهَا أَسْرَعُ مِنْ لَمَحِ الْبَصْرِ

ترمى بها أيدي القضاء والقدر

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١١٩ - أَلَمْ تَهْلِكِ الْعُزَّى بِعِزِّهَا وَلِلْحَقِّ فِي هَذَا سُمِّيَ وَسَمَاءُ

العزى، بالضم والقصر: سَمْرَةٌ بالمجمل بِنْتُ غُطْفَانَ عَلَيْهَا بَيْتًا وجعلت له سدنة، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيت وحرق السمرة. وأصل العزى أنثى الأعز. والعزاء، بالفتح والمد: الشدة، وهى أيضاً الأرض الصلبة. والسُمِّيَ، بالضم والقصر: لغة فى الاسم، تقول حمير: ما سُمَاكَ. وحزب العزَّى: الطائفة التى عبدتها من غطفان، وهى سبب هلاكهم، وإسناد ذلك للعزى لإسناد مجازى لا كسبى؛ لأنها سبب فى هلاكهم، والاستفهام هنا للإنكار، وإنكار النفى نفى، ونفى النفى إثبات، أى قد أهلكت العزى قومها، أى كانت عبادتهم إياها سبباً فى هلاكهم بشدة أو فى أرض صلبة، وهذا المعنى يراد بالاستفهام فيه التقرير؛ بأن يحمل المخاطب أن يقر بما يعمله من هذا الكلام، وهو الإثبات لا النفى، والمراد بذلك الاستظهار ونصب الدليل على ما ادعاه فى البيت قبله من أن ذا القوى لا يقهر عداه إذا لم ينأ عنه الاعتداء، فإن حزب العزَّى مع قواهم حيث اعتدوا بعبادتهم غير الله سبحانه وهو العزى أهلكهم أعداؤهم بعزاء ولم تنفعهم قواهم ولا العزى، والحق بهذا واضح، فله سمو وارتفاع، وعلو وامتناع، بمعنى أن كون ما ذكر حق لا ريب فيه ولا خفاء له، وقد صار كناية عن غاية الوضوح وشهرة الطموح، لأن لازم كونه ذا سماء أن يكون ظاهراً ظهور الأمرية معه؛ فلا يحتاج حينئذ إلى ما يحتاج إليه غيره من الطموح، وذلك غاية الظهور، ولازم كونه ذا اسم أن يكون معروفاً به مشهوراً بتخصيصه.

فالببيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

وفى مثل هذا يقول على رضى الله عنه فى بعض وصاياه لولده: اعلم يا بنى أنه لو كان له شريك لأبَّتْ به رسله، ولرأينا آثار ملكه وسلطانه، ولعرفنا أفعاله وصفاته، ولكنه إلهٌ واحدٌ لا يضاده فى ملكه أحد، منزّهٌ عن أن يحده زمان، مقدس عن أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار فى دار القرار، على ما دلت عليه الآيات والأخبار، حى قادر مقتدر جبار قاهر، لا يعتريه عجز ولا قصور،

ولا تأخذه سنة ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا تحصر مقدوراته، ولا تتناهى معلوماته، عالم بجميع المعلومات، لا يعزب عن عمله مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، يعلم السر وأخفى، فيطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر، مريد للكائنات، مدبر للحادثات، لا يجرى فى ملكه قليل ولا كثير، جليلٌ ولا حقيرٌ، خير أو شر، نفع أو ضرر، إلا بقضائه وقدره، وحكمه ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو المبدئ المعيد، والفعال لما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبده من معصيته إلا بعصمته ورحمته، ولا حول ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته، لو اجتمعت الإنسُ والجنُ والملائكةُ والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرةً أو يسكنوها دون إرادته سبحانه وتعالى لعجزوا، سميع بصير، متكلم بكلام لا يشبهه كلام خلقه. كل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث ووجد بقدرته، فما من حركة ولا سكون إلا وله فى ذلك حكمة دلت على وحدانيته. وفى ذلك يقول أبو العتاهية: (من بحر المتقارب)

فيا عجباً كيف يُعصى الإله	ه أم كيف يَجْحدُه الجاحدُ
وفى كل شىء له آيةٌ	تدل على أنه الواحدُ
ولله فى كل تحريكه	وتسكينه فى الورى شاهدُ

وقال غيره: (من بحر الخفيف)

كلُّ ما ترتقى إليه بوهم	من جلال وقدره وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى	منه سبحانه مبدع الأشياء

• وقال رحمه الله تعالى:

١٢٠ - وَكَمْ مِنْ طُخْيٍ زَالَ الطَّخَاءُ بُوْدَقِهَا

فَفَاضَتْ هُوًى مِنْهُ وَضَاقَ هَوَاءُ

قوله: الطُّخْيُ، بالضم: جمع طخية، وهى قطعة من السحاب، وقد تفتح الطاء ويراد به حيثئذ الظلام، ويطلق ويراد به الكثافة.

قال البوصيري: (من بحر الخفيف)

شمس فضل تحقق الظنُّ فيه أنه الشمس رفعة والضياءُ
فإذا ما ضحى محا نوره الظل ل وقد أثبتَ الظلالَ الطخاء

ولابن حجر رضى الله عنه فى شرحه للهمزية عند هذين البيتين من التفسير البديع ما أجاد فيه وأفاد، وأتى بما يشفى الغليل وزاد، فقال: إنما لم يكن لشخص النبى ﷺ ظل لأنه شخص نورانى، بل هو النور الذى تنورت من مضاعفة أنواره النيرات، فكيف يثبت له ظل؟! والأتوار المكتسبة من نوره تمحو الظلال فما ظنك بنور استنارت من أدنى جزء من نوره النيرات؟ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٦].

فهذا الاعتبار يكون الظل على ثلاثة أقسام: ظل مستقل، وظل ممدود، وظل موصوفٌ بالسجود للملك المعبود، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَّاهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

فالظل المستقل هو سواد الليل فى مقابلة بياض النهار، فكما أن النهار ينفى الظلال إلا ما أبقاه الله من ظلال الأجرام الكثيفة، فتطرده الشمس يميناً وشمالاً، وهو الظل الموصوف بالسجود للملك المعبود، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، فالليل لا يمحو الظلال حقيقة وإنما يغطيها ويسترها بكثافة إلا ما أظهره القمر بنوره.

وأما الظل الممدود فما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الفرقان: ٤٥]: ألم تر إلى قدرة ربك ونفوذ أمره وبارع حكمته كيف مد الظل فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؟! جعله ممدوداً لأنه ظل لا شمس معه كظل الجنة، ولو شاء لجعله ساكناً أى: دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهب الشمس، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف

بأصدادها، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦]، يعنى الظل إلينا قبضاً يسيراً بالشمس التى تأتى عليه. والمعنى أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزءاً جزءاً قبضاً خفيفاً.

وفى ذلك يقول الفاضل النحرير الجامع بين الحقيقة والشريعة السيد محمد الأمين بن السيد المختار بن أعمر إذ يقول: (من بحر الكامل)

كالظل يظهر جرمه من شخصه	متقلصاً باللطف عند إياه
إن قلتَ فرقاً فهو فرقٌ ظاهرٌ	أو قلتَ جمعاً فهو عينٌ صوابه
فَلِقْبَضِهِ وَلِلطَّفِهِ وَبَيَانِهِ	سِرٌّ يُوصِّلُهُ إِلَى أَرْبَابِهِ
فَدَعِ اللَّالِيَّ فِي خَفَا أَصْدَافِهَا	فِي لَجْهَ وَالسَّرِّ خَلْفَ حِجَابِهِ
فِعْبَارَةُ الْعِلْمِ الْمَصُونِ إِشَارَةٌ	لِأَوْلَى النَّهْيِ بِيَدِهِ مِنْ جَلْبَابِهِ
عَبْرٌ وَأَمْثَالٌ وَأَسْرَارٌ بَدَتْ	مِنْ نَصِّهَا فِي حِكْمِهَا الْمُتَشَابِهِ

والطخاء بوزن السماء: كرب يعلو القلب. والودق: المطر الشديد الوقع، تقول: ودق يدق كوعد يعد. والهوى، بالضم والقصر: جمع هوة، وهى كل حفرة بعيدة القعر. والهواء، بالفتح والمد: ما بين السماء والأرض.

وكأنه يقول: كثيراً ما أزال الله كرب القلوب والضرر النازل بأهلها بسبب ما ينزل من قطع السحاب من المطر؛ فيتسبب عن ذلك الودق بكثرتة فيضان الحفر البعيد القعر، ويضيق ما بين السماء والأرض بتراكم وهيجان الأنواء، وهذا من معنى قولهم: «بلغ السيل الزبى» جمع زبية، وهى الهوى. ومن شأنهم أن يحفروها فى الأمكنة المرتفعة التى لا ينالها السيل، فإذا بلغها السيل كان شديد القوى وبطلت الحيلة فى دفعه؛ فيضرب مثلاً لشدة الأمر.

قال الشاعر:

بلغ السيل الزبى يا سادتى	وغدا السيفُ على متنِ الودجِ
فانهضوا نهضة حام للحمى	طال ذا الليلُ ولا بدرٌ يلجُ

وقد يقال: إن فى هذا الكلام إرشاداً لأن الله سبحانه هو الرزاق، وإن رزق

العباد في السماء؛ فلا يتأتى أن يتوصل إليه بقوة ولا حيلة لكن بمحض فضل الله وسابق ضمانه، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وهو المطر، فهو تعالى يرسل الرياح بحكمته؛ فتثير سحاباً برحمته ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩] لفاقته، فأحيينا به الأرض بعد موتها إظهاراً لقدرته ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] تصديقاً لوعده، ودليلاً على صحة بعثه. وفيها أيضاً الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقنط لتأخير الرزق وبطئه؛ فإنه سبحانه قد وعد بأنه ﴿يَنْزِلُ الْعَيْثُ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وكثيراً ما يكون الأمر كذلك ليعظم موقع منة الله سبحانه بالمطر ونشر الرحمة في القلوب ليعظم شكرها؛ فتتضاعف الزيادة، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

ولما انتهى الكلام على ما يضم فيقصر ويفتح فيمد عقبه بـ:

* * *

[باب] ما يفتح فيقصر ويضم فيمد باختلاف المعنى

عكس ما قبله، فالفتوح هنا مقصور وفيما تقدم ممدود، والمضموم هنا ممدودٌ وفيما قبله مقصور.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٤١ - حَلَى بِحَلَاءٍ ذِي الدُّنْيَا فَعَزِيزُهَا يَصِيرُ لَقَى أَوْ يَعْتَرِيهِ لُقَاءٌ

حَلَى، بالفتح والقصر: مصدر حَلَى بالشيء، بالكسر: ظفر به. والحَلَاءُ، بالضم والمد: جمع حَلَاءة، وهي القشرة التي تحلى من الجلد، وهي بضم الحاء والمد، بوزن ثمامة، يقال: حلا الجلدُ، بالهمز، كمنع: زال قشره وبشره. ولقى، بالفتح والقصر: الشيء الملقى غير معبوء به. واللقاء، بالضم والمد: اللقوة، بفتح اللام: وهي استرخاء أحد شقي الوجه، يقال: لقي الرجل كعنى، فهو مُلقى وملقاء ولقاء.

فكأنه يقول: إن هذه الدنيا وما فيها من المتاع حقير، نظير القشرة التي تخرج من الجلد عند زوال قشره وبشرته، وذلك أجلى ما يكون وأهونه في العيون، فالظافر بأعراضها وإن عظمت في عينه نظير الظافر بقشور الجلد المنشور في كونها لا تسمن ولا تغنى من جوع الآخرة، ولا ترد عن صاحبها قلامة ظفر مما يصيبه ويأتي به القدر، فعزیزها بكثرة جاهه بحسب ما جمع من أعراضها يصير مطروحاً في حفرة من الأرض غير معبوء به، أو يعتريه قبل ذلك من الأعراض والأمراض ما يصير به عبرة لمن اعتبر، وذلك كاللقوة التي تشين الخلقة بتشيينها أشرف أعضائه وهو الوجه؛ فهي كالفالج في التعطيل.

والمعنى: أن عزيز الدنيا لأبد أن يذل بأن يسلب العز الذي اكتسبه في الدنيا بما جمع بالموت حساً ومعنى، وذلك بأن تطراً عليه المعطلات والعلل الزمونات التي يستهون صاحبها الموت، والعياذ بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء. قال رسول الله ﷺ في بعض مواعظه: «كثير الدنيا يقل، وعزیزها يذل، وجدیدها يبلى، وشدیدها يفنى». لا جعلها الله أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٢ - رَوَى وَصَدَى لَاقَتْ^(١) صُدَاءٌ وَلَلْمَدَى

يَدَاءٌ صَحِيحٌ أَوْ يَصِحُّ مُدَاءٌ

الصدى، بالفتح والقصر: مصدر صدى الرجل: إذا عطش، ضد روى. وصداء، بالضم والمد: حى من حمير، منهم الصدائي صاحب رسول الله ﷺ الذى قد ترجم له فى الإصابة. والمدى، بالفتح والقصر: الغاية هنا. ويداء، بالفتح والمد: مضارع داء الرجل، بوزن جاء: أصابه داء، أى: مرض. والمداء، بالضم والمد: اسم مفعول من أدأته: أصبته بداء، فباعتراب المداء يصح أن يكون بضم الياء مضارع أدأته مبنياً لما لم يسم فاعله، وباعتراب اللفظ فالمناسب له أن يكون فعل فاعل مفتوح الياء كما تقدم، وعلى الثانى يكون مفعولاً ناب عن الفاعل. وقضت بتشديد الضاد المعجمة كقضت بالتخفيف، يقال: قضى وطره وقضاه، بالتخفيف والتشديد، وقضاً بكسر القاف وتشديد الضاد ككذاب: أتمه وبلغه. وروى، بالكسر: مصدر روى من الماء وغيره كريان وريانان بالكسر والفتح.

والمعنى: أن هذه القبيلة نالت مع طلوع المدى الذى لا يدوم على حال ارتواء من اللبن، وعطشاً مما ذكر، أى نالت نعيماً وبؤساً، وشدة ورخاء، وسعة وضيقاً، وللمدى - أى الغاية - التى يعمر الإنسان من الزمان، فلا بد له أن يصح فيه بعد المرض، ويمرض فيه بعد الصحة؛ لعدم دوامه على حال، فإن ذلك من قضائه، كما قال المعتمد بن عباد: (من بحر الطويل).

نعيم وبوس ذا لذلك ناسخٌ وبعدهما نسخ الأمانى الأمانيا

فاعتبر بحال أخى صداء يا من ليس أنا الصدء، والقوم أمثالكم لهم شعر فى الرأس، وما جاز على المثل يجوز على مماثله. فروى وصدى مفعولان لقضت مقدمان عليه، يعنى أن الأول مفعول والثانى معطوف عليه.

ونظم هذه الأعراض الجارية بعض الأدباء، فقال: (من بحر الطويل)

(١) جرى الشرح على رواية: روى وصدى قضت.

ثمانية تجرى على المرء دائماً
ولا بد للمرء أن يلقى الثمانيا^(١)
سرور وحزن واجتماع وفرقة
وعسر ويسر ثم سُقم وعافيا

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٣ - وَمَا ذُو مَكِّيٍّ أَوْ ذُو مَكَّاءَ بِمُهْمَلٍ

فَكَمْ عِبْرَةٌ أَجْدَى رَنَى وَرَنَاءُ

المكى، بالفتح والقصر: مأوى الثعلب. والمكاء، بالضم والمد: الصفير، قال الله تعالى حكاية عن أحوال المشركين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

والرنى، بالفتح والقصر: المنظور إليه لحسنه. الرنة على الميت.

قال الشاعر الشنفرى: (من بحر الطويل)

إذا زل عنها السهم رنث^١ كأنها مرزاة^٢ ثكلى ترن^٣ وتُعول^٤

وأجدى: أى أفاد. والعبرة، بالكسر: العجب، بالتحريك: ما اعتبر منه، أى تعجب.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئاً من خلقه عبثاً مهماً من الحكم والفوائد، بل جميعه مشتمل على المصالح العظيمة، حتى ذو المكى كالثعلب وصاحب الصفير لما هو عليه من اللؤم، فإنه يفيد اعتباراً لمن نظر إليه أو سمع صوته، يدل على أن له صناعاً فاعلاً مختاراً عالماً حياً، إلى غير ذلك، وهذا معنى قوله: «فكم عبرة.. إلى آخره» أى: فكم من العبر أفاد منظور إليه لحسنه أو صوت حسن كالطيور مثلاً. والمقصود الأمر بالنظر فى مخلوقات الله، واعتبار أشكالها وألوانها وأصواتها؛ فإنها تفيد الناظر فيها عبراً كثيرة جليلة بأنها لم تخلق عبثاً، ومن أجل ما خلقت له النظر فيها، ولذلك أمر الله سبحانه بذلك فقال:

(١) هذا العجز لا يستقيم وزنه هكذا إلا إذا كان:

* ولا بد للإنسان يلقى الثمانيا *

﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ولقد قدمنا في صدر هذا الكتاب من أنواع النظر والاعتبارات ما فيه كفاية .

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٤ - وَيُبْهِى النَّقَى ذَا الْعِلْمِ حَازَ نِقَاءَهُ وَمِثْلُ الْمَهَى قَلْبٌ لِدَاكُ مَهَاءُ

ويبهي، بضم الياء: مضارع أبهى الشيء: جعله ذا بهاء. والنقى، بالفتح والقصر: دقة القصب، والنحافة هنا، يقال: رجل أنقى، وامرأة نقواء، والنقاء، بالضم والمد: جمع نقاوة، وهى الخيار من كل شىء. ومن أسمائه ﷺ المنتقى أى: المنتخب من كل شىء؛ لأن الله انتقاه واختاره من جميع خلقه. والمهى، بالفتح والقصر هنا: البلور، وهو نوع من أنواع الأحجار النفيسة. والمهء بالضم والمد: المهياً للشىء المؤهل له.

والنقى: فاعل يبهى. وذأ العلم: مفعوله. وحاز نقاءه: حال من المفعول. ومثل المهى: مبتدأ، وقلب لداك مهاء: خبره.

والمعنى أن دقة القصب والنحافة يصيران صاحب العلم ذا بهاء فى حال كونه حائزاً خيار العلم، قلبه مهياً لحوز نقاء الأحوال المقترضها صفاء القلب، حتى يصير مثل البلور الذى لا شىء يدانيه فى الصفاء؛ ففى هذا إغراء بتعليم نفيس العلم وخياره، وحث صاحبه على الإقلال من الأكل والشرب الذى يتسبب من قلتها نحافته التى تلين القلب. قال ﷺ: «لا يصح العلم لمن يأكل حتى يشبع».

وقال ﷺ: «إن الله يبغض الحبر السمين»^(١).

(١) حديث: إن الله يبغض الحبر السمين» رواه البيهقى فى الشعب وحسنه، وزاد: «وأهل البيت للحميين»، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٧٦١، وأورده أبو نعيم من قول أحد الحكماء، وعزاه الغزالى فى الإحياء إلى التوراة.

وقال بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أن مالك بن الصيف أحد أحبار اليهود قال له رسول الله ﷺ: أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سمياً، فقال: ما أنزل الله على بشر من شىء. أخرجه الطبرانى مرسلأً، وكذا الواحدى فى أسباب النزول، وعزاه القرطبى إلى الحسن البصرى، والله أعلم.

وقال عليه السلام: «مَنْ كَثُرَ شَحْمُ بَطْنِهِ قَلَّ [فَقْهَهُ] فَقَهَ قَلْبَهُ».

وقال على رضى الله عنه: السمن تجارة النساء، وحرفة اللثام، وعيب فى الرجال الكرماء؛ لأنه ثقل فى الحياة، وتتن بعد الممات.
وفى الحكم: البطنة تذهب الفطنة.

باب ما يضم فيقصر ويمد باختلاف المعنى

يعنى أن المقصور والمدود كما اتفقا في المادة اتفقا أيضاً في الحركة وهى الضمة، ولا اختلاف فيهما إلا من المعنى.

• ثم قال رحمه الله:

١٢٥ - نُهِى الْأَمْرُ لِاحْتِظِّ وَالنُّهَاءُ اعْتَبِرْ بِهِ وَالْغِي مَنِ عَنِهَا اللَّيْبُ مَنَاءٌ

النهى، بالقصر هنا: النهايات. والنهاء، بالمد: ارتفاع النهار. والمنى، بالقصر: جمع منية: وهو ما يتمنى. والمناء، بالمد: المبعد، اسم مفعول من أناء: أبعدته فناء. فكأنه يقول: اعتبر نهايات الأمور، وارع عواقبها قبل أن تأتيها، فإن كان خيراً فبادر، وإن كانت غيراً فاترك، وإن اشتبهت عليك فأمسك، وارقب ارتفاع النهار فاعتبر به، ولا تتصرف فى الظلام مخافة أن تقع فيما يرديك؛ وهذا تمثيل للإمساك عند اشتباه الأمور؛ فإن ذلك بمثابة الظلام الذى لا يرى السالك فيه ما تحته، وتبين العواقب بمثابة ارتفاع النهار، واترك ما تتمناه نفسك وتشتهيه من الأشياء التى تصير اللبيب مبعداً عن ساحة بحر الفتوة والمروءة.

وحاصل ما ذكر أنه يأمرك بالعمل على يقين، ولا تقدم حالة الشك والالتباس واترك هوى النفس فإنه يلقي صاحبه فى الهوى..

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٦ - وَلَوْ كُنْتَ فِي قَرْيٍ فَقَرَاءٌ أَثْبَتْنِ فَمَا الْأُرْبَى زِيَعَتْ بِهَا الْأَرْبَاءُ

قوله: «ولو كنت فى قري»: فلو للإغياة. كنت: كان واسمها، فى قري: خبرها. قري، بالضم والقصر: موضع فى بادية العراق. والقراء، بالضم والمد: الرجل الناسك هنا. والأربى، بالقصر: الداهية. والأرباء، بالمد: العقلاء، واحدهم: أريب، وريع بكذا: أى حصل له روع بسببه، والروع: الفرع.

والمعنى: كن عابداً ناسكاً حيثما كنت، ولو كنت في البادية المسماة بقري؛
فبذلك تدخل في حزب العقلاء الذين لا يروعهم الأربى ولا يبألون بالداهية
النكراء.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٧ - وَصِدْقُ الرَّؤْيِ زَانَ الرَّؤَاءِ وَلِلنَّهْيِ

دَلِيلٌ إِذَا رَاقَ الْعِيُونَ نَهَاءٌ

قوله: «وصدق الرؤى»: الواو: للاستئناف. والصدق: ضد الكذب، هو اسم
مصدر، تقول: صدق يصدق صدقاً. الرؤى: مضاف إليه ما قبله، وهو بالقصر:
جمع رؤيا على غير قياس، وهو ما يراه النائم. والرؤاء، بالمد: المنظر الحسن.
والنهي، بالقصر: العقل التام. ولعل الناظم رحمه الله أشار بهذا الكلام إلى
الحديث، وهو قوله ﷺ: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً». ولا ريب أن الصدق
يزين صاحبه. والنهاء، بالمد: الزجاج. والرؤاء، بالنصب: مفعول زان، وفاعله
صدق الرؤى.

والمعنى أن صدق المنامات يزين الصور الحسان المنظر؛ لأن ذلك دليل على
صدقهم في الحديث، وبذلك يقع الزين الحقيقي، وما يدل على ما به الزين يزين،
وصدق الحديث من كمال العقل، وبه يقع التفاوت في الدين، وهذا أدل دليل على
كمال العقول، يعنى صدق الحديث الذى يدل على صدق الرؤى، وهو معنى
قوله: وللعقول دليل على أكمل العقول؛ فيستدل بها على وجوده، وهو صدق
المنامات التى تدل على صدق الحديث الدال على وفور العقل، جعلنا الله من
أصدق الناس حديثاً، حتى نكون من أكملهم عقولاً، فنظف بخير الدارين.

ويحتمل - وهو الأولى إن شاء الله - أن تكون اللام فى «ولكنهى» دليلاً على
بابها لا بمعنى «على»، وجعل الدليل للعقل، بمعنى أنه يدرك بمعونته حسن الأشياء
بأن يدرك حسن الرؤاء بحسن رؤاها؛ فيستدل بذلك على صدق الحديث، وهو
صفة كمال، وهذا هو الحُسنُ العقليُّ: يمدحُ فاعله عاجلاً، ويثاب عليه آجلاً، فهو

من أجل هذا حُسن شرعى أيضاً، ويدل على أن المراد بقوله: «كما راق العيون نهاء» هذا المعنى؛ فهذا تقرير معنى البيت، وليس هو ما عليه السلف من المحدثين؛ لأن المرأى نوع من الوحي لا تؤثر فيه العقول ولا النهى، بل لا يكون إلا بموهبة ربانية ومنقبة رحمانية اقتضتها وراثته الأنبياء، وصفاء زجاجة القلب من كدر الذنوب ورين العيوب، وصدق اللسان والتخلق بالتقوى والإحسان؛ إذ الأقسام التى فى أيدي الملائكة اليوم اثنا عشر قلمًا؛ منهم قلم رؤى المنام، فإذا نام الإنسان الصالح فبمجرد ما تنام عين رأسه تفتح عيننا قلبه، وبقدر ما تغيب أذناه عن إدراك المحسوسات تفتح أذنا قلبه، فيبعث الله إليه الملائكة الموكلين بالرؤيا، فيصرون له فى لوح من نور ما لا يراه بعينه، ويسمعونه ما لا يسمعُ فسمعته من غير شك ولا مرأى، فهذا أدنى مراتب الصديقين، ومنهم من إذا نام أخذت الملائكة روحه فجالت بها فى الملكوت، فىرى ما لا يدركه التعبير ولا يحيط به التخبير.

وأما عامة المؤمنين فلا اعتبار مراتبهم شروط: أن يكون صادق اللسان، غير ممتلىء بطنه من الطعام، متكئاً على شقه الأيمن، مستغرقاً فى النوم، نام على ظهره، أخذه النوم على ذكر، غير مفتون بالدنيا، ولا مغرم بأمر، ولا متعلق قلبه بالكشوفات؛ فهذا تعتبر رؤياه وتفسر ويعتنى بها. وأقرب المرأى وأصدقها ما كان فى الثلث الأخير من الليل، والليليات أصدق من النهاريات. وأصدق النهاريات ما كانت من الهاجرة إلى خروج وقت الظهر، وأبعدها وأكذبها ما رئى من الشروق إلى الضحى الأعلى، وما رئى بعد صلاة العصر إلى المغرب، ومرأى الصيف أصدق المرأى، ويليهما فى الصدق الربيع، وأكذب المرأى مرأى الخريف، ويليهما فى الكذب الشتاء.

وأما الكاذب والفاسق فإنما يريان الحلم، قال ﷺ: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان»^(١).

وقال ﷺ: «من رأى منكم فى منامه ما يكره فليتعوذ بالله، ولينفث على يساره ثلاث مرات، وليقل: اللهم إنى أعوذ بك من شر ما رأيت فى منامى هذا أن يضرنى فى دينى ودنياى، ولا يحدث بها أحداً فإنها لا تضره»^(٢).

(١، ٢) حديث: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»، وحديث: «من رأى منكم فى منامه ما =

وقال ﷺ: «إذا تلاعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يخبر بذلك أحداً، وليتعوذ بالله من شرها».

وفى «المواهب اللدنية» ما نصه: قال: إذا نام الإنسان فإن كان صالحاً خرجت روحه ولها شعاع متصل بالعرش، والحفظة حافون من حولها، فلا يدنو منها شيطان إلا نفخته الحفظة نفحة تبلغه أحد الخافقين، فلا يرى إلا حقاً، ولا يسمع إلا صدقاً، وذلك حقيقة الرؤيا.

قال الرسول ﷺ: «لم يبق من النبوءة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح يراها أو ترى له»^(١).

وأما الفاسق والمنافق فإنه إذا نام احتوشت الشياطين نفسه؛ فلا يزالون يتلاعبون بها؛ فلا يرى إلا كذباً أو لعباً، وربما صدق نادراً، فيكون ذلك من باب صدق الكاهن؛ لأن الشياطين ربما ألقوا إلى الكاهن الكلمة ونحوها مما يسترقونه من الاستماع من الملائكة؛ فيضيفون إليه مائة كذبة، ولا فرق بين اليقظة والنام في ذلك، وربما رأى الكافر الرؤيا فصدقت كما صدقت رؤيا الريان بن الوليد العملي، فيجاب عن تلك أن الله تبارك وتعالى أراه تلك الرؤيا الدنيوية ليخرج بسببها يوسف عليه السلام، أجرها له على قلب الريان بن الوليد. وكذلك رؤيا بختنصر فإن الله جعلها سبباً لنجاة عزيز وإخراج دانيال من الجب ورجعة بنى إسرائيل إلى بيت المقدس، ولتكون لهم الكرة عليهم؛ فبان من هذا أن الكافر والمنافق في ظلمات الإشراك والارتباك، فما يقع من صدق مرائيهم نادراً مما يدل على مناقضة الحديث الصحيح ومخالفته فمؤول بما ذكر، فليأول، وفي هذا كفاية لمن نور الله بصيرته؛ إذ لسا بصدد التطويل، والله الموفق لا رب غيره، ولا خير إلا خيره.

= يكره... إلخ. حديث واحد متفق على صحته، رواه الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه بالفاظ مختلفة، ولفظ البخاري: «الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلمًا يخافه فليصق عن يساره، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره». وهو عنده في كتاب (بدء الخلق)، والله أعلم.

(١) حديث: «لم يبق من النبوءة إلا المبشرات»... إلخ. حديث صحيح رواه البخاري بدون «من الرجل الصالح يراها أو ترى له» ورواه مسلم بالمعنى، وهو عند البخاري في كتاب (التعبير)، والله أعلم.

* ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٨- وَكَرُّ الْمَلَى يُفْنِي الْمَلَاءَ مَعَ اللَّقَى كَنَارِ ذُكْمِي لَمْ تَعْدُهُنَّ ذُكَاءً

قوله: «كَرُّ الْمَلَى»: الكرُّ: بمعنى التكرار كما يقال: كرُّ الحديد، الملى، بالقصر والضم: جمع ملوة، وهى الملووة، بالضم، أو جمع مُلْوٍ: أحد الملوين، وهما الملوان. قال الشاعر: (من بحر الرجز)

إن الحديد إذا ما استوليا . . . على جديد أدنياه للبلبي

والملاء، بالضم والمد: جمع ملاءة: وهى الريطة، والريطة: الرقيق المنتخب من الكتان وربما نسج بذهب، وربما نسج بفضة، وهو من أجود الثياب بعد الوشى، كما. قال حسان: (من بحر الطويل)

أَفْخَرُ بِالْكَتَّانِ لَمَّا لَبَسْتَهُ
فَلَا تَكْ كَالْوَسْنَانِ يَحْلُمُ أَنَّهُ
وَلَا تَكْ كَالثَكْلَى وَكَانَتْ بِمَعْزَلٍ
وَلَا تَكْ كَالشَّاةِ الَّتِي كَانَ حَتْفُهَا
وَلَا تَكْ كَالْعَاوَى عَوَى قَبْلَ نَحْرِهِ
فَإِنَّا وَمَنْ يَهْدَى الْقَصَائِدَ نَحُونَا

وقد يلبس الأنباط رِبَطًا مقصرا
بِقَرِيَّةٍ كَسْرَى أو بقرية قيصرا
عن الشكل لو كان الفؤاد تفكرا
بحفر ذراعها فلم ترض محفرا
ولم يغشه سهم من الموت مضمرا
كاستبضع تمرًا إلى أرض خيبرا

واللقى، بزنة فتى: ما طرح من ثياب وغيرها استهانة وله ورغبة عنه. والذكى، بالضم والقصر: جمع ذكية، بالضم: وهو ما تلتهب به النار من حطب وغيره. وذُكَاء، بالضم والمد: اسم للشمس.

فتركيب البيت هو أن كر الملى أى: مضى المدد ومرورها، يفنى الثياب الحسان، الجدد، فى حال كونها مصاحبة لَمَّا ألقى غير معبوء به بعدما كان يزهو به لابسه، كما صار يزهو اليوم بهذه الجدد؛ فإنها سييلها مرور الملى كما أبلى الخلقان والدارسات التى صارت بين يديه لقى، فالثياب ولابسوها يفنىها مرور الملوين كما يفنى الحطب الجزل ضرام النار عليه بسبب إلقائه فيها.

يروى أن النبى ﷺ قال: «إياكم والجلوس فى الشمس؛ فإنها تبلى الثوب،

وتغير اللون، وتنتن الرائحة، وتثير الداء الدفين»^(١).

فنسبة النار إلى الأحطاب كنسبة الشمس إلى الثياب، فكما أن النار تحرق الحطب فكذلك تفتي الشمس الثوب، فهذا تمثيل منه أنه لا بقاء لزرجون الدنيا لأنه إلى العدم يؤول، وكما وجد يزول؛ فلا يغتر به إلا جاهل مفتون أو خاسر مغبون. وقد تقدم في هذا الباب ما فيه كفاية لمن له حظ وعناية؛ جعلنا الله من جعل له واعظاً من نفسه؛ فإن من لا واعظ له من نفسه لا واعظ له.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٩ - وَجَذَبُ الْبُرَى يُبْرِى الْبِرَاءَ وَفِي الرَّغَى

لذَاتِ رُغَاءٍ لَا تَشْحُ بِقَاءٍ

قوله: «وجذبُ البرى»: الجذب: هو الأخذ بقوة. والبرى، بالضم والقصر: جمع برة، بالتخفيف: وهى الخزامة، وإنما تجعل فى أنف البعير القوى الصعب الشكس. قال الرسول محمد ﷺ: «المؤمن هين كالجمل المشوش - أى الذى فى أنفه خزامة - أينما قيد انقاد، ولو أئبح على صخرة لأناخ. والمنافق صعب شرود كأد كنود».

يروى أن النبى ﷺ لما حُصِرَ عام الحديبية عن الحج بعث إلى البيت ستين بدنة لتنحر، وبعث فى جملتها جملاً لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب ينكأ بذلك قريشاً. والبراء، بالضم والمد هنا: جمع براية، بالضم: وهو قوة البعير على السير، تقول: لى فرس أو جمل يبارى الريح، أى يجارها فيغلبها، أو يماثلها، مع أن المباراة المغالبة فى كل شىء، وإنما يقال: البراء لمن عرف بذلك ونسبت إليه. والرغى: جمع رغو، وهو ما يعلو اللبن عند الحلاب، ولقد وردت فيه آثار

(١) حديث «إياكم والجلوس فى الشمس» موضوع أخرجه الحاكم فى المستدرک (٤/٤١١)، قال

الذهبى: قلت هذا من وضع الطحان، وسكت عليه الحاكم، وتعقبه الذهبى بالجملة السابقة.

وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ١٨٩ وقال: موضوع، وأورده السيوطى فى جامعهم فقال

الناوى: فكان ينبغى للمصنف حذفه (٣/١٣٠)، والله أعلم.

واهية، وهو قوله ﷺ: «سيهلك من أمتي أهل اللبن، قيل له: ومن أهل اللبن يا رسول الله؟ قال: قوم يميئون الإسلام ويتبعون الشهوات، ولا أخاف عليهم إلا من اللبن؛ لأن الشيطان بين الضرع والرغوة»^(١).

ويناسبه قوله ﷺ: «على سنام كل بعير شيطانان»^(٢).

وقال ﷺ: «إذا تبايعت أمتي بالعينه واتبعت أذنان البقر صب الله عليها ذلاً لا يفارقها حتى تراجع دينها وهو الجهاد»^(٣).

والرغاء، بالضم والمد: صوت البعير إذا عولج، وإلا فحنين، وإن صوت في صدره فرزام، يقال: أرزمت الناقة: إذا صوتت في صدرها من غير أن تفتح فاهها، وحتت إذا فتحت فاهها ورفعت صوتها طلباً لأنف أو ماء أو مرعى، أو رغت: إذا عولجت، والرغاء بمنزلة التحنن والثناء. وفي المثل: «حتت ولا تأنت» وله حكاية طويلة أعرضنا عن ذكرها.

فكانه يقول: إن جذب الحلق التي في أنوف الإبل الصعاب تذللها وتظهر ما عندها من القوة على السير، وهذا تمثيل لإظهار ما عند النفس من الجلد والتجلد عند أخذ صاحبها لها بالمجاهدة وحملها على ما ليس من مألوف طبعها، فإن كانت كريمة منورة هانت ولانت ثم انقادت وكادت^(٤)، كما قال الشاعر:

* هي النفس ما حملتها تتحمل *

فهي بمنزلة الجمل الصعب الذي يراض بالخزامة التي ربما تجمل بها بعد ذلك فمن رآه ورأى الخزامة في أنفه علم أنه راحلة. فمن راض نفسه على الاجترار

(١، ٢) يكفى أن الشيخ قال: إنهما واهيان.

(٣) أما حديث «إذا تبايعت أمتي بالعينه»... إلخ. فيه مقال أيضاً، رواه أبو داود، وأخرجه السيوطي تحت رقم ٥١٤ ورمز له بالحسن.

قال المناوي: وفيه أبو عبد الرحمن الخراساني واسمه إسحاق عد في الميزان من مناكيره خبر أبي داود هذا.

العينه، بكسر العين المثناة تحت ونون: وهو أن يبيع سلعة بثمن معلوم لأجل ثم يشتريها منه بأقل، وهذه الصفة مكروهة عند الشافعية، والبيع صحيح. وحرمتها غيرهم تمسكا بظاهر الخبر، وهو الأولى، والله أعلم.

(٤) في النسختين: وكادت، ولعلها خطأ إذ المعنى لا يستقيم.

باليسير والاكتفاء بالكفاف قبلت ذلك وتحملته .

قوله: وفي الرغى: معناه أن فى الاجتزاء بشرب اللبن رغاء الإبل التى لا تشح باللبن بقاء لنفس الإنسان وكفاية لها، يقال: ارتغى: إذا شرب رغوۃ اللبن، ومنه المثل وهو قولهم: «يسر حسواً فى ارتغاء»^(١).

فبقاء: مبتدأ مؤخر، وفى الرغى: خبر مقدم. ولذات رغاء: حال من الرغى . ولا تشح: صفة لذات رغاء، والتقدير: بقاء الإنسان كائن فى الرغى حال كونه لإبل صاحبة رغاء غير شحيحة باللبن. والمقصود من هذا الخبر الحث على رياضة النفس حتى تكتفى بما فيه الكفاف.

• قال رحمه الله تعالى:

١٣٠ - وَلَوْ ذُو الرُّشَى اعْتَاَصَ الرُّشَاءُ اتَّقَى لَطَى

فَمَا لِلَّهِى تُجْرِى الْعَذَابَ لِهَاءُ

قوله: ولو: حرف إغياۃ. ذو: بمعنى صاحب، اسم كان المحذوفة بعد «لو». الرشى: مضاف إليه ما قبله: جمع رشوة، وهى ما يأخذه الحكام على الأحكام، والقضاة على الميل والاستكتم، وهو حرام بالكتاب والسنة والاجماع:

أما الكتاب: فقوله تعالى ذمًا لأرباب الرشى على جهة الزجر والتحريم والمنع والتحريم: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، أى سماعون لدعوى الكاذب لأجل ما يعطيهم من السحت أى: الرشى. ومن اعتناء الله تعالى باستقامة الحكام على الحق ودعواهم إليه أن قال لداود عليه السلام مع عصمته وعلو منزلته: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «من حكم بين اثنين تحاكما عليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله».

(١) هذا مثل يضرب لمن يتظاهر بأمر ويخفى سواه، والاحتساء: الشراب شيئاً فشيئاً، والارتغاء: أخذ الرغوۃ.

وعن أبي حاتم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما، فسلم عليه، فلم يرد عليه السلام؛ فقال لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد عليّ خليفة رسول الله ﷺ؛ فكلّم عبد الرحمن أبا بكر، فقال له: أتاني وبين يدي خصمان قد فرّغت لهما قلبي وسمعي وبصري، فعلمت أن الله سائلني عنهما وعمّا قالاً.

قلت: وادعى رجل على عليّ عند عمر رضى الله عنهما وعلىّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا حسن، قم فجالس خصمك، فقام فجلس مع خصمه، فناظره، وانصرف الرجل، ورجع على إلى مجلسه، فتبين لعمر التغيير في وجهه عليّ؛ فقال: يا أبا حسن مالي أراك متغيراً؟ أكرهت ما كان؟ قال: نعم، قال: وما ذاك؟ قال: كنتني بحضرة خصمي، هلا قلت يا عليّ اجلس مع خصمك؟! فأخذ عمر برأس عليّ فقبل بين عينيه، فقال: بأبي أتم، فيكم هدانا الله، وبكم يخرجنا من الظلمات إلى النور.

وعن أبي حنيفة رضى الله عنه قال: القاضي كالفريق في البحر الأخضر، ما عسى أن يبلغ بسبحه وإن كان سابحاً؟! وقد أراد عمر بن هبيرة أن يولى أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه، فضربه حتى انتفخ وجهه ورأسه، فقال: الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليّ من مقامع الحديد يوم القيامة. فلما يئس منه تركه.

وعن عبد الملك بن عمير، عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر رضى الله عنه، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزاً، فكتبنا إلى أبي بكر رضى الله عنه، فكتب: لا تحركوه حتى يقدم إليكم رسولي، ففتح، فإذا برجل على سرير، عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب، وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه: (من بحر الوافر)

إذا خان الأمير وكاتباه وقاضي الأرض داهن في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل لقاضي الأرض من قاضي السماء

وقال ﷺ: «إن الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار برئ الله منه وألزمه

الشیطان».

وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع إليه الناس، وكان لا يجيبهم، فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره، وألقى ملاءته على وجهه، وقال: اللهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك، فقبض، وانصرفوا.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة».

وقيل: إن أول من أظهر الجور من القضاة في الإسلام بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري.

وقال عمر بن الخطاب: لا تولوا اليهود والنصارى فإنهم يقبلون الرشى ولا يجلون دين الله.

وقال بعض المتأخرين لما بلغه قول عمر رضى الله عنه: أصحابنا اليوم أقبل للرشى منهم.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه: من شفع شفاعة ليرد بها حقاً أو يدفع بها ظلماً، فأهدى له؛ فقبل، فقد أخذ بحظه من السحت. فقبل له: كنا لا نرى السحت إلا أخذ الرشوة على الحكم، فقال: أما مستحل الرشوة على الحكم فهو كافر بإجماع الأئمة.

وفى الرشوة يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

وكنت إذا خاصمتُ خصماً كبيتته على الوجه حتى خاصمتنى الدراهم

فلما تنازعن الخصومة غلبتُ على وقالت قم فإنك ظالم

وفى الخير: ما بيعت أحكام الله بقرية إلا رماها الله بالهوان.

والرشاء، بالمد: جمع رشاءة، وهو نبت تدبغ به الجلود تسميه العامة الجدارى يشبه القرنفل، وهى التى تسميها العامة الزوايا. واللُّهى، بالقصر، جمع لهوة: وهى العطية. واللهاء بالمد: المقدار، تقول: منحتة مقدار لهية أى: قدرها.

وتركيب البيت هو أنه لو اجتزأ، أى اكتفى، بالنبت المسمى بالرشاء الشخص

الذى يرشى على الحيف، واقتصر على ذلك عوضاً عما يأخذه من الرشى لكان متقياً بذلك حر لظى التى هى لا خير بعده بخير، ولا شر بعده الجنة بشر.

فالييت مقتبس من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنَ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿﴾ [المارج: ١٥ - ١٨].

ولما انتهى كلامه على ما يضم أوله فى حالتى المد والقصر مع اختلاف المعنى شرع يتكلم على:

* * *

باب ما يكسر فيقصر ويضم فيمد باختلاف المعنى

• فقال:

١٣١ - وَكُلُّ بَغْيٍ تُرْدَى اصْطَبِرَ عَنْ بُغَائِهَا

فَكَمْ فِي مَنِي بِالصَّبْرِ فَازَ مَنَاءٌ

وكل: الواو: للاستئناف، وكلُّ: كلمة شمول تلازم الإضافة غالباً إما إلى مفردٍ وإما إلى جملة كقوله تعالى: ﴿كُلُّ إِنبَاءٍ رَاجِعُونَ﴾ [الانباء: ٤٣].

بغى، بالكسر والقصر: جمع بغية، بالكسر: وهي ما يتبغى. والبغاء، بالضم والمد: مصدر بغيت الشيء: إذا طلبته. ومنى، بالكسر: قرية بإزاء عرفة يقيم فيها الحجاج ثلاثة أيام لرمي الجمار، وهي التي يقول الله في شأنها: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

والمناء بالضم والمد المنهض، يقال: ناء بمعنى نهض. وأناءه بمعنى أنهضه، وأناه بمعنى أبعدته وأقصاه، وأناه أيضاً بمعنى أثقله، وأناه أضيافه إذا سارهم لآخر الليل. وتردى، بضم التاء: مضارع أرديته: أى أوقعته في الردى وهو الهلاك.

فكأنه يقول: كل بغية، أى طلبية، مهلكة باغيها اصطبر عن طلبها، وجاهد نفسك فى صرفها عن هواها، فإنما يفوز من فاز بالصبر على الطاعة وعن الهوى والمعصية، فكثير فاز بظفره بمنى بعدما ارتكب الكلف ومشاق السفر وتكاليف الإحرام: من التجريد من المخيط، وترك الطيب والنساء، والكف عن قتل الهوام، إلى غير ذلك. فالمراد الأمر بالصبر عن كل ما يردى، والترغيب فى كل ما يؤدى إلى الفوز بالمطلوب بحيث يذكر نفسه ويعللها بفوز الحاج فى منى بقبول حجه ورضى ربه. قال ﷺ: «الحج والعمرة ينفيان الذنوب كما ينفى الكبر خبث الحديد»^(١).

(١) حديث: «تابعوا بين الحج والعمرة»... إلخ. رواه ابن ماجه وأحمد وأبو يعلى، وأورده السيوطى ورمز له بالضعف، وسكت عليه المناوى (٢٢٦/٣)، والله أعلم.

وفى رواية: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد».

وقال ﷺ: «إن الله ليباهى ملائكة السموات السبع يوم عرفة فيقول: انظروا يا ملائكتي إلى عبيدي وأمائي أقبلوا إلى زيارتي من كل فج عميق، قد فارقوا الأوطان وهاجروا الإخوان، ولازموا السرى وحرموا جفونهم لذة الكرى، يضجون لى بالتلبية ضجيجاً، ويعجون بالذكر في مرضاتي عجيجاً ويثجون الدماء تقريباً إلى ثجيجاً، وقد أصبحوا في أكنافي، وصاروا أضيافي، وأنا أحق من أكرم الضيف، وأزال الحيف، وأمن الخوف، فأشهدكم بأني أمتهم من ناري، وأبحت لهم بحبوة الجنة في جوارى، فرحمتي عليهم مسبولة، وكرامتي لهم مبدولة، فهم وفدى، ولنعم الوفد وفدى» وقد قدمت في هذا النمط صدر الكتاب ما فيه غنية.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٢ - وَفِي ذِي مَعَى مِثْلَ الْمَغَاءِ احْتَسِبْتُ نِيَّ

فَضَعُفُ جَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ نِثَاءً

قوله: وفي: الواو للاستئناف، وإن شئت جعلتها حرف عطف، وفي البيت تقديم وتأخير حتى صيره من نوع التعقيد، والفاء: ظرفية بمعنى عند، فكأنه يقول: احتسبت نتي عند ذي معى، بالكسر والقصر، وهو واحد الأمعاء، فكأنه يلوح بذلك إلى قوله ﷺ: «في كل ذي كبدٍ أجر». وفي رواية: «رَطْبَةٌ»^(١).

والمغاء، بالضم والمد وبالعين المهملة والغين المعجمة أيضاً: صوت الهر، يقال: مغى يمغو: إذا صاح وهو اسم صوت حيث لم يصنع منه فعل. والثني، بالكسر والقصر: المعاودة مرة بعد مرة. والثناء، بالضم والمد: معدول عن اثنين كمثني. وضعف الشيء: مثله خاصة، بخلاف أضعافه أو ضعفيه، يقال: لك ضعفه أي: مثله، وثلاثة أمثاله، والمعنى الثاني هو المراد هنا. فكأنه يقول: احتسب في صاحب مغى ضعيف له صوت نحيل مثل صوت الهر في الضعف إعادة إلى

(١) حديث: «في كل كبد رطبة أجر» صحيح رواه البخاري والبيهقي.

الإحسان إليه كسقيه وإطعامه المرة بعد المرة، أى: يعتد بأجر ذلك: وجزاؤه على الله سبحانه، والله يضاعف أجر المحسنين، وضعف جزائه أى كثرة ذلك اثنان اثنان، لا يعلم كنه ولا كيفه إلا الله، فإنهم يجوزون بأضعاف ما عملوا وبأضعاف ما يجوزون به، ومع ذلك قد وعدهم الله تبارك وتعالى بالخلف عاجلاً بقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩] عاجلاً، ويضعف الأجر عليه آجلاً، مع امتنانه عليهم بالحياة الطيبة التى ليس معها تنغيص، وهى المقرونة بالمعرفة والإيقان والتقوى والإحسان، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ثم قال فى حق الجاهل الأهوج المتكاسل العاصى المتغافل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]؛ لا حرمننا الله ذكره ولا أعوزنا شكره، آمين.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٣ - وَخَذَ مِنْ بَرَى الْعِلْمِ الْبِرَاءَ تَيْمَنًا

وَسَوْءَ الْمَشَىٰ أَهْجُرُ وَلِيُجِدَكَ مَشَاءً

قوله: وخذ: الواو حرف عطف، وهو من باب عطف الجمل. خذ: فعل أمر من أخذ. من برى: من: حرف جر، إن شئت جعلته للجنس، وإن شئت جعلته للتبعيض، والبرى: عبارة عما يكتب به، سواء كان ممّا يبرى أى يرقق لتتهياً به الكتابة فيقال له: مبرى أو مبرى على غير القياس، فتقول: برى القلم أبريه، بالضم: تسبب فى بريه، وأبرانى الوجد: أدق جسمى. وبرى الخبر: أتيت به أولاً، وأبريته لغة فيه، فتقول: أخذت قلماً مبرى، وقلماً برية.

وقد يتهياً الشيء للكتابة من غير برى كالمخذ من نحاس أو حديد أو صفر. واختلف فى اتخاذ الأقلام من الذهب والورق: فأجازه أبو حنيفة، ومنعه مالك وأصحابه، ووجه إباحة أبى حنيفة له حملاً على أن ذلك من باب الإكرام للعلم والقرآن، ووجه منع مالك وأصحابه له حملاً على أنه من الإسراف إذ لم يأت عن

السلف من ذلك أثاره من علم، ولأن القرآن والسنة تتشرف بهما الأشياء لا هما يتشرفان بها، ولو كان ذلك كذلك لما نهى رسول الله ﷺ فقال: «إذا غضب الله على قوم زخرفوا مساجدهم وفضضوا مصاحفهم».

وإنما أضيف العلم إلى البرى لأنه سبب لتحصيله وحفظه وصيانتته، وهو القلم، قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤] واختلف في باء ﴿بِالْقَلَمِ﴾ فقيل: سببية، وقيل: استعانية.

فعلى تأويل السدى: علم الله الإنسان من لدنه بالوحي والإلهام، وأعانه على تحصيله وحفظه وصيانتته بالقلم، ولذلك اتخذ رسول الله ﷺ كِتَابًا يكتبون له الوحي، منهم: زيد ومعاوية، وهم جم غفير.

وعلى تأويل الضحاك وابن ماجه مما رفعنا إسناده إلى ابن عباس أنها سببية، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ سبب تعليم خلقه من العالم الروحاني والإنساني بالقلم^(١)، إذ هو ترجمان الحق أولاً عند النشأة الأولى، وآخرًا باستنساخ الفروع به أو منه.

والأقلام اثنا عشر قلمًا كما في «المواهب»، أولها: وأجلها قلم القدرة السابق. الثاني: قلم الرسالة وتوابعها. الثالث: قلم رؤيا المنام وأنواعها. الرابع: قلم الدول وتوابعها. الخامس: قلم التواريخ وتفصيلها. السادس: قلم الحساب وضروره إذ به تستخرج الحقوق إلى أماكنها. السابع: قلم القضاء، وبه يقام قسطاس العدل، ويفرق بين الحق والباطل فيفصل الفصل. ويمتاز به بين ذوى الحلم وفريق الجهل. القلم الثامن: فى أسماء الملوك وأيامها وسيرها فى حكامها وإبرامها. التاسع: فى الوفيات وتفصيل الخواتم والكيفيات. والقلم العاشر: فى المناكح وأسبابها وذكر رباتها وأربابها. القلم الحادى عشر: فى اللغات وتراجيمها من عربها وأعاجيمها. القلم الثانى عشر: فى البيوعات وأبوابها والنهى عن ربوياتها وفسادها عند ارتكابها. القلم الثالث عشر: وهو من أجل الأقلام قدرًا بعد قلم الرسالة، قلم الولاية فإنه مشتمل على استحقاق الوراثة ومراتبها، وأنواع الكشوفات وتنوعاتها،

(١) هكذا العبارة فى النسختين، وهى غير مترابطة.

ومشارب الدوق وتفاوتها، وأنواع المكالمات وتضوعاتها، وفجآت الواردات وروجاتها، والفنأ عن الفنأ وتناهى الفنأ، قال بعض السادات فى بيان هذا المقام:

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى وكان فتاوة عين البقاء

والمعرفة وغمراتها، والوجد والوجود والغيبة والشهود، والحد والحدود، والوصول والذبول والدهول، والبواج والبراح والكفاح، والدنف والكلف والشغف، بعد الميل والركون، والحب والعشق والغرام.

فالأبدال ثلاثون رجلاً وثلاثون امرأة، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة، وهم أساس الدولب وأفضل أهله، وهم الملاء فى هذا النوع من العالم، كل رجل منهم على قلب نبي ومقرب منهم الغوث، ويكون فى جميع الأقاليم غير أنه حيثما كان لا تغيب الكعبة عن منظره، وإذا قال السلام عليك أيها النبي قال له النبي: وعليك السلام، فإذا وقع الأمر من أمور العامة ابتهل فيه النجباء، فإن تم وإلا ابتهل السياحون، فإن تم وإلا ابتهل الصديقون، فإن تم وإلا ابتهل الأخيار، فإن تم وإلا ابتهل النقباء وهم الأقطاب الاثنا عشر، فإن تم وإلا ابتهل الغوث؛ فنتهى إليه؛ فيرفع الأمر إلى من له الأمر من قبل ومن بعد؛ إذ هو الذى انتهت إليه الوراثة بالقعدد^(١)، فيخطب النبي ﷺ كفاحاً؛ إذ هو على قلبه فيشفعان لما لهما من القرب الخاص ورتبة النداني؛ فترفع البلوى وتضمحل الشكوى^(٢).

وأما قول العلامة: «إنه لا يكون إلا فى البيت» فكذب وأفتراء على الشارع، ومجازفة فى القول؛ فقد كان النبي ﷺ بالمدينة وهو رأس الغوثية، والسيد عبد القادر الجيلي الذى لم يختلف اثنان فى غوثيته فى العراق ببغداد، والشاذلى بتونس. والجنيد بالمداين، والغزالي بطوس، وأويس القرنى بالكوفة، وأبو مدين الغوث بالمغرب. إلى ما لا يحيط به الحصر؛ مما يدل على بطلان ذلك القول الفاسد الأصل، بل لا يمتنع أن يسكنها قطب أو غوث مدة، أو يكون من أهلها أو

(١) كذا فى الأصلين: بالقعدد، ولعل المراد: بالتعدد.

(٢) لم يثبت شئ عن النبي ﷺ فى الأبدال، أما هذا التقسيم الذى أورد الشيخ فلم أر له سنداً عن

ساكنيها كأبي طالب المكي وعلى زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين. وإنما الممتنع التخصيص، بل ينتقل ذلك بانتقال الملة وتفعلها في إقليم أو أقاليم، فلو قدر خلاء الأقاليم من الإسلام إلا إقليمًا واحدًا لكان الجميع في ذلك الإقليم، إلا أن السياحين أهل الخطوات يسلكون الأقاليم كلها، فالله يختص برحمته من يشاء، وعلى قدر توجهات جلالاته ورحمته، لا محقق لحكمه، ولا راد لقضائه.

والقلم له حرمة حتى قيل: إنه لا ينبغي وضعه بالأرض إجلالاً لما هيء له من مباشرة كتابة العلم والقرآن والأسماء الحسنى، ونسبته للقلم الأعلى. بل يروى أن الصحابة كانوا إذا فرغ أحدهم من الكتابة جعل قلمه على أذنه، فقيل: إن سبب ذلك ليكون أذكر له. وقيل: للإجلال، حتى روى عن محمد بن العربي أنه قال في بعض مصنفاته: ينبغي إجلال النباتات التي تتخذ منها الأقلام؛ فلا تختلي إلا لحاجة، كما روى ذلك للسدر لنسبتها إلى سدره المنتهى.

والقلم أجل من سدره المنتهى، ونسبة الأقلام الدنيوية إلى قلم القدر السابق أتم من نسبة سدره الدنيا إلى سدره المنتهى؛ فكما ينبغي أن يتبرك بورق سدر الدنيا في أشد الحالات وهي غسل الميت، فمن باب أخرى أن يتبرك بنخالة الأقلام على وجه التيمن ولذلك قال الناظم:

* وخذ من برى العلم البراء تيمناً *

أي خذ نخالة القلم المبرى حالة كونك متيمناً، أي متبركاً بها، فضلاً عن القلم نفسه، فضلاً عن مداده، فضلاً عن العلم عينه فضلاً عن الكتابة والسنة اللذين عنهما تفنن الجميع، وبنورهما تجهذ العالم وعبد المطيع.

قال الرسول ﷺ: «لَا يَءَمُّ مِنَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ مُحَمَّدٍ وَمِنْ آلِ مُحَمَّدٍ».

فلما كان التيمن بقلمه القلم مما ينبغي فالتيمن بتحقيق مسائله، وتدقيق معانيه، وتصحيح مبانيه، والاعتناء بالكيفيات التي يتحصل بها، ومحاولة تحصيله بسببها؛ كالمدارسة والممارسة والمذاكرة، وإدمان السهر والجوع، والتملق والخضوع، وبذل الكل، وترك الملل، وتحمل الكل، والعناء والكلل، من باب أولى؛ فإنه صعب

التحصيل سريع التَّعْطِيل، لآ يناله متكبر ولا ملول، ولا مستحي ولا جهول، بل هو حرفة الفحول ومطرة المحول وجرعة النحول، وليكن ذلك على سبيل التيمن والتبرك لآ على سبيل الرياء والسمعة وطلب الجاه والحظوة.

وفيه نوع استعارة: وهى استعارته بحتات القلم عما يتحصل من متشابه العلم ودقائقه ورقائقه، ومشكله واستنباطه بآلاته، كالتحو واللغة والتصريف وفنون البلاغة والأمثال والعبر ولحن القول وفحواه، إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

قوله: «وسوء المشى اهجر» لأنها المَطيَّطاً، ولأنها الهيئة التى تدل على جهل صاحبها وسوء طويته. قال الرسول ﷺ: «إذا مشت أمتى المَطيَّطاً واستخدمت أبناء الملوك كانت الدولة للعدو»^(١).

وقال لأبى دجاجة - وكان يَحْتال عند الحرب سجية لآ يستطيع غيرها -: «تلك مشية يبغضها الله ورسوله إلا فى مثل هذا الموضع».

والمشاء، بالضم والمد: الالتجاء إلى الله فى السراء والضراء، وهى من نوادر اللغات، وذلك بأن تتصف بالاضطرار إلى الله والالتجاء إليه؛ بأن تنزل نفسك منزلة الغريق فى السعة والضيق، وإلا كان الالتجاء فى طريق وأنت فى طريق، وكنت بمعزل عن خير رفيق، وذلك بأن تُسقط التدبير والاختيار، وتحقق بأن الله يفعل ما يشاء ويختار، فتكون بذلك فى جنات من الرضى والتسليم تجرى من تحتها الأنهار، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]: جنة الإحسان، وجنة الإيقان، جعلنا الله ممن قدمها له، فمن لم يظفر بهما فقد فاته طيب الحياة.

ولما انتهى كلامه على ما يكسر فيقصر ويضم فيمد شرع يتكلم على:

(١) حديث: «إذا مشت أمتى المَطيَّطاً»... إلخ. ضعيف رواه الترمذى وقال: غريب، وعنه السيوطى فى جامعه ورمز له بالحسن، وقال الهيثمى: وإسناده حسن، قال المناوى: وفيه زيد بن الحباب، قال فى الكشاف: قد وهم، وموسى بن عبيد ضعفوه، وعبد الله بن دينار غير قوى (١/٤٤٥). قلت: رواية الترمذى «سلط شرارها على خيارها» بدل «كانت الدولة للعدو»؛ والله أعلم.

[باب] ما يضم فيقصر ويكسر فيمد باختلاف المعنى

عكس الباب الذي قبله .

• فقال رحمه الله تعالى:

١٣٤ - بِمُؤْتَاكَ لِلْمِئَاءِ فُقُ مُؤْتَقًا عُرَى مَحَامِدَ عَنْهَا الْبَاخِلُونَ عِرَاءُ

قوله: بمؤتاك: الباء سببية. مؤتاك، بالضم والقصر: المعطى من الأشياء. والمئاء، بالمد والكسر: المعطاء، مبالغة في كثرة العطاء، وهو اسم فاعل دال بينيته على كثرة العطاء، مصروف لزيادة الوصف وقصد المبالغة عن مُعْطٍ، تقول: معطاء، بكسر الميم، في كونه اسم فاعل، وتضم حيث كان اسم مفعول. واليد المعطاة خير من اليد المُعطاة، وهو معنى قوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(١). كما روى: «اليد المنطية خير من اليد المنطاة».

وقوله ﷺ: المنطاة: لغة حميرية. خاطب بها حمير ملاطفة بهم؛ لتوسعه ﷺ في لغات العرب حتى كان يخاطب كل قوم بلغتهم، فيكون أفصح منهم في لغتهم لما خصه الله به من مزيد الفصاحة والبلاغة.

يقال: رجل معطاء، وامرأة معطاءة. والعري، بالضم والقصر: جمع عروة، بالضم، وهي عبارة عما يتوصل به إلى أخذ الأشياء التي لولا هي لم يقدر عليها كعروة الدلو والسقاء وعروة المعراج، ومنهن المعنويات، وأتى بما ذكر كناية عن عرى الإسلام الخمسة وأصوله الثلاثة، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]. والعراء، بالكسر: جمع عروى على وزن عكلى بمعنى خلو. فباء بمؤتاك تتعلق بفق. والمئاء: مفعول فق، واللام فيه لتقوية العامل. ومؤتقًا وهو مضاف إلى محامد^(٢). وجملة «عنها الباخلون عراء» في موضع

(١) حديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى» حديث متفق على صحته رواه البخارى بهذا اللفظ وزيادة: «وإبدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله» (كتاب الزكاة)، كما رواه مسلم بإيجاز، والله أعلم.

(٢) ليس مؤتقًا مضافًا إلى محامد، والأولى أن يكون حالاً.

خفض صفة لمحامد، والمحامد: جمع محمودة، والمحمودة بمعنى الحمد، وهو الشكر، حمده كسمعه.

فكأنه يقول: فق الشخص الكثير العطاء بما تعطيه، أي غالبه في ذلك حتى تفوقه في حال كونك محكماً عرى محامد خلى عنها الذين ييخلون، أي لم يظفروا منها بسوء لفقدهم أسباب الظفر بها من المكارم والجود.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٥ - ودع ذا القلبي يجري القلاء ومن لُهي

تَعَوَّضُ ثَنَاءً تَشْتَهِيهِ لِهَاءُ

قوله: ودع: فعل أمر بمعنى اترك، أي: صاحب القلبي، بالضم والقصر: جمع قلة، وهي لعبة للصبيان، بل دع كل لهُو. والقلاء، بالمد والكسر: الحمر الخفاف، واحدها قلو. واللهي، بالضم والقصر: ما يضعه الطَّاحِنُ في فم الرحي. واللهاء، بالمد والكسر: جمع لهاء، وهي اللحمة الرقيقة الممتدة من منتهى اللثة إلى منتهى الحلق، ويجمع أيضاً على لهوات. كما روى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُدْخِلُ السَّوَاكَ إِلَى لِهَوَاتِهِ عِنْدَ الْاِسْتِيَاكِ حَتَّى يَقُولَ: هَقْ.

قال الشاعر: (من بحر الرجز)

يا لك من ثمر ومن شيشاء ينشب في المسعل والهلاء

فكأنه يقول: اترك صاحب اللعب بالقلبي يجري الحمر الخفاف، واتخذ عوضاً مما يجعل في فم الرحي من القوت ثناء عليك جميلاً تستلذه اللهاء لاشتهاه اللهاء له، المراد منه لازمه لكونه جميلاً باقياً محمود العواقب. وفي المثل: «خير المال ما أفاد شكراً واقتنى ذخراً».

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وما على مشتر حمداً بموهبة عَيْنٌ ولو كان ما أعطاه ياقوتنا

وفي مثل هذا يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

ذهاب المال في خير ومحمدة ذهابٌ لا يقال له ذهاب

ويروى أن ابنة هرم بن سنان وفدت على عمر رضى الله عنه في خلافته، فقال لها: ما أعطى أبوك هرم لزهير؟ فقالت له: خيلا لا تجارى، وإبلا لا تبارى، وثيابا فاخرة، وسيوفاً تنتضى. فقال لها: إن كان أبوك أعطاه ما يبلى فقد ألبسه ثناء لا يفنى.

وفي هذا البيت من بديع الكناية. وهى كناية عن اللهاء باشتهاؤها باستماع الثناء الجميل، فتمنى بذلك أن تكون سمعاً لأنها موضع إدراك الذوق، فتمنت بحبها الثناء ذهاب حاسته التى هى الذوق، فتستل منها حاسة الأذن التى هى سماع الثناء الجميل لفتوتها وعلو همة صاحبها؛ إذ عودها اختيار تلك على هذه؛ إذ ليس من شأنه حب الطعام واغتناء الحطام، بل دأبه الشغف بجميل الثناء لما يجرى على راحتيه من سنى العطاء، فأيامه بين اكتساب ذخر واستجلاب فخر، حتى صارت جوارحه لذلك يغار بعضها من بعض، حيث لم تهبأ لما هيئت له صاحبته من اكتساب المعالى، والثناء الغالى، الذى هو أعلى رتبة من الذهب واللالئ فتصير بذلك الثناء تحسد الأسماع.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

سلام كما أحيا أراهير عرّفه
فلا سمعٌ الا ودَّ أنه أنفُ

وقال آخر:

بَعْضِي يَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْضِي
وَيَحْسُدُ سَمْعِي فِيكَ نَاطِرِي

وقال آخر: (من بحر الكامل)

وتمنت الأعضاء لو كانت معاً
أذنًا فتسعد مثله بالسعد

وقال غيره: (من بحر الكامل)

فى جنة ما كان ألطف نشرها
حسدتُ عليه أنوفها الأفواه

فالبيت مشتمل على قول الشاعر: (من بحر الطويل)

وشتان ما بين اليزيديين فى الندى
يزيدٍ سليمٍ والأغرِّ بنِ حاتم

يزيد سليم سالم المال والفتى
فهمُ الفتى الأزدي تفريق ماله
أيحسبني القيسي أنى هجوته
وأبلغ ما قيل فى هذا الباب قول طرفة بن العبد (من بحر البسيط)

قالت طريفة لا تبقى دراهمنا
لكن إذا اجتمعت يوماً دراهمنا
لا يسكن الدرهم المنقوش صرتنا
وما لنا سرف فيها ولا خرقُ
ظلت إلى طرق الخيرات تستبق
لكن يمر عليها ثم ينطلقُ

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٦ - فكم فى العدى تحت العداة فتى له

ذرى كان فيها للعفاة ذراءُ

قوله: «فكم فى العدى»: الفاء: ترتيبية. وكم: تكثيرية. فى العدى: جار ومجرور، وهى بالضم والقصر: جميع عدوة أى: ما علا وارفع من جانبي الوادى وغيره، قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الأنفال: ٤٢]. وربما سُمى بالعدوة الإقليم؛ فإن الأندلس والغرب يسميان العدوتين، كما فى «النفح» والعداء، بالمد والكسر: ما يوضع على الميت من حجارة وخشب. والذرى، بالضم والقصر: جمع ذروة، والذروة، بالضم والكسر، ما علا كل شىء. والذراء بالمد والكسر: جمع ذرى، وهى الحصون التى يلجأ إليها ويتمنع بها. والمنعة حيث كانت يقال لها ذراء، وإذا فتح فإنما هو ذرى الشجرة مما يترفق به للدفء ونحوه.

فكأنه يقول: كانوا ذوى حصون تأوى إليها العفاة، أى طلابُ المعروف، فتجد بها ما تنتفع به من أمن الخائف وإشباع الجائع.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ومن يآته من خائف ينس خوفه
ومن يآته من جائع البطن يشبع

ومع ذلك فإنه ذكر لا يغنى من دهاء الموت شيئاً؛ إذ الموت لا يبقى على ذى فضيلة لفضله، ولا يمهل صاحب معروف لمعرفه، وإنما قصارى صنائع المعروف أن تقى مصارع سوء دنيا وأخرى، كما روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «عليكم بصنائع المعروف فإنها تقى مصارع السوء»^(١).

كما وقع كثيراً حتى صار كالعادة: فمن ذلك قضية محمد بن حمير مع الحية، وكان رجلاً صالحاً ساكناً في البيداء، وكان يتصيد لذلك، فبينما هو يسير ذات يوم وقد رجع من قنصه إذا بحية تهوى نحوه وتخاطبه بلسان فصيح: أن أجرنى من عدو لي جد في طلبى؛ فإنه بلغنى عنك أنك ذو معروف! فقال لها: هلم فادخلي فى كمي، فقالت له: إن ذلك لا ينجيني من عدوى، فقال لها: وما ينجيك؟ قالت: لا ينجيني إلا أن أدخل بطنك، فقال لها: أخاف على نفسى، فقاسمته وأعطته المواثيق أن لا تضره، وقالت له: كيف أتسبب فى هلاكك وقد صرت سبباً لنجاتي؟! ففغر لها فاه، فانسابت، فدخلت بطنه، فلم ينشب أن جاء الطالب، فقال له: يا محمد ابن حمير إن عدوى عندك فأعطني أقتله بأخى، فقال له: إني لم أر لك عدواً، فإن لم تستيقن بقولى فهلم ففتشنى، ففتشه، فلما لم يجد الحية انصرف، فلما بعد قال لها: اخرجى إن عدوك قد بعد، فأخرجت رأسها من فيه لتسبر ما قال لها، فلما استيقنت أنه قد بعد انكلمت إلى جوفه فقالت له: اختر إما أن أفنت قلبك أو كبذك أو كليتك، فقال لها: سبحان الله ما على هذا عاهدتني ولا عاقدتني، فقالت له: إن العداوة القديمة لا تزيلها الصداقة الحادثة، فقال لها: إن كنت ولا بد فاعلة فاتركيني حتى أصلى ركعتين وأهيمى لنفسي مكاناً أموت فيه، قالت له: أفعل، فصلى ركعتين، ثم رفع بصره إلى السماء وقال: يا أرحم الراحمين، ثلاث مرات، أجرنى أجرنى من عدوى، فلم يستتم قوله حتى نزل عليه من السماء فارس، عليه ثياب خضر، وتحته جواد أبلق، وإذا بيده ثلاث ورقات خضر يقطر منهن الماء، فناوله واحدة وقال له: ابتلعها، فابتلعها، فما هي إلا أن استقرت فى بطنه حتى عربدت الحية فتقطعت إرباً إرباً، ثم ناوله الثانية، فأخرجت أجزائها ودماءها من دبره، ثم ناوله الثالثة، فأذهبت ألم سمها ووجد لها

(١) حديث: «صنائع المعروف» تقدم تخريجه.

برداً، فلما استراح من سمها قال له الفارس: أتعرفنى يا محمد؟ قال: لا، ولكنى علمت أنك من ملائكة الله أو من عباد الله الصالحين، فقال له: أنا المعروف، وفى رواية: الإحسان، وكنت فى السماء السابعة، فلما قلت: يا أرحم الراحمين أول مرة أمرنى الله بإغاثتك، فلما قلتها المرة الثانية بلغت سماء الدنيا، فلما قلتها الثالثة أتيتك فلا تترك صنائع المعروف؛ فإنها إن ضاعت عند الخلق لم تضع عند الخالق^(١).

وحيث فعل صانع المعروف فينبغى له أن يقصد بها وجه الله ليأتى بها على وجهها النافع، فإن كل شىء هالك إلا وجهه.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٧ - ثوى فى ربي ينفى الرباء انتيابها

بها لموافيها كفى وكفاء

قوله: ثوى، أى: أقام. فى ربي: جار ومجرور، والرُّبى، بالضم والقصر: جمع ربوة، وهو ما ارتفع من الأرض. قال الله تعالى: ﴿وَأَوْيَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وذلك أن عمران أبا مريم كان إمام بنى إسرائيل وعالمها ومن أفضلها مكاناً وأعبدها، وكانت زوجته حمنة امرأة صالحة، وكانت بنو إسرائيل حينئذ على الحق، ومن أفضل عالم زمانهم، فلما أحست حمنة بالحمل قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أى: حبيساً محرراً من طلب الدنيا والاشتغال بها، موقوفاً على خدمة بيت المقدس، وقمه، والاشتغال بمصالحه، والعبادة فيه.

ثم لم ينشب عمران أن سات وحمنة حبلى بمريم، وكانت تظن أن ما نما فى بطنها ذكر، فلما وضعتها نظرت إلى رجاء منها أن تكون ذكراً: إذ هو الذى يصلح لخدمة المسجد لخلوه من الحيض المانع لدخول المسجد مدة ومن العادة حينئذ، ولأن الذكر أقوى على الخدمة من الأنثى، وأسلم من الحياء المانع من مزاحمة الرجال،

(١) ما أشبه هذه القصة بالقصص الخرافية!!

فلما وجدتها أنثى قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِن لَّدَكَ لَآلُئُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] أى: العابدة فى لغتهم، ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا ونخس الشيطان فى خاصرته حين يوضع، وذلك حين يستهل صارخًا، إلا ما كان من مريم وابنها عيسى فإنه أتى ليظعن، فظعن فى الحجاب»^(١) لدعوة أم مريم، ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]: بأن نشأت فى النسك والعبادة.

وذلك أنها لما ولدت تنافست فى كفالتها رؤساء بنى إسرائيل؛ فأخذوا أقلامهم لينظروا أيهم يكفل مريم، فكتبوا عليهم أسماءهم وألقوها فى بحيرة الأردن، فرسبت أقلامهم وطفًا قلم زكرياء؛ فعلموا أنه أحق بكفالتها، فبنى لها بيتًا فى بحبوحة المسجد، وجعل من دونها ثلاثة أبواب، وكان رجلاً مقلًا، فضاق ذرعًا بكفالتها لضيق حاله وقلة ماله، ولم يكن له بد من كفالتها لمكانة خالتها منه، وعلم أن الله لم يرض لكفالتها غيره؛ فكان كلما دخل عليها وجد عندها رزقًا، فيقول لها: يا مريم أنى لك هذا والأبواب مغلقة ولا يدخل عليك غيرى؟! فتقول له: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فطابت نفسه، واتسع لكفالتها صدره لما رأى ما آتاه الله من الكرامة، وعلم أنه معان عليها، وأنها من إماء الله الصالحات القانتات. وكانت تقوم حتى تتورم قدمها من القيام.

واختلف فى الرزق الذى كان يأتيها؛ فقيل: هو من الجنة، وقيل: هو من الكون.

يروى أن النبى ﷺ دخل على ابنته فاطمة يوماً وقد وقعت فى المدينة مجاعة عظيمة، فوجد عندها طعامًا زكى الرائحة؛ فقال لها: من أين لك هذا الطعام؟

(١) حديث: «ما من مولود»... إلخ. صحيح أخرجه البخارى وغيره، ولفظه عند البخارى: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد؛ فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها. ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، وهو عنده فى كتاب التفسير وأحاديث الأنبياء، ولا عبرة فى ظعن صاحب الكشاف فى معنى هذا الحديث وتوقفه فى صحته، والله أعلم.

فقلت له: هو من عند الله، رزقيه رزقاً؛ فاستبشر ﷺ حتى أضاء جبينه الجدران، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمي من يأتيه الرزق من عند الله كمریم ابنة عمران^(١).

وكانت مریم رضى الله عنها رائعة الجمال لم يكن في زمنها من يماثلها جمالاً ولا كمالاً، وكانت تشب شباباً لا يشبه غيرها، وكانت تحتطب كل يوم لبيت المقدس حتى بلغت. فخرجت يوماً تحتطب على عاداتها، فتمثل لها جبريل على صورة فتى جميل، فعارضها، فلما رآته انصرفت فإذا هو أمامها، ثم انصرفت يميناً فإذا هو أمامها، ثم انصرفت شمالاً فإذا هو أمامها، فلما تيقنت أنها لا تفوته وقفت وقد ذعرت وطاش لبها، فلما رآته يقصدها قالت له: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مریم: ١٨]، فقال لها جبريل ليذهب روعها ويسكن جأشها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مریم: ١٩]، فكان بيده كف من التربة التي خلق منها آدم عليه السلام، وكان الله قد استودعها رضوان خازن الجنان، فلما أرسل الله جبريل إلى مریم أخذها من رضوان ليلقيها في رحم مریم، فلما خاطبها وسكن جأشها قالت مجيبة لجبريل: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مریم: ٢٠]، فقيل: إنما قالت ذلك استبعاداً، وقيل: إنما قالتها حملاً على العادة البشرية ولتختبر ما عند جبريل من الأمر الخارج، فقال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مریم: ٢١]، فألقى التربة في رحمها، ونفخ؛ فعلق بعيسى عليه السلام.

وكانت بعد ذلك إذا ذهبت إلى الحطب تذهب معها أختها زوجة زكرياء أم يحيى، وكانت جبلى بيحى، وكانت تقول لمریم كلما انصرفتا إلى الحطب: يا أختاه، هل رأيت زرعاً من غير زارع؟ فتقول لها: إن الله يفعل ما يشاء، فلما أكثرت عليها من السؤال قالت لها: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك، فأخبرتها بقصتها، واستكتمتها.

فلما أخذها المخاض فرت من المدينة حياءً من قومها وخوفاً منهم أن يرموها بالزنى؛ فبعث الله إليها قوابل من الحور العين ليتولين ولادتها وملكاً يهديها إلى

(١) كون النبي ﷺ دخل على فاطمة ابنته... إلخ. هذه القصة لا أظنها ثبتت مع أنى لم أجدها بهذا السياق عند أحد يعتد بنقله، والله أعلم.

بيت لحم، وكان يومئذ ربوة ذات ماء ونخيل، فأومأت إلى جذع نخلة من تلك النخيل فولدت تحتها، فأمرها الله تبارك وتعالى أن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب؛ ففعلت، فأمرها الله تبارك وتعالى بأكله على وجه التداوى وليذهب عنها ما تجده النفساء من المغص.

قال رسول الله ﷺ: «لو علم الله أن شيئاً أنفع للنفساء من الرطب لأمر مريم بأكله»^(١).

فمن يومئذ اتخذت النفساء الرطب في دواء المغص.

واختلف في المدة التي مكثت مريم وابنها عند بيت لحم، وهو الذي عناه الله بقول: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] وإنما وصفها الله بالقرار والمعين لارتفاعها وبهجتها وكثرة ثمارها وفواكهها، مع كون مأثها معيناً يرى بالعين، ويؤخذ باليد من غير مؤونة، مع كونه عذباً زلالاً. وقيل: مكثت ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أربعين يوماً.

فأتاه الله العلم والحكمة وهو في المهد والقماط، كما علم آدم عليه السلام الأسماء كلها وهو بين الطين والماء، لما بينهما من المناسبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فلما انقضت المدة التي أمرها الله فيها بالصوم، وهو ترك الكلام، أمرها الله تبارك وتعالى بالرجوع إلى قومها؛ فرجعت إليهم تحمله، فأقبلت عليها بنو إسرائيل، فمنهم من يلومها، ومنهم من يتعجب، ومنهم من يشتمها، ومنهم من يقول: ارجموها، ومنهم من يقول: حرقوها بالنار، وهي ثابتة لم تكترث ولم

(١) حديث: «لو علم الله أن شيئاً أنفع للنفساء... إلخ. موضوع أورده ابن الجوزي في موضوعاته، وأوله: «أطعموا نفساءكم في نفاسهن التمر»، وآخره: «ولو علم الله طعاماً كان خيراً من التمر أطعمها إياه». اهـ.

وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وسليمان راويه قال فيه أحمد بن حنبل: يضع الحديث، وقال يزيد بن هارون: لا يحل لأحد أن يروى عنه، وقال النسائي والدارقطني: متروك، وقال يحيى بن معين: سليمان وداود بن سليمان كذابان (٢٧/٣).

وأورد أوله صاحب الكشف تحت رقم ٣٩٠ وقال فيه: قال ابن حجر: رواه عبد الله بن المنذر بسند فيه كذاب (١/١٤٩)، والله أعلم.

تجبههم بشيء. فلما سكتوا أمرتهم أن يسألوه؛ فقالوا لها: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، فترك الثدى، وكان في فيه، ثم أقبل عليهم بوجهه وقال لهم: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠) وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣]؛ فكف عنها بعض الناس، وشقى من شقى فنسبه للسحر.

وهو من جملة الأربعة الذين تكلموا في المهد: منهم: شاهد يوسف وزليخا، وهو عيسى، وصاحب جريج، والصبي الإسرائيلي الذي مرت عليه امرأة تُسحب وتُضرب وقد اتهموها بالسرقه، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها؛ فترك الثدى وقال: اللهم اجعلني مثلها؛ فإنهم يسبوننها ويتهمونها ويضربونها وهي بريئة. ثم مر عليها رجل ذو هيئة وهو في غاشيته؛ فأعجبها زيه ومن معه من أعوانه؛ فقالت: اللهم اجعل ابني مثله؛ فترك الثدى وقال: اللهم لا تجعلني مثله؛ فإنه جبار شقى. ومنهم مبارك اليمامة فإنه أتى به رسول الله ﷺ، فقال له: من أنا؟ قال: أنت رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: صدقت بارك الله فيك؛ فسمى من يومئذ: مبارك اليمامة.

قوله: «ينفى الربا»، أى يزيل ويذهب، مضارع نفى. الرباء، بالكسر والمد: مفعوله، وهو الحذر والخوف، وهو مصدر ربأت. وانتياها: النزول به المرة بعد المرة، وهو بالرفع فاعل ينفى. والرباء، بالكسر والمد: مفعوله. والكفى، بالضم والقصر: جمع كفية، وهو الكافي من الأوقات. والكفاء، بالكسر والمد: الطاقة، يقال: لا كفاء له بذلك، أى: لا طاقة له، وموافيها: الذى يأتيها.

فكأنه يقول: أقام ذلك الفتى الذى تحت العداء فى العدى فى أمكنة مرتفعة من الأرض حصينة لا خوف على من ثوى بها؛ لأنه بمجرد نزوله فيها المرة بعد المرة يزول حذرهما، وكذلك كل من يوافيها وعنده من القوت ما يكفيه وما يطيقه، ومع ذلك فقد انتقل عنه إلى القبور؛ فصار مقيماً تحت الخشب والصخور، فاعتبر أيها الموفق بمثله ومثاله، ولا تغترر بماله ولا حاله، فإنه إلى الزوال يؤول، ولو لابسهُ الطول.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٨ - وَذَاتَ الْعُجَى يَحْمِي الْعِجَاءَ بِهَا الْأَلَى

وَفُتَّ عَزَمَاتٌ مِنْهُمْ وَإِلَاءُ

قوله: العجى، بالضم والقصر: جمع عجاية، وهو عصب سوق الخيل وأذرعتها مما يلي السنايك. والعجاء، بالكسر والمد: جمع عَجْرٍ، بالفتح: وهو ضرب من ثمار المدينة رطب أحمر، وفيه ورد الأثر الشريف عن رسول الله ﷺ قال: «من أكل في يوم سبع تمرات من العجوة أمن من القولنج»^(١). ويليهِ في الجودة البرنى.

وفي كتاب «الدرر» أن أجودَ التمر نوع بالبصرة يقال له: الرب، إذا أكله الإنسان وجد له لذة في جميع جسده.

وقال ﷺ: «بيت لا تمر فيه جياح أهله»^(٢).

وكان إذا أتى بباكورة من التمر مسحها على وجهه ثم ناولها من يله.

وكان يقول: «أكرموا عمتكم النخلة ولو بدفن نواها»^(٣).

وسأل يوماً أصحابه عن شجرة هي مثل المؤمن، فوقع أصحابه في شجر البادية، فلما لم يعرفوها قال لهم: «هي النخلة». فلما انصرفوا قال ابن عمر لأبيه عمر: والله لقد وقع في نفسى أنها النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم فاستحييت أن أخبر بها رسول الله ﷺ، فقال عمر: لو أخبرته بها لكان ذلك أحب إلى من حمر النعم»^(٤).

(١) حديث: «من أكل في يوم سبع تمرات»... إلخ. متفق على صحته بدون «من القولنج». ولفظ البخارى: «من تصبِح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر». اهـ. وهو عنده في كتاب الأطعمة.

(٢) حديث: «بيت لا تمر فيه جياح أهله» صحيح رواه مسلم وأحمد والترمذى وأبو داود فى كتاب الأطعمة. وأورده السيوطى تحت رقم ٣١٦٥. والله أعلم.

(٣) حديث: «أكرموا عمتكم النخلة»... إلخ. موضوع أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٤٣٠) وابن عدى (١/٣٣٠) وأبو نعيم. وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٢٦٣، وفيه زيادة على لفظ الشيخ، وقال: موضوع، والله أعلم.

(٤) قصة ابن عمر مع النخلة صحيحة.

الألى، بالضم والقصر: اسم موصول بعنى الذين. وإلاءً، بالمد والكسر: جمع إلوة، والإلوة، مثلث الهمزة: اليمين، وهى لغة رديئة جىء بها على غير القياس، والقياس فيها ألية، بإبدال الواو ياء كما قال على رضى الله عنه: (من بحر الكامل)

ألى ابن عبدٍ حين شدَّ ألية وحلفت فاستمعوا من الكذاب
أن لا يفر ولا يهمل فالتقى أسدان يتقيان كل ضراب^(١)
نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصرتُ رب محمد بصواب

وهى قصيدة طويلة جداً ضربت عن عزوها للاستغناء عن جلب سائرهما.

والعزمات: جمع عزمة، بالفتح وسكون الزاى: وهو مصدر عزم على الأمر: أراد فعله، وصمم عليه، أو جد فيه.

يعنى أن الذين وقت عزائمهم على الأمور، وبرت أيمانهم أن لا يفرطوا فى أموالهم، بل دأبهم أن يعالجوا فى تميمها، ويسعوا فى إصلاحها، ويباشروا ذلك بأنفسهم؛ فحيوا ثمار نخيلهم وأشجارهم بسقيهاً بالنواضح القوية ذات العجى من خيل وإبل وبغال، وذلك لا ينافى توكلهم، ولا يحط من مراتبهم العلية قدر نواة، بل ذلك مما يزيد فيه، بل هو عين التوكل على الله تعالى، فإن الله تعالى قد شرع الأسباب، وجعل لكل شىء سبباً يكون عنده لا به.

ومباشرة الأموال وحفظها كان دأب الأنصار رضوان الله عليهم؛ فقد كانت لهم ضياع يسنون إليها بالإبل النواضح، وهم ممن قد ثبت أجرهم على الله وفضلهم على الناس على لسان رسوله الصادق المصدوق، يقول: «لو أن أحداً أنفق ملء الأرض ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه»^(٢).

ولقد صدق الله نبيه بقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ [الحديد: ١٠].

(١) هذا الشطر غير واضح بهذه الرواية، والرواية الصحيحة:

* أسدان يضطربان كل ضراب *

(٢) حديث: «لو أن أحد أنفق... إلخ. متفق على صحته، رواه الجماعة، ولفظه عند البخارى: «لا تسبوا أصحابى، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» (كتاب المناقب).

وفى بيان قيامهم بإصلاحهم على أموالهم حديث أبى هريرة مع ما هم عليه من الفضل والجهاد والأثرة، حديث أبى هريرة المشهور المخرج فى جميع الأسانيد، وهو قوله: قالوا: أكثر أبو هريرة؛ والله ما أكثرت؛ فقد أخذت عن رسول الله ﷺ جرابى علم: أما أحدهما فقد بثته، وأما لآخر فوالذى نفس أبى هريرة بيده لو قلت لكم منه كلمة لقطعتم هذا البلعوم قبل أن أتمها، أما إخواننا من الأنصار فقد أشغلهم عن حضور بعض مجالس رسول الله ﷺ إصلاح أموالهم، وأما المهاجرون فقد شغلهم الصفق بالأسواق، وأما أنا فكنت أأزم رسول الله ﷺ على ملء بطنى، فكنت أشهد من الأمور ما لم يشهدوا، وأعى من أحاديثه ما لم يعوا، ولقد شكوت إليه النسيان، فقال: انشر ثوبك، فنشرته، فقال ما شاء الله أن يقول، ثم قال لى: ضم إليك ثوبك، فضممته إلى، فما نسيت بعدها شيئاً أريد ذكره^(١).

وكان عمر رضى الله عنه إذا أتاه الوفد تفتن لأيدى مصافحيه؛ فولى عليهم أحسنهم يداً من أثر العمل.

وفى الخبر: إن الله يبغض الشاب الفارغ.

(١) حديث: «قالوا: أكثر أبو هريرة»... إلخ. مؤلف من حديثين صحيحين:

الأول: رواه البخارى ومسلم والنسائى وأحمد، وأوله: «إنكم تزعمون أن أبى هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، والله الموعد، إني كنت امرأة مسكيناً أصحب رسول الله ﷺ على ملء بطنى.. إلى آخر الحديث»، وله روايات كثيرة.

والثانى: حديث: «أخذت من رسول الله ﷺ جرابى علم»... إلخ. فهو صحيح كذلك رواه البخارى بلفظ: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثته، وأما الآخر فلو بثته لقطع هذا البلعوم»، وفى رواية لأحمد: «لو حدثتكم بما سمعت لرميتونى بالقشع». والذى يظهر لى - والله أعلم - أن الجراب الثانى إنما هو أسماء الملوك الذين أخبر ﷺ بأن هلاك الأمة على أيديهم، ويخاف إن ذكر أسماءهم أن يؤذى.

أما كون هذا الحديث دليلاً على العلم الباطن فلا يتأتى ذلك لاعتبارين:

الأول: أنه لو كان هذا الجراب علم الباطن لكان النبى ﷺ كتم شيئاً مما أمر بتبليغه؛ وهذا محال، وإن لم يؤمر بتبليغه فمن أين علمه أبو هريرة؟! وإن قلنا بالخصوصية فهذا على رضى الله عنه يقسم وهو على المنبر بعدم الخصوصية.

الثانى: أن هذا الجراب لو كان على الباطن فأبو هريرة لم يقله لأحد خوفاً على نفسه كما قال، فمن أين وصل إلى القائلين به؟! والله أعلم.

وقال ﷺ: ليس المتوكل من فعل هكذا - وقبض يديه - ولكن المتوكل من وضع يده في الأرض وتوكل على الله في إخراجه ليغنى بذلك نفسه عن التكفف.

وأتى بهذا البيت تسيهاً على أن العزلة وترك التسبب والكد في تحصيل المال الحلال لا يفضل فاعله على من فعل ذلك تعففاً وتعطفاً على العيال، كما يورثه ما تقدم من قوله «ومردى بمرداء لدى متوكل... إلخ»، فإنهما طريقتان توصلان إلى الله، جعل لكل منهما رجالاً، فهذا مجتهد صابر، وهذا محسن شاكراً، وكل منهما مجاهد مصابر؛ لأن الله قسم بين الناس أعمالهم كما قسم بينهم أرزاقهم ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِنِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، فإن الله عبادة لا يصلحون إلا للغنى، فلو أفقرهم لهلكوا، ومنهم من لا يصلح إلى على الفقر، فلو أغناهم أهلكتهم الغنى، ومنهم من لا يصلح إلا على الدؤوب على العمل، فلو منعهم من العمل لهلكوا، ومنهم من لا يصلحه إلا الكف عن العمل والمنع فلو خلى بينه وبين العمل لهلك؛ فهو أعلم بمصالح عباده.

والحاصل أن الطرق إلى الله بعدد النجوم في السماء، وكلها موصلة إلى الله تعالى ما اجتنب الشرك والمعاصي: (من بحر الطويل)

عبارتنا شتى ومعناك واحد وكل إلى ذاك الجمال يُشيرُ

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٩ - وَيَحْمِي الْمُهَيَّ ضَرْبُ الْمِهَاءِ طُلَى الْعَدَا

إِذَا لَمْ تُوَاصَلْ قَيْنَةً وَطِلَاءً

قوله: «ويحمي المهَيَّ»: مضارع حمى. والمهَيَّ، بالضم والقصر: مفعوله، وضرب: فاعله، وهو ماء الفحل في حياء الناقة. والمهَاء، بالكسر والمد: السيوف الرقائق، واحداها مهوى؛ وسمى بذلك لكثرة هويه إلى الضرب، وهوى: صاحبه حينئذ. والطلَى، بالضم والقصر: الأعناق، وإحداها طلية، مبالغة في الطول؛ لأن العرب تمدح بطول العنق، فيقولون: فلان طويل النجاد عبارة عن طول العنق والصدر. والنجاد: علاقة السيف، ويقولون: كأن عنقه جيد دمية وإبريق فضة.

وقال الشاعرُ: (من بحر الوافر)

ورب أسيلة الخدين بكر
مفهفة لها فرع وجيدُ
أى فرع كحيل وجيد طويل.

وقال الشاعر: (من بحر الطويل)

طوال النجاد طيبُ حجزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباب

والطلاء، بالمد والكسر: من أسماء الخمر، وبالفتح: الخلق، والقطران أيضاً.
والقينة: الأمة المغنية. ومواصلة الشيء: المواظبة عليه.

وكأنه يقول: لا يحمى الماء الذى فى أرحام الإبل، وهو أتنه تافه فضلاً عن
كرائم الأموال، إلا أن تضرب دونها أعناق العدو بالسيوف الجياد المعدّات للمهوى
إلى ضرب الأجياد الرقاق المتون، بشرط العدل والتقى المعبر عنهما بقوله: «إذا لم
تواصل قينة وطلاء»، أى: إذا لم يواظب على الخمر والغناء، فإن فعل لم ينفعه
سيفٌ ولا سنان، كما رفع النصر عن أهل الأندلس لما اشتغلوا بالشرب، وانهمكوا
فى سماع الشعر والضرب، فسلط الله عليهم عبيدهم من الروم؛ فأبادوا خضراءهم
بعد العز الباذخ والعلو الشامخ؛ فأصبحوا أحاديث بعدما كانوا وجوه الناس؛
ففيهم كانت الفرسان والأبطال، والعلماء الأجداد، والكرماء الأجواد، والأولياء
الأطوال، فصاروا كالأمس الذاهب، واستوى فى العبرة بهم الحاضرة مع الغائب؛
فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ومما يفتت الأكباد بكاء بعض علمائها يبكى ملة الإسلام وأهلها، والأندلس
وفلها، ولم يبق فى حفلى منها إلا القليل، فمطلعها: (من بحر البسيط)

لكى شيء إذا ما تم نقصانُ
فلا يغر بطيب العيش إنسانُ
وهذه الدار لا تدوم على حال
ولأبقى على أحد له شأنُ
أما لكم نبأ بأهل أندلسٍ
فقد مضى بحديث القوم ركبَانُ

(١) هذا البيت هو هكذا فى النسختين، ووزنه لا يستقيم ولعله:

وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شأن

والله أعلم.

ماذا التقاطعُ والإسلامُ ملتكمُ
 يا أيها الملك البيضاء رأيتُه
 يا راكبين جياذ الخيل ضامرةً
 وحاملين سيوفَ الهندِ مرهفةً
 تبكى الحنيفةُ البيضاءُ من أسفٍ
 حتى المساجدُ تبكى وهي جامدةٌ
 فلو رأيت بكاهم عند بيعهم
 وطفلة ما رآتها العين جمالاً
 يقودها العليجُ للمكروه مكرهه
 وفرقوا بين أبناء ووالدةٍ
 لمثل هذا يذوب القلبُ من أسفٍ
 فأين حمصٌ وما تحويه من نزه
 وأين قرطبةٌ دارُ العلوم بها

ثم جعل يعد مدنها ومرافقها وحصونها وحدائقها؛ إذ ليس في معمور الدنيا
 مثلها بهجة، ولا مثل أهلها ظرفاً وفطنة، فلما غيروا غير الله بهم، كما قال
 تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾
 [الرعد: ١١].

ويروى أن الإسكندر سأل علماء بابل أيهما أبلغ في دفع العدو عنكم الشجاعة
 أو العدل؟ قالوا: إذا استعملنا العدل استغنيا عن الشجاعة.
 ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان.
 وفي الحكم: إذا رغب الملك عن العدل رغب الرعية عن طاعته.

(١) هذا البيت لا يستقيم وزنه إلا أنه بتحريف بسيط يستقيم الوزن ليصبح:
 وطفلة ما رأت عيني مائلها كأنما هي ياقوت ومرجان

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو خراب مدينة باليمن ويسأله عما يرمُّها^(١) به؛ فكتب إليه عمر: قد فهمت كلامك، فإذا قرأت كتابي فحَصِّنْ مدينتك بالعدل، ونَقِّ طرقتها من الظلم؛ فإنه مرمتها، والسلام.

ويروى أن الله رخص في كل شيء إلى في ثلاثة: العدل، والذكر، وأداء الأمانة.

فقال في العدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

[المائدة: ٨].

وقال في الذكر: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، ولم يرخص في تركه بحال؛ فهو ملازم للمؤمنين ملازمة الروح للبدن، فيلقن الذكر وروحه تنتزع بين لحمه ودمه وسكرات الموت تغشاه، بل يطالب به بعد مفارقة الروح للجسد، فقد صار تحت أطباق الثرى، وذلك كله عناية من الله تعالى لعبده المؤمن؛ ليرى ملائكته الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] ملازمته ذكره، وثباته على توحيدهِ، ومدافعتِهِ جنود الغواية عند النزاع بالثبات، وإلا لما قام بهذا الخطب الجليل وقد تُلَّ عرش حياته بحلول طود مماته، وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وأما أداء الأمانة فإن الله يقول في شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك».

يروى أن الصحابة لما فتحوا الأقاليم واستولوا على العراق وخراسان وكرمان وسجستان والرق وإصطخر وفارس وبابل وما وراء النهر استغاث كسرى بخاقان بعد ما خرج من جميع مملكته.

فلما جاءه رسول كسرى قال له: قد علمت أن صاحبك لم يُرسلك إليَّ حتى اختبر عقلك وذكاءك واختارك على جميع من معه، ولقد بعثك في أمر عظيم نزل به، وإني مما نزل به لفي وجل أن ينزل بي مثله، ونصرة الملوك على الملوك واجبة،

(١) يرمُّها: يصلحها.

وإني سألتك عن هؤلاء القوم الذين استولوا على هذه الأسم العظيمة بالقهر والغلبة، ودخول هذه الممالك الواسعة في هذه المدة القصيرة: أكثرهم هم؟ قال: لا، بل قليلون؛ فقال له: فكيف عدتهم وخيولهم؟ فقال: أما عدتهم فإن أكثرهم حُسْرٌ أى: لا دروع لهم، ومنهم من لا سلاح له، قال: أحضرت قتالهم؟ قال: حضرته مراراً، قال: صف لي قتالهم، قال: إذا شدوا صدقوا، وإذا شدنا عليهم صبروا، ولا يكثرئون بعدد ولا بعدد، يذكرون ربهم على كل حالة، ويتلون كتابهم في غمرات القتال، لا يظفرون ولا ينقضون، صنوفهم في صلاتهم كصنوفهم في قتالهم، رهبان بالليل أسد بالنهار، وكلمتهم واحدة، وأمرهم سواء، لا يتكبر شريفهم على مشروفهم، ولا يحيف قويهم على ضعيفهم، ولو سرق أميرهم قطعوه، ولو زنى لرجموه. ثم قال له: أيحرمون شيئاً ثم يأتونه؟ قال: لا، إذا حرموا شيئاً اجتنبوه، فقال له الخاقان: أما هؤلاء فليس لأحد بهم قبل، ولو حاولوا زوال جبل لأزالوه ما لم يغيرهم الدهر، ولكن ارجع إلى صاحبك، وأخبره بأني محمده بالجنود بعد الجنود، مع أني أعلم أني لا أغني عنه شيئاً، وإني لأخافهم على ما تحت قدمي، ولكنني أغنيك إذا استعنت بي، والقوم قد حصنوا أنفسهم بالتمسك بدينهم، فلن يُغلبوا ما تمسكوا به، ولا حيلة لأحد في قهرهم؛ لأنني سألتك: هل كانوا ذوي عدد؟ وذكرت من قتلهم، فلو كانوا قد غلبوكم بالعدد غلبناهم به حتى نظهر عليهم أو نُعذر في أمرهم، ولو كانوا قد غلبوكم بتضاعف العدد لفتحنا خزائنا حتى لا يقاومنا في ذلك أحد؛ فنحن الملوك وأرباب الحصون وأهل الحلقة والسلاح والبيض والنطاح.

ثم أخذ في الأهبة والتهيؤ والتسيير، ثم قال له: ارجع إلى صاحبك، وأخبره أن موعدنا جلولاء؛ فرجع إليه وقد رأى من المساكين ما لا قبل لأحد به إلا الله تعالى.

فلما أتاه رسوله حشد فارس ومن تجمع إليه من أهل الجبال [وما أمدته به أطراف الروم]. وقصد جلولاء على ميعاد خاقان.

وبلغ الخبر الصحابة برجع كسرى وإمداد خاقان؛ فاجتمعوا وتأهبوا للقاء مع قتلهم، وقد أرسلوا يزيد إلى عمر رضى الله عنه ليخبره بما توجه إليهم من إمداد

خاقان، ورجوع كسرى بعد الهزيمة، وانضواء فارس إليه وأهل الجبال، وما أمدت به أطراف الروم، وقد أقبلوا معهم على الصعب والذلول.

فلما بلغ ذلك أهل المدينة جعلوا كلما صلوا يرفعون أيديهم بالضراعة إلى الله تعالى يستنصرونه لأصحاب رسول الله ﷺ.

ثم إن جنود خاقان سبقت جنود كسرى، فعسكرت بين البحر وجلولاء.

وكان من عادتهم إذا أرادوا السير إلى أحد أن يقدموا ثلاثة من أشرفهم مع كل واحد منهم دُفٌّ، ويتفاوتون على قدر شرفهم، فيأتي الأول ويضرب دفة ضربات، ثم يقف على ربوة مشرفة، ثم يأتي الثاني فيفعل مثل ذلك، ثم يأتي الثالث فيفعل مثل ذلك، ثم يأتي العسكر بعد ذلك، فيسيرون إلى عدوهم.

وكان في عسكر المسلمين الأحنف بن قيس وقد بلغه ذلك من عادتهم، فذهب وحده بليل يرصد الفوارس ليقتلهم، فلما ضرب الأول دفة حمل عليه الأحنف فتطاعنا، فلم يلبث أن قتله، فغيب فرسه. وأخذ دفة بيده، ثم قام مكانه حتى أقبل الثاني، فحمل عليه، فلم يلبث كذلك أن قتله، ثم جاء الثالث، ففعل به مثل ما فعل بصاحبيه، فأخذ خيولهم وأسلحتهم، وكسر الدفوف وشققها، وغادر كل واحد عند رأس صاحبه.

فأقبلت عساكر العجم بغلس، فلم يفاجئهم إلا أصحابهم وهم بالدماء مضرجون ودفوفهم عند رؤوسهم مخرقة؛ فذعروا وتشاءموا، فبعثوا فوارس منهم لتقتص الأثر، فوجدوه فارساً واحداً، فازدادوا رعباً لذلك؛ فرجعوا إلى خاقان وأخبروه بما رأوا، فأمرهم بالانصراف، فقال لهم: هذا ما لم يقع قط، فأمرهم بالانصراف، فانصرفوا راجعين.

فقال له بعض وزرائه: أترجع من غير قتال؟ قال له: السلامة ظفر، فإن القوم مصنوع لهم، تقاتل فعهم الملائكة، وينصرهم إله السماء، وقد علمتم من قول لصاحب فارس أن لا قبل لنا بهم. وقد بلغني أن نبيهم أمرهم بترك الترك، فقال لهم: «اتركوا الترك ما تركوكم»^(١). ولن يغلبوا ما تحصنوا بدينهم وأقاموا شريعتهم.

(١) حديث: «اتركوا الترك»... إلخ. ضعيف جداً أورده ابن الجوزي في موضوعاته، وقال: =

فبعدهما انصرف خاقان بيوم أقبل كسرى في عساكره من فارس والروم وأهل الجبال، وأمر الأحنف الصحابة بالمسير إليهم ليلاً، وأن يجعل كل واحد منهم على سنان رمحه شعلة نار ومصباحاً؛ ففعلوا، فلما دنوا من عساكر كسرى ورأوا ما دبر لهم الأحنف ظنوا أنها عساكر الجن؛ فذعروا، فوطئ الصحابة أكتافهم يقتلون ويأسرون، وانحاز كسرى إلى دير خراب، فرآه بعض فارس من عاهد المسلمين وعاقدهم، فقتله، واجتز رأسه، وأتى به أمير العسكر؛ فسجد لله شكراً، وظهر مصداق قول رسول الله ﷺ: «إذا مات كسرى فلا كسرى بعده»^(١).

فالبیت مقتبس من حديث قدسي يرويه عنه عن ربه: «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني».

يروى أن الله تعالى لما سلط بختنصر وأهل بابل على بني إسرائيل، فجاسوا خلال الديار، فقتلوا وسبوا، ودمروا، وخربوا بيت المقدس، وردموه بالتراب، وحرقوا أستاره؛ فقال أرمياء: يا رب لم سلطت علينا بختنصر وجنوده وقد قابلت بين ذنوب أعصانا لك وأطوعهم، وأقلهم معصية لك أكثر ذنوباً من أعظمتنا جرماً؟ فأوحى الله إليه أن بني إسرائيل عصوني وهم يعرفون جلالى؛ فضربتهم بسوط من سياطى وهم كفرة بابل، فأنتقم منهم، ثم أنتقم بهم، يا أرمياء، كيف أنصر

= موضوع عن أحمد بن محمد بن الأزهر وسلمة بن حفص، وعنه صاحب تنزيه الشريعة، وقال: تعقب بأن ابن الأزهر - وهو المتهم - تابعه إسحاق ابن أيوب الواسطي، أخرجه أبو الشيخ؛ فزالته تهمة (٣٢/٢).

والحديث رواه الطبراني وعنه السيوطي في جامعه تحت رقم ١١٠ ولم يرمز له، وفيه زيادة على رواية الشيخ.

قال المناوي: قال الهيثمي: فيه مروان بن سالم متروك، وذكره في موضع آخر وقال: فيه عثمان بن يحيى الفرقابي لم أعرفه، بقية رجاله رجال الصحيح وقال السمهودي: المقال إنما هو في سند الكبير، أما الأوسط والصغير فإسنادهما حسن؛ إلى أن قال: وكيفما كان لم يصب ابن الجوزي حيث حكم بوضعه، والله أعلم.

(١) حديث: «إذا مات كسرى... إلخ. متفق على صحته، أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس وكتاب علامات النبوة، ومسلم في كتاب العين، ولفظ البخاري: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسى بيده لتتفنن كنوزهما في سبيل الله»، والله أعلم.

قومًا أتودد إليهم بالنعماء والإحسان ويقابلونني بالذنب والعصيان؟! أنصر عبدى ما أطاعنى واستنصرنى وخضع لجلالى، فإذا طغى وبغى ونسب إلى نفسه ما هو منى إليه سلبت منه أمداد نصرتى، ونزعت عنه جلبات نعمتى، وضربتة بسوط نقمتى، فأنا القاهر فوق عبادى، أعز من شئت بطاعتى، وأذل من خذلت بمعصيتى.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٤٠ - وَصَوْنَ الْخُطَى عَنْ ذَى الْخَطَاءِ التَّزْمُ وَهَبْ

صَفَاكَ لِمُهْدَى مِنْ لَدَيْهِ صَفَاءُ

قوله: الخُطَى، بالضم والقصر: جمع خُطوة، وهو ما بين القدمين فى التخطى، والخطاء، بالكسر والمد: الأثر وصوته أو خشخشة الماشى. والصفى، بالضم والقصر: جمع صَفْوَة، وهى خيار كل شىء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] أى: اختارهم واصطفاهم، وإنما ذكر آدم ونوح فقط دون ذكر ما بينهما لأن الرسالة والنبوة لم تكثر فيما بينهما، أما آدم عليه السلام فلم ينبأ من بنيه سوى أخنوخ وهو إدريس، وأما شيث فإنما هو وصى آدم عليه السلام ووارث علمه، وكان رجلاً صالحاً فى أمة مؤمنة، وكان له خمسة من البنين كلهم صلحاء، وهم: ودٌ وسواعٌ ويعقوبٌ ويعوقٌ ونسر، وكانوا علماء، وكانت بنو آدم تأتيهم من الأقاليم لأخذ العلوم عليهم ونشر التوحيد وطلب الزيارة، إلا ما كان من بنى قابيل فإنهم اعتزلوا بقعر عدن، فلما مات هؤلاء الصلحاء عبدوا النار، وذلك أول منشأ دين المجوسية، فغزوهم فأبادوهم قتلاً، إلا من فاتهم منهم فتمنع برءوس شواهد الجبال.

وكان إذ ذاك لكل إنسان خليل من الملائكة يأتيه جهاراً، ولا يزال يعلمه العلم والحكمة، ويريه مطالع البروج والمنازل، ويعظه، ويخبره بما حدث فى الجنة من النعيم. ويشره بمنزله فيها، فإذا كان وقت العصر صعدت الملائكة الى السماء ليعبدوا الله فيها.

فلما ذهب ذلك القرن الصالح وطال الأمد أتاهاهم إبليس في صورة حكيم وقد اجتمعوا عند قبور الصالحين الخمسة، فقال لهم: إنكم تأتون من شقة بعيدة وقد مات هؤلاء الصالحاء، الذين كنتم تأخذون منهم العلم، فإنكم اليوم لا تأتونهم إلا لمجرد الزيارة والتبرك،، فهلهم أصور لكم صورهم كأنكم تنظرون إليهم، فيذهب كل إقليم بصورة؛ فتستريحون من التعب ومعاناة الأسفار وقطع الشقة البعيدة، ويحصل لكم ما تريدون؛ فأجابوه إلى ذلك، فصنع تلك الصور، وسمى كل صورة باسم صاحبها.

فلما فنى ذلك القرن جعلت الشياطين تخاطبهم في أجواف تلك الصور فيقولون لهم: إنما كان آباؤكم الأقدمون يعبدوننا ونحن آلهتهم، فأصفت^(١) حينئذ بنو آدم على عبادة الأصنام، وذلك أول ما عبدت، فاعتزلتهم الملائكة والتزمتهم الشياطين؛ فصاروا يعلمونهم السحر والغناء والشعر والمزامير والرقص والنياحة والسرقة والغضب والتعدى وغير ذلك من أنواع المعاصي.

فبعث الله إدريس عليه السلام، فجعل يدعوهم سرّاً خوفاً من أن يصيبوه بالسحر، فأنزله الله عليه الأربعين المقدسة التي يقال لها الآن: الإدرسية، وعلمه الخياطة، وهو أول من خاط، وكان لا يفتر عن ذكر الله حتى قيل: إنه ليدخل الإبرة بالذكر ويخرجها به، وكان يقوم الليل كله، ويصوم الدهر جميعه، وكان يصعد، له من العمل الصالح ما يصعد لجميع أهل الأرض، وكان يكسو من أسلم مخيط الثياب، ويفطر [على الريق] من عمل يده؛ فأتاه الله علم الأفلاك والتنجيم والخط في مقابلة ما كانت تعلم الكفرة من السحر وأكاذيب علم الغيب والشعوذة؛ فغلبهم بذلك معجزة له وتأييداً عليه.

فلما رفع ارتد كثير ممن آمن به واتبعه، وبقيت صحفه بيد بنيه، فتغلب الفساد، وشاع العناد، وعبدت من دون الله الأنداد. وسد ما بين السماء والأرض السواد،، مما اجترحه من الذنوب والمعاصي العباد. فشكت إلى الله من كثرة ذنوب بني آدم الأرض والأشجار والأطواد، فتصلبت الحجارة ومرت وشاكت الأشجار^(٢) فذلك

(١) أصفت بنو آدم: أي اجتمعوا على عبادة الأصنام.

(٢) مرت وشاكت: أي صارت مرة ونبت فيها الشوك.

أول ما ظهر المرارة والشوك.

فلما رأت الملائكة ذلك طعنت على بنى آدم، فقال الله تبارك وتعالى: ولا تطعنوا على بنى آدم؛ فإنهم صفوتي من خلقي، لو أنى ركبت فيكم ما ركبت فيهم من الشهوات والأغراض لكنتم أكثر منهم مخالفة، فاختاروا ثلاثة منكم، فليزلوا إلى الأرض، فأركب فيهم ما ركبت فى بنى آدم من الشهوات والأغراض وضروريات الطبع؛ فاختاروا هاروت وماروت وعزازيل، فأما عزازيل فإنه لما أحس بما ركب فيه من الطبع والشهوة استقال الله؛ فأقاله. وأما هاروت وماروت فأنزلهما الله إلى الأرض على صور بنى آدم، وركب فيهما ما ركب فى بنى آدم، ولم يحرم عليهما إلا الشرك وقتل النفس والزنى وشرب الخمر، وكانا يقضيان بين الناس النهار كله، فإذا كان الليل ذكرا اسماً من أسماء الله وصعدا إلى السماء فيبيتان يعبدان الله، حتى إذا أصبحتا يرجعان إلى الأرض، فيحكمان بين الناس، فلم تمض عليهما أربعة أشهر حتى افتتنا بالزهرة، وهى امرأة من بنات الملوك، وقد تحاكت إليهما مع زوجها، فغلبها عليه شغفاً بها واتباعاً للهوى، فوقع في جميع ما نهاهما الله عنه؛ فسجدا للصنم، وقتلا النفس، وزنيا، وشربا، فمسخت هى كوكباً، وهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما معلقان فى بئر من كفتان مغتلاتان، يعذبان بالجميع والعطش، وقد وكل الله بهم ملائكة من زبانية العذاب يضربونهما بهيئات من نار إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة غفر لهما، فقيل: يدخلان الجنة مع بنى آدم مكان ما عذبا، ولما ركب فيهما مما يقتضى ذلك، وهو الأولى. وقيل: يرجعان إلى ما عليه جنسهما من الملائكة، فيكون التيسيح والتقدیس قوتهما^(١).

فبعث الله نوحاً، وكان من أمره ما قص الله فى كتابه، وكان له من البنين أربعة: سام وهو أفضلهم، وحام، ويافث، وكنعان.

(١) هذا الكلام المتقدم عن الملكين، واختيار الملائكة لهما، وأن الشهوة ركبت فيهما، وأنهما عملا كل شيء من الحرمات. وأنهما الآن يعذبان . . . الخ، لا يصح منه شيء، قال القرطبي رحمه الله بعد أن أورد القصة: هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره، ولا يصح منه شيء، فإنه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه (٥٢/٢) قرطبي. قلت: والذى يظهر أن هذه القصة من صنع خيال اليهود، والله أعلم.

فمن ذرية سام جميع الأنبياء والمرسلين، وهو أبو العرب والروم وفارس وبنى إسرائيل. فتنبأ من أبناء نوح عليه السلام: هود وصالح وشعيب ولوط وعلقمة بن صفوان، وأربعة عشر نبياً أرسلهم الله إلى أصحاب الرسم فلم يسلموا. وأكثر الأنبياء كان من بنى إسرائيل.

وجملة الأنبياء والمرسلين مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وعدد المرسلين ثلاثمائة وثلاثة عشر على المختار المرتضى، وأولو العزم منهم خمسة على المشهور: محمد ﷺ ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى. وقيل: تسعة، فيكون منهم: داود وسليمان وهود وصالح. وزاد بعضهم إسماعيل لصبره على الذبح.

وأما حام فهو أبو القبط والحبشة والزنج والزط والنوبة والهند وجميع أنواع السودان.

وأما يافث فهو أبو الترك والخزر والصفالبة والروس والتتار وأجوج ومأجوج. وأما كنعان فإن نسله قد انقرض، وقيل: ترك ولداً أسلم مع نوح، ومن ولده كانت العمالقة والديلم والأكراد والبرابرة.

قوله: والصفاء، بالكسر والمد: المصافاة. ومهدى، بضم الميم: السيد، اسم مفعول من أهدى إليك هدية. والصفاء: نائب عن الفاعل.

فكأنه يقول: احفظ خطاك من السعى بها إلى الإثم والمأثم، بل وعن صاحب الإثم، والترم ذلك، وأهلك خيار ما عندك بلا عوض، وهو أصل عظيم من أصول الدين، قال الله تعالى: ﴿وَنَكُتِبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، فجعل الأثار فى مقابلة جميع أفعال البدن؛ لأنها الوساطة والسبب الموصل إلى ذلك؛ ولذلك سميت جميع الأعمال بالسعى لأنه معظمها والسبب فى تحصيلها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩]، أى: عمل الأعمال التى تقضى تحصيل الثواب والنجاة من أليم العذاب بالامتثال والاجتناب. قال ﷺ: «من اغبرت قدماه فى سبيل الله دخل الجنة»^(١).

(١) حديث «من اغبرت قدماه»... إلخ. صحيح أخرجه البخارى والترمذى والنسائى، ولفظه عند البخارى، «من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار» وهو عنده فى كتاب الجمعة.

وقال أيضاً: «ما من عبد مؤمن يخرج من بيته إلى مسجد من مساجد الله لا يخرج به إلا الصلاة واحتساب الأجر إلا رفع له بكل خطوة يخطوها درجة في الجنة، وكتبت له بها حسنة، وحطت عنه بها سيئة، وكان كالمجاهد في سبيل الله».

ويروى أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال له: أتدرى فيما يختصم الملائكة الأعلى؟ قال: تكثير الخطى إلى المساجد، والصلاة في الجماعة، وإسباغ الوضوء في المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، ثلاث مرات، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط فذلكم الرباط^(١).

وقال ﷺ: «بشر المشائين في الظلمات إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»^(٢).

وقال أيضاً لو قد قدموا من اليمن لَمَّا قالوا له: أتيناك يا رسول الله رغبة لا رهبة من غير أن تبعث إلينا بعثاً ولا رسولا، والله المنة لرسوله علينا، فقال: «أما إنكم لم يصبكم ظمأ ولا مخمصة، ولم تقطعوا وادياً ولا جبلا، إلا كتب لكم بذلك عمل صالح، وما خطأ أحدكم خطوة إلا رفعت له بها في الجنة درجة وحطت عنه بها سيئة وكتبت له بها حسنة، فلما أتيتموني خرجتم من ذنوبكم كيوم ولدتكم أمهاتكم».

وكان بعض السلف لا يتعلون في ذهابهم إلى المساجد وزيارة الإخوان في الله وعبادة المرضى وتشيع الجنائز والمشي في حوائج الأراامل عملاً بقول رسول الله ﷺ: «من اغبرت قدماه في سبيل الله دخل الجنة» وفي رواية: «لم تمسه النار إلا تحلة القسم». وفي رواية: «غفر له».

ويروى أن الحسن رضي الله عنه حج أربعين حجة والنجائب تقاد معه وهو يسعى على رجليه. فتارة يمشى حافياً فإذا أدلقه ألم الحر انتعل رغبة في الأجر.

وحج الرشيد بعد قتله البرامكة حجاً ماشياً، وهو خليفة الوقت، رغبة في الأجر وإظهاراً للضراعة مع الإقلاع والتوبة، وكان يصلي كل ليلة مائة ركعة،

(١) حديث «أتدرى فيما يختصم الملائكة الأعلى»... إلخ. صحيح رواه مسلم. وأوله عنده: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات»... إلخ.

(٢) حديث: «بشر المشائين»... إلخ. صحيح رواه الترمذي وأبو داود (٢٤٣/١) و (٥٦١).

ويتصدق كل يوم بمائة دينار من خالص ماله الذي لم تخلطه شبهة ولا شوب حرام. فكان ذلك دأبه حتى مات رحمه الله.

وقيل: الآثار عبارة عن الآجال، والأول أولى وأقرب إلى معنى التنزيل وأكثر أدلة. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَأَثَارَهُمْ﴾ أى: ونكتب ما سنوا من سنة حسنة وسيئة.

وعن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». وفي رواية: «من غير أن يتقص من أوزارهم شيئاً»^(١).

وهذه الآثار هي الآثار المجازية العلمية، فكأنه ترك في الإسلام أثراً يقتفى ويتبع فيه كما يقتفى، آثار القدم حقيقة.

عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن آثاركم تكتب»؛ فلم ينتقلوا. أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب. وأخرجه البخاري عن أنس قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فكره رسول الله ﷺ أن تعرى المدينة؛ فقال: «يا بني سلمة، ألا تحسبون آثاركم؟» فأقاموا.

قوله: تعرى: يعنى: تخلى فترك عارية، وهو الفضاء من الأرض الخالي الذي لا يستره شيء.

وأخرج مسلم عن جابر قال: نخلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فبلغ ذلك النبي ﷺ. فقال لهم: «بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟» قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: بنو سلمة، دياركم تكتب آثاركم، فقالوا: ما كان يسرنا أننا كنا تحولنا بعد^(٢).

(١) حديث «من سن في الإسلام سنة حسنة»... إلخ. صحيح رواه مسلم وأحمد والنسائي، وله ألفاظ كثيرة، والله أعلم.

(٢) حديث «يا بني سلمة»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان، وهذا لفظ مسلم (١٣١/٢).

قوله: بنى سلمة: أى يا بنى سلمة. وقوله: دياركم: أى: الزموا دياركم.
وأخرج الترمذى فى الألقاب عن أبى موسى الأشعري قال: قال رسول الله
ﷺ: «أعظم الناس أجراً فى الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة
حتى يصلى مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلى ثم ينام».
قوله: وهب: أى التزم ذلك، وملك خيار ما عندك بلا عوض شخصاً أهدي
إليك على وجه المصافاة لا جرأً البذل والمكافأة.

قال الرسول ﷺ: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه ولو بالدعاء»^(١).

بل من الواجب فى حق الفتوة أن تصل من صافاك وأحبك مجاناً.

قال الشاعر: من بحر الطويل:

سرور محب أو إساءة مجرم

لمن تجمع الدنيا إذا لم تُردِّ بها

وقال غيره: (من بحر البسيط)

وَمَنْ أَطَاعَكَ فَانْفَعَهُ بِطَاعَتِهِ

كَمَا أَطَاعَكَ وَادَّلَّهُ عَلَى الرَّشْدِ

وَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقَبَهُ مَعَاقِبَةً

تَنْهَى الظُّلْمَ وَلَا تَقْعُدُ عَلَى الضَّمْدِ

ومن شيم الكرام المكافأة على الهمة بدون العطية والشكر عليها.

يروى أن بعض الفضلاء دخل على المنصور، فأقبل عليه ثم قال له: يا أبا
فلان، لقد هممت بوصولتك مراراً فتدافع الأمر فلم يقدر الله شيئاً من ذلك، فقال
له: يا أمير المؤمنين، من لم يشكر على الهمة لم يشكر على العطية، وإن شئت
أنشدتك من ذلك ما بلغنى، فقال له: افعل، فقال: (من بحر البسيط)

لَأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ

وَلَا أَلُومُكَ إِنْ لَمْ يَمْضِهِ قَدْرُ

فاستحسنها المنصور حتى كتبها بيده، ثم خلع عليه، وأمر له بصلة سنية،
فانصرف.

(١) حديث «من أسدى إليكم معروفًا»... إلخ. صحيح رواه أبو داود والنسائي بلفظ: «من صنع»
وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٣٦٨ بلفظ الشيخ إلا أنه قال فى آخره: «فإن لم تستطيعوا
فادعوا له» بدل «ولو بالدعاء»، والله أعلم.

• ثم قال رحمه الله:

١٤١ - وَسَامِ السُّهَى وَأَحْمِلِ سِهَاءَ عَلَى سُرَى

تُخَالُ بِطِيَّاتٍ لَدَيْهِ سِرَاءُ

قوله: «وسام السُّهَى»: المسامة: المباراة والمفاخرة، تقول: ساميت الرجل: إذا طاولته في المجد والعلاء. والسُّهَى، بالضم والقصر: نجم خفى يختبر الناس به أبصارهم بإزاء بنات نعش، وكثيراً ما تضرب العرب به الأمثال، كما قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فإن أخطأ دنياك أعمى يرى السُّهَى سميع بصيرٌ جاهلٌ يتربص

وقال غيره من المتأخرين: (من بحر الوافر)

عليك تحية من خل صدق حبيب غابط منك السريره

جزاك الله عنا أبى خير حللك للعويصات العسيرة

سعت لها على التحقيق حتى تركت سهيها^(١) شمساً منيره

فمن تلك أرضه مناً سباخا بقوا جدبا مع السُّحب الغزيره

ومن يك منبأً قد أض روضاً وجاوز في مراتبه نظيره

وقال المتنبي^(٢): (من بحر الطويل)

فوا أسفاً كم يدعى الفضل ناقصٌ ووا أسفاً كم يدعى النقص فاضلٌ

وقال السُّهَى للشمس: أنت خفيةٌ وقال الدُّجى: يا صبحٌ لُونُكَ حائلٌ

وطاولت الأرضُ السماءَ تفاخراً وطاولت الشهبَ الحصى والجنادلُ

فقلت لنديا إنَّ عيشك باطلٌ وقلت لنفسى إنَّ دهرك هازلُ

والسِهَاء، بالكسر والمد، جمع سهوة، بالفتح: وهى الناقة الرقيقة للسير والحمل فلا يكلفها السير وحمله عليها. والسهواء: بين السهاوة، وتقول: ناقةٌ سهواء: إذا

(١) السُّهَى: الليل أو قطعة منه.

(٢) هذه الأبيات ليست للمتنبي وإنما هى من شعر أبى العلاء المعرى.

كانت وطية لينة السير غير قطوف. والسهواة: مصدر سهت الناقة سهوة وإسهاء أو سهواة فهي سهواء وسهوانة على وزن سلوانة. والسرى، بالضم والقصر: سير الليل. والسراء، بالمد والكسر: جمع سرورة، مثناة السين، كما في القاموس: السهم الصغير القصير، أو عريض النصل طويله. وتخال، بضم التاء: مضارع خال أى: ظن، مبنى لما لم يسم فاعله، مسند للمفعول الثانى وهو سراء؛ فلأجل ذلك رفع.

فكأنه يقول: اربأ بنفسك عن سفاسف الأمور، واجنح إلى معاليها حتى تكون فى السمو نظير السهى الذى هو أشد الكواكب خفاءً من أجل ارتفاعه فى الأفلاك، فالأمر بمساماة السهى أى: مغالبتها فى السمو، تمثيل لما ذكرناه، واستعمل أيضاً السير فى الليل بالنوق السهلة السير، واحملها على ذلك حتى تضم وتظن بطاناتها مع ضخامة أجسامها شبيهاً لشدة نحافتها وفرط ضمورها بالسرى سهاماً حنايا؛ فإن فى الحركة - كما قيل - بركة أى: بركة فى الجسم بما يعيده السير من صحته، لخروج فضلاته، وتحلل مواده التى تسترخيه وتذبله وتعيده غرضاً للمرض، وفيه أيضاً البركة فى العلم بما يستفيدة المسافر برؤية ما لم يره فى الإقامة من الأشجار والأنهار والجبال والبحار وغير ذلك؛ مما يقوى علمه بأن الله على كل شىء قدير، وأنه الفعال لما يريد، وأنه بكل شىء عليم، وأنه الحى القيوم. وفيه أيضاً البركة بالتخلق بما يقتبسه المسافر مما يلقاه من أهل الفضل وذوى النفوس الزكية؛ لأن الطباع - كما قيل - تسرق من الطباع. وفيه أيضاً البركة المطوية فى الذكاء والفطنة؛ فإن ما يراه مما ذكرنا، وما يشربه من المياه المختلفة الطعم، وما يلهم به من الهواء المختلف باختلاف ما جاوره من رطب ويابس وحجر وماء، كله مؤقد لنار فطنته، ومنبه لذكائه من نومته، إلى غير ذلك من بركات الحركات، ولو لم يكن فيها من الفوائد إلا أن فراق الوطن والاعتقاد به سهل له من نفسه فراق دار الدنيا لكان كافياً، فكيف وفيه أنه يُعرف بقدر نعمة الراحة الكائنة فى الإقامة من المأكَل والمشرب والملبس والمنكح مثلاً؛ فيعظم قدرها عنده، والاعتراف بها، والتحدث عنها. وكل هذه نعم جلية، وشكر جليل يقتضى المزيد، فهذه أيضاً بركة فى الشكر، وبركة فى النعم.

ومن فوائد السفر العظيمة أن يذكر عذاب الآخرة كما في الحديث المشهور من قوله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»^(١). وقالت عائشة رضي الله عنها: لولا أن أزيد على رسول الله ﷺ لقلت: العذاب قطعة من السفر.

فيحذر منه، ويتعوذ بالله من شره، فيعمل على حسب النجاة منه، فيكون من مفاتيح السعادة، ويرجع هذا إلى البركة في العمر؛ لأنها عندهم بكثرة الأمداد لا بكثرة الأمد، فكم من أمد طويل قلت أمداده؛ فلا بركة لعمر صاحبه، ورب أمد قصير كثرت إمداداته؛ فبورك لصاحبه؛ فالبركة في العمر والبركة في العمل هما شيء واحد.

كما روى أن ذا القرنين الذي ذكر الله في كتابه ملك جميع المعمور، وأدرك ما أدرك من العلوم والحكمة، حتى صار الخضر عليه السلام وزيره، توفي وهو ابن ثلاثين سنة.

ولما مات النبي ﷺ جعل عمر يبكيه ويقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أدركت في قليل مدتك ما لم يدركه نوح عليه السلام في طول مدته؛ فأمن بك الكثير وما آمن به إلا القليل. جعلنا الله ممن بارك الله في علمه وعمله وعمره آمين.

ثم قال رحمه الله تعالى:

١٤٢ - وَحَاذِرٌ ظُبِّي عِنْدَ الطَّبَّاءِ فَلَنْ تَرَى

دُمِّي فَتَكْتُ إِلَّا تَطُلُّ دِمَاءً

قوله: وحاذر: فعل أمر من حذر، بالكسر، والمحاذرة مفاعلة من الحذر، بالكسر، والحذر، بالتحريك، والاحتذار، والمحذرة، جميع ذلك من الاحتذار، فهو حاذر وحذران وحذرون، يجمع على حذاري أي متيقظ شديد الحذر، بكسر

(١) حديث: «السفر قطعة من العذاب» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والثلاثة دون أبي داود. وهو عند البخاري في كتاب الحج، ولفظه: «السفر قطعة من العذاب؛ يمنع أحدكم طعانه وشرابه ونومه، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله»، والله أعلم.

الحاءِ وَسَكُونِ الذَّالِ المعجمة . قال الله تعالى : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ٧١].

والظبي، بالقصر والضم: جمع ظبّة، بالطاء المشالة وفتح الباء مخففة بوزن ثبة: وهو حدّ السيف أو السيف نفسه. والظباء، بالكسر والمد: جمع ظبي. والدمى، بالقصر والضم: جمع ذمية، وهي صورة من الرخام أو المرمر.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

كأن دمي شغف على ظهر مرمرٍ كسَاء مُرِيدَ الساجوم وشيأ مصورا

ويعبر بها عن النساء وهو المراد هنا. يقال: طُلَّ دَمٌ، بالبناء لما لم يسم فاعله: أى لم يقتل قاتله ولا أخذت فيه دية، ومثله هُدِرَ وَسُفِحَ وبطل، وناحَ عليه الذئب، ولم ينتطح فيه عزان، وكدم فُعيِس. والفرق بين الإهدار والطل أن الإهدار يكونُ القاتل فيه أمتًا من المطالبة بالثأر، كإباحة دم المقتول من جهة سلطان أو غيره. والفتك، مثلث الفاء، كالفتوك: ركوب ما هم به من أمرٍ دعت إليه النفس مع القدرة عليه والإتيان به على وجه يعجز عنه حتى يكون ذلك الأمر كأنه طوع يده.

وفتاك العرب كثيرون، ومن أشدهم فتكًا البراض الكنانى، وفيه يقول الشاعر:

(من بحر الخفيف)

والفتى من تعارفته الليالى والقيان كالحية النضاضِ

كُلُّ يوم له بصرفِ الليالى فكتة مثل فتكة البراضِ

ومنهم تأبط شرا القيسى، والشنفرى الأزدى، وسليك المغناب التيمى.

يقال: فتك، بالفتح، يفتك، بالضم والكسر، كتك بيتك ويبتك.

وكانه يقول: خذ حذرَكَ من ظبى أى: عيون تشبه ظبى السيوف بالفعل؛ وهي استعارة تحقيقية. وقوله: عند الظباء صفة للظبي، كنى بتلك الظبي عن النساء الحسان الشبهات بالغزلان فى الحسن، فلست ترى حسناء فتكت بشخص، أى: قتلته بحبها، إلا ومقتولها لم يطلب له بثأر ولم تؤخذ فيه دية، وهذا علة الأمر، وبيان لعاقبة ظبى الظباء؛ فإن مقتولها مطلول الدماء، وهو فى الحقيقة أمر بغض

البصر، والتحذير من غوائل النظر، كما قال أبو محمد بن عبد البر بن عمر: (من مجزوء الكامل)

لا تكثرن تأملاً واحبس عليك عنان طرفك

وجملة قوله: (إلا تطل دماء): في موضع نصب على الحال من فاعل فتكت، وهو ضمير دُمِّي، وتطل، بضم التاء: مبنى لما لم يسم فاعله، مرفوعه: دماء، ولا يبنى للفاعل أبداً كماضيه، وهو ظل كما تقدم.

ومن مات حباً ووجداً من فتیان العرب يحتاج إلى مجلد، منهم: نصر بن الحجاج الفتي نفاه عمر رضى الله عنه من المدينة إلى البصرة. وذلك أن عمر رضى الله عنه كان من كل ليلة يطوف بالمدينة يستمع ما يقال ويرى ما يفعل صيانةً للدين وحيطةً لجنابه، فبينما هو في ليلة يطوف بالمدينة إذ سمع فتاة في بيتها وقد رفعت عقيرتها بهذا البيت: (من بحر البسيط)

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فحفظ عمر البيت. فلما كان من الغد واجتمع عليه وجوه الناس فقال: من المُتَمَنَّى البارحة واسمه نصر بن حجاج؟ فقالوا: هو يا أمير المؤمنين فتى من بنى سليم، فقال: على به، فلما رآه عمر بهره حسنه وجماله؛ فقال: والله لأزيلنَّ جمالك؛ فبعث إلى الحجام فحلقه، ثم نظر إليه بعد الحلق فإذا بحلق رأسه قد زاده حسناً وجمالاً؛ فقال: سبحان الله ما زاده إلا حسناً وجمالاً، فقال الفتى لعمر: لا ذنب لى، قال: صدقت، والله لا سكنت معى فى المدينة بعدما فتنت المخدرات فى حجالهنّ؛ فحمله، وزوده، ونفاه إلى البصرة.

فقدم البصرة وأميرها من قبل عمر رجل من بنى سليم قريب النسب منه؛ فأدناه وقربه حتى جعل زوجته هى التى تخدمه على عادة الأعراب. فأنته يوماً بغدائه فلما وضعته كتب بالأرض: إنَّ بى من هواك ما لو كان فوقى لأظلنى، أو كان تحتى لأقلنى. ولقد هوته كما هواها، فلم تتمالك أن كتبت تحت كتابته: وأنا كذلك. فقال لهما. ما كتبت لها وما كتبت لك؟ فسكت الفتى وأجابته زوجته - وكانت ابنة عمه - قالت له: كتب لى أنه قد أثمر نخيلنا، فكتبت تحت كتابته:

وأنا. فقال لها: لا مناسبة بين اللفظين؛ فإنَّ قولَه: أثمر نخيلنا أجنبي من قولك: وأنا، فكفأ على الخط قدحاً، ثم أرسل لمن يقرأ؛ فاتاه، فلما قرأ عليه الكتابة التفت على ابن عمه فقال: ارجع أدراجك فما وراءك أوسع، ما نفاك أمير المؤمنين وفيك خيرٌ، فأفرش له فراشاً في بيته، وجعل يجرى عليه النفقة، فلم ينشب أن دنف وجداً بها، فمر به ابن عمه فإذا هو كفرخ الطير قد أشرف على المنية؛ فرق له، وأتى زوجته سمية وقال: أشدك بالله إلا ما ذهبت إليه وضممته إلى صدرك لعله يثوب ثائبٌ من صحته؛ فاتته ووجدته لا ينقلب إلا أن يقلب، فأخذته وضمته إلى صدرها، وأسمته فلادتها، فقام، وكأتما نشط من عقال، فبقى كذلك يوماً أو يومين، ثم عاوده الكمد؛ فمات.

وأكثر ما يكون الموت من العشق في بني عُذرة من قضاة، وفي بني جذيمة من كنانة.

وحدثنا ابن أبي حدرَد الأسلمي قال: كنت في خيل خالد بن الوليد حين وجهنا رسول الله ﷺ إلى دعاء كنانة إلى الإسلام وقتالها، فظفرنا، فلما جمعنا السبي قال لي فتى من بني جذيمة، وقد جمعت يده إلى عنقه برمة^(١)، ونسوة مجتمعات غير بعيدات منه: يا فتى، قلت: ما تشاء؟ قال: هل أنت أخذ بهذه الرمة فقائدي إلى هذه النسوة حتى أفضى إليهن حاجة ثم تردني بعد فتصنع بي ما بدا لكم؟ قلت: والله ليسير ما طلبت، فأخذت بالرمة فقدته بها حتى وقفته عليهن، فقال: اسلمي يا حبيش على نفاذ العيش:

رَأَيْتَكَ إِنْ طَلَبْتُكُمْ وَجَدْتُمْ	بِحَلْبَةِ وَالْفَيْتِكُمْ بِالْخَوَاتِقِ ^(٢)
أَلَمْ يَكُنْ أَهْلًا أَنْ تَأْوَهُ عَاشِقٌ	تَكَلَّفَ إِدْلَاجَ السَّرِيِّ وَالْوَدَائِقِ
فَلَا ذَنْبَ لِي قَدْ قَلْتُ إِنْ ذَهَلْنَا مَعًا	أَثْبِي بُوْدَ قَبْلِ إِحْدَى الصَّفَائِقِ ^(٣)
أَثْبِي بُوْدَ قَبْلِ أَنْ يَشْحَطَ النَّوَى	وَيَنْأَى الْأَمِيرَ بِالْحَبِيبِ الْمَفَارِقِ

(١) الرمة: القطعة من الحبل.

(٢) هذا البيت مختل وزنه.

(٣) البيت في النسختين غير واضح.

فقال: حيت سبعاً وعشراً أثراً أو ثمانياً تترى، قال: ثم انصرفت به، فضربت عنقه، فحدث من حضرها أنها قامت عليه حين ضربت عنقه، فما زالت تقبله حتى ماتت عنده.

وأخرج النسائي هذه القصة في مصنفه في باب «قتل الأسارى» من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ بعث سرية، فغنموا، فإذا في السبي رجل، فقال: إني لست من القوم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم، قال: فإذا امرأة طويلة أدماء، قال لها: اسلمي حبيش قبل نفاذ العيش، قالت: بلي، فديتك. فقدموه، فضربوا عنقه، فوقفت عليه، فشقت شهقة أو شهقتين، ثم ماتت. فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر، فقال رسول الله ﷺ: «أما كان فيكم رجل رحيم؟!»

ثم بعث إليهم علياً رضي الله عنه بمال، فودى لهم الدماء وما أصيب من الأموال حتى أنه ليودى لهم مبلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه وبقيت معه بقية من المال، وقال لهم حين فرغ منه: هل بقي دم أو مال لم يود لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيك هذه البلالة، أي البقية، احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل.

ثم رجل إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال: أصبت وأحسنت. ثم قام رسول الله ﷺ، فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يده حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد - ثلاث مرات -»^(١).

وقد قال بعض من يعذر خالداً: إنه قال: ما قتلت حتى أمرني بذلك عبد الله ابن حذافة السهمي.

قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن تقتلهم لامتناعهم عن الإسلام».

(١) حديث: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ثلاث مرات» صحيح رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب (المغازي)، وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ أرسل خالد بن الوليد إلى بني حذيفة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يتولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صباناً، صباناً، فجعل يقتل منهم ويأسر، فذكر ذلك للنبي ﷺ؛ فقال: الحديث، والله أعلم.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٤٣ - وَوَالِ الْهَدَى تَرْزُقُ هِدَاءَ كَوَاعِبِ

وَلِيَّ نَسْوَةٍ يُصْفَى لَهِنَّ وَلَاءٌ

قوله: ووال: فعل أمر من والى الأمر: إذا باشره بنفسه. الهدى: مفعول، وهو عكس الضلال، والهدى هو الحق، ويعبر به أيضاً، ويعبر به أيضاً عن الاستقامة.

قال الله تعالى: ﴿فِيهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [مود: ١١٢].

وقال: ﴿دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال ﷺ: «من كان هواه تبعاً لما جئت به أو تابعاً لدينه فهو مهتد، ومن كان دينه تابعاً لهواه فهو ضال». وفي رواية: «ناج» بدل «مهتد»، و«هالك» بدل «ضال».

والهداء بالكسر والمد: مصدر هديت العروس إلى زوجها أي: زففتها. وولى، بالضم والقصر: جمع ولى، بالضم والقصر: أنثى الأولى، يقال: هو ولى بهذا، وهم الأولى والأولون. وفي المؤنث: الوليا والوليان والولى والولييات كما فى القاموس. وولاء، بالكسر والمد: مصدر واليته، كالموالاة، أى: اتخذته ولياً أى: صديقاً هنا. والإصفاء: الإخلاص. والكواعب: الجوارى اللاتى نهدن، الواحدة: كاعب، ويقال: كعب ثدى الجارية، بالفتح، يكعب ويكعب، بالكسر والضم، كعوباً، وكعب ثديها أيضاً تكعيباً، فهى كاعب، وتمكعب كمحدث، وكعاب كسحاب. وقوله: «ولى نسوة»: مخفوض على أنه نعت كواعب، وجملة «يصفى لهن ولاء»: صفة للنسوة، وهى فى محل خفض.

والمعنى: تابع الهدى يرزقك الله نكاح نساء كواعب أبكار، فتزف إلى منزلك تلك الكواعب أحق نسوة موصوفة بإخلاص الصداقة والحب لهن بذلك؛ لكونهن عرباً أتراباً لا يبيغين ببعولتهن بدلا، ولا يلتفتن إلى غيرهم؛ فإن موالاة الهدى

أساسها لزوم التقى . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿ [الطلاق: ٢، ٣] .

فالمغنيجة والتربة والعروبة ألفاظ مترادفة بمعنى واحد، وهي عبارة عن الحسناء الكاملة الخلق . فأهل تهامة يسمونها الغنجة، وأهل الحجاز يسمونها التربة، وأهل العراق يسمونها العروبة . وحقيقتها البيضاء البضة الهيفا الشكلة للعساء الغانية وإنما عني المؤلف هذا وكنى به عن حور الخلد والإنسيات الأنسيات .

قال الرسول ﷺ : «لو أن حوراء أبدت معصمها لأضاء له ما بين الخافقين ولغطي نور معصمها نور الشمس والقمر، ولبنات آدم في الجنة أشرف منهن وأتم حسناً وجمالاً»، لأن الصورة البشرية أتم الصور وأشرفها، ولذلك خلق الله الحور على شكل بنات آدم؛ إذ لو كان في الوجود صورة أتم من الصورة البشرية لجعل عليها الحور العين .

ثم قال رحمه الله تعالى :

* * *

باب ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد والمعنى واحد

وهذا شروع من الناظم رحمه الله في الكلام على ما اتفق في المعنى من المقصور والممدود كما في قوله رحمه الله تعالى:

١٤٤ - سَيَفْنَى الْغَمَى وَالْجَدْرُ بَعْدَ غَمَائِهِ

وَيَبْقَى الْفَدَى لَوْ يُسْتَطَاعُ فِدَاءُ

قوله: «سيفنى الغمى» يعنى: أن البنيان سيفنى ولو بعد حين، فيسقط سقفه وحجراته، وتتهدم وتفنى جدرانها. فالغَمَى، بفتح الغين المعجمة والقصر: كالغماء بالكسر والمد. ويبقى: أى يدوم. الفَدَى، بالفتح والقصر: كالفداء، بالكسر والمد: وهو ما يُفْتدى به فيهما معاً، وحقيقته ما يفْتدى به من عذاب الله من الأعمال الصالحات لو كان ما يفْتدى به من ذلك مستطاع للشخص أى: تتعلق به قدرته الحادثة؛ فلو هنا متضمنة معنى التمنى؛ إذ حقيقة التمنى أن تعلق الرجاء بمستبعد عادة أو طبعاً؛ فأفادت بذلك أن استطاعة الفداء، أى: كونه في الطوق، متمنى، ومن حق التمنى أن يكون مستبعد الحصول، ولا شك أن استطاعة الأعمال الخالصة مما يستبعد حصوله لعدم الثقة بالقبول: إما من جهة العامل، وإما من جهة الآفات المبطللة لها كالرياء والسمعة والعجب وما فى معنى ذلك؛ لكون النفس لها فيه حظ، أو من جهة العامل لما يتعرض له دونها من الكسل والموانع والمبطلات الشرعية.

قال ابن عطاء الله: المعصية فى المخالفات ظاهرة جليلة، وفى الطاعات كامنة خفية، فإذا كان ذلك كذلك فالاعتماد على غير فضل الله مجرد عناء من غير عناء. قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] من مال أو عمل.

يروى أن عابداً عبدَ الله سبعين سنة فقال فى بعض مناجاته: يارب، ألتستُ قد استوجبتُ عليك الجنة لطول خدمتى وانقطاعى إليك؟ فقال له: برحمتى، فقال: رب بل بعملى؛ فرماه الله بصداق شغله عن كل شىء، فقال له الله: إن عافيتك

من صداك تترك لى ثواب أعمالك سبعين سنة؟ قال: نعم؛ فنودى: إذا كانت أعمال سبعين سنة تعطى فى صداك فما ظنك بغير ذلك من البلايا العظام؟ أذهب فقد رددت عليك عملك ومنحتك الجنة برحمتى. وكان على رحمه الله تعالى يقول: ليس العجب لمن هلك كيف هلك، إنما العجب لمن نجا كيف نجا!

والبيت مقتبس من قوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وفيه تلميح إلى قوله ﷺ: «كل الناس يعدو فبائع نفسه أو موبقها»^(١). أعتقنا الله بواسع فضله، آمين.

• ثم قال رحمه الله:

١٤٥ - وَيُنْبَذُ سَهْمٌ ذُو غَرَىٰ بِغَرَائِهِ وَيَذْهَبُ وَرَادُ الْأَضَا وَإِضَاءُ

قوله: وَيُنْبَذُ: أى يطرح، والغرى، بالفتح والقصر، والغراء، بالكسر والمد: الذى يلصق به الريش على السهم. والأضأ، بالفتح والقصر، كالإضأ، بالمد والكسر: جمع إضأة، وهى الغدير. فقوله: ينبذ معطوف على قوله: سيفنى أى: سيفنى ما ذكر من البنيان ويؤول أمره إلى الخراب، وسيطرح سهم عليه ريش ملصق بغرى مع غرائه أيضاً، أى يفنى الذين يردون الغدر من أهل البادية أهل العمود والمسافرين.

فالبيت فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فلا يبقى أهل بنيان، ولا أهل عمود، ولا تعول على شىء من ذلك؛ فإن النعيم يذهب كما يذهب المتنعم به؛ فتنبذ الإضأ وورادها، وتموت المرضى وعوادها، وتضمحل الجيوش وقوادها، وتبدل الأرض غير الأرض، وتنسف أطوادها، وتبيس أنهارها، وينعدم اطرادها، وتجف البساتين ويحول سوادها؛ فالأحوال تحول، والممالك تزول، ويخلف العز الخمول، ويحل محل النضارة الذبول، ويعقب الفطنة الخرف والذهول، ويزيل البياض القحول^(٢)، ويترد نعومة البدن النحول، ويبقى العز

(١) حديث: «كل الناس يعدو»... إلخ. حديث صحيح، وقد تقدم.

(٢) القحول: بيوسة الجلد من الكبر.

والبقاء للملك الذى لا يزول، فله الجمال والبهاء، والمرجع والمنتهى، وبيده مقاليد المخوف والمشتهى، فعليه فليعتمد المعتمدون، وإلى جنبه فليصمد المتجئون، وكل ما سواه باطل.

• ثم قال رحمه الله:

١٤٦ - وَمَأْوَى السَّحَى فَقَدَ السَّحَاءَ خَرَابُهُ

وَكَمُ ذِي دَلَا لَمْ تُغْنِ عَنْهُ دِلَاءُ

قوله: «ومأوى السحى»: يعنى أن مسكن السحى الذى هو الخفاش الحصون المشيدة فى الخراب وانعدام ساكنها وهوانهما على الله تعالى سواء. وإنما مثل بالسحى دون سائر الطير لأنه أوهنها عشاً، وأخفها منعة، وأقلها مؤونة، وهو أتم الطير خلقاً مع صغر حجمه وقبح منظره، فله أسنان دون سائر الطير، وله ثدى كئدى المرأة، وأجنحتها تباين أجنحة سائر الطير إذ لا ريش لها، وفى خلقتها كأنها علم، ومع ذلك تقدر على الطيران، وتلازم الكهوف والبيوت الخربة والآبار المعطلة غالباً، ومع ذلك تخالف الطير؛ فإن سائر الطير يطير بالنهار ويسكن بالليل، وهى تطير بالليل وتسكن بالنهار، وهو الذى كان عيسى ابن مريم عليه السلام يخلق على هيئته، فينفخ فيه، فيصير طيراً بإذن الله، فيطير حتى إذا توارى عن أعين الناس سقط ومات.

ويروى أنه قال: يا رب، لم أعشت ما خلقت ولم تعش ما خلقت؟ قال: يا عيسى، خلقت وجعلته مقروناً برزقه وأجله، وخلقت خلقتك فلم أجعل له رزقاً ولا أجلاً؛ فكيف يعيش خلق بلا رزق ولا أجل؟! أتريد يا عيسى أن تكون شريكاً لى فى ملكى تخلق كما أخلق وترزق كما أرزق؟! ذلك مما لا يكون، إنما أظهر على يدي من أكرمه من خلقتى خارقاً فأظهره على يديه؛ لأظهر كرامتى عليه، وأؤيده بأثار قدرتى، فأنا الخالق فى الحاليتين؛ فسجد لله شكراً، وسأل منه غفراناً وستراً.

والسحاء بالكسر والمد: الخفاش أيضاً.

والدلى، بالفتح والقصر: كالدلاء، بالكسر والمد: وهو فى الحالتين جمع دلو وإن شئت قلت: الدلى بالفتح والقصر: جمع دلوة، وهى الأعناب إذا نضجت، فتقول: عندى دلا ودوالى ودلاء بالمد ودوالى، كما فى الصحاح: العنبه.

فكأنه يقول: إن عش الخفاش يخرب، وخرابه بفقد الطائر الذى كان يعمره، وكثير من صاحب دلو كان يستسقى به الماء من الآبار لم تغن عنه شيئاً فى نفى الفناء؛ ففنى وبقي دلوه وراءه زماناً، ثم فנית، وفى ذلك يقول المتنبى: (من بحر الكامل)

تتخلف الآثارُ عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبعُ

• ثم قال رحمه الله:

١٤٧ - وَذَاتَ الْجَرَى لَا تَفْتَنُ بِجَرَائِهَا حِذَارَ الصَّلَى لَا يُسْتَطَاعُ صَلَاءٌ

قوله: وذات الجرى: أى صاحبة الجرى، بالفتح والقصر: كالجراء، بالمد والكسر: سمة الجارية، يقال: جارية بينة الجراء، فيقصر مع الفتح ويكسر مع المد فى معنى الجارية.. والصلى، بالفتح والقصر: كالصلاء، بالكسر والمد: وقود النار، أو عود معوج يعرض عليها، ليكن حتى يقومه الثفاف، والمراد هنا نفس النار. والافتتان: إصابة الفتنة، وهى هنا الإعجاب بالشىء.

يروى أن النبى ﷺ أتى بخميصة، وهى الكساء الجيدة ذات الأعلام، فلما انفتل من صلاته ألقاها وقال: «اتنوني^(١) بأنبجانية^(٢)» فإن هذه فتنتنى فى صلاتى بحسنها؛ فجىء بأنبجانية، فلبسها، فقال: «البذاذة^(٣) من الإيمان^(٤)».

(١) حديث «أن النبى ﷺ أتى بخميصة»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان، وهو عند مسلم بلفظ: «قام رسول الله ﷺ يصلى فى خميصة ذات أعلام، فنظر إلى علمها، فلما قضى صلاته قال: اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبى جهنم، واتنوني بأنبجانية فإنها ألتهنى أنفاً عن صلاتى»، وهو عند البخارى فى كتاب الصلاة وكتاب المساجد وكتاب اللباس، والله أعلم.

(٢) الأنبجانية: كساء بلا أعلام.

(٣) البذاذة: رداء الهيئة.

(٤) حديث «البذاذة من الإيمان» صحيح رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وأبو داود، وأورده السيوطى =

ولا منافاة بنى هذا وقوله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال؛ فتجملوا»^(١).
 وقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ فإن استعمال البذاذة من باب التواضع لله، والخضوع تحت جلاله، والتحقير لأمر الدنيا، والاستغناء عن زيتها بالباقيات الصالحات، لأن النبي ﷺ أدرك الناس في جاهلية جهلاء؛ لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، بل هممهم مقصورة على التنافس بالدنيا وزيتها؛ فخالقهم بلبس الأنبجانيات والمرقعات تحقيراً لما هم عليه، وربما لبس الثياب الفاخرة لأمر منها: لقاء الوفود، والتأهب للحروب، والجمع.

والحاصل أنها ليس من همه، ولا مما تتعلق به همته، لكنه كيفما وجدته لبيسه، فلا يرغب عن الخشن لبذاته، ولا يرغب في النفيس لنفاسته، إلا ما بلغ حد السرف فيتركه ولا يدانيه كالحريير البحت والخز والجوخ، وكان لا يحب الأحمر القاني.

فلما ذهب الصدر الأول واتخذ الناس التقشف زياً حباً للدنيا وانكباً عليها انعكس الأمر فصار المطلوب من الشرع تحسين الهيئات.

ويجب تجمل القلب بالاعتقادات الكاملة، والظن الجميل، والحب الخالص. وتجميل الروح باليقين الثابت، والمعرفة التامة. وتجميل اللسان وتحسينه بالذكر والفصاحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحسين البدن بالختان، والإخفاض، وحلق الشارب، وتوفير اللحية، وتقليم الأظافر، وتحسين الوفرة^(٢) إن كانت بالدهن والخلوق والغسل والفرق^(٣) وإلا فالحلق.

قال أبو الحسن: الشعر على الرأس زينة، وتركه سنة، وحلقه بدعة.

= تحت رقم ٣١٩٦، وقال المناوي: قال العراقي في أماليه: حديث حسن، وقال الديلمي: هو صحيح، وقال ابن حجر في الفتح: حديث صحيح، والله أعلم.

(١) حديث «إن الله جميل يحب الجمال»... إلخ. جزء من حديث صحيح رواه مسلم (١/٦٥) والترمذي والحاكم، وأوله عند مسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر؛ قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال... بدون «فتجملوا»، والله أعلم.

(٢) الوفرة: ماسال من الشعر على الأذنين.

(٣) الفرق: الطريق في شعر الرأس.

ويروى أنه ﷺ ما حلق إلا ثلاث مرات.

وقيل: إنه ما حلق إلا في حج أو عمرة، فلما اتخذ ذلك أهل الأهواء زياً صار تركه أولى؛ لأن الشرائع تنتقل بانتقال الأحوال وتتغير بتغيرها:

فإن نكاح الأخت كان حلالاً في عهد آدم حيث دعت الحاجة إليه، فلما استغنى عنه حرم.

ثم كان للرجل أن يتزوج ما شاء من النساء، فلما هرمت الدنيا وضعفت حرم على الرجل ما زاد على الأربع، ووسع عليهم في التسرى؛ لخفة مؤونته، ولكون ذلك أدمى إلى تمام العفاف. وأبيح نكاح المتعة صدر الإسلام لما دعت الحاجة إليه، فلما استغنى عنه حرم.

وكان الواجب على النبي ﷺ وأصحابه الصبر على أذى المشركين والإعراض عنهم حيث لا يد لهم بدفعهم، فلما طال البلاء عليه وأدركتهم غيرة الحق بوأ لهم محلاً يجتمعون فيه، فلما اجتمعوا نسخ وجوب الكف والإعراض، وأوجب الجهاد والغلظة على الكفار والمنافقين.

ولما أتم نعمته على الأحرار بالحرية جعل حد الحر العزب مائة جلدة، وحد العبد على النصف من ذلك لنقص نعمته بالاسترقاق.

وإذا قطعت يد المسلم كانت ديته خمسين ناقة حيث ظلمت، فإذا سرق قطعت في ربيع دينار.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

يدٌ بخمسمئين عسجداً وُدِيَتْ ما بالها قُطِعَتْ في رُبع دينار
فأجابه آخر بقوله:

هناك إذ ظلمت فاعتز جانبها هنا لما ظلمت هانت على الباري

والكذب حرام إجماعاً، فإذا تعينت فيه المصلحة الدينية وجب، وقد قسمه الفقهاء على أقسام الشرع الخمسة، فنظم ذلك بعض الأدباء فقال: (من بحر الرجز)

للخمسة الأقسام قسم الكذب	فمنه مندوب ومنه ما يجب
واجبه لفك مال مسلم	أو مال نفسه حقيق في الدم
مندوبه للحرب والإرهاب	لكافر يخدع بالكذاب
مباحه يا صاح للإصلاح	بين الوري ما فيه من جناح
مكروهه لزوجة تطيباً	لنفسها ولابنه تحيياً
حرامه هو الذي لغير ما	منفعة شرعية قد علما
وقال قوم كله قبيح	وهو في مذهبنا الصحيح

وكذلك الميتة حرام إجماعاً، وقد يباح أكلها للمضطر، ويتعين عند تحقق الهلكة أكلها.

والفرار من الزحف حرام إجماعاً، وقد يباح للتحرف والتحيز.

والحرير حرام لبسه في مذهبنا، وقد أباحه النبي ﷺ للزبير بحكمة به.

وأخذ الرشوة على الحكم حرام إجماعاً، وقد أباحها بعض الفقهاء حيث لا إمام ولا بيت مال حيث أرض سبية وخيف دوام الفتنة بتعطيل الأحكام الشرعية؛ فيجب عليهم نصب قاض، ويجعل له على من يختصم إليه قدرًا معلومًا يسد به خلته؛ إذ قد شغلوه عن التكسب، فإن لم يقدّم ذلك بمؤوته المتقصدة التي هي دون الإسراف وفوق الإقتار وجب عليهم أن يعطوه من زكواتهم ما يسد به تلك الخلة وإن أحاطت بزكاة أموالهم؛ لأنه قام بمنفعة عامة وهو أحق بأخذها حيثئذ، ولو لم يكن من الأصناف الثمانية التي ذكر الله في كتابه، بل يدخل في جملتها؛ لأن الله يقول: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠] وقد أحرز به الله رقاباً كثيرة لتسكينه بأحكامه الفتنة التي تؤدي إلى الهرج^(١) وسفك الدماء؛ فهو من باب أخف الضررين؛ فصار أخذه ما صورته صورة الرشى أولى من تركه الأمة سدى يعدو بعضها على بعض، من غير قاض يفصل بينها؛ فيؤدي ذلك إلى الهرج، وتعطيل الأحكام الشرعية، وترك ما جاء به الرسل ومضى عليه السلف والخلف، فلو قيل بوجوب ذلك لكان وجهاً^(٢).

(١) الهرج، بسكون الراء: القتل.

(٢) إن الشريعة الإسلامية حرمت الرشا ولا وجه لإباحتها تحت أي ظرف، والله أعلم.

وكذلك يجب تغيير المنكر، فإذا أدى تغييره إلى منكر أعظم منه وجب تركه والإعراض عنه، وفي مثل ذلك قال الصادق المصدوق: «إذا رأيت شحا مطاعاً. وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع أمر العامة»^(١).

ويروى أن الحسن البصرى رضى الله عنه لما وقعت تلك الحروب التي وقعت بين الصحابة رضى الله عنهم وامتدت إلى زمن التابعين قيل له: هلا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وأنت المشار إليه بالأصابع؟ قال: أرايتم البحر إذا انفتق أيرده شيء؟ قالوا: لا، قال: كذلك الأمة اليوم: كانت على الحق فأقبلت على الباطل، فمن أراد كفها عنه فقد ضرب في حديد بارد، ولقد رأيت رجالاً حاولوا ذلك وتصدوا له فما زادوا على أن افتنوا وأهلكوا أنفسهم في غير طائل، وإنما يمكن الأمر بالمعروف اليوم والنهي عن المنكر لإمام صالح قاهر، قد وضع الناس بيده أزمة القيادة، وأذعنوا له بالطواعية، وذلك اليوم كالكبريت الأحمر.

وقد اتفق علماء الأمة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بأمر العامة قد سقط وجوبه من القرن التاسع؛ لأن الأمة قد انتحلت لنفسها مذاهب وعوائد اتخذتها ديناً قويمًا وسبيلاً مستقيمًا، فمن دعاهم إلى الحق اتخذوه هزءًا؛ لما قد توغلوا فيه من الضلال وما تعودوه من ارتكاب المحال^(٢). وبذلك أخبر الصادق المصدوق إذ يقول: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء»^(٣).

وإنما يجب على المؤمن في عصرنا هذا أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في حيه خاصة، فإن عجز عن ذلك ففصيلته، فإن عجز عن ذلك فعشيرته، فإن عجز عن ذلك فرهطه، فإن عجز عن ذلك فأهل بيته، فإن عجز عن ذلك فزوجته وبنيه وأعبده وإخوته، وإن أعجزوه فعليه الفرار حيثئذ، ولا يحل له أن يقيم في الفتنة

(١) حديث: «إذا رأيت شحاً مطاعاً» تقدم.

(٢) يظل الأمر بالمعروف قائماً ما دامت الأمة الإسلامية، وهو على الدرجات التي حدد النبي ﷺ:

باليد واللسان، وحتى بالقلب، والله أعلم.

(٣) حديث: «بدأ الإسلام غريباً»... إلخ. صحيح رواه مسلم (٩٠/١) والبيهقى في الشعب.

وما لا يطيق دفعه؛ فلا يكون واجباً عليه إلا صلاح نفسه وتقويم أوده.

وفى هذا المجال أصول اقتصرنا على هذا القدر منها للإمتاع به ومس الحاجة إليه، جمع بنا إليه عنان القلم ولو لم نكن بصدده، لكن جلب بعضه بعضاً كنييل الذهب؛ لأنها يلذ تتبعها ولو لم يقصد إليها رغبة في التغنى بها.

ثم اعلم أن من تمام جمال البدن نتف الإبط، وحلق العانة. ومما ينبغى جمال ظاهره بالثياب الحسنة والوضوء والغسل، وتحسين رائحته بالتطيب والاستياك وزوال عين الخبث وحكمه، وجمال أحواله بالأخلاق الحسنة.

قال رسول الله ﷺ: «أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن»^(١).

وتجميل شمائله بالآداب المستحسنة، وتحسين طباعه بالكرم والجود والشجاعة، فإذا اجتمعت فى الإنسان هذه الخصال فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وقد أدرك السعادة دنيا وآخرة، وقد تحلى بالجمالين: جمال الظاهر والباطن، وقد فاز بالحبين: حب الله وحب رسوله ﷺ؛ لأن المتجلى بالمحجوب محبوب؛ لأن الله جميل ويحب الجمال، كامل يحب الكمال، نظيف يحب النظافة.

ولذلك كانت القادرية والشاذلية تجمل هيئاتها. يروى أن متقشفاً مرَّ على الشاذلى رضى الله عنه وهو يصلى، فرأى صلاة كاملة، وسمة حسنة؛ فأنكر حسن ثيابه مع ذلك، فوقف عليه وقال: ما هذه الصلاة التامة والسمة الحسنة مع هذه الثياب التى لا ينبغى لبسها إلا لأهل الشهوات من أرباب الدنيا؟! فقال: يا هذا إن ثيابى هذه تحمد الله وتشكره، وثيابك هذه تقول بلسان حالها: أعطونى أعطونى. أين قولك هذا من قول رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٢)؟!

وقوله ﷺ: «إن الله يبغض من عبده أن يكون حسابه حساب غنى وحاله حال فقير».

(١) حدث: «أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن» رواه الطبرانى وأبو الشيخ بهذا اللفظ، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٨٢٩، والله أعلم.

(٢) حديث: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته». إلخ. حسن رواه البيهقى والترمذى وحسنه إلا أنه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٧٥٢.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾

[الأعراف: ٣٢]؟!

وقوله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»^(١)؟!

فقال له: ألسنت بالشاذلي؟ فقال: يقال ذلك، فانكب عليه يقبل يديه، فقال له: إنك تكلمت بحق، ونطقت بحقيقة، فبمثلك فليقتد المقتدون، وعلى سبيلك فليسر المهتدون.

وتطلق الفتنة ويراد بها الضلال؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، أى لضلاله.

فكانه يقول: احذر الجارية ذات الفتاء، فلا تعجب لفتائها، أى لا تكن معجباً به، ولا تفضل به عن سبيل الله، وهذا الثانى أولى، ويؤيد ذلك قول الناظم: «حذار الصلى» أى: مخافة النار. ويجيء الإعجاب بدون الضلال؛ فلا يخاف منه حيثئذ النار، بل ربما كان ذلك مؤدياً لدخول الجنة إذا عشق فعف؛ لأن قتيل الحب مع العفة معدود من جملة الشهداء، كما جاء ذلك فى غير حديث واحد^(٢).

وهذه النار المحذر منها هى نار الآخرة التى تزيد عن نار الدنيا بتسعة وتسعين جزءاً؛ لأن النبى ﷺ سئل عما تقول النار فى أزيها، فقال: «إنها تتعوذ بالله من نار جهنم» فقالوا: كيف تستعيذ النار من النار؟ قال: «إن حراً نار جهنم يزيد على حر ناركم هذه بتسعة وتسعين جزءاً»، فقاوا: إنها لكافية، فقال ﷺ: «ثلاثة فى النار أشد من النار: النتن، والظلمة، وغضب الجبار».

قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] فالباب الأول جهنم، وهو باب الطبقة العليا، وسكانها العصاة من أمة محمد ﷺ.

(١) حديث: «إن الله جميل يحب الجمال» تقدم فى ص ٦٢٦.

(٢) الحديث الذى أشار إليه الشيخ وهو: «من عشق وكنم وعف فمات فهو شهيد» موضوع رواه الخطيب والثعالبي وابن عساكر، وأورده الألبانى تحت رقم ٤٠٩ وقال: موضوع.

قلت: قد تكلم كثير من العلماء فى هذا الحديث: فمنهم من ضعفه فقط، ومنهم من قال: إنه موضوع، وحاول بعض المتأخرين تقويته بمجيئه من طرق آخر، إلا أن جميع الطرق لا تخلو منها واحدة من قدح شديد؛ لذا فإنى أميل إلى ترجيح قول من قال بوضعه، والله أعلم.

ولظى، وسكانها الوثنيون. والحطمة، وسكانها النصارى. والسعير، وسكانها اليهود. والزمهير، وسكانها فرعون وقومه، وسقر، وسكانها قوم عاد، والهارية، وسكانها المنافقون وقوم نوح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وفيها من أنواع الوبال والنكال ما لا يحيط به الوصف.

يروى أن النبي ﷺ ليلة أسرى به مرَّ على النار فسمع أصواتاً منكراً؛ فقال: يا جبريل، ما هذه الأصوات المنكرة التي يقشعر منها الجلد؟ فقال: تلك النار تسأل ربها، قال: وما تسأله؟ قال: إنها تقول: اشتد حرى، وبعد قعرى، وأكل بعضى بعضاً، وقد كثر ضريعى وغسلينى وغسقتى وزقومى وحميمى وعقاربى وحياتى وقبويدى ونكالى؛ فأتنى ما وعدتنى.

فقال ﷺ: «أيما مسلم يقول كلما أصبح وأمس: اللهم أجرنى من النار، سبع مرات، إلا قالت النار: اللهم أجره منى، فكتب الله له جوازاً من النار. وأيما مسلم قال كلما أصبح وأمسى: اللهم ارزقنى دار الفردوس، سبع مرات، إلا وقالت الجنة: اللهم ارزقه إياى، وكتبه الله فى ديوان أهل السعادة».

• ثم قال رحمه الله:

١٤٨ - وَكُنْ قَائِلًا خَيْرًا أَوْ اصْمِتْ وَذَرُ حَبًّا

فَمَا لَاقَ إِلَّا بِالْمَجُوسِ حِجَاءُ

قوله: «وكن قائلاً خيراً أو اصمت»؛ أى: كن أيها المرید الطالب النجاة لنفسه قائلاً خيراً: من تعليم علم، أو قراءة قرآن، أو ذكر، أو نصح لأخ فى الله، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر. وهو واحد من الأحاديث الأربعة لأزمة الخير، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).

(١) حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان وابن ماجه.

وأوله عند البخارى: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» وبقية ما أورده الشيخ، وهو عنده فى كتاب الآداب.

والثاني: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١).

الثالث: قوله ﷺ: «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه»^(٢).

الرابع: «لا يخطبن أحدكم على خطبة أخيه، ولا يسم على سومه»^(٣).

فالحديث الأول مشتمل على ربيع المعاملات النفسية، والثاني على ربيع المناصفت والأخوة والمعاضدات، والثالث على ربيع المسلمات والاحترازات والتورع وترك الشبهات والمناصحات، والحديث الرابع مشتمل على ربيع المعاملات الشرعية كالأنكحة والبيوعات والأجرات والجعول والمغاسات والشفعة والتشفيع والأقضية والقضاء وحكم التركات والوصايا إلى غير ذلك.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: من أراد الكلام فعليه أن يفكر قبل كلامه، فإن ظهرت المصلحة فليتكلم، وإن شك فلا، حتى تظهر المصلحة.

وفى الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم الناس من لسانه». وفي رواية: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»^(٤).

(١) حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» حديث حسن رواه الترمذى وابن ماجه، وأورده السيوطى تحت رقم ٨٢٤٣ ورمز له بالصحة، قال المناوى: حسنه النووى فى الأذكار، بل وصححه ابن عبد البر، وقال الهيثمى: رجال أحمد والطبرانى ثقات، وقال مرة: فيه محمد بن كثير بن مروان، وهو ضعيف. وقال آخرون: لا يصح إلا مراسلاً (١٣/٦) فيض، والله أعلم.

(٢) حديث: «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وهو عند البخارى فى كتاب الإيمان.

(٣) حديث: «لا يخطبن أحدكم على خطبة أخيه»... إلخ. متفق عليه رواه مسلم بهذا اللفظ (١٣٨/٤) كما رواه البخارى بلفظ: «نهى ﷺ أن يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب» (كتاب النكاح)، والله أعلم.

(٤) حديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» متفق على صحته، رواه الشيخان وأحمد والترمذى والنسائى والحاكم.

ولفظ البخارى: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، كتاب الإيمان.

وفى كتاب الترمذى: عن عقبة بن عامر قال: قلنا: يارسول الله، فيم النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسمعك بيتك، وابك على خطيئتك»، وهذا حديث حسن.

وفى كتاب الترمذى أيضاً وابن ماجه: عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حسن المرء تركه ما لا يعنيه»^(١).

والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة، وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفق.

وأما الآثار عن السلف وغيرهم فى هذا الباب فكثيرة لا حصر لها، لكنى أنتخب من ذلك روائع الحكم النفيسة.

منها: ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب؟ قال: أكثر من أن تحصى، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها؛ قال: ما هى؟ قال: حفظ اللسان.

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه لصاحبه الربيع: يا ربيع، لا تتكلم فيما لا يعينك؛ فإنك تملك؛ الكلمة ما لم تتكلم بها، فإذا تكلمت بها ملكتك.

وقال بعضهم: مثل اللسان مثل السبع: إن لم توثقه أهلكك أو كاد.

وفى ذلك يقول الشاعر: (من بحر الكامل)

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغَنَّكَ إنه ثعبانٌ

كم فى المقابر من قتيل لسانه قد كان هاب لقاءه الشجعانُ

وقال الفارسى رضى الله عنه: (من بحر الوافر)

لعمرك إن فى ذنبى لشغلاً لنفسى عن ذنوب بنى أمية

على ربي حسابهمُ إليه تناهى علم ذلك لا إليه

وقال رضى الله عنه: إذا تم العقل نقص الكلام.

وقال أعرابى: رب منطق صدع جمعاً، وسكوت شعب صدعا.

(١) حديث: «من حسن المرء تركه ما لا يعنيه» تقدم فى الصفحة السابقة.

وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت،
والعاشر في العزلة عن الناس.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

لعمرك إن الحلم زينٌ لأهله وما الحلم إلا عادة وتَحَلُّمٌ
إذا لم يكن نطق الفتى عينَ حكمة وعلم فإن الصمت أولى وأسلمٌ

وقال ابن عيينة: من حرم النطق بالخير فليصمت، فإن حرمهما فالموت خير له
من الحياة.

وقال عليه السلام لأبي ذر: «عليك بالصمت إلا من خير؛ فإنه مطردة للشيطان، وعون
على أمر دينك».

ومن كلام الحكماء: من نطق في غير خير فقد لغا، ومن نظر في غير اعتبار
فقد سها، ومن سكت في غير فكر فقد لها.

وقيل: لو قرأت صحيفتك لأغمدت صفيحتك، ولو رأيت ما في ميزانك
لختمت على لسانك.

ولما خرج يونس من بطن الحوت طال صمته؛ ف قيل له: ألا تتكلم؟ فقال:
الكلام هو الذي صيرني في بطن الحوت.

وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

وكان يقال: من السكوت ما هو أبلغ من الكلام؛ لأن السفیه إذا سكت عنه كان
في اغتمام. وفي ذلك يقول الشاعر: (من بحر الوافر)

إذا نطق السفیه فلا تجبه فخير من تحاوره السكوتُ

وقيل لرجل: بم سادكم الأحنف فوالله ما كان بأكبركم سنًا ولا بأكثركم مالاً؟
فقال: بقوة سلطانه على نفسه.

ويروى أنه اجتمع أربعة ملوك، فقال ملك الفرس: ما ندمتُ على ما لم أقل
مرة واحدة، وندمت على ما قلتُ مرارا. وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر
منى على رد ما قلت. وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بكلمة ملكتها فإذا تكلمت

بها ملكتنى . وقال ملك الهند: العجب ممن يتكلم كلمة إن رفعت ضرت وإن لم ترفع لم تنفع .

وكان بهرام جالسا ليلة تحت شجرة، فسمع منها صوتًا، فرماه، فأصابه، فقال: ما أحسن حفظ اللسان، ما هو إلا طائر، ولو حفظ لسانه ما هلك .
وقال عليه السلام: «بكثر الصمت تكون الهيبة» .

وقال عمرو بن العاص: الكلام كالدواء؛ فإن أقللت منه نفع، و إن أكثرت ثقل .

وقال لقمان: يا بنى إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك .
ويروى أن اللسان يقول كل صباح ومساء للجوارح: كيف أنتن؟ فيقلن: بخير إن تركتنا .

ومن غوائله: الغيبة، وهى من أقبح القبائح وأكثرها انتشارا فى الناس، حتى إنه لم يسلم منها إلا قليل، وهى ذكر الإنسان بما فيه مما يكرهه، سواء كان فى دينه أو فى بدنه أو نسبه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابتك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك .

أما الغيبة البدنية فقولك: هو أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود ما لم يقصد بذلك تعريفاً فلا بأس به .

وأما الدينية فقولك: سارق، ظالم خائن متهاون بالصلاة متساهل بالنجاسات ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها ما لم ترد بذلك التحذير والزجر عن مثل ذلك فيكون من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأما الدنيوية فقولك: فلان متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقاً، وهو كثير الكلام، قليل الأدب، كثير الأكل والنوم، وما أشبه ذلك .

وأما النسبية فقولك: فلان أبوه نجار أو إسكافى أو حداد أو حائك أو حجام أو دباغ أو جزار على وجه التنقيص .

وأما الخلقية فكقولك: فلان سيئ الخلق متكبرٍ وراءٍ معجبٍ عجولٍ جبارٍ ونحو ذلك.

وأما الهيئة فكقولك: فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب ونحو ذلك وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك في غيبته بما يكره. قيل: وإن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(١).

وفي سنن أبي داود: عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفة كذا وكذا - وقال في بعض الروايات: يعنى قصيرة - قال: «قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»^(٢) أى: خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه.

وروى عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والغيبة؛ فإنها أشد من الزنى». ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليزنى، فيتوب؛ فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه»^(٣).

وعن أنس رضى الله عنه: من اغتاب المسلمين بغير حق أو سعى إلى السلطان جىء به يوم القيامة مزرقة عيناه ينادى بالويل والثبور ويعرف أهله ولا يعرفوه. وقال معاوية رضى الله عنه: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدرًا وأقلهم غيبة. وقال الأحنف بن قيس: فى خصلتان: لا أعتاب جليسى إذا غاب عني، ولا أدخل فى أمر قوم لم يدخلونى فيه.

- (١) حديث «أتدرون ما الغيبة»... إلخ. حديث صحيح رواه مسلم، كما قال الشيخ.
 (٢) حديث «حسبك من صفة كذا وكذا»... إلخ. أخرجه أبو داود (٢٢١/١٣) عون، كما أخرجه الترمذى. وقال: حسن صحيح، والله أعلم.
 وفى أبى داود زيادة: «قالت: وحكيت له إنسانًا، فقال: ما أحب أنى حكيت إنسانًا وأن لى كذا وكذا».
 (٣) حديث «إياكم والغيبة فإنها أشد من الزنى»... إلخ. رواه ابن أبى الدنيا وابن حبان فى الضعفاء، وعنهم الغزالي فى الإحياء بهذا اللفظ، وسكت عليه العراقى (١٣٨/٣).

وقيل للربيع بن خيثم: ما لنا لا نراك تغتاب أحداً؟ فقال: لست لنفسي راضياً
فأتفرغ لدم الناس، وأنشد: (من بحر الطيل)

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها لنفسي من نفسي عن الناس شاغلٌ
وقال كثير: (من بحر الكامل)

وسعى إلى بعب عزة نسوة جعل الإلهُ حدودهنِ نعالاً

قال محمد بن حرب: أول من اغتاب إبليس، اغتاب آدم عليه السلام.

ويروى أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من
يدخل الجنة، وإن أصر فهو أول من يدخل النار.

وفى الحكم: لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك، ولا من اغتاب عندك
غيرك أن يغتابك عند غيرك.

وقيل للحسن البصرى رحمه الله: إن فلاناً اغتابك؛ فأهدى له طبقاً من
الرطب؛ فأتاه الرجل فقال: اغتبتك فأهديت إلى؟! فقال الحسن: أهديت إلى
حسناتك فأردت أن أكافئك.

وعن ابى المبارك رحمه الله: لو كنت مغتاباً أحداً لا اغتبتُ والذى لأنهما أحق
بحسناتى.

وكان بعض المتفقهين يعرضون بالغيبة تعريضاً يفهم به كما يفهم بالتصريح،
فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يصلحنا، الله يغفر لنا، الله
يصلحه، أسأل الله العافية، الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، نعوذ
بالله من الشدة، ويعافينا الله من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك مما
يفهم به تنقيصه إياه؛ وكل ذلك غيبة محرمة.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع
استماعها، فيجب على من سمع إنساناً يبتدىء بغيبة أحد أن ينهأه إن لم يخف
ضرراً في خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، أو مفارقة ذلك المجلس إن تمكن من
مفارقتة، فإن قال بلسانه: اسكت، وقلبه يشتهى سماع ذلك فإنه قد جمع بين
الغيبة والنفاق، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى

يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ ﴿ [الأنعام: ٦٨].

وَأَنشَدُوا فِي الْمَعْنَى: (من بحر المتقارب)

وسمعتك صنُّ عن سماع القبيح
فإنك عند سماع القبيح
ولم أر أعجز من طالب
كصون اللسان عن النطق به
شريك لقائله فانتبه
فوافى المنية في مطلبه^(١)

ومن غوائل الكلام أيضاً النسيمة، وهي من الكبائر وفي الصحيحين: عن حذيفة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام».

وفي رواية: «لا يدخل الجنة قتات»^(٢) ولا نمام ولا لحم ربا من حرام»^(٣).

وروى أن النبي ﷺ مرَّ على قبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان يمشى بالنسيمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله»^(٤). وفيه يقول الشاعر:

كم خرب المنام من قصر مشيد . بشفتيه لا بفأس من حديد
فأبعد المنام من بعيد

قال أبو موسى الأشعري رضى الله عنه: لا ينبغي أن يكون المنام إلا ولد بغى.

وروى أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بشراكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله،

قال: أشراكم المشاءون بالنسيمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون العيوب»^(٥).

(١) في النسخة (ب): وكم أزعج الحرص من طالب.

(٢) القتات: النقال للحديث على وجه الإفساد.

(٣) حديث «لا يدخل الجنة قتات»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى.

وهو عند البخارى بلفظ: «لا يدخل الجنة قتات» فى كتاب الأدب.

(٤) حديث «أن النبي ﷺ مرَّ على قبرين فقال إنهما ليعذبان... إلخ». حديث متفق على صحته رواه

الشيخان (٣٩٤/١٠) بخارى، و (١٠٥) مسلم، كما أخرجه أبو داود والترمذى. وفى إحدى روايات مسلم: «لا يستتزه من بوله».

(٥) حديث «ألا أخبركم بشراكم»... إلخ. رواه أحمد، وعنه الغزالي (١٥١/٣)

ويروى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شقار، ملعون كل قتات، ملعون كل غمام، ملعون كل فتان». والشقار: هو المحرش بين الناس حتى يوقع القتال بينهم أو يكاد، وهو من خطباء الفتنة. والقتات: من جعل شغله وعادته النسيمة. والمنان: الذي يعمل الخير ويمن به.

وأما السعاية إلى السلطان أو إلى السلطان أو إلى كل ذي قوة فهي المهلكة والحارقة؛ إنها تجمع الخصال الذميمة من الغيبة والنسيمة والتغريب بالنفوس والأموال بالنوازل والأحوال، وتسلب العزيز عزه، وتحط المكين عن مكانته، والسيد عن مرتبته، فكم دم أراقه سعى ساع، وكم حريم استبيح بنسيمة باغ، وكم من صفيين تقاطعا، ومن متواصلين تباعدا، ومن متحابين افترقا، ومن لبيبين تهاجرا، وكم من زوجين تظالقا؛ فليتق الله ربه رجل ساعدته الأيام أو تساعدت عليه الأقدار أن يصيح لساع أو يستمع لنمام.

ووجد في حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعي: هو الرجل الذي يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه.

وقال بعض الحكماء: احذروا أعداء العقول، ولصوص المودات، وهم السعاة والنمامون، إذا سرق اللصوص المال سرقوا هم المودات.

وفى المثل السائر: من أطاع الواشى ضيع الصديق. وقد تقطع الشجرة وتنتب ويقطع اللحم بالسيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه.

ورفع إنسان إلى الصاحب بن عباد براءة يحثه فيها على أخذ مال يتيم، وكان مالا كثيرا، فكتب إليه على ظهرها: النسيمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله، واليتيم جيره الله، والساعي لعنه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله: «وكن قائلا خيرا»: كن: فعل أمر ناقص. قائلا: خبرها، واسمها مستتر وجوبا مفعول اسم الفاعل. أو اصمت: عاطف ومعطوف. وذر: فعل أمر.

حجا: مفعول به، وهو بالفتح والقصر: كالحجاء، بالكسر والمد: زمزمة المجوس على الطعام، وهو صوت يخرجونه من خياشيمهم يتفاهمون به لحرمة الكلام

عليهم إذ ذاك بزعمهم .

ولذلك رغب الشارع في الكلام على الطعام مخالفة لهم، ويحصل مقصود الشارع بالترغيب في الكلام بدون المبالغة فيه والإكثار منه، لا كما يفعله الجهلة حيث استشعروا هذا الحكم من مجاوزة الحد فيه والتغالي؛ فيؤدى إلى ما لا يليق من ضجر الجليس وإدخال الفتنة عليه من غير فائدة، وربما حمل المؤاكل له على سرعة الجواب، والحال أن الطعام في فيه، وربما حمله ذلك على سرعة جوابه بدون إنعامه المضغ، فأدى إلى البشم وضرر المعدة وربما أورثت كثرتة العطش، وسببه أن آلة الكلام والنفس، وهى الرئة، من شأنها أن تروح على الباطن بإخراج النفس منه وإدخال الهواء إليه، وذلك الترويح موقد للحرارة الغريزية، فكلما كثر الكلام كثر النفس، فتشتد لذلك الإيقاد الحاجة إلى الماء فيشربه، وشرب الماء فى أثناء الأكل أو بعده ييسر مضر بالبدن عند أهل الطب مفسد لقوة الطعام مؤد إلى استرخاء الأمعاء وتكثير الرطوبات .

وقد خرج الناظم عن عادته فى هذا البيت؛ فاقصر فيه على ذكر كلمتين، وهما الحجا والحجاء؛ لعدم وجود كلمتين يكمل بهما العدد الذى التزمه فى غيره من الأبيات .

وزممة المجوس وما فى معناها مما لا يفهمه جميع الناس كالعجمية فإن ذلك من التناجى المنهى عنه؛ لقوله ﷺ: «لا يتناجى اثنان دون الثالث»^(١) .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المجادلة: ١٠] .

والى ذلك يشير الناظم فى قوله: «فما لاق إلا بالمجوس حجاء» .

ولما انتهى كلامه على ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد والمعنى واحد شرع فى الكلام على:

(١) حديث «لا يتناجى اثنان دون الثالث» متفق على صحته رواه الشيخان بلفظ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه»، البخارى فى كتاب الاستئذان، ومسلم فى كتاب السلام، والله أعلم .

باب ما يكسر في قصر ويفتح فيمد والمعنى واحد

وهذا الباب على العكس من الذي قبله.

• ثم قال رحمه الله:

١٤٩ - سَوَى الْحَقِّ فَارْفُضْ وَالضَّلَالُ سَوَاءَهُ

وَدَعْ ذَا قَلِي يُنْمِي لَدَيْهِ قَلَاءُ

سوى الشيء، بالكسر والقصر، وسواءه، بالفتح والمد: غيره. والقلبي، بالكسر والقصر، والقلاء، بالفتح والمد: البغض. والرفض: الترك، رفضه يرفضه ويرفضه، بالكسر والضم في المضارع. وينمي، بضم الياء وفتح الميم: مضارع نمى، مبنى لما لم يسم فاعله: أى يرفع وينقل ويذاع على وجه الفساد كإسماء الحديث. وقد أخرج الناظم «سوى» عن الحرفية فجعلها مفعولاً به فى قوله: «سوى الحق فارفض»، وخبراً فى قوله: «فالضلال سواءه» جرياً على مذهب الكوفيين،. خلافاً للبصريين فإنها لا تخرج عندهم عن الحرفية إلا فى ضرورة الشعر. وقد صحح الناظم مذهب الكوفيين بكثرة ورودها متصرفة فى الأشعار من غير اضطرار: فمن ورودها فاعلاً قول الشاعر: (من بحر الوافر)

ولم يبق سوى العدو ن دنّاهم كما دانوا

ومن شواهد صرفها عن الحرفية للمفعولية قول الشاعر: (من بحر الطويل)

تجانف عن جو اليمامة ناقتي فما قصدت من أهلها لسوائكا

فاللام زائدة وسوائك مفعول به.

ومن شواهد كونها مبتدأ قول الشاعر: (من بحر الطويل)

وإذا تباع كريمة أو تشتري فسواك بائعها وأنت المشتري

فكان الناظم يقول: اترك غير الحق، فالضلال غيره، والضلال يجب رفضه؛ فارفضه، وارك أيضاً شخصاً صاحب بغض لإخوانه المؤمنين، أى: اهجره فى الله،

ودعه، وابعضه في حال كونه يضاعف عنده البغض؛ أو يذاع ويفشى على وجه الفساد؛ مخافة أن يعديك بذلك؛ فتصير ذا بغض؛ فإن من المعلوم أن الطباع تسرق من الطباع، واتركه تنج من شره وما تكسبه خلطته من الإثم لتعذر السلامة من ذلك؛ إذ لا يؤمن على من خالطه من تقصير فيما يجب عليه من النهي له والذب عن أعراض المسلمين؛ لأن النبي ﷺ يقول: «التحجب إلى الناس نصف الإيمان». وفي رواية: «التودد إلى الناس نصف الإيمان، والاقتصاد نصف العيش»^(١).

فإذا تساهل من يصاحبه بذلك صار شريكاً له في بغضه؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه لما ظهروا على بغض المنافقين للمسلمين هجروهم وأغلظوا عليهم وأهانوهم من غير قتل، وفي رسول الله ﷺ وأصحابه أسوة حسنة. على أن من يخالطه يلقي منه البرح الثقيل لبغضه، وما يقتضيه طبعه؛ فيثقل ذلك عليه إن كان من المؤمنين المسلمين، فإن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه. فإذا كان ذلك كذلك فلا يجوز ذلك إلا على من في إيمانه دخل، والعياذ بالله، فكما لا يحتمل الإيمان حب الكافر لا يحتمل بغض المؤمن مجاناً من غير فسق ولا عدوان، بل ولو كان فاسقاً؛ فإنه في تلك الحالة يجب إظهار البغضاء والغلظة مع إقامة قسطاس الشريعة عليه، وتجب الرحمة والرفقة عليه لأنه أخوك مقهور، ولا تكن عوناً للشيطان عليه؛ فلا يجمع عليه الحد والشتم، بحيث لو وجدت مندوحة إلى ارعوائه بالتلطف والقول اللين لكان ذلك أولى وأليق بالحال.

قال الرسول ﷺ: «من نصح أخاه في العلانية فقد شانه، ومن نصحه في السر فقد زانه».

قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

(١) حديث «التودد إلى الناس»... إلخ. سبق.

• ثم قال رحمه الله:

١٥٠ - وَلَيْسَ مَعِيًّا ذُو الصَّبَا لَصَبَائِهِ إِذَا حُمَّ لِلْبَاغِي قِرَاءُهُ قَرَاءُ

قوله: «وليس معيًّا ذو الصبا»: ليس^(١): حرف نفى ونسخ. معيًّا: خبره. ذو الصبا: اسمه ومضاف إليه ما قبله. لصابائه: جار ومجرور متعلق بمعيب، وضمير المضاف إليه عائد على «ذو الصبا» إذا: ظرف لما يستقبل. حم: مبنى للمجهول، قراءه: نائبه. للباغي: جار ومجرور، متعلق بحم. وقراءه قراءه: عاطف ومعطوف، والضمير عائد على الباغي. فالمعيب: اسم مفعول من عابه يعييه: إذا نسب إليه عيباً. والصباء، بالكسر والقصر: كالصباء، بالفتح والمد: أصغر الأسنان، بل يقال: أول أسنان الإنسان وليد، ثم صبي، ثم رضيع، ثم فطيم، ثم جفر، ثم غلام، ثم مراهق، ثم بالغ، ثم فتى، ثم شاب، ثم رجل إذا بلغ أشده، ثم كهل، ثم نصف، ثم أشمط، ثم شيخ، ثم معمر، ثم هرم، ثم فان.

والقرى، بالكسر والقصر: كالقراء، بالفتح والمد: الضيافة. وحم الشيء، بالبناء للمفعول به: قدر، ويطلق ويراد به قرب.

قال الشنفرى: (من بحر الطويل)

لقد حمت الحاجات والليل مقمر
وشدت لطيات مطايا وأرحل
ومنه حم الأمر وجاء النصر.

فكأنه يقول: إذا قدمت الضيافة لطالها لم يُعبُ ذو صغر لصغره عيباً يمنع من استحقاقها، بل الصغير في استحقاقها كالكبير، بل إنما يمنع من استحقاقها مخالفة المضيف وهو الله تعالى، فالقرى المراد به، هنا ما يكرم الله به عباده من الحبور والنضرة والسرور والشرب من الماء الطهور والتمتع بالحور والقصور، مع أنهم متفاوتون في ذلك على حسب مسارعتهن لامثال أوامره واجتتاب نواهيه، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿الواقعة: ١٠-١٢﴾، فلا يضرهم في ذلك صغرهم، ولا يزيدهم به حظوة كبرهم، بل ذلك موكل إلى السابقة الحسنة والعمل الصالح الأسنى.

(١) ليس فعل جامد وليس حرفاً كما قال المصنف رحمه الله.

وفى الصحيح أن النبي ﷺ قال: وقفتُ على رهط من الملائكة وأنا بين النائم واليقظان، فقال قائلهم: مثل الرجل، فقال بعضهم: مثاله رجل صنع مأدبة فيها من كل شيء ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، فلما أكملها بعث رجلاً من خواصه يدعو الناس إليها دعوة عامة، فدعاهم، فمن أجابه أكل منها، ومن لم يجبه بعث أعوانه في طلبه فأخذوه، فعذبه بأنواع العذاب، فالملك هو الله، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أجابه دخل الجنة، ومن لم يجبه دخل النار، جعلنا الله ممن جعله في حزبه وأتحفه بقربه بجاه النبي وصحبه.

• ثم قال:

١٥١ - وَمَا ذُو إِنَّا إِلَّا أَنَاءَهُ بِإِثْرٍ بَلَىٰ وَلِكُلِّ جِدَّةٍ وَبَلَاءٍ

قوله: «وما ذو إنا»: أى: وليس صاحب غاية يراد لها إلا كائن بلاه على إثر أنائه أى: بلوغه غايته، فبلاؤه يعقب جدته، وضعفه يعقب شدته، وفله^(١) يعقب حدته. فهو بالكسر والقصر كالأناء، بالفتح والمد: عبارة عن بلوغ الحد والتناهي بعد الكد والجد.

قال ابن دريد: (من بحر الرجز)

وإن أمتٌ فقد تناهتُ لَدَّتِي وكُلُّ شَيْءٍ بَلَغَ الْحَدَّ أَنْتَهَى

والبلى، بالكسر والقصر: والبلاء، بالفتح والمد: ضد الجديد، بالكسر، وهو قرب العهد بزمان الشباب.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوبٌ جديد كالقديم من الثياب

فكأنه يقول: إن الجديد إذا اكتنفه الجديدان أكسباه بعد جدته بلاء وبعد جودته فناء من غير تراخ؛ إذ لا مرتبة ثالثة تتوسط بين الجدة والجودة والبلى والبلاء.

قوله: ولكل جدة وبلاء: أى لكل من الحوادث التى لها غاية وأناء وجدة وبلاء

(١) الفل: ذهاب العقل، أو المال، والمعنى: أن الإنسان بعد حدة عقله يذهب عقله مع الكبر.

ورخاء غاية تنتهي إليها؛ فاسكن عند اشتدادها، وأرض بقضاء الله عند امتدادها، ولا تتعب نفسك بدفعها وعنادها، حتى تنقضي مدتها، ففي الجزع عند تراكمها زيادة تعاضمها.

قال ﷺ: «إن الإيمان يخلق في الصدور فجدوه بالاكثار من قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ».

وقال على كرم الله وجهه: إذا نزلت بكم الشدائد فنفسوا عنكم ألمها وخففوا عنكم أعباءها بانتظار الفرج من الله؛ فإنه ما من شدة إلا يأتها فرج قريب.

وإن الحوادث تبلى وتجد كما يبلى الثوب ويجد؛ فما من رخاء إلا وبعده شدة، ولا من شدة إلا ويعقبها رخاء. فالكرام لا يجزعون عند نزول الشدائد كما لا يفرحون عند وجود الزوائد. قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

ويروى أن تميمًا الداري رضى الله عنه لما اختطفه العفرية الذي بلغ به منتهى المعمور أنشأ يقول: (من بحر الوافر)

وصار الغار كاللبن الحليب إذا شاب الغراب أتيت أهلي

فأجابه هاتف: (من بحر الوافر أيضاً)

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

وتفرج كربة ويفك عان ويبلغ أهله النائي الغريب

فبينما هو يطوف في جزائر البحر المحيط إذ عن له رجل وهو قائم يصلى في روضة خضراء، فقصده حتى أتاه، فسلم عليه، فتجوز في صلاته، ثم انفتل إليه فقال له: أأنت تميم الداري؟ قال: أجل بأبي أنت وأمي، من أين عرفتنى؟ قال له: عرفتك وأنت مع رسول الله ﷺ، فقال: وأنى لك بمعرفة رسول الله ﷺ وأنت فى منقطع المعمور؟ فقال له: إنى لصاحبه كما أنك صاحبه، أو ما تعرفنى؟ قال له: كيف أعرفك؟ قال: أنا الخضر^(١).

(١) لم يثبت أن الخضر قدم على النبي ﷺ ولا صحبه ولا رآه، بل ولم يثبت أنه موجود على عهد النبي ﷺ وما بعده، والله أعلم.

فبينما هو عندى إذا بسحابة قد أقبلت من المشرق، فأشار إليها الخضر عليه السلام؛ فأقبلت تهوى حتى وقعت عليه والملائكة آخذون بأطرافها يسبحون الله ويهللون ويقدسونه، فقال لهم الخضر عليه السلام: أى بلاد الله تؤمون؟ فقالوا: مدينة رسول الله ﷺ، قال: هلم فاحملوا صاحب رسول الله ﷺ إلى منزله بالمدينة، فركب السحابة، وأمره بإغماض عينيه، فغمض عينيه، فما ساروا إلا هنيهة فإذا هو بالمدينة وقد أمطرت، فوجد زوجته وقد تزوجت، إلا أنها لم يدخل بها، فتنازعا؛ فأمرتُهما المرأة بالاعتزال، فاعتزلا فى بيت، فلما أصبحتا عمر رضى الله عنه ليتحاكما إليه، فعرفه عمر والصحابة، فاستخبروه؛ فأخبرهم بما رأى من العجائب، وقد تغيرت هيئته لما رأى من الشدائد، فقال عمر: أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليرين تميم هذا من العجائب ما لم يره أحد من أمتي»^(١)؛ ففسخ عمر نكاح الرجل، وأمره بالذهاب إلى منزله وزوجته.

• ثم قال رحمه الله:

١٥٢ - وَقَبْلَ إِيَّأِ بَادِ أَيَّاءٍ مُّغِيبٍ وَبَيْنَا رَوَى يَحْلُو أَمْرَ رَوَاءٍ

الإياء، بالكسر والقصر، كالأياء، بالفتح والمد: ضوء الشمس. والرؤى، بالكسر والقصر، والرؤاء، بالفتح والمد: الماء الروى. وبيناء، بالألف: لغة فى بين فيقال، بينا، بالألف، من غير ميم، وبينما بالميم. وحلا الشيء يحلوه فى الفم، وحلى كرضى يحلّى فى العين، يقال: امرأة حلوة: إذا كانت العين ترومها وتميل إلى حسنها وملاحظتها.

قالت عائشة رضى الله عنها: كانت جويرية امرأة حلوة، ذات ملاحه، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، وقد كاتب ثابت بن قيس بن شماس، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فى باب حجرتى كرهتها،

(١) قصة تميم هذه غير صحيحة بهذا السياق، وإنما صح عنه كما هو فى مسلم أنه هو وجماعة من قومه ركبوا البحر فى سفينة، فتكسرت بهم، ووجدوا الدابة والدجال، وأن تميمًا أخبر بذلك رسول الله ﷺ، فأمر أن يجتمع الناس، وقص عليهم حديث تميم (٢٠٧/٨) م، أما كونه وجد الخضر فذلك لم يثبت والله أعلم.

وعرفت أنه سيرى منها ما رأيتُ، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لا يخفى عليك، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسي؛ فجئتك أستعينك على كتابتي قال: هل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله ﷺ؟ قال: أفضى كتابك وأتزوجك. قالت: قد فعلت. فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية، فأرسلوا ما بأيديهم من السبى. قالت: فلقد أعنت بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

وأمر الشيء، بالألف: صار مرأً، وهو الصحيح المرتضى، وقد يقال: مرٌّ، بدون ألف، وهو على غير قياس.

قال الشاعر: (من بحر الكامل)

ولئن أمر بكل آن ليلة فلربما انجلى بليل مصبح

فكأن الناظم يقول: إن قابل ضوء الشمس الذى يظهر ضوءاً آخر متقدم عليه مغيب^(١)، وكما انقضى ذلك المغيب ينقضى هذا الظاهر، إذ لولا انقضاء المغيب لم يكن للظاهر ظهور، ولكل شيء تدعو إليه ضرورة الحياة ويوجب العيش فإن جلأه كالماء المروى ينتقل من حالة حلاوته إلى حالة مرارته؛ إما لكونه مرأً زعاقاً، أو ملحاً أجاجاً لطبعه، أو لما يعرض للإنسان من العوارض التى تقتضى مرارة العذب الزلال فى فيه كالحمى الصفراوية والسّم الشديد.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

ومن يك ذا فم مرّ مريضٍ يجسد مرأً به الماء الزلالا

وقال جساس لأبيه لما قتل كليلاً سيد بنى وائل: (من بحر الوافر)

تأهب عنك أهبة ذى وشاح فإن الأمر جل عن التلاحى

فإنى قد جنيت إليك حرباً تُغصُّ الشيخَ بالماء القراح^(٢)

(١) هذه العبارة فى النسختين غير واضحة، وفيها تفكك.

(٢) العجز فى (ب) هو: (يقضى الشيء بالماء القراح)، وهو الصواب.

واعلم أن المرارة تعقب الحلاوة من غير تراخ إذ لا واسطة بينهما، فبينما الشيء حلوا إذ صار مرّاً، وليس المراد بهذا خصوص الماء بالمرارة، وإنما المراد كل ما لا يوافق الطبع ولا يجلب النفع من حال أو مكان أو زمان.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وكم من يدٍ قبلتها عن ضرورة
ولكن على حلوا الزمان ومره
وكان هوائى قطعها لو يُمكنُ
أدافع عنى بالتى هى أحسنُ

وقال غيره:

إذا ما الدنيا احلوت أمرت وإن هى استلانت قست

وإن هى استقامت توت

وهذا منه مبالغة فى تقلب الزمان ومحاينة^(١) الأحيان وتغير الأعيان. والمقصود التزهيد فى الدنيا بالتنفير من متاعها لانتهاى غايتها إلى التنغيص، والمراد بعد النزهة والافتخار وبعد الحلاوة والبهاء يأتى العنقفير^(٢) الدهماء. وما زهد من زهد فى الدنيا إلا بوجدان مراراتها. وفى الحديث: «يا دنيا مرى على أوليائى ولا تحلوى لهم فتفتنيهم»^(٣).

(١) المحاينة: انتظار وقت معين.

(٢) العنقفير: الداهية.

(٣) حديث «يا دنيا مرى على أوليائى» تقدم.

باب ما يكسر في قصر ويضم فيمد وعكس ذلك والمعنى واحد

هذان نوعان من المقصور والممدود: الأول ما يقصر إذ كسر، وإنما جعلهما في ترجمة واحدة لأنه لم يجد لكل منهما على حدته العدد الذي يتضمنه البيت من الكلمات حسبما التزم ذلك؛ إذ ليس للأول إلا كسر الفاء مع القصر وضمها مع المد، ولا للثاني إلا اللقي بالضم والقصر، واللقاء بالكسر والمد، حسبما تضمن ذلك قول الناظم رحمه الله:

١٥٣ - وَذُو الْقَرْفِصَى عَنْ قُرْفِصَاءَ مُحَاسَبٌ

غَدَاً فِي اللَّقَى فَلْيُخْشِينَ لِقَاءَ

قوله: «وذو القرفصى»: يعنى أن صاحب جلسة القرفصى، بالقصر والكسر، وكذلك بالضم والمد: هيئة المحبى بيده لا بثوبه، تقول: قرفصت فلاناً: إذا شدته جامعاً يديه تحت ركبته. واللقي، بالضم والقصر، واللقاء، بالكسر والمد: مصدر لقيت. وفي شرح التسهيل قال: لا أعلم مصدراً على فَعَلٍ إلا اللقى والقفى والهدى والبكا والسرى.

فكانه يقول: إن الشخص صاحب الجلسة المخصوصة المسماة بالقرفصى محاسب لأجلها؛ فيسأله الله عما قصد بها يوم القيامة، وهو يوم لقائه تعالى، فلا تخفى عليه خافية من أفعال العبيد، فيسأله عما قَلَّ وجل منها حتى جلسة القرفصاء مثلاً، ومن نوقش الحساب فقد عذب.

يروى أنه ﷺ بينما هو جالس في حجر عائشة رضی الله عنها إذ تذكر الحساب فقال ﷺ: «من حوسب عذب» فقالت عائشة رضی الله عنها - وكانت كثيرة الغوص على المعانى - فقالت له: كيف ذلك يا رسول الله؟ بعد أن قال الله في كتابه: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٨ وَيُنْقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ [الانشقاق: ٨، ٩] فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرْضُ وأما من نوقش الحساب فإنه يعذب» ^(١).

(١) حديث «من نوقش الحساب»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان بلفظ: «من نوقش الحساب عذب» وفي الطبراني: «من نوقش المحاسبة هلك» والله أعلم.

وذلك أن العبد لا محالة محاسب عند اللقاء؛ فينبغي أن يكون أخوف شيء عنده اللقاء، فيقتضى فحور الكتاب تخويف العبد من اللقاء لأجل ما يكابده من معاناة الحساب؛ وذلك المقصود من قول الناظم: «فليخشين لقاء»: مركب للمجهول موصول بنون التوكيد ليكون ذلك أبلغ في التهويل، أى فليرهبن من اللقاء لأجل ما فيه من المحاسبة التي من حقها أن يشيب من هولها العذارى النواهد لشدة بأسه وأليم تعسه، وقد أجم الناس الفرق، وكثر الخوف والقلق؛ إذ صارت أفئدتهم هواء، والجبال هباء، ولم يبق الله أرضاً ولا سماء، وأقبلت النار بزفرتها وقد دهم الناس هول غمراتها، فهم جاثون على الركب، فلم ينتفعوا بالمال ولا بالحسب، وهم يخافون أن يكونوا من جملة الخطب، وقد ذهلوا من رحبة اليحموم واللهب، وتيقنوا حلول المحذور والعطب، فلا شفيع يشفع، ولا حميم ينفع، ولا حلية لماحم تدفع، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فيشفع الحبيب المنتخب المرتضى، لجميع الخلق فى الفصل بينهم والقضاء، من بعد ما ألهمت كل نبي مرسل نفسه، ولم يبال ما فعل ابنه ولا عرسه، حتى إذا أذهل المخصص بحضرة القدس الغمرات، وأزال عن جميع السكارى المكسرات، فنشر اللواء، وذهب الأواء، وانزاحت بظهور طلعه الغماء، وانقشعت الشدة واضمححل البلاء، فيشفع حينئذ الشفعاء، وتنشر الآلاء والنعماء، فمن أدخل الجنة فقد فاز، ونجا من جميع المكاره وفاز؛ جعلنا الله من أولئك، وامتعنا بقرة العين فيما هنالك، آمين.

قال رحمه الله:

باب ما يضم فيقصر ويفتح فيمد وانعنى واحد

يعنى أن المقصور مضموم لا مفتوح، والمدود مفتوح لا مضموم.

• ثم قال رحمه الله:

١٥٤ - وَإِنْ كُنْتَ ذَا رُغْبَىٰ فَرَغْبَاءَكَ فَاصْرَفَنَّ

لِدَارِ الْبَقَىٰ مَا فِي دُنَاكَ بَقَاءُ

قوله: «وإن كنت ذا رُغْبَىٰ»: أى: وإن كنت أيها المؤمن أو المرید أو السالك صاحب رغبة أو لك رغبة لا محالة أو ميل لنفسك إلى شىء فاصرف رغبتها إلى ما هو أهل للرغبة، ورد محبتك إلى دار البقاء إن لم تكن لك همّة عالية تسمو بك إلى استفراغ رغبتك وقصور محبتك عل محبة الواحد القهار دون دار القرار، فكيف ترضى همّة موحد عارف أو ولى مكاشف بإعطاء ذرة من محبته لهذه الدار المملوءة بالأكدار، لأنه لا يرضى بمحبة مالا يبقى إلا الحمقى.

فالرغبي، بالضم والقصر، كالرغباء، بالمد والفتح: الرغبة فى الشىء. والبقي، بالضم والقصر: لغة فى البقاء، بالفتح والمد.

يروى أن الله جعل لكل نبي دعوة مستجابة، فكل من الأنبياء قدمها فى الدنيا إلا نبينا ﷺ، فإنه ادخرها للعقبى اختياراً منه للدار الباقية على الدار الفانية، وذلك من علامة سمو قدره، وعلو همته، وفخامة شرفه، وظهور فضله على جميع الرسل، كما اختار كونه نبياً عبداً لما خير بين أن يكون نبياً ملكاً، فلما اختار العبودية المحضة رفعه بها إلى غاية لم يبلغها نبي مرسل ولا ملك مقرب؛ فأسرى به إلى حضرة القدس ومحل الأئس، وحضرة الكفاح ورؤية الملاح، فكع دون سيره جبريل، وقصر دون ما ناله الكليم والخليل، فأبهم الأمر على وجه التعظيم وضرب من دونه حجاباً ليدل ذلك على التفخيم، فقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، ثم وصفه بوصف خص به دون السوى؛ إذ هو صاحب اللوا، فقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] وما تلجلج اللب وما بنى ولا طاش

اللسان ولا لغا، وما مال الحاضر ولا شغا، بل تواطأ القلب والقالب والحضرة والحضيرة، والأدب والتأديب، والقربة والتقريب، والحب والتحبیب، والنسبة والانتساب، والحظوة والاكْتساب، والطفو والرسوب، والحضرة والعزوب، إذ قرب من حضرة الرب المربوب، قرب مكانة لا قرب مكان، وسير تحبب لا سير زمان، برمز قول الرسول ﷺ إذ أفتى: «لا تفضلوني على يونس ابن متى»^(١)، وفي تزييه نفسه في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ما يدل على نفسى قربه وبعده، فسبحان من ليس بالقرب وصلأً ولا بالبعيد فصلأً، فهو أقرب من جبل الوريد في الهداية والتسديد وأبعد من العرش المجيد في حالة الخذلان والتبعيد. فستان ما بين من قيل في حقه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] وبين من قيل في حقه: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] وبين من قيل في حقه: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [٢] وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٢، ٣] وبين من قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، فمغفرته ﷺ على حد اليقين، ومغفرة غيره على حد الرجاء، وكذلك هدايته بالنسبة إلى هداية غيره، فليس قول الله له: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] كقول غيره لنفسه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهْدِينِ﴾ [الصفات: ٩٩]، و ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

• ثم قال رحمه الله:

١٥٥- وَنُعْمَى تَلَىٰ نِعْمَاءَ فَاشْكُرْ مُشْمَرًا لِحُلَىٰ فَذَا الْجَلَاءُ زَانَ عَزَاءُ

قوله: وَنُعْمَى، بالضم والقصر، كنعماء، بالفتح والمد: النعمة في الحالتين. والجُلَى، بالضم والقصر، والجلَاءُ، بالفتح: الحادثة العظيمة.

قال صاحب لامية العجم: (من بحر البسيط)

(١) حديث: «لا تفضلوني على يونس بن متى»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان والنسائي بلفظ: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه» البخارى كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم فى كتاب الفضائل، والله أعلم.

فقلت أدعوك للجُلِّي لتتصرنى وأنت تخذلنى فى الحادث الجللِ

وقال الحجاج بن يوسف: (من بحر الوافر)

أنا ابن جَلًّا وطلاعُ الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

والعزاء: الصبر، وقد قدمت فى أجره ما يشفى ويكفى. ونعمى: مفعول فاشكر. وجملة «تلى»: صفة لنعمى. ومشمرًا: حال من فاعل «اشكر»، والتشمير للأمر: التهيؤ له، والذى فى القاموس بهذا المعنى: التشمير، بفتح الشين المعجمة وضم الميم مشددًا، فالتشمير بمعنى التشمير، ولام الجُلِّي للتعليل. وذا الجلاء، بالنصب: مفعول زان، وعزاء: فاعله.

فكأنه يقول: اشكر النعمى بعد النعماء، وتهياً لأجل حلول البلوى؛ فإن ذلك مما يعينك على الصبر عليها. والعزاء زين لصاحب الجلاء والعزاء الصبر؛ فقد اشتمل البيت على مقصدين عظيمين لا محيص لأحد عنهما: وهما الصبر على البلوى، والشكر على النعماء، فلا بد من الجمع بينهما لعدم قيام أحدهما مقام الآخر؛ فالشكر لا يسقط الصبر، والصبر لا يسقط الشكر، وقد قدمت فى صدر الكتاب فى شأن الصبر والشكر «ما لا مزيد عليه، فالفقير تقتضى حالته الصبر، كما أن الغنى تقتضى حالته الشكر، فلا حالة إلا ويجب عليه الصبر على ما دونها وغضُّ البصر عنها».

قال رسول الله ﷺ: «أنظروا فى الدنيا إلى من هو دونكم ليؤدين ذلك شكر ما أنتم فيه، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فتزدروا نعمة الله عليكم»^(١).

(١) حديث: «انظروا فى الدنيا إلى من هو دونكم.. إلخ» متفق عليه بلفظ: «انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من فوقكم؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».
ولأحمد وابن حبان عن أبى ذر: «أوصانى خليلى ﷺ أن أنظر إلى من هو دونى ولا أنظر إلى من هو فوقى»، أما لفظ الشيخ فلم أجده، ولعل كلمة فى الدنيا زائدة من أحد النسخ، والله أعلم.

• ثم قال رحمه الله:

١٥٦ - وَبُؤْسَىٰ أَحْسَىٰ فَالْبَأْسَاءُ حَقٌّ مُّخَالَفٌ

حُلَاوَىٰ قَفَاهُ لِلْهُوَانِ مِبَاءٌ

والبؤسى، بالضم والقصر، كالبأساء، بالفتح والمد: ضد النعمى والنعماء، وحق مخالف: ما يقضى به له من سوء الجراء. وحلاوى القفا، بضم الحاء والقصر، ولامه مفتوحة بعدها ألف، ومثله حلاواؤه، بفتح الحاء والمد، وهذه هي اللغة المتروكة من النظم. ومباء، بضم الميم: اسم مفعول من أباة بالمكان: انقطع إليه، وحله، وأقام به، بمعنى تبوأه، أى: اتخذه مباءً. والهوان: الذل مصدر هان أى: ذل، كالمهانة والهون بضم الهاء.

فكانه يقول: خف المكر والنقمة المؤدبين إلى سلب النعمة بسبب ارتكاب المعاصى، وحضها بطاعة ربك تدم لك نعمته، ولا تخالفه فتحقيق بك نقمته وهى البأساء، فإنها جزاء المخالف لأمر ربه، فإته يكون ذليلاً لأجل ذلك عاجلاً. وجعل نكرة قفاه، أى: وسطه، محلاً للذل؛ لأنه أول ما يظهر فيه، وخص القفا لكونه محلاً لما كان يظهر من آثار الذل والهوان من الطأطأة والانكسار. قال الله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

وقال الشاعر: (من بحر البسيط)

ذلت رقاب بنى النجار كلهم إذ غادروه جميعاً بينهم حسرا

ولأن الذمى من سنته أن يقام فيصنع على رقبة ثم تؤخذ الجزية منه، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ ولذلك يوصف العزيز باستقامة العنق وبكونه أصيد^(١)، أى مرتفع العنق، إلى جهة قفاه مع اعتدال، وذلك من شدة رفعه إياه كبيراً وخيلاء، وهو من صفة الملوك والمتكبرين.

ويروى أنه لما ضربت الذلة والمسكنة على بنى إسرائيل وباءوا بغضب من الله لا تجد أحداً منهم إلا مطأطئ العنق، يغشاه الذل والهوان وعلامة المسكنة، ولو كان من أكثر الناس أموالاً؛ ولذلك كان صفع قفا ذى المروءة فى ملاء من الناس مما يبالغ

(١) الأصيد: الرجل الذى يرفع رأسه تكبراً.

فيه فى تعزيره، وهو أشد ما يعزر به .

وكون المعصية تورث العاصى ذلاً عاجلاً لكون الطاعة تورث المطيع عزاً عاجلاً أمر محسوس؛ ولذلك قال النبى ﷺ: «لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه»^(١). قيل: معنى ذلك أنه لا ينبغى له أن يرتكب معاصى الله فيذل عند الله وعند رسوله وحفظته وعند عباد الله الصالحين، حتى يُفضى به ذلك إلى تهاون الجن به وازدراء البهائم له .

قال الحسن رضى الله عنه: إني لأفعل الفعلة فأجد ذلك قد أثر فى خلق دابتي، فإذا أقلت عنها ونَدمتُ عليها ورجعتُ إلى الله بالتذلل والضراعة استقام لى خلق دابتي كما كان .

وأخرج السيوطى رضى الله عنه فى كتاب «الخصائص الكبرى»: ومن المعجزات أن حمار النبى ﷺ يعفور لما أتى به سجد بين يدى النبى ﷺ وقال: الحمد لله الذى خصنى بك، كنت آخر حمار من نسل الحمير التى كانت تركبها أنبياء بنى إسرائيل، وكنت عند يهودى، وكان إذا ركبنى تعثرتُ به عمداً لبغضى إياه؛ بسبب كفره ومعصيته، فلم يبق من الأنبياء غيرك، ولم يبق من نسل الحمير التى كانت تركبها الأنبياء غيرى^(٢).

وكان ﷺ يرسله إلى من يشاء من أصحابه، فيأتيه؛ فيقرع عليه بابه برأسه، فإذا رآه الصحابى علم أن رسول الله ﷺ بعثه إليه لما يعلم من عادته، فلما توفى رسول الله ﷺ مكث بعده يومين لم يأكل ولم يشرب، فلما كان اليوم الثالث تردى فى بئر من آبار المدينة فمات .

اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك، يا من لم تنفعه طاعة مطيع ولا تضره معصية عاص، يا ذا الطول والحول، يا من بيده نواصينا، وبتوقيفه طاعتنا، وبعدهُ معاصينا .

(١) حديث: «لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه» رواه أحمد والترمذى وصححه، وابن ماجه بزيادة:

«قيل: كيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق». وأورده صاحب الكشف تحت رقم

٣١٣٦، والله أعلم .

(٢) قصة الحمار التى أوردها السيوطى وعنه الشيخ لم أجد لها سنداً .

• ثم قال رحمه الله:

١٥٧ - وَغَمِّي أَجْلٌ فَالْغَمَاءُ مَنْ يَجْلُهَا يَفْرُ

بَعْلِيًّا وَذُو الْعَلِيَاءِ ذَاكَ يَشَاءُ

قوله: الغمِّي، بالضم والقصر: كالغماء، بالفتح والمد: الشدة التي يعسر
الاهتداء إلى كشفها، وقيل: هي التي تغم العقل حتى لا يهتدى صاحبها إلى حيلة
يكشفها بها. والغماء: أنثى الأعم.

قال رسول الله ﷺ: «اللهم فارح الغم، كاشف الهم، مجيب دعوة المضطرين،
رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمني؛ فارحمني رحمة تغنيني بها عن
رحمة من سواك، إنك على كل شيء قدير»؛ تستعمل لقضاء الدين وتفريج
الهموم والغموم.

ويروى أن جبريل عليه السلام لما أتى النبي ﷺ وهو في النزع قال: إن الله
أرسلني إليك بخاصة وكرامة لم يرسلني بها إلى رسول قبلك، قال له: وما هي؟
قال له: إنه يقول لك وهو أعلم بحالك: كيف تجهدك يا محمد؟ قال له: أجدني
مغموماً وأجدني مهموماً، فقال له: لا غم عليك بعد اليوم، فإن الملائكة قد
استبشروا بقدمك، وإن حضرة القدس قد هيئت لقدم روحك، وإن الله قد
اشتاق إلى لقاءك، فقال له: ليس عن ذلك أسألك، وإنما أسألك عن غمِّي وهمي
وهو ما تصير إليه أمتي، من لها بعدى؟ فقال له: إن ربك يقول لك: أنا خليفتك
من بعدك على أمتك، ولولا أن الحبيب يحب معاتبه حبيبه ما حاسبت أمتك،
فقال: الآن طابت نفسي للموت يا جبريل، فإذا عزرائيل يستأذن، وما استأذن
على أحد قبله، ولا يستأذن على أحد بعده إلى يوم القيامة، فأذن له فقال: السلام
عليك يا محمد، إن الله أمرني بطاعتك، فإن أمرتني بقبض روحك قبضتها، وإن
أمرتني بتركها تركتها. فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كالمستشير، فقال له: إن الله
قد اشتاق إلى لقاءك، فقال النبي ﷺ لعزرائيل: افعل ما بدا لك، فانصرف
جبريل؛ فقال له: يا جبريل، تصاحبني في الرخاء وتفارقني في الشدة؟! فقال له:
يا محمد من يقدر أن ينظر إليك ونفسك تُنزع بين جنبيك؟! فانصرف^(١).

(١) قصة جبريل هذه لم أجد لها سنداً صحيحاً، ولا أظنها ثابتة عنه ﷺ، والله أعلم.

ويروى أن بعض الصحابة سمع بكاء في جو السماء وهو يقول: وامحمداه!
وفى ذلك يقول الشاعر:

بكت الأرض والسماء عليه وبكاه خليله جبريل

والعليا، بالضم والقصر، والعلياء، بالفتح والمد: المنزلة الرفيعة. والفوز: الظفر، ويطلق ويراد به النجاة.

ويروى أنه لما ضرب ابن ملجم - أجمه الله بلجام من النار - علياً فلمس جبهته فإذا دماغه قد انتثر عليها قال: فُزْتُ ورب الكعبة، فيحتمل أن يكون معنى قوله: فزت: نجوت من الدنيا وغمها وأهوالها كما كان دأبه الفرار منها، ويحتمل أن يكون فزتُ بالشهادة والظفر بدخول الجنة.

فكأنه يقول: اكشف الشدة التي يعسر كشفها، وفرج الضيق الذي يصعب تفريجه؛ فإن من يفعل ذلك يظفر بمنزلة رفيعة، وصاحب المنزلة الرفيعة، أى مالكها، من عاداته تفريج الكروب على المكروبين رغبة فيما عند الله تعالى من الثواب الجزيل، والثناء الجميل، والدعاء الصادق كما فى قوله ﷺ: «من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة»^(١).

وفى حديث آخر: «من دفع عن مؤمن كربة لا قدرة له على دفعها إلا به دفع الله عنه سبعين كرب من كرب يوم القيامة».

وتفريج الغمة مما يثيب الله فاعله ثواباً جزيلاً ويحبه ويصطنقه، وناهيك بثواب يثيب الله به سبحانه من فعل فعلا يحبه.

ويصح أن يفسر «ذو العلياء» بالشخص صاحب المنزلة الرفيعة بسبب ما اتصف به من الأخلاق الجميلة: كعلو الهمة، ونزاهة النفس، ولين الجانب، وسهولة الخلق، وهو أجل ما يكون عليه الإنسان صاحب المنزلة الرفيعة؛ فينشئ ذلك، أى يوجب، الفوز بالعلياء، ومن أحب شيئاً فعل ما يوصله إليه. وكشف الغمى عن لا يستطيع كشفها عن نفسه؛ فيكون مبالغة فى الترغيب فى كشف الشدائد وتفريج الغم على كلا التقديرين؛ فاعتبر ذلك.

(١) حديث «من فرج عن مؤمن كربة»... إلخ. صحيح، وتقدم تخريجه.

وهذا هو المسمى بالإرقال: وهو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها؛ فالعنى هنا الحث على كشف الغمى وقد تم بقوله: «فالغماء من يجلها يفز بعليا» فقوله: «وذو العليا ذاك يشاء» فيه زيادة مبالغة في ذلك لا تكمل له، ويصح أن يكون تذيلاً: وبيان ذلك أن قوله: «يفز بعليا» أى: يحصل له الفوز بها من عند مالكتها، فيفهم ذلك أن تفريج الغمى محبوب له، وإلا لم يفز المفرج بالعليا المملوكة؛ لأن الفوز بها تملك منه، والتمليك منه، والتمليك فعلة باختيار من غير تكلف ولا تكليف، فلا يملك لعلياء الأمور الشاقة التي لا يجبها كل أحد ولا يجيب إليها إذا دعى لقلتها ومخالفتها لهوى النفس، كما فى قول الشاعر: (من بحر الطويل)

ولن يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
ويكون قوله: «وذو العليا ذاك يشاء» مؤكداً لذلك المفهوم، وهذا هو التذييل.

باب ما يفتح فيقصر ويمد والمعنى واحد

يعنى أنه قد وقع الاتفاق هنا فى الحركة والمعنى كالمادة.

• فقال رحمه الله:

١٥٨ - قَوَى وَحَزَى فَحَوَى وَحَلَوَى بِهَأَا وَنَى

وَهَيَجَا مَعَ الدَّهْنَا قَصَاً وَبَدَأَا

قد ترك الناظم الأسلوب الذى كان عليه: من الأزواج، والجناس الناقص، والتلويح، والاقْتباس، والتضمين، والاستطراد، فنفض هنا من جميع ذلك يديه، وعمد إلى جمع النظائر مجرداً عن تضمين المعانى بتلك المباني فقال:

قَوَى، بالفتح والقصر ويمد: مصدر قَوَيْتُ الأَرْضَ، بكسر الواو: إذا أفقرت. والحزى، بالخاء المهملة والزاي كما فى القاموس، خلافاً لما فى الجوهري فإنه ذكره بالخاء المعجمة، وهو بالقصر والمد: نبتٌ تزعم العرب أن الجن لا تدخل بيتاً يكون فيه. وفحوى، مقصورة: ما يفهم من معنى الكلام. وفحاء، ممدودة: جزالة الكلام وحسن تركيبه ومواطأة لفظه لمعناه، يقال له: فحوى الكلام، بالقصر، وفحواؤه، بالمد: ما يظهر من معناه مما لا يعلمه إلا أربابه من أذكىاء العرب ومن تفحل فى أنواع البلاغة، وله أبواب: فحوى الخطاب، ولحن القول، والتلويح، والتلميح، والمنابذة، والتورية. والحلوى والحلواء، بالقصر والمد: كل طعام عولج بحلو.

وفى الخبر: «كان ﷺ يحب الحلو والعسل»^(١) ولم يكن حبه ﷺ إياها تشهياً، وإنما كان يأخذ منها أحياناً صالحاً إذا وجدها؛ إما لمعنى طبي يعلمه فيها، وإما أن تكون موافقة لطبعه.

وفى حديثٍ واهٍ: أن الله يحب التمر ويحب من يحبها^(٢).

(١) حديث «كان النبي ﷺ يحب الحلو والعسل» متفق على صحته رواه الستة إلا الترمذى، وهو عند البخارى فى كتاب الأطعمة.

(٢) حديث «إن الله يحب التمر لم أفق عليه ويكفى أن الشيخ قال: إنه واه.

وكان ﷺ كلما أصبح اصطبح بعسل ممزوج بماء بارد، يسكن بذلك الحرارة الغريزية، ويدفع بها حرَّ الإقليم، وهواء الحجاز؛ لأنه أشد بلاد الله حرارة، وكان ﷺ يقول: «الشفاء في ثلاث: كية من نار، أو جرعة من عسل، أو آية من كتاب الله، ولا أحب أن أكتوى»^(١).

ويروى أنه ﷺ أتاه رجل فقال له: يا رسول الله، إن أخى قد استطلقت بطنه، فقال: اسقه عسلاً، فذهب فسقاه، ثم أتى النبي ﷺ فقال له: ما زاده العسل إلا استطلاقاً، فقال له: ارجع إليه فاسقه عسلاً، فلا أدري أفي الثانية أم في الثالثة لما قال له: ما زاده العسل إلا استطلاقاً، قال له ﷺ: صدق الله وكذبت بطن أخيك^(٢). يعنى قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

والبهي كالبهاء: مصدر بهي البيت، بكسر الهاء: تخرف وتعطل، وقصره أقيس من مده؛ إذ قياس مصدر «فعل» بالكسر «فعل» بالتحريك كالجوى والفرح. والونى، بالقصر: الفتور، حكى مده عن الفراء. والهيجا والهيجاء: الحرب. والدهنا والدهناء: بادية بنى تميم، ويطلق ويراد بالدهناء كل مفازة واسعة كأن حصباءها مدهونة لغيرها عن البياض. قال الشاعر: (من بحر الخفيف)

كل دهناء يقصر الطرف عنها أرقلتها قلاصنا إرقالا

والقصى، بالقصر ويمد: فناء الدار. والبذاء، بالذال المعجمة والمد وقد يقصر: السفه وقلة الحياء.

فقوى: خبر مبتدأ محذوف، أى هو قوى وحزى وفحوى.. إلى آخره كذلك.

(١) حديث «الشفاء في ثلاث»... إلخ. صحيح رواه البخارى وابن ماجه، وهو عند البخارى فى كتاب الطب بلفظ: (الشفاء فى ثلاثة: فى شرطة محجم، وشربة عسل، وكية نار، وأنهى أمتى عن الكى)، والله أعلم.

(٢) حديث «أنه ﷺ أتاه رجل فقال له يا رسول الله إن أخى... إلخ» حديث متفق على صحته رواه الستة إلا أبا داود وابن ماجه، وهو عند البخارى فى كتاب الطب، وفيه: يشتكى بدل استطلقت بطنه، والله أعلم.

• ثم قال رحمه الله:

١٥٩ - وبِزْرٍ قَطُونِي وَالكَثِيرِي الْجَفَا الرَّحِي

وَهِنْبَاءٌ أَيضًا وَالضَّحِي وَسَفَاءٌ

قوله: وبزر قطوني: مضاف ومضاف إليه، والبزر، بالزاي والراء: وهو ما يكون من الحب في جوف البقول ونحوها. وقطوني، بفتح القاف وضم الطاء المهملة: نبات له بذر، ذكره ابن القوطية في الأسماء العجمية المعربة كالناجحي والقسطاس والبرسيم والدرنوك وغير ذلك. وذكر الناظم جواز الوجهين فيه. والكثيراء: رطبة تخرج من أصول شجر يكون بشروى وجبل لبنان. والجفاء، بالمد والقصر: ضد الصلة. والرحي، بالقصر: آلة الطحن، حكى الجوهري مدها. والهنباء، بتقديم النون على الباء مقصور وممدود: المرأة الشديدة البله، ولفظه في بيت الناظم ساكن النون، وصوابه التحريك، ولعل الناظم إنما حملة على ذلك ضرورة الشعر، ونظير المقصور: أجلى: موضع، وبردى: نهر بدمشق، وهو كثير. ونظير الممدود: حنفاء وقُدماء، بالتحريك: موضعان، قال ابن القوطية: لم يأت غيرهما إلا ما تقدم مما اشترك مع فعلاء الساكن العين كثأداء وأباء، بتحريك الهمة وتسكينها فيهما. ومن هذا الباب نساء لغة في الفُساء، بضم النون وفتح الفاء، وهي قرية العهد بالولادة. ومنه السحناء، والسحناء الهيئة، وقيل: بياض ولين البشرة. والضحي في بيت الناظم بالقصر ويمد وقصره أقيس: وهي مصدر ضحى أي: برز للشمس. والسفاء، بالمد وقد يقصر: خفة الناصية.

• ثم قال رحمه الله:

١٦٠ - وَعَوَى وَعَاشُورَى مَنَاءَ مَعَ الْغَرَى

كَذَا زَكْرِيَّا وَالْجَرَى وَوَحَاءٌ

فَعَوَى، بوزن قضى بتشديد العين: نجم في برج السنبلة، وهي العذراء، وقصرها أكثر من مدها، وقد تمد كما قال الشاعر: (من بحر الخفيف)

خزرجي لو يستطيع من الغي - ظ رمانا بالنسر والعواء

وفى قصرها يقول الخطيئة: (من بحر الطويل)
ولو بلغت عوى السماء قبيلةً زادت عليها نهشلٌ وتعلت
وقال الخطمي في المد: (من مجزوء الرجز)

وأثرت عواءها تناثر العقد انقطع

وعاشورى، بالقصر وقد تُمد. ومناة، بالقصر: اسم صنم. والغرى، بالقصر:
مصدر غرى بالشيء، بالكسر: أولع به، وحكى عن يونس وسيبويه مده. وزكريا،
بالقصر والمد: معلوم، وهو نبي من أنبياء بنى إسرائيل. والجرى، بالجيم والقصر
وقد تمد: اسم الجارية. والوحاء، بالواو والحاء المهملة والمد وقد يقصر: السرعة.

ثم قال رحمه الله تعالى:

باب ما يكسر في قصر ويمد المعنى واحد

وهو المتفق في الكسر والمعنى، من المقصور والممدود متفقين في المادة
فالاختلاف هنا كالذي قبله، وإنما هو بمجرد الكسر والمد.

• ثم قال رحمه الله:

١٦١ - زِمِكِي صِنًا مَشْفَى زِمَجِي وَهِنْدَبَا

وَمِينَا وَخَصِيصًا زِنِي وَشِرَاءُ

قوله: زمكي، بالزاي بوزن «فَعَلَّى» بكسر الفاء والعين وفتح اللام المشددة:
كالزمجي، بالجيم: أصل ذنب الطائر، وهو اليعصوص. والصنًا بالكسر والقصر:
الرماد وقد يمد. والمشْفَى، بالكسر والقصر، بدون همزة، ومهموز مقصور،
ومهموز ممدود: المشط^(١). والهنْدَبَا، بكسر الهاء وفتح الدال والقصر: بقلة من
أحجار البقول، وقد قيل فيه بكسر الدال ويمد، وسميت هندبا لتهدب ورقها،
فظاهره أن المقصور ليس فيه إلا فتح العين، وأن الممدود ليس فيه إلا كسر العين،
واحدة الهندبا هندباة. ومِينَا، بالكسر والقصر وقد يمد: حجر الرخام، وموضع
إرساء السفن. والخصيصى، بالكسر والقصر وقد يمد: خواص القوم، ويطلق
ويراد به الاختصاص بالشيء. والزنى كالشرا وقد يمدان: وهما معلومان.

(١) عند هذا المحل في النسخة (ب) أورد المؤلف قصة سحر اليهود للنبي ﷺ بمناسبة المشط، وهذه
القصة ليست في النسخة (أ)، وقد تركناها للتنبيه فقط.

باب ما يضم فيقصر ويمد والمعنى واحد

فالحركة التي اتفقا فيها ضمة هنا .

• ثم قال رحمه الله:

١٦٢ - صَلِيمِي وَغَزِي وَالجُلُنْدِي وَمَعَ أُوْلَى

كُشُوْنِي الرُّتَيْلِي اللُّوِيَا وَبِكَاءُ

قوله: صليمي، مضموم مقصور وقد يمد: بطن من الأزد، وهم بنو كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن نبي الله هود بن عاد بن إرم بن سيم بن سام بن نوح عليه السلام، وهم قبيلة أبي هريرة رضى الله عنه، والطفيل بن عمرو صاحب رسول الله ﷺ الملقب بذي النون، وكان سيداً شريفاً سريراً^(١) لبيباً مفوهاً، وكان قد أتى مكة زمن شدة الأمر وتظاهر قريش على رسول الله ﷺ. فلما سمعت قريش بمقدمه تجمعت له، فلما طاف البيت أقبل على أنديتهم فقالوا له: إنك يا طفيلُ سيد شريف في قومك، وإن بين أظهرنا رجلاً قد فرق جماعتنا، وأفسد علينا النساء، وإنما قوله الذي يقول كالسحر، يفرق بين الرجل وابنه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنما نخشى عليك أن يصيب قومك من شره ما قد أصابنا؛ فإياك أن تسمع من قوله حرفاً واحداً، فلم يزالوا به حتى جعل في أذنيه كرسفاً^(٢) خشية أن يسمع من قول رسول الله ﷺ شيئاً.

فبينما هو في المسجد إذا رسول الله ﷺ قد دخل المسجد، فطاف بالكعبة أسبوعاً - أي: سبع مرات، يقال: سبعا وأسبوعاً - ثم أقبل على أندية قريش، فدعا الله، فأندر، وبشر، وتلا عليهم من كتاب الله ما تيسر.

قال الطفيلُ بن عمرو: فلما رأيت ذلك قلت في نفسي: ما يمنعني أن أسمع من قول هذا الرجل، والله إنى لرجلٍ لبيب شاعر فلا يخفى على القبيح من

(١) السرى: السيد والنهر الصغير، وهو هنا السيد.

(٢) الكرسف: القطن.

الحسن، فإن كان قوله الذى يقول حسناً قبلته واتبعته، وإن كان قبيحا رددته وتركته.

فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته اتبعته، فلما دخل بيته جلست إليه فقلت له: يا محمد، إن قومك قد حذروني أمرك وأن أسمع من قولك حتى سددت أذني بكرسف مخافة أن أسمع من قولك، فأبى الله إلا أن يسمعني، فسمعت قولاً حسناً؛ فاعرض على أمرك. فعرض على الإسلام، وعلمني، وتلا على من القرآن، فما هو إلا أن سمعته أخذ بمجامع قلبي، وهان على كل ما سواه، ووقع في قلبي من اليقين والثبات ما هو أقوى من الجبال الراسيات، فقلت له ﷺ: ابعثني إلى قومي يا رسول الله، واجعل لى آية أستعين بها عليهم، فإنى مطاع فيهم. فقال له رسول الله ﷺ: إني قد أرسلتك إليهم، وسيجعل الله لك آية عليهم.

فانصرفت من عنده وقد أكرمنى الله بالإسلام، وامتنحى قلبي بالإيمان، فلما كنت بالثنية التى تخرجنى على الحاضر خرج من ناصيتى نور كأنه المصباح؛ فقلت: اللهم فى غير وجهى لئلا يقولوا: مثلة أصابتنى لما فارقت دينهم، ثم انتقل ذلك النور إلى أصابعى، فقلت: اللهم فى غير يدي، فانتقل إلى سوطى، فخرجت على القوم، فلم يبق فى القوم رجل ولا امرأة إلا قام كلهم ينظرون إلى ذلك النور الذى برأس سوطى ويعجبون منه.

فلما أتيت بيتى أنخت، فأقبلت إلى أهلى فقلت لها: وجهى من وجهك حرام، فقالت: لم بأبى أنت وأمى؟ فقلت لها: إن الإسلام فرق بينى وبينك. قالت لى: دينى دينك، وكان عند صنم لنا وشل^(١)، فقلت لها: اذهبنى إلى ذلك الوشل واغتسلى منه، فقالت: ألا تخشى على من الصنم؟ فقلت لها: أنا ضامن لك؛ فإنما هو جماد لا ينفع ولا يضر ولا يغنى من الله شيئاً؛ فاغتسلت، ثم أسلمت. ثم أقبلت إلى أبوى، فقلت لهما مثل ذلك، فقالا: وما ذاك؟ قلت لهما: قد أسلمت، وتابعت دين محمد ﷺ، وآمنت بالله رب العالمين؛ فقالا: ديننا دينك؛ فأمرتهما بالاغتسال فاغتسلا، فأسلما. ثم أقبلت إلى إخوانى وأخواتى - وكانوا

(١) الوشل: الماء القليل يتحلب من الصخر.

رهنًا - فقلت لهم مثلما قلت لأبوي، وقالوا لي مثل ما قالوا، فلم يمس أحد من أقاربي إلا وقد أسلم.

ثم دعوتُ دوسًا، فاستصعبت علي. فركبت قلوصى، ثم قدمت على رسول الله ﷺ وقد هاجر إلى المدينة، فقلت له: يا رسول الله، ادع على دوس فإنهم قد استصعبوا علي، فقال النبي ﷺ: اللهم اهد دوسا وائت بهم تائبين؛ فقلت: يا رسول الله، أتيتك لتدعو علي دوس فدعوت لهم؟! فتبسم ﷺ: ارجع إلى قومك فارق بهم وادعهم إلى الإسلام؛ فإن الله سيهديهم بك؛ فيكونون من خير قبائل المسلمين وأكثرها جهادًا في سبيل الله.

فرجعت إلى قومي، فدعوتهم إلى الله فرزقهم الله الإسلام، فأتيت رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر بخمسمائة أهل بيت من دوس، فرضخ^(١) لنا من المغنم، وعليهم دارت رحى الإسلام يوم اليرموك، فكانوا سببًا لفتح الشام وإبادة بطارقة الروم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

وغزى كذلك: جمع غاز، و«فعل» و«فعال» قد يرادان في جمع «فاعل» معتل اللام؛ فتقول: غزى، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾ [آل عمران: ١٥٦]. وغزاة، وقد يشدد، وقد يؤتى فيه بهمزة المد، فيقال: غزاة علي وجه المبالغة في جمع فاعل معتل اللام. والجلندي أبو جيفر الذي أدركه الإسلام وهو جيفر بن الجلندي ملك عمان.

ذكر الواقدي بإسناد له إلى عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ بعث نفرًا سماهم إلى جهات مختلفة يرسم الدعاء إلى الإسلام. قال عمرو: فكنت أنا المبعوث إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، وكتب رسول الله ﷺ معي كتابًا، قال: وأخرج عمرو الكتاب، فإذا صحيفته أقل من الشبر، فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلام علي من اتبع الهدى، أما بعد: فإنني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإنني رسول الله

(١) رضخ: اعطاهم.

للناس كافةً لأنذرَ من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقرتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما». وكتب أبى بن كعب، وختم رسول الله ﷺ الكتاب.

ثم خرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد، وكان أحسن الرجلين خلقًا واليهما وأساهاما خلقًا، فقلت: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخى هو المقدم على بالسن والملك، وإنى أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك.

ثم قال لى: وما تدعو إليه؟ قلتُ: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما عبدَ من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: يا عمرو، إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة؟ قلتُ: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، وودت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت على مثل رأيه حتى هدانى الله إلى الإسلام. قال: فمتى اتبعته؟ قلتُ: قريبًا، فسألنى: أين كان إسلامى؟ فقلتُ له: عند النجاشى، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم. قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلتُ: أقروه واتبعوه. قال: والأساففة والرهبان اتبعوه؟ قلتُ: نعم. قال: احذر يا عمرو ما تقول؛ إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من كذب. قلتُ: وما كذبت، وما نستحله فى ديننا.

ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى؟ قلتُ: بلى، قال: بأى شىء علمت ذلك؟ قلتُ: كان النجاشى يخرج له خرجًا، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال لى: والله لو سألتى درهما واحداً ما أعطيته إياه، فبلغ هرقل قوله. فقال له يناق^(١) أخوه أئدع عبدك لا يخرج لك خرجًا ويدين دينًا محددًا؟ قال هرقل: رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت مثل ما صنع.

قال: انظر ما تقول يا عمرو، قلتُ: قد والله صدقتك. قال عبد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه؟ قلتُ: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته،

(١) فى النسخة (ب): يناو.

ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وشرب الخمر، وينهى عن عبادة الحجر والوثن والصليب. فقال له: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه وأجمله، لو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً. قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه؛ فأخذ الصدقة من غنيهم فردها إلى فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات حتى انتهت إلى الإبل، قال: يا عمرو تُوخَذُ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ قلت: نعم، قال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذه.

قال: فمكثت ببابه أياماً وهو يصل إلى أخيه ويخبره كل خبرى، ثم إنه دعانى يوماً فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعى، فقال: دعوه؛ فأرسلونى؛ فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعونى أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففرض خاتمه، فقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه، فقرأ مثل قراءته، إلى أنى رأيت أخاه أرق منه، ثم قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ قلت: اتبعوه، إما راغب فى الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن اتبعه؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال، فما أعلم أحداً بقى غيرك فى هذه الخرجة، وأنت إن لم تُسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضراءك، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك، وإلا تدخل عليك الخيل والرجال. قال: دعنى يومى هذا وارجع إلى غداً. فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو إنى لارجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه.

حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لى، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أنى لم أصل إليه، فأوصلنى إليه، فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما بيدي، وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله لقيت قتالا ليس كقتال من لقي قبلنا. قلت: فإنى خارج غداً. فلما أيقن بخروجه خلا به أخوه فقال: ما نحن فيمن قد ظهر عليه إلا كأكلة شاة، وكل من أرسل إليه أجابه.

فلما أصبح أرسل لى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدقا بالنبي ﷺ، وخليا بينى وبين الصدقة والحكم فيما بينهم، وكان لى عوناً على من خالفنى^(١).

وفى الحديث غير الواقدى أن عمرًا قال له فيما دار بينهما من الكلام: إنك وإن كنت منا بعيدًا فإنك من الله غير بعيد، إن الذى تفرد بخلقك أهل أن تفرد به عبادتك وأن لا تشركه من لم يشركه فيك، واعلم أنه يميتك الذى أحياك ويعيدك الذى بذاك، فانظر إلى هذا النبى الأمى الذى جاء بالدنيا والآخرة، فإن كان يريد أجرًا فامنعه، أو يميل به هوى فدهه، ثم انظر فيما يجيء به: هل يشبه ما تجيء به الناس؟ فإن كان يشبه فاسأله العيان وتخبر علمه فى الخبر، وإن كان لا يشبهه فاقبل ما قال وخف ما وعد.

قال ابن الجلندى: إنه والله قد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وإنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يضجر، وإنه يفى بالعهد وينجز الموعد، وإنه لا يزال يطلع على سر لا يشاركه فيه غيره، وإنى لأشهد أنه نبى.

قوله: ومع أولى، بالضم والقصر لا غير على وزن طولى، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَتَّعْنَاكُمْ إِيمَانًا وَلِقَاءَ رَبِّكُمْ إِيمَانًا مَّبْرُورًا﴾ [الأنعام: ١٠٧]. وأما عد الناظم إياها من ذوات الوجهين فلعله قصد به «ألى» التى بمعنى «الذى» فتمد حيثد وتقصر، فتقول: ألى وألاء على لغة حمير، وكذلك تمد وتُقصر إذا كانت بمعنى جمع وال، وكذلك إذا كانت بمعنى الاستحقاق، فتقول: رجال أولى أى: هم خليقون بكل خير، فصوغت لهم العرب وصفًا أولى لك فأولى. وكذلك إذا كانت اسم إشارة. والكشوشى^(٢)، بالمثلثة مضموم الأولى مقصور ويمد: نبت يتعلق بالأغصان ولا عرق له فى الأرض. والرثلى، بالضم والقصر: نوع من العناكب، وهى أنواع كما فى القاموس، وهى التى كانت تنسج على الأنبياء: فأول من نسجت عليه

(١) من المعلوم أن الواقدى لا تقوم الحجة بحديث انفرد به، وقد جرحه كثير من العلماء، بل وعده الذهبى وغيره من رؤساء الوضعيين، والله أعلم.

(٢) فى النسخة (أ): الكشوشى بالشين، وفى (ب): الكشوشى، بالثاء المثلثة، وهو الصحيح.

داود عليه السلام حين فر من طالوت، وعلى رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة.

وذكر ابن هشام عن الحسن بن أبي الحسن^(١) قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر قبله، فلمس الغار فيه سبع أو حية؟ يقي رسول الله ﷺ بنفسه، ولما فقدت قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها فبعثوا القافة يتبعون أثره في كل وجه، فوجد الذي ذهب قبل ثور أثره هناك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع له لما انتهى إلى ثور، وشق على قريش خروج رسول الله ﷺ عنهم، وجزعوا لذلك، وطفقوا يطلبونه بأنفسهم فيما قرب منهم، ويرسلون من يطلبه فيما بعد عنهم، فجعلوا مائة ناقة لمن رده عليهم.

ولما انتهوا إلى فم الغار وقد كانت العنكبوت ضربت على بابه بعشعاش بعضها على بعض بعد أن دخله رسول الله ﷺ، فقال قائل منهم: ادخلوا الغار، وقال أمية بن خلف: وما أربكم إلى الغار إن عليه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد؟!

قالوا: فنهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العنكبوت، وقال: إنها جند من جنود الله، وفي ذلك يقول لسان الدولة ابن الخطيب برد الله ضريحه: (من بحر الوافر)

ودودُ القز قد نسجت حريراً يُجَمِّلُ لبسه في كل حَيٍّ
فإن العنكبوت أجل منه بما نسجت على رأس النبيِّ

فسدت الباب، وأضلت الطلاب؛ فإن الله يحمي من أراد حمايته بأضعف سبب؛ إذ لا شيء أضعف ولا أوهى من بيت العنكبوت. وفي هذا يقول البوصيري رضى الله عنه: (من بحر البسيط)

وقايةُ الله أغنت عن مضاعفةٍ من الدرود وعن عال من الأطم^(٢)

وقال أيضاً في همزته: (من بحر الخفيف)

أخرجوه منها وآواه غارٌ وحمته حمامةٌ ورقاءُ
وكفته بنسجها عنكبوتٌ ما كفته الحمامةُ الخضراءُ

(١) يعنى الحسن البصرى.

(٢) الأطم: الحصون.

أخرج أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي مصعب المكي قال: أدركتُ زيد ابن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يحدثون أن النبي ﷺ لما بات في الغار أمر الله تبارك وتعالى شجرة، فنبتت على وجه الغار، فسترت وجه النبي ﷺ، وأمر العنكبوت ففسج على وجه الغار، وأمر عز وجل حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار. وأتى المشركون من كل بطن، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم، فنظر، فرأى الحمامتين، فرجع، فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء؛ رأيت حمامتين على فم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد. وسمع قوله النبي ﷺ، فعلم أن الله قد درأ بهما عنه؛ ففرض ﷺ جزاءهما وأُسكِتَا في حرم الله، أحسبه قال: فأصل كل حمام في الحرم من فراخهما.

وذكر قاسم بن ثابت، فيما تولى شرحه من الحديث، أن الله أنبت شجرة الراث على باب الغار لما دخله رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي عنه، وهي شجرة معروفة، وقال غيره: تكون مثل قامة الإنسان ولها زهر أبيض تحشى به المخاد للينه وخفته.

وقال ابن الخطيب في «مواهبه»: هي شجرة أم غيلان: شجرة تشبه شجر القطن. وحكى الواقدي أن النبي ﷺ لما دخل الغار دعا بشجرة كانت أمام الغار؛ فأقبلت حتى وقفت على باب الغار، فحجبت أعين الكفار وهم يطوفون في الجبل.

وقال أبو بكر لرسول الله ﷺ يومئذ: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا. فقال له: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟

وأقام رسول الله ﷺ وأبو بكر معه في الغار ثلاثاً حتى سكن عنهم الناس، أتاهما صاحبهما ببعيرهما، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر الصديق بسفرتيهما، ونسيت أن تجعل لهما عصاماً، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفارة فإذا ليس فيها عصام، فحلت نطاقها فجعلته عصاماً، ثم علقته به؛ فكان يقال لها: ذات النطاقين. انتهى.

والعنكبوت أنواع، وجمعها عنكب، كما في القاموس، أشهرها التي تشبه الذباب الذي يطير حول السراج، ومنها ما هي سوداء رقطاع، فهذه مثل الحية في لدغها أو هي شر منها، وربما أضرت بمجرد مشيها على البدن، وربما أضرت

بريقها، ومنها صفراء زغباء ولسع جميعها مورم مؤلم.

واللويبا، بالقصر والمد: معلوم نوع من القطنى، ومن لغاتها اللبياج بالجيم بعد الألف. والبكاء، بالمد والقصر: معلوم. ومن الناس من يقول: البكا، بالقصر: مجرد رفع الصوت.

وأما قصة نسج العنكبوت على داود عليه السلام، وهى أنه لما كثرت الأحداث فى بنى إسرائيل بعد موسى وعزير سلط الله عليهم الجابرة من بقية العماليق، وهم قوم جالوت، وقد سكنوا جزائر صقلية^(١) وجبال الروم بعدما نفاهم يوشع بن نون، فحربوا أكثر مدائنهم، وسبوا نساءهم وذرائعهم، واستولوا على أكثر الشام، وضربوا على بنى إسرائيل الضرائب، فصارت بنو إسرائيل بين مقهور بالجزية ومغلوب بالسبى، فبعث الله شمويل نبياً، فلما بعثه طمعت بنو إسرائيل بالنصر؛ لأن صلاح أمر بنى إسرائيل كان بسياسة الملوك وتسديد الأنبياء؛ فالملك يسير العساكر ويقوم بسياسة الملك، والنبى يسدده ويأتيه بخبر السماء ويدعو لهم بالنصر عند العظام؛ فمنزلة أنبياء بنى إسرائيل مع ملوكهم كمنزلة علماء هذه الأمة مع سلاطينها.

قال النبى ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل علماً وحكماً»^(٢).

وقال: «الولى فى قومه كالنبى فى أمتة»^(٣).

وهى أحاديث واهية الإسناد إلا أنه يؤيدها حديث صحيح الإسناد، وهو قوله

ﷺ: «بين العالم العامل والنبى فضلٌ درجتين»^(٤).

(١) صقلية، بكسر الصاد: جزيرة فى البحر المتوسط تابعة لإيطاليا، احتلها الأغالب العرب عام ٨٢٧ ولا تزال فيها آثار عربية حتى اليوم، وقاعدتها (بالرمو).

(٢) «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»... إلخ. لا أصل له عن النبى ﷺ، أورده صاحب الكشف تحت رقم ١١٧٤ وقال: قال السيوطى: لا أصل له، وقال: قال ابن حجر: لا أصل له. وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٤٦٦ وقال: لا أصل له باتفاق العلماء. كما أورده السخاوى تحت رقم ٧٠٢ وقال: قال شيخنا ومن قبله الدميرى والزركشى: إنه لا أصل له. زاد بعضهم: ولا يعرف فى كتاب معتبر. اهـ. أما زيادة الشيخ فلم أجدها، والله أعلم.

(٣) «الولى فى قومه»... إلخ. ليس بحديث ولا تجوز نسبته إلى النبى ﷺ، والله أعلم.

(٤) حديث: «بين العالم العامل»... إلخ. أورده ابن عبد البر فى كتاب العلم له بلفظ: «للأنبياء =

فلما طال عليهم البلاء أتوا شمويل فقالوا له: إن بنى إسرائيل قد طال عليهم البلاء والسبأ، فادع لنا ربك يبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله. فقال لهم: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا لما جبلتم عليه من الفشل والجبن وحب السلامة؟ فقالوا مجيبين له: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

فسأل الله تبارك وتعالى بعد ما أخذ من بنى إسرائيل المواثيق إن يبعث لهم ملكاً، فأتته الملائكة بدهن القدس والحكمة في قرن من ورق، فقالوا له: إن من نش على رأسه هذا الدهن فهو ملك بنى إسرائيل الذى قد ارتضاه الله لها ملكاً وعلى يديه ينصرون، فأخذته النبى، ثم دعا من ظن فيه أهلية الملك من سبط الملك، فلم ينش عليه الدهن، ثم دعا من فيه قابلية ذلك من سبط النبوة فلم ينش على رأس أحد منهم؛ فتحير.

فبينما هو جالس فى بيته إذ وقف عليه طالوت فى طلب حمار أضله، فنش الدهن فى القرن، فقال: ادن، فدنا منه، فجعل القرن فوق رأسه فنش حتى صار على رأسه كالإكليل؛ فدعا الملائ من بنى إسرائيل، فلما اجتمعوا قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] فقالوا مجيبين له: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٤٧] وسبطه ليس من أحسن أسباط بنى إسرائيل، وكانوا دباغين ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؛ لأننا من سبطى النبوة والملك بنى يهود وبنى لاوى، وهم يعنون أن طالوت من سبط بنيامين الذين لم يبعث الله منهم نبياً ولم يجعل فيهم ملكاً، فأجابهم شمويل فقال: إن الله اصطفاه عليكم ولو كان سبطه كما ذكرتم وسبطكم كما قلتم؛ فالملك بيده يؤتية من يشاء، فليس بالوراثة ولا بالحسب، وزاده بسطة فى العلم، وكان أعلم بنى إسرائيل، والجسم، وكان يفوت بنى إسرائيل بالرأس والمنكب، فقالوا له: إنا لا نرضى بذلك ولا نقبله حتى يأتينا بآية تطمئن إليها أنفسنا، وقال لهم شمويل: ﴿إِنَّ آيَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وكانوا

= على العلماء فضل درجتين، وللعلماء على الشهداء فضل درجة وسكت عليه (١/١٩)، ولم أعر على من صححه، والله أعلم.

يستنصرون بها على الأمم قبل أن يحدثوا الأحداث، فلما أحدثوا الأحداث سلط الله عليهم من أخذها من خزائنهم، فلما فارقتهم فارقتهم النصر.

وكان صندوقاً مربعاً فيه رصاص الألواح ورداء موسى وقميص هارون وعمامة إبراهيم، وقيل: وعصا موسى، وكانت السكينة تسير معها حيثما سارت، فجاءت الملائكة تحملها ضحى حتى وضعتها في بيت طالوت، وقيل: في بيت شمويل؛ فانتقادت حينئذ بنو إسرائيل، ورضيت بولايته عليها، وخضعت لطواعيته.

فأمرها بالتهيؤ لغزو عدوها، كانوا قد استولوا على غوطة دمشق وحمص وقيسارية وسواحل الشام. فلما تهيأوا للمسير - وكانوا سبعين ألف مقاتل وقيل: مائة ألف - أتاهم نبيهم فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أى: يريد أن يختبر إيمانكم وطاعتكم بأن يمتحنكم بالعطش، ويجرى ذلك النهر أمامكم، فمن شرب منه جبن، ومن لم يطعمه ثبت الله جنانه وشجع قلبه وأتم إيمانه، إلا من اغترف غرفة بيده فيكون دون من لم يطعم وفوق من شرب، فشربوا منه إلا قليلاً منهم، وكانت عدتهم كعدة أصحاب بدر، وهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً.

واختلف في النهر الذي ابتلاهم الله به: فقيل: هو نهر الأردن، وقيل: بحيرة طبرية.

فلما سمع بهم جالوت عارضهم بجنوده، فدعوا الله تبارك وتعالى لما رأوا قلة عددهم وكثرة جنود جالوت قالوا: ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

وكان جالوتُ يهزم العساكر وحده لقوته وشجاعته وإقدامه، وكانت زنة بيضته سبعين قنطاراً من العين^(١).

فتقالوا فيما بينهم أنه لا قدرة لنا على جالوت وجنوده إلا بقتل جالوت، فردوا أمرهم إلى نبيهم، فأوحى الله إليه أنه يقتله رجلٌ من بني آس، وأتوه بدهن القدس فقال: إنه من نش على رأسه من ولد آس فهو الذى يقتل جالوت، وكانوا اثني

(١) المراد بالعين عادة الذهب والفضة، والمبالغة في القوة هنا من الإسرائيليات التي لم تثبت، والله أعلم.

عشر ولدا كلهم رجال، وكانوا طوالاً حساناً إلا داود عليه السلام فإنه كان قصيراً أزرق، فتركه في أغنامه، فأرسل النبي إلى آش فقال له: إنه أوحى إلى أن رجلاً من بنيك هو الذي يقتل جالوت؛ فأتاه بينه واحداً بعد واحد فلم ينش القرن على واحد منهم؛ فقال له: اصدقني فإنه أوحى إلى أنه يقتله رجل من بنيك، فقال له: ما بقى عندي ولد ينبغى لهذا الأمر، فقال له: وإن كان كذلك فأت به.

فذهب إلى داود، فأتاه في أغنامه وإذا هو قد رفع صوته بالذكر والتسبيح، وإذا الجبال يسبحن معه، ولم يسمع مثل صوته حسناً فقال له: إن الله أوحى إلى شمویل أن رجلاً من ولدي يقتل جالوت، وقد اختبرهم بدهن القدس فلم يجد فيهم من ذكر له، فلم يبق غيرك، وكانت عيني تقتحمك^(١)، فهل تحس من نفسك شيئاً؟ فإن الملك جعل لمن يقتل جالوت شطر ملكه وأن يزوجه ابنته، فعسى الله أن يكرمك بقتل جالوت. فقال له: إن قلبي لا يفزعه شيء، وكنت لا أرمي بنبلي شيئاً إلا حظوته^(٢)، ولا أحظوه إلا نفذته، أي أنفذته السهم حتى يقع بالأرض، ولي قوة، وكان الأسد يأخذ الشاة فأفك عنها حنكيه بيدي لا يستطيع حراكاً، وربما قتله.

وذهب مع أبيه، فمر بحجر: فخطبه، قال له: خذني يا داود فإن الله سيقتل بي جالوت على يدك، ثم مر على حجر آخر فقال له مثل ذلك؛ فجعلهما في مقبلاعه^(٣).

فما هو إلا أن أتى شمویل، فنش الدهن في القرن، فأخذ شمویل القرن فجعله على رأسه فنش حتى تكلل رأسه. فلما رأوا ذلك طابت أنفسهم للمقتال.

فلما تراءت الفئتان قال الذين اغترفوا من النهر: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فأجابهم الذين لم يطعموه وهم الذين عبر الله عنه بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(١) تقتحمك: تحترق.

(٢) حظوته: أصبته.

(٣) المقلاع: وعاء يكون فيه زاد الراعي ومتاعه.

فقال طالوت لداود: ابرز إلى جالوت، فلئن قتلته لأزوجنك ابنتي ولأشاطرنك ملكي. فأعطاه فرساً من جياذ الخيل ودرعاً وبيضة وسلاحاً وعدة، فركب الفرس، ولبس الدرع، وجعل البيضة على رأسه، فأخذ العدة والسلاح.

فلما قرب من جالوت رجع إلى طالوت، فنزل عن الفرس، ووضع الدرع والبيض، فقال له طالوت: أكرهت لقاء الرجل؟! قال: لا، ولكن خفت أن يكلمني الله إلى فرسك وعدتك؛ فأنتى بحماري، فأتى به، فأخذ مقلاعه، وجعل فيه حجرتين. فلما دنا من جالوت ضحك إعجاباً منه فقال: أتريد أن ترميني بحجر كما يرمى الكلب؟ فقال له: نعم، أنت شر من الكلب؛ لأنك كافر بالله. فلما خاطبه داود عليه السلام ألقى الله الرعب في قلبه، وجعل الحجرتين في المقلاع، وسمى الله، ورماه، فصكته على ناصيته حتى خرجت من قفاه، فمات، وانهمزت عساكره.

فلما رجعوا إلى إيلياء وفتى طالوت لداود على كره. ثم اتخذ الله داود نبياً رسولاً، وآتاه الملك والحكمة. فلما رأى طالوت إقبال الناس على داود وعظمتته في قلوبهم وما آتاه الله من النبوة والرسالة حسده؛ فهم بغدره، فأخبرته بذلك ابنة طالوت وكانت تحت داود، فقالت له: إن أبي يريد غدرك الليلة فما أنت صانع فاصنعه؛ فعمد إلى زق فملاه خمرًا، ثم جعله على سريره، وغطاه بالثياب.

فلما نامت العيون وانقطعت الأصوات قصد طالوت بيت داود عليه السلام ويده سيف، فلما دخل البيت ورأى الزق على السرير ظنه داود نائمًا؛ فضربه بالسيف، فانشق الوعاء، وسال الخمر، فلما وجد طالوت رائحة الخمر قال: قاتل الله داود ما أكثر شربه للخمر!!

فرجع وقد تيقن أنه قتل داود، فأتى أصحابه، وأخبرهم بقتل داود.

فلما نام دخل عليه داود عليه السلام، فأخذ أربعة أسهم من كنانته، فوضع سهمًا عند رأسه، وسهمًا عند رجله، وسهمًا عند يمينه، وسهمًا عند شماله، ثم قطع شيئًا من طرف ثوبه وشيئًا من شعره، ثم رجع إلى بيته ليريه أنه لا يريد قتله، وأنه لو أراد قتله لقتله.

فلما أصبح ورأى السهام عرفها، وعلم أنه لم يظفر بحاجته، وأن داود إنما فعل ذلك ليريه أنه لو أراد قتله لقتله.

فلما رأى ذلك أظهر العداوة وجد في طلب داود عليه السلام ليقتله؛ ففر داود إلى الجبل، وتبعه طالوت في خيل، فلما رآهم داود شد ليسبقهم إلى الجبل وقد أسرع هو وخيله ليدركوه قبل صعوده الجبل، فلما أرهاقوه أوى إلى كهف، فنسجت عليه العنكبوت، فلما رأوا نسج العنكبوت لم يتفسخ علموا أنه لم يدخله، فجعلوا يطوفون في الجبل حتى ردهم حر الظهيرة.

فلما فاته داود عليه السلام وضع يده في قتل الحكماء الذين أخذوا الحكمة على داود عليه السلام، يقتل كل من ذكر داود بخير، حتى ذكرت له امرأة من بنى إسرائيل كانت عابدةً سالحةً وعندها اسم الله الأعظم، فأمر وزيره بقتلها، فلما أتاها خاف من الله إن قتلها ومن الملك إن تركها؛ فأمرها بالتغيب، فقال لها: إن الملك قتل الصالحين من بنى إسرائيل والصالحات فتغيبي؛ فإنه إن علم أنى لم أقتلك قتلتى، ولئن قتلتك لأخافن عقاب ربي وعذابه؛ فتغيبت، وجعلت تعبد ربها.

ثم ألقى الله التوبة والخوف في قلب طالوت؛ فجعل يصيح الليل والنهار من خشية الله حتى احمرت عيناه وكاد بصره يذوب؛ فدعا وزيره فقال له: ويلك، هل من عبد صالح في بنى إسرائيل أشكو إليه ما نزل بي فلعله يدلني على ما يتقبل الله به توبتي ويمحو به حوبتي؟ فقال له: إنك أفنيت صلحاء بنى إسرائيل، ونفيت داود من البلد، ولم يبق أحد من العباد، فلما قال له ذلك صاح حتى ظن أنه قد انصدع صدره عن قلبه، ثم أغمى عليه، فلما أفاق ورأى وزيره منه الجدد قال له: اربع على نفسك فإن الفرج منك قريب؛ قال له: وكيف ذلك؟ قال له: إن المرأة الصالحة التي أمرتني بقتلها فإنني لم أقتلها، وقد أعددتها لمثل هذا اليوم العسير؛ قال له: فهلم فاذهب بنا إليها.

فذهبا إليها ولما دنيا من الكهف الذي هي فيه تقدم إليها الوزير فقال لها: أيتها المرأة الصالحة، إن طالوت قد تاب ورجع إلى الله، وإنه قد أتاك ليجعل الله له فرجاً ومخرجاً مما هو فيه.

فذهبت معهما إلى قبر أورياء النبي عليه السلام، فلما وقفوا عليه دعت الله باسمه الأعظم أن يرد إلى أورياء روحه فيخاطبهم ويسمعوا خطابه، فكلمها أورياء عليه السلام فقال لها: ما تريدين يا أمة الله؟ قالت: إنى أريد أن تخبر طالوت بالسبب الذي يتقبل الله به توبته، فقال لها وهما يسمعان: لا توبة لطالوت حتى يرسل إلى داود ويمكنه من ملكه؛ فإنه قد نفاه ظلماً، وإنه أحق بالملك منه، ثم يذهب بينه إلى البربر، فيجاهدهم حتى يموتوا كلهم، ثم يموت آخرهم، فإنه إن فعل ذلك غفر الله له ورحمه وتقبل توبته.

فرجع إلى بنيه وقد تضاعف بكأوه وحزته مخافة أن لا يقبلوا ذلك منه، فجمعهم - وكانوا اثني عشر رجلاً - وقال: يا بني، كيف وجدتم تربيته إياكم وشفقتي عليكم وإحساني إليكم؟ قالوا: رببتنا خير تربية، وأحسننا إلينا كل الإحسان، وكنت لنا نعم الأب. فقال لهم: إن كان ذلك كذلك فهي النار إلا أن تنقذوني بأنفسكم، وإنى ذاهب إلى البرابر حتى يقتلوني توبةً من الله، وقد أخبرني الله على لسان أورياء أنه لا توبة لي حتى تقتلوا كلكم أمامي ثم أموت آخركم. فقالوا له: لا خير في العيش بعدك، وإن هذا ليسير في طلب مرضاة الله ومرضاتك.

فأخذوا في التهيؤ للمسير، وتهيأ إلى المسير معهم، وقد أرسل إلى داود عليه السلام أن ارجع إلى ملكك فإنني قد انخلعت به ووهبت لك رجاء أن يتقبل الله توبتي.

ثم ذهبوا إلى الكفرة فقتلوا بنيه جميعاً، ثم قتلوه آخرهم، ثم رجع داود عليه السلام من الجبال؛ فاجتمعت عليه بنو إسرائيل، فجمع الله له بين الرسالة والملك، ولم يجمع ذلك لنبي من أنبياء بني إسرائيل قبله.

والبكاء، بالمد: هو البكاء مع ذكر مناقب الميت، والنياحة: الاجتماع للبكاء على الميت على وجه النوح على عادة العرب في الجاهلية.

قال محمد بن المسيب: لما حضرت عبد المطلب الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ستة: صفية وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء وأميمة وأروى، فقال لهن: ابكين على قبل أن أموت؛ فقالت كل واحدة منهن شعراً ترثيه به وأنشدته إياه،

فأشار برأسه وقد أصمت أن كذلك فابكينني . وذكر ابن إسحاق تلك الأشعار، قال ابن هشام: إنه لم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها .

قال ابن إسحاق: وقال حذيفة بن غانم أخو بني عدى بن كعب يبكي عبد المطلب ابن هاشم ويذكر فضله وفضل قُصَى على قريش وفضل بنيه من بعده عليهم، فقال: (من بحر الطويل)

أَعْيَنِي جُودًا بِالدَّمْعِ عَلَى الصَّدْرِ
وَجُودًا بِدَمْعٍ وَاسْفَحَا كُلَّ شَارِقٍ
وَسَحًّا وَجَمًّا وَاسْجُمًا مَا بَقِيْتَمَا
عَلَى رَجُلٍ جَلَدِ الْقَوَى ذِي حَفِيظَةٍ
عَلَى خَيْرِ حَافٍ مِنْ مَعْدٍ وَتَاعِلٍ
عَلَى شِيَةِ الْحَمْدِ الَّذِي كَانَ وَجْهُهُ
وَسَاقِي الْحَجِيجِ ثُمَّ لِلْخَيْرِ هَاشِمِ
طَوَى زَمَزَمًا عِنْدَ الْمَقَامِ فَأَصْبَحَتْ
لِيَبِكَ عَلَيْكَ كُلِّ عَانٍ بِكَرْبِهِ
بَنُوهُ سِرَاةً كُلَّهُمْ وَشَبَابِهِمْ
فَصَفَّ الَّذِي عَادَتْ كُنَانَةٌ كُلِّهَا
فَإِنْ تَكْ غَالَتِ الْمَنَايَا وَصَرَفَهَا
وَأَبْقَى رَجَالًا سَادَةً غَيْرَ عَزَلٍ
أَبُو عَبْتَةَ الْمَلْقَى إِلَى حَبَاؤِهِ
وَحَمْزَةً مِثْلَ الْبَدْرِ يَهْتَزُّ لِبَلْبَدِي
وَعَبْدُ مَنْافٍ مَاجِدٌ ذُو حَفِيظَةٍ

ولا تَسَامَا أُسْقِيْتَمَا مُسْبِلَ الْقَطْرِ
بِكَاءِ امْرِئٍ لَمْ يُشَوِّهِ نَائِبَ الدَّهْرِ
عَلَى ذِي خَبَاءٍ مِنْ قَرِيْشٍ وَذِي سَتْرِ
جَمِيْلِ الْمَحْيَا غَيْرِ نَكْسٍ وَلَا هَدْرِ
كَرِيْمِ الْمَسَاعِي طَيْبِ الْحَيْمِ وَالنَّحْرِ
يَضِيءُ سَوَادَ اللَّيْلِ كَالْقَمْرِ الْبَدْرِ
وَعَبْدُ مَنْافٍ ذَلِكَ السَّيِّدِ الْفَهْرِي
سَقَايَتُهُ فَخْرًا عَلَى كُلِّ ذِي فَخْرِ
وَأَلْ قَصَى مِنْ مَقْلٍ وَذِي وَفْرِ
تَفَلَّقُوا عَنْهُمْ بِيضُ الطَّائِرِ الصَّقْرِ
وَرَابِطَةُ بَيْتِ اللَّهِ فِي الْيَسْرِ وَالْعَسْرِ^(١)
فَقَدْ عَاشَ مَيْمُونَ النَّقِيْبَةَ وَالْأَمْرَ
مَصَالِيَتَ أَمْثَالِ الرَّدِيْنِيَّةِ السُّمْرِ
أَغْرَ هِجَانَ اللَّوْنِ مِنْ نَفْرِ غُرٍّ
نَقَى الثِّيَابِ وَالذَّمَامِ مِنَ الْعَدْرِ
وَمَوْلَى لَذَى الْقَرْبَى رَحِيمَ بَدَى الصَّهْرِ

(١) هذا البيت لا يستقيم وزنه هكذا .

كهنل الملوك لا يبور ولا يجر
 إذا سبق الخيرات في سالف العصر
 وليس بها إلا شيوخ بني عمرو
 بئراً تحج الماء من ثبج البحر
 إذا ابتكروها صبح تابعة النجر
 محبسة بين الأخشاب والحجر
 ولا نستقي إلا بخمر أو الحفر
 ويعفون عن قول السفاهة والهجر
 قد أسدى يداً محفوفة منك بالشكر
 بحيث انتهى قصد الفؤاد من الصدر
 إذا فصل الأنساب يوماً ذوو خبر
 وأكرم بها منسوبة في ذرى الغر
 فأول من ناح إبليس لعنه الله . وأول من بكى آدم عليه السلام .

أخرج ابن الخطيب في مواهبه: أن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة بكى على خطيئته ثلاثمائة سنة لم يرفع طرفه إلى السماء حياةً من الله تعالى، حتى أنبت الله من دموعه العود الرطب والقرنفل والأفاوية^(١)، وبكت حواء حتى أنبت الله من دموعها الزعفران والسنبل^(٢).

يروى أنه لو اجتمعت دموع بني آدم كلهم لكانت دموع آدم أكثر منها حين أخرج من الجنة، ولما بنى الكعبة وطاف بها جعل ينزلق في دموعه كأنها ضحضاح؛ قيل: بذلك سميت بكة بكة.

ولما أقرَف داود عليه السلام الخطيئة سجد أربعين يوماً ودموعه تسيل على الأرض حتى نبت بها العشب وغطى رأسه. فلما نُودى عليه بالتوبة زفر زفرةً

(١) الأفاوية: محسنات الطعام، كالأبازير.

(٢) ما أظن قصة البكاء هذه والإنبات إلا من نسج خيال اليهود.

أبيست العشب لجرها^(١).

وسمى نوح نوحاً لكثرة نوحه.

وبكى شعيب عليه السلام حتى ذابت عيناه فردهما الله عليه، ثم ذابتا فردهما الله عليه، ثم ذابتا في الثالثة فردهما الله عليه؛ فقال: يا شعيب، إن كان يبكيك خوف النار فقد أمنتك منها، وإن كنت إنما تبكي شوقاً إلى الجنة فقد أبحثها لك وأوجبت لك الخلود فيها. فقال له: فوعزتك ما بكائي خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن شوقاً إلى لقائك. فقال له: فوعزتي وجلالي لأجعلن راعي غنيمتك نبياً أكلمه في كل يوم اثنتي عشرة مرة؛ فساق الله إليه موسى، وكان من أمرهما ما قص الله.

وكان يحيى عليه السلام مع كونه سيداً حصوراً^(٢) لا يرقأ له دمع حتى أثر في خديه فصارت مواضع مجراه أخدوداً.

وكذلك إبراهيم عليه السلام وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، إلا أنهم متفاوتون في ذلك بحسب التجليات.

فالخاص أن البكاء خلُقُ الأنبياء ودأب الأصفياء، وعليه تفانت جماهير الأتقياء؛ فجمود العين علامة الشقاء وديوان الحمقاء. والبكاء لا يستغنى عنه بحال.

قال ﷺ: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا».

وهو سبعة أقسام: بكاء خوف، وبكاء خشية، وبكاء هيبة، وبكاء حياء، وبكاء ذنب، وبكاء محبة، وبكاء شوق.

فبكاء الخوف بكاء يقتضى منك الفرار والقلق والانكسار، وهو الذى يقول فيه النبى ﷺ: «ليس الخائف من بكى وسحَّ الدموع إنما الخائف من ترك ما نهى الله عنه»^(٣) وهو بكاء التائبين المقلعين.

(١) هذه القصص الموعلة في الخيال مما أتى به الإسرائيليون وسربره إلينا، ولا تصح عقلاً ولا نقلاً، والله أعلم.

(٢) الحصور: الذى لا رغبة له فى النساء.

(٣) حديث: «ليس الخائف من بكى»... إلخ. لم أجده هكذا.

وبكاء الخشية هو بكاء أهل التمكين، وهو الذى يصاحبه خشوع وسكينة وخضوع بدون صوت وانتحاب، يبكى متى شاء وكيف ومتى أراد.

وبكاء الهيبة هو بكاء يثيره الإجلال والعظمة، وهو حظ العارفين أهل التمكين، لم يبعثه خوف عقاب ولا طمع فى ثواب، بساطهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

الرابع: بكاء الحياء، وهو الذى يثيره انكسار واحتقار، انكساراً أن يكون أهلاً للإقبال، واحتقاراً لعمله أنه يكون أهلاً للقبول، وهو مقام المراقبة، وبساطهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال على كرم الله وجهه: الحياء من الله كُلُّ الحياء أن تستحي من الله أن يفقدك حيث أمرك، أو يراك حيث نهاك، مع ملازمة الذبول، ومخامرة الذهول، تعرفهم بسيماهم.

واختلف فى تلك السيمة، فقيل: هو نحول الجسم من غير مرض، واصفرار اللون من غير عرض، وظهور الخشوع، وإسبال الدموع، وقلة الهجوع. وقيل: هى آثار السجود، واللهج بذكر الواحد المعبود، والإعراض عن الكون بالعزلة والصدود.

الخامس: بكاء الذنب على ما مر، وهو البكاء السخن، وهو الذى يثيره القلق والخوف والفرق والحياء والملق، وهو الذى عنى الشاعر بقوله: (من بحر الطويل)

فوليتُ محزونًا بعين سخينة . أكفكف دمعى والفوادُ قد انصدع

وأما بكاء الشوق فبخلاف ذلك، فإنما تثيره قرة العين، وزوال البين؛ فهو مأخوذ من القَر الذى هو ضد الحر، فينبجس عن تَلَج الصدر، وبساطهم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] فهؤلاء بكاؤهم من جنس معناهم.

والسادس: بكاء محبة، وهو الذى: أثاره تجلى الجمال، فلهيبه زمهيري، ومعين نهره غزير، لا يوازيه نهر ولا غدير، وهو بحر قد طمى، وتلاطمت أمواجه فهمى، وفيه يقال:

وللغرب قد نسب وانتمى

من لغمرات البين قد رمى

وقال الشاعر: (من بحر البسيط)

وهيج الريح موجاً يقذف الدرراً

الله أكبر هذا البحر قد زحرا

عنك السباحة ليس السبح مفتخرا

فاخلع ثيابك واغرق فيه ودع

حياته بحياة الله قد عمرا

ومت فميت حب الله فى رغد

السابع: بكاء قرب، وحقيقته التهتك، وإسقاط التمالك، فهو بحر البحور، ولجة الحبور، للدخول فى البيت المعمور، والرق المنشور، والبحر المسجور، فيعبر عن نفسه بنفسه، ويأخذ علم الشريعة من رسمه، وعلوم الحقيقة من حسه، فيصير عين الكتاب المسطور، فيخط فيه بقلم النور، فبحره ممداده، وغيضته أعواده، والأقدام كلها أمداده، والملا الأعلى عواده فتكلُّ دون بيان النزر من صفاته العبارة، وتستقل الإشارة، فلا يعرفه إلا من شاكله، أو من على عوائد الحق واكله، فهو الاسم المكتوم، والسر المختوم، والعلم المعلوم، وقفت دون حده الرسوم، وطاشت دون فحواه الفهوم، وخاطبته بحقائقها العلوم.

يروى أن الجنيد رضى الله عنه كان يخرج كل يوم على أصحابه فيقول لهم: هلم فلنخرج إلى الصحراء، فلنكب على ذنوبنا وسوء أدينا مع الله؛ فيخرجون إلى الصحراء فيكون، ويذكر كل واحد منهم ما ألم به من سوء آدابه مع ربه، ومن لم يجد منهم سوء أدب قال: إن كلى سوء أدب، فإن من لم ير لنفسه سوء أدب فقد أساء الأدب.

وكان مالك رضى الله عنه إذا قيل له: ما يبكيك؟ يقول لهم: ليس العجب ممن بكى إنما العجب ممن لم يبك وهو فى سجن الدنيا وإسار الغيوب.

ولقد بكى بشر الحافى حتى عمشت عيناه، واتصل بكاؤه بموته؛ فقيل له: إذا قطعت عمرك بالبكاء فما معنى بكائك عند اللقاء؟ فقال لهم: كان بكائى على تفريطى فى الأيام الخالية، وقلة صبرى على النار الحامية، وعدم استعدادى للجنة العالية.

وقال بعض الحكماء: إذا أخصب القلب بالمعارف والأعمال الصالحات جرت

أنهار الخشوع بمعين الدموع، وإذا أجذب القلب وتمحل^(١) جمد الدمع وتقلل.

وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً أسيفاً^(٢) قلما تراه إلا باكياً. وكذلك على كرم الله وجهه. وكان عمر رضى الله عنه إذا مر على آية من ورده فيها وعد أو وعيد تخنقه العبرة حتى يسقط ويلزم الفراش حتى يعاد، يسحبه الجاهل مريضاً وما به إلا الخوف والهيبة. وكذلك عثمان رضى الله عنه عند ذكر الموت.

وكان بكأوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جنس ضحكه من غير رفع صوت ولا نطق بمحذور، كما كان يقول: «العين تدمع، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضى الرب».

كما قال: حامل لواء المدّاحين سيدى محمد بن سعيد البوصيرى فى همزيتة:
(من بحر الخفيف).

سَيِّدُ ضَحْكِهِ التَّبَسُّمُ وَالْمَشَىُّ الْهَوِينَا وَنَوْمُهُ الْإِغْفَاءُ

إلا أن لسان الدولة ابن الخطيب قال فى «مواهبه»: لما وقف النبى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عمه حمزة يوم أحد فوجده وقد مثل به وجد لما رأى وجدًا شديدًا، فبكى حتى كاد يبلغ به البكاء حد الغشى، وحتى سمع نشيج صدره، وربما نشغ من غلبة البكاء، وجعل يقول: «رحمك الله يا حمزة، يا فاعل الخيرات، رحمك الله يا عمى، يا كاشف الكربات، لم أفق موقفاً هو أغيظ من هذا لقلبي من هذا الموقف، ولن أصاب بمثلك إلى يوم القيامة، ولقد أخبرنى جبريل أن اسمك فى الملائ الأعلی: حمزة أسد الله وأسد رسوله، ولئن أظهرنا الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بسبعين رجلاً منهم»^(٣).

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا: والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب؛ فأنزل الله عز وجل فيما قاله من ذلك وما قالت صحابته: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا

(١) تمحل: قحط.

(٢) أسيفاً: كثير الحزن.

(٣) فى (أ): لأمثلن بستين، وهو تصحيف.

تَحَزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧]؛ فعفا رسول الله ﷺ، وصبر، ونهى عن المثلة.

• ثم قال رحمه الله:

١٦٣ - وَذِي تُحْفَةٍ الْمُؤَدُّودِ تَمَّتْ مُحِيطَةً

بِمَا اهْتَمَّ بِاسْتِقْصَائِهِ الْأَدْبَاءُ

قوله: «وذى تحفة المؤدود»: فذى: اسم إشارة للمفرد المؤنث مبنى على السكون، ويقال: ذى وذو بالاختلاس، وذه بسكون الهاء. وتا بفتح التاء، وتى بالإشباع، وت بالاختلاس، وته بالسكون، وته بالإشباع، وته بالاختلاس. وروى المبرد فيها أوجهاً أخر فتقول: ته بفتح التاء وسكون الهاء، وتهى وته بضم التاء. وقيل: إنها لا تضم إلا للجمع. ويقال فى لغة مذحج: تَذُ وتَذُه وتذوك. ويضاف إلى الجميع فيقال: تيك وتيكم، وزيك وزيكم وذاكم وذلکم.

والتحفة: الكرامة على المعسر القريب على وجه التعظيم والإجلال بأنفس ما يكون وأرفعه، وإن كانت بدون ذلك يقال لها كرامة، وإن كانت بدون ذلك يقال لها مآدبة، وإن كانت بدون ذلك قيل لها دعوة.

قال النبى ﷺ: «الموت تحفة كل مؤمن».

ولما احتضر رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إن لكل قادم تحفة، فما تحفتى؟ قال: تحفتك أن الله يغفر لكل مؤمن وكل مؤمنة تحت أديم الأرض قد فجع وتآلم بمصيبتك؛ فسر رسول الله ﷺ بذلك، ثم قال: ثم ماذا؟ قال: يكون خليفتك فى أمتك من بعدك حتى يظهرهم على من ناوأهم، ثم لا يجتمعون على ضلالة ما بقوا، ولا يعمهم الله بعذاب من عنده، ولا يسلط عليهم عدواً ومن غيرهم فيستأصلهم؛ فطابت نفسه ﷺ حينئذ للموت^(١).

(١) ما أشبه أن يكون هذا الكلام موضوعاً؛ فأمارات الوضع عليه بادية.

نعم صح فى حديث آخر أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وصح فى حديث آخر أن الله لا يسلط على المسلمين عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، والله أعلم.

وفى كتاب «البشر بخير البشر» وكتاب «عمل اليوم والليلة»: أن العباس رضى الله عنه دخل على النبي ﷺ فوجده مستبشراً، فقال لأتحفك يا عباس بتحفة هي خير لك من حمر النعم، فقال: وما هي فديتك من مبشر بخير؟ ودعا له، فقال: «إذا صليت العشاء أو الظهر فصل أربع ركعات تقرأ فيهن بالفاتحة وسورة الإخلاص، فإذا أتممت القراءة فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم خمس عشرة مرة، وإذا ركعت فقل ذلك في ركوعك عشراً، وإذا رفعت فقله عشراً، وإذا سجدت فقل ذلك في سجودك عشراً، ثم في رفعك عشراً، تفعل ذلك إلى آخر صلاتك فإذا سلمت فصل على محمد مائة مرة. ثم اسأل الله حاجتك فإنها تقضى كائنه ما كانت، وليغفرن الله لك ذنوبك ولو كانت مثل زيد البحر، فصلها في كل يوم مائة مرة، وإلا ففي كل جمعة، وإلا ففي كل شهر، وإلا ففي كل سنة، وإلا ففي عمرك مرة واحدة؛ فإنها صلاة التسييح، هي حجاب من الفقر والبلايا وعذاب القبر، لا يفعلها مكروب إلا فرج كربه، ولا صاحب دين إلا قضى دينه»^(١).

(١) حديث: «لأتحفك يا عباس»... إلخ. هذه الصلاة تسمى صلاة التسييح، والحديث أورده ابن الجوزي في موضوعاته، وقال بعد إيراد طرق الحديث: هذه الطرق كلها لا ثبت: الطريق الأول فيه صدقة بن يزيد الخراساني قال أحمد: حديثه ضعيف، وقال البخاري: حديثه منكر.

والطريق الثاني فيه موسى بن عبد الله مجهول عندنا. وأما الثالث ففيه موسى بن عبيدة قال أحمد: لا تحل عندي الرواية عنه، وقال يحيى: ليس بشيء. اهـ (٢/١٤٥).

وأورده الشوكاني في موضوعاته تحت رقم ١٢٣ وقال: رواه الدارقطني عن ابن عباس والدليمي. وقال السيوطي في اللآلئ ما حاصله: أنه أخرج حديث ابن عباس أبو داود وابن ماجه والحاكم إلى أن قال: وقال ابن حجر: لا بأس بإسناد حديث ابن عباس، وهو من شرط الحسن؛ فإن له شواهد تقويه، وقد أساء ابن الجوزي بذكره في الموضوعات إلى أن قال: وقال العقيلي: ليس في صلاة التسييح حديث يثبت. وقال ابن العربي: ليس فيها حديث صحيح ولا حسن. انتهى كلام الشوكاني (٢٧/١) فوائده.

وقال في اللآلئ نقلاً عن ابن حجر: والحق أن طرقه كلها ضعيفة، وأن حديث ابن عباس يقرب من درجة الحسن إلى أنه شاذ لشدة الفردية فيه وعدم المتابع والشاهد من وجه معتبر، ومخالفة هيئتها لهيئة باقي الصلاة.

قلت: فالحديث لما ذكر لا تقوم به الحججة، والله أعلم.

والمودود: هو المحبوب. قال الله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أى: يلقى لهم محبة فى قلوب الخلق. تمت: أى كملت حالة كونها محيطة بالذى اهتم باستقصائه أى: اعتنى باستقصائه أى: بالإحاطة به الأدباء، وواحد الأدباء أديب، والأدب، بالتحريك: الظرف وحسن تناول المعانى على الوجه اللائق وافتتاحها من المبانى على وجه يأخذ بمجامع القلوب، ويؤتى به على أحسن أسلوب، حتى يحيط بالمرغوب المحبوب.

قال ﷺ: «إنَّ من البيان لسحراً»^(١). معناه: أن اللفظ الفصيح البديع له تأثير فى القلوب والأرواح، كما أن السحر له تأثير بذلك؛ فيأخذ بمجامع القلوب والأرواح، حتى تناقد بذلك جميع الأشباح، فربما أنقذ اللفظ البليغ صاحبه من حبال، فسلم على الشفا على الموت وتعين الهلاك والقوت.

ولما أتى بالخطيئة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما هجا الزبيرقان بن بدر، فأمر بحبسه؛ فجعل فى السجن، فمكث مدة، ثم أمر به عمر رضى الله عنه فجىء به، وأنشد فذكر حال بنيه وعياله من بعده، فلما سمع عمر ذلك من قوله بكى؛ فقال عمرو بن العاص: رحمك الله يا عمر ما أشفقك إذ تبكى لبكاء الخطيئة؛ فكان ذلك سبباً لإطلاقه بعد الهم بقتله.

ولما بلغ عبد الملك بن مروان ما أوغر صدره على الحجاج حتى هم بقتله والانتقام منه كتب إليه:

أما بعد: فقد بلغنى إسرافك فى الدماء وتبذيرك فى العطاء، وقد حكمت عليك بالحد، أما فى الخطأ فالديّة، وأما فى العمد فالقود، وفى الأموال أن تردّها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأى؛ فإنما هو مال الله تعالى، ونحن فيها أمناء، فإن كنت أردت الناس لى فما أعنانى عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك منى أمران إن رشدت فيهما فلا يؤمنك إلا الله، ولا يوحشك إلا المعصية، فإن أعطاك الله تعالى الظفر فلا تقتل ذا نفس معصومة ولا أسيراً. وكتب له فى أسفل الكتاب: (من بحر الطويل)

(١) حديث: «إن من البيان لسحراً» صحيح، وتقدم تخريجه.

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها
وتطلب رضائي بالذي أنت طالبه
فإن ترمني غفلة قرشية
فيا ربما قد غص بالماء شاربته
وإن ترمني وثبة أموية
فهذا وهذا كله أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادثُ جمّة
فإنك مجزئى بالذي أنت كاسبه
ولا تعد ما يأتيك منى وإن تعد
يقمن به يوماً عليك نوادبه
فلا تمنن الناس جمّاً جمعته
ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك إن تعطى الحقوق فإنها
نوافل شيء أنت لا شك واهبه

فلما ورد هذا الكتاب على الحجاج كتب:

أما بعد: فقد ورد كتاب أمير المؤمنين يذكر إسرافى فى الدماء وتبذيرى فى الأموال، ولعمرى ما بلغت الغاية فى عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتل العصاة إسرافاً وإعطاء المطيعين تبذيراً فليغفر لى أمير المؤمنين ما سلف، فوالله ما أصبت القوم خطأ فأديهم، ولا ظلمتهم فأقتاد بهم، وما قتلت إلا لك، وما أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب أسفل الكتاب: (من بحر الطويل)

إذا أنا لم أبقى رضاك وأتقى
أذاك فيومى لا توارى كواكبه
وما لامرئ بعد الخليفة جنة
تقيه من الأمر الذى هو راكبه
إذا اقترف الحجاج فيك خطيئة
فقامت عليه بالصياح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحته
وأقص الذى تسرى إلى عقاربه
وأعطى المواسى فى البلاء عطية
لرد الذى ضاقت على مذاهبه
فمن يتقى بأسى ويرجو مودتى
ويخشى غداً والدهر جم نوابه
والأمر إليك اليوم ما قلت قلته
وما لم تقله لم أقل ما يقاربه
ومهما أردت اليوم منى أردته
وما لم ترده اليوم إنى مجانبه
فقف بى على حد الرضا لا أجوزه
مدى الدهر حتى يرجع الدرّ حالبه

وإلا فدعنى والأمور فإننى شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتى، ولن يعود إلى أمر كرهته إن شاء الله، فمن يلمنى على محبته؟ اكتب إليه يا غلام: يرى الشاهد ما لا يرى الغائب، وأنت أعلى عيناً بما هنالك.

وكان الحجاج مع إسرافه من فصحاء الرجال وبلغائها ومن أكرم الناس، كان يقول: رسولى إلى الناس طلوع الشمس. وكان كلما طلعت الشمس يحشر الناس إليه فلا يذاد عن مواعده أحد.

يروى أن الحسن بن الفضل بن العباس دخل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره، وقال: صبى يتكلم فى هذا المقام؟! فقال: يا أمير المؤمنين، وإن كنت صبياً فلست أصغر من هدهد سليمان ولا أنت أكبر من سليمان، قال له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، ثم قال: ألا ترى أن الله قد فهم الحكم لسليمان عليه السلام؟ ولو كان بالكبير لكان داود أولى.

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى أصغرهم سنّاً يريد أن يتكلم، فقال له: ليتكلم من هو أكبر منك فإنه أحق بالكلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قد قدمنا من بلد يحمد الله الذى منّ بك علينا، ما أقدمنا عليك رغبة ولا رهبة؛ أما الرغبة فقد أمنّا بك فى منازلنا، وأما الرهبة فقد أمنّا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام.

فقال له عمر: عظنى يا غلام؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناساً غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم؛ فلا تكن ممن غره حلم الله وثناء الناس عليه؛ فتزل قدمك؛ فتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

فنظر فى سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأنشد عمر رضى الله عنه: (من بحر الطويل)

تعلم فليس المرء يولدُ عالمًا وليس أخو علم كمن هو جاهلٌ
فإن كبير القوم لا علم عنده صغيرٌ إذا التفت عليه المحافلُ

حكى أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن غراس الجنة، وعن مفتاح الصلاة، وعن صلاة كل شيء، وعن خمسة فيها الروح ولم تركض في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا قوم له، وعن قبر سار بصاحبه، وعن قوس قزح وما هو؟ وعن بقعة طلعت الشمس عليها مرة واحدة، وعن الظاعن الذي ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء يتنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد، وعن البرق وضوئه، والرعد وصوته، وعن المحو الذي في القمر.

فقال بعض البلغاء لمعاوية: لست هناك؛ إن هذا مما لا تهونه البلاغة، فلو كان كذلك كُفيتُهُ، ولكنه لا يروى إلا عن نبي، ولا يطعم جناه إلا عن وصي، ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، وكان سبة على الإسلام وأهله، فكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل. فكتب إليه فأجابه:

أما الشيء فالماء؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وأما لا شيء فإنها الدنيا، تبيد وتفتني.

وأما دين لا يقبل الله غيره فدين الإسلام. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأما مفتاح الصلاة فالله أكبر.

وأما غراس الجنة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما صلاة كل شيء ف سبحان الله ويحمده.

وأما الخمسة الذين لهم أرواح ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء فأدم وحواء وعصا موسى وكبش إسحاق وناقاة صالح.

وأما الرجل الذي لا أب له فالمسيح.

وأما الرجل الذي لا قوم له فأدم.

وأما القبر الذي سار بصاحبه فالخوت سار بيونس في البحر.

وأما قوس قزح فأمان الله لعباده من الغرق . وكانت العرب فى الجاهلية تسميه قوس قزح فسماه رسول الله ﷺ قوس الله، وقال: لا تقولوا قوس قزح؛ فإن قزح الشيطان، ولكن قولوا قوس الله^(١).

وأول ما ظهر زمن الطوفان لما شكى نوح عليه السلام إلى الله كثرة الطوفان أوحى الله إليه: إنى مخرج لك يداً، فإذا رأيتها فاعلم أن الطوفان قد انقلع، وهو أمان لك ولذريتك من الغرق والصواعق إلى يوم القيامة.

وأما البقعة التى خرجت عليها الشمس مرةً واحدة فالبحر حين انفلق لبني إسرائيل.

وأما الظاعن الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله بجناحين، فنادى مناد: إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم؛ فأخذوا التوراة مذعنين؛ فرده الله إلى موضعه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١] الآية.

وأما الشجرة التى نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التى أنبتها الله على يونس.

وأما الذى تنفس بلا روح فالصبح، قال الله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

(١) حديث: «لا تقولوا قوس قزح»... إلخ. موضوع، أخرجه أبو نعيم والخطيب من طريق زكرياء عن حكيم الحبلى، وعنهما ابن الجوزى فى موضوعاته، وقال: هذا حديث لم يرفعه غير زكرياء، قال أحمد ويحيى: ليس بشيء، وقال يحيى مرة: ليس بثقة، وكذلك النسائى، وقال ابن المدينى: هالك (١/١٤٤).

كما أورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٨٧٢ وقال: موضوع. وقد تعقب السيوطى فى اللآلئ ابن الجوزى فقال: أخرجه أبو نعيم فى الحلية، وقال النووى فى الأذكار: يكره أن يقال: قوس قزح، واستدل بهذا الحديث، وهذا يدل على أنه غير موضوع (١/٨٧)، هذا هو دليل السيوطى رحمه الله على أن الحديث غير موضوع، وهو ليس دليلاً.

قلت: وقد أورد الحديث السخاوى تحت رقم ١٢٩٧ وصاحب الكشف تحت رقم ٣٠٣٩ وسكتا عليه، والله أعلم.

وأما اليوم فعمل، وأما أمس فمثل، وأما غد فأجل، وأما بعد غد فأمل.
وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة يضربون بها السحاب.

وأما الرعد فاسم الملك الذى يسوق السحاب، وصوته وزجره هو ما تسمعون،
قال الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

وأما المحو الذى فى القمر فقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ
اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من
النهار ولا النهار من الليل.

ودعا بعض الأدباء لصديق له فقال: تمم الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك
فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحسبه.

ويروى أن الغضبان بن القبعثرى كان من أحذق الأدباء وأنجب النجباء، وكان
الحجاج قد وجد عليه فهم بقتله فبعث إليه، وكان يسمع بذكائه وجودة أدبه. ولما
مثل بين يديه سأله عن مسائل يمتحنه بها، من جملتها أن قال له: من أكرم
الناس؟ قال: أفقهم فى الدين، وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم
للفقير، وأطعمهم للمسكين.

قال: فمن الأم الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة،
وأشدهم قسوة.

قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأكرمهم للضيف.

قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المستأخر عن الصفوف، المنقبض عن الزخوف،
المرتعش عند الوقوف، المحب لظلال السقوف، الكاره لضرب السيوف.

قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المتعقد فى الكلام، الضنين بالسلام، المهذار فى
الكلام، المبقق^(١) على الطعام.

قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحساناً، وأقومهم ميزاناً، وأدومهم
غفراناً، وأوسعهم ميداناً.

(١) البقباق والمبقيق: كثير الكلام عند الطعام.

قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب أنه حسيب أو غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير، إن الرجل الحسيب يدلك على حسبه أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشره وحسن مداراته على أصله، فالعاقل البصير يعرف ذا الحسب بشمائله، والنذل الجاهل بجهله وردائله، فالرجل الحسيب كالدرة النفيسة إذا وقعت عند من لا يعرفها أرذلها، وإذا نظر إليها العقلاء أكرموا وعرفوها؛ فهي عندهم لمعرفتهم بها نفيسة.

قال الحجاج: لله أبوك، فمن العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير، العاقل الذي لا يتكلم هذراً، ولا ينظر شزراً، ولا يضمّر غدرًا، ولا يطلب عذراً، والجاهل المهذار في كلامه، المنان بطعامه، الضنين بسلامه، المتناول على إمامه، الفاحش على غلامه.

قال: لله أبوك، فمن الحازم الكيس؟ قال: المقبل على شأنه، التارك لما لا يعنيه. قال: فمن العاجز؟ قال: المعجب برأيه، الملتفت إلى ورائه.

قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمير، إني خير بشأنهن إن شاء الله، قال: أخبرني عن أمهات الأولاد. قال: أصلح الله الأمير، إن النساء بمنزلة الأضلاع: إن رمت تعديل إحداهن لانكسرت، وكسرها طلاقها، وإن تركتها انتفعت بها وبها اعوجاجها، ولهن جور لا يصلح إلا على المداراة، فمن دارهن انتفع بهن وقرت عينه، ومن شارهن كدرهن؛ فتكدر بذلك عيشه، وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته. فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة.

ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وأتحفه بتحفة جلييلة، وخلع عليه؛ فانصرف الغضبان سالماً من الحجاج وحبائله، وزاد على ذلك أن أحسن إليه بأنواع الإحسان، وما ذلك إلا لأدبه وما أوتيته من سحر البيان.

وفى حديث الزبرقان: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون، وقد كانت ضياعهم أخذت، وكان أديباً شاعراً لبيباً، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك بين يديك، سليل نعمتك، وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له بالكلام؟ فقال: تكلم؛ فقال:

الحمد لله رب العالمين، ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله
 والملائكة على محمد خاتم النبيين، ونستمع الله بحياة ديننا ودياننا، ورعاية أقصانا
 وأداننا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن
 يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا يعفو أثره، ولا يتهدم مناره، ولا
 ينبت حبله، ولا يزول أصله، ما دمت بين الله وبين عباده، والأمين على بلاده. يا
 أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك
 وعدلك، من انتابته النوائب وسهام المصائب، وكَلَبَ الدهر وذهاب النعمة، وفي
 نظر أمير المؤمنين ما يفرج به كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر
 أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم أبائه الطيبين، ونوافل أسلافه الراشدين،
 وقد قُمتُ مقامى هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين، بالرشيد خير الهداة الراشخين،
 والمهدى ناصر المسلمين، والمتصور منكل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم
 النبيين، مزدلفاً إليك بالطاعة التي أفرع عليها غصنى، وحنكت بها سنى، وريش
 بها جناحى، متعوذاً من شماتة الأعداء، وحلول البلاء، ومعاودة الشدة بعد
 الرخاء، يا أمير المؤمنين، قد مضى جدك المتصور وعمك صالح بن على جدى
 وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، وقد أثبت الله الحق فى قضائه،
 وأبرمه فى قدره، وأجراه على أربابه، إن الدهر ذو اغتيال، وقد ينقلب حالاً بعد
 حال؛ فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار، والعجائز الكبار، الذين سقاهم
 الدهر كدرًا ومرًا بعد حلو، وهبتنا ذلك نعم آلائك التى غديتنا بها صغارًا وكبارًا،
 وشبانًا وأشياخًا، وأمشاجًا فى الأصلاب، ونطقًا فى الأرحام، فقدمنا فى القرابة
 بحيث قدمنا الله منك فى الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، ووجوهنا قد عنت
 لطاعتك، فأقلنا عثراتنا يا أمير المؤمنين إن الله قد سهل بك الوعور، وجلا بك
 الديجور، وملا من خوفك القلوب والصدور، بك يردع الفاسق، ويقمع بك
 المنافق، فارتبطت نعم الله عندك بالعفو والإحسان، فإن كل راع مسئول عن رعيته،
 وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها. يا أمير المؤمنين، إنه لا
 عفو أعظم من عفو إمام قادر على مذنب عاثر، وقد قال جل جلاله: ﴿وَلْيَعْفُوا
 وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، حفظ الله أمير

المؤمنين بستره الضافي وصنعه الكافي، ثم أنشد: (من بحر الوافر)

أمير المؤمنين أتاك ركبٌ لهم قُربى وليس لهم تَلادُ
هم الصدر المقدم من قریش وأنت الرأس تتبعها العباد
لقد طابت لك الدنيا فذلت وأرجو أن يطيب لك المَعَادُ
فكيف تنالكم لحظات عيني وكيف يقل عندكم السهاد

فاستحسن المؤمنون كلامه، وأمر له بالخلع الفاخرة والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه، وقرب منزلته وأذناه، ودفع إليه من الأموال ما غناه.

وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يعجبه السمر ومنازعة الرجال في فنون الأدب، وجلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته، فقال: أيكم يأتيني بحروف الهجاء في بدنه وله ما تمنى؟

فقام إليه سويد بن علقمة فقال: أنا يا أمير المؤمنين؛ قال: هات: قال: أنف، بطن، ترقوة، ثغر، جمجمة، حلق، خد، دماغ، ذكر، رقبة، زند، ساق، شفة، صدر، ضلع، طحال، ظهر، عين، غيبة^(١)، فم، قفاء، كف، لسان، منخر، نغوغ، هامة، وجه، يد، وهذا آخر حروف الهجاء، والسلام على أمير المؤمنين.

فقال بعض أصحاب عبد الملك: يا أمير المؤمنين، أنا أقولهم من جسد الإنسان مرتين؛ فضحك عبد الملك وقال لسويد: أسمعت ما قال؟ قال: أنا أقولها أصلح الله الأمير ثلاثاً ثلاثاً، فقال عبد الملك: هات ولك ما تتمناه؛ فابتدأ يقول: أنف، أسنان، أذن - بطن، بصر، بز - ترقوة، تمر^(٢)، تينة - ثمر، ثنايا، ثدى - جمجمة، جنب، جبهة - حلق، حنك، حاجب - خد، خاصرة، خاسر - دبر^(٣)، دماغ، دبر - ذكر، ذقن، ذراع - رقبة، رأس، ركبة - زند، زردمة^(٤)، زب - ولما بلغ هناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على ظهره، ثم قال: - ساق، سرّة،

(١) الغيب: اللحم المتدلى الحنك، هذا إذا كانت الكلمة بالعين. أما إذا كانت بالعين المهملة فهي العيبة: الكرش.

(٢) تمر: تمر اللسان: طرفه.

(٣) لم يثلث الدال في النسختين، وكرر الدبر.

(٤) الزردمة: موضع الابتلاع.

سبابة - شفة، شعر، شارب - صدر، صدغ، صلعة - ضلع، ضفير، ضرس -
 طحال طرة، طيز - ظهر، ظفر، ظبح - عين، عنق، عاتق - غيبة، غلصمة، غنة -
 فم، فك، فؤاد - قلب، قفا، قدم - كف، كتف، كعب - لسان، لحية، لوح -
 مرفق، منخر، منكب - نغونغ، ناب، نثير - هامة، هيئة، هيف - وجه، وجنة،
 ورك - يمين، يسار، يافوخ. ثم نهض مسرعاً فقبل الأرض بين يدي عبد الملك،
 فقال: والله لا يزيدون عليها شيئاً، أعطوه ما تمنى، ثم أجازته وأنعم عليه وبالغ في
 الإحسان إليه.

ومن مآثر الأدب أنه يهيج على السلوك، وتستفتح به خزائن الملوك:

أما إثارته على السلوك فأكثر من أن تُحصى وأوسع من أن تستقصى، وفي كتب
 التصوف منه ما يشفى ويكفى؛ ولذلك اتخذوا السماع ليحركوا به الساكن وليثيروا
 به الكامن.

وأما استفتاح خزائن الملوك به فمنه ما حكاه صاحب المستطرف في «جامعه»،
 وما حكاه أبو بكر الطرطوشي في «سراج الملوك»، ولنأت منه بما يوافق الغرض
 للإمتاع من غير طول مل ولا ترك مخل.

من ذلك أن معن بن زائدة، وكان من الأجود، ومن السادة الأمجاد، وكان
 عاملاً على العراق، فحضر^(١) بابه شاعر أديب، فأقام مدة يريد الدخول عليه، فلم
 يتهيأ له ذلك، فقال يوماً لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان فعرفني، فلما دخل
 أعلمه، فكتب الشاعر بيتاً، ثم نقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل
 البستان، وكان معن جالساً على القناة، فلما رأى الخشبة أخذها، فإذا فيها
 مكتوب: (من بحر الطويل)

أيا جودَ معنٍ ناجٍ معنًا بحاجتي فليس إلى معنٍ سواك رسولٌ

فقال: من الرجل صاحب هذه الخشبة؟ فأتى به إليه، فقال: كيف قلت؟
 فأنشده البيت، فأمر له بعشرة بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت
 بساطه، فلما كان اليوم الثاني نظر إليها ودعا بالرجل فأمر له بمائة ألف درهم،

(١) الصواب أن يقول: حضر؛ لأنها خبر (أن).

فلما كان اليوم الثالث فعل معه مثل ذلك، فتفكر الرجل، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان اليوم الرابع طلب الرجل ليعطيه فلم يوجد، فقال معن: لقد ساء ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالى درهم ولا دينار.

وفيه يقول القائل: (من بحر الطويل)

يقولون معنٌ لا زكاةً لماله
إذا حال حول لم يجد في دياره
تراه إذا ما جئته مهتلاً
تَعَوَّدَ بسط الكف حتى لو أنه
ولو أن ما في كفه غير نفسه

ومن كلامه: (من بحر الوافر)

دعيني أنهب الأموال حتى
أعف الأكرمين عن اللثام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد، وله أخبار في الجود عجيبة: من ذلك ما رواه عقيل بن أبي طالب قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتته فقلت له: أيها الأمير إن أردت أن تأذن لى فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط فأتنا إن شاء الله، فسار، وأقمت؛ فقال لى إخوانى: اذهب إليه، فقلت: كان فى جوابه ضعف، فقالوا: أترى من يزيد جواباً أكثر من هذا؟ قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان الليل دعيت إلى السمر، فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى، فالتفت يزيد إلى فقال: إيه يا عقيل، فقلت: أفاض القوم فى ذكر الجوارى فأما الأعزبون فلم يقولوا، فقال: إنك لن تبقى عزباً، فلما رجعت إلى منزلى إذا بخادم قد أتى ومعه جاريةٌ وبدرةٌ وعشرة آلاف درهم وفرش ست، وفى الليلة الثانية كذلك، فمكثت عشر ليالٍ أوتى كل ليلة بما أوتيت به فى الليلة الأولى والثانية، حتى أخرجنى كثرة العطاء والتحف، فأتيت بعد الليلة العاشرة فقلت: أيها الأمير، قد والله أغنيت وأوفيت، فإن رأيت أن تأذن لى فى الرجوع فأكتب عدوى وأسر صديقى؛ فقال: أخيرك بين خلتين: إما أن تقيم فنوليك، أو ترجع فنغنيك،

فقلت: أو لم تخنى أيها الأمير؟ فقال: إنما هذا أئاث المنزل وتحفة النازل. فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وقيل: إن الحجاج حبسه في خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وجاء الفرزدق يزوره في السجن، فقال للحاجب: استأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه، فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعاً لا مادحاً؛ فأذن له، فأنشد: (من بحر الطويل)

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم وقال أولو الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشام بعدك قطرة وما اخضر بالمروين بعدك عودُ
وما لسرور بعد عزلك بهجة وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة الألف التي جمعت ودع الحجاج ولحمي يفعل به ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق: ومن هذا خفت، ثم دفعها إليه.

وقال مروان بن الجموح، وكان أديباً ماهراً: أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفاً وخمسين ألفاً ورواحل كثيرة، فقلت أبياتاً في شكره، فلما بلغت قولي: (من بحر الطويل)

فأمسك مدى كفيك عنى ولا تزد فقد خفت أن أطنى وأن أتكبرا

تلميحاً منه إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ أن رآه استغنى [العلق: ٦، ٧] فقال له الأمير: والله لا أمسك حتى أعرفك بجودي، فأمر له بضياع تقوم بمائة ألف ألف.

وقال أبو العيناء: تذاكر الناس السخاء، فاتفقوا على أن أسخى الناس بني المهلب في الدولة الأموية، وعلى البرامك في الدولة العباسية، وأن أحمد بن داود أسخى من الجميع وأفضل.

وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد بن برمك فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد.

وفى يحيى يقول القائل: (من بحر الطويل)

سألت الندى هل أنت حرٌّ فقال لا ولكننى عبد ليحيى بن خالد

فقلت شراء قال لا بل وراثة توارثنى عن والد بعد والد

وفى الفضل يقول القائل: (من بحر الطويل)

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة رأيتَ بها زهر السماحة ينبت

فليس بسعال إذا سيل حاجة ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت

وفى محمد يقول القائل: (من بحر الطويل)

سألت الندى والجود مالى أراكما تبدلتما عزاً بذل مؤبداً

وما بال ركن المجد أمسى مهدماً فقالا أصبنا بابن يحيى محمد

فقلت فهلا متُّما بعد موته وقد كتتما عبديه فى كل مشهد

فقالوا أقمنا كى نُعزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

وقال على كرم الله وجهه: من كانت له إلى حاجة فليرفعها إلى فى كتاب

لأصون وجهه من المسألة.

وجاءه أعرابى فقال له: يا أمير المؤمنين، إن لى إليك حاجة الحياء يمنعنى أن

أذكرها، فقال له: خطها بالأرض، فكتب: إنى فقير، فقال: يا قنبر أعطه حلتي،

فقال الأعرابى: (من بحر البسيط)

كسوتنى حلةً تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا

إن الثناء ليحيًا ذكرٌ صاحبه كالغيث عم نداء السهل والجبالا

لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به كل امرئ سوف يجزى بالذى فعلا

فقال: يا قنبر، زده مائة دينار، فقال: يا أمير المؤمنين، لو وفرتها على المسلمين

لأصلحت بها من شأنهم، فقال: مه يا قنبر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«اشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»^(١).

(١) حديث: «اشكروا لمن أثنى عليكم»... إلخ. لم أجد هذا الجزء منه، أما الجزء الأخير والذى =

ويروى أن أبا عطاء السدّي وفد على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له، فأنزله وأكرمه، فقال له: ما عندك يا أبا عطاء؟ قال: وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب؟! غير أنني قلت بيتين، قال: هات ما قلت، قال: (من بحر البسيط)

يا طالب الجود إماً كنت تطلبه فاطلب على باب نصر بن سيار
الواهب الخيل تعدو في أعتتها مع القيان وفيها ألف دينار

فأعطاه ألف دينار ووصائف، وكساه كسوة جليلة، فقسم ذلك بين صاحبيه ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً، فبلغ ذلك نصراً، فقال: قاتله الله من سدّي ما أفخم قدره! ثم أمر له بمثل ذلك.

ووقف أعرابي على ابن عمر فقال له: يا قمر البصرة وشمس الحجاز، يا بن ذروة العراق، ويا بن بطحاء مكة، برحت بي الحاجة؛ فلذت بأمال نعمائك، فامنحني على قدر الطاقة لا على قدر المجد والشرف والهمة؛ فأمر له بمائتي ألف دينار.

وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل: (من بحر الطويل)

أأتركُ إن قلتُ دراهمُ خالد زيارتهُ إنى إذاً للكيِّمِ

فبلغ قوله المأمون فقال: أو قلت دراهم خالد؟ فبعث المأمون إليه بأموال، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة، قال: هذه قطرة من بحارك.

ولما عزل عبد الرحمن بن الضحّاك عن المدينة بكى وقال: والله ما بكائي جزعاً من العزل، ولا أسفاً على الولاية، ولكن أخاف أن يلي هذه الوجوه من لا يعرف لها حقاً.

وقال الغنوي: أشرف عمر بن هبيرة يوماً من قصره فإذا هو بأعرابي عتلى

= هو «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» فهو ضعيف جداً، رواه ابن ماجه بسند ضعيف، والطبراني في الأوسط له وسنده كذلك ضعيف، والبخاري وغيرهم، وعنهم صاحب الكشف تحت رقم (١٨٠)، والسخاوي في مقاصده تحت رقم (٥٠) وقال بعد أن أورد جميع طرق الحديث: ويهذه الطرق يقوى الحديث، وإن كانت مفرداتها كما أشرنا إليه ضعيفة، ولذا انتقد شيخنا - يعني ابن حجر - وشيخه - يعني العراقي - رحمهما الله الحكم عليه بالوضع (٣٤/١) مقاصد، والله أعلم.

قلوصه، فقال لحاجبه: إن أردنى هذا فأت به، فأتاه الحاجب فسأله، فقال له: قصدت الأمير، فدخل به عليه، فلما مثل بين يديه قال: ما حاجتك؟ فقال الأعرابي:

أصلحك الله قلَّ ما بيدي ولا أطيق العيال إذ كثروا
أناخ دهرٌ علىَّ كلَّكَّه فأرسلونى إليك وانتظروا

فأخذته الأريحية فجعل يهتز ثم قال: «أرسلونى إليك وانتظروا»؟ إذاً والله لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألفى دينار.

وقال أبو العيناء: ضقت ضائقة شديدة، فكتمتها عن الأصدقاء، فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم القاضى فقال: إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ فى القصص، ولما قام قمت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى، ثم قال: يا أبا العيناء، بالألفة والمحبة، ما الذى جاء بك فى هذه الساعة؟ فأنشدت: (من بحر البسيط)

لقد رجوتك دون الناس كلهم وللرجاء حقوقٌ كلها تجب
إلا تكن لى أسبابٌ أعيش بها فى العلاء لك أخلاق هى السبب

فقال: يا سلامة انظر إلى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال له: ادفع له مائة ألف درهم، وابعث له مثلها فى كل شهر، فلما كان بعد اثنى عشر شهراً مات المأمون؛ فبكى عليه أبو العيناء حتى قرخت عيناه، فدخل عليه بعض أولاده فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ما الذى ينفع البكاء؟ فقال مجيباً له: (من بحر الكامل)

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى تؤذنا بذهاب
لم تبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وقال سلمة بن عياش، وكان أديباً ليبياً، فى جعفر بن سليمان: (من بحر الطويل)

فما شم أنفى ريح كف شممتها من الناس إلا ريح كفك أطيّب

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر.

وكان عبد العزيز بن عبد الله مضيافاً جواداً، فتغدى عنده أعرابي يوماً، فلما كان من الغد مر على باب فرأى الناس فى الدخول على هيئاتهم بالأمس، فقال: أكل يوم يطعم الأميرُ الناس؟ قالوا: نعم؛ فأنشأ يقول: (من بحر الخفيف)

كل يوم كأنه عيد أضحى عند عبد العزيز أو عيد فطر
وله ألف جفنة مترعات كل قدر تعدها ألف قدر

فلما بلغه قوله بعث إليه فأجزل له فى العطاء.

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص، فلما خرجوا تركوا فتى من أهل الشام قاعداً، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى، فذكر أن أباه مات وخلف ديناً وعيالا، وسأله أن يكتب إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار، وقال: لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم.

ودخل رجل على على بن سليمان الوزير فقال له: سألتك بالله العظيم ورسوله الكريم إلا أن أجرتنى من خصمى؛ قال: ومن خصمك حتى أجيرك منه؟ قال: الفقر، فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فأخذها وانصرف فلما بلغ أثناء الطريق أمر الوزير برده إليه، فقال له: سألتك بالله العظيم ورسوله الكريم أن تأتيني كلما جاءك خصمك معنفاً، فأكون لك عليه معيناً ومشرقاً.

وحكى أبو قدامة القرشى قال: كنا مع يزيد بن يزيد يوماً، فسمع صائحاً يصيح: يا يزيد بن يزيد، فأرسل إليه من يطلبه، فأتى به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ فقال: فقدتُ دابتي ونفدتُ نفقتى وسمعت قول الشاعر:

إذا قيل من للجود والمجد والندى فناد بأعلى الصوت يا يزيد بن يزيد

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به ومائة دينار وخلعة سنية، فأخذها وانصرف.

واعلم أن الأدباء وإن كانت شعراء الجاهلية أذكر منهم وأقوالهم فى العربية حجة دون أقوال الأدباء، فإن الأدباء أغوص منهم على المعانى النفيسة، والحقائق الدقيقة، وأكثر حكمة، وأغزر معنى، وأرق حاشية، وأكثر فى البديع غاشية. ومن

الأدباء من أجمع أهل هذا الفن على الاحتجاج بقوله كالعجاج وأبى تمام وأبى الطيب المتنبي وأبى فراس، وأما غير هؤلاء من الأدباء فلا يحكون قوله حجة .
ومن أحسن ما قاله الأدباء فى الغوص على المعانى الدقيقة قول أبى الطيب المتنبي فى ديوانه المشهور: (من بحر الخفيف)

عللانى فإن بيض الأمانى فنيت والظلام ليس بفانى
إن تناسيتما وداد أناس فاجعلانى من بعض ما تذكران
ثم بعدها بأبيات نسيها^(١).

ومن هذا القبيل أيضاً قوله: (من بحر البسيط)

الفاعل الفعل لم يفعل لشدته والقائل القول لم يترك ولم يقل
والباعث الجيش قد غالت عجاجته ضوء النهار فصار الظهر كالطفل
الجو أضيق ما لاقاه ساطعها ومقلة الشمس فيه أحيِر المُقل
ينال أبعد منها وهى ناظرة فما تقابله إلا على وجل
قد عرض السيف دون النازلات به وظاهر الحزم بين النفس والغيل
ووكل الظن بالأسرار فانكشفت له ضمائر أهل السهل والجبل
هو الشجاع بُعيدَ البخل من جبن وهو الجواد بعيد الجبن من بخل
يعود من كل فتح غير مفتخر وقد أغذ إليه غير مُحْتَفِل
ولا يجير عليه الدهر بغيته ولا تحصن درع مهجة البطل
إذا خلعت على عرض له حللا وجدتها منه فى أبهى من الحلل
لذى الغباوة من إنشادها ضرر كما تضر رياحُ الورد بالجعل
وللمتنبي أيضاً: (من بحر الطويل)
علينا لك الإسعاد إن كان نافعا بشقِّ قلوبٍ لا بشقِّ جيوبٍ
فرب كئيب ليس تُسدَى جفونه ورب كثير الدمع غير كئيب

(١) لم أجد الأبيات التى ذكر الشيخ أنه نسيها فى دواوين أبى الطيب المطبوعة.

تسلّ بفكر في أيبك فأئتما
 إذا استقبلت نفس الكريم مصابها
 وللواجد المكروب من زفراته
 وكم لك جدّاً لم تر العين وجهه
 فدتك نفوس الحاسدين فإنها
 وفي تعب من يحسد الشمس نورها
 بكيت فكان الضحك بعد قريب^(١)
 بخبث ثنت فاستدبرته بطيب
 سكون عزاء أو سكون لغوب^(٢)
 فلم تجر في آثاره بغروب
 معذبة في حضرة ومغيب
 ويجهد أن يأتي لها بضريب

وقال أبو العتاهية من قصيدة أنشدتها بين يدي أمير المؤمنين محمد المهدي بن أمير المؤمنين المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وذلك أن المهدي أذن في بعض الأيام بالدخول عليه للخاصة والعامّة، فدخل جملة من أعيان الأجناد والأمراء، وشرذمة من العلماء والشعراء فيهم بشار بن برد العُقيلي، وأشجع السلمى وزياد الأعجم وأبو العتاهية، فلما دخل القوم وجلسوا على مراتبهم، واطمأن بهم المجلس، واتفق أن جلس بشار بإزاء أشجع، فقام أبو العتاهية متهيئاً للإشاد، فسمع بشار حسه، فقال: يا أشجع، من هذا؟ قال: فقلت له: أبو العتاهية، فقال: أترأه ينشد في هذا المحفل العظيم؟ فقلت: أحسب أنه سيفعل، فاستأذن في الإشاد، فأذن له المهدي، فابتدأ قائلاً: «ألا ما لسيدتي مالها» فنخسني بشار بمرقه، فقال: أ رأيت ويحك أجسر من هذا يتدئ هذا الابتداء في مثل هذا المحفل؟! فلما انتهى إلى قوله: (من بحر المتقارب)

أنته الخلافة منقادةً
 إليه تجرجر أذيالها
 فلم تك تصلح إلا له
 ولم يك يصلح إلا لها
 ولو رامها أحدٌ غيره
 لزلزلت الأرض زلزالها
 ولو لم تطعه بنات القلوب
 لما قبل الله أعمالها

(١) أيبك بفتح الباء وسكون الياء: يريد أبويك، وهي لغة فصيحة، والمعنى تسل عن هذا المفقود بالتفكير في مصابك بأبويك، فقد بكيت لفقدتهما ثم ضحكت بعد ذلك، وكل حزن سيذهب عما قريب.

(٢) اللغوب: الإعياء، والمعنى: لا بد للمحزون من سكون، فإما أن يسكن عزاء وإما سكن إعياء.

فقال بشار معجباً بإنشاده: انظر ويحك يا أشجع، هل بقي الخليفة على فراشه أم طار عنه طرباً؟!

فانصرف الناس من ذلك المجلس ولم يحظ أحد بجائزة ولا فاز بعائدة غير أبي العتاهية .

وأبو العتاهية هذا هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، وكان جده من سبى عين التمر، وهى بلدة من أعمال العراق فتحت فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وكان أمير الجيش الذى افتتحها عكرمة بن أبى جهل المخزومى، ثم نزل الكوفة، وبها نشأ أبو العتاهية، فلما كبر وتآدب وقرأ وتهذب انتقل إلى بغداد، وكان مع كونه من المتقين النجباء معدوداً من جملة الشعراء الخبباء، أكثر فى الهجاء، فاشتهر بين الناس ذكره، وسار فى الخافقين مسير الشمس شعره، فهو من شعراء الدولة العباسية الكثيرين ومن نجبائها المبرزين، وإن عد من المولدين، ويقال: إنه لم يجتمع ديوانه عند أحد لكثرتة، وكان يتصرف فى أنواع الشعر من التشبيب والغزل والهجاء والمديح، ثم تنسك فى آخر عمره، فتزهد، فانقطع عن غير الوعظ، وعدل إلى القول بالزهد والوعظ، فأجاد وأربى على من تقدمه من الزهاد .

ولأبى الحسن على بن بسام البغدادى من قصيدة يرثى بها الأمير عبد الله بن سليمان الخزاعى قال:

قد استوى الناس ومات الكمال وصاح صرف الدهر أين الرجال
هذا أبو القاسم فى نعشه قوموا انظروا كيف تزول الجبال
ثم قال أيضاً: (من بحر الطويل)

أودى محمد بعدما ضربت به فى فضله الآمال والأمثال
ملك تنافست العلا فى عمره وتنافست فى يومه الآحبال
من لم يعاين سير نعش محمد لم يدر كيف تسير الأجيال

ومن هذا قول أبى الطيب المتنبى من قصيدة يرثى بها عبد الله بن محمد بن إسحاق التنوخى: (من بحر الكامل)

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى
ما كنت، أمل قبل نعشك أن أرى
خرجوا به ولكل باك خلفه
والشمس فى كبد السماء مريضة
وحفيف أجنحة الملائك حوله
ومن مثل هذه القصائد أخذ بعض المحدثين يرثى القاضى أبا بكر بن محمد بن
الباقلانى رحمه الله: (من بحر البسيط)
انظر إلى جبل تمشى الرجال به
وانظر إلى صارم الإسلام منغمداً
انتهى.

وفى وصفه إياها بالإحاطة بما اعتنى الأدباء بجمعه مدح لها بذلك، وإغراء
بتعاطيها وتحصيلها^(٣).

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٦٤ - وَلَا بُدَّ مِنْ حَمْدِ الْإِلَهِ فَإِنَّهُ لَدَى الْبَدْءِ وَالْإِنْهَاءِ سَنَى وَسَنَاءُ

قوله: ولا بد: أى لا محيد ولا محيص من حمد الله. والحمد حقيقةً تبليغ
الثناء للمتفضل إجمالاً بلا علة وإلا فشكر. والإنهاء، بالمد: إبلاغ الشئ نهايته،
وهذا النوع فى علم البديع يقال له براعة المختم: وهو أن يأتى المصنف أو الناظم
بكلمة تدل على الختم من غير تكلف. والسنى: الضوء. والسناء: الرفعة. فكأنه
يقول: لا محالة ولا انفكاك من الثناء على الله بالجميل فى بدء كل ذى بال
وانتهائه؛ تلميحاً إلى قوله ﷺ: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو

(١) رضوى: اسم جبل قرب المدينة المنورة.

(٢) صور: جمع أصور، وهو المائل.

(٣) يشير إلى منظومة ابن مالك هذه.

أجزم»^(١) أى: ناقص قليل البركة، وكما لا بد من البدء بالحمد على وجه الاقتداء كذلك لا بد منه عند الختم على وجه الشكر والثناء؛ فإنه ضوء ورفعة لما بدئ وختم به، وما لا بد منه واجب، وحمد الله على نعمه التي من أجلها الإلهام للتأليف، والإعانة عليه، والتسديد فيه، والتأهيل له، وختمه كذلك شرعاً لا عقلاً خلافاً للمعتزلة.

فإن قيل: الإخبار بوجوب الحمد لا يكفى فى تأدية ما وجب عليه من حمد الله على نعمة الانتهاء، أى الثناء عليه بصفة من صفاته بأن يذكرها فى مقابلة ما وجب عليه من ذلك.

فالجواب أن فى ضمن الإخبار بوجوب حمد الله سبحانه الإعلام بأنه تعالى أهل للحمد، وبأن له وصفاً جميلاً يكون ذكره حمداً، وأنه من أول البدء والانتهاء موصوف بذلك الوصف الجميل، وذلك وصف بالجميل واعتراف بأنه المنعم بما ذكر، والتحدث بالنعمة شكر وإن كان بعده صمت.

وأول من قال «الحمد لله» بعد الحمد الذى مدح الله به نفسه أزلا آدم عليه السلام، وأول من نطق بكلمة الشهادة ودعا إليها نوح عليه السلام، وأول من أظهر التكبير محمد ﷺ؛ فتحت له بسببه جميع الأقاليم، وأتى بمفاتيح خزائن الأرض، فصار سنة للمجاهدين إلى يوم القيامة، وسبباً لدفع الجان والغيلان.

قال ﷺ للذى اشتكى له من العمار: «ارفع صوتك بالتكبير فى أركان دارك فإنهم لن يعودوا إليها».

وقال ﷺ: «إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن الله يطفئه»^(٢).

(١) حديث «كل أمر ذى بال... إلخ» حسن رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة مرفوعاً، وفى رواية لأبى داود: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم فهو أتر». وقد أورده صاحب الكشف تحت رقم ١٩٦٤ وقال: قد ألف فيه السخاوى جزءاً... إلى أن قال: رواه عبد القادر باللفظ الأول وزاد: «والصلاة على فهو أقطع أتر ممحوق من كل بركة»، والله أعلم.

(٢) «إذا رأيتم الحريق فكبروا»... إلخ. رواه الطبرانى عن عمرو بن شعيب، ورواه البيهقى بلفظ: «استعينوا على إطفاء الحريق بالتكبير».

كما أورده السخاوى تحت رقم ٦٣ فى مقاصده، وصاحب الكشف تحت رقم ٢٣٤، والله أعلم.

وكذلك يشرع التكبير عند معاينة العدو ثلاثاً، يقول: اللهم إني أدرأ بك في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم، اللهم اهزمهم وزلزلهم.

وفى رواية: اللهم منزل الكتاب، هازم الأحزاب، اهزمهم، وانصرنا عليهم. وزاد بعض الحكماء قراءة ﴿وَالشَّمْسِ...﴾ و ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ...﴾ إلى ﴿أَشْتَاتًا﴾ ثم يقول: ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١] شأهت الوجوه، ثلاثاً، يد الله فوق أيديهم، وسطوته على عاديهم، اللهم انصر عبادك، وأصلح بعلبتنا على أهل الفساد بلادك، واحفظنا لنبيك ودينك، واحفظه فينا، وارزقنا النصر على أعدائنا حتى تقر بذلك أعين أشياعنا، أنت المستعان وعليك اتكالنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعند التذكية والنحر يقال بعد التسمية، تنوى بذلك أن الله أكبر من كل كبير، يعظم بالنحر والذبح؛ لأن الكفرة كانوا يعظمون أصنامهم وأوثانهم بالنحر والذبح، فيلطحونها بالدماء والخلوق^(١) تعظيماً وإجلالاً، وكانت قريش تلتخ البيت تعظيماً له على أنه بيت الله فلما جاء الإسلام نهى الله عن ذلك فقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، أى يصعد إليه ويتقبله، كما قال الرسول ﷺ: «إذا تصدق أحدكم بصدقة أخذها الله يمينه. فيريها له كما يربى أحدكم فلوه»^(٢) ومعنى تربيته إياها مضاعفتها أو زيادتها من فضله، والله واسع عليم.

وتجب عند افتتاح الصلاة، وهى تكبيرة الإحرام، أى التى يدخل بها المصلى حرمة الصلاة، أو التى يدخل بها المصلى فى حرم الله، أو التى يحرم بها على المصلى كل فعل ينافى الصلاة؛ ومعناها أن كل من يعظم بركن من أركان الصلاة فالله أكبر منه، بل هو المستحق لذلك لكونه أكبر، بل هو الحق وما سواه الباطل،

(١) الخلق: نوع من الطيب جيد الرائحة. والخلوف، بالفاء: عكسه.

(٢) حديث «إذا تصدق أحدكم بصدقة»... إلخ. صحيح رواه البخارى ومسلم، ولفظ مسلم فى إحدى رواياته: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن يمينه وإن كانت تمرة، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فضيله». (٨٥/٣) مسلم.

لأن الأمم منها من يعظم الملوك بالركوع، ومنها من يعظمهم بالإشارة باليد، ومنها من يعظم بالإشارة بالرأس وبالسجود، ومنها من يعظم بالقيام، ومنها من يعظم بالجلوس، وفي جميع الحالات يثنون عليهم، ويطلبون الحوائج منهم، فكان المكبر يقول: المستحق لذلك على الحقيقة هو الله الواحد القهار الذي لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، ولا موجود إلا ما صنع، ولا مرئى إلا ما اخترع، فهو المعبود في كل زمان، والمذكور بكل لسان، والمشكور في كل حين، وهو الذى خلق الكافر، وخلق كفره فيه، وجبله عليه وطبع عليه بطابع المنع، وخلق المؤمن وخلق إيمانه فيه وزينه في قلبه وحببه إليه، وطبع عليه بطابع الإقبال والنفع، قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤]، جعلنا الله ممن تولاه ولم يكله إلى نفسه ولا سواه.

• ثم قال رحمه الله:

١٦٥- وَخَيْرَ صَلَاةٍ أَسْتَدِيمُ عَلَى الَّذِي هُدَاهُ لِأَدْوَاءِ الْقُلُوبِ دَوَاءً

وخير صلاة، بالفتح: مفعول «أستديم»، صلاة: مضاف إليه ما قبله. على الذى: جار ومجرور متعلق ب«أستديم» والموصول محذوف صدر صلته أى: على الذى هو دواء. وقال: «هُدَاهُ لِأَدْوَاءِ الْقُلُوبِ» لأن النبى ﷺ سبب الهداية لا هو الهادى، ولا هو عين الهداية، وليس الهدى هداه، وإنما الهدى هدى الله.

قال ﷺ: «إنما بعثتُ داعياً وليس إلى من الهداية شىء».

وقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال له فى شأن عمه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وهو أبو طالب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وهو حمزة والعباس.

وقوله: «أستديم» أى: أطلب دوام صلاتى عليه، أو مطلق الصلاة لدوامها بدوام بقاء أمته، وأسأل الله أن يديم صلاته عليه.

لأنه قد استشكل دعأونا للنبى ﷺ بالصلاة، وإنما يكون الدعاء من الأعلى إلى الأدنى، بخلاف الطلب فإنه يكون من الأدنى إلى الأعلى.

فالجواب: أنه الله تبارك وتعالى أمرنا بالصلاة عليه إكرامًا لنا وإجلالا لرسوله، فلما أمرنا بذلك لم تكن صلاتنا من تلقاء أنفسنا كفتًا له ﷺ فأحلناها على الله، لتكون الصلاة من رب قاهر على نبي طاهر؛ فحصل مقصود الشارع، وهو كرامتنا بأن تكون صلاتنا تبعًا لصلاة العلي الأعلى، أو مقتدين في ذلك برب الأرض والسموات العلى، إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فالصلاة عليه ﷺ من خواصه التي لا توازي، ومزاياه التي لا تنأزى^(١)؛ إذ لم يعطها نبي قبله، وإنما غايتهم وقصاراهم السلام، كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١١٣]، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

فإن قلت: فما معنى قوله ﷺ: «كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم». فالمراد أن الصلاة على إبراهيم ليست بصلاة متعاطاة ورد بها النص المحتوم، واستوجبها الخصوص والعموم، ولكنها صلاة رحمة وتشريف وتقرب وتعريف كما لسائر الصالحين من الأنبياء والمؤمنين. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، كما كان ﷺ يصلى على من أتاه بالزكاة، كما ورد أنه ﷺ قال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٢)، فتكون حينئذ بمعنى عموم الرحمة.

فإن قلت: فما معنى قولنا: «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» وقد انعقد الإجماع وورد النص وانتفى الدفاع أنه ﷺ أفضل من جميع العالمين، وقد ثبت بالضرورة أن المشبه بالشيء لا يقوى قوته؟

فالجواب: أن التشبيه منقلب، أى منعكس، فكأننا نقول: اللهم صل على إبراهيم وعلى آل إبراهيم صلاة مثل صلاتك التي خصصت بها محمداً وميزته بها من بين جميع أجناس العالمين، أو لأن إبراهيم عليه السلام أكرم محمداً ﷺ بوراثته شرعته ومنهاجه، فقال تعالى في ذلك تمتًا عليه ومادحًا له ومشرقًا لدينه على جميع الأديان: ﴿دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

(١) لا تنأزى: أى لا تنازع.

(٢) حديث «اللهم صل على آل أبي أوفى» صحيح رواه مسلم وغيره.

وقيل: إنه لما كان النبي ﷺ دعوته جازاه أن أشركه معه فى الصلاة عليه التى هى من أعظم الكرامات وأوضح المزايا والعلامات.

يروى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] سأله أصحابه عن كيفية الصلاة التى أمرهم الله أن يصلوا بها عليه، فقال لهم: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمدًا وآل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد»^(١).

فذكر ذلك اجتهادًا منه، وتكرمة لوالده إبراهيم، وشيخه وقدوته، فاعتنى بإبراهيم آخرًا كما اعتنى به إبراهيم أولًا فى قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فبين الله تعالى قول إبراهيم بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فكأنه يقول: إن الرسول الذى اختاره إبراهيم ودعا أن يكون من أنفسكم قد بعثت به إليكم؛ فأكرموه واتبعوه؛ لكونه حريصًا عليكم كافرکم ومؤمنكم، عزيز عليه ما يعتكم أى: يثقل عليه ما يشق عليكم أو يغلبكم، بالمؤمنين رءوف شديد التعطف عليهم، كثير الترحم بهم، ثم التفت من خطاب القوم إلى خطابه ﷺ فقال: فإن تولوا بأن لم يعزروك بما استوجبته من الصفات والأخلاق التى تستوجب ذلك منهم إليك، ولم يتبعوك من علمهم بصدقك وأمانتك، وشرف موضعك وكرم آبائك من ولادتهم إياك فقل: حسبى الله، أى: كفانى الله حافظًا ونصيرًا ومؤيدًا وخبيرًا ومانعًا ومجيرًا، وقد آتانى عليكم ملكًا كبيرًا، إذ أنزل على كتابًا منيرًا، وجعل روح القدس لى صاحبًا ووزيرًا، فستعلمون أينا أحسن منقلبًا ومصيرًا.

قوله: «لأدواء القلوب دواء» فالأدواء: جمع داء، وهى الأمراض التى تخالط القلوب من الشكوك والشبه. والدواء: ما يستشفى به، ولأشفاء إلا ما جاء من

(١) حديث «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وباقي السنة.

وهذا اللفظ الذى أورد الشيخ ليس من بين الألفاظ المتفق عليها، والله أعلم.

بينات كتابه الذى هدى به، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] فهو ماحق لجميع ذلك، مزيل لما فيه من الدلائل الظاهرة، والبراهين القاهرة، والحجج المفحمة الملجمة؛ جعلنا الله ممن جعله حجةً له ولا جعلنا ممن جعله حجةً عليه، آمين.

ثم تنوعت الصلاة، وتنوعت رواياتها بحسب المنافع والحاجات:

فمنها ما أخرجه البيهقي من طريق أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىّ، ورغم أنف رجل أدرك والديه فلم يدخل الجنة»^(١).

وأخرج أيضاً بإسناد لا بأس به أنه قال: «من أصابه كرب أو غم أو ألت به ملامة أو أراد أن يسأل من الله حاجة فليقل: اللهم صل صلاة تامة وسلم سلاماً تاماً على نبي تُفرجُ به الكرب، وتزال به الهموم، وتدرك به الرغائب، وتقضى به الحوائج، وتنال به الآمال، وسلم عليه وعلى آله».

وأخرج أبو داود فى صحيحه أن المذمن على هذه الصلاة لا يصيبه عظيم بلاء، وهى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات، وتقضى لنا بها جميع الحاجات، وتطهرنا بها من جميع السيئات، وترفعنا بها عندك أعلى الدرجات، وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات، فى الحياة وبعد الممات.

ومما جاء فى عمل «اليوم والليلة» اللهم صل وسلم على سيدنا محمد النبى الأسمى والرسول العربى وعلى آله وصحبه وسلم مائة مرة، فإن قالها فى ليل كان فى ضمان الله حتى يصبح، أو فى نهار كان فى ضمان الله حتى يمسى، ولم ترد له دعوة، وكتب له الأجر والثواب حتى يمسى أو يصبح، وصلى الله عليه بكل

(١) حديث: «رغم أنف رجل... إلخ» رواه مسلم بلفظ: «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أموك أبويه عند الكبر أو أحدهما أو كليهما ولم يدخل الجنة» (٢٥٥١) مسلم، كما رواه بهذا اللفظ أحمد، ورواه بلفظ أطول الترمذى والحاكم، وقال الترمذى: حسن غريب. وأخرجه السيوطى تحت رقم ٤٤٥٩، ولفظ مسلم تحت رقم ٤٤٦٠، والله أعلم.

صلاة صلاها عشر مرات، ولم يبق عليه من سيئاته إلا ما تكفره الأعمال الصالحات.

ومما روى بسند واه أن السبعة منها تكون فدية لصاحبها من النار، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة لا نهاية لها كما لا نهاية لكمالك.

ويروى بأسانيد مستحسنة أن النبي ﷺ قال: «من صلى على واحدة صلى الله عليه عشراً، ومن صلى على عشرًا صلى الله عليه مائة، ومن صلى على مائة صلى الله عليه ألفاً، ومن صلى على ألفاً حرم الله جسده على النار»^(١).

ومما قيل أن الواحدة منها تماثل الألف، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تستغرق العَدَّ وتحيط بالحد، صلاة لا نهاية لها ولا نفاذ أبد الآباد، وسلم عليه كما ينبغي له وكما هو أهله، حبيبك محمد أشرف العالمين ذكراً، وأكثرهم لديك ذكراً، وأكملهم يوم القيامة مجداً وفخراً، وأعلاهم عندك سؤداً وقدرًا، عيبة علمك، ومدينة حلمك، الناطق بالفضل، والحاكم بالعدل، والضارب في مرضاتك بالنصل، أكرم الأنبياء مولدًا وخيرهم محتدًا، من كرمته قبل الوجود، وسميته بالمحمود، وأكرمت آدم من أجله بالسجود، وقلبت في أصلاب الركع السجود، حتى أخرجته من الوجود إلى الوجود، فشقت في الصبا صدره، ورفعت في العالمين ذكره، ووضعت عنه وزره، وهو أمينك المأمون، وسرك المكنون، وعلمك المخزون، الذي فتحت به أعينًا عميًا، وأذنانًا صمًا، وقلوبًا غلغا حتى أقاموا واستقاموا في مرضاتك، قد جدوا فما خانوا، اللهم أبلغه المقام المحمود الذي وعدته، وأتمم عليه نوره ودرجته، واجعل في أعلى الوسيلة منزلته، وارزقنا اتباعه واجعلنا من أشياعه، وشفعه فينا، وأغننا برحمتك من شفاعتك،

(١) حديث: «من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشرا» صحيح إلى هذا القدر، وبهذا اللفظ رواه مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد، وأخرجه السيوطي في جامعه رقم ٨٨٠٩ وصاحب الكشف تحت رقم ٢٥١٧.

أما باقيه فلم أجده، وورد لفظ: «من صلى على مرة لم يبق من ذنوبه ذرة». وهو موضوع كما قال الصغاني، والله أعلم.

ومتعنا بقربه، وأمتنا على محبته^(١)، واستقنا من حوضه المورود، واجعلنا فى ظل لوائه الممدود، يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما يريد، يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام.

ومما روى عنه ﷺ أن من قاله حلت له شفاعته يوم القيامة وبعد الأذان خاصة: «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والشرف والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد»^(٢).

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٦٦ - وَأَزْكَى سَلَامٍ أَجْتَنِيهِ لِأَلِهِ وَأَصْحَابِهِ إِذْ هُمْ بِذَلِكَ حِجَاءٌ

قوله: وَأَزْكَى: الواو: حرف عطف، وهو من باب عطف العام على الخاص، وهو الإلحاق والاستحقاق، بعكس عطف الخاص على العام، فإنه لتأكيد الشرف وعلو المنزلة وزيادة التخصيص. أزكى: من أوزان المبالغة، وهو منصوب بالاشتغال. وللزكاء معان، منها: الطهارة، ولعله المقصود هنا، ومنها الكثرة، ومنها الحلية، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩]، ومنها نفى العيب والخلل، تقول: رجل زكى: إذا كان سالم العرض والخيم، ومنه تزكية الشاهد، ومنها زكا الشيء: إذا بورك فيه، ومنها زكا الرجل: إذا صلح ما بينه وبين الله قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، فهو أفعل تفضيل من زكى، بالكسر، ورؤى بالفتح، وهى لغة القرآن

(١) فى النسخة (ب): صحبته.

(٢) حديث: «اللهم رب هذه الدعوة... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وغيرهما، ولفظه عند البخارى: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة» (كتاب الأذان - باب الدعاء عند الأذان).

وليس فى شىء من طرقه (الدرجة الرفيعة)، وهى عند مسلم، والذى أورد الشيخ لفظ مسلم إلا كلمة (الشرف) فليست فى شىء من طرقه، والله أعلم.

(٣) فى النسخة (ب): وَأَزْكَى ثناء بدل سلام وهى التى عليها الشرح.

وأهل الحجاز تقول: زكا يزكو زكاء وتزكية: إذا طهر ووصفاً، ومنه الزاكيات لله: وهى الأعمال الطاهرة، أو التى تضاعف الأجور عليه، أو تتظاهر البركات من أجلها.

فإن قلت: ما معنى قوله: «وأزكى ثناء»؟ فهل فى الثناء ما ليس بزكى؟

قلت: نعم، ما بلغ حد الإطراء كثناء النصارى على عيسى ابن مريم حتى نسبوه إلى الربوبية والبنوة، وكثناء الشيعة على على رضى الله عنه حتى أشركوه مع النبى ﷺ فى نبوته، وقالوا: هو بمنزلة هارون من موسى^(١). ثم زادوا غلواً فقالوا: إنما قصد جبريلُ علياً ثم غلط فى محمد ﷺ؛ فأفضى ذلك بهم إلى بطالات وجهالات وأكاذيب على الله ورسوله، حتى كفروا أصحاب النبى ﷺ بتركهم استخلافه، فمنهم من يقول: لا إله إلا الله على فارس الله، ولا يذكرون للنبي ﷺ رسالة؛ ولذلك قال النبى ﷺ لأصحابه: «لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله»^(٢).

وقال لعلى رضى الله عنه: «يهلك فيك رجلان: محب مفرط، ومبغض مفرط، وإنك فى هذه الأمة بمنزلة عيسى ابن مريم، فإن اليهود نسبوه إلى أنه ابن زنى»^(٣) بغضاً له وحسداً، والنصارى قالوا: ابن الله إفراطاً وغلواً، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

(١) قوله: «هو بمنزلة هارون من موسى» ليس من كلام الشيعة، وإنما هو من كلام رسول الله ﷺ فى حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى وأحمد، ولفظه عند البخارى: «قال النبى ﷺ لعلى: أما ترى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبى بعدى» (٧١/٧) فتح - كتاب فضائل الصحابة، ورقم (٨/١١٢).

(٢) حديث: «لا تطرونى كما أطرت النصارى»... إلخ. حديث صحيح رواه البخارى فى كتاب «أحاديث الأنبياء - باب واذكر فى الكتاب مريم».

(٣) حديث: «يهلك فيك رجلان»... إلخ. ضعيف رواه البزار وأبو يعلى بأوسع من لفظ الشيخ، وأخرجه الهيثمى فى مجمعهم بلفظ: «قال على: دعانى رسول الله ﷺ فقال: إن فيك مثلاً من عيسى: أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبه النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس به، ألا وإنه يهلك فى اثنان: محب مفرط يقرظنى بما ليس فى، ومبغض يحمله شنائى على أن يبهتنى»... إلخ. وقال: أخرجه البزار وأبو يعلى وفى إسنادهما الحكم بن عبد الملك وهو ضعيف، وفى إسنادهما محمد بن كثير القرشى الكوفى وهو ضعيف (٩/١٣٣) والله أعلم.

قوله: أجتنيه أي: أقتطفه، وهو من اجتناء الثمر، وهو اقتطافه رطباً، فكنى بذلك عن اجتنائه الحسنات بالثناء على آله.

واختلف في آله فقيل: هم كل من أسلم من بني هاشم والمطلب. وقيل: بل آله كل من أسلم من بني عبد مناف. وقيل: كل من أسلم من قُصى وزهرة. وقيل: كل من أسلم من مرة. وقيل: كل من أسلم من بني كعب. وقيل: كل من أسلم من بني لؤى. وقيل: كل من أسلم من بني غالب. وقيل: آله سائر قريش. وقيل: آله جميع خندف. وقيل: بل جميع مضر. وقيل: كل نزار. وقيل: جميع بني معد، فيدخل في ذلك قُضاة وخثعم وأمار وبجيلة وخزاعة.

وقيل: آله كل بني إسماعيل؛ لخبر: أتى جبريلُ إبراهيمَ عليه السلام وهو بالحجر، وبين يديه إسماعيلُ عليه السلام، فمسح ظهره وبارك عليه، ثم قال له: إن ابنك هذا أبو شعوب حتى يكون منهم النبي الكريم الذي يعثه الله من هذا الحرم، ويتم به الكلمة، ويقيم به الملة، وهو أحب خلق الله إلى الله، يصطفيه على العالمين، يجتزي^(١) بالكسرة واللقمة، ولا يبالي من لقي، أكثر جنوده الملائكة، فيسير النصر أمامه حيثما سار مسيرة شهر، اسمه محمد، وأمه الحماذون؛ يحمدون الله على كل حال، ويكبرونه على كل شرف، يكتفون باليسير من الرزق، ويدخلهم الله الجنة بالقليل من العمل، أناجيلهم في صدورهم، وقربانهم دماؤهم، يجاهدون الأمم الضالة حتى يجاهدوا الأعداء الدجال، هم رعاة الشمس والقمر والظلال لإقامة الصلاة، طوبى لتلك الوجوه والقلوب التي أخلصت دينها لله، دويهم في مساجدهم بالذكر والتلاوة كدوى النحل، يوحدون الله في جو السماء على الصوامع والمنارات، واختارهم الله على الأمم كما اختار نبيهم على الأنبياء، هم شهداء الله في أرضه، والشهداء بين الأنبياء وأممهم يوم عرضه، يصفون في الصلاة كصفوف الملائكة، ويصفون في الجهاد كصفوفهم في الصلاة، يدخلون قبورهم بذنوبهم، ويخرجون وقد محصت بدعاء صلحائهم، افتضحت الأمم عندهم ولم يفتضحوا عندها، على رؤسهم تقوم الساعة، وإليهم انتهت الأهانة. «مثالهم في الأمم قبلهم كمثل رجل استأجر أجيراً ليعمل له النهار على

(١) كذا في (ب) يحتزى، ومعناها: يكتفى. أما في (أ) فلا توجد هذه الكلمة.

أن يعطيه قيراطاً فعمل إلى الظهر ثم قال للمستأجر: إنى سئمت العمل فلا حاجة لى بقيراطك، ثم استأجر أجيراً ليعمل له فيعطا بقى من النهار على أن يعطيه قيراطاً، فلما كان العصر قال للمستأجر: إنى سئمت العمل فلا حاجة لى بقيراطك، ثم استأجر أجيراً ليعمل له فيما بين العصر والمغرب على أن يعطيه قيراطين، فعمل فيما بين العصر والمغرب فأعطاه قيراطين، فذلك مثال أمة محمد ﷺ فيما تقدمها من الأمم، فهم أقل عملاً، وأكثر أجراً^(١).

وقيل: كل من آمن به واتبعه من جميع أجناس بنى آدم إلى يوم القيامة لقوله ﷺ: «أنا جد كل تقى ولو كان عبداً حبشياً، وأنا برىء من كل شقى ولو كان حراً قرشياً»^(٢).

قوله: وأصحابه: وهو كل من أدرك زمنه ﷺ، وصاحبه ولو ساعة، غزا معه أو لم يغز، ومات على ذلك^(٣).

وأفضلهم على الإطلاق أبو بكر الصديق على المختار المرتضى، ثم عمر بن الخطاب، وقد توقف مالك رضى الله عنه فى تفضيل عثمان على على فقال: لا يستبعد أن يكون على أفضل من عثمان، فمن فضله على عثمان أو فضل عثمان عليه بعد أن أقر لكل واحد منهما بفضله وسابقته وأعطى لكل منهما ما يستحقه من توليه ومودته فما ظلم ولا جار.

(١) حديث: «مثالهم فى الأمم قبلهم»... إلخ. حديث صحيح رواه البخارى وغيره فى (كتاب الإجارة - باب الإجارة من العصر إلى الليل)، وأوله عنده: «مثل المسلمين واليهود والنصارى»... إلخ. وفى آخره: «فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور».

(٢) حديث: «أنا جد كل تقى»... إلخ. لا أصل له؛ سئل عنه الحافظ السيوطى فقال: لا أعرفه. ذكر ذلك فى كتابه الحاوى للفتاوى (٢/٨٩)، كما أورده الالبانى فى كتابه (سلسلة الأحاديث الضعيفة) وقال لا أصل له (١/٢١) وأورده كذلك صاحب الكشف تحت رقم ٦١٥ وقال: لا يعرف. وورده بلفظ: «آل محمد كل تقى» وفيه قال السيوطى أيضاً: لا أعرفه. وقال مرة: رواه الديلمى وتام بأسانيد ضعيفة، ولفظ تام: «سئل رسول الله ﷺ: من آل محمد؟ فقال: كل تقى من أمة محمد، ثم قرأ ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾».

قلت: ومع أن للحديث شواهد منها ما هو صحيح فلا يصح الاحتجاج به، والله أعلم.

(٣) لا بد من إضافة كلمة (مسلمًا) ليتم تعريف الصحابى، وبدونها فالتعريف ناقص.

وكان الصحابة على عهد النبي ﷺ يقولون والنبي ﷺ بين ظهرانيهم: أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر، فيسمع ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكره.

وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول: «إن الله أيدني بوزيرين من أهل الأرض ووزيرين من أهل السماء: أما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر، وأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل»^(١).

وكان ﷺ يقول: «أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر»^(٢).

ويروى أنه بينما النبي ﷺ في ملاء من أصحابه يقص عليهم أنباء ما قد سلف إذ قال: «بينما رجل على بقرة إذ ضربها، فالتفتت عليه فقالت: ليس لهذا خلقتي ربي إنما خلقتي لإثارة الأرض، فقالوا: أبقرة تتكلم؟ فقال النبي ﷺ: آمنت أنا وأبو بكر وعمر»^(٣). وما هما ثم. ومعنى ذلك أنهم آمنوا مع التعجب، وأبو بكر وعمر يؤمنان من غير تعجب.

ولما افتتح أصحاب رسول الله ﷺ الشام والعراق، فرأت اليهود والنصارى حسن سيرتهم وعدلهم ووفاءهم وقيامهم بالدين، وزهدهم فيما فتح على أيديهم من كنوز كسرى وقيصر، وإنفاقهم إياها في سبيل الله، وحسن طاعتهم للقائم بالأمر بدون حجاب ولا حجاب، وتعاطفهم فيما بينهم، وإذلالهم للأمم الكافرة،

(١) حديث: «إن الله أيدني بوزيرين من أهل الأرض»... إلخ. موضع، رواه الطبراني بلفظ: «إن الله أيدني بأربعة وزراء نقباء، قلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الأربع؟ قال: اثنين من أهل السماء، واثنين من أهل الأرض»... إلخ. كما رواه البزار بالمعنى، وعنهما الهيثمي في مجمعه (٩/٥١).

قلت: فيه عند الطبراني محمد بن مجيب الثقفي وهو كذاب، وعند البزار فيه عبد الرحمن بن مالك بن مغول وهو كذاب، والله أعلم.

(٢) حديث: «أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر»... إلخ. رواه الطبراني بلفظ: «لا غنى لى عنهما إنما منزلتهما من الدين منزلة السمع والبصر». وفي أخرى (إنما مثلهما) يدل (منزلتهما)، وهو طرف من حديث طويل، وفيه محمد مولى بنى هاشم قال الهيثمي: لا أعرفه، وفي الرواية الأخرى راو لم يسم (٩/٥٢) هيثمي، والله أعلم.

(٣) حديث: «بينما النبي ﷺ في ملاء من قومه»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وأترمذى، وأوله عند البخاري: «بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت: لم أخلق لهذا»، وهو عنده (في كتاب المزارعة - باب استعمال البقر للحراثة).

فقالوا: والله ما لنقباء موسى ولا لحواري عيسى من الفضل ما لهؤلاء. وفي ذلك يقول البوصيري برد الله ضريحه: (من بحر الخفيف)

ما لموسى ولا لعيسى حوارـون في عدتهم ولا نقباء

وقيل: إن تفاوتهم في الفضل على قدر تفاوتهم في الخلافة؛ لأنهم مسددون ومصدقون^(١) فيهم.

وفي «الصواعق المحرقة» ما نصه: أن النبي ﷺ كان كلما انفصل من صلاة الصبح أقبل على أصحابه بوجهه الكريم فيقول لهم: من رأى منكم رؤيا فليقصها علي؛ فيخبرونه ﷺ بمرائيهم، فيعبر منها ما شاء الله أن يعبر، حتى سألهم يوماً فقال له رجل من الأنصار: رأيتُ يا رسول الله صلى الله عليك وسلم فيما يرى النَّائم كأن أبا بكر نيط بك ونيط عمر بأبي بكر ونيط عثمان بعمر ونيط علي بعثمان؛ فتغير وجه رسول الله ﷺ، فلم يعبرها كراهةً لإفشاء السر وكشف الغيب، ثم جاءه رجل بعد ذلك فقال له: إني رأيتُ يا رسول الله فيما يرى النَّائم أن دلوًا نزل من السماء، فلما دنا من رأسك نضح عليك حتى أخضل ثيابك، ثم انتقل فنضح على أبي بكر، ثم نضح على عمر، ثم نضح على عثمان، فلما نضح على عثمان انتشط فرفع إلى السماء فمازلت أنظر وهو يرتفع حتى حالت السماء دونه؛ فما سأل رسول الله ﷺ بعد ذلك أحدًا عن رؤيا رآها إلا أن يكون هو الذي يخبره بها.

فإن قلت: فما وجه سؤال رسول الله ﷺ أصحابه عن مرائيهم وهو غني عن ذلك بما أوتيته من الوحي والإلهام والكشوفات؟

فالمراد، والله أعلم، أن الرؤيا نوع من النبوة، وهو الباقي بعده، وأحب ﷺ أن يترك في أمته من التأويلات الواردة عنه والتعابير ما يبنون عليه أساس تأويل الرؤيا، لما يُمدون به من مشكاة نوره ﷺ، ولأن زمن الأنبياء زمن التجليات صالح لخوارق العادات، لتوجه أمداد الحق حينئذٍ لما سرى في ذواتهم من نور طلعتة ﷺ

(١) هذه العبارة غير واضحة في النسخين، وأقرب شيء إلى المكتوب: ومصدقون فيهم؛ لذا أثبتناها مع أنها غير مناسبة تمامًا.

وبركات صحبته، ولتخصيص الله إياهم بمواجهة خطابه وإنزال كتابه، فورثه ﷺ في تعبير الرؤيا أبو بكر رضى الله عنه، فكان في ذلك الفن لا يجارى ولا يمارى، ثم ورثه حذيفة بن اليمان وهو صاحب السر، وكان لعلى من ذلك الحظ الأوفر، بل له ذلك في جميع العلوم.

قال الصادق المصدوق ﷺ: «على ابن عمى حامل علمى، وإنه ليقاتل المارقين على تأويله كما قاتل المشركين على تنزيله، وهو خاتم الخلفاء كما أنى خاتم الأنبياء»^(١). كما روى بسند واه وقيل: إنه من وضع الشيعة. وله رضى الله عنه من المآثر والمناقب ما فيه غنى عن وضع الشيعة.

ثم أفضل الصحابة بعد الخلفاء الأربعة الستة الباقون من العشرة، وذكر مناقب كل واحد منهم لا تحتمله الدفاتر، وتحجف دون إحصاء النزر منه المحابر.

يروى أن الله تبارك وتعالى لما أمر نوحاً عليه السلام أن يصنع الفلك كان معه جبريل عليه السلام، فقال له: ومن لى بصنعة الفلك ولا علم لى به؟ فقال له: عليك بنحت الألواح، ولتكن على عدد الأنبياء والمرسلين؛ فقال له: ومن لى بأسمائهم؟ فقال له: عليك النحت فإنك تجد على كل لوح اسم صاحبه مكتوباً، فلما تمت أسماء الأنبياء بقيت فى السفينة أربع ثلمات، فقال له: إن السفينة لم تتم على أسماء الأنبياء، فقال: تلك ألواح الخلفاء من أمة محمد ﷺ؛ فإنها لا تتم الكلمة ولا تستقيم الملة العوجاء إلا باستخلافهم؛ فانحت أربعة ألواح فإنك تجد على كل لوح اسم صاحبه؛ فنحت اللوح الأول فإذا مكتوب عليه اسم أبى بكر، وعلى الثانى اسم عمر، وعلى الثالث اسم عثمان، وعلى الرابع اسم على، فلما جعلوا فى السفينة تم حسنهما وزادت بهجتها، فأمر الله حينئذ أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين^(٢).

ويروى أن معاوية لما تم له الأمر بعث أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ إلى

(١) هذا الحديث يدل لفظه على وضعه، وقد أشار الشيخ إلى أنه قد يكون من وضع الشيعة، وأراه كذلك، والله أعلم.

(٢) أول هذه القصة كما هو واضح من الإسرائيليات، وآخرها الذى فيه الخلفاء الأربعة من وضع الكذابين، والله أعلم.

قيصر ملك الروم فى أمر، فلما أتوه أكرمهم ورجلهم وأمر لهم بمنزل كريم، فلما جن الليل بعث إليهم وأدخلهم بيته، فإذا بالشموع ترهر، وإذا بالمكان قد فرش بأنواع البسط، وضمخت جدران الدسكرة^(١) بأنواع الطيب، ثم أمر بهم فطيبوا.

فلما جلسوا واطمأنوا قال لهم: إنما أريد أن أتخفكم بتخفة لم أتخف بها أحدًا قبلكم؛ لأنه بلغنى أنكم من أصحاب محمد المبعوث فى العرب فهل تحققون معرفته؟ فبكوا، ثم قالوا: كيف لا نحقق معرفته ونحن أصحابه وهو قرّة أعيننا؟!

فأرسل بعض أصحابه، فأتوا بصندوق على هيئة الرقعة حتى وضعوه بين يديه، فأخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة آدم، فإذا هو رجل له ذؤابتان، طويل العنق، خفيف العارضين، كأن وجهه قطعة قمر، وإذا هو أحسن ما يرى من الرجال، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هو آدم عليه السلام.

ثم رده وعمد إلى بيت آخر تحته، فأخرج منه حريرة سوداء، فإذا فيها صورة بيضاء، فإذا هو رجل عظيم الهامة مدور الوجه عظيم المنكبين واسع الصدر أحمر العينين، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: إنه نوح عليه السلام.

ثم عمد إلى بيت آخر، وأخرج منه حريرة خضراء، فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا رجل له جمّة، عبل^(٢) الذراعين، مهفهف^(٣) القد، صلت^(٤) الجبين، أفتى^(٥) الأنف، براق الشيايا، كأنه يتسم^(٦)، وكأنه النور يخرج من ثناياه فيغشى وجهه، وهو أشبه الخلق بآدم، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: ذاك يوسف عليه السلام.

ثم عمد إلى بيت ليس تحته إلا أربعة بيوت، فأستخرج منه حريرة سوداء، ثم أستخرج صورة بيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ كأنك تنظر إليه، فبكينا؛ فقال:

(١) الدسكرة: القرية العظيمة، فارسية، أو صومعة أو بيوت يكون فيها اللهو والشراب.

(٢) عبل الذراعين: ضخمهما.

(٣) المهفهف: الضامر البطن الدقيق الخصر.

(٤) أصلت الجبين: الواضح المستوى البارز.

(٥) أفتى الأنف: ارتفع وسط قصبته.

(٦) فى (أ): وكأنه يتسم عن لؤلؤ.

أتعرفون هذا؟ فقلنا: نعرفه، هذا نبينا ورسولنا محمد ﷺ، فقام قائماً وقد اسود وجهه ثم جلس، ثم قام، ثم جلس، فقال: يا ليتنى أدركته وكنت عبداً من عبده أغسل الرغام^(١) عن قدميه، ولو أعلم أنى أخلص من الروم لوددت أن أكون عبداً لأسوئكم ملكةً.

ثم فتح البيت الذى تحته، فاستخرج منه صورة أبى بكر، وقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، هو صاحبه أبو بكر، ثم فتح بيتاً تحته، فاستخرج من الحريرة صورة عمر، فقال: أتعرفون هذا قلنا: نعم، هو عمر بن الخطاب.

فقال لنا: أما إن بيت محمد ﷺ آخر البيوت، ولكن قدمته لأختبركم بذلك، فقالوا له: أخبرنا عن هذه الصور وقد علمنا بحقيقتها لما رأينا صورة محمد ﷺ.

فقال لهم: إن الله تبارك وتعالى لما أنزل آدم عليه السلام من الجنة استوحش فأنزل الله عليه صور الأنبياء من ذريته ليستأنس بهم، فكانت فى خزانة آدم عليه السلام. ثم توارثها الأنبياء من بعده، فلما كان زمن الطوفان فقدت؛ فاستخرجها دانيال، فلما تغلب الروم على بنى إسرائيل واستولوا على بيت المقدس أخذوها من أيديهم؛ فتوارثها ملوكهم حتى وصلت إلى. فقالوا له: فما بال صور الصحابة فى هذه المربعة وليسوا من الأنبياء؟ فقال لهم: لما كان لهم من المزية ما للأنبياء ألحقوا بالأنبياء وليسوا أنبياء.

ثم أفضلهم بعد ذلك السابقون من المهاجرين والأنصار، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأَوْلَىٰ وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلَىٰ وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٠]. ثم أصحاب بدر، فأحد، فالحدبية، فخير، فالفتح، فسائر الصحابة، فالوافدون، فالمخضرمون، فالأقيال^(٢)، فالتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وأفضلهم على الإجمال القرون الثلاثة، جعلنا الله من جملتهم، وحشرنا فى زمرتهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وختم لنا ولجميع المسلمين بحسن الختم والخاتمة فى الدنيا وعند الموت وفى القبر

(١) الرغام: التراب، المخاط.

(٢) الأقيال جمع قيل: لقب لملوك حمير، ويطلق على الرئيس، والمراد من أسلم من ملوك حمير، أو

من الرؤساء غيرهم.

ومعاينة الملكين^(١) آمين، إنه الخلق بذلك والقادر عليه ومولى الإحسان ومالك الفضل والامتنان، آمين يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين، وصلى الله على خاتم النبيين وخير المرسلين ونخبة جميع العالمين ونبى الأميين وأشفع الشافعين وأقرب المقرين صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

• ثم قال رحمه الله على وجه الدعاء لنفسه:

١٦٧ - وَسَلِّ لِي عَفْوَاً وَنَيْلَ جِوَارِهِمْ غَدًا فَإِلَى ذَا سَارِعَ السُّعْدَاءُ

وقد ترك رحمه الله الأولى: وهو الإتيان بالدعاء على وجه العموم لنفع الإجابة؛ لخبر: الدعاء إذا عم نفع، وإذا خص ارتفع. ولأن دعاء المؤمن لأخيه عن ظهر الغيب مستجاب.

يروى عنه ﷺ أنه قال: «إن الله وكل بكل مؤمن ومؤمنة ملكاً، فإذا دعا لنفسه ولم يشرك معه أحداً أمسك، وإذا أشرك معه أحداً من المسلمين قال له: ولك مثل ذلك».

ولقد أرشد الله تبارك وتعالى إلى ذلك في محكم تنزيله، فجاء به على وجه التمدح فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] حتى يكون من الغل عدم الدعاء لهم والترحم عليهم.

يروى أنه ﷺ لما بلغ المستوى حياه الله بأن قال له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته، فلم يرض أن يكون السلام خاصاً دون أمته، فقال مجيباً: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فلو أنه قال: ونسأله عفواً ونيل جوارهم لكان أولى؛ فإن التون تُدخل معه المسلمين؛ إذ هي للمتكلم المعظم نفسه أو معه غيره، فتعظيمه نفسه لا ينبغي له

(١) فى النسختين: ومعاينة القاتين، ولا معنى لها.

ولا مثله؛ إذ من بلغ درجة التأليف يستحيل^(١) في حقه أن يعظم نفسه لانتفاء الجهل المؤدى إلى ذلك؛ فبانتفاء السبب الذي هو الجهل ينتفى السبب الذي هو تعظيم النفس؛ فلا يبقى إلا أن يكون معه غيره، وقد قصده بالدعاء فينتفى حيثئذ المحذور؛ فيقع الانتفاع، ويتحصل السرور.

وفى ذلك فائدة أخرى، رهى الإتيان بالضمير المشتمل على اسم الجلالة المشار به إلى الاسم الأعظم؛ إذ لو ساغ حذفه لما كان من الأدب تركه؛ لأنه لم يرد في طلب العفو حذف اسم الجلالة في كتاب ولا سنة؛ لأن ذكر الاسم والثناء على مسماه مما لا يستغنى عنه شرعاً ولا عقلاً ولا عادة؛ فإن الله يقول: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

ولما علمهم كيفية الدعاء أمرهم بتكرار ذكره مع كل دعاء معلماً لهم فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تَوَاضَعْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال ﷺ في سؤال العفو: «اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة»^(٢).

وحقيقة العفو المجاوزة عن الذنوب بعد التنبية عليها. والغفران المجاوزة عن الذنوب من غير تنبيه عليها. والصفح المؤاخذة ببعضها دون بعض أو التنبية على بعضها دون بعض.

قوله: ونيل جوارهم: أي الظفر بجوارهم، أي: الموت في أحد الحرمين، كما كان عمر رضى الله عنه يقول: اللهم إني أسألك الموت في سيالك، وفي بلد رسولك.

(١) لا يستحيل ذلك مطلقاً؛ إذ العلم لا يمنع من الوقوع في الزلل.

(٢) حديث: «اللهم إني أسألك العفو والعافية.. إلخ» صحيح أخرجه النسائي وأحمد والبيهقي بألفاظ يزيد بعضها على بعض، وعنهما الغزالي في الإحياء (١/٣٢٣).

كما أنه ﷺ قال: «أول من تشق عنه الأرض أنا، فأبعث، فإذا أبو بكر عن يميني، وعمر عن شمالي، ثم أذهب بهما إلى أهل البقيع، فبيعت جميع من مات بالمدينة، فيغفر الله لهم بسبب جوارهم إياي، ثم أذهب إلى الحرم، فيحشر إليَّ أهله فأشفع فيهم»^(١).

ويحتمل أن يريد بذلك جواره إياهم في الدار الباقية دار المقامة إن لم يحصل له جوارهم بالحرمين. فإلى هذا الذي هو سؤال العفو من الله وسؤال نبيل جوار النبي ﷺ وآله وأصحابه سارع السعداء، ومسارعتهم هي سابقتهم إلى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، والتشبث بأذيالهم، والسير على منوالهم، أو التطبع بأحوالهم، والافتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم.

والسعداء: جمع سعيد «فعيل» بمعنى «مفعول». قال الرسول ﷺ: «إذا سمعت بمسعود أخذ عوداً فآثر في يده فلا تكذب، وإذا سمعت بحروم أتى عين ماء ليشرب منها فغازت فلا تكذب»^(٢). ويشبهه هذا قوله ﷺ: «إذا سمعت بطبع زال من صاحبه فكذب، وإذا سمعت بجبل زال عن محله فلا تكذب»^(٣).

وحقيقة السعيد من ساعدته الأقدار، وصاحبته الأنوار، وكلاؤه العزيز الجبار، جعلنا الله ممن تولاها الله بكلاءته، ورعاه بعين عنايته، وقواه بكنف كفالاته، وجعلنا ممن يباهى به النبي الكريم الأنبياء من أهل ولايته، وممن يكاثر به الأمم ممن استنار بنور هدايته، وصلى الله على محمد وآله وأزواجه وذريته وصحابته.

(١) حديث: «أول من تشق عنه الأرض أنا» صحيح إلى هذا القدر، وهو جزء من حديث رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وأوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» وفيه «وأنا أول من تشق عنه الأرض»، أما باقيه من قوله: «فأبعث فإذا أبو بكر عن يميني»... إلخ. فلا أعرفه ولا أر من أخرجه، ولا أظنه يصح عن النبي ﷺ، بل أكاد أجزم بأن أمارات الوضع عليه بادية، والله أعلم.

(٢) لم أجد هذا الكلام المنسوب إلى النبي ﷺ في شيء من كتب الحديث.

(٣) حديث: «إذا سمعت بطبع زال»... إلخ. ضعيف أخرجه أحمد (٤٤٣/٦)، وعنه العجلوني تحت رقم ٢٣٣ ورقم ٢٠٠ وقال: رواه أحمد بسند صحيح، والسيوطي تحت رقم ٦٩٦ قال شارحه المناوي: قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح إلا أن الزهري لم يدرك أبا الدرداء. كما أورده الألباني تحت رقم ١٣٥ وقال: ضعيف، ويعد إيراد كلام الهيثمي والسخاوي والعجلوني فيه وإقرارهم بانقطاعه قال: إنه منكر، والله أعلم.

وكان الفراغ من شرح هذه المنظومة المباركة غرة المحرم لستة أيام مضين منه
ضحوة الاثني عشر من عام إحدى ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية، صلى الله
وسلم على صاحبها، والحمد لله على ما ألهم، وعلى ما من فضله علم،
وللمقصود تم، وأسأل الله أن يجعله لوجهه خالصاً، وعن الرياء والسمعة فالصاً،
وأن ينفع به قارئه وسامعه وكتابه ومن سعى في تحصيله كما رأيت مخايل ذلك^(١)،
جعل الله ذلك كذلك، وتم ما هنالك، آمين، آمين. انتهى.

كان الفراغ من تصحيحه وإعداده للنشر ليلة الاثني عشر
التاسع عشر من شهر رجب عام ثلاثة وأربعمائة وألف للهجرة النبوية الشريفة
في مدينة رسول الله ﷺ، على يد الفقير إلى ربه، المعترف بذنبيه،
مأمون محمد أحمد، غفر الله له ولوالديه، آمين

(١) هذه العبارة وردت في النسخة (أ) وهي غير موجودة في النسخة (ب) إذ انتهى عند (وأزواجه
وذريته وصحابته).

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة التحقيق
١٧	مقدمة المؤلف
٢٣	باب ما يفتح أوله فيقصر ويمد باختلاف المعنى
٢٣	تعريف المقصور
٢٦	تعريف المد
٢٧	شرح البيت ١١ - أطعت الهوى فالقلب فيك هواء
٣٠	تفسير قوله تعالى ﴿والسابقون السابقون﴾
٣٢	تعريف الطغيان وأنواع الطغاة
٣٣	قصة يحيى بن زكرياء عليه السلام مع الشيطان
٣٤	كيد الشيطان
٣٥	الأدلة على أن المعاني تخاطب
٣٧	قلب ابن آدم وتقلباته
٤١	حوار بين القرطاس والقلم واليد
٤٤	الفرق بين الريح والهواء
٤٧	أنواع القلوب
٥٢	الأنواع التي توصف بالصفاء
٥٤	شرح البيت ١٢ - ورمت جدى ما إن يدوم جداؤه
٥٥	وصف الدنيا
٦٠	الجمع بين ذم الدنيا والثناء عليها
٦٢	شرح البيت ١٣ - ولو في الملا رمت الملاء حللت في
٦٣	احترام الناس لصاحب المال واحتقارهم للفقير
٦٦	المفاضلة بين العزلة والخلطة
٦٩	شرح البيت ١٤ - كفى بالفنا قوتًا لنفس فناؤها

- ٧١ هل يقع التنعم والعذاب على النفس دون الجسد
- ٧٣ كراهية التغالى فى الملمات والتنعم
- الجمع بين قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ وقوله
 ٧٥ ﷺ: «لن يدخل أحداً عمله الجنة»
- ٨٠ كمال شريعة محمد ﷺ واعتدالها ورفعها للخرج عن هذه الأمة
- ٨٣ ذم البطنة والبخل
- ٨٨ فضل الاقتصاد فى طلب الرزق
- ٩٠ فضل القناعة
- ٩٢ شرح البيت ١٥ - رزقت الحيا كن للحيا ملازما
- ٩٢ أنواع المطر
- ٩٦ الخلاف فى كفر من نسب المطر إلى الكواكب
- ٩٨ تعريف الحيا وفضله
- ١٠٥ شرح البيت ١٦ - أيا بن البرى استحضر براء من الدنيا
- ١٠٦ تحقير الدنيا وتشبيها بالحيقة
- ١١٥ شرح البيت ١٧ - وبعد العرى سكنى العراء فكل ذى
- ١١٥ القبر ووحشته وما ينجى منها
- ١١٩ معنى النساء بالمد والنسى بالقصر
- ١٢١ شرح البيت ١٨ - فجد بالفضى واغش الفضاء ولا تكن
- ١٢٢ فضل السخاء
- ١٢٤ الفرق بين الكرم والجود والسخاء
- ١٢٩ ما قيل فى العزلة
- ١٣٠ قصة أويس القرنى مع عمر رضى الله عنه
- ١٣٤ تعريف العقل وفضله وأنواعه
- ١٤٠ الذنوب أمراض تصيب القلب فتمرضه وعلاج ذلك المرض
- ١٤٤ شرح البيت ١٩ - كان الورى والموت نسى وراءهم
- ١٤٤ تشبيه الإنسان فى غفلته وعدم استعداده للموت بالغنم
- ١٤٦ طول الأمل وحكم تمنى الموت
- ١٥٣ شرح البيت ٢٠ - شهى خلا الأرض الخلاء لو أنه

- ١٥٣ النهى عن الاغترار بزينة الدنيا
- ١٥٤ قصة اليزيد مع الجارية التى ماتت عنده
- ١٥٥ من أخذ الدنيا بحق بورك له فيها ومن لم يأخذها بحق كان كشارب ماء البحر
- ١٥٧ قصة شيبان الراعى مع الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه
- ١٥٩ الدنيا مهياة للزوال بطبعها
- ١٦٠ معنى الخلى بالقصر والخلاء بالمد
- ١٦١ شرح البيت ٢١ - ومص الظما لولا الظماء غداً متى
- ١٦٥ فضل فقراء المهاجرين
- ١٦٧ الحث على جهاد النفس وعدم طاعتها
- ١٦٩ ذم النزاع والترغيب فى رأى والمشورة
- ١٧٢ شرح البيت ٢٢ - وهل لفتى من قبل دام فتاؤه
- ١٧٢ وصف رمال التقى بين تهامة ونجد
- ١٧٤ حكاية عن فارس من بنى تغلب
- ١٧٦ وصف الفتوة
- ١٧٨ قصة الخنساء مع أخيها صخر
- ١٨١ شرح البيت ٢٣ - خساً وزكياً تفنى المنون زكاء ذى
- ١٨١ معنى العسا والعساء
- ١٨٣ شرح البيت ٢٤ - أصاب الضنى ذات الضناء وبعلمها
- ١٨٣ قصة أم قرفة زوج حذيفة بن بدر
- ١٨٤ شرح البيت ٢٥ - ولم ينج جلوى رب جلواء جوده
- ١٨٦ الاستطراد وأنواعه
- ١٨٩ شرح البيت ٢٦ - وكم ذى دوى عاف الدواء وذى
- ١٨٩ فضل اللبن
- ١٩٣ شرح البيت ٢٧ - وذى بيت اعتراض البها من بهائه
- ١٩٣ معنى العفا بالقصر والعفاء بالمد
- ١٩٤ شرح البيت ٢٨ - وما رب هطلى أم هطلاء فارتوى
- ١٩٤ معنى الهطلى بالقصر والهطلاء بالمد
- ١٩٨ فضل الإبل

- شرح البيت ٢٩ - وقاك العمى مزجى العماء فلذ به ٢٠٠
- الأمثلة على أن الله يسوس أهل ولايته فيقلب لهم أعيان المحن منحًا ٢٠١
- قصة يوسف عليه السلام ٢٠١
- قصة دانيال مع بختنصر ٢٠٤
- الهجرة الأولى إلى الحبشة ٢٠٧
- بيعة العقبة والهجرة إلى المدينة ٢١٠
- شرح البيت ٣٠ - سيعلوك مرموسا سنى فالسقاء دع ٢١٢
- وصف السفينه ٢١٢
- شرح البيت ٣١ - وهون حقى أفضى إليه حفاظه ٢١٤
- ما يجده المصلى الخاشع من اللذة فى الصلاة ٢١٥
- غزوة مؤتة ٢١٦
- شرح البيت ٣٢ - وصل بوحي الداعى الوحاء إغاثة ٢١٨
- الحث على إغاثة الملهوف ٢١٨
- شرح البيت ٣٣ - وهب ذا القصى سكنى القساء ودع نهى ٢٢١
- فضل الأخلاق الحميدة والتودد إلى الناس ٢٢١
- شرح البيت ٣٤ - وكم ذى سخى أغرى السخاء ببذله ٢٢٦
- ما قيل فى الزهد فى الدنيا بسبب ما يعرض للإنسان فيها من الآفات ٢٢٦
- ذم الكذب والفجور ٢٢٨
- فضل الورع ٢٣١
- شرح البيت ٣٥ - وعجلى لدى العجلاء حن لبارق ٢٣٢
- فضل طلب الحلال ٢٣٣
- شرح البيت ٣٦ - وأظمى لدى الأظماء ينفع مورداً ٢٣٤
- أمثلة رائعة عن الأبطال والبطولات العربية ٢٣٥
- شرح البيت ٣٧ - وأهل الغبى مثل الغباء فدعهم ٢٣٩
- الفرق بين الحلم والصبر ٢٤٠
- فضل العلم ٢٤١
- شرح البيت ٣٨ - وصيد المهى عدم المهاء يزينه ٢٥٠
- شرح البيت ٣٩ - وكم ذى قسا من ذى قساء وذى رجاً ٢٥٢

- ٢٥٣ شرح البيت ٤٠ - ومردئى بمرءاء لى متوكل
- ٢٥٥ شرح البيت ٤١ - وإن سدى فوق السءاء لآية
- ٢٥٥ الآيات الءالة على كمال قءرة الله ووحءانىته
- ٢٥٧ قصة للإمام الشافعى مع ابنة الإمام أحمد رضى الله عنهما
- ٢٥٩ شرح البيت ٤٢ - ورب حوىء عند الخواء استطابه
- ٢٥٩ فضل الصوم
- ٢٦٢ شرح البيت ٤٣ - حوىء جءءاً أفاق العلى لعلائه
- ٢٦٣ شرح البيت ٤٤ - فما بالصبا يهءى الصباء لقلبه
- ٢٦٤ قصة أبى عبء الله الأءءلسى
- ٢٦٨ شرح البيت ٤٥ - ىرى وهو أحنى ملء إحنائه ضحىء
- ٢٦٩ فضل العمل والتبءل
- ٢٧٢ شرح البيت ٤٦ - كفاه المشى هم المشاء فلا شرى
- ٢٧٣ فضل الخمول
- ٢٧٤ شرح البيت ٤٧ - وتألفه الخىطا وخیطاء إلفه
- ٢٧٥ امثلة من قصص بعض الصالحىن فى خلواتهم
- ٢٧٨ شرح البيت ٤٨ - ولىس كذى جرباء بجرباء ماكث
- ٢٧٨ أكءى ومعانىها
- ٢٧٩ شرح البيت ٤٩ - ىقى ذا العطاء ءاء العطاء بكرى ذى
- ٢٨٠ أكل الحرام لا ىزءاء فى الءنىا إلا تعباً ومن الله بعءاً
- ٢٨١ شرح البيت ٥٠ - ىظل بمثنى جىء مثناء مغرمأ
- ٢٨١ شرح البيت ٥١ - كأن بغطشى منه غطشاء أعشبت
- ٢٨٣ شرح البيت ٥٢ - ىضاهى الغرى من لا غراء ولا ضرى
- ٢٨٣ صاحب المعاصى كالحىوان
- ٢٨٤ شرح البيت ٥٣ - وآلى بآلاء كآبى إذا طغى
- ٢٨٥ كىففة آءاء شكر النعم والفرق بىنه وىبن الحمد
- ٢٩٠ شرح البيت ٥٤ - كأعبا إذا الأعباء ىوما له اعترؤا
- ٢٩٢ شرح البيت ٥٥ - فأقنى وأقناء وشرواهما اطرح
- ٢٩٤ هل وجوب الحج على التراخى أم على الفور؟

- شرح البيت ٥٦ - كالأعمى الذى الأعماء يغرو فلا تدع ٢٩٦
- شرح البيت ٥٧ - ورم راحة الأنسى والأنساء راعها ٢٩٨
- الحث على قضاء الحوائج ومواساة الضعيف والمسكين ٢٩٨
- باب ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد مع اختلاف المعنى** ٣٠٢
- شرح البيت ٥٨ - طلا وطلاء دع ولا تصحبن لقى ٣٠٢
- وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٣٠٤
- شرح البيت ٦١ - وإن صدنى من لا صداء له أدنى ٣٠٧
- ذم الكلام الذى لا طائل تحته ٣٠٨
- شرح البيت ٦٢ - أخوا الدين أولى بالإخاء فذا ندى ٣١١
- الأخوة الدينية ٣١١
- حقوق الجار ٣١٦
- الحث على إعطاء الأجير حقه ٣١٧
- وجوب الإحسان إلى المملوك ٣١٨
- قصة عمورية والمعتمصم ٣١٩
- التحذير من أخوة اللثام والمنافقين ٣٢١
- شرح البيت ٦٣ - وأهل اللخا امجر واللخاء اتبع له ٣٢٣
- البذل المدوح والمذموم ٣٢٤
- ما قيل فى الإقدام ٣٢٥
- شرح البيت ٦٤ - وكن ذا ردنى لا فى رداء ولا أدنى ٣٢٨
- ما قيل فى الدين ٣٢٨
- شرح البيت ٦٥ - وكن كأبا فى الله ناء إياؤه ٣٣٢
- فضل الشفقة على عباد الله ٣٣٣
- قصة للنعمان بن امرئ القيس ٣٣٤
- ذم البناء المرتفع ٣٣٦
- تحريم البناء على القبور ٣٣٧
- الترغيب فى بناء المساجد ٣٣٧
- حكم الشعر وإنشاده ٣٣٨
- شرح البيت ٦٦ - وشد المطا وارع المطاء ولا يخب ٣٤٨

- ٣٤٨ قصة فتح اليمامة
- ٣٤٩ فوائد الأسفار
- ٣٥٢ قصة عبد الله بن جعفر مع الحاج الحميرى
- ٣٥٣ شرح البيت ٦٧ - وغير الشوى هبى شواء لطارق
- ٣٥٤ ما قيل فى إكرام الضيف
- ٣٦٠ شرح البيت ٦٨ - فكم ذى غشى أضحى غشاء مهند
- ٣٦٠ الخيل وأنواع السيوف
- ٣٦٢ قصة لحاتم الطائى فى الكرم
- ٣٦٣ شرح البيت ٦٩ - وذات الحذا اصنع من نجاها حذاء ذى
- ٣٦٥ شرح البيت ٧٠ - وكن لوزى هاب الوزاء مؤمنا
- ٣٦٦ شرح البيت ٧١ - وحاذر كهى من ذى كهاء على قرى
- ٣٦٨ شرح البيت ٧٢ - وكل ملا بد الملاء رضى وذا
- ٣٧٠ شرح البيت ٧٣ - وعظ نفسك السهوى لسهواء انقضت
- ٣٧١ شرح البيت ٧٤ - وكن لحفا النجوى خفاء يقى جوى
- ٣٧١ ما قيل فى كتمان السر
- ٣٧٤ شرح البيت ٧٥ - توق الردى والبس رداء من التقى
- ٣٧٥ شرح البيت ٧٦ - وشبه الهجا أهل الهجاء فلا تكن
- ٣٧٧ حكم الهجاء بالشعر ونماذج من الهجاء
- ٣٨٢ شرح البيت ٧٧ - على الغر يخفى ذو الفرى لفرائه
- ٣٨٤ شرح البيت ٧٨ - يرى ذو الحنا ذات الحناء فيرتجى
- ٣٨٤ تمثيل النبى ﷺ بالخطوط للأمل والأجل
- ٣٨٧ شرح البيت ٧٩ - وما من توى ينجى التواء وذو النوى
- ٣٨٨ تحريم الخمر وأسباب ذلك
- ٣٨٩ شرح البيت ٨٠ - وما كل مأتى ظل مثناء رفقة
- ٣٩١ من ادعى النبوة بعد النبى ﷺ
- ٣٩٣ شرح البيت ٨١ - وهذا الجأى فانى الجئاء يسوسه
- ٣٩٤ إطعام الطعام فى الجاهلية والإسلام
- ٣٩٧ شرح البيت ٨٢ - ويشفى الصها روم الصها وبالنها

- ٣٩٧ الحث على المبادرة فى أعمال الخير وعدم التسويف
- ٣٩٩ شرح البيت ٨٣ - وما بالفضيا يحصى الفضاء وقلما
- ٣٩٩ الزبرقان بن بدر والحطيئة
- ٤٠٠ ذهاب العلماء فى آخر الزمان
- ٤٠١ ذو الفتوى بغير علم
- ٤٠٢ رد خبر الفاسق والتحذير من الكذب على رسول الله ﷺ
- ٤٠٧ شرح البيت ٨٤ - وليس جوى عند الجواء أثاره
- ٤٠٩ عمر رضى الله عنه يلبس سراقة سوارى كسرى
- ٤١١ شرح البيت ٨٥ - وما ذو نسى بين النساء بمرئى
- ٤١٣ شرح البيت ٨٦ - ولا ذو الحقى يكفى بكثر حقاؤه
- ٤١٣ نبذة من التزهيد فى الدنيا
- ٤١٤ شرح البيت ٨٧ - ورب قوى أض القواء به غمى
- ٤١٦ القحط وأسبابه وأمثلة منه
- ٤٢٠ «أسنت» ومعانيها واشتقاقاتها
- ٤٢١ (رب) ومعانيها وإعرابها
- ٤٢٥ باب ما يكسر فيقصر ويفتح فيمد مع اختلاف المعنى
- ٤٢٥ شرح البيت ٨٨ - سوى مسلك الأبرار يمم سواءه
- ٤٢٦ نزول القرآن موافقا لرأى عمر رضى الله عنه يوم
- ٤٣٠ شرح البيت ٨٩ - وحد عن عنى الأهواء تكف عنهاها
- ٤٣١ انقسام المسلمين الى أكثر من سبعين فرقة
- ٤٣١ الكلام على الخوارج
- ٤٣٤ محبة النبى ﷺ
- ٤٣٦ موقف أبى بكر الصديق لما توفى رسول الله ﷺ
- ٤٣٧ وصف المصاب بوفاة رسول الله ﷺ وأمثلة من مرثيته ومرثى آل الكرام
- ٤٦٢ تعزية عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى أبيه العباس
- ٤٦٣ تعزية أعرابى للنبى ﷺ فى ابنته
- ٤٦٣ تعزية النبى ﷺ لمعاذ رضى الله عنه فى ابنه
- ٤٦٤ شرح البيت ٩٠ - وذد عن زنى وامر زناء بطهره

- ٤٦٤ تحريم الزنى
- ٤٦٥ حكم صلاة الحاقن
- ٤٦٩ شرح البيت ٩١ - وأكل الربا احذر رباء وإن جزى
- ٤٦٩ التحذير من أكل الربا وتحريم جميع أنواعه
- ٤٧٣ البيوع الفاسدة
- ٤٧٤ شرح البيت ٩٢ - وحجلى وحجلاء اجتنب لعبها بها
- ٤٧٧ شرح البيت ٩٣ - البيت تركه المؤلف بدون شرح
- ٤٧٧ **باب ما يقصر فيكسر ويهد باختلاف المعنى**
- ٤٧٧ شرح البيت ٩٤ - ورب حمى ضاق الحماء به عفأ
- ٤٧٨ شرح البيت ٩٥ - وكم باللوى من ذى لواء وذى بئى
- أول من اتخذ اللواء فى الحرب وأول لواء عقد فى الإسلام ودور حاملى الأولوية
- ٤٨٠ فى الحروب
- ٤٨٤ قصة قصر المنذر بن عاد
- ٤٨٦ شرح البيت ٩٦ - وكان ثناً يثنى الشاء بسية
- ٤٨٧ بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ
- ٤٨٩ شرح البيت ٩٧ - بهيج الردى غضب الرداء مؤملاً
- ٤٩٠ ما يقال عند النوم
- ٤٩١ شرح البيت ٩٨ - وكم من حذى نال العفاة حذاه
- ٤٩٢ شرح البيت ٩٩ - فأفنى الإنى ملء الأوانى إنأؤه
- ٤٩٣ ترتيب ساعات الليل والنهار
- ٤٩٤ شرح البيت ١٠٠ - وأهل الحبى زان الحباء ولم تزن
- ٤٩٥ شرح البيت ١٠١ - فأحسن بمهدى زان مهداء فتية
- ٤٩٥ تفاخر العرب بعظم الجفان
- ٤٩٥ قصة سليمان عليه السلام مع الحوت
- ٤٩٧ قصة البرامكة وأمثلة من كرمهم
- ٥٠٠ شرح البيت ١٠٢ - ومقلّى لذى المقلاء ييدى حسيه
- ٥٠١ الحث على تفريح الصبيان وملاطفتهم
- ٥٠٢ شرح البيت ١٠٣ - وحاسى القرى مثل القراء حياضه

- ٥٠٢ الحث على رفع الهمة عما فى أيدى اللثام
- ٥٠٣ شرح البيت ١٠٤ - هداه أصارته هداه فرأيه
- ٥٠٥ شرح البيت ١٠٥ - وصارى الكرى بعد الكراء كذى لوى
- ٥٠٥ الحث على الوفاء بالعهد
- ٥٠٧ الحلف بالله وأنواع الأيمان
- ٥٠٨ شرح البيت ١٠٦ - ونجح المنى ينسى المناء وكم معى
- ٥٠٩ الحث على الصبر على الخطوب حتى ينال المطلوب
- ٥١٠ شرح البيت ١٠٧ - كم إشفى الإشفاء ملك ربه
- ٥١٢ شرح البيت ١٠٨ - وهذا الكبى عقبى الكباء وللحجى
- ٥١٢ شرح البيت ١٠٩ - واهل القرى اتسب للفراء ومن مرى
- ٥١٣ شرح البيت ١١٠ - وإجلى العلى إجلاء ذى البغى فاعتمد
- ٥١٥ **باب ما يمد فيقصر ويفتح فيمد باختلاف المعنى**
- ٥١٥ شرح البيت ١١١ - غداك ارع واعتض من غداء تسحرأ
- ٥١٦ الدعوات المأثورة بعد صلاة الصبح وما ورد فى النوم بعد صلاة الصبح
- ٥١٨ شرح البيت ١١٢ - فمن خشى السوءى لسوءاء هاجرا
- ٥١٩ شرح البيت ١١٣ - وما ضر ذا طرفى بطرفاء لاثداً
- ٥٢١ شرح البيت ١١٤ - وسارع إلى الحسنى وحسنا لا تطع
- ٥٢٣ شرح البيت ١١٥ - وللغاية القصى بقصواء شمرن
- ٥٢٣ قصة حلة النعمان بن المنذر
- ٥٢٥ شرح البيت ١١٦ - وعذراك للعدراء لا تكثرث بها
- ٥٢٥ شرح البيت ١١٧ - ولن تدعر الحمى بحماء نهدة
- ٥٢٨ شرح البيت ١١٨ - وما ذو قوى أم القواء بقاهر
- ٥٢٩ شرح البيت ١١٩ - ألم تهلك العزى بعزاء حزبها
- ٥٢٩ نبذة من توحيد السلف
- ٥٣٠ شرح البيت ١٢٠ - وكم من طخى زال الطخاء بودقها
- ٥٣١ الظل وأنواعه
- ٥٣٤ **باب ما يفتح فيقصر ويضم فيمد باختلاف المعنى**
- ٥٣٤ شرح البيت ١٢١ - حلى بحلاء ذى الدنيا فعزیزها
- ٥٣٥ شرح البيت ١٢٢ - روى وصدى لاقت صداء وللمدى

- ٥٣٦ شرح البيت ١٢٣ - وما ذو مكى او ذو مكاء بمهمل
- ٥٣٧ شرح البيت ١٢٤ - ويهيه النقى ذا العلم حاز نقاءه
- ٥٣٩ **باب ما يضم فيقصر ويمد باختلاف المعنى**
- ٥٣٩ شرح البيت ١٢٥ - نهى الأمر لاحظ والنهاء اعتبر به
- ٥٣٩ شرح البيت ١٢٦ - ولو كنت فى قرى فقراء أثبتن
- ٥٤٠ شرح البيت ١٢٧ - وصدق الرؤى زان الرؤء وللنهى
- ٥٤٠ مبحث فى الرؤى والحلم
- ٥٤٣ شرح البيت ١٢٨ - وكر الملى يفنى الملاء مع اللقى
- ٥٤٤ شرح البيت ١٢٩ - وجذب البرى يبرى البراء وفى الرغى
- ٥٤٦ شرح البيت ١٣٠ - ولو ذو الرشى اعتاض الرشاء اتقى لظى
- ٥٤٦ تحريم الرشوة
- ٥٥٠ **باب ما يكسر فيقصر ويضم فيمد باختلاف المعنى**
- ٥٥٠ شرح البيت ١٣١ - وكل بغى تردى اصطبر عن بغائها
- ٥٥٠ فضل الحج والعمرة
- ٥٥١ شرح البيت ١٣٢ - وفى ذى معى مثل المعاء احتسب ثنى
- ٥٥٢ شرح البيت ١٣٣ - وخذ من برى العلم البراء تيمناً
- ٥٥٢ الأقلام وحكم اتخاذها من الذهب
- ٥٥٤ الأبدال
- ٥٥٧ **باب ما يضم فيقصر ويكسر فيمد باختلاف المعنى**
- ٥٥٧ شرح البيت ١٣٤ - بمؤتاك للمثناء فق موثقا عرى
- ٥٥٨ شرح البيت ١٣٥ - ودع ذا القلى يجرى القلاء ومن لهى
- ٥٦٠ شرح البيت ١٣٦ - فكم فى العدى تحت العداء فتى له
- ٥٦١ قصة لرجل مع حية
- ٥٦٢ شرح البيت ١٣٧ - ثوى فى ربى ينفى الرياء انتيابها
- ٥٦٤ قصة مولد عيسى عليه السلام
- ٥٦٦ الأربعة الذين تكلموا فى المهد
- ٥٦٧ شرح البيت ١٣٨ - وذات العجى يحمى العجاء بها الألى
- ٥٦٨ الحث على العمل وإصلاح الأموال
- ٥٧٠ شرح البيت ١٣٩ - ويحمى المهى ضرب المهاء طلى العدى

- ٥٧١ وصف ما حل بالأندلس
- ٥٧٢ العدل وفضله
- ٥٧٣ كسرى يسأل عن كيفية قتال الصحابة رضوان الله عليهم
- ٥٧٧ شرح البيت ١٤٠ - وصون الخطى عن ذى الخطاء التزم وهب
- ٥٧٩ سبب تحريم الصور
- ٥٨٠ عدد الأنبياء والرسل
- ٥٨١ فضل المشى على الأقدام إلى المساجد والحج
- ٥٨٤ شرح البيت ١٤١ - وسام السهوى واحمل سهاء على سرى
- ٥٨٦ شرح البيت ١٤٢ - وحاذر طُبي عند الظباء فلن ترى
- ٥٨٧ فتاك العرب
- ٥٨٨ فتیان العرب الذين ماتوا عشقاً
- ٥٩١ شرح البيت ١٤٣ - ووال الهدى ترزق هداء كواعب
- ٥٩٣ **باب ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد والمعنى واحد**
- ٥٩٣ شرح البيت ١٤٤ - سيفنى الغمى والجدر بعد غمائه
- ٥٩٤ شرح البيت ١٤٥ - وينبذ سهم ذو غرى بغرائه
- ٥٩٥ شرح البيت ١٤٦ - ومأوى السحى فقد السحاء خرابه
- ٥٩٦ شرح البيت ١٤٧ - وذات الجرى لا تفتتن بجرائها
- ٥٩٧ التوفيق بين الأمر بالتجمل فى اللباس والأمر بالبداذة
- ٥٩٨ تحريم الكذب وأقسامه
- ٦٠٠ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
- ٦٠١ تحسين الهيئة
- ٦٠٢ النار تتعوذ من نفسها
- ٦٠٣ شرح البيت ١٤٨ - وكن قائلاً خيراً أو اصمت وذر حجا
- ٦٠٣ على طالب النجاة لنفسه ان لا يتكلم إلا بخير أو يصمت
- ٦٠٧ الغيبة ومضارها
- ٦١٠ النسيمة وأثرها السيئ
- ٦١٣ **باب ما يكسر فيقصر ويصمت فيمد والمعنى واحد**
- ٦١٣ شرح البيت ١٤٩ - سوى الحق فارفض والضلال سواؤه
- ٦١٥ شرح البيت ١٥٠ - وليس معييا ذو الصبا لصباه

- ٦١٦ شرح البيت ١٥٢ - وما ذو إننا إلا يائر أنائه
- ٦١٧ قصة تميم الدارى
- ٦١٨ شرح البيت ١٥٢ - وقبل إيا باد أيا مغيب
- ٦١٨ زواج النبى ﷺ بجويرية
- ٦٢١ **باب ما يكسر فيقصر ويمد وعكس ذلك والمعنى واحد**
- ٦٢١ شرح البيت ١٥٣ - وذو القرفصى عن قرفصاء محاسب
- ٦٢١ وصف ليوم الحساب
- ٦٢٣ **باب ما يضم فيقصر ويفتح ويمد والمعنى واحد**
- ٦٢٣ شرح البيت ١٥٤ - وإن كنت ذا رغبى فرغباءك فاصرفن
- ٦٢٤ شرح البيت ١٥٥ - ونعمى تلى نعماء فاشكر مشمرأ
- ٦٢٦ شرح البيت ١٥٦ - وبؤسى اخش فالبأساء حق مخالف
- ٦٢٧ المعصية تورث الذل
- ٦٢٨ شرح البيت ١٥٧ - وغماء أجل فالغماء من يجلها يفز
- ٦٣١ **باب ما يفتح فيقصر ويمد والمعنى واحد**
- ٦٣١ شرح البيت ١٥٨ - قوى وحزى فحوى وحلوى بها ونى
- ٦٣١ فوائد العسل
- ٦٣٣ شرح البيت ١٥٩ - ويزر قطنوى والكثيرى الجفا الرحى
- ٦٣٣ شرح البيت ١٦٠ - وعوى وعاشورى مناة مع الغرى
- ٦٣٥ **باب ما يكسر فيقصر ويمد والمعنى واحد**
- ٦٣٥ شرح البيت ١٦١ - زمكى صفا مشفى زمجى وهندبا
- ٦٣٦ **باب ما يضم فيقصر ويمد والمعنى واحد**
- ٦٣٦ شرح البيت ١٦٢ - صليمى وعزى والجلندى ومع.أولى
- ٦٣٦ قصة إسلام الطفيل بن عمرو
- ٦٣٨ خطاب النبى ﷺ إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى وحوار عمرو بن العاص معهما
- ٦٤٢ هجرة النبى ﷺ وأبى بكر واختباؤهما فى الغار
- ٦٤٤ قصة النبى داود ونسج العنكبوت عليه
- ٦٥٠ عبد المطلب يطلب من بناته أن يكيته شعراً، وشعر فى رثائه
- ٦٥٢ بكاء آدم حين أهبط من الجنة، وبكاء بعض أبنائه من الأنبياء والصالحين
- ٦٥٣ أقسام البكاء

- ٦٥٧ شرح البيت ١٦٣ - وذى تحفة المودود تمت محيطة
- ٦٥٧ سؤال النبى ﷺ جبريل عند احتضاره عن تحفته
- ٦٥٨ صلاة التسيح ومناقشة الأحاديث الواردة فيها
- ٦٥٩ هجاء الحطيئة الزبرقان وقصته مع عمر
- ٦٥٩ غضب عبد الملك على الحجاج ومراسلة بينهما
- ٦٦١ كلام الحسن بن الفضل بن العباس صبيًا عند بعض الخلفاء
- ٦٦١ كلام صبي عند عمر بن عبد العزيز
- ٦٦٢ سؤال هرقل معاوية عن العجائب ورد ابن عباس عليها بطلب من معاوية
- ٦٦٤ كلام الغضبان بن القبعثرى عند الحجاج وعفوه عنه لفصاحته بعد أن هم بقتله
- ٦٦٥ كلام محمد بن عبد الملك بن صالح عند المأمون
- ٦٦٧ كلام سويد بن علقمة بين يدى عبد الملك عن حروف الهجاء فى بدنه
- ٦٦٨ معن بن زائدة يعطى الكثير فى بيت شعر
- ٦٦٩ عطاء يزيد بن المهلب لعقيل بن أبى طالب، وقصته مع الحجاج وحبسه له
- ٦٧٠ عطاء المتوكل مروان بن الجموح، وأخبار بعض الأجواد
- ما قاله بعض الشعراء فى الغوص على المعانى: المتنبى - أبو العتاهية - ابن بسام
- ٦٧٥ البغدادى
- ٦٧٨ شرح البيت ١٦٤ - ولا بد من حمد الإله فإنه
- ٦٧٩ وجوب الحمد لله والثناء - التكبير وفضله
- ٦٨١ شرح البيت ١٦٥ - ونخير صلاة أستديم على الذى
- ٦٨٢ فضل الصلاة على النبى ﷺ ومعناها
- ٦٨٦ شرح البيت ١٦٦ - وأزكى سلام أجتنيه لآله
- ٦٨٧ النهى عن إطراء النبى ﷺ والمغلاة فى على
- ٦٨٨ آل النبى ﷺ
- ٦٨٩ أصحاب النبى ﷺ وفضلهم
- ٦٩١ تأويل الرؤيا فى فضل الصحابة الكرام
- ٦٩٥ شرح البيت ١٦٧ - وسل لى عفواً ونيل جوارهم
- ٦٩٦ فضل الدعاء لجميع المسلمين
- ٦٩٩ فهرس الموضوعات

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

